Princeton University Library
32101 065697813

Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

DUE

21 ~~
Robertson, William
Itḥāf al-mulūk
(RECAP)
(Ar A)
DD 179
R612
1842
175

Robatson

هذا

كتاب اتحاف الملوك الالبا * بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا * وهو مقدمة لتاريخ الامبراطور شرلكان * الذى كان عصره غرة فى جبهة الزمان *

ابرزه من اللغة الفرنساوية * ونظمه
فى سلك التواريخ العربية * راجى عفو الودود *
خليفة بن محمود * تخرج بمدرسة الالسن *
التى لا زال تعلم اللغات بها يحسن *
وهو الآن رئيس فرقة ترجمة
الكتب الادبية * التى تبرز من
حيز الفرنساوية الى العربية *
احسن الله عاقبته * وجعل
الخير خاتمته * والمسلمين
امين

تم

1-5-70-19451

سابقة

من المعلوم ان ديار الاسلام كانت للعلم والحكم منبعا * وللتمدن والرفاهية مفيضا * فقل ان مضت برهة من غير ان تظهر مؤلفات جديدة * وتنشر في العلوم تحقيقات مفيدة * جالت عقول مؤلفيها في بحور المعانى كل الجولان * فاتت باعلا واغلا من قلائد الجمان * اذ كانت القرائح وتستنشن الاغارات المتوالية على ثغور المعانى * فتتولى من منثورها على القاصى والدانى * وتفتح فيها كل يوم فتوحا جديدا * وتجعل امراءها عبيدا * لاسيما مدن مصر فكانت في زمن الخلفاء وقبل زمنهم رئيسة الميدان * وقائدة كتائب الفرسان * تخرج بها في غابر الازمان جم غفير من الفلاسفة الاعيان * الذين اشتهرت بهم بلاد اليونان * وكان يرجع اليها الناس في الحديث والقديم من سائر الاقطار والبلدان * ويقصدها الطلاب من اقصى البقاع والاوطان * ليرصدوا بها كواكب المعارف في سموات عقول تتعالى * ويقتبسوها من افلاك اذهان تتلالا * فكم كان بها جاهلية واسلاما من هيكل عن ساطع الحكمة اسفر * ومن معهد بالعلوم العقلية والنقلية ازهر * مدرسوه علماء عظام * وادباء فخام * يروون الفصاحة عن قس عكاظ وسحبان وائل * ويسندون احاديث المعارف معنعنة الى الاوائل * فطالما كانت بحور المعارف تصب متلاطم امواجها في شفاه فضلاء لا تعد ولا تحصى * وافواه نجباء لا تستقرى ولا تستقصى * فترى رياض العلوم يانعة الازهار * دانية الثمار تجرى من تحتها الانهار * واشجارها مورقة الاغصان * مرونقة الافنان * وكان هذا باعانة الخلفاء العادلين * واغاثة كبار الملوك والسلاطين * فلما طوى الدهر على التدريج هؤلاء الاعلام فترت الهمم * وعادت العلوم بديار الاسلام كالرمم * اذ مكث حقبة وهو لا يسمح الا بحكام قليلى البضاعة * قصار الباع في الادارة والبراعة * فكانت مدة حكمهم ايام تحكير واضطراب * وتغير وانقلاب * وتدمير اجيال وطرح رقاب * ومظالم سدت كل باب * فابدت

المعارف من عندنا* لتتجمع غيار مضنا* واتخذت بلاد اوروبا وطنا*
وجعلتها لها عطنا* وتكاملت بدورها فى سمائها* وفاح شذاها فى ارجائها*
حتى صار الافرنج يفتخرون علينا بما اقتبسوه فى الحقيقة منا* ووروده
بالواسطة عنا* وظن من ظن ان ما مضى لا يعود* وان الزمان بمثل العقول
السالفة والملوك السابقين لا يجود* فبحسب الظن العام هكذا اذا الايام قد اقبلت
بابتسام بعد العبوس والادبار* تكذيبا لمن ظن فيئس كما يئس من
اصحاب القبور الكفار* وحيث اسعفنا الدهر* وساعد العصر بالنصر* اتاح
البارى لبلاد الاسلام امراء نجباء* وسلاطين يتنافسون فى الفخر مع الملوك
الاولين* اسسوا فاتقنوا* وساسوا فاحسنوا* وان لم يسعفهم الحظ فى كل
حين* فاتاح لمصر من اجمع الناس على حسن حزمه وكياسته* وقوة عزمه
ورياسته* جمع المحاسن فاوعى* ولاحياء التمدن بادر وسعى* كيف لا وهو
الملقب عند اهل اوروبا بمعيد تمدن الاسلام* ومبيد تمكن الاوهام* اما انه
قد ازال بيأسه وهمته* وسطوته وصولته* جميع العوائق التى كانت بها
الاذهان فى اسر وكبل* وكانت قيدا لتقدم العقل* فاحيى ما اماته الزمان*
وجدد ما اندثر وصار كخط زبور فى مصاحف رهبان* ادرك من مبدء امره
مقاصد غريبة* ومآرب عجيبة* حتى فتح المسالك والطرائق* والمفازات
والشواهق* لتمدن المشرق الذى كان هجير منشأه ومنبعه* وسلامهده
ومضجعه* لكى يرجع بالثانى الى اصل غرسه* ومسقط رأسه* فجلب من
البلاد القاصية* الى مصر القاهرة* رجالا مشهورين* فى العلوم ممتازين*
وبعث الى البلاد الافرنجية* عدة رسالات من الشبان المصريه* فاتوا
الى وطنهم بكل فن غريب* من بعيد وقريب* فالعلوم الآن عادت بعد
ان بادت* وبانت بعد ان بانت* لما انه لا بد لكل غريب ان يتشوق الى وطنه*
واهله وسكنه* فالنوم لا يهوى سوى المقل* ولا يتسلى عنها بيدل*
فقد اينعت الآن فى بلاد مصر رياض العلوم والعرفان* وغردت بلابلها على
زاهى الاغصان* حيث جدد فيها الداورى الاكرم مدارس اشرقت منها

الشموس * وزهت فى حدائقها العنادل على ايك الطروس * فتخرج منها
الشاعر والناثر * والكاتب الماهر * والزراع والطبيب * والمهندس اللبيب *
منهم من اتحف بالرتب السنية * ورقى بالمعارف المراقى العلية * فهو الآن
خوجة بالمدارس يلقى لغيره ما حصله * ومارسه وزاوله * والفرع يقفو الاصل
فان شاء الله يزيد نفار الامصار * وتكون عامرة الاقطار * حفظ الله ولى النعم
وسلالته الزكية * وعشيرته الداورية * ولاسيما منها ابراهيم * اب رحيم * صاحب
السيف والتدبير * والمجد الاثير * ابدى عزم اسكندر * فهو حرى ان يلقب
بابراهيم الاكبر * ما شرع الا وظفر * وما توجه الا ونصر * وما شن الغارة
حينا * الا ونودى انا فتحنا لك فتحا مبينا * ولاسيما منها الماهر العباس * اذا تلاطمت
الناس بالناس * ولاسيما سعيد السعد * اذا حل بشانئ من بعد * حسينهم
حسن الخصال * وحلم حليمهم منيع المنال * وفخر محمد على * وطالع سعده
جلى * والكل يتنافسون فى معالى الفضل * ومعالم العدل

ولما كانت مدرسة الالسن تدرس بها كليات علوم عربية وافرنجية وكنت
قد بذلت فيها الهمة * وكان لى فى التحصيل رغبة جمة * حويت ما قرئ بتلك
المدرسة من معقول وآداب * ومنقول عما تقربه الباب الطلاب * وحصلت
بها من عروض وميزان * ومعان وبيان * ما تتحلى به ابكار الاذهان * حتى
استوجبت الثناء الجميل من خوجات تلك المدرسة الاعلام * من عرب
واعجام * وقلدت بوظيفة خوجة فى اللغة الفرنساوية * بتلك المدرسة البهية *
وامرت بترجمة عدة كتب فى علم الحقوق الطبيعية * وفى العلوم الجغرافية
فترجمتها وترجمت كذلك تأليفا عزيزا * وان كان وجيزا * سميته تنوير
المشرق * بعلم المنطق * طبع ونشر * وبالقبول ظفر * وترجمت ايضا من
العربية الى التركية * ثم امرت بترجمة تاريخ ايمبراطور انخفضت له الرقاب
فى عصره * واستقل من بين ملوك الافرنج فى امره * وهو الايمبراطور شرلكان *
شاع امره فى كل مكان * حتى ان الوقائع الكبيرة التى حصلت مدة حكمه لم تزل
مؤثرة فى حالة اوروبا الى الآن

ولاشك ان فن الترجمة جبل صعب المرتقى * وسلوك شعابه اشد من يوم اللقا * يرى قلم البليغ فيه معزلا * وذو الرمح فى ميدانه اعزلا * ولو كان من يروى قلمه عن معجزات البيان * ورايات التبيان * يرى نفسه قليل البضاعة * عاطل البراعة * هيهات ان اخذ يستخرج من هذا الفن دره المكنون * من غير ان يكون بصفقة مغبون * وقد اعترف بذلك من العلماء الماهرين من تمرن على التآليف * وانواع التصانيف * واحاط علمه بالدانى والقاصى * والطائع والعاصى * (راجع خطبة المؤلف سوار الذى ترجم تاريخ الامبراطور شرلكان من اصله وهو اللغة الانكليزية الى اللغة الفرنساوية)

فلما عانيت فن الترجمة بهذه النسبة لاسيما وتاريخ الامبراطور شرلكان من اصعب ما ترجم فى السلوك * من تواريخ الدول والملوك * صرت احجم واقدم * ثم اتقهقر واحجم * لان من ترجموه الى اللغات المختلفة كانوا ابطالا شهد لهم بالذكا والالمعية * وافصحت بين البرية * ومع ذلك قد استصعبوه * و بالدقة وصفوه * مع ان بين ثم مشابهة لبعضها والحروف واحدة فاذا عثر من ترجم من الانكليزية مثلا الى الفرنساوية على كلمة لم يجد لها مقابلا فى لغته * يكتبها على اصلها فى ترجمته * وتقرؤ وتفهم من غير صعوبة ولكن غرنى الرجاء والامل * وامنت الخطاء والزلل * حيث كان لى ثم بطل ارجع اليه * ومنه يد تحرير فى هذا الشان اعول عليه * كيف لا وهو الحبيب اللبيب * الالمعى الاريب * من هواطل المشكلات قريب مجيب * رفاعة افندى رافع * لازال به طهور المنافع * تمكن من حل مشكل تعسر * وحل فوق الفرقدين * لاسيما وقد تخرجت عليه ونقلت عنه فى عرفانه وادبه * وشربت من مشربه *

ان السلاح جميع الناس تحمله * وليس كل ذوات المخلب السبع

ولم تعفنى صعوبة هذا التاريخ * المشتمل على عبارات اشد من يوم المريخ * خصوصا مقدمته التى سميتها اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا

وكان القابض زمام المدارس وقت ان سودت ترجمة هذا الكتاب هو المرحوم مختار بك طواه الدهر * ولم يبق الا ذكره غرة في جبين العصر * كان محب العلم واصحابه * وللفضل وارباباه * وكان يعرف قيمة الكتب الغربية والغريبة فبادر الى قبوله * واثنى عليه في قوله * وقدمه الى الاعتاب الكريمة فامر بطبعه * لعموم نفعه * ووعدت بان اغترف من بحور ولي النعم العظام الجليل * وابرآه الجميل * الا انه ثبت به المنية في اثناء ذلك * واخذ اليأس يسدد علينا كل المسالك * لكن بينما كانت اشعة الرجاء تودع الشمس * وتنفصل عنه كما انفصل الآن من امس * دعى الى ادارة المدارس من هو ادرى بالرياسة * واحرى بالكياسة * كيف لا وهو حضرة ادهم بك جامع مخدرات حميد الخصال * وتاج الفضل والكمال * فاظهر علانية الشرف * حتى قيل فاق الخلف السلف * فحقق لنا المظنون * والغائب عن العيون

وقد ترجم هذا الكتاب الى اعظم اللغات الافرنجية * كالنمساوية والفرنساوية * وكان ذلك ناشئا عن اهميته * وعلو قيمته * ولا شك ان اللغة العربية * لاحرى * اذ هي ام اللغات الكبرى * خصوصا وكنت ارغب الرغبة التامة في تعريبه لاني اعلم اني لم اسبق بترجمة مثله كيف وقد جمع بين غرضين مهمين احدهما تاريخ الامبراطور شرلكان والثاني كشف القناع عن الحوادث العجيبة والانقلابات الجسيمة التي حصلت في قسم عظيم من اقسام الدنيا اعني قسم اوروبا وكان في اقطع درجات التبربر والتوحش * ثم صار في اكمل درجات الرفاهية والتمدن * واسباب ذلك تقتبس من انوار الانصاف فغصت في لجج بحوره * لصيد درر غروره * ولعل ديارنا ان اطلعت عليه * ووقفت على اسرار حقيقة ما فيه * تتعلق بالاسباب التي تمسكت بها البلدان الاخرى فاخرجتها من حيز الغفلة * وتبادر الى سلوك سبل الاصلاح والتقدم لتعود كما كانت اعظم دولة * لان التواريخ انما هي موعظة للعاقل * وهدية من الجيل الماضي للقابل

* هذا ومؤلف التاريخ المذكور هو روبرتسون الانكليزي شهير بين الملل *

مشير لذى العمل * كان ذا الف ذوق بهيج كما يرغب فيه النفوس * وتتفتح به ازهار البراعة فى رياض الطروس * وتنجلى به عندهم آفاق المعارف * وتنكشف شموس العوارف * تروى انواره حياض العقول * وتجلو اضواؤه المحجوب والمجهول * فلما الف تاريخ الامبراطور شرلكان المذكور بمقدمته واشتهر ما بين البلاد * سنة (١٧٦٩) من الميلاد * فازيين الكتب التاريخية بالنصر * واثنى عليه عندهم علماء العصر * فكتب الشهير والتير الى المؤلف روبرتسون وكان قد ارسل اليه نسخة من هذا التاريخ تقريظا وهو (قد وصلنى منذ اربعة ايام هديتكم النفيسة التى شرفتنى بوصولها الى * وورودها على * وكنت وقتئذ احسن قصد بصرى بسبب رمد شديدة حالة بى فلما وقفت على معانيها * وفهمت ما فيها * حل بى الفرح * وزال عن قلبى الترح * وانصرفت عنى الهموم * وايقنت انك والمؤرخ هوم * حريان حقيقة بتأليف التاريخ وانت فصيح وبذلك جدير * على الاغراض وعالم نحرير * وهانا جعلت نفسى فى سلك اهالى اوروبا التابعة مايجب لك من المدح والاكرام * والتبجيل والاحترام تمهى والتير)

فانظر كيف كتب له هذا الفلسفى الشهير الذى عاب فى زمنه على المتقدمين والمتأخرين حتى ترى مؤلفاته مشحونة بالتبكيت على سائر الامم سوآء كانوا متمدنين او متبربرين وهو الذى حث بلاد اوروبا بامرها من ربقة الاستعباد وانقذها من اعماق الجهالات * واخرجها من آفاق الضلالات

وقد تحف روبرتسون ايضا بعلامات الشرف والتبجيل * من كل فريق وقبيل * حين الف هذا الكتاب حتى ان عدة من الاكدميات (جمعيات كبار ارباب العلوم والفنون) اعدت مجالسه * ورحبت به * لتجعله من زمرة اعضائها * وتجعله فردا بين علمائها * وأتاه ايضا وزير دولة الموسقو بمنشور من طرف اكدمية تخت هذه الدولة يشهد له بالمجد والفضل * وزكاة الاصل * وارسل اليه هذا الوزير ايضا بعلبة مرصعة بالجواهر من طرف الامبراطورة كاترينة ملكة الموسقو وكان امرها سابق بمعرفة قيمة جميع انواع الكتب

والما ألف مما قرأت تاريخ شرلكان المذكور اضطربت ومالت * ومن العجب قالت ان هذا التاريخ خير طريق * وفى الاسفار رفيق * فلا اسام ابدا من قراءته فيه ولا التحول * لاسيما الجزء الاول (الجزء الاول هو تعرف الملوك الالمان)

هذا ولا يخفى ان مؤلف كتابنا قد شنع على الدولة العثمانية ووصفها بالظلم والجور وعدم الانتظام كما هو مبوب له بصحيفة (١٧٥) من اتحاف الملوك الالبا وبرهن على ذلك فى آخر عقد جمان التوضيح مع انه خلى الاغراض لا يؤسس رأيه على مجرد قول العامة لاسيما وقد قال بصحيفة (٣٤٤) فى عقد جمان التوضيح حين تكلم على قوانين فرانسا (وهذا الامر انما هو بحسب ما ظهر لى ولست بجازم به كما هى عادتى اذا عرضت للكلام على قوانين الملل الاجنبية) فلا اعلم ما الداعى له الى ذم الدولة العثمانية والجزم بانها خالية كما يقول عن الانتظام وزينة الترتيب والاحكام * مع ان هذا غير الحق حيث خالف فيه علماء ماهرون من ابناء ملته النصرانية وثبت على قول هؤلاء العلماء وحررت بعض صحيفات ناشئة عن عين الحقيقة وضمنتها آخر اتحاف الملوك الالبا

وحيث ان الكتاب فيه اسماء رجال او بلاد او غيرها تصعب قراءتها مع ضبطه استحسنت لاجل بيانها ان ارتب الصعب من هذه الاسماء على حروف الهجا فى معجم مخصوص جعلته خاتمة

والمأمول ممن قرأ به ان يضرب صفحا عما يظهر له من القصور فى ترجمتى لان اللغة العربية بمعزل عن اللغات الافرنجية فيلزم لى معاناة اين * ومكابدة مشاق من حين الى حين * لاجل ان آتى بمقابل الفاظ يصعب وجود مقابل لها فى العربية يكون مطابقا لمعناها * ومؤديا لجميع مقاصدها و فحواها * حتى انه ربما ورد على بعض الفاظ لم اجد مناسبا لها بالكلية فابقيتها الاصلى ذكرتها * و بجملة اعتراضية فسرتها * ومع ذلك فقد حاولت مجاراة عبارات الاصل كل المحاولة * وزاولتها كل المزاولة * ولذا كانت بعض العبارات فى ترجمتى على نسق يبعد من بعض الوجوه عن قالب الفصاحة العربية

ويقرب

ويقرب من قوالب العبارات الاعجمية * لان المترجم يلزمه ان يكون اسيرا
للاصل في تركيبه وتنظيمه وترتيبه * والمرء ان لم يقف اثر اصله * قل ان ينجح
في فعله * وربما راعيت ادنى ملايمة بين التشبيهات * واوجه الاستعارات *
ولكن عدلت عن كل تشبيه في الاصل يكون اعجميا محضا * فبدلت بعضا
وحذفت بعضا * فجاء هذا الكتاب بعون الله خاليا عما يشينه * مشتملا على
ما يزينه * رائق رياضه وحياضه * ونخاله وغياضه * يفتخر بين الكتب
المترجمة في هذا الشان كالعروس * وافلاق ابي ملبوس * يبارز في ميدان
كتب التاريخ القديم والجديد * بقلب صنديد * يحتاج اليه من اراد الرشد
في المسالك * لئلا يضل في ليل التاريخ الحالك * وهو ايضا مهم لمن اراد معرفة
ادارة الممالك والقوانين السياسية اصولا وفروعا * يتخذه اهل الفضل في هذا
الشان دروعا * جمع الكثير في القليل بطريق عذب * لا تسأم منه نفس ولا يمجه
قلب * بل هو دواء اللب كل لبيب عروف * ولوذعي معروف * جمع فوائد كبيرة *
وفرائد كثيرة * جدير بامعان النظر * وقدح الفكر * ممن اراد الاطلاع على
طروسه * او رام رشف كؤوسه * لانه دقيق في اصله * فربما يحتاج لوقف
عند التوقف في حله * وبالجملة ففيه غاية الارب * لكل فاضل كامل الادب *
وعليه في كتب التاريخ الاعتماد * فالارتياد الارتياد * لا سيما ان عرفت
بديع دقائقه * ووقفت على كنوز حقائقه * شهدت بما قلت * وعليه عولت *
وها هو الآن قادم على محضر مشحون بالخاص والعام * يشهد بدل
الامام لف امام * واعني انه عرضة لان يطلع عليه الفاضل والفاهم * والكامل
والبالغ * وعند الامتحان * يكرم المرء او يهان

واذكر لنا الآن خطبة المؤلف لكي تتم التتمة منه * فلا نحول عنه * قال
اذا طالع الانسان تاريخ بلاده لا يجد به زمنا الا ورغب فيه ولو من بعض
الوجوه لان جميع الوقائع التي تفهمه شيأ في شان تقدم وطنه وشرائعه
وقوانينه واخلاقه تستميله كل الميل وتكون مطمح نظره جديرة بقدح فكره *
بل كذلك ما هو غير مهم من تلك الوقائع يثير رغبته كما هي عادة البشر * واما ان

اخذ يطالع تاريخ الملل الاجنبية فتترهمته وتقل رغبته خصوصا وقد كثرت كتب التاريخ فى بلاد اوروبا واتسعت دائرة تأليفها بسبب البراعة والتقدم الذى حصل لكافة الناس فى المعارف منذ قرنين وبسبب معرفة فن الطبع واسباب اخرى معلومة بحيث ان حياة الانسان لقصرها لا تكفى لمطالعة تلك الكتب ولا قراءتها بمجرد قراءة

وبالنظر لذلك ينبغى ان الناس المكلفين بادارة الدواوين والمصالح العامة بل ومن هم متفرغون لهذا الشان وللبحث عنه بالخصوص يقتصرون على ان يعرفوا بوجه الاجمال الوقائع البعيدة الاجنبية ويكتفون من معرفة التاريخ بمطالعة تاريخ الزمن الذى التأمت فيه ممالك اوروبا ببعضها وصارت مشروعات كل دولة تسرى فى بقية الدول فتؤثر فى سياساتها وادارة مصالحها وبناء على ذلك يلزم تعيين الحدود التى تبين تلك الازمان عن بعضها فاقول انه قد سبق زمن لم يكن فيه بين الممالك سوى ارتباطات هينة * ومداخلات غير بينة * حتى ان كل مملكة منها كان لها تاريخ يخصوصها ثم حصل عقب هذا الزمن ان صارت كل امة من امم اوروبا ترغب فى وقائع من بجوارها من الملل العظيمة وهذا الزمن الاخير هو الذى يلزم بيانه

ولهذا القصد الاخير شرعت فى تأليف تاريخ الامبراطور شرلكان لما ان فى مدة حكمه تجدد بين ممالك اوروبا مذهب سياسى متسع الدائرة بحيث انه من مدة حكمه اخذت كل دولة منزلة معلومة بين الدول لم تزل تشغلها من ذلك الوقت مع شديد ثبات وكبير حصول زيادة عما يتبادر الى المطلع على الغلبات والتغيرات المهولة الناشئة عن الفتن الكثيرة الداخلية والحروب الكثيرة الخارجية التى حصلت فى ذلك الوقت * فترى الحوادث العظيمة التى حصلت اذ ذاك لم تنقطع الى الآن مدخليتها فى حالة الممالك الافرنجية حتى ان الاصول السياسية التى ترتبت عليها لم تزل مؤثرة تأثيرا عظيما فى حالتنا الراهنة وترتب على تلك الحوادث ايضا اصول كالميزان للتعادل بين الممالك وبعضها ولم تزل هذه الاصول تؤثر فى المصالح والاعمال السياسية التى تعقد

الآن فى دواوين اوروبا

وعلى ذلك يمكن ان يقال ان القرن الذى حكم فيه الامبراطور شرلكان هو اول زمن حسن به شأن السياسة فى بلاد اوروبا واخذ بها مسلكا جديدا ولما اقتضى هذا الكتاب اهتممت بان جعلته مقدمة لتاريخ اوروبا مدة العصر الذى اعقب حكومة شرلكان ولما رأيت ان مؤلفى السير لم يذكروا لهذا الامبراطور فى تأليفهم سوى افعاله وصفاته الذاتية ورأيت ان جميع المؤرخين لم يذكروا من وقائعه الا ما شاعت تأثيرات وقتية فى بلاد مخصوصة تجنبت ذلك وعزمت على ان لا اذكر فى تاريخى هذا من حوادث حكومة شرلكان سوى الوقائع الكبيرة التى عم تأثيرها بين البلدان حتى انها لم تزل الى الآن مؤثرة فى حالة اوروبا

ولما كنت اعلم ان من قرأ تاريخ شرلكان لا يستفيد منه فائدة تامة الا اذا كان له المام بالحالة التى كانت عليها بلاد اوروبا قبل حكم هذا الامبراطور جعلت له مقدمة تمهد لقارئه طريقا يسلكه فى هذا الغرض وذكرت فى تلك المقدمة مع الايضاح جميع الوقائع والحوادث التى كانت سببا فى التغيرات المتوالية التى اعترت حالة اوروبا السياسية من منذ انقراض الدولة الرومانية الى ابتداء القرن السادس عشر وسميتها تقدم الجمعيات ببلاد اوروبا (قد داعيت هذا الوضع فسميتها انحطاط الملوك الاسلامية بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا) وذلك لانى اودعت فيها تقدمات الجمعية الافرنجية وتحسين شأنها فيما يخص تدبير البلاد الداخلى وشرائعها واخلاقها وما يخص القوى العسكرية الملية اللازمة لتجهيز الاعمال والمشروعات الخارجية وبينت فى تلك المقدمة ايضا القوانين والاصول السياسية التى كانت بالدول الكبيرة من اوروبا فى اوائل حكم شرلكان

وقد أدى بى هذا الغرض الاخير الى مباحث جدلية عديدة تكاد ان تكون من خصوصيات الاصولى او الجدلى لا من خصوصيات المؤرخ فجعلت هذه المباحث قسما مستقلا برأسه ذيلت به المجلد الاول من تاريخ شرلكان

وسميته البراهين والتوضيح (راعيت هذه التسمية سميت تلك المباحث عقد جمان التوضيح * بالبرهان الصحيح) وظن ان بعض الناس لا يعتنى بهذه المباحث ولا يلتفت اليها حق الالتفات ولكن لاشك انه يوجد اناس اخرون يعتنون بها كل الاعتناء بل ويعدون انها الجزء الاهم من كتابنا هذا

وذلك لانى اتيت فى تلك المباحث بمأخذ الوقائع التى ذكرتها فى تاريخى هذا وذكرت عبارات المؤلفين الذين وثقت بهم واعتمدت عليهم اوضح عباراتهم ودققت العناية ولوفى الاشياء الدنية بحيث انه اذا اصح للانسان العذر بكونه قد قرأ كتبا جسيمة * واطلع على تآليف عظيمة * اقول ان من تأمل فى المؤلفات العديدة التى نقلت عنها يتراآى له انى اتباهى وافتخر بكثرتها لاسيما وهى مشتملة على كتب كثيرة ما كان يخطر ببالى ان انظر فى وركانها * ولا اشغل فكرى بالتأمل فى صفحاتها * لولا ان حملنى على ذلك اثبات الوقائع التى ذكرتها فى تأليفى هذا والبحث عن تحقيق مسائله مع غاية الاهتمام * ليأتى على وفق المرام

وحيث الجأتنى تلك المباحث غالبا الى ان اسلك طرقا غير الجادة قل من يطرقها من المصنفين اضطررت الى ان احيل قارئ كتابى على المؤلفين الذين تبعتهم ونسجت على منوالهم وقد ظهر لى ان هذه الطرق لازمة كل اللزوم لتأكيد الوقائع التى بنيت عليها براهينى ولارشاد المؤلفين الذين يريدون ان يقتدوا بى فى طريقى التى سلكتها فيسهل عليهم البحث عما يحتاجون اليه من غير ان يخيب سعيهم * ولا يكون سدى جهدهم

ولاشك ان من قرأ كتابى هذا وكان فطنا ذا خبرة ودراية يرى انى قد تركت سرا كان من اللازم ذكره ولذلك رأيت انه يجب على بيان سبب ترك هذا الامر المهم فاقول انى لم اتعرض لذكر فتح بلاد مكسيك وبلاد پرو ولا لذكر استيطان القبائل الاسپانيولية بالاراضى القارية من امريكة وبجزائرها لانى كنت عزمت اولا على ان اطنب كثيرا فى شرح تلك الوقائع الكبيرة

وبعد امعان النظر رأيت ان استكشاف امريكة وتجاراتها واوسد خليتها في سياسات اوروبا من الاشياء المهمة الجسيمة بحيث لا يصح ان اتكلم عليها بوجه موجز اذ ليس لذلك فائدة كافية فلا تتشوق اليه النفس بهذه المثابة * واذا تكلمت على هذا الامر كما ينبغي ووفيت به حق التوفية اوقعني في الاقتضاب * وجرني الى اسهاب واطناب لا يليق ذكره بهذا المختصر فابقيت ذلك لاذكره في تاريخ مخصوص سأشرع في تأليفه ان حظى تاريخ شرلكان هذا بالقبول * وفاز ببلوغ المأمول

ولكن لا يخفى ان هذه الاشياء التي حذفتها من تاريخ شرلكان انما هي بمعزل من الغرض الاصلي * ومع ان مواد هذا التاريخ ضيقة الطن ان من تأمل فيه وعرف موضوعه كما ينبغي آنفا يجده واسعا جدا بحيث يعد من اعظم المشروعات الصعبة ولطالما كانت تحدثني نفسي بان هذا امر خطب يصعب على مثلي ولكن كنت واثقا بانه يكون له نفع كبير وفضل شهير فصممت على تأليفه ولم التفت لعائق ورد على البال * وقام ضد كل امر تزينه لي الآمال * وهو الآن داخل في محكمة العموم * يطلع عليه الامام والمأموم * والامتحان محك الانسان * وها انا لما يحكم به منتظر * وفي امري متحير * ملازم الادب والصمت * لا انفك عن ضمير السكت * فاذا حكم بشئ لا اسأل عنه * ولا اتفوه بكلمة عقبه انتهى

ونذكر هنا ديباجة الاديب اللبيب * والنجيب الاريب * موار الفرنساوي الذي ترجم هذا التاريخ من اللغة الانكليزية الى اللغة الفرنساوية ونقلته من ترجمته الى العربية ليسوغ لي بذلك الاعتذار حيث اعتذر هذا العالم بصعوبة فن الترجمة خصوصا في مثل هذا الكتاب مع انه قد فاز بمنصب كاتب سر الاكدمية اي ديوان العلماء وهو منصب لا يرقى اليه الا كل شهير بالاعتبار جدير * صار فن التأليف من ضرورياته * والتصنيف من عاداته * قال

لاشك ان زمن حكم الامبراطور شرلكان هو اعظم زمن ذكر في تواريخ اوروبا من منذ انقراض جمهورية الرومان ولذا كان لا يقوم بواجبه الا مؤلف

ما يجب * ذهنه في مادة التاريخ ثاقب * متولي امره الشهير روبرتسون الانكليزي واي انسان بذلك منه احرى * وبهذا المقصد ادرى * ولكن كان يلزم لمترجم انجب مني وابرع * وامهر واسرع *

وكثيرما دعاني روبرتسون بنفسه الى ترجمة كتابه واعزاني ونوّه بي في مثل هذا الامر المهم فلبيت دعوته ولكن تأسفت على انه لم يكن لي اقتدار على ان اوفي بقصده بوجه يكون اهلا لمثل كتابه * وجديرا باطلاع من قرأ فيه من طلابه

ولكن اظن اني قد اتيت في ترجمتي بمعنى الاصل من غير تغيير ولا تبديل * وحافظت على سلوك سبيل الاستقامة والانصاف وعدم التصرف في كلام كتاب المؤلف الذي هو في تأليفه يمتاز بهذه الصفات اكثر من غيرها ولكن لم يمكني ان آتي في العبارة بالرقة والتحسين وغير ذلك مما يباهي به الانكليز في تآليفهم * ولا يخفى ان التأليف باللغة الفرنساوية صعب جدا لاسيما اذا الف لانسان بهذه اللغة ما كان حسن المطلب * عكر المشرب * لا يجذب القلب ثم اذا ترجم انسان شذرة من كتب الفصاحة والآداب * او ترجم شيأ من الاشعار التي بصورتها تروق اولي الالباب * ربما يزري به ما اودعه المصنف الاصلي من التصورات المستملحة لا تعقب تقصير المترجم كتابته ويكون مطلق التصرف في نثره او شعره * حرا في عباراته لا اسير الغيره * فيغير عنها رونقها الاصلي او رونقا آخر طريف * وتزيين بديع لطيف * بخلاف ما اذا ترجم تأليفا من المطولات * مقصورا على حكايات * لا خيال فيها * ولا امعان في طي لمعانيها * فهو مجبور على ان ينسج على منوال الاصل في التصورات والمعاني * بل وان يرسم صورة التركيب والمباني * الى ان قال

وكثير من المؤلفين المسلم اذا الفوا احسنوا * واذا ترجموا اخطأوا * منهم فولتر بريوت فانه كان في تأليفه سهل التركيب بليغ الكلام فصيح العبارة وقد ادخلت في بعض تراجمه تراكيب غير صحيحة وترى كوكب بيانه افل * وشمس براعته احتجب * ولو نظر انسان الى ما اوردته في شأن صعوبة فن الترجمة فهم

ان

ان مجرد القصد بذلك انما هو ان احذف عن نفسي اللوم الذي يوجهه الى من
قرأ في ترجمتي وعثر فيها على ما ارتكبته المرار العديدة من السهو بل ومن الاغلاط
والخطاء الكبير نعم ان هذا مقصود لي لكن الحق ان الغرض الاصلي من ذلك
هو اني خشيت ان من قرأ في ترجمتي ينسب الى المؤلف رو رتسوت ما هو مجرد
قصور وتجري ولا حاجة الى الاطناب في مدحي لهذا الكتاب المستطاب
فان اعظم شيء يمكنني مدحه به هو اني ترجمته ولكن يجب علي ان لا اضرب
صفحا عن تخصيص المقدمة بالمدح مع دخولها في العموم حيث ظهر لي
انها من اعظم المؤلفات النفيسة التي ظهرت في عصرنا هذا اذ كشفت
لنا القناع في امر مجهول الحال * يغرق في لجته عقول
الرجال وفيه لا تخفى الجمال * ولا يمكن لكتاب
آخر ان يفيدنا اكثر منه فاقول انه لا احد
من الفلاسفة المحققين يستعمل
ما كتبه في امر احسن من
ذلك * او انفع مما هنالك

انتهى

تم

(فهرست)

كتاب اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى اوربا — صحيفه

خطبة الكتاب ٢

ديباجة معينة على قرآءة التاريخ ٣

القسم الاول فى ذكر التقدم الذى حصل فى اوربا بالنسبة الى الحكومة الداخلية والقوانين والآداب ١٦

مطلب تأثيرات قوة الرومانيين فى حالة اوربا ١٧

مطلب الائتلاف الذى ترتب على فتوحات الرومانيين ١٧

مطلب المنافع التى ترتبت على ذلك ١٧

مطلب النتائج الرديئة التى نشأت من الدولة الرومانية ١٨

مطلب اغارة الامم الخشنية ١٨

مطلب حالة البلاد التى خرج منها هؤلاء الامم المتبربرون ١٩

مطلب اسباب الاغارة الاولى ٢٠

مطلب عدم اقامتهم فى البلاد التى فتحوها ٢٠

مطلب الاسباب التى بها ضعفت المملكة الرومانية ٢١

مطلب الاحوال التى اعانت الامم المتبربرة على الفوز والنجاح ٢٢

مطلب التخريب الصادر من الامم الخشنية فى بلاد اوربا ٢٤

مطلب التغيرات العمومية التى حصلت فى اوربا عن فتوحات هذه الامم الخشنية ٢٥

مطلب استنتاج حكومات اوربا من هذا الاختلال العمومى ٢٥

مطلب الاصول التى اسس عليها الامم استيطانهم فى اوربا ٢٦

مطلب ترتيب الحكومة الالتزامية على التدريج عند هؤلاء الامم ٢٧

مطلب كون الحماية الاهلية هى المقصد الاصلى من الحكومة الالتزامية ٢٧

صحيفه
مطلب كون الحكومة الالترامية تخلق ترتيب الجمعية الداخلية ٢٨
مطلب ضعف المملكة الالترامية فى الاعمال الخارجية ٣٠
مطلب كون الآثار التى ترتبت عن هذه الجمعية اضرت بالعلوم والفنون ٣١
مطلب مدخلية الحكومة الالترامية فى الامور الدينية ٣١
مطلب مدخلية الحكومة الالترامية فى احوال الناس وصنائعهم ٣٢
مطلب شروع الحكومة والاخلاق فى الكمال من القرن الحادى عشر ٣٣
مطلب ما نتج عن مجاهدة اهل الصليب مع اهل الاسلام من تغير الحكومة والاخلاق ٣٤
مطلب انتهاز فرصة المجاهدة الصليبية ٣٥
نجاح المجاهدين ٣٦
مطلب تأثير هذه المجاهدة فى تحسين الاخلاق فى اوربا ٣٦
مطلب تأثير حرابة اهل الصليب فى الامن على الاملاك ٣٨
تأثير حرابة اهل الصليب فى التجارة ٣٩
مطلب اعانة ترتيب التجارات على تقدم الحكومة ٤٠
مطلب اول ترتب الحرية فى مدن ايطاليا ٤١
مطلب ادخال الحرية فى فرانسا وغيرها من باقى ممالك اوربا ٤٢
مطلب ظهور نتائج سعيدة لهذه الترتيبات الجديدة فى حالة عوام الاهالى ٤٣
مطلب نتائجها السعيدة فى حالة خواصهم ٤٣
نتائجها السعيدة فى قوة السلطنة وشوكتها ٤٣
مطلب تزايد الصنائع وغيرها ٤٤
مطلب اكتساب سكان المدن القوة السياسية لكونهم ارباب القوانين ٤٥
مطلب نتائج سعيدة فى الحكومة نشأت عن هذه الحادثة ٤٦

صحيفه

مطلب اكتساب الرعايا الحرية بالاعتاق ٤٧
مطلب اسباب الاعتاق وتقدماته ٤٨
مطلب نتائج الاعتاقات فى تحسين الجمعية ٤٨
مطلب اعانة تدبير فصل الخصومات على تحسين الجمعية ٤٩
مطلب ترك اجرآء الحروب المخصوصة وابطالها ٥٠
مطلب ما عند الناس من الاوهام الاولية فى شأن القضايا والاحكام والقصاص ٥٠
مطلب كون هذه الاوهام المتقدمة اثمر لاعتيادهم الحروب الشخصية ٥١
مطلب النتائج الشنيعة الصادرة عن هذه العادة ٥٢
مطلب استعمال وسايط مختلفة لاجل ابطالها ٥٢
مطلب اعانة ابطال القتال الشرعى على كمال تدبير الاحكام الشرعية ٥٣
مطلب العيوب فى اقامة الدعاوى الشرعية ٥٤
مطلب بيان كون هذه المظالم نشأ عنها ان الله تعالى الهمهم طريقة اخرى وانه هو الذى يقضى فى الدعاوى ٥٦
مطلب حرب فصل الخصومات ٥٦
مطلب كون ادخال هذه العوايد فى القضايا الشرعية اعان فى القرون المتوسطة على الاوهام الفاسدة ٥٦
مطلب تقوية التولع بالعسكرية ترتيب فصل الدعوى بالقتال ٥٧
مطلب عموم هذه الطريقة ٥٩
مطلب النتائج الاصلية لهذه الطريقة ٥٩
مطلب الوسايط المختلفة التى ابدوها لابطال هذه الطريقة ٦٠
مطلب فى كون اقامة الدعاوى فى محاكم الملوك بعد فصلها فى محاكم الملتزمين اعانت على تدبير الاقضية والاحكام ٦٢

صحيفه

مطلب استقلال القضاء عن الشرف ٦٢
مطلب تقدمات هذه المزية وعواقبها الرديئة ٦
مطلب الوسايط التي صنعت لاجل تحديد قوانين الاشراف ٦٥
مطلب تقدم الظلم القسيسى ٦٧
مطلب كون صورة الفقه القسيسى اكمل من الفقه السياسى المدنى ٦٨
مطلب كون ممارسة الحقوق الرومانية اعانت على نشر بعض معارف اصح مما كان اولا تتعلق بالاقضية الشرعية واحكام الدولة ٧٠
مطلب الحالات التي اوقعت القانون الرومانى فى زوايا الاهمال ٧٠
مطلب الاسباب التي اعانت على معرفة هذا المذهب ٧٠
مطلب ما نتج من مطالعة الحقوق الرومانية من الامور السعيدة المهمة ٧١
مطلب النتائج التي نشأت للجمعية من هذا التغيير ٧٢
مطلب التصورات العقلية والاخلاق الكريمة التي نشأت عن التولع بالامارة ٧٣
مطلب الاعمال السعيدة التي نشأت عن هذا الترتيب ٧٤
مطلب تأثير تقدمات العقل التأثير التام فى الاخلاق ٧٦
مطلب فى ان الجد والاجتهاد الذى حصل اولا فى العلوم الادبية كان على خطا وفى بيان سبب ذلك ٧٧
مطلب وقائع احوال عاقت ثمرة تقدم هذه المعارف ٧٩
مطلب تأثير المعارف فى الاخلاق ٨٠
مطلب تأثير التجارة فى الاخلاق والحكومة ٨٠
مطلب اسباب رجوع التجارة واحيائها ٨١
مطلب استكشاف الموصلة وهى بيت الابرة ٨٢
مطلب تقدم التجارة عند الايطاليين ٨٢

	صحيفه
مطلب تجارة المدائن الانسياتيقية اى المتعاهدة للتجارة	٨٣
مطلب تقدم التجارة بمملكة البلاد الواطية	٨٤
مطلب تقدم التجارة فى انكلترة	٨٤
مطلب ما نشأ عن تقدمات التجارة من الفوائد الجليلة النفع	٨٥
القسم الثانى فى تقدم الجمعية باعمال القوة الملية اللازمة للمصالح الخارجية	٨٥
مطلب فى ان حالة الجمعية كانت قد اكتسبت درجة كمال عظيمة	٨٦
مطلب فى ان حالة الجمعية كانت تختلف فيما يخص تدبير قوى الامة	٨٦
مطلب تضييق قدرة الملوك تضييقا بديعا	٨٧
مطلب قلة ايراداتهم جدا	٨٧
مطلب قلة الاتحاد والالتئام التى كانت فى الدول المختلفة بين بعضها	٩٠
مطلب حوادث اسبانيا	٩١
مطلب حوادث المانيا	٩١
مطلب فى بيان ان هذا الاهمال الحاصل من جهة الدول كان ناشئا من كيفية الحكومة وحالتها التى كانت عليها	٩٢
مطلب الوقائع التى حصلت فى القرن الخامس عشر وبها ازداد اجتهاد الملل وسعيهم وعممت مشروعاتهم	٩٢
مطلب كون اول حادثة فى ذلك هى طرد الانكليز من الاراضى الفرنساوية	٩٣
مطلب انشاء عساكر ابدية اى الثابتة	٩٥
مطلب ما نتج عن تجديد هؤلاء العساكر	٩٦
مطلب شروع ملوك فرانسا فى توسيع مزاياهم وحقوقهم	٩٧
مطلب تقدم الشوكة الملوكية وتقويتها مدة الملك كرلوس السابع	٩٨
مطلب مدة لويز الحادى عشر	٩٦
مطلب ما دبره فى خفض الاشراف	٩٩

	صحيفه
مطلب ايقاع الفشل بين الاشراف	١٠٠
مطلب زيادة عدد العساكر المنتظمة	١٠٠
مطلب زيادة ايراداته الملوكية	١٠١
مطلب حذقه وسادته التي بها عرف ان يسوس مشورة العموم وهي مشورة وكلاء المملكة	١٠١
مطلب في توسيع حدد المملكة الفرنساوية	١٠٢
مطلب اكتساب الحكومة الفرنساوية النشاط والتصدي للمشروعات	١٠٢
مطلب في الوسايط التي اجريت في انكلترة لاجل تقوية شوكة الملك وتوسيع دائرة مزاياه	١٠٢
مطلب تقويتها شوكة الملوكية في اسبانيا	١٠٤
مطلب عدة حوادث امكن بها سلطان بيجور والدوكتوم المدبدة التي كانوا اكتسبوها	١٠٤
مطلب زوج وراثة عائلة برغونيا الملوكية	١٠٥
مطلب ملحظ لويز الحادي عشر في زواجها	١٠٥
مطلب فيما عزم عليه لويز الحادي عشر من الامور العجيبة في هذا الشان	١٠٦
مطلب زواج مكسيمليان بماريه وارثة برغونيا	١٠٧
مطلب تأثير هذه الحادثة في حالة اوربا	١٠٧
مطلب في كون غزوة كرلوس الثامن في بلاد ايطاليا هي السبب الثاني في التغيرات التي حصلت في الاد اوربا	١٠٧
مطلب وسايطه التي تجهز بها لاجل هذا المشروع	١٠٨
مطلب تجهيزاته	١٠٩
مطلب فتحه	١٠٩

صحيفه
مطلب ثمرة هذه العزوة و بيان منشأ مذهب التعادل فى الشوكة والقوة ١١٠
مطلب فى ان مذهب التعادل صار فى مبدء الامر زمام الممالك فى ايطاليا ثم انتقل منها الى ممالك اوربا ١١١
مطلب فى كون حروب ايطاليا جعلت ترتيب العساكر المنتظمة عموميا ١١٢
مطلب كون اهالى اوربا عرفوا فضل العساكر المشاة فى الحرب ١١٣
مطلب ترتيب العساكر المشاة الملية ببلاد المانيا ١١٤
مطلب ترتيب مثل ذلك فى فرانسا ١١٤
مطلب ترتيب ذلك فى اسبانيا ١١٤
مطلب ترتيب ذلك فى ايطاليا ١١٤
مطلب فى ان حروب ايطاليا كانت سببا فى ازدياد الايرادات العمومية فى دول اوربا ١١٥
مطلب عصبة كبريه ١١٦
مطلب منشأ هذه العصبة ١١٦
مطلب سرعة نجاح المتعصبين ١١٧
مطلب وقوع الفشل بينهم ١١٨
مطلب حوادث اخرى نشأت عن سياسة المتعصبين وطمعهم ١١٨
سبب كون هذه الحوادث ترتب عليها ازدياد المخالطات بين ملل اوربا ١١٩
مطلب كون الحوادث السابقة فتحت طريقا لحوادث القرن السادس عشر ١١٩
القسم الثالث فى الكلام على القوانين السياسية التى كانت فى دول اوربا الكبيرة فى ابتداء القرن السادس عشر ١٢٠

	صحيفه
مطلب في ان قوانين ملل اوربا كانت متشابهة تشابها كليا	١٢٠
مطلب بيان لزوم معرفة الحالة السياسية لكل ملة منذ حكومة شرلكان	١٢٠
مطلب حالة السياسة في ايطاليا	١٢١
مطلب اصل شوكة الباباوازديادها	١٢٢
مطلب كون زاندى الباباات لم تكن كافية لتأييد افتائهم الدينية	١٢٢
مطلب ضعف شوكة الباباات حتى في اراضيهم وممالكهم	١٢٣
مطلب اهمال شوكتهم رأسا بسبب الطمع اشراف الرومانيين	١٢٣
مطلب ابطال شوكتهم ايضا من الاهالي	١٢٤
مطلب صيرورة الباباات ملوكا ذا باب شوكة قوية باعانة اسكندر السادس وجليوس الثاني اسم	١٢٥
مطلب خلل حكومة الباباات	١٢٦
مطلب العوائد التي اكتسبها الباباات من جمعهم بين الشركتين الدينية والدنيوية	١٢٨
مطلب في بيان قوانين جمهورية البنادقة ومنشئها وتقدمها	١٢٨
مطلب عيوب حكومة هذه الجمهورية لاسيما بالنسبة الى ترتيباتها العسكرية	١٢٩
مطلب عظم قوانينها الحربية الملاحية	١٣٠
مطلب اتساع تجارتها	١٣٠
مطلب في قوانين مملكة نابلي	١٣٢
مطلب ما وقع من المشاجرات في شان وراثة تاج هذه المملكة سنة (١٢٥٠)	١٣٣
مطلب ادعاء كل من ملوك فرنسا واسبانيا المملكة نابلي	١٣٤

	صحيفه
مطلب حالة سياسة دوقية ميلان	١٣٥
مطلب المشاحرات التى حصلت فى شأن وراثة دوقية ميلان	١٣٥
مطلب قوانين اسبانيا وحكومتها	١٣٧
مطلب فتح الوندالين لبلاد اسبانيا	١٣٧
مطلب تاريخ غارة العرب على اسبانيا وهو سنة (٧١٢)	١٣٨
مطلب انضمام ممالك اسبانيا الى بعضها سنة (١٤٩٢)	١٣٩
مطلب بقاء قوانين اسبانيا وعوايدها القديمة مع ما حصل فيها من التقلبات سنة (١٤٨١)	١٣٩
مطلب اختلاف احكام اسبانيا وقوانينها	١٤١
مطلب كون مزايا الملوك دون مزايا الاهالى	١٤١
مطلب براهين تؤيد المحوطة السابقة	١٤١
مطلب قوانين حكومة اراغون واصول ترتيبها	١٤٢
مطلب وظيفة القاضى الاعظم	١٤٣
مطلب انحصار الشوكة الملكية فى حدود ضيقة	١٤٤
مطلب قانون قسطيلة وحكومتها	١٤٥
مطلب وسايط استعملها عدة ملوك مختلفة من ملوك اسبانيا لاجل توسيع قدرتهم وازدياد شوكتهم لاسيما الملك فرديننده والملكة ايزابيلة زوجته	١٥٠
مطلب وسايط مختلفة استعملت لاجل تنقيص شوكة الاشراف	١٥١
مطلب انضمام رياسة الرتب الثلاثة العسكرية الى الملك	١٥١
مطلب قوانين فرانسا وحكومتها	١٥٤
مطلب شوكة الجمعيات العمومية من الملة فى زمن اول دولة من الملوك	١٥٥
مطلب شوكتها فى زمن الدولة الثانية	١٥٥

صحيفة

مطلب شوكتها فى الدولة الثالثة ١٥٥

مطلب تغلب الملوك على حق التشريع ١٥٧

مطلب استيلاء الملك على حق ضرب النقود والغرامات على الاهالى ١٥٨

مطلب صيرورة حكومة فرانسا ملوكية محضة ١٥٨

مطلب حصر الشوكة الملوكية بمزايا الاشراف وخصايصهم ١٥٩

مطلب تضييق الشوكة الملوكية بحكم دواوين البرلمان ١٦٠

مطلب ترتيب ايمبراطورية المانيا وحكومتها ١٦١

مطلب حالة ايمبراطورية المانيا تحت حكم كرلوس مانوس وذريته ١٦١

مطلب اكتساب اشراف المانيا القوة والاستقلال ١٦٣

مطلب اكتساب قسيسى المانيا شوكة مثل شوكة الاشراف ١٦٤

مطلب النتائج القبيحة التى نشأت عن تقوى شوكة القسيسين واتساع قدرتهم ١٦٤

مطلب المشاجرات التى حصلت بين البابات والايمبراطرة ١٦٥

مطلب تنازل الشوكة الايمبراطورية وانحطاطها على التدريج ١٦٦

مطلب تغيير ترتيب تلك الايمبراطورية تغييرا كليا ١٦٦

مطلب وسايط مستعملة لابطال اختلال الدولة ١٦٧

مطلب تجديد المجلس الايمبراطورى ١٦٨

مطلب فى ان تلك الايمبراطورية فى ابتداء القرن السادس عشر كانت مركبة من مجموع دول مستقلة عن بعضها فى الحكم ١٦٨

مطلب الخصوصيات التى امتازت بها الجمعية الجرمانية ١٦٩

مطلب امور مخلة كانت موجودة فى ترتيب الايمبراطورية ١٧٠

مطلب عيوب اخرى نشأت عن حصر الشوكة الايمبراطورية وشدة التضييق على الملك ١٧٠

مطلب فيما يتعلق بالقاب الايمبراطرة وادعاآتهم ١٧١

	صحيفه
مطلب طريقة انتخاب الملوك	١٧١
مطلب تنوع صور الحكومات في دول الجمعية الجرمانية	١٧٢
مطلب في بيان اسباب المنافسة التي كانت بين قيصرى الامبراطورية وامرائها واشرافها	١٧٣
مطلب في عدم المساواة بين اهالي الامبراطورية في الثروة والشوكة	١٧٣
مطلب في كون هذه العيوب منعت الجمعية الجرمانية من ان تلتئم بعضها وتتشارك في تحرير مشروعاتها	١٧٤
مطلب حكومة الدولة العثمانية	١٧٤
مطلب اصل الدولة العثمانية	١٧٥
مطلب نظام هذه الدولة	١٧٥
مطلب تحديد قدرة السلطان وتقييد عصمته بالدين	١٧٦
مطلب تضييق قوة السلطان بالعساكر	١٧٧
مطلب صولة الانكشارية في الدولة العثمانية	١٧٧
مطلب ما فاق العثمانية على النصارى في القرن السادس عشر	١٧٩
عقد جمان التوشيح بالبرهان الصحيح	١٨٢
المبحث الاول في بيان مضمون النتائج الردية التي نشأت عن حكم الدول الروحية	١٨٢
المبحث الثاني في بيان مطلب اغارة الامم المتبربرة	١٨٢
المبحث الثالث في بيان مطلب حالة البلاد التي خرج منها هؤلاء الامم المتبربرون	١٨٣
المبحث الرابع في بيان مطلب التغيرات العمومية التي حصلت في اوربا عن فتوحات هذه الامم الحسنية	١٨٤
المبحث الخامس في بيان المطلب المتقدم ايضا	١٨٥
المبحث السادس في بيان مطلب الاصول التي اسس عليها الامم	١٩٢

	صحيفه
الشمالية استيطانهم فى اوربا	
المبحث السابع فى بيان المطلب المتقدم	١٩٨
المبحث الثامن فى بيان مطلب كون الحكومة الالتزامية مخلة بترتيب الجمعية الدائمة	١٩٩
المبحث التاسع فى بيان المطلب المتقدم	٢١٢
المبحث العاشر فى بيان مطلب كون الآثار التى ترتبت عن هذه الجمعية اضرت بالعلوم والفنون	٢١٦
المبحث الحادى عشر فى بيان مطلب مدخلية الحكومة الالتزامية فى الامور الدينية	٢١٩
المبحث الثانى عشر فى بيان المطلب السابق ايضا	٢٢٠
المبحث الثالث عشر فى بيان مطلب انتهاز فرصة المجاهدة الصليبية	٢٢١
المبحث الرابع عشر فى بيان مطلب تأثير حرب اهل الصليب فى الامن على الاملاك	٢٢٦
المبحث الخامس عشر فى بيان مطلب اول ترتب الحرية فى مدن ايطاليا	٢٢٩
المبحث السادس عشر فى بيان مطلب ادخال الحرية فى فرانسا وغيرها من باقى ممالك اوربا	٢٣٣
الفصل الاول فيما يخص الامن الشخصى	٢٣٥
الفصل الثانى فيما يخص الامن على العقارات والاراضى	٢٣٦
المبحث السابع عشر فى بيان المطلب المتقدم ايضا	٢٤١
المبحث الثامن عشر فى شرح قوله ودخلت فى جميع بلاد النيا الى آخره بصحيفة (٢٤٠) من المطلب المتقدم	٢٤٤
المبحث التاسع عشر فى شرح قوله وتفويت خصوصيات الرعايا	٢٤٦

صحيفة

على التدريج الى آخره بصحيفة (٤٧) من مطلب النتائج السعيدة التى نشأت فى الحكومة عن هذه الحادثة
المبحث العشرون فى بيان قولها وصار اغلب اقاليم فرانسا خاليا من الاسترقاق فى مطلب اسباب الاعتاق وتقدماته ٢٤٩
المبحث الحادى والعشرون فى بيان فرنسا افادت اصولا صحيحة للحكومة والانتظام والامن العام بصحيفة (٥٣) من مطلب استعمال وسايط مختلفة لاجل ابطالها ٢٥٤
المبحث الثانى والعشرون فى بيان مطلب الوسايط المختلفة التى احدثت لابطال هذه الطريقة ٢٦٩
المبحث الثالث والعشرون فى شرح قولنا الخاص ان تدبير الاقضية والاحكام بالتنازع اصل وحدها الى آخره بصحيفة (٦٧) من مطلب الوسايط التى صنعت لاجل تحديد قوانين الاشراف ٢٧٧
المبحث الرابع والعشرون فى بيان مطلب كون صورة الفقه القسيسى اكمل من الفقه السياسى المدنى ٢٨٩
المبحث الخامس والعشرون فى بيان مطلب منع من مطالعة الحقوق الرومانية من الامور السعيدة المهمة ٢٩٣
المبحث السادس والعشرون فى بيان مطلب النتائج التى نشأت الجمعية من هذا التغيير ٢٩٥
المبحث السابع والعشرون فى بيان مطلب الاعمال السعيدة التى نشأت عن هذا الترتيب ٢٩٧
المبحث الثامن والعشرون فى بيان مطلب تأثير المعارف فى الاخلاق ٢٩٧
المبحث التاسع والعشرون فى بيان مطلب تأثير التجارة فى الاخلاق والحكومة ٣٠١

	صحيفه
المبحث الثلاثون فى بيان مطلب ماننا عن تقدمات التجارة من الفوائد الجليلة النفع	٣٠٩
المبحث الحادى والثلاثون فى بيان مطلب وظيفة القاضى الاعظم	٣١٤
المبحث الثانى والثلاثون فى بيان مطلب انحصار الشوكة الملوكية فى حدود ضيقة	٣١٧
المبحث الثالث والثلاثون فى بيان قوله وكان عدد وكلاء المدن كثيرا الى قوله فى الدولة بصحيفة (١٤٦) من مطلب قانون قسطيلة وحكومتها	٣٢٢
المبحث الرابع والثلاثون فى بيان قولنا فى المطلب السابق فلما رأى الاشراف الى قولنا الملوك هم الفقراء بصحيفة (١٤٨)	٣٢٤
المبحث الخامس والثلاثون فى بيان قوله فى المطلب السابق ايضا واذا علم ان دستان اى قوله فى جميع ممالك اسبانيا بصحيفة (١٥٠)	٣٢٥
المبحث السادس والثلاثون فى بيان قوله لان امر هذه المراتب الى قوله ان يسادوا ملوكهم فى المقام والاعتبار بصحيفة (١٥١) من مطلب انضمام رياسة الرتب الثلاثة العسكرية الى الملك	٣٢٦
المبحث السابع والثلاثون فى بيان قوله بصحيفة (١٥٤) بل عرف ان يستفيد من هذه الحادثة الى قوله وتقدم الجمعية من المطلب السابق	٣٢٩
المبحث الثامن والثلاثون فى بيان مطلب شوكتها اى الجمعيات العمومية فى الدولة ثالثة	٣٣٠
المبحث التاسع والثلاثون فى بيان مطلب تغلب الملوك على حق التشريع	٣٣٨
المبحث الاربعون فى بيان مطلب تضييق الشوكة الملوكية بحكم دواوين البرلمان	٣٤٢

	صحيفه
المبحث الحادى والاربعون فى بيان مطلب المشاجرات التى حصلت بين البابات والامبراطرة	٣٤٦
المبحث الثانى والاربعون فى بيان مطلب عدم المساواة بين اهالى الامبراطورية فى الثروة والشوكة	٣٤٧
المادة الاولى فى الكلام على شوكة الامبراطرة واحكامهم وارادتهم	٣٤٧
المادة الثانية فى بيان كيفية انتخاب الامبراطرة سابقا وما اعتراها من التغيير	٣٥٠
المادة الثالثة فى الكلام على مشورة الديت او مشورة العموم التى كانت تنعقد فى الامبراطورية	٣٥٢
المادة الرابعة فى الكلام على المجلس الامبراطورى	٣٥٤
المبحث الثالث والاربعون فى بيان مطلب هذه الدولة اى الدولة العثمانية	٣٥٧
المبحث الرابع والاربعون فى بيان مطلب تحديد قدرة السلطان وتقييدها به بالدين ومطلب تضييق قوة السلطان بالعساكر	٣٦٠
المبحث الخامس والاربعون فى بيان مطلب ما فاق العثمانية به النه بالقرن السادس عشر	٣٦١
براهين جلية فى نقض ما قيل فى الدولة العثمانية	٣٦٤

بيان الخطا والصواب من كتاب اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى اوربا

خطا	صواب	صحيفه	سطر
الجنا	الجنان	٣	٤
سلك لسلك	سلك السلك	٤	١٣
و يتبع هواها	ولا يتبع هواها	٦	١٩
يرجع والجودة	يرجع بالجودة	٧	١٨
الااعصره بخلاف	الااهل عصره		
هل من	بخلاف من	٩	١١
كون نهر رومة	كون نهر رومة	١٠	١٧
تاريخ الاعيان	خارج الاعيان	١٢	١١
الائتلاف الذى	الائتلاف الذى	١٧	بالهامش
من الامم ذهب عن	من الامم بل ذهب ذلك عن	١٨	١٥
السابق اريد من هذا	السابق كما هى فى هذا	١٩	٢٤
التى استولوا	التى استولت	٢١	١١
فكان يأخذ	فكانت توحد	٢٢	٨
ولا يرجع	ولا ترجع	٢٢	٨
من الدراهم	من الاموال	٢٢	١٠
صارت عاقبة	فصارت عاقبة	٢٢	١٣
وتنهزم	اوتنهزم	٢٣	٨
اوبها	وبها	٢٤	١١
مستولين	مستولين	٢٥	٧
الكثيرا الحاصل	الكثير الحاصل	٢٥	١٣
وقعت فى ظلام	اوقعت فى ظلام		
الجهالة وخفيت	الجهالة الملل		

خطا	صواب	صحيفه	سطر
فيها الملل التى يرمنا	القديمة وفى تلك		
ان نبحث عن اصول	الجهالة يلزمنا		
ترتيبها وتكشف	ان نبحث عن		
آثارها الاصلية	اصول حكومات		
ومابقى منها من	اوربا والقوانين		
الاحكام والقوانين	الموجودة		
الجارية فى اوربا التى	الآن		
هى ناشئة عنها	فيها	٢٥	٢١
لان افيد فائدة على	لان اذكر تفصيلا		
تقدم الدولة وعلى	تقدم الدولة		
الخلاق	والخلاق	٢٦	٢
كل ملة عصوصها	كل ملة بخصوصها		
لان هذا مذكور	من الملل التى سأذكرها		
فى ارخ الآتى	فى هذا التاريخ	٢٦	٣
الام الساكنة بالشمال	الامم الشمالية	٢٦	٥
الذين خرجوا منها احياء	الذين لم يقتلوهم	٢٧	١٤
وعسكر	وعسكرى	٢٨	١٠
وكان الامر آتجيع	وكان الامر آه		
الاقاليم الذين يدفعون	اولا ينعم عليهم		
المرتب من اراضى ينعم	الملك باراضى		
بها الملك عليهم ومتى	ومتى	٢٨	٢١
ذمام	زمام	٢٩	٢٤
التى كانت فى صبدئها	التى كان		
حرية محترمة لايمكن ان	مفسأوها الظلم		

خطا	صواب	صحيفه	سطر
يعارض فى طلبها انسان	محترمة	٣٠	٢
تكن بالطبيعة فى المملكة	تكن ملائمة للحكومة		
الالترامية لكونها لم تمكث	الالترامية ولذا لم تمكث	٣٠	٢٠
من هذا الزمن	ومن هذا الزمن	٣٠	٢٤
وجميع تواريخ	ترى جميع تواريخ	٣٠	٢٤
من منع	من خلل	٣١	٢
ناتج انحلال نظام	ما نشأ عنه ايضا مما اضر		
الحكم البشرى	بتقدمات العقل البشرى	٣١	٣
ودينهم الذى اتبعوه	والدين النصرانى على		
واعتادوا العمل به	حسب زعمهم	٣٢	٨
لان اعمالهم	مع ان اعمالهم	٣٢	٩
ازالته محبة القوانين	ازالته القوانين	٣٢	٢٢
والحالة التى	وهى الحالة التى	٣٣	١
وعظيم اخلاقهم	واخلاقهم	٣٣	٢
وقد	ولذا	٣٣	٣
الذوق السليم والاخلاق	الذوق والاخلاق		
المستقبحة التى هى	الذى هو	٣٣	١٥
لم يأخذ فى الزيادة	لم يأخذ الا فى الزيادة	٣٣	١٥
ورتب بدله	ورتب بدله	٣٣	١٨
فى مقابلة المشاعر	فى مقابلة اجسام القديسين الموتى		
والعبادات الهزلية	وغير ذلك من المواد المقدسة	٣٤	٢١
كومينة	كومثينة	٣٥	٢١
تحت المملكة	تحت المملكة	٣٦	٥
حتى ان عدة من الترتيبات	لانها كانت بعيدة عن		

خطا	صواب	صحيفه	سطر
ا عيدة عن اوربا المحيطة	اوربا ومخالطة بالملل		
بالملل الحربية او المقواة	الحربية المقواة	٣٦	٨
كانت دائما	فكانت دائما	٣٦	١٠
باراضى	باراض	٣٦	١٨
كان وجود	وكان جور	٣٦	٢٤
الاسلام وما كسبوا من	الاسلام بحيث ان من اطلع		
اخلاقهم الجيدة	على اخلاقهم الجيدة لا بدان		
ما كسبوا دلا	يكتسب منها فائدة جليلة لم	٣٧	١٤
اختلاط العساكر	اخلاط العساكر	٣٧	٢٣
اكثر ما قاسوه	مثل ما قاسوه	٣٩	١٢
كتب من القوانين	بعض من الوثائق	٣٩	٢٣
هذه القوانين	هذه الوثائق	٤٠	٢
الكون حكومتهم	فكانوا يحكمون		
بلغت الغاية في الظلم	فيها كيف شاؤا	٤٠	٢٤
الطبيعة	الطبيعية	٤٠	٢٥
الخامس عشر	الحادى عشر	٤١	١٩
جميعة	جمعية	٤١	٢١
سرة لا يمكن	سرة اذ بموجبها لا يمكن	٤٥	٢٤
الاستقراطى	الارستقراطى	٤٦	١٩
و لاحكام	والحكام	٤٩	١٥
للتفاهم	للتفاقم	٥٢	٧
المعاداة الرمانية الوقتية	المعاداة انقطاعا وقتيا	٥٣	١٣
منقلب العيون	مطالب العيوب	٥٤	بالهامش
المتوم بها	المتهم بها	٥٥	١٧

خطا	صواب	صحيفه	سطر
ولكن كانت احتهاداتهم الاوليةصحيفة	لان اجتهاداتهم الاولية كانت صحيفة	٢٠	١٧
اصلا استقلال القصا عن الشرف	اصل استقلال الاشراف بالقضا	٦٢	بالهامش
نتايج	نتائج	٦٢	٢٤
محاكة	محاكمه	٦٤	٩
يكتسب	يكسب	٧٣	١٢
فى اوربا	فى اوربا	٧٣	٢٠
وكثيرا	فكثيرا	٩٠	٢٢
تقصية	تقتضيه	٩٢	١٨
لاراضى	لاراضى	١٠٧	١١
اراضى	اراضى	١١٠	٢١
بها فى تحصيل	بها تحصيل	١١٥	١٧
وبجملوادار	وبجملوادار	١٢٤	٢٣
بعض مبانى	بعض مبانى	١٢٧	١٨
كان الخلفاء	كان الخلفاء	١٣٨	٨
اهالى اوبا	اهالى اوربا	١٦٤	٩
حدثه	احدثه	١٦٨	١٨
اضيف	اضيق	١٧١	٩
مطلب تجديد	مطلب تحديد	١٧٦	بالهامش
ويوسعها او كان ذا	ويوسعها اذا	١٧٧	٢٣
لتفاصيل	التفاصيل	١٨٤	١٣
التابع الملتزم	التابع للملتزم	٢٠٢	١٦
المطلقة	المطلقة	٢٠٥	٨

خطا	صواب	صحيفه	سطر
بطله	بنطله	٢٠٨	١٥
بجميعهن	بجميعهن	٢٠٨	١٥
فوستةبوربس وفوستة	فوستينبوربس وفوستينه	٢٠٨	٢٢
بتركه من اراضيه	بتركه اراضيه	٢٠٩	٢١
وامثله كثيرة	وامثلته كثيرة	٢٠٩	٢٤
كوندراد	كونراد	٢١١	٩
لم يكنى	لم يكفى	٢١٥	٣
ويمكنه	او يمكنه	٢١٧	٧
وافشاه	واشاه	٢٢٣	٨
الفرنساوية	الفرنساوية	٢٤٦	١٨
والاعما	والاعمام	٢٥٧	٥
كان محترمة	كانت محترمة	٢٦٠	٣
افندوق	أمدوق	٢٦٠	٢٤
الحوريين	الحورين	٢٦١	١١
يومل من	يومل صدرس	٢٦٤	٢١
سبب كان	سبب كانت	٢٦٤	٢٢
ويعتبوا	وبه قبوا	٢٦٤	٢٤
فابطلوا	مابطلوا	٢٦٦	١٢
ونتوس هوبوردس	ونتوس هونوردس	٢٧٦	١٥
الدعاوى والى	الدعاوى الى	٢٨٥	١٨
لاوامر البا	لاوامر البابا	٢٩٦	٩
باكستير	سيكستير	٣٠٠	١
بفرض بعض	بفرض بعض	٣٠٤	١٣
لاتفرق من الاعما	لاتفرق من الاعماء	٣١٢	١٣

خطا	صواب	صحیفه	سطر
تكنى	يكنى	٣١٣	٢٣
ولا تخزر	ولا عرو	٣٢٨	٢٤
فتوقعت بشورة	فتوقعت مشورة	٣٢٩	٢١
امتنع من ديوان	منع ديوان	٣٤٥	١٢
مسطيلة	مستطيلة	٣٤٨	٢٣
ومعران ربوة	ومطران ربوة	٣٥٠	١٣
فصاح	فضاح	٣٦٤	٢٣
ال واجبة	بل واجبه	٣٦٦	١٠
من لا يفعل	من لا يفعل	٣٦٨	١
عن الحبابى	عن الجانى	٣٦٨	٦
يوسيبث	يوسيبك	٣٧٤	٣
من تعد	من تعدى	٣٧٧	١٥
اوقع بيمة	اوقع بيه	٣٧٨	١
أن يصغ	ان يصغى	٣٧٨	٧
يحضروه	يحضرونه	٣٧٨	٢١
ثانى	ثان	٣٧٩	٣
لمن تعمل	لمن تعامل	٣٨٠	١٨
من الطالم	من الظالم	٣٨٢	١٢
ودى	ودعا	٣٨٤	٤
يشهدون عليك	يشهدون لك	٣٨٤	١٧
يعذر	يعزر	٣٨٤	٤

خطط	صدف	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

اتحاف

الملوك الالبا

بسم الله الرحمن الرحيم

حمد الله جعل التواريخ تذكرة لمن مضى من الزمان وجعلها مشتملة على سير كل امة ورسولها او رعية وسلطان ولولاها لتشتتت الوقائع وغرقت الحوادث في بحار النسيان وصارت نسيا منسيا عند كل انسان فسبحانه من اله خلق الانسان وميزه بالعرفان وجعل لسانه ترجمان الجنان وخصه بالحكمة وعلو الهمة وجعل مظهر ذلك بعض البلدان فشرف آسيا بظهور الرسالة والنبوة والكرم والفتوة ثم خص الآن اوروبا بظهور علوم المعاش النافعة وفنون التربية الساطعة واخرج اهلها من حيز الخشونة الى الحضارة المدنية وجعلهم ارباب علوم وصناعات سنية وصلاة وسلاما على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه البررة الكرام وامته المفضلين على غيرهم من امم الانام امة ترغب في تاريخها الافاضل لكونه يستمد منه انواع الفضائل ثم الدعاء لولي النعم

الحلية الذى فاق عصره على زمن الخلفاء العباسية فاحيى ما كان مندرسا
من الآداب والفنون واظهر ما كان كامنا مستورا عن العيون لازالت
احصنة النعم على ابوابه مقصورة وآفات النقم باعتاب اعدائه محصورة
ولا زالت عساكره مؤيدة منصورة وحكومته مشيدة واعدائه مقهورة
ولا برحت دواوين مملكته زاهية زاهرة لاسيما ديوان المدارس بملاحظة
مديره مختار بك المعظم امين (اما بعد) فيقول راجى رحمة الملك الودود عبده
خليفة محمود هذه ترجمة لطيفة لمقدمة منيفة فى ذكر تقدم الجمعية فى البلاد
الافرنجية مترجمة من الانكليزية الى الفرنساوية حازت عند الافرنج كمال
الشهرة وطهرت من كتب التاريخ بمصره ودخلت فى باب النعمان فكان
ادخالها فى اللغة العربية من اعظم المهمات لاسيما وان الخديوى الاعظم
الذى سلك مسلك حسن التربية والتمدن يرغب فى الاطلاع على مثل هذه
الوقائع ويروم تعليم اهالى مملكته واطلاعهم على هذه المنافع فلهذا خدمت
فى تعريبها الكمال تنقيحها وتهذيبها وجعلتها تحاف الملوك الالباب بتقدم الجمعيات
فى اوربا وحيث انها باللغة الفرنساوية من مستصعبات التأليف ومختصرات
التصانيف استعنت فى تذليل صعابها وكشف نقابها بمراجعة من لسان
القلم فى مدحه ووصفه قصير وانى فى مدحه بابدع مقال فاتم هو آت بيسير
من كثير حضرة رفاعة افندى مدير مدرسة الالسن حين التوقف والحاجة
الى ذلك وهو ايضا الذى صحح على اصلها وقابلها كل المقابلة فبهذا كانت
خير ترجمة لاسيما امثالى حيث انه لم يكن لى فى مدرسة الالسن غير سنتين
فى اشتغالى بهاتين اللغتين فالحمد لله الذى جعل مشروعاتى ولى النعم ناجحة
ومقاصده راجحة والله الموفق وبه الاعانة

ديباجة

معينة على قراءة التاريخ ملخصة من كتاب انموذج العلوم التاريخية حد
سيسرون التاريخ بانه شاهد الازمنة نور الحقيقة مدرسة الحياة رسول
السلف الى الخلف انتهى ولا بأس بان يراد فى التعريف استاذ الملوك والرعايا

ومعلمهم ولم ينتظم في سلك العلوم الحضرة الاعلى مر الايام بمدان مكث مدة مديدة عبرامن القدم فلما اتسعت الافكار واخذت الحوادث في الكثرة والانتشار واحتاجت الى التقييد والاعتبار ظهرت فيه المؤلفات العجيبة والمصنفات الحسنة لتربط الازمان والناس بالاماكن والآثار وتذكر ما مضى انم تذكار

ولا يجهل انسان ان الحوادث الاولية التي جرت في الاحقاب الخالية والاعصار الماضية لم يقف لها الى الآن احد على حقيقة مع كثرة بحث المتأخرين عنها وتشوقهم الى معرفتها ولم يظهر منها الا يسير اخذ من كلام الشعراء مما لا يفي بالمرام ولا يشفي غليل العلماء الاعلام كبعض حكايات في الاخلاق والعوائد اوفي الحروب وحماسة الشجعان مع ان القوشدوا ما الوقائع المهمة التي حصل بها تغيير عظيم على ظهر الارض واستمرت آثارها وبقاؤها الى يوم العرض فانها بقيت الى الآن مجهولة الاصول والاسباب منظومة في سلك الشك والارتياب ولما كان اوميروس اول شعراء اليونان كان بالنظر لما ذكر اول مؤرخ لزمان في شعره عرفنا بعض شيء بالنسبة الى ارض الروم واناطولي والى الآن لم نعرف وقائع هذه الجهات حق المعرفة وربما استمرت عدة قرون على هذه الحالة حتى ييسر الله سبحانه وتعالى بالوقوف على ما يدل عليها اوضح دلالة على ان ما تحدث به الشعراء من الوقائع وسدوه في اشعارهم السواطع فانما هو محض حكايات غير صحيحة الروايات وهي في الغالب عرضة للتغيير والتبديل فاحتيج في اثباتها الى دلائل يمكن الاعتماد عليه والوثوق بها بالصحة اليها وهذا بعينه هو اصل ظهور علم التاريخ

وكان المؤرخون في اول الزمان لا يتعلقون الا بعرض سهل وذلك انهم حذر الضياع كانوا يؤرخون الحادثة والمكان والزمن والاشخاص ويهملون ذكر ارتباط الوقائع بعضها ببعض والنسبة بين الامم والدول وكيفية الاختلاط الواقع بينهم وان كان هذا الاختلاط في ذلك الزمن لم يبلغ درجة كمال فكان من المؤرخين بهذه المثابة من اليونان هرقيد وهيلانيكوس ومن الروما نيين

فاقون وقبيوس بيكتورود ببرون ومن هايقهم ان مبدا التأنس والاجتماع الانسانى هو مبدا التاريخ يعنى زمن وجود النوع الانسانى بالقرب لاصل الفطرة وعدم تقدمه فى التربية والتمدن هو كذلك زمن وجود التاريخ فى مباديه وطفوليته ولكن هذا التاريخ مع عدم كونه كان مساويا فى التمدن ومنشأ للاعتبارات

ومذ ذلك نشأت المعارف بعد قليل من الزمن وكثرت المخالطات والمعاشرات بين الامم وسافر العقلاء فى طرق جديدة بالنسبة اليهم وكتب المؤرخون تواريخ الحروب التى هى اول شئ اوقع النسبة بين الممالك فكان اصحاب هذا التاريخ اولى باسم المؤرخين حقيقة لان من تقدمهم اسماؤهم اقرب للتسمية به على سبيل المجاز ولم يظهر هردوط ابو التاريخ الا بعد حرب اكزرسه او اكرسيس ملك العجم فى بلاد اليونان فكان هذا المورخ لشدة تجسسه وكثرة طرقه يحاول معرفة اصل الامم التى يذكرها فى كتابه ويحاول الوقوف على الامم المعاصرة ويبحث عنها فى كتب المتقدمين مع غاية التعاهد والصبر والتعقل والتفكر فبذلك كان به افتتاح العصر الثانى للتاريخ اى زمنه الثانى على انه يمكن تسميته بالزمن الاول حيث به استحق تقييد الوقائع على هذه الكيفية اسم التاريخ ولكن لما كان لسائر الامم فى زمن جاهليتهم تاريخ كثير الاوهام احتاج الامر ان يسمون عن هذا التاريخ باول عمر وباول زمن من العصورية يتهيأون فيه لحالة يؤول امرها الى ان تكون بعيدة عن الحالة الاصلية

ثم ان هردوط وطوقيديد واغزنفون هم اكابر ذلك الزمن الثانى وبهم تظهر مشيئته وطبيعته بالنسبة للتاريخ حيث ظهر فى بلاد اليونان فى كونها كانت اول بقعة خرج منها كبار المؤرخين ارباب التآليف الفصيحة العبارة المشحونة بالحكمة والفلسفة التى ادرتها الانسان تذكر بها هذه البلاد فكانت بتلك البقاع اليونانية هردوط يقص عليهم السير فى المحافل وكانوا يميلون الى سماع العبارات السلسة الالفاظ اكثر من ميلهم الى غريب المعانى ولهذا كان ذلك المورخ يضطر فى بعض الاحيان الى الاضرار بالمعانى

التاريخية وربما حكى بعض خرافات تستميلهم لكونها تجرّ لمدحهم وربما كساهذه الخرافات ثوب تحسين فى العبارة يسبى عقل الفصيح حتى ان سيسرون افصح الخطباء كثيرا ما تعجب من ذلك حين وقوفه عليه فانه فى ذلك الزمن كان علم التاريخ لم يوضع ويدون ولكن كانت الحوادث قبل ان تنقل وتروى تفحص وتقابل ويبحث عن ربط بعضها ببعض وكانت القصص والسير تذكر بوجه صحيح على سبيل الاستصواب والانكار فترضى العقل وتتسع بها دائرة الادراك فامتاز هذا الزمن ببعض تقدم فى التاريخ ولاح على وجه ذلك العصر سيمة انوار الثلاثة المورخين الذين تفاوتت طباعهم حيث كانوا بنسبه وذلك ان هردوط كان يميل فى تاريخه الى العبارات الشعرية وطوقيديد يسلك فيها طريق الجد والفلسفة واما اغزنيفون فانه كان يأتى كذلك على طريق الجد والفلسفة لكن مزينة تجذب القلوب وتستميل الالباب فبهذا كان التاريخ فى كتبهم اشبه بان يكون غير مقصود قصدا اوليا بل كان تابعا للفصاحة والتعمق فى العبارة فكان جل اغراضهم انما هو اظهار فضلهم فى صناعة الانشاء فلذلك كان التاريخ مقصورا على مجرد الوقائع واشبه بما يبعث الكاتب على ان يؤديه بما يقدر عليه من فصيح العبارات وقد سبق لنا ان التاريخ اخذ فى التقدم من ذلك الوقت والحق ان تقدمه كان حقيقيا لا ظاهريا وذلك انك ترى فى كتب طوقيديد ان الغريب البعيد عن العقل ابدل بالاقرب للصواب المعضد بالادلة وان كان هردوط تبع هوى نفسه فى ميلها لمجرد الحكاية فان طوقيديد كان يملك نفسه ويتبع هواها بل يضبطها فى المعنى الذى يريد حكايته واما اغزنيفون فانه كان يصنع التاريخ كانه مدرسة للفضيلة والحكمة ولا يخفى من تادية الغرض المقصود منه لكونه عرضا جيدا فلذلك كان سيسرون يسميه امير المورخين او ملك الحكويين واما نحن معاشر المتأخرين فلا نرى انه يجرى بهذا الاسم لكونه فاته اغلب مهمات التاريخ بل انما يشهد بانه اول من جعل ذلك الفن مدرسة للملوك ومحلا للاداب وهو اول من استحق من مورخى المتقدمين

ان

ان يحاكي في تصنيفاته المورخ ملون من المتأخرين
وهذا كثير بالنسبة لذلك الزمان الا انه يمكن ان يعاب على التاريخ في ذلك العصر بانه كان منظورا فيه الى مقتضيات الاحوال اوالى حالة الاخلاق والعوائد وطبائع اهل ذلك الزمن ومثل هذا يقال ايضا في تاريخ الرومانيين فاى فائدة لمورخ اذا حاد عن طريق الانصاف واهمل حكايات الوقايع والحوادث كما حصلت وبرز ومال الى غرض نفساني من الاغراض فرأى جميع ما ظهر في وطنه حقا سواء كان كذلك في الواقع اولا واستصوب جميع الحروب والغارات الواقعة من اهل بلاده على غيرهم من البلاد ومدح حزبه وذم الاعداء وبحسن بهم وحسن معايب جماعته وقبح محاسن من عاداهم وجعل رذيلة اهل بلاده فضيلة اذا نسبت عن هذه الرذيلة توسيع مملكتهم وهذا عيب عام لسائر المورخين من الاقدمين حتى كان كتاب التاريخ انما هو ديوان مدح لبلاد مؤلفه فالمورخ يكتب تاريخه وهو مستحضر لوصف كونه من البلاد وكون هذا التاريخ لاهلها وكان ينبغي له ان يقطع النظر عن ذلك ولا يرى في نفسه الا كونه فيلسوفا حكيما يعلم الناس ويفيدهم فلا يكون في ارائه مغرضا ولا متغرضا مع ان هذا كله يستدعي وجود مورخ مجرد عن الاوهام الفاسدة والوساوس الكاسدة التي يمرن عليها الانسان من صغره فلذلك كان وجود مؤلف منصف نادرا بين المتأخرين فلا غرابة في ذلك بالنسبة للمتقدمين ففضل التاريخ في ذلك الزمن الثاني يرجع لجودة التعبير وبلاغة الكلام والحكم على المورخين بذلك لا ينكر ولا يحط بمقامهم ولا يس في شهرتهم بالفضل لما ان لهم العذر في ادراكهم غرض التاريخ في مثل ذلك العصر الذي هو اول عصر التقدم فلو لم يجتمع فيهم جميع شروط صفات المورخ فقد حرروا احسنها وهو تقييد الغرائب وجعلها باقية على ممر الايام

ولم يعرف قدر التاريخ ولا تعلقاته الاقوى العقل غارس الفلسفة والاداب هادايغور وتاوفنف اللذان لم يبق من مصنفاتهما شيء بل بقي الثناء عليهما

فضلهما فقد كان كل من هيرودوط وطوقيديد واكزيفون اوصاف الناس
والوقائع بالنظر للافراد والاشخاص ولم يقف احد منهم على معرفة البواعث
الحاملة على الفعل ولا الآثار المترتبة على ذلك وفاتهم جميعا المواعظ
والاعتبارات التي تنشأ عن الحوادث وانفرد بوليب بهذه المزية ووضع الحكمة
في التاريخ ومن المستغرب انه عند الامتين العظيمتين من القدماء وهما
اليونان والرومانيون لم يظهر المؤرخون الحكميون الا عقب المؤرخين من
الخطباء واهل الفصاحة وذلك لانه احتيج على تداول الايام الى جعل
الحوادث التاريخية عرضة للنظر فيها وامتحان اسبابها ومسبباتها وفي الحقيقة
قد جرت عادة الله تعالى ان يكون التصور والتخيل قبل التفكر والتعقل
وان الانسان يمكنه ان يصف الشيء الظاهر قبل ان يقتدر على الوقوف
على حقيقته فكان عصر المؤرخين الحكماء عقب عصر المؤرخين الفصحاء
وكان بوليب احكم ممن تقدمه من المؤرخين فظهر له حقيقة الغرض المقصود
من التاريخ وادرك اهميته وكذلك تاسيت المتأخر عن بناء مدينة رومة
فانه عرف الحقيقة احسن من سلفه وكل منهما اراد ان يسلك مسلكا جديدا
عاما من النظر في الغرض المطلوب وكان موجودا في زمن رغب فيه
في معرفة الاشياء والتأليف فيها اكثر من الرغبة في صناعة تنميق العبارة
والاعتناء بجعلها بليغة ولكن كان بينهما فرق ظاهر وذلك ان بوليب كان
ينظر للتاريخ من جهة السياسة ومصلحة الدولة بخلاف تاسيت فانه كان يعتبره
ايضا من جهة الادب وحسن السلوك والسيرة وقد برهن بوليب على ان
انقراض دولة القرطاجنيين وعظم دولة الرومانيين انما تسبب عن التفرق
الواقع بين احكام الدولتين الجمهوريتين وقوى بينهما حسنا ورداءة فبذلك
اعتبر المتأخرون واعتنوا بنقل هذه الحكاية وروايتها

وهكذا كانت اخلاق الامم تؤثر في المؤرخين طورا شيئا وطورا آخر
على حسب الحال وتعاقب الازمان مثلا هيرودوط كان يقص على الحاضرين
كتابه ويريد بذلك في الاكثر تفننهم برقة عبارته وتعجبهم وقل ان يقصد تعليمهم

وتفهيمهم

ووقيفهم على الاخبار بخلاف بوليب فانه كان مقبولا عند الرومانيين ومعاينا للحروب الواقعة بين اهل قرطاجنة واهل رومة فتيسر له لروما ان يبحث عن اختلافات سياسات هاتين الجمهور يتين وعن الفرق بينهما واما تاسيت فانه كتب تاريخه فى عصر فشت فيه الفواحش فلذلك شنع فى كتابه على عموم الفساد وعلى تنابذ ذل الانسان مما كان يتمدح به فى ذلك الزمان فهذا معنى تأثير اخلاق الزمن وطبائعه فى المؤرخين وما قيل فى انشاء التاريخ يقال فى انشاد الشعر فان امشاش كان ينشد اشعاره ليعجب جماعته فلذلك كانت عذوبة الفاظه وزخرفتها تغطى ضعف المعانى وتستره فشتان بينه وبين ورجيل وان كانت العامة تشبهه به وذلك ان من يكتب ما يناسب القرن الذى هو فيه فلا يعجب الا اهل عصره بخلاف من يقطع النظر عن الوقت ويقصد افادة اهل القرون الآتية على تعاقبها فلا يقع لمؤلفاته هجران بل تكون متداولة على ممر الازمان

فلا زال التاريخ يأخذ فى الانتشار الى ذلك الوقت ويهتم به كل مؤرخ زيادة عن تقدمه من المؤرخين وهو فى كتب بوليب قد ارتفع الى اقصى درجات السياسة ثم بعد ذلك ذهب رونقه مرة واحدة ثم اخذ فى الانتعاش عند الرومانيين وذلك لان حروف الهجاء التى لليونانيين لم يتم استعمالها فى مدينة رومة الا بالبطئ وكان انموذج تواريخ اليونان العظيمة مجهولا حين ابتداء فبيوس بيكتور وسيزون وقاطون فى كتابة تواريخهم التى هى فى الحقيقة مجرد دفاتر مقيدة للوقائع لا كتب تاريخ حقيقية ولم يزل التاريخ الى زمن ساستة يابس العبارة وليس له فضل فى التأليف الا الاختصار والايضاح خاليا عما يتطلبه السامع من المناسبات ولم يكثر اكابر المؤرخين الا فى زمن التمدن والترقى فى درجات الحضارة والتربية ولرغاهية فى بلاد اليونان حيث كان التاريخ مؤلفا للمدارس الفصاحة كان له بهجة عظيمة ومنفعة لتربية التلامذة وتأديبهم فلما تجدد التاريخ بمدينة رومة ظهر بها فى حالة من يبس العبارة

وخشونتهم فلما فتح الرومانيون بلاد اليونان ودخلت بمدينة رومة علومهم
وفنونهم وظهر بها نموذج تواريخهم بحث مؤرخو الرومانيين عن ان ينسجوا
على منوال الكتب العظيمة التي تداولوها فكست مؤلفاتهم التاريخية
اسلوب التواريخ اليونانية مع انه بقي فيها يسير من الاختلاف الناشئ عن
اختلاف العوائد والاخلاق فكان التاريخ في هذا العصر الذي هو احد
عصري التاريخ عند الرومانيين مشتملا على الفصاحة والبلاغة وكان اول من
نسج على هذا المنوال المؤرخ سالست ثم بعده بيسير ظهر المؤلف تيتليو وبذل
جهده وصرف همته في فصاحة العبارة وبلاغة العبارات والتخيلات التي سمح
بها فكره وقد عبنا على مؤرخي اليونانيين بانهم كانوا يجارون اوهام زمنهم
ويسايرون بدع اعصرهم ويستحسنون جميع ما حصل من اهل بلادهم
ويلومون ما عداه وهذا احرى بان يسمى حب النفس والملة ولا يليق تسميته
حب الوطن وهذه الخصلة اشد من غيرها عند الرومانيين فان ميلهم الى اظهار
كونهم لهم اصل وتمام سماوي جعلهم يذكرون في تواريخهم بشع الخرافات
ولم يتذكروا ان اول واجب عليهم في السير قول الحق فصدقوا ما يناسب
هوى النفس بدليل ما في كتاب تيتليو من الهذر كحكاية اللبوة التي ارضعت
رومولوس الذي بنى هو واخوه روموس مدينة رومية وما شبه ذلك وكحكاية
كون نهر رومة المسمى نهر التبر رفعته كاهنة في ذلك الزمان حتى بلغ السفينة
التي كانت تجرها بمنطقتها ومن الغرابة ان المؤرخ تاسيت كان يعتقد ذلك
بهذه الاوهام التي لا تليق الا بالعوام فهي مما ينتقد على المؤرخين الفضلاء
في ذلك الزمان ويلام عليهم بعدم ردها والتوبيخ عليها وقد قلنا ان سبب ذلك
محبة النفس والملة وللتاريخ بذلك الزمان ايضا آفة اخرى وهي محبة النفس
السياسية عند الرومانيين اي محبة سياسة مملكته دون غيرها وذلك ان من اراد
ان لا يكون متحاملا ولا متعسفا بل تابعا في تاريخه منهج الحق والانصاف
يتحتم عليه ان يغلب اوهام العامة ولا يتمسك بها بل اذا اراد ان يتكلم على جميع
الامم بانهم مشغوفون باعتبار جميع الاماكن كانها اوطان له ولم يكن بتلك المثابة

مؤرخو

مؤرخو الرومانيين بل متى تكلموا على حروباتهم وبهم واحتلالهم ذكروا ان ما
اكتسبوه بوجه من هذه الاوجه انما هو كسب حلال بطريق الاستحقاق
ولما ظهر لهم من قوتهم وتدبيرهم علامات فهموا منها انهم يملكون جميع
الدنيا ويحكمون اهل الارض جميعا فاعتقدوا وكان ذلك الاعتقاد هوية
عوامهم ان كل اقليم تغلبوا عليه صار لهم التزاما وملكا كسائر الاملاك
والعقارات فانظر ظلم المؤرخين بالنسبة للاجنبيين ومتى كان المؤرخ حكايين
اهل المشورة الرومانية والرعية وذكر الخصومات الواقعة بين الفريقين قل ان
يحيد عن الانصاف وذلك لانه ليس فيها ذكر الغرباء لكون آحاد الرعية ليسوا
خارجين عن الرومانيين واما بين الرومانيين والغرباء فالمعنى واحد فاليونان
والرومانيون كانوا رجالا واما من عداهم من الامم فانهم طوائف اعجام
لا يعدون بروماني ويحتاج التنبيه الى شيء آخر وهو انه غير غيرة الوطن يوجد
عند المورخين من المتقدمين والمتأخرين حب الطائفة والملة والجنس وهذا
كان سببا لكون المورخ مغرضا فاذا كان المورخ مثلا من طائفة الاشراف كان
مذهبه في كتابه الميل الى طريقة تحكيم الكبار وتوليتهم لامور الدولة في مدينة
رومة في المخاصمات الواقعة بين مشورة الرومانيين المسماة اسنت وبين
الرعية اقروا بسلم الكبار وعدم عدل المشورة وكونهم متولعة بالامور
الدنيوية من الرياسة وغيرها وبكون اهلها ارباب ثم ومحل بق هذا ميل الى
مذهب حكم الجمهورية والمشيخة ثم ومد ذلك بقبيل كذبوا هذا او باقصوه بالثناء
على اهل المشورة بالاعتياد على التجلد والثبات وكرم النفس فمن هذا يشم
رائحة الميل الى حكم الشرفاء ومثل هذه الاغراض كثير سواء حصلت من
شيء نفساني متعلق بالمورخ او كانت طارية عليه لغرض من اغراض الدولة
الموجود في زمانها فمن هذا يتضح ان من يتصف باول صفة من صفات المورخ
اللازمة له وهي عدم الغرض والعلة هو من لا يصم من كتابه بلده ولا دينه
ولا طائفته ومن لا يسوق قلمه بما يدل على مذهبه وغرضه بل يظهر من كلامه
انه لا مذهب له الا مذهب الحق ويسهل بمقتضى هذه القاعدة معرفة ما يلزم

لمورخ كامل ومن ذكرناه من المورخين يوجد فى كل فرد منهم بعض هذه الصفات ويفقد منه البعض وتوفر هذه الشروط باسرها فى مورخ واحد ليس الا اتموذجا ومثالا وجوده فى الاذهان اسهل من وجوده فى خارج الاعيان فاذا كلفت انسانا ان يجمع بين فصاحة هردوط واغزنفون وتيتليوه وتشبيهاتهم ومجازاتهم وقوة معانى طوقيديد وحماسة عباراته واتساع ادراك بوليب وحكمته وفلسفته وان يضم لذلك ادب تاسيت واستقامته وحسن سلوكه فان هذا تكليف بما لا يطاق لان الطبع البشرى وان كان يميل الى الكمال فى مقصده فهو قاصر فى وسائله ووسائطه ومع ذلك فلا ينبغى للانسان ان يتكل على ماذكرناه لانعدم مكان النسج على هذا المنوال الذى لا وجود له الا فى الخيال بل يشرع فى تجربة نفسه فيه كما ان المصور يحاول فى تصويره امورا تخيلية لم تظهر صورتها فى تاريخ الاعيان وليس لها وجود الا فى مجرد الذهن وبعد عصر اغسطوس لم يتقدم التاريخ زيادة عما سلف بل بالنظر لبعض الاشياء كان دون تقدمه عند اليونانيين فان بوليب وحده هو الذى احدث دون مورخى اليونانيين فى التاريخ حماسا عظيما عند اليونان بادخال نوع السياسة فيه وزاد تاسيت عند الرومانيين حماسا آخر وتقدما لانه تاسيت جدد فيه تاريخا ادبيا بذكر حسن السير والاخلاق فهو الذى لمس قلوب البشر كشف القناع عن مداراة الملك تيبر الشنيعة وحيلته وازال الغطاء عن بجر الملك نيرون وقساوته وبلادة اقلودس وغباوته وهو الذى عرف الفضيلة والرذيلة ووصفهما باوصاف مطابقة لما فى الواقع مشتملة على الحماسة وكان قلمه مناسبا للمعنى المقصود بالكلام فكان ينفر النفس عن الرذيلة ويرغبها فى الفضيلة بعبارته المستحسنة المناسبة للمقام موفية بالمرام وقد ظهر لتاسيت ان التاريخ المشتمل على مجرد تحسين العبارة وسلاستها لا يفيد فى الغرض المقصود من التاريخ شيأ فلذلك سلك فى عبارته التوسط فى الخطابة والانشاء ولم يشم من كلامه رائحة المداهنة والتملق بل ذكر الحقيقة خالصة من غير زخرفة لجزمه بان الصدق يصل وحده

الى صحيح القلب ولا يضل فى سيره اليه ولكن يعاب على هذا المؤرخ بنكتة واحدة وهى انه فى اقتصاره على ذكر قلوب الناس فرض ان مسائل التاريخ ووقائعه معلومة تفصيلا قبل تأليفه فحققها من غير ان يفصلها فاذا قرأ الانسان تاريخه وحده من غير ان يطلع على غيره من كتب المؤرخين ربما صعب عليه فهم عبارته وغاية الامر انا نسلم ان الانسان الواحد لا يمكنه انه يتصف بالصفات اللازمة لكمال التاريخ ويجمع صفات المؤرخ ومع ذلك فلا ينكر ان تاسيت اتصف باهم الصفات واعتنى بجعل التاريخ مدرسة ادب وسلوك بذكره فى كتبه الخصال الذميمة وتشنيعه عليها ومدحه الفضيلة بما امكنه فيها من المدح

فلما ضعفت رومة نفسها كما ضعف اهل اليونان قبلها رجع التاريخ الى ما كان عليه من الخشونة ولم يكترث الفاتحون لها بكتابة التاريخ وبقى الامر على ذلك الى رجوع الناس الى الاشتغال بالعلوم فما وجدوا الا فى بلاد اليونان وفى خراب السلطنة الاخيرة كتبا تاريخية مقيدة لمجرد الازمنة واعلامها مجردة عن الفضل وانما اخذوها وحصلوها من العدم ووجود غيرها مما يدل على حال العصر المسمى بالعصر الاوسط وهو مدة عظيمة من الزمن ضاعت فيها العلوم التاريخية ولم ينشأ فيها الا رسوم ناقصة آل امرها الى ارشاد متأخرى المؤرخين الى معرفة بعض شئ من مجهول تلك الازمان ولما انزاح امر اشتمال الهمجية على البلاد والمستولية على العباد بآثار التمدن القديم اكتسبوا عادة البحث عن الاشياء وتركوا عاداتهم الاصلية حيث كان يستوى عندهم معرفة اصل بقائهم على الجهل فى المدة الماضية وعدم معرفة اصل ذلك فصاروا يسألون ويبحثون عن اصلهم وعن آبائهم واجدادهم وما حصل لهم وكيف كانت احكامهم وعوائدهم وحالة معاشهم

وهذا هو اصل التاريخ الجديد الذى اتسع باتساع العلوم ومع ذلك فلم يظهر فيه من المؤرخين من يضاهى مؤرخى المتقدمين ولكن اذا لم يكن من المؤرخين مثل هؤلاء فان قواعد علم التاريخ قد برعت وتبحر فيها اكثر من المتقدمين

وان كان فى اجراء الاحكام وتطبيق القواعد دونهم فلا يحسن خير امتهم ما ينبغى فعله وهذا يتولد عن عدة اسباب وقبل نسبة ذلك لعدم كفاية المعرفة ينبغى ان نبحث عن كون ذلك كما حصل من فقد المعرفة اللازمة حصل من عجز السياسة وعدم اسعادهما ولكن قبل المبادرة بايراد هذه المشكلة ينبغى لنا ان نبحث عن مبدء علم التاريخ فى هذه المدة الجديدة التى يرجع فيها الى مبدئه وهذه هى المرة الثانية لمعرفة التاريخ

فنقول ان قدماء مؤرخى الافرنج لم يعرفوا قبل هذه المدة ما حقيقة التاريخ وما لوازمه فان مؤلفاتهم كانت خالية عن النظام والترتيب لا يفهم منها غرض والمقصد [illegible] مفيدة [illegible] من الحوادث وما وقع قبيل عصرهم فكان ما سطروه اعلا واحسن مما اعتقده فى ازمان المؤرخين ولكن مضى زمن طويل قبل ان يظهر هذا التاريخ الذى يميز الازمنة او يقع [illegible] المؤرخين من اهل هذا الزمان [illegible] هو اول من كتب التاريخ فى ذلك الزمان وهو الذى كتب تاريخ فرانسا و[illegible] وغيرهم الى الآن بحسن صورة ما يقتضيه الخاصة المشحونة بالفوائد وذكر آداب قدماء الافرنج ونبه على اشياء غريبة تدل على [illegible] تاريخ [illegible] وابتداء قبل ابتداء تاريخ القدماء ولكن هذا لا يكفى فى معرفة تاريخ الاعصر الماضية الى تاريخ الافرنج ومقابلتها بها وعرض المتأخرين لاشكاله اوجب صعوبة امضاء المشروعات التاريخية فلهذا التمس الافرنج البحث عن الاشياء ومعرفتها وكان هذا جزأ من علم التاريخ وكثرت فروعه وتشعبت عنه شعب كثيرة وظهرت صعوبته فلذلك تعرض بعض المؤرخين مثل المؤرخ ميبلون ومنتفوكون وبتان وغيرهم للكشف عن علم الازمان واضطروا الى المناقضة والمنازعة فى الازمنة ليحققوا ما ظهر فيها من الاوهام التى بها يجهل الانسان هذا الفن وهذا هو السبب فى كون المتأخرين من مؤرخى الافرنج يحصل لهم غفلة عن حكاية نفس السير والاوصاف بالمنازعة فى الازمنة والامكنة فيضيعون الزمن فى هذه المنازعة ويتركون القصص والظاهر من

اول وهلة انه ينبغي للمؤرخ ان لا يغير مذهبه وان يبقى على حالة واحدة في رأيه
ولكن الاحوال تختلف كما هو مشاهد مثلا عند القدماء كان التاريخ مقتصرا
على ذكر امة واحدة بالذات وان تكلم على غيرها فبالعرض ففي زمن
الرومانيين لم تكن الدنيا كما هي الا مملكة واحدة وتوحد في ذلك الزمن
السياسة الخارجية الا قليلا وليس الامر كذلك في زمن المتأخرين فان
الدول المختلفة في الاحكام والدول المتحدة في الاعتبار وملاحظة التساوي
ينبغي للمؤرخ حينئذ اختبارها مشاهد كرها في اخلاقها وعوائدها
وان كان بوليب مؤرخ الرومانيين احدث التاريخ السياسي فانما كان مقصده
ذكر اختلاف عوائد كل من الرومانيين والقرطاجيين وحكامهم دون
التعرض الى عداهم واما الآن فان عشرين امة يبحثون عن مثل هذا الشيء
لانه لا يوجد امة من هؤلاء الامم تاريخه جميع من عداها فاذا شرع
انسان في تأدية جميع نسبة لشيء على كل امة وجب عليه ان يبسط الكلام
في التاريخ على استطاعته حسب عموم مقصوده ان اراد الاستيعاب فان هذا
شيء لا يحد ولا يفرغ كلام المؤرخ ان توقف كلامه في الازمنة الحديثة وما بقي
من الازمنة القديمة فهو يسير بالنسبة لذكره ولو كان عنهما متعلقا
بالازمنة القديمة لكونه قد لاحظت ذلك كان احسن لكون ما في الازمنة
القديمة يقتضي ان لا يسأل في شأنها تفاصيل كثيرة في اي وقائع اي مضت
وانقضت لاستغناء عنها ولا يستغنى عن ذلك في العهد الجديد في هذا
ان التاريخ الجديد يحتاج الى توقيع مخصوص لكل شيء مخصوص حتى يتم
شأنه وهذا يكون خيرا من جمعه على وجه ناقص ومن يستغني عن أرخ
في القديم وتخلص من تلك الورطة بوفاء ايجاد حيث امكنه الجمع بين
القديم والحديث مع عدم الاخلال بالمقصود والغرض بالاختصار وحسن
الترتيب وبلاغة العبارة ووفى بالوقائع التاريخية والدينية فتاريخه عظيم
متعلق بالديانات فذكر علم التاريخ من مبدء من المتقدمين وحكاية تقدمه من
ذلك الزمن الى الآن امر صعب ويحتاج للتطويل وبالجملة فكلما بعد التاريخ

من الناس والاشياء كان داهية معابرة للتقدم فانه يترك ما كان قليل النفع
ولا يذكر الا الاشياء الصحيحة المفيدة وقد قدمت فلسفة القرن الثامن عشر
من الميلاد التاريخ تقدما حقيقيا لكونها سلكت مسلكا آخر وذلك انهم رأوا ترتيب
الملل والسآمة على الكتب المطولة التى لا تتكلم الا على اشياء لا يبحث
عنها المتأخرون فشان الفلاسفة المتأخرين واشرفانه سلك مسلك الاختصار
فى كتابه المسمى بجميل الطوائف واخلاقهم وكان منتسكيو المسمى سبب عظم
دولة الرومانيين وانقراضها فهذان المؤلفان بينا انه ينبغى ترك التدقيق الذى
يعطل تقدم التاريخ فهما اول من شرع على منوال التاريخ الفلسفى ومن هذا
الوقت الذى هو عصرنا هذا تغير سلوك التعليم التاريخى تغيرا عظيما

وللتاريخ غرضان ان يحبب الانسان اهل زمانه وان يعلمهم التاريخ ولا تميل
الفلاسفة الا للغرض الثانى وبعضهم ان المؤرخين فى هذا العصر يبذلون
جهدهم فيه ومن اشهرهم فى ذلك ولتير وروبرتسون ومن له ذوق سليم
مثلهما انما ينظر اختلاف الاخلاق والعوائد والآراء والمذاهب بل وغرائب
النوع البشرى ويسألون عن اوائل اجتماعات الامم وما كانت عليه احكامهم
واصولهم وما نمو صنايعهم الاولية ومعايشهم واختلاف عقولهم وماهى
المضار والمنافع المترتبة على اختلاف السياسات وما اصل قوة الامم وغناهم
على اختلاف ذلك وما عقل مشاهير الناس وخصالهم الحميدة والذميمة التى
اثرت فى اهل بلادهم وما سبب تقدم التمدن والصنايع والعلوم فهذا هو غرض
العصر الذى نحن فيه وهو ما يسمى بالتاريخ الفلسفى او الادبى ومن اغراضه
اختلاط الامم بعضها ببعض بالنسبة للروابط السياسية والتجارات والاحكام
ومحبة الجنس لجنسه وقد ادى هذا الغرض مؤلف كتابنا هذا حيث ذكر فيه
تقدم الجمعيات التى حصلت فى اوربا من مدة خراب المملكة الرومانية الى ابتداء
القرن السادس عشر ورتبه على ثلاثة اقسام

القسم الاول

فى ذكر التقدم الذى حصل فى اوربا بالنسبة الى الحكومة الداخلية

والقوانين

والقوانين والآداب

تأثيرات قوة الرومانيين في حالة اوربا

اعلم انه حصل تغيران عظيمان في الحالة السياسية والاخلاق الملل الافرنجية احدهما نشأ عن تقدم المملكة الرومانية في الشوكة والآخر صدر عن خراب هذه المملكة ايضا وذلك لان التولع بالفتوحات لما وصل بالجيش الروماني الى خلف جبال الب رأى سائر البلاد التي دخلها مسكونة بامم خشنة متبربرة كان الرومانيون يسمونهم اعجاما لكنها كانت مستقلة بنفسها وكانت لافراطها في الشجاعة تحامي عن ارضها القديمة بقوة عجيبة ومقاومة غريبة لكن حسن تربية الرومانيين في التعليم العسكري كان هو السبب في نصرتهم على هؤلاء الامم لا كثرة عددهم ومع ذلك لم تكن هؤلاء الامم مثل سكان آسيا الذين هم كانوا في الارتخاء وفتور الهمة بحيث انهم بمجرد غلبتهم في واقعة واحدة ظهر انهم ودولتهم لا عدائهم بل كانوا يأخذون السلاح بهمة وشجاعة خالية عن التعليم العسكري ولكن لما كانوا ارباب همة عالية حاملة لهم على حب الحرية والتولع بالاستقلال قامت تلك الهمة عندهم مقام الفنون الحربية والتدبيرات العسكرية وفي مدة هذه الحروب الطويلة التي سفكت فيها دماء الامم كان احد الجانبين يحارب لاجل الدولة والجانب الآخر لاجل الحرية وكانت ولايات اوربا عديدة قد تهدمت على التعاقب وهلك من الاهالي قسم عظيم في ميدان الحرب وقسم عظيم ايضا وقع اسيرا في يدي الرومانيين ولما لم يمكن ان يبقى منهم احد يقاوم اعداءه دخل تحت طاعة الدولة الرومانية

الائتلاف الذي ترتب على فتوحات الرومانيين

وبعد ان خرب الرومانيون بلاد اوربا شرعوا في ادخال التمدن والآداب فيها فرتبوا في الاقاليم المفتوحة عن قرب نوعا من الحكم صعبا جدا لكنه كان منتظما مستمرا على حالة واحدة يحفظ الراحة العامة ويفيد المصلحة الاهلية واعطوا الرعايا تلك الاقاليم الجديدة فنونهم وعلومهم ولغتهم

المنافع التي ترتبت على ذلك

واخلاقهم وهذا الاوازي ما كانوا عليه من الحرية ثم ان اوربا بعد ان كابدت تلك المصائب الكبيرة وقاست شدائدها شرعت ان ترتاح وتتقوى على

تندرج وضعف مزارعها وقويت وردت لاهالى وتكاثرت وتجدد فيها
من الخيرات ما يصرف فى بعض المواضع خلل الحرب وافساده

ولكن هذه الدولة كانت بعيدة جدا عن كونها تتكفل بالراحة وسعادة الامم
وتعين على تقدم العقل البشرى فى المعارف وكانت الملل المغلوبة قد تجردت
عن سلاحها وسلمته للغالبين وكانت مضبوطة محوطة من طرف الغالبين
بعساكر مستأجرة لاجل منع هذه جميع حركاتها وكانت الاقاليم المختلفة
متروكة للحكام الذين كانوا ينهبونها بلا قصاص جميع اموالها احدثت
بالقدر المجاوزة للحد وكانت تلك الاموال المسلوبة توزع من غير عدل
ولا انصاف وكان حمل ذلك ثقيلا جدا على الرعايا حتى ان الرجال المهرة
فى الصنائع التزموا ان يتركوا اوطانهم ويذهبوا ليبحثوا عن السعادة
فى مدينة بعيدة يعتادون فيها على طاعتهم طاعة كاملة وتسليم امورهم
تسليما كليا وارشادهم فى جميع اعمالهم لملك فاعل مختار يتصرف فيهم كيف
شاء فبهذه المثابة اتى على تلك الحالة التى ينتج منها فساد العقول لم يمكن لهذه
الامم ان تحفظ شأنها وعظمها ومحبتها للاستقلال وما كان عليه اسلافها
من محبة الحرية والحرب التى اكتسبوها عن غيرهم من الامم ذهب
عن هؤلاء الخلف وانقرض بدخولهم فى الرق والخدمة ففقدوا عاداتهم القديمة
واقتدارهم على تنظيم امورهم واعمالهم بانفسهم فاحكام مملكة رومة كاحكام
غيرها من عظيم الممالك الاخرى اضعفت النوع البشرى وجعلته خبيثا بعد
ان كان طيب الاصل شريف العنصر

النتائج الرديئة التى نشأت عن الدولة الرومانية

ولم يمكن لهذه الجمعية ان تعيش على مثل تلك الحالة زمنا طويلا فان الدولة
الرومانية مع ما كانت عليه من المنظر الاكبر والترتيب الاجمل كان لها من
العيوب ما يفضى بها الى الاختلال وتقسيمها فكان هذا الداء يعظم ويكبر حتى
تكامل فسادها بانشائهم فيها تغييرات جديدة وقوانين معيبة لو خليت
وشأنها لتكفلت بخراب المملكة من غير قوة اجنبية ولكن اغارة القوطيين
والوندالين والهونيين وغيرهم من الوحشيين اسرعت فى حصول هذه الواقعة

اغارة الامم المتوحشة

وبادرت

وبادرت بتدمير المملكة حتى كأنه تولد فيها ملل جديدة رحلت من اقاليم مجهولة لينتقموا من الرومانيين في نظير سوء صنيعهم مع الناس وكانت هذه الامم الخشنة ساكنة باقاليم مختلفة من المانيا ولم تدخل اصلا في قبضة الرومانيين بل كانت متفرقة في تلك الاقاليم الواسعة التي هي في شمال اوربا وفي الشمال الغربي من ولايات آسيا وهي الآن مسكونة بالدانيمرقية ولاسوجية وللاهة والروسية وللتتار الذين لم يعرف حالهم وتاريخهم قبل هذه الاغارة على المملكة الرومانية وجميع ما نعرفه في شأنهم انما جاءنا من طرف الرومانيين ومن حيث ان الرومانيين لم يتوغلوا في داخل تلك البلاد العقيمة التي لا ينتج بها زرع لم يتركوا لنا الا تفاصيل ناقصة جدا تتعلق بحال تلك الامم القديمة التي كانت تسكنها وكانت هذه الامم متبربرة متوحشة ليس عندها شيء من الفنون والكتب ولم يكن لهم تاريخ ولا رغبة في البحث عن الوقائع الماضية وانما يمكن ان لهم بعض معرفة في كونها تتذكر بعض وقائع جديدة حديثة الوقوع واما الازمنة الخالية المتقدمة فكانت عندهم نسيا منسيا وربما غيروها بحكايات باطلة واضافوا اليها خرافات عاطلة

حالة البلاد التي خرج منها هؤلاء الامم المتبربرون

وكثرة عدد هؤلاء الامم الخشنين الذين تعلقوا بالتهافت على المملكة الرومانية من ابتداء القرن الرابع الى تدمير مملكة الرومانيين تدل الناس على ان البلاد التي خرجوا منها كانت مشحونة بالسكان وذهبوا في اسباب تلك الكثرة الى مذاهب شتى وسموا هذه البلاد منبع الجنس البشري ولكن اذا تأملنا في كون الاراضي المسكونة بهؤلاء الامم عجيبة الامتداد مغطاة في اعظمها بالغابات والبطائح وفي ان اعظم القبائل المتبربرة الساكنة بها كانت معايشهم بالصيد والمرعى وفي ان هاتين الصفتين يلزم معهما مسافات كثيرة من الارض لاجل تعيش عدد قليل من السكان وفي انه لم يكن بين هذه الامم احد يعرف شيأ من الفنون ولا من الصنائع التي بدونها لا يحصل تقدم ظهر لنا بعد ذلك ان الاراضي التي كانوا يسكنونها لم تكن معمورة في الزمن السابق ازيد من هذا الزمن مع انها الآن اقل عمارة وسكانا من باقي اقسام اوربا وآسيا

ولكن الاحوال التي جعلت اهالي الامم الحشية قليلة اعتنتهم على الميل الى الحروب وقوت قلوبهم وذلك انهم من شدة برد اقليمهم وجمد اراضيهم اعتادوا اشعلا لا يزيد قوة جسمهم وروحهم وتمرنوا على المعيشة التي يستمرون بها على دوام العمل فاحتقروا من الاشغال ما عدا الحرب فتصدوا للحروب والفجر والمضاء تجريد تهم العسكريه مع قوة عظيمة وغيرة واجتهاد بحيث ان الناس المرقحين بتهددهم بالتمدن المعظم لا يمكنهم ادراك ذلك اصلا

اسباب الاغارة الاولى

والاغارة الاولى الواقعة من هؤلاء الامم في ارض المملكة الرومانية كانت ناشئة عن محبة السلب لا انها نشأت عن ارادة صناعة ترتيب جديد فهجوم بعض رؤساء جاسرين على احد الاسلحة خرجوا من غاباتهم وهجموا على الاقاليم التي بحدود اراضيهم مع شدة الحدة التي لا تطاق فقتلوا جميع من رام ان يصادمهم في الحرب وسلبوا امتعة الاهالي النفيسة وخربوا بالحرق والاسر كل بلدة صادفوها وعادوا الى غاباتهم منصورين على اعدائهم ومعهم عدة من الاسرى ثم ان نجاحهم وما جلبوه من الغنائم وتخطيطهم البلاد المزروعة احسن من بلادهم ومدحهم لها بسبب ما وجدوه بها من الاموال وغيرها مما يحتوي كل ذلك حرض اطماع امم اخرى اخلاط مثلهم فذهبوا الى حدود الرومانيين وخربوها

علة اقامتهم في البلاد التي فتحوها

ولما خربت الاقاليم المتصلة بالحدود بما وقع من كثرة الغارات ولم يبق بها للنهب شيء اصلا بادرت الامم المتشبية بالدخول الى داخل المملكة ورأوا ان في رجوعهم على اعقابهم صعوبة وخطرا عظيما فاستحسنوا الاستيطان بتلك الاراضي التي استولوا عليها وانقطعت بعد ذلك هذه الاغارات القصيرة التي ارهبت المملكة وعبرت روضها ولكن ربما كان يخشى على المملكة مصيبة اخوف جدا من تلك الاغارات فان كثيرا من الجموع المستطيين ذهبوا باولادهم ونسائهم وعبيدهم ومواشيهم ودخلوا كالمهاجرين ليحوزوا من مساكن جديدة وذلك لعدم تعلق هؤلاء الامم الذين لا مدن لهم اصلا بل ولا محل معين بالاراضي التي ولدوا بها بل كان دأبهم الميل الى التنقل من

محل

محل الى آخر وقد تبعهم فى ذلك بسطا طوائف اخرى واخذوا محالهم فكانت البلاد التى يتركونها يسكنها على التعاقب عالم آخر حتى يأتى من البلاد البعيدة جدا وكانت كل امة تبحث عن الاقاليم الشديدة الخصوبة جدا فكانوا كالسيل يتزايدون دائما ويجذبون جميع ما يجدونه على طريقهم ومن الاغارة الاولى حصل ان الامم الخشنية المختلفة الاسماء والاجناس فى اقل من قرنين قد اغاروا على بلاد رومه وخربوها وكذلك خربوا بلاد الجار وفرانسا واسبانيا وافريقة وايطاليا بل ورومة نفسها حتى ان المبانى العالية العظيمة التى ستعرف الرومانيون فى بنائها وتشييدها ازمانا طويلا ولم تتم الا بعد تداول قرون عديدة تهدمت فى ادنى زمن وصار عاليها سافلها

الاسباب التى بها ضعفت المملكة الرومانية

ثم ان مساعدة عدة اسباب مجتمعة هيئت من بعيد هذا الانقلاب العظيم وسهلت نجاح الملل التى استولوا على المملكة الرومانية وبيان ذلك ان الجمهورية الرومانية كانت قد خضعت اقطار الدنيا بما احدثته من محكمة قواعدها السياسية وقوة شجاعتها العسكرية وفى زمن دولة الامبراطرة اهمل كل امبراطور ما كانت عليه الجمهورية من قوانين القديمة لاستحقاره اياها ثم اخذت شجاعتهم العسكرية فى ضعف على التدريج حتى كانت الجيوش الرومانية فى القرن الرابع والخامس ان تكون مخالفة بالكلية لجنود الجمهورية العظيمة التى انتصرت كل انتصار فى جميع ما دخلت فيه ولذلك ذهب هؤلاء الرجال الاحرار الذين لمجرد حب الفخر او الوطن كان يلزمهم قبل كل شئ حمل السلاح فى ايديهم وصاروا مستعوضين بالامم الخشنية الذين دخلوا فى العسكرية كرها عنهم بقليل من الجامكية ولكونهم كانوا يخدمون لمجرد الجامكية كانوا ضعافا ومتكبرين عن كونهم يضعون انفسهم لتعب الخدم العسكرية بل شكوا من ثقل اسلحتهم الحامية عنهم حتى افضى بهم ذلك الى تركها لكونهم لم يمكنهم حملها والعساكر المشاة الذين كانوا سابقا قوة الجيش الرومانى صاروا مستحقرين حتى كانت عساكر الازمنة المتأخرة مثل النساء فى الارتخاء لا يعرفون شجاعة ولا تعليما فكان لا يمكنهم السير الى

الحرب الا اذا اعطوهم خيلا ولكن هذا الجيش الذى كان مستحقرا عندهم هو الذى كان مستامنا وحده على محافظة المملكة من الاعدآء وغيرة لطم سعت عن الاهالى حمل الاسلحة فكانت الرعايا المظلومة محرومة من الوسائط ولم يكن عندها قدرة على دفع العدو ولا ميل الى الحماية عن انفسها ممن كانت تخامه لان حالتها لا يمكن اصلا ان تصير اسوأ مما هى عليه وكان كلما ضعف التعليم العسكرى ينقص على التدريج ايراد المملكة وعظم ميلهم للاسراف فى الزينة المشرقية ومفاخرها حتى اشتد ذلك فى الديوان الامبراطورى فكان يأخذ الاموال العظيمة ويذهب بها لشرآء نفائس الهند ولا يرجع اصلا وكذلك الاعانات العظيمة التى كانت تدفعها الدولة للملل المتبربرة كان يضيع فيها مقدار من الدراهم اعظم من ذلك وكذلك الاقاليم التى بالحدود خربت بالاغارات المتواترة التى كانت تقع من هؤلاء الامم الوحشيين وصارت عن قريب عاجزة عن كونها تدفع الخراج المعتاد واما امهات المدن التى كانت مجموعة من منذ زمان طويل فى تحت الدولة الرومانية صارت عاقبة امرها ان ذهبت هباء منثورا فكانها جاءت بكثرة انتقلت عنها الى غيرها وفتحت لها ابواب اخرى فصارت كالبحر الذى تحول ماؤه الى الخلجان وصار بازمانفقدت المملكة حينئذ القوة والشجاعة اللازمة لها لاجل الحماية عن نفسها ولم تفقد شيأ من اتساع ارضها وعن قريب ... جميع وسائطها وصارت دولتها العظيمة مضمحلة على التدريج حتى اشرفت على الدمار والامبراطرة الذين كانوا يحكمون باحكام مطلقة التصرف تلبسوا بالزخارف المشرقية وتشبثوا بفتور الهمة وتكسر الاخلاق وصاروا لا يخرجون من قصورهم وجهلوا الحروب واهملوا الاشتغال وصاروا تحت طاعة النسآء بل واغراض الطواشية والوزرآء ارباب الجبن والخيانة وكان يروعهم اقل قليل من الخطر ومن الاحوال التى تحتاج لكبير مشقة ومعاناة فى المشاورة والاعمال وكانوا لا يظهرون فى كل شئ الا التردد الكامل الذى يدل على الخوف والحماقة

الاحوال التى اعانت الامم المتبربرة على الفوز والنجاح

وما

واما حالة الملل الختنية فانها كانت مغايرة لحالة الملل الرومانية من كل وجه فكان الميل الى الحرب فيها محفوظا بجميع قوته وكانت رؤساؤهم ارباب شجاعة وجسارة عظيمة جدا وكانوا يجهلون الامور التى كان بها تحول الرومانيين وبطبيعة قوانينهم العسكرية كان يمكنهم بالسهولة ان يجندوا جيوشا عديدة للحرب تكفيهم من غير ان يحتاجوا لكبير نفقة وكثرة مصاريف بخلاف الجيوش الرومانية التى كانت تحفظ حدود المملكة فانها لدناءتها وفتور همتها كانت تخشى من اغارة الاعداء عليها فتهرب حين اقدامهم عليها وتنهزم فى اول مصادمة فكان يضطر كل امبراطور الى ان يستأجر الجموع الكثيرة من الامم الختنية ليقاوموا الطوائف التى كانت تأتى لتحريك الاغارات الجديدة ولكن هذه الطريقة الخطرة عوضا عن كونها تؤخر زوال المملكة بادرت بزوالها وذلك لان الجيوش المستأجرة بادرت بتوجيه السلاح الى الدولة الرومانية التى كانوا مستخدمين فيها واحسنوا حمل السلاح اكثر مما كانوا سابقا لانهم لما خدموا فى الجيوش الرومانية تعلموا شطيبات الحرب وفنونها التى كانت باقية الازدراء عند الرومانيين فازدادت تلك المعرفة قوتهم الطبيعية وصاروا لشدة شجاعتهم لا يمكن لاحد ادخالهم تحت حكمه

وهذه الاسباب المتنا ة اذا ضمت الى عدة اسباب اخر اعانت على اسراع تقدم الملل التى خربت المملكة الرومانية وفتوحاتهم هذه وقع فيها اثناء كثير لانهم خربوا سائر المواضع بالهدم ودمروا الاهالى بسفك دمائهم حتى صارت كالامواج وذلك لان الامم المتمدنة التى كانت تأخذ الاسلحة بالتوانى انما كانت سهجية فقط باسباب السياسات والاحتراس اما الان يجتمروا من خطر كان يروعهم او ليصبروا عن انفسهم بعض وقائع مترقبة فكانوا يقدمون على الحرب بلا همة وحماس وكانت المحاربة الصادرة منهم مجردة عن الارهاب والازعاج بخلاف الختنيين فانهم لم يعرفوا هذه الرقة بل كانوا يشرعون فى الحرب مع الشدة والعنفوان وكانت عاقبة امره عندهم

التخريب الصادر من الامم المتوحشة فى بلاد اوربا

الافتراس بالاعداء وكانوا يجتهدون فى ان يحلوا باعدائهم من المصائب والنكبات كل ما قدروا عليه وكان لا يسكن غضبهم الشديد الا بذبح هؤلاء الامم وتخريب منازلهم كما ان الوحشيين القاطنين بامريقة يسلكون فى حروبهم مثل هذه الطريقة الى الآن وبهذه الحروب الوحشية كانت الامم التى تسكن شمال اوربا وشمال آسيا تأتى من بلادها للهجوم على المملكة الرومانية فكانوا كلما يتوجهون الى محل يخوضون اقدامهم فى الدماء التى سفكوها لانهم كانوا يذبحون كل من صادفوه فى طريقهم ويهدمون كل بلدة رأوها ولا يحترمون احدا اصلا سواء كان من ذوى المقام كالقسيسين والشيوخ او لا كالنساء وكل ما فاتهم نهبه فى الاغارة الاولى اخذوه فى الاغارة الثانية حتى اكتسبوا مكسبا عظيما وصارت الاقاليم التى كانت خصبة معمورة جدا خراب نابية عن الانس والجليس وبها بعض خرابات من المدن او القرى المهدومة يأوى اليها عدد قليل من الامم الفقيرة التى نجت بالصدفة او لكون سيف الاعداء لم يشبع من الذبح وهؤلاء تركتهم لعودة اخرى والفاتحون الاول الذين توطنوا فى البلاد التى هدموها بعدهم وطردهم منها الفاتحون المتأخرون الذين جاؤا من الاقطار البعيدة جدا عن الدول المتمدنة والمتصفون بشدة الطمع والتوحش وصارت اوربا حينئذ عرضة للمصائب المتجددة الى ان فرغت بلاد الشمال من هذه الامم الكبيرة الخارجة من بلادهم كالنمل حتى صارت لا يبقى منها احد للهجوم وعدم استيطانهم والقحط والطاعون اللذان هما دائما من حزب الحرب نشأ منهما اتلاف جسيم وافساد عظيم فتعبت بذلك اوربا تعبا شديدا واشتد الهول على جميع الاهالى واذا اردنا ذكر الازمنة التى حصل فيها اشد التعب للجنس البشرى فانه يلزم ان نذكر ما مضى من موت الملك تيودوس الى ظهور المملكة اللمباردية فى ايطاليا لان المؤلفين الموجودين فى هذا العصر ان خطوا هذه الوقائع الناشئة عن الخراب وسفك دماء الناس لم يمكنهم ان يعبروا عنها بعبارات لائقة بها لكونها مهولة ولم يقصدوا غاية الايضاح عنها وانما سموا رؤساء

هؤلاء

هؤلاء الامم الخشنية باسم بلاء الله او مدمر الامم تسميا لافاعيلهم بالزلازل والحريق والطوفان والمصائب المروعة جدا التى يتصورها العقل ويفرضها الوهم

ولكن لا شئ يفيد ما اعظم هذه الفتوحات الحربية التى وقعت من الامم الخشنين اكثر من الاطلاع على التغيرات العمومية التى حصلت فى اوربا حين شرعت الامم فى الاستراحة فى القرن السادس وذلك لان السكسونيين كانوا اذ ذاك مستولين على الاقاليم الخصبة الجنوبية من انكلتيرة وكانت الافرنك قد استولت على الغلية واستولت الهونس على المجار والغوتة على اسبانيا وكذلك فرق من الغوتة واللومباردية استولوا على ايطاليا وعلى الاقاليم المتصلة بالحدود ايضا ولم يوجد على الارض من احكام الرومانيين وسياستهم وفنونهم وآدابهم الا ما ندر وجددوا بهذه البلاد صورا وقوانين جديدة لحكومة المماليك واخترعوا اخلاقا وملابس وهيئة جديدة وكذلك ابتدءوا الناس والبلاد اسماء غير اسمائها السابقة واستغير الكثير الحاصل بالسرعة ولو كان فى شئ واحد من هذه الاشياء المختلفة لم يكن امرا من غير اهلاك قدماء هذه البلاد ولا يمكن للفاتح الاعظم المهاب ان يتصدى لذلك من غير هذه الواسطة فحينئذ التغير العمومى الذى حصل باستيلاء امم الشمال فى دولة اوربا بتمامها هو برهان قاطع على اتلاف الحاصل فى البلاد وهو اعظم دلالة من شهادة المؤرخين الموجودين فى ذلك العصر الذين ذكروا اهوال الحرب المصاحب للفتوحات التى وقعت من هذه الامم الخشنية والخراب الذى صدر منهم من آخر نصف كرة الارض الى آخر النصف الآخر

التغيرات العمومية التى حصلت فى اوربا عن فتوحات هذه الامم الخشنية

وهذه التغيرات العمومية وقعت فى ظلام الجهالة وخفيت فيها الملل التى يلزمنا ان نبحث عن اصول ترتيبها ونكشف آثارها الاصلية وما بقى منها من الاحكام والقوانين الجارية الآن فى اوربا التى هى ناتجة عنها عن فتوحات هؤلاء الامم اراد المؤرخون بالدول المختلفة من اوربا ان يبحثوا عن اصل تسميات بلادهم وعوائدهم وانها ناشئة لهم من اهالى بلادهم القدماء

استنتاج حكومات اوربا من هذا الاختلال العمومى

ولكن الظاهر انهم فى بحثهم هذا لم يصرفوا هممهم وجميع اجتهادهم عما تحتاجه ضرورة هذه المادة ولا انصدى لان افيد فائدة على تقدم الدولة وعلى اخلاق كل ملة بخصوصها الان هذا مذكور فى التاريخ الاتى ولكن لاجل فهم حال دولة اوربا من ابتداء القرن السادس عشر يلزم ان نمهد ذلك بذكر ازمنة قبل ذلك وتبيين احوال الامم الساكنة بالشمال فى زمن استيطانهم الاول فى البلاد التى تغلبوا عليها ومن الضرورى ان الانسان يتبع التمدن الذى وقع من الملل المختلفة فى قليل من الزمن ويلاحظ الاصول والوقائع العمومية التى كانت سببا فى التقدم والبراعة الصادرة من هذه الملل فى الحكومة والاخلاق الى ابتداء الزمن الذى حكم فيه قرلوس الخامس المسمى شرلكان

الاصول التى اسس عليها الامم استيطانهم فى اوربا

ولما صار بعض الامم المحكومين بالظلم والجور فاتحين للبلاد كانت فتوحاتهم لم تنفع الا لتوسيع دولة الظلم والجور ولكن الجيوش المجتمعة من الامم الحرة ارادت ان تفتح البلاد لنفسها لا لرؤسائها فهى التى دمرت الدولة الرومانية وتمكنت فى اقاليمها المختلفة ولم تكن الحرية قاصرة على الملل المختلفة التى خرجت من شمال اوربا الذى هو دائما مأوى الحرية بل كان مثلهم فيها ايضا الهون والالان الذين كانوا قاطنين فى بعض الاقاليم التى كانت عند الناس من البلاد المستعبدة بالطبع فانهم كانوا يتمتعون بدرجة من الاستقلال والحرية التى يظهر منها قلة الامتزاج بحالة الاجتماع والتأنس وبالطاعة اللازمة لحفظ هذا الاجتماع فكانت هذه الامم تتبع الرئيس الذى كان يوصلهم لفتوحات المحال الجديدة ولم يكن ذهابه بهم للفتوح قهرا عنهم بل بالاختيار فليسوا كالعساكر الذين يجبرون على السير بل هم كالمتطوعين بذلك الذين وهبوا انفسهم لمصاحبته لكونهم ارادوا ذلك فكانوا يعتبرون فتوحاتهم كملك مشترك شائع بينهم كل واحد منهم له فيه نصيب بحيث ان كل واحد منهم اعان على الاستيلاء عليها وبذل جهده فيها ويعسر علينا ان نبين بيانا صحيحا على اى وجه وباى طريقة وزعوا على انفسهم الاراضى التى كانوا تغلبوا عليها لاننا لانعرف فى ذلك الزمن آثار ملل اوربا منسوبا الى ذلك التاريخ البعيد

واماما فى بعض التواريخ المموهة فانه لايجدى نفعا لجهل مؤلفيه
بحقيقة قصد التاريخ وعدم معرفتهم بمادته

ترتيب الحكومة الالتزامية على التدريج عند هؤلاء الامم

ولكن وجد عندهم تقسيم جديد لتلك الاراضى له اصول اخرى واخلاف
جديدة منشأمنه عن قريب نوع من الحكومة مجهول الى ذلك الزمن يسمى
الان باسم المذهب السيادى اى طريقة الحكومة الالتزامية ومع ان الملل
الشمالية الذين جددوا هذه الحكومة مكثوا فى ازمنة مختلفة البلاد التى
فتحوها وخرجوا من الاقاليم المتباينة المختلفة اللغات والرؤساء فان السيادات
الالتزامية دخلت مع قليل من الاختلاف فى جميع اوروبا وهذه المطابقة العجيبة
حملت بعض المؤلفين على اعتقاد ان جميع هذه الملل ليست فى الاصل الاملة
واحدة كثيرة الاختلافات الظاهرية ومن الصواب ان نبحث عن سبب هذه
المطابقة والاتفاق ولوفق حالتهم بعد التمدن وفق اخلاقهم الاصلية وعن
احوالهم حين استيلائهم على البلاد التى صاروا اسيادا لها ولترميها فنقول

كون الحماية الاهلية هى المقصد الاصلى من الحكومة الالتزامية

كان الفاتحون لاوروبا مشتغلين بحماية ما فتحوه ولم يكن خوفهم عليها
من خصوص الاهالى القدماء الذين خرجوا منها احيانا فقط بل كانوا يحامون
عنها ايضا من الاغارات المخوفة التى ربما كانت تصدر من الطوائف الهمل التى
كانت تهجم على البلاد وتنهب العباد فكان اعظم اهتمامهم فى البحث عن
وسائط كونهم يحامون عن التقسيم والظاهر ان هذا هو القصد فى ترتيبهم الاول
الداخلى وعوضا عما كانوا عليه من الجمعيات التى كانت خالية عن تضييق
الحرية حين كانوا فى غاباتهم وبراريهم علموا ضرورة انه لابد ان يجتمعوا بطريقة
ضيقة الترتيب شديدة القوانين وان يسقط الانسان منهم بعض حقوقه
الخاصة به ليتمتع بالامن العظيم فكل من اخذ قسما من تقسيمات تلك الاراضى
المفتتحة لزمه جبرا مجاهدة الاعداء فكانت الخدمة العسكرية شرطا به يأخذ
الانسان استحقاقه من الارض ولم يكن على هذه الاملاك شئ آخر غير ذلك
الشرط وهو الحرب فكانت المجاهدة عند هؤلاء الطوائف من قبيل المناصب
الجالبة للمنافع والمشرفة لصاحبها وكان الملك الذى هو امير الجيش يقود الملل

للحرب ويستمر على رياسة تلك القبيلة اللازمة فيلزم ان يكون سهمه من الارض اعظم الاسهم ومن ثم كانت له كفاءة يجازي بها من يتبعه ويتم عليه ويجذب اليه احزابا واحبابا بارضه ولهذا القصد كان يفرق ارضه فكل من كان يأخذ قسما يلزمه ان يدخل في العسكرية ويحامي عنه ولذا كان يتبعه في المعركة عدة رجال كل على حسب اتساع نصيبه من الارض وكان كبار الامراء يقلدون الملك في ذلك فيقطعون حصصهم من الارض على اتباعهم بالشرط المتقدم فكانت حينئذ المملكة السيادية الالترامية اشبه بحكومة عسكرية من شبهها بحكومة مدنية فكان الجيش المصور يحيط بالبلاد التي تغلب عليها وكل عرضي مطيع لاميره كان داخلا تحت طاعة التعليم الجهادي والضبط والربط وكان لفظ رجل وعسكر مترادفين على معنى واحد وكان كل صاحب ارض متقلدا بالسلاح مستمرا تحت طاعة رئيسه وكان يلزمه ان يزل الحرب لمقاتلة الاعداء العمومية

كون الحكومة الالترامية مخلة بترتيب الجمعية الداخلية

وهذا المذهب السيادي الالترامي وان كان صالحا لكونه يحمي عن الجمعيات ويذب عنها من تعرض لها من الدول الغريبة الا انه مع ذلك كان مخلا بما يلزم للترتيب العمومي والراحة الداخلية وكانت هذه الحكومة وان بلغت في كمال الشكل ما بلغت فهي مشتملة على اصول الخلل والفساد الذي حصل في جميع اجزاء المذهب السيادي حتى نشأ عنه الخراب المحزن وكان ربط الاجتماع الداخلي ضعيفا جدا وكانت منابع الخلل في انتظام الاحكام لا تعد ولا تحصى وكانت اقسام القوى بين الملكية والجمهورية غير متوازنة بقوة متوسطة معادلة بل كانت متنافرة الاحكام فاذا دخل حكم من احداهما على حكم من الاخرى حصل النزاع والمناقضة وكان امراء جميع الاقاليم الذين يدعون المرتب من اراضي يتم بها الملك عليهم ومتى اراد انتزاعها منهم فعل فقالوا بشركتهم ان هذه الاراضي تكون لهم لترامادة حياتهم وصاروا اقرب للعصيان في نصيبها متوازنة لقدرتهم ولما جاءهم الطمع الفاحش الخارج عن حد العقل على التغلب على القاب الشرف لقبوا بها

اسمهم وصارت تلك العلامة التمييزية المخصصة التي اعطتها الاهالي لابائهم في نظير ما وقع منهم من عظائم الامور متوارثة بين الاهل والعشيرة تنتقل كالالتزام منهم الى اعقابهم

ثم ان هؤلاء الامرآء العظام بعد ان امتنوا بذلك على املاكهم واراضيهم ومناصبهم المتوارثة ادت بهم الاحكام الالتزامية وقوانين اسيادية التي تميل دائما الى الاستقلال بنفسها وان كانت مؤسسة على الطاعة الى ان صاروا يبحثون عن المزايا السلطانية الجديدة فشرعوا في مشروعات خطرة توصلوا بها الى ان نالوا قوة ان يحكموا بالاحكام السلطانية في اراضيهم من غير معارض في المعاملات والحسابات وان يرخص لهم ضرب المعاملة وان تكون لهم مزية عقد الصلح واشهار الحرب مع اعدائهم فضاع معظم الطاعة السياسية ولم تبق الاصورة الطاعة الالتزامية ومن اشراف الناس من اكتسب قوة جديدة وافقة واحتقر ان يصير من جملة الرعايا ورام ان يكون مستقلا بنفسه ونقض العهود التي تربطه بتاج المملكة كثير من الاعيان فصارت المملكة المقتدرة بقوتها واتساعها منقسمة الى عدة امارات بقدر ما كان عندهم من الملتزمين الاقوياء وتفرعت اسباب الاختلال والفتنة من كل جهة حتى اوقدت نيران الحروب وولايات اوربا التي حصلت بها هذه الاختلافات التي سفكت بها كثير من الدماء وصارت في الخراب وفي الحرب الدائم كان بها كثير من الحصون والقلاع المشيدة البناء لاجل الاحتماء والمحافظة من هجوم الاعدآء الداخلية لا لمنع الاغارات الغريبة الاجنبية وتسلطن اختلال الحكم في سائر الاماكن وقامت قلة الترتيب مقام الراحة والامن هذا حال اعيان الناس واما عامتهم الذين هم القسم الاكبر والانفع للمملكة فانهم صاروا مستعبدين او ارقاء وتجرد الملك عن معظم خصائصه فصار لاقوة له على اجرآء ولا عمل القوانين النافعة ومحاكم الاحكام لا يقدر على الدفع عن البرئ ولا على معاقبة المذنبين ولم يكن للاشراف زمام يمنعهم عن ارتكاب الاشياء الرديئة اعدم بعضهم بعضا بدوام الحروب وطول ارعاياهم واستيلاء الادب على ملكهم ولكون هذه المصائب

بلغت الغاية تقوت على ممر الايام حيث طال عليها الزمن فصارت صورة هذه الحكومة التى كانت فى مبدئها جبرية محترمة لا يمكن ان يعارض فى ظلمها انسان

ضعف المملكة الافرنجية فى الاعمال الخارجية

وهذا ما وقع فى اوربا من القرن السابع الى الحادى عشر بالنسبة الى تدبير المملكة الداخلى وسائر الاعمال التى صنعتها الممالك المختلفة خارج المملكة فى ذلك الوقت كانت بالضرورة ضعيفة جدا فكيف يتصور ان المملكة الممزقة بالفتن والخلل والمحرومة من منفعة عمومية ومصلحة مشتركة يتأتى لها ان تجمع قوتها مع كونها محرومة ايضا من رئيس محترم يرشدها ويصلحها وسلوكها وان تحرك بالقوة وتعمل الاعمال الشديدة فان الحروب التى وقعت فى اوربا فى هذا الزمن لم تكن مهمة ولا متسعة للنزاع بالوقائع الهيبة بل كانت فى الحقيقة اشبه بغارات ارباب الضلال والنهب لا بالاعمال الصادرة عن الجنود المنتظمة وكان كل ملتزم متصدر امام اتباعه يستعمل بعض مشروعات حربية مخصوصة اما لتحصيل ما طمع فيه لنفسه او للانتقام من عدوه فكانت حينئذ المملكة المفرقة فى البطالة وذاهلات ما تقدر عليه عاقى جهودها الطمع الناس على تجرها ونشر وقد تجهدهم ثم وقع من كرلوس مانوس المسمى شرلمانيه انه جمع لوقت عقد هذه الجمعيات المشتتة فى جمعية واحدة وصاروا على قلب رجل واحد كانهم عضو واحد واعاد فى المملكة النشاط والقوة التى ميزت مدة مملكته على غيرها وصيرت ذلك الوقت اهلا لتعجب اهل القرون المستنيرة بالمعارف والعلوم ولكن هذه الحالة التى نشأت من القوة والاتحاد لم تكن بالطبيعة فى المملكة الافرنجية لكونها لم تمكث الا مدة قليلة وعند موت هذا الامير صار مذهبه الواسع المؤسس على الجراءة الذى كان رسمه متروكا لكونه لم يعضد بالحماسة والحمية التى كانت فى اتباعه قوية ثم اضمحلت وتفرقت مملكته الى عدة ممالك حتى صارت عرضة للمصائب والفتن واختلال الحكم ولا زالت تتزايد من هذا الزمن الى القرن الحادى عشر وجميع تواريخ الملل الافرنجية ممتلئة بحكايات الوقائع العظيمة والحروب الدائمة لكنها قليلة الجدوى

باسبابها

كون الآثار التي ترتبت عن هذه الجمعية اضرت بالعلوم والفنون

باسبابها ومسبباتها ونتايجها
ويمكن ان يضاف الى هذه الافاعيل المشومة التي تحجب من منع الحكم الالتزامي نتايج اختلال نظام الحكم البشري وذلك لان جميع الامم مادامت لم تتمتع بحكومة منتظمة يأمن فيها الانسان على نفسه فانه لا يمكن لها ان تشتغل بالعلوم والفنون وتطهر ذوقها وتحسن اخلاقها لان زمن الفتن والظلم والنهب الذي ذكرته آنفا لا يمكن ان يكون معينا على تقدم العلوم والتأنس والتعيش والاجتماع البشري ولم يمض قرن من مدة سكنى هذه الامم الخشنية في البلاد المفتوحة الا ودرست رسوم المعارف والآداب التي انشأها الروماويون في اوربا دارسة منسية لادراكها عندهم فاهملوا وفقدوا علوم الفصاحة التي هي آلة لازمة غير منفكة عنها وكذلك هجروا قاعدة فنون تكون سببا في انتظام المعيشة وصلاحها وكانوا في هذه الازمنة المشومة لا يعرفون اسماء علوم الادب ولا اسماء الفلسفة واذا كانوا يشتغلون ببعض هذه الآداب فانما كانوا يستعملونها في الاشياء الحقيرة لا فيما شأنها ان تستعمل فيه وكانت اعيانهم المتقلدون بالوظائف المهمة اميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وكذلك كان كثير من القسيسين لا يفهمون الخطب التي كانوا ملزومين بتلاوتها عن ظهر القلب دائما بل كان بعضهم لا يحسن القراءة وكانت روايات الوقايع الماضية منسية عندهم ضايعة لا وجود لها الا في التواريخ المملوءة من الوقايع والحوادث الباطلة والحكايات العاطلة وصارت القوانين التي الفتها الملل التي رات باقاليم اوربا المختلفة متروكة لا يعمل بها ولا يعتمد عليها واستعوضوا عنها عادات فاسدة مخالفة للعادات القديمة ولما تجردت هذه الامم عن الحرية والحمية والغيرة وتعذرت عندهم ممارسة العلوم وقعوا في ظلمات الجهل ومكثت اوربا مدة اربعة قرون لا يظهر منها احد من المصنفين يكون متأهلا لان ينتفع بقراءة كتابه وجديرا بان يشتهر بفصاحة العبارات وغرابة المعاني ثم يخترعوا في مدة هذا التاريخ اختراعا يكون بادعاء فيه العمومية تتشرف به تلك الاعصر

مدخلية الحكومة الالتزامية في الامور الدينية

وفسد الدين النصراني المبينة قوانينه وترتيباته في الكتب المقدسة بالتدقيق

الذي لا يقبل التغيير والتبديل والتقلب في هذه القرون المجهولة الحال الى
بدع خشنية ولما دخلت الملل الخشنية في الدين النصراني لم تغير مشربها
في العبادة وانما غيرت معبودها فكانت تبحث عما يرضي الاله الحق
سبحانه وتعالى بوسائل قليلة الاختلاف عما كانت تستعمله سابقا للتسكين
غضب آلهتها الباطلة التي كانت تعبدها وعوضا عن كونها تعمل بعمل
اهل العلم والفضيلة الذي يكون به الانسان محمودا عند خالقه المكمل للنفوس
كانت تظن انها وفت جميع التكاليف حيث دققت في حفظ البدع
والاحتفالات الفاسدة ودينهم الذي ابتدعوه واعتادوا العمل به لم يكن كبير شيء
لان اعمالهم الدينية التي كانوا يظنون انها تجلب لهم رضا الاله الحق سبحانه
وتعالى كانت لا تصدر الا عن الخشنيين الذين تخيلوا مثل هذه الامور
واحدثوها وتلك الامور الفاسدة والعقائد الكاسدة تعد من النقائص في حق
الذات العلية ومن العيوب في من يعمل بها من البشر ثم ان الملك كرلوس
مانوس في فرانسا والفريد من الاكبر في انكلتيره بحثا عن تشتيت ظلام هذا
الجهل وتوصلا الى ان يدخلا بين الرعايا بعضا من المعارف ولكن منع من تلك
القوة والترتيب موانع عديدة بسبب اهل ذلك العصر وموت هذين الاميرين كان
سببا في انغماس هذه الملل في بحار الجهالة اكثر مما كانت عليه

مدخلية الحكومة الالترامية في احوال الناس وفضائلهم

ثم ان سكان اوربا كانوا يجهلون في هذه الاعصار المشومة ما كانت تحسن
به الاعصار القديمة من الفنون بل كان لا وجود عندهم للفضيلة المميزة للامم
الخشنية وكانت قوة النفس واحساس مقامها والشجاعة في المشروعات
والتجلد لشديد الامر واقتحام الاخطار واحتقار الموت كل هذه الفضائل كانت
مختصة بطبيعة الامم التي لم تصل الى درجة التمدن ولكن هي نتائج المساواة
والاستقلال الذي ازالته محبة القوانين الالترامية في سائر الاماكن كان محبة
الاستيلاء والحكم افسدت ارباب الشرف وثقل الاستعباد سخف منه الامم
والاحكامات الشرعية التي كان يستند عليها التساوي محيت بالكلية ولم يبق
مانع يمنع القوة الوحشية والافتراس وكذلك لم يوجد للشهوات النفسانية

الصعبة جدا ومما يمنع فساد حالة الجمعية البشرية والحالة التى فقد فيها الناس استقلالهم وعظيم اخلاقهم الاصلية قبل ان يصلوا الى درجة التمدن التى فيها احساس العدل والشرف وقد اختص تاريخ الازمنة التى نتكلم عليها بعدة اعمال كثيرة يتعجب منها القارى ويعدها من الامور الشنيعة لا توجد فى غيره من تواريخ اوربا واذا كشفنا تاريخ غريغوار التورسانى وفى تاريخ المؤرخين الذين فى عصره وجدنا فيهما شيا كثيرا من اوصاف الجبروتية العهدية والانتقامات الموجعة للنفس مما لا يصدق به العقل

شروع الحكومة والاخلاق فى الكمال من القرن الحادى عشر

ولكن يوجد على قول مؤرخ فصيح مطلع على التواريخ يسمى هومة ان الانسان اذا وصل فى حضيض الانحطاط او الى اوج الارتفاع فانه يرجع فى الضد ولما اعترى الحكومة عيوب فى صورتها او تدبيرها نشأ عنه فى الجمعية الخلل الذى لا يطاق ولا يصح ابقاؤه فبحثت المصلحة العمومية عن بعض علاجات تزيل بها هذه الضرر وكان يمكن للناس ان تهمل زمنا طويلا بعض الاضرار والظلم او تتحمل ذلك لكن متى بلغ الضرر الى درجة عالية فانه لا يمكن للجمعية الا ابطاله او تهلك وظلم الحكومة السيادية باتصاله مع الى فساد الذوق السليم والاخلاق المستقيمة التى هى نتيجة هذه الحكومة لم يأخذ فى الزيادة مدة سنين كثيرة والظاهر انه وصل فى آخر القرن الحادى عشر الى اقصى درجة فى الزيادة وبعد ذلك اخذ سير الحكومة واخلاقها فى التنازل ويمكن ان نصعد الى ذكر اسباب الوقايع التى نتج منها ازالة تحلل الترتيب والخشونة وترتب بدله الادب وانتظام القوانين

وليس من اللازم فى البحث عن الوقايع واسبابها ان نتبع مع الصحة ترتيب الازمان التى تخص التواريخ بل الاهم والاحسن ان ننبه على ارتباطها وتعلقاتها ببعضها وكيف ان الواقعة نشأت عنها واقعة اخرى بعد غلبتها القوية وقد تبعنا الى الآن تقدم الجهالات المتزايدة المتتابعة التى سترت اوربا زمنا طويلا ولا بد الان ذكر شعاعات ضياء العلوم والتقدمات التدريجية التى وصلنا بها الى هذه الدرجة من العلوم التى نحن عليها الان

ما نتج عن مجاهدة اهل الصليب مع اهل الاسلام من تغير الحكومة والاخلاق

ومجاهدة اهل الصليب مع اهل الاسلام لاجل ان يأخذوا ارض القدس يظهر انها اول حادثة اخرجت اوربا من بحر الغفلة التي كانت هي منغمسة فيه مدة احقاب طويلة وكانت حاملة على تحصيل بعض تغييرات في حكوماتهم واخلاقهم ولا بأس باحترام الاماكن المشهورة بكونها مسكنا لبعض الافاضل المشاهير او ميادين لبعض اعمال مشهورة وحوادث مأثورة وهذا الاصل هو منبع العبادة المدققة التي حملت النصارى من ابتداء القرون الاولى على الرغبة في زيارة البلاد التي عينها لهم الله سبحانه وتعالى لاجل وراثة بني اسرائيل ولان فيها عيسى ابن مريم الذي بعث لخلاص البشرى ومثل هذا الحج العظيم لابد له من الاسراف وكثرة التعب وشدة الخطر فصار التقديس عندهم افضل كل ما اشتمل على الاخطار لانهم يعتقدون انه مكفر لعظيم سيآتهم

وفي آخر القرن العاشر وابتداء القرن الحادي عشر طرق اوربا على حين غفلة رأي عظيم انتشر عند جميع الناس وازدادت به رغبة الحجاج المتعبدين على وجه عجيب وذلك لرأي هو انهم تخيلوا ان الالف سنة تنتهي في قيام الساعة على ما ذكره مارى حنا وهذا الضرب نشأ عنه خوف وفزع عظيم عند سائر النصارى حتى ان عدة اشخاص تركوا اموالهم واملاكهم وعائلاتهم واحبابهم وذهبوا بالسرعة الى بلاد القدس لظنهم ان عيسى ابن مريم يظهر فيها حالا ليحكم بين الناس وكان الخلفاء المشهورون بالمعارف في مدة ما كانت بلاد القدس تحت حكمهم يعينون النصارى على الذهاب الى مدينة القدس لان ذلك عندهم كان نوعا من التجارة ذا ربح عظيم وكان يدخل في بلادهم كثير من النقود في مقابلة الذخائر والتعبدات الوثنية ولكن لما اخذت دولة الاتراك بلاد الشام في اثناء القرن الحادي عشر وجد الحجاج انفسهم عرضة للتنقيص واساءة الادب من هذه الامم المفترسة وقد صادف هذا الانقلاب الزمن الذي وقع فيه الفزع الخوف الذي هو انتظار قيام الساعة الذي صير الزيارات كثيرة عديدة فنشأ عنه الحزن وعموم الغضب في سائر بلاد الافرنج وذكر الحجاج الذين عادوا

من القدس ما وقع لهم من الشدائد وما قاسوه من الاخطار وبالغوا في الجور
والظلم الذي وقع بهم من معاملة الاتراك الرديئة

انتهاز فرصة المجاهدة الصليبية

وبينما عقول الناس كانت حينئذ مستعدة لاجابة الدين واذا براهب ذي حمية
دينية خطر له ان يجمع سائر قوات النصارى ويجز بها على المسلمين ليطردوهم
قهرا من ارض القدس فكانت غيرته وحميته سببا في انجاز تلك المشروعات
الغريبة وهذا الراهب هو المسمى بطرس ارميطه وهو من دعاة دين النصرانية
المجاهدين فسافر وصورة المصلوب في يده وصار ينتقل من اقليم الى آخر حتى
هيج الملوك والرعايا على الشروع في الحرب المقدس واضرم وعظه في جميع
العقول نيران الحمية النصرانية عن كان يحبه وقضى مجمع مدينة بلزنسه الذي
كان بحضره اكثر من ثلاثين الف شخص ان مقصد هذا الراهب كان الهاما الهيا
ووجد ارباب الملل عرضوا ذلك على مجمع ثاني بكلرمونت الذي يزيد عدده
على الاول بكثير صاح جميع الناس قائلين هذا قضاء الله فانتشرت هذه الحمية
العصبية بين سائر الناس على اختلاف مراتبهم ولم يختص الاشراف والسادات
الموجودون في هذا العصر بالسير للجهاد مع رعاياهم لكونهم فتنوا وحدهم
بجسارة هذه التجريدة الطويلة بل كان فيها ايضا عدة اشخاص من ارباب
الحول وعدم الميل الى الخصام ومن القسيسين على اختلاف مراتبهم بل ومن
النساء والصبيان ايضا فقصد كلهم هذا الحرب لكونهم كانوا يرونه شريفا
كالعبادة وكلام مؤرخي هذا العصر يقتضي ان عدد من حمل الصليب في هذه
الغزوة كان ستة ملايين من المحاربين وكان هذا الصليب علامة تميز بها
كل من تقدم لهذا الحرب المقدس فلذلك سمي بحرب اهل الصليب وقالت
الاميرة المسماة كومنينه يظهر ان اوربا انتزعت من مواطنها لتنزل بثقلها
على اسيا ولم تذهب نشوة هذه الحمية الدينية بعد زمن يسير بل انها
استمرت زمنا طويلا حتى سئم منها وصارت ذميمة فكانت اوربا ترى انه
ليس لها غرض آخر الا فتح ارض القدس ومحافظتها ولم تزل تبعث
على التعاقب جيوشا عديدة

شجاع مجاهدين

ولم يمكن بوجه من الوجوه مقاومة قوة الجيش الاول الذى حرصت شجاعته شجعان العرب الدينية فاخذ النصارى من الاسلام قسما من اناطولى والشام وبلاد فلسطين وصارت راية الصليب منصوبة على جبل صيهون وتغلبت فرقة من هؤلاء الاخلاط الذين اخذوا السلاح لحرب الاسلام على مدينة القسطنطينية التى كانت تحت المملكة النصرانية فى المشرق وصارت فى مدة نصف قرن دار اقامة الفرنسيس الفلندرة وذراريه وهذه الشدة الغير المعهودة التى نشأت عن المصادمة الاولى الواقعة من النصارى صيرت فتوحاتهم الاولى سهلة لا تعب فيها ولكن صعب عليهم جدا فيما بعد حفظ تلك الفتوحات حتى ان عدم من الترتيبات العديدة عن اوربا المحيطة بالمدن الحربية والمقواة بالحمية الدينية التى لم تعقبها شجاعة المجاهدين كانت دائما عرضة للحرب وقبل انتهاء القرن الثالث عشر سنة ١٢٩١ خرج النصارى مطرودين مما كان تحت ايديهم من ممالك اسيا بعد ان كانوا قد صرفوا فى فتوحاتهم اموالا كثيرة وهلك بسببها من الرجال عدة ملايين فحينئذ هذا المشروع الذى لم تجتمع الملل الافرنجية لغيره كاجتماعها له حتى استولوا عليه مع الشجاعة والجد هو الآن معدود من الجنون البشرى الظاهر

تأثير هذه المجاهدة فى تحسين الاخلاق فى اوروبا

وهذه الغزوات وان كانت من باب الحمق والسفه الا انها نشأ عنها نتائج سعيدة لم تكن ممكنة عندهم بل كانت لا تنتظر ولا تتوقع وذلك ان ارباب الصليب من وافى منهم جهة بلاد القدس بارض مصر من حسن زراعتها اكثر من اراضيهم وبدول متمدنة اكثر من تمدن دولهم وكانوا يتمعنون فى مدة اسرهم فى ايطاليا وكانت مدينة البندقية وجنوة وبيزة ومدن اخرى شرعت تجتهد فى التجارة واشتغلت بالتأدب وسلوك طريق الغنائم وبعد ذلك ذهب اهل الصليب بحرا الى ولاية دلماسيا وساروا منها برا الى مدينة القسطنطينية وكانت الدولة المشرقية الرومانية تمنعها غاية عن الميل الى الحرب والجهاد مدة احقاب طويلة كان وجور الحكام الخطر جدا قد محق من تلك الدول جميع الفضائل العمومية ولكن مدينة القسطنطينية التى هى دار مملكة تلك الدولة

والتى

والتي لم يخربها الملل الحنفية كغيرها كانت اعظم مدن اوربا فكانت مختصة بكونها بقي فيها بعض اشياء من التمدن وحسن التربية القديمة ولم تتغير كغيرها بهجوم المتبقين عليها وكانت قوة مملكة المشرق العربية عظيمة جدا وكانت مزينة بالمعامل العظيمة التي لم تزل باقية الى ذلك الوقت وكانت مدينة القسطنطينية وحدها تجرب بضائع بلاد اوربا الآتية من بلاد الهند ومع ان العرب والعثمانية استولوا من هذه المملكة على عدة اقاليم من اقاليمها الغنية وحصروها في حدود ضيقة جدا كانت صنائع المدينة القسطنطينية سارية في مثل اهلها التربية والعلوم والاشياء الفاخرة وبهذا كانت تفوق اوربا بتمامها وقد وجد اهل الصليب الحربيون في سوريا نار العلوم والفنون التي اعان الخلفاء على تحصيلها في الديار الاسلامية ومع ان مؤرخي اهل الصليب بذلوا جهدهم فيما عدا حالة الجمعيات المشرقية واخلاقها وكان اغلبهم لا ميل له ولا رغبة عنده في كونه يرصد ما يراه ويكتبه فقد وصفوا لنا وصفا عجيبة في مروءة الملك صلاح الدين وكرمه وكذلك مروءة وكرم غيره من امراء الاسلام واكتسبوا من اخلاقهم الجيدة ما اكتسبوا اذ لا يمكن لاهل الصليب ان يجربوا مثل هذه البلاد المشتملة على القوانين والعوائد المختلفة من غير ان يكتسبوا من علومها ومعارفها شيئا جديدا فلهذا اتسعت اطماعهم وصعقت اوهامهم وتصورت اذهانهم تصورات اخرى نافعة وادركوا بتكاثر الفرص عندهم ان ما كانوا عليه من الاخلاق خشن بالنسبة لاخلاق المشرقيين السياسية وكانت هذه التأثيرات قوية جدا حتى انها لم تمح من حافظتهم حين رجوعهم الى اوطانهم ومسقط رؤوسهم وكان من مدة قريبة بين اهل المشرق والمغرب تجارة دائمة وكانت الجيوش تتجدد عندهم دائما وتتردد من اوربا الى آسيا واما اختلاط العساكر المجتمعة من الجهات المختلفة فكانت ترجع الى محالها مستصحبة للعادات التي اكتسبتها في مدة طويلة من الاراضي العربية ولهذا شوهد بعد زمن قليل من ابتداء محاربة اهل الصليب ظهور

تحسينات كثيرة في دواوين الامراء وزينات جليلة في المحافل العامة والجوامع المدنية وزخرفت جليلة في الاعياد والمواسم ومجامع المسرات حتى صارت حكاية الحوادث محبوبة لديهم وانتشرت دائرتها في جميع بلاد اوروبا شيأ فشيأ فالفضل في تمدن الافرنج لهذه الغزوات التي هي من الاعجوبات الخارقة والبدع لانها هي السبب في دخول اوائل انوار المعارف التي اذهبت على التدريج ظلام الجهل والخشونة ولكن لم تظهر آثار اضاءات النافعة ونتائجها الا مع التراخي والمهلة فان تأثيرها في حالة ملكية الاراضي وتحكمهم من التصرف فيها صار اقوى واعظم مما كان ولما عزم الامراء من اهل الصليب على التوجه الى بلاد القدس رأوا انهم محتاجون لمصاريف كثيرة في هذه الغزوة الكبيرة لتظهر رياستهم على اتباعهم وعلو مقامهم عنهم ولكن لما لم يسوغ لهم اصطلاح مذهبهم الالتزامي ان يجعلوا على رعاياهم غرامات كثيرة لم يعتادوا على دفعها لم يجدوا سبيلا لما احتاجوه من تلك المصاريف الا بيع اراضيهم ولما كانت عقولهم مملوءة بالتصورات الوهمية التي كانوا ينتظرون حصولها بعد الفتوحات التي عزموا على عملها في آسيا برغبة عظيمة صيرت غيرها من شهواتهم غرضا غير مرغوب فيه ولا مهتم به تركوا عقاراتهم وباعوها من طيب نفس بثمن بخس ليدخلوا بصفة المهاجرين للبحث عن الاستيطان في البلاد المجهولة هذا ولم يتفق لاحد من عظماء ملوك اوربا انه دخل في المحاربة الاولى بل ارادوا كلهم ان ينتهزوا الفرصة في ان يجمعوا بقليل من المصاريف اراضي جديدة ويضموها الى رعاياهم الخصوصية وكان ايضا الذاهبين في هذا الحرب المقدس احد من الامراء العظام ولم يترك وارثا آلت التزاماته ملكا للملوك فزادت بذلك املاكهم وقويت شوكتهم وكذلك حكومتهم السلطانية واجبر ما كان فيها من الضعف بسبب كثرة الملتزمين وحصل لهم ايضا بسبب غيبة جماعة من اتباعهم ارباب الشوكة المعتادين على الزام ملوكهم ان يحكموا بينهم بقوانين رسموها لهم فرصة أن يوسعوا تصرفهم ومزاياهم ازيد مما كانوا عليه ولنذكر زيادة على ما سبق انه كان عندهم ان كل

تأثير حرب اهل الصليب في الامن على الاملاك

من

من اخذ الصليب يكون تحت حماية الكنيسة التي كانت تلعن كل من اراد ان يضر من تحت حمايتها في هذه القرون المقدسة اوليس الادب عليهم واب المشاجرات والشرور الخصوصية التي لم تزل الى ذلك الزمن مبعدة حسن الترتيب والصلح من جميع الدول الافرنجية علقت دفعة واحدة بل بطلت بالكلية

وادارة العدل شرعت تأخذ لها صورة مستحسنة امكن وانم بعد ما كانت هي عليها واخذوا في سلوك طريق ترتيب المذهب المنتظم في ادارة وسياسة ممالك اوربا العظام

تأثير حرب اهل الصليب في التجارة

ولا آثار التي نشأت عن المحاربات في حالة تجارة اوربا لم تكن اقل قوة مما ذكر آنفا فان العساكر الاول الذين جعلوا انفسهم تحت حكم بيرق الصليب وكانوا مع بطرس لرميت وعودفرواد ونوابون دخلوا الى قسطنطينية من طريق الماينا وبلاد المجر وقاسوا من طول السفر اكثر مما قاسوه من توحش اهالي هذه البلاد وافتراسهم وللماعات الجيوش التي ترتبت بعدهم ذلك وكانت مزهرة بتجربيات الاول احترسوا من كونهم يمشون في الطريق التي مشت فيه تلك الجيوش وارادوا ان يسافروا في البحر فرارا من ان يقعوا في هذا الخطر فقدم لهم اهالي مدينة البنادقة وجنوبرة وبيزة مراكب الحمل ليسافروا فيها واخذوا في نظير ذلك منهم مصاريف عظيمة ومع عظمها الامر فيها بالنسبة لما اخذته اهالي تلك المدن مكسبا من غزوة الصليب وذلك ان اهل الصليب اتفقوا معهم على ان يتزودوا من عندهم ويأخذوا ذخائر الحرب منهم مدة سير الجيوش في البر فكانت السفن تسير قريبا من شاطئ البحر لتعطي للجيوش جميع ما يلزم لها فكان هذا النوع من التجارة خاصا بها دون غيرها وتشأ عما اكتسبه مما يقا عساكر المحاربين من الفلاح منافع عظيمة جدا للمدن التجارية ويوجد الى الآن كتب من القوانين التي اعطيت بها البنادقة واهل بيزة والجنوبرة المختصر التجارية في المحال الافرنجية المتحدة للتجارة والاقامة في آسيا فكانت جميع بضائعهم سالمة من سائر المكوس وكانوا قد اعطوا لارباب التجارة املاكا

من الضواحي والبساتين التي تحاذي بعض المدن البحرية واعطوهم في بعض اخر كثيرا من البيوت والحارات العظيمة وكان لهم ايضا بموجب هذه القوانين خصوصية كونهم يجرون الاحكام على مقتضى القوانين ويعينوا قضاة لفصل الخصومات الواقعة من ارباب التجارة الذين تحت حمايتهم ومن الذين كانوا مستوطنين في داخل البلاد التي اعطوها اليهم ولما تغلب المحاربون من اهل الصليب على مدينة القسطنطينية اجلسوا واحدا منهم على كرسي المملكة المشرقية فاغتنمت دولة ايطاليا فرصة هذه الانقلابات وذلك لان البنادقة الذين كانوا في هذه الحروب وكان لهم فيها معونات بحثوا بمجرد تمامها عن اجتلاب منافعها لانفسهم فاستولوا على قسم من اقسام مورة في بلاد اليونان وعلى بعض جزائر خصبة جدا من جزائر بحر الروم وكانت عدة فروع مهمة جدا من التجارة مخصوصة الى ذلك الزمن بالقسطنطينية فنقلوها الى البنادقة وجنوة وبيزة فكانت الوقائع المختلفة المسببة عن الحرب الدي فتحت باب عدة منابع جديدة من الغناء والكنوز التجارية بمجرد دخولها في مدن ايطاليا ذات الثروة وبعدما مهدت الى القانون الاتي ذكره اعانت على ترتيب استقلالهم وجريهم على قاعدة مثبتة جدا

وفي هذا الزمن بعينه صارت المدن حصينات ولمبنية واستعدت لكونها حكومة بلدية وهذا التدبير هو اقوى الاسباب التي ادخلت اصول انتظام الممالك والسياسات والعلوم في اوربا

اعانة ترتيب التجارات على تقدم الحكومة

وكانت الحكومة الاستبدادية الاشرافية قد استطالت الى الظلم فكان جور اشرافهم لا يطاق لتجاوزه الحد حتى انهم اكرهوا الرعايا على الخدمة والاستعباد الحقيقي وكذا من بقي من الناس الذين كانوا يسمونهم باسم الاحرار لم يكونوا الطف حالة من هؤلاء الرعايا بل كانوا امثالهم في الرعية ولم يكن هذا الظلم خاصا بسكان الخلاء والارياف بل كان عاما لمن كان من الاهالي فلاحا او اشراف حتى صارت المدن والقرى مجبورة على شرا حمايتهم لكون حكومتهم بلغت لغاية في الظلم وذلك ان الاهالي كانوا ممنوعين من حقوقهم الطبيعية اللازمة

للنوع البشرى فكان لا يمكنهم ان يتصرفوا فى منافع صنايعهم لا بالوصية ولا بغيرها مدة حياتهم ولا ان يعينوا اوصيا اصغار اولادهم ولا يتزوجوا الا بعد اخذ الاذن من ملتزميهم وكانوا ايضا اذا شرعوا فى فصل خصومة لا يمكنهم اتمامها على وجه اصح لان ذلك كان نوع الملتزم الذى كانت محكمته مرجعا لمن الحكم ان يكتسب ما يعود عليه من محصول الدعوى وكان الملتزم يكلف اتباعه بانواع الخدم الشاقة من غير حلم ولا شفقة بل كان غالب معاملاتهم بالذل والقساوة وكان الميل الى البراعة فى الصنايع ضعيفا فى بعض المدن بقوانين فاسدة وفى بعض آخر مشكلا بما لا يطاق وبالجملة فقوانينهم المؤسسة على التشديد والظلم تجاوز الحد التى لا تناسب الا الحكومة العسكرية كانت تنافى مع تقدم الصنايع عندهم على اختلافها

ولكن لما شرعت مدن ايطاليا فى الالتفات الى التجارة ونهضت بعض صناعات نافعة بحيث يمكنها ان تخرج من ضنك شدة خطب لها ان تخرج من تحت ذل الملتزمين الذين كانوا يودونها وان ترتب لنفسها حكومة مؤسسة على الحرية والمساواة وامن الناس على املاكهم ومعرفة الفنون والصنايع عندهم * وسلاطين المانيا الذين كانوا من عيلة فرنكونية وسوابة وكانت اوطانهم بعيدة عن ايطاليا لم يكن حكمهم فى هذه البلاد قويا متسعا بل كان قليلا ضعيفا وكانت عداوتهم الدائمة مع الباباوات ومع اتباعهم تحملهم على شغل الزمن بالقتال بحيث لا يمكنهم ان يلتفتوا الى داخل ايطاليا وهذه الاحوال قوت فى اول القرن الخامس عشر عدة من مدن ايطاليا على كونها تطلب امتيازات جديدة وتجتمع مع بعضها بروابط صفقة كالمعاهدة والمحالفة بحيث يكون جمعية سياسية تحكم نفسها بموجب قوانين مرتبة باتفاق عمومى من الاهالى فقد اكتسبت عدة مدن حقوقا باغتصاب اما بمساعدة الفرصة والاتفاق وبالتجاسر ومدن اخرى اشترتها من السلاطين الذين فرحوا بكونهم باعوها باغلى ثمن حيث انهم كانوا غير قادرين على حمايتها والامتناع من اعطائها ومن المدن ما احدث من نفس الامر امتيازات لعدم

ومساحتهم • وزيادة الغنى العظيمة التي نشأت في ايطاليا من حرب اهل الصليب مع اهل المشرق حثت جميع الناس على انواع من العتق والعصيان واحدثت شهوات عمومية موجبة لمحبة الحرية والاستقلال حتى انه قبل آخر الغزوة الصليبية الاخيرة اشترت جميع المدن العظيمة الايطالية من السلاطين كثيرا من الخصائص والمزايا

ادخال الحرية في فرانسا وغيرها من باقي ممالك اوروبا

وهذه الحادثة الجديدة بمجرد وقوعها في ايطاليا شرعت في الدخول في فرانسا واجتهد لويز لوغروس اي السمين في احداث قوة جديدة لتعادل قوة الملتزمين التابعين له الذين كانوا يتبايرونه بما يستحسنونه من القوانين فبذل له قبل غيره ان يشتري خصائص وحقوقا جديدة على المدن التي في التزاماته الملكية وبهذه المزايا المعطاة بمقتضى قانون نامة الجمعية البلدية اعتق الاهالي وبطل جميع علامات الاسترقاق وجعلهم جمعيات وصيرهم محكومين بمجالس وقضاة وحكام انتخبوهم بانفسهم وجعل لهؤلاء القضاة حقا في ان يديروا اراضيهم ادارة شرعية وسياسية وان يعينوا الفرد والغرامات وان يجلبوا عساكر المدينة ويعلموهم وبمجرد طلب السلطان لهم يسيرونهم للحرب تحت اوامر الضباط المعينين بدون المدينة فهذه مارسه لويز في التزاماته واقتدى به في ذلك الملتزمون فانعموا باعطاء مزايا مشابهة لها في التزاماتهم ولما نفدت اموالهم العظيمة التي صرفوها في حرب بلاد القدس بادروا بسلوك طريق جديدة ليحصل لهم شيء من الاموال فباعوا قوانين نامة الحرية ومع كون حكومة الجمعية الحرية مخصصة لاصولهم السياسية ومضادة لقدرتهم كانت ضرورتهم الحالية حاملة لهم على عدم الاكتراث بما يترتب على ذلك بعد من الاخطار البعيدة وفي ادون قرنين بدل الرق في غالب قرى فرانسا التي كانت محروسة الى ذلك الوقت من الحرية والحكومة الشرعية واختصت بعض قصار وبذلك جمعيات مستقلة واحرارا وفي ذلك الزمن ايضا شرعت مدن المانيا العظيمة في كونها تنسج على منوالها وتستقل بنفسها وترتب حريتها التي هي اساس ما هم عليه من الحرية الآن فانتشرت هذه الطريقة في اوروبا ودخلت

في جميع

في جميع بلاد ايطاليا واسبانيا والانكليز وافرنسا وسائر الدول التي كانت حكومتها التزامية

ظهور نتائج سعيدة لهذه الترتيبات الجديدة في حالة عموم الاهالي

وعما قليل ظهرت عندهم ثمرات ناجحة من هذه الترتيبات الجديدة التي كانت واسطة قوية نافعة في تحسين الحكومة والاخلاق فمن ذلك ان الاهالي خرجوا من ذل الاسترقاق ودفع الغرامات الظالمة الثقيلة التي كانوا ملزومين بها سابقا لملتزميهم وصارت المدن بما اكتسبته من حق الجمعيات المدنية منقسمة الى عدة جمهوريات صغيرة محكومة بالقوانين المعروفة لجميع الاهالي والمسوية بينهم فكانوا يرون الحرية كأنها جزء منهم من القانون بحيث كان من قوانينهم ان المستعبد الهارب من بلاده الداخل في حماهم اذا مضت عليه سنة ولم يبحث عنه سيده ينادى عليه بانه رجل حر ويدخل في عداد اعضاء الجمعية المدنية

نتائجها السعيدة في حالة خواصهم

ولما نالت فرقة من الامة حريتها من تجديد الجمعيات المدنية المتكفلة بالتسوية والحرية اكتسبت الفرقة الاخرى بذلك ايضا طمأنينتها وامانها وذلك ان حكومات اوربا مكثت عدة قرون وهي خشنة بحيث كان كل انسان مجبورا على حفظ حقيقته بدخوله تحت حماية امير قادر له قصر يكون في زمن الخوف حمى وملجأ عموميا تفزع الناس للاختفاء فيه فلما تجددت هذه الجمعيات المدنية امنت المدن ووجدت نفسها حيث احاطت بها الاسوار وانتظم سكانها باشتغالهم دائما بالتعليمات العسكرية محمية باسلحة عمومية فكانت مجبورة بما التزمته من العهود الوثيقة على حماية نفسها ودفع بعضها عن بعض ولذلك كان للعوام حمى يأمن به الخائف ويرتاح فؤاده وفقدت الخواص عن قريب سلاطتهم بمجرد بطلان اختصاصهم بكونهم ارباب الحماية التي كانت الامم تلتجئ اليها للاستغاثة من شدة الظلم وصارت حماية هذه الجمعية البلدية مقصورة على القوانين المدنية

نتائجها السعيدة في قوة السلطنة وشوكتها

ولما اعطيت المزايا والخصائص للمدن فما نقصته من قوة الخواص زادته في شوكة السلطنة ولما كانت الحكومات الالتزامية خالية عن الجيوش

لمناه المنتظمة كان ملوكها عاجزين عن المحاربة الا بالعساكر التى تعطيهم اياهم اتباعهم الذين كانوا مرارا على خلاف ملوكهم وكانوا دائما يرغبون فى استقلال انفسهم وفى الخروج عن الطاعة ولم يكن ايضا للملوك فيما سلف اسباب اخرى تساعدهم على مصاريف المصالح العامة الا ما كان يعطيه اياهم هؤلاء الاتباع مع التقتير والنفور وغالبا فلما رخص لارباب الجمعية الجديدة ان يحملوا السلاح لحرب اقسامهم كان ذلك دواء للدولة الاول بحيث كان يمكن للملك ان يجند جنودا مستقرة غير مفوضة لاحد من الامراء الملتزمين وكذلك لما رأت اهالى المدن ان الملوك الذين اعانوهم على الحرية والذب عن خصوصياتهم حيث ابعدوا عنهم ظلم الملتزمين ازدادت محبتهم فيهم فكانوا دائما يسعفونهم بالاموال حتى نشأ عن ذلك قوة الدولة وشوكتها وامكان هدم دولة الملتزمين

تزايد الصنائع وغيرها

وقد نشأ عن التمتع بالحرية تغيرات سعيدة فى مراتب الجمعيات المدنية ورفعتها بحيث انهم فى اقرب زمن خرجوا مما كانوا عليه من الاحوال القديمة كالبلادة والبطالة حيث كانوا مستمرين على طيب انفسهم والاسترقاق وقويت رغبتهم فى الصنائع واعتنوا بشأن التجارة واجتهدوا فى اظهار رونقها وتكاثرت الاهالى على التدريج بالحرية فهذه المدن التى مكثت مدة طويلة محلا للفقر والظلم ظهر بها العمار والاستقلال وسرت ثروتهم الى الخول والرفاهية الذين يجمعهما الرسم عادة ومع ان هذه الرسمة كانت غير نوعة للذوق نتج منها كثير من الآداب وتظرف فى اخلاقهم واحوالهم ونشأ عن ذلك تغيرات اخرى فى الحكومة ونشأ ان الضبط والربط اخذ فى التكامل كلما ازداد عمران المدن بالاهالى وكثرت بينهم المعاشرات والمخالطات فاستشعروا بضرورة ترتيب قوانين جديدة وفهموا ان من المهم لاجل طمأنينة الجمعية المدنية العمل بها مع التدقيق والمواظبة وان من خالفها يعاقب بالسرعة اشد العقوبة فنشأ عن هذه القوانين وتهذيب الاخلاق وجعل الناس درجات قد تولدت فى المدن ثم انتشرت فى سائر اقسام الجمعيات الاخرى

وحين

اكتساب سكان المدن القوة السياسية لكونهم ارباب القوانين

وحيث نال اهل المدن الحرية الشخصية وان تقام عندهم احكام قانونية
خصوصية اكتسبوا ايضا الحرية الداخلية والقوة السياسية وكان من
قواعد المذهب الالتزامى ان الرجل الحر لا يدخل تحت طاعة القوانين
الجديدة ولا يدفع الغرامات الا بعد رضاه بها فكان كل بارون يحضر تابعيه فى
مجلسه ويتفق معهم على كل ما يستحسنونه من القواعد ويرونه نافعا
لحميتهم وكانوا يعدون بارونهم فى هذا الوقت بامدادات على قدر اموالهم
وحاجاتهم

وكان الامراء بموجب قانون من قوانين الحكومة مخصصين فى ان يدخلوا
فى مجالس الملك العالى ويشتركوا مع الملتزم فى عمل القوانين وتعيين الغرامات
وكان الملتزم الذى هو سيد الامراء وصاحب الالتزام له سابقا الحق فى كونه له
الملك الحقيقى فى الاراضى التى اعطى منفعتها رمزا عن الايات عنه فلما صارت
الالتزامات فيما بعد وراثية كانت من العادة ايصال الايجار به باقيه فكان البارون
مفطورا كانه وصى على من كان مقيما بارض التزامه وكانت المشورة
العمومية لكل ملة على اى اسم نسمت به على اختلاف الملل مركبة سابقا من
خصوص الملتزمين والقسيسين اصحاب الرتب وكانوا فى الدرجة بعد الملك
وكانت المدن التى فى التزام الملك او فى التزام احد من الرعايا محتاجة لحماية الملتزم
التى احدث منه ولم تكن موصوفة بوصف شرعى او سياسى يرخص لها
الدخول فى مجالس ترتيب القوانين وتنظيم الاحكام ولا ان يكون لها نفوذ كلمة
لكن بمجرد ما خلصت من الاسترقاق وصارت جمعيات سياسية انقسمت
اقساما شرعية مستقلة منفصلة عن القانون الالتزامى القديم وعنيت
بالحقوق المنسوبة الى الاحرار واعظم هذه الحقوق هو كونه يرخص لها ان
تقول رأيها فى عمل القانون الجديد وفى اعطاء المعاونات والاموال للدولة وكان
من اللازم لهم ان مثل هذه الخصوصية تصعب عنها المدن المعودة على صورة
حكومة داخلية حرة لا يمكن بدون رأيها ترتيب جديد ولا اخذ معاملة من
الرعايا على سبيل المعونة لاعانة الدولة وما اكتسبوه من الاموال والشوكة

ولا اعتبار حين استقلوا عن ... بم زادهم ثباتا وقوة فى بلوغ مرامهم وقد انصفهم الدهر وساعدتهم المقادير على الفوز بالمقصود وبلوغ المرام

وكانت جزيرة انكلتيرة اول مملكة جامعة قراها وكلاء الامم الذين دخلوا فى المشورة العمومية الاهلية فراد الامراء المنقرضون الذين خرجوا على الملك هنرى الثالث ان يستميلوا قلوب الرعايا بهم زيادة عما كانوا عليه ليكونوا من حزبهم وان يجددوا موانع قوية يمنعون بها تقدم الشوكة الملوكية فطلبوا من هؤلاء الوكلاء ان يحضروا فى المشورة العمومية المسماة عندهم مشورة المذاكرة واما فى فرانسا فان فيليب لوبيل (اى فيليب الظريف) الذى قدمهم الى مملكته العصبية جسارة قوية وجعل وكلاء المدن كآلات يستعين بها فى توسيع ايراد الملوكية وفى معادلة قوة الاشراف الظالمين وتسهيل ترتيب الغرامات الجديدة أدخل لاجل هذا المقصد فى الديوان المسمى مشورة العموم الاهلية وكلاء المدن التى كانت قد ترتبت جمعيات مدينية حرة واما فى المانيا فان اموال المدن السلطانية (الامبراطورية) والتزاماتها جعلت وكلاء المدن مستعدين لعظماء ارباب ديوان الجرمانيا فلما احسوا بقوتهم وعظم اهميتهم طلبوا ان يكون لهم فى المشورة محل مخصوص ليكونوا فيه حزبا على حدتهم يعطون رأيهم فى المشورة وقت اذا ما طلبوه سنة ١٢٦٥

وعلى اى حالة كان عليه دخول وكلاء المدن فى مجالس ترتيب القوانين فقد ترتب على كونهم من اربابها كثير من المنافع فى الدولة وتخفيف نظام الاستقراطى اى الناشئ عن حكومة الاعيان بانضمامه الى حرية الاهالى ومن جملة ذلك ان الامة التى لم يكن لها فى تلك العهد وكلاء استفادت محامين ارباب نشاط وقوة تكفلوا بالتيقظ لحفظ حقوقها وخصوصياتها وكذلك تحديد الشوكة المتوسطة التى هى القوانين بين الملك والاشراف حتى صار كل منهما يلتجىء اليها عند الحاجة وهذه الشوكة قد ابطلت على حين غفلة ظلم الملك ومنعت طمع الاشراف ولما عظم اعتبار وكلاء المدن وشدت كلمتهم وقويت تأثيراتهم فى الحكومة شرعت القوانين تسلك مسلكا آخر غير الاول واتفقت

سنة ١٢٩٣
نتائج عديدة فى الحكومة نشأت عن هذه الحادثة

ربابها العارفون باصولها الحسنة الى مقاصد اخرى وذلك من المساواة وحسن الترتيب والنفع العمومى وابطال الظلم كل هذه صارت مقاصد عمومية ومطمحا لانظار جميع الناس فلذلك دخلت فى اقرب زمن فى قوانين الملك لا من رغبة واحكامها واداب وهذه الشوكة الجديدة التى دخلت فى مجالس ارباب القوانين كانت سببا فى معظم الاجتهادات التى حصلت فى شأن الحرية فى دول اوروبا المختلفة وصار كلما اكتسبت الحكومات المدنية شيأ من وجود الحكمة والاعتبار ضعفت حكومة الاشراف القديمة وقويت خصوصيات الرعايا على التدريج على حسب نقصان حكومة الاشراف

اكتساب الرعايا الحرية بالاعتاق

وقد اعدمت كتب القوانين القديمة بحرية سكان المدن شرع جماعة من الرعايا سكان الارياف المستعبدين يتروعون فى ان ينالوا الحرية بواسطة الاعتاق وذلك ان زراع الرعايا مدة بقاء المملكة الالتزامية على قوتها كانوا فى ذل الاسترقاق كما سبق انهم كانوا ارقاء تابعين لملك ارض الزراعة التى كانوا يزرعونها فكان للمالك ان يتصرف فيهم مع الارض بالبيع لمالك آخر وكانت قواعد المذهب الالتزامى تأبى اعتاق مثل هؤلاء الناس وكان من قوانينهم العامة انه لا يؤذن للملتزم المستمر ان ينقص قيمة الالتزام اذا انشر ذلك لصاحب الالتزام الذى انعم عليه به وان الاعتاقات الصادرة من ملتزميهم المباشرين لهم لا تعتبر لمخالفتها للقوانين فاذا كانت صيغة الاعتاق لم يصدر عليها اقرار من صاحب الالتزام الحقيقى الذى اقطع الارض لملتزميهم فان المستعبد لا يثبت له حق شرعى فى الحرية فتعين حينئذ ان كل من اراد الاعتاق من مستعبديه يأخذ اقرارا من الملتزمين على سبيل الترقى من الادنى الى اعلا منه وهكذا حتى يصل الى صاحب الالتزام الحقيقى الذى هو الملك فبهذه الكيفية الطويلة المشكلة كانت سببا فى تقليل اجراء الاعتاق فكان الارقاء المستخدمون او من حيث ذواتهم اذا تمتعوا بالحرية يكون ذلك بانعام ساداتهم عليهم لكون ساداتهم مطلق التصرف فيهم بخلاف المستعبدين الفلاحين فانهم كانوا تابعين لاراضى الالتزام فكانوا اسوأ حالا من السابقين ولا يتمتعون

بالحرية لا بالمشقة السابقة

اسباب الاعتاق وتقدماته

والحرية والاستقلال اللذان اكتسبهما قسم من الرعايا بترتيبات الجمعيات البادية الهما القسم الآخر رغبة قوية جدا فى ان ينال مثل هذه المزايا والخصوصيات ولما استعظم الملتزمون المنافع العظيمة التى استخرجوها لانفسهم مما تخلوا عنه اول مرة رخصوا لاتباعهم فى خصوصيات جديدة فلذلك كثر عندهم الاعتاق وصار معتادا فاشتغل ملوك فرنسا بتصيير الاعتاق امرا عاما بالضرورة الجأتهم لذلك ولكونهم ارادوا اضعاف قوة الاشراف وصدر

بسنة ١٣١٥

عن الملك لويز العاشر واخيه فيليش اوامر نصها ان الانسان حر من اصل فطرته ومن حيث ان المملكة تسمى مملكة الافرنك (اى الاحرار) فينبغى ان يتحقق فيها مدلول هذا الاسم فلذلك امر بان يسمح بالاعتاق على جميع من فى الولايات على شروط متضمنة للعدل والانصاف انتهى فنفذت تلك الاوامر السلطانية حالا فى حكومة الملك الخاصة به ثم ان ذلك حث اغلب الاشراف على ان ينسجوا على منوال الملك خصوصا مع ما ينشأ عن الاعتاق من الاموال الجسيمة فبادروا باعتاق مستعبديهم وصار اغلب اقاليم فرانسا خاليا من الاسترقاق

والحكومة الجمهورية التى كانت قد ترتبت فى مدن ايطاليا العظيمة نشرت فيها اصول حكومة مخالفة جدا لاصول المذهب الالتزامى ولما نفذت هذه الاصول باسباب المساواة التى تقدمت بكثرة التجارة اعانت على ادخال عادة الاعتاق عند قدماء المستعبدين المسمين بردو ومعناه الاسارى وفى بعض اقاليم المانيا اعتقوا الاشخاص الذين كانوا فى هذا النوع من الاستعباد وفى بعض آخر صارت احوالهم مبنية على السهولة عما كانت عليه سابقا وازدادت الرغبة فى الحرية فى بلاد الانكليز وصار اسم الاسترقاق الشخصى نسيا منسيا من نفسه من غير ان يصدر فى شأنه نهى شرعى

نتائج الاعتاقات فى تحسين الجمعية

فتولد هذا التغيير العظيم الذى حصل فى صفة معظم الرعايا ناشئا عنه فى اقرب زمن نتائج مهمة جدا حتى صار الزارع مستعدا للاشتغال فى الارض لنفسه

آسيا على غرات شعله وصار مالكا للاراضى التى كان سابقا مجبورا على زراعتها لمنفعة غيره وصار فى آخر الامر لفظ سيد ولفظ عبد اللذان هما اقطع الالقاب البشرية وابغضها الى الناس متروكين رأسا وبطل استعمالهما بالكلية وفتحت الاعتاقات طريقا جديدة لاكتساب المعتقين واتساع معايشهم ورغبتهم فى الاموال وارتفاع مراتبهم عما كانوا عليه وقويت نشاطهم وذكاء قريحتهم وبهذه الطائفة العديدة من الناس التى لم يكن لها سابقا وجود سياسى بل كان وجودها بالنسبة لارباب الدول والاحكام كالعدم لكونها كانت كاية عن آلات صناعة صارت بزوالها الحرية منتظمة فى سلك الاهالى معينة للجمعية بانفسها واموالها

اعانة تدبير فصل الخصومات على تحسين الجمعية

والوسايط المختلفة التى سلكوها لادخال الانتظام والمساواة والقوة فى تدبير فصل الخصومات ساعدتهم على تحسين الجمعية المتمدنة وتكميلها ويعسر علينا ان نعين مع الصحة طريقة ادارة الاقضية عند الملل الحشنية المختلفة التى انتشرت فى الدولة الرومانية واذا كنا نحكم بموجب ظاهر صورة الحكومة الجارية عندهم وبما يظهر من طبيعة الجمعية فان هذا يؤدينا الى ان نعتقد ان قوة القضاة والاحكام كانت محدودة جدا وانهم ليسوا ارباب تصرف مطلق فلذا كان الاحاد يتمتعون بالحرية والاستقلال تواسع جدا وما يوجد الآن من الحكايات والآثار عن هذه الازمنة البعيدة المجهولة الحال يدل على ما قدمناه ويمكن ان ينتج من ذلك ان ما يظن فى اقضيتهم وفى الكيفية التى كانوا يستعملونها فى جميع البلاد اوربا لا يختلف الا قليلا عما يوجد الآن عند المتوحشين الذين لم يزالوا الى الآن على الحالة الطبيعية وذلك لان فهم حفظ نظام الجمعية وراحتها باجراء القوانين المعروفة اجراء دائما والبحث من طرف الدولة عن قصاص الذنوب التى تضر بنفع آحاد الجمعية وامنهم واعتبار عقاب المذنبين كانه عبرة عمومية تزجر غيرهم كل ذلك لا يمكن ان يصدر الا عن اصول حكومة منتظمة لا عن مثل حكومة هؤلاء الحشنيين الذين لا يفهمون ذلك حتى يعملوا على مقتضاه فلذا كانوا لا يعتبرون القضاة والحكام

امتناء على صف العدل بل كان هذا السيف فى ايدى آحاد الناس حيث كانوا يقلدون الاحكام اى انسان وكان حب الانتقام ومجرد الاقتصاص هو السبب فى البحث عن الذنوب والمعاقبة عليها والمظلوم وحده هو الذى له الحق فى ان يتتبع ظالمه ويسعى فى معاقبة من تعدى عليه او يسامحه وبهذه الطريقة الخشنية التى تكاد ان تنافى كل اصول جمعيات التمدن صارت سدا فى اختلال التنظيم وخلال الترتيب ✻ وكثرة العلم بتنبههم الى الدخول العميق اعانت على نسخ الطريقة وعلى تضييق تدابير الحكومة الشرعية وجعلت العمل بها على حسب الاهواء وتنوع الآراء فكانت ارباب القوانين والاحكام مدة قرون يبحثون عن دواء لهذه المصائب العظيمة بترتيبهم للاقضية والاحكام ديوانا منتظما فاسسوا الاجل توجيه هذا الامر قوانين ترجع الى ثلاث وسائط اصلية بحيث لو جمع توضيحها وتفهيمها لكان ذلك احد المباحث النافعة جدا فى تاريخ الجمعية السياسية بين امم اوربا

الواسطة الاولى اول عمل منهم اعان على ترتيب المساواة فى تدبير القضايا والاحكام هو ابطال الحقوق الحشنية التى كانت تزعم الآحاد استحقاقها وهى محاربة بعضهم بعضا الانفسهم لا للدولة وبقوتهم لا بقوة الدولة وذلك لان من الطبيعى للانسان ان يدفع المضار عن نفسه ويبحث عن اخذ حقه عن ظالمه كما ان من طبيعته ايضا الاعتراف بما للناس عليه من المعروف وما دامت الجمعية باقية على حالة جهالتها الفطرية الاولية فاول صفة نفسانية للانسان يرى انه من حقه الذاتى له لا يضيعه كما لا يضيع الحق الآخر بكفران النعمة

ترك اجرآء الحروب المخصوصة وابطالها

فلم يطن المتوحشون ان حقهم فقط هو انتقام المضار التى تصيبهم من عدوهم بل ضموا الى ذلك اعتقاد ان ينتقموا من العدو ولاهاليهم واحبابهم وجماعتهم واصحابهم الذين يربطهم بهم العرض والنسب ارتباطا اكيدا وليس للانسان منهم فى اصول الجمعية السياسية الا تصورات جاهلية خشنية مطلقة ولكنه كان يتأثر تأثرا عظيما بحاسيات الالفة الاهلية وبالواجبات التى تتولد من مخالطات القرابة وعلاقات النسب فكان اقل خسارة او عيب يصيب من له

ما عند الناس من الاوهام الاولية فى شان القضايا والاحكام والقصاص

الانسان او قبيلته يضرم في قلبه نيران الغضب ويحمله على تتبع فاعل ذلك
بغاية الاذية والاضرار ويعد من الخزي تفويت الانتقام بغيره وان من العار
عليه ان يترك جبر هذا الخلل او اخذ ثاره لآخرين

وجميع الملل غير المتمدنة لاسيما قدماء الجرمانيين وغيرهم من الخشنيين الذين
خربوا الدولة الرومانية كان عندهم اجتهاد في البحث عن الذنوب وعقوباتها
وكان عندهم اصول وعوائد موافقة لما ذكرناه وما داموا مستمرين على
سذاجة اخلاقهم الفطرية ومنقسمين الى قبائل صغيرة فان عيوب مذهبهم
الناقص المتعلق بالجنايات لا تكاد تحس على ان تسمية هذا مذهبا فيها
تساهل ولما سقطت هذه الامم بنفسها الى الاقاليم المتسعة التي كانت فتحتها
واستوطنتها وصارت حكومات عظيمة لها ملوك وازدادت عندهم اسباب
الطمع الجديدة التي اعانت على تقوية النزاع بينهم وانتشاره وتواتره لزمها
ان ترتب قوانين جديدة للقصاص وتترك ما كانت عليه الى ذلك الوقت من
العمل على مقتضى احكامها الشخصية بانقيادها للقوانين العمومية العادلة

كون هذه الاوهام المتقدمة ادتهم لاعتيادهم الحروب الشخصية

ولكن الرؤساء النافرون المتكبرون المعتادون على الانتقام بانفسهم من
اعدائهم لم يريدوا ان يتنازلوا عن الحق الذي كانوا محافظين عليه كانه مزية خاصة
لطائفتهم وعلامة على استقلالهم وما دام لم تكن قوانينهم معضدة الا بالامراء
الخالين عن الشوكة والحكام والقضاة المجردين من القوة لم تكن كثيرة الاحترام
وذلك لان جملة الامم الخشنية لا يمكن ان يكون تدبير القضايا والاحكام
منتظما عندهم انتظاما كليا بحيث يستوي فيه جميع الآحاد وينقادون
لما تقضي به الحكام من غير نظر فيه فكان اذا حصل لبارون ان بعض
الناس اساء الادب في حقه او تعدى عليه في امواله تسلح وذهب مع اتباعه
لينتقم من عدوه بنفسه وكذلك خصمه كان يتسلح مثله ليدافع عن نفسه
ولا يتفكر احد من الفريقين ان يرفع الامر للقوانين التي لم تمكنها حمايتهم لعدم
قوتها ولا يريد احدهم ان يحكم في خصومته النفسانية التي يريد تصبيرها
بالسرعة احكام المحاكم الشرعية البطيئة بل كان يسارع الى فصل خصومته

بالسيف ويدخل في تلك المشاجرة اهل كل من الخصمين واتباعهما ولا يمكنهم التخلص عن الاهانة حتى ان كل من امتنع منهم من الدخول مع الفريق الذي ينسب اليه فقد فضح نفسه وعرضها الالام العقوبات الجارية عندهم

النتايج الشنيعة الصادرة عن هذه العادة

فصارت حينئذ ممالك اوروبا المختلفة عتبة عدة قرون للحروب الداخلية التي اضطرمت نارها بالعداوة بين الآحاد واستمرت مع القوة الطبيعية عند ناس كانت اخلاقهم وحشية وشهواتهم شديدة وكان التزام كل بارون جزأ من الارض مستقلا بنفسه مفترقا عن التزام جيرانه فكان ذلك دائما سببا للتخاصم بين الملتزمين المختلفين والشرور المضرة تشعبت في سائر الجهات حتى توصل الناس الى ان يعينوا شكل هذه الحروب المخصوصة وقوانينها بطريقة صحيحة وهذه القوانين صارت قسما من مذهب القضايا والاحكام حتى كانها مؤسسة على بعض الحقوق الطبيعية للانسان او على القانون الاصلي للجمعية المتمدنة

استعمال وسايط مختلفة لاجل ابطالها

والمصائب التي كانت تجدب هذه المعاداة الدائمة صيرت ضررها عموميا متساعدا بحيث انهم صاروا مجبورين في الآخر على كونهم يبحثون له عن علاج يبطله ويزيل الامر بوسايط مختلفة كونهم ينزعون من ايدي الاشراف ما كانوا يدعونه لانفسهم من المزايا الشنيعة ولم يكن هنالك من ملوكهم الا كان متولعا بابطال العادة التي صيرت حكمه كالعدم فقد نهى شرلمانيا الذي هو كرلوس الاكبر بقانون صريح عن هذه الحروب المخصوصة قائلا انها بدعة شيطانية يختل بها النظام الجمعية وراحتها ولكن لم ينقطع بذلك عرقها الان الحكومة الواحدة وان بلغت في القوة ما بلغت لا يمكن ان تبطل عادة متمكنة قديمة وخلفاء شرلمانيا الضعفاء المتسافلون عوضا عن كونهم يجرون هذا النهي ويقررونه لم يعالجوا هذا الداء الا بدواء هين حيث امروا بانه لا يباح لاحد الحرب الا بعد ان يراسل اهالي خصمه واتباعه ويدعوهم للقتال وبانه اذا وقع ذنب صغير وكان سببا في حرب خصوصي فان المظلوم المتعدى عليه يجبر على ان يمكث اربعين يوما بلا هجوم على اتباع المتعدي الظالم

وامروا كل الرعايا ان يعتقوا مشاجراتهم الشخصية ويعطلوا معاداتهم الداخلية
حين يصير الملك مجبورا على حرب اعداء المملكة ثم اتفق القسيسون مع الحاكم
السياسي على ان يبطلوا بواسطة قوتهم كل عادة مضادة لاحكام دين
النصرانية وانعقدت عدة مجالس قسيسية وحكمت بالنهي عن الحروب
الخصوصية ودعوا باللعنة على كل من يتجاسر على تعكير صلح الجمعية ويستمر
على العمل بالقوانين الخشنية فصار الاهالي مجبورين على الاستعانة بالدين
لاجل اجتناب توحش الاخلاق وخشونتها وادعى جماعة ان الله تعالى
الهمهم بالالهامات والمنامات استقباح التولع بالانتقام الذي يثير الناس
على بعضها وامروا الناس عن الله تعالى ان يغمدوا سيوفهم ويعطلوا
الحروب والانتقام من بعضهم ويحترموا الروابط الدينية والمدنية التي
جمعتهم على النصرانية وجعلتهم اعضاء الجمعية ولكن اجتماع القوة السياسية
مع القوة القسيسية وان كان متقويا بجميع ما يمكن وضعه في عقول اهل
القرون المتوحشة السالفة لم ينتج منه الانقطاع المعاداة ازمانية الوقتية
وحصول المهادنة ومنع الحرب مدة ايام اواشهر محترمة معدة للاعمال الصالحة
الدينية واستمر الاشراف على حفظ مزاياهم الخطرة وامتنعوا عن طاعة بعض
القوانين المرتبة لابطال تلك المزايا ونقضها وابطال الاشياء المربوطة بها
التمكين من حرمها ومنعه وبالجملة فتجادلوا وتشاجروا على ان يعيدوا ما كانوا
يزعمونه حقا لهم من عمل الحرب الخصوصي لانهم كانوا يرون فيه اعظم
تشريف لطائفتهم وقد وجد في القرن الرابع عشر عدة من اشراف اقاليم
فرانسا الخنافة طلبوا عاداتهم القديمة من انهم يخلصون حقهم بالسيف عمن
تشاجر معهم واستعفوا من الانقياد لحكم المحاكم الشرعية ولم يكن
تأثير تسلط القوانين في جعل عادة الحرب الخصوصي هباء منثورا مساويا
لتأثير الحكومة السلطانية ومزايا المعارف والعقل التدريجية التي افادت
اصولا صحيحة للحكومة والانتظام والامن العام

مطلب مخصوص
اعانة ابطال القتال الشرعي على كمال تدبير الاحكام الشرعية

الواسطة الثانية هي ان شكل فصل الدعاوى بالقتال الشرعي لفصل

الخصومات كان عادة اخرى فاسدة من عوايد الجاهلية فتركوها بعد على
التدريج في ادخال انتظام الضبط والربط في الجمعية بحيث يؤمن به على انتظام
الترتيب العام وراحة الخصوصية دفعة واحدة وقبل ذلك كان حق الحرب
الخصوصي بين الخصمين يفصله السلاح فكان النزاع بين شخصين منزلا منزلة
النزاع بين ملتين وكان فصل الدعوى بالقتال الشرعي الذي انتشر
فيما بعد في جميع بلاد اوربا فما اصل العدل في المحاكم ولم يترتب قانون للاحكام
الشرعية الا القوة والصدفة ومن المعلوم ان العقود والعهود عند الملل المتمدنة
تعمل بالكتابة وتقديم هذه الكتابة بعد اقامة الدعوى يكفي في اثبات
الحق وتحديد ما وقع الاتفاق عليه بين المتعاقدين مع الضبط واما عند
الامم الجاهلة الخشنية الذين يندر عندهم معرفة القراءة والكتابة وان تصف
عندهم شخص بذلك كان جديرا بوصف عالم فكان لا يكتب الا المشارطات
التي تقع بين الامراء والملوك وكذلك المزايا والقوانين التي كانوا يعطونها
لرعاياهم ولو في الخصوصية السافلة وكان اغلب مصالح المعيشة العامة
لا تحصل الا بالاتفاقات شفاهية وكان يصعب في كثير من الدعاوى المدنية
ان يجد الانسان براهين كافية في نفع الخصمين بل ربما كان الكذب والغش
متفوقين بالامل في عدم القصاص وكانت صعوبة كبيرة جدا في الجنايات
التي قصد منها تحقيق الدعوى او ابطال التهمة ولم يكن يوجد بين هؤلاء الامم
الخشنين العلم بحقيقة البراهين الشرعية ولا بما يترتب عليه فكيف يمكنهم
على وجه الضبط تعيين البينة المقبولة التي يلزم القاضي ان يبحث عنها وكيف
يمكنهم ان يميزوا بين الوقائع التي لابد فيها من الوقوف على الحقيقة واليقين
والوقائع التي يكتفى في اثباتها بمقتضيات الاحوال وكيف يمكنهم المقابلة بين
عدة شهادات متناقضة والوقوف على درجاتها والاخذ بالاقوى منها فان مثل
هذه الابحاث والتدقيقات ادق واصعب من ان تدركها عقول ارباب هذه
الاعصر ذات الجهالة والخشونة فلاجل ابطال هذه الموانع ادخلوا في المحاكم
طريقة في اقامة الدعوى اسهل من الاولى لاجل المصالح المدنية الداخلية

مطلب
العيون في اقامة
الدعاوى الشرعية

واجنابب

والجنايات وفي جميع الصور التي لم يقم المدعي عليها برهانا واضحا يتخلص المتهم منها بحضوره في المحكمة وتحليفه على ما اتهم به فمتى حلف على نفي ما اتهم به عن نفسه فانه يبرأ ويخلى سبيله وهذه العادة الفاسدة لم تكن صالحة الا لاخفاء الحق ودرء العقوبات وبهذا كان لليمين سلطنة بحيث لا يمكن لاحد معارضة الحالف فلما جربوا الاحوال الخطرة التي تحدث بالضرورة من مثل هذه العادة وارادوا ان يزيلوها امرت القوانين لاجل الاحتراس منها ان الايمان تكون جهرا على رؤس الاشهاد بكيفية مخصوصة تمنع الانسان من التجاري على الحلف وان كانت هذه الكيفية من قبيل الخدع والاوهام وكانت اعانة ذلك على دفع هذا الخطر ضعيفة وذلك لانهم تمرنوا على هذه الكيفية التي كانت في مبدء الامر تخشاها عقولهم فتناقصت بالتدريج وتهاونوا بها فكان كل من لا يخشى الكذب لا يمكنه ان يمكث زمنا طويلا محجوزا باليمين عن مرامه فلاحظ ذلك عاجلا ارباب الشرائع والقوانين فبحثوا عن طريقة جديدة ليصير فصل الخصومة باليمين قويا وباختصار رتبوا ان يحضر المتهم ومعه عدة رجال احرار من جيرانه او اقاربه لاجل تأكيد زيادة صدق يمينه ويحلفون انهم يعلمون صدق ما قاله المظلوم وكان هؤلا الشهداء يسمون المزكين المقدمين للمتهم من الكذب وكان يختلف عددهم كثرة وقلة على حسب عظم الدعوى او طبيعة الجناية المتهم بها حتى انه في بعض الصور كان لا يكتفي في ارباب التزكية اقل من ثلثمائة لاجل تزكية المتهم وتبرئته ولكن لم يتوصل ارباب القوانين بهذه الطريقة الى بلوغ مقصدهم وذلك انه تحكم في اوربا مدة قرون اصل قوي وهو شرف العرض وكان متقوما من كون الانسان لا يرخص له ان يترك ابدا الرئيس الذي يكون من بطانته ومن يكون بينه وبينه قرابة الا مع المسبة والعار وهتك العرض فكان كل من تجاسر حينئذ على مخالفة القوانين يجد من ينضم اليه ويتعصب معه لاجل حمايته والذب عنه ويسلك معه انفع الطرق له فلم تفد عادة التزكية السابقة في منع الحنث والكذب والغش الا مجرد الامن الظاهري فقط وكانت

المحاكم الشرعية كلما استمرت على الحكم بتلك العادة والوثوق بكلام لمرتكب فى كل واقعة من وقائع النزاع التى تدعو الى ايمان المرتكبين المخاصمين يظهر ان حكم القضاة بهم خال عن الانصاف فبشاعته تورث عموم الناس وعدم قبولهم له بهذه الصورة

مطلب
بيان كون هذه المظالم نشأ عنها ان الله تعالى الهمهم طريقة اخرى وانه هو الذى يقضى فى الدعاوى

وكان قدماء الافرنج يتأثرون من تلك المضار ويجهلون دواءها ولا يعلمون طريق تجديد قوانين احسن منها فى القضاء والاحكام ثم انهم ظنوا انهم الهموا طريقة مطردة قوية فى تمييز الحق من الباطل والاحتراس من الكذب وهى انهم جعلوا الله سبحانه وتعالى قاضيا فى خصوماتهم وفوضوا الامر فى قضاء جناياتهم اليه لحكمته وعدله ففى بعض صور كان المتهم لاجل البرهنة على صدقه وبراءته يصنع على رؤس الاشهاد امتحانات خطرة مهولة جدا ككونه يغمس ذراعه فى ماء شديد الحرارة او يحمل بيده مكشوفة قطعة حديد محماة بالنار او يمشى عريانا على قضبان الحديد الملتهب بالنار

مطلب
حرب فصل الخصومات

وفى بعض آخر كان يستدعى خصمه لحرابة عرية وكانت جميع هذه الامور المختلفة جارية عندهم باحتفالات دينية وكان امناء الدين هم رؤساء تلك الاحتفالات وكانوا يتضرعون الى الله تعالى فى حماية البرئ وفضيحة المذنب وكان المتهمون الذين يرضون تلك الامور السابقة من غير ان يصيبهم منها مكروه او يخرجون من المعركة منصورين سالمين منها تثبت عندهم براءتهم ويسمى ذلك حكم الله تعالى وقضاءه

مطلب
كون ادخال هذه العوائد فى القضايا الشرعية اعان فى القرون المتوسطة على الاوهام الفاسدة

ولا يوجد فى جميع القوانين الشنيعة المتولدة من ضعف العقل البشرى اشنع من القانون الذى يحمل الانسان على تفويض قضاء مهماته وامواله وعرضه الى مثل تلك الامور التى يقع بالصدفة والاتفاق والقوة والحيلة والشعبذات فهل هناك احمق ممن يسلك تلك المسالك ولكن كان عندهم مقتضيات احوال تدل على ان هؤلاء الامم المتمدنة فى اوربا كان لهم شبهة فى كونهم يعتقدون ان هذه الطريقة الغريبة كاشفة لهم من الله تعالى واظهار لارادته وذلك ان البشر لما لم يكن فى طاقتهم ان يعرفوا كيفية اقتدار

الله

الله تعالى على تدبير العالم باسره باحكام معينة دائمة عمومية حملهم ذلك
على اعتقادهم في سائر الاحوال التي يرون فيها منافعهم وشهواتهم النفسانية
عظيمة في اعينهم انه يجب على الله تعالى ان ينقض شرعه على وجه واضح
مرئي للبرئ من المسيء ويلزم لاجل ازالة هذا الخطأ الفاحش عن اوهام
العامة كثير من المعارف والاطلاع على اسرار الكائنات لان جميع الاوهام
والتصورات التي تمكنت في اوربا مدة قرون الجهالة قوت هذا الخطأ
الفاحش وأكدته بدلا عن كونها تمحوه وتبطله وفي مدة عدة قرون كان الدين
عبارة عن اعتقاد سير كثير من القديسين الذين كانت اسماؤهم تدون
في الرتبات الرومانية فكان بها يكبر حجم الكتب وتصير ضخمة وقداس البابات
وجمعيات القناصل بان جميع الخرافات المشتملة على خوارق العادات لهؤلاء
القديسين تنتظم في سلك المعجزات الصحيحة الاجماعية وكانت تلك الخرافات
هي المقصود الاعظم من تعليم الكهنة للامم وقبلت الامم ذلك مع
الاذعان وعدم النظر فيه بل ركنوا اليه بمحض التقليد من غير برهان
فاعتاد الناس على اعتقاد ان القوانين الطبيعية يمكن تعليقها او خرمها
ولو لاعراض واهية وجعلوا الامور الغريبة الطبيعية خارقة للعادة لمقصد
الهي ولم يجعلوها من قبيل انتظام ناموس العالم الطبيعي وان آثارها صادرة
عن قوانين عمومية لا يختل نظامها فصارت الاوهام تتولد عن بعضها
ولا يستغرب من يعتقد ان الله سبحانه وتعالى خرق العادة في امور غير مهمة
كرامة لاصفيائه ان يعتقد انه تعالى لا يمتنع من ان يخرقها في امور
مهمة جدا

مطلب
تقوية التولع بالعسكرية ترتيب فصل الدعوى بالقتال

والتولع بالعسكرية الذي مكث في اوربا مدة القرون التي تكلمنا عليها
ساعد ايضا مع الآراء الباطلة على ترتيب شكل فصل الدعاوى بالقتال
وكان الشريف منهم مستعدا دائما ليثبت بحد سيفه ما ينطق به وهذا
هو اعظم الدرجات حفظ العرض وكان لاشراف المتمازون يظهرون
عظمهم وفخرهم في حماية حقوقهم بقوة اسلحتهم وفي انتقامهم

بانفسهم عمن تعدى عليهم فى خصائصهم واملاكهم وتعلقاتهم
وكانت الاقضية والاحكام بهذا القتال الشرعى تناسب هذه الاصول
وتلائم طريقة الشرف واحواله وكان كل انسان مكلفا بحماية شرفه ونفسه
وان يبرهن بشجاعته على صحة ما ادعاه فبهذا يامن على عرضه فى المستقبل
وبالجملة فهذه الطريقة العجيبة فى فصل الدعاوى انطمست عندهم فى سلك
الامور النافعة فى السياسات المهمة المبنية على قانون الحكمة وذلك انه من
حين امر آبهاى الحاكم صارت الاقضية بالماء والنار والامتحانات الاخرى
المبنية على الاوهام الفاسدة فى حيز النسيان او لم يعملوا بها الا فى المشاجرات
التى تقع بين رعاع الناس وصار فصل الخصومات بالقتال من خصائص اوربا
ومن عوائدها فى جميع بلادها على حد سواء ولم يقتصروا على هذه الطريقة فى
مادة الوقائع المشتبهة التى وقع فيها النزاع بل كانوا يحكمون بها ايضا فى مسائل
الاحكام الشرعية والعلوم الرياضية فكانت معتبرة عندهم كانها واسطة
فى كشف الحقيقة والوقوف عليها وكانوا يرونها اشرف وارجح من البحث عن
الحقائق واقامة البراهين العقلية ولم تكن تلك الطريقة ايضا مقصورة على
الخصمين اللذين هيجت عقولهما حرارة المنازعة بينهما على ان يتداعيا للقتال
ليبرهن كل بالسيف على برهانه بل كذلك الشهود الذين لم تكن لهم مصلحة فى
الدعوى وانما دعوا لاجل الاخبار بالحق بموجب القوانين التى كان حكمها ان
شاهدى الخصم كانوا معرضين كارباب الدعوى لخطر كون المشهود عليه يطلبهم
فى الميدان وملزومين بان يحاموا بواسطة اسلحتهم عن صحة شهادتهم ولكن
الذى كان يجعل هذه الطريقة فاسدة غير ملائمة للعقل هو ان وظيفة القاضى
والحاكم الذى بعدها لم تمنع عنه الدخول فيها كغيره وذلك لان القاضى كان
اذا شرع فى ابداء رأيه ربما قطع عليه احد الخصمين كلامه وشنع عليه فى
الخطاب واتهمه باخذ الرشوة واساءة الادب عليه ودعاه ليثبت رأيه فى ميدان
الحرب فلا يمكنه ان يمتنع من ذلك من غير ان يدنس عرضه بعدم ظهوره
فى الميدان مع خصمه

عموم هذه الطريقة

فلما انتشرت طريقة القتال الشرعي على التدريج كغيرها من طرق الظلم صارت بالسرعة عادة عند جميع الناس اكابر واصاغر وكادت ان تكون في سائر احوال المخاصمة ولما كان لا يمكن للقسيسين والنساء والاولاد الصغار والشيوخ وذوى العاهات ان يتجاسروا على اخذ الاسلحة ليحاموا بانفسهم عن حقوقهم الخاصة بهم اما لعجزهم عن ذلك او لحيائهم منه او لكون تلك الطريقة من باب الظلم صاروا مجبورين على ان يبحثوا لهم عن شجعان محامين يبارزون في الميدان بدلا عنهم اما لداعي المحبة او لكونه يعود على البدل من ذلك منفعة ومصلحة وكان من المألوف لهم طبيعة ان يحتفلوا لاجراء تلك الطريقة حيث كانوا يعتقدون انها قضاء الهى واجراء الله تعالى على حد السيف وتنتهى به المشاجرات في الامور المهمة العظيمة وكان تنظيم القوانين المتعلقة بتلك الطريقة بموجب اوامر الامراء وكانت وقائع تلك الطريقة يشرحها فقهاؤهم ويذكرون فيها الصدق ويوضحونها اتم توضيح ومع ذلك ربما شغل هذا الشرح والتوضيح على بعض اوهام فاسدة وترهات كاسدة وكانت معرفة هذه القوانين والاصطلاحات والوقوف على حقيقتها هي العلم الفريد الذي كان يتمدح به الاشراف الذين يحسنون القتال او الذين يرغبون في تعلمه واكتسابه

النتائج الاصلية لهذه الطريقة

وهذه الطريقة الجنونية ابطلت بالكلية في اقرب زمن عند رسوخ القضاء في مبادى الدعاوى المدنية والجنايات وصارت القوة قائمة مقام العدل في سائر محاكم القضاء وانقطع عرقه بالكلية وصار التمييز والمعارف وكمال الاستقامة والصلاح ونصافة النية الزم للقاضي من قوة البدن ومهارة تدبير الاسلحة واحكام القتال بها وصار استعمال الشجاعة والجراءة والشطارة وقوة البدن في فصل الدعاوى اشد اجراء من ظهور الحق ووضوح البراهين فصار من المستحيل عند كل انسان ان لا تعتبر المعارف العسكرية التي هي من اعلى المنافع واجل المهمات

ولما كان كل من القوة والحيلة لازما جدا في المقاتلة التي كانوا مجبورين فيها على

اثبات حقوقهم الخاصة بهم كلزومهما فى الحروب التى يدافعون بها عن الوطن كان تحصيل هاتين الصفتين او تكميلهما هو اعظم طرق التربية واهم اعمالهم المعاشية فبذلك صارت المحاكم التى كان من حقها ان تعوّد الامم على الطاعة واحترام احكام القوانين مساعدة على زيادة خشونة الاخلاق وعلمهم ان رواج القوة هى الحاكم المتصرف فى اظهار البرئ من المتهم والظالم من المظلوم

الوسايط المختلفة التى ابدوها لابطال هذه الطريقة

ومع ان هذه الطريقة الحربية فى فصل الدعاوى كانت جارية معمولا بها فان نتايجها المضرة كانت بينة عند جميع الناس حتى عند الامم الخشنين وعند المحاربين الذين اتخذوها عادة لهم فمن مبدء هذه الطريقة قام القسيسون على ابطالها مستدلين بانها مخالفة لدين النصارى وغير موافقة لانتظام الملك والشرع ولكن الاصول والشهوات التى كانت منشأ هذه الطريقة كانت متسلطنة على اهل ذلك العصر متمكنة من قلوبهم بحيث ان تشديد القسيسين الذى لو كان فى امور اخرى لازعج هؤلاء الامم وارهبهم لم ينتج منه شئ من التأثير وذلك لان هذا الضرر كان داءً عضالا متمكنا جدا بحيث لا ينفعه علاج بل استمر على الزيادة بالتدريج فاضطرت قوة التشريع والترتيب الى ابطال تلك الطريقة وقطع عرقها ولكن الملوك الذين كانت قدرتهم ضيقة محدودة شرعوا فى ابطالها او تقليلها بالحيلة ولكن كانت اجتهاداتهم الاوّلية ضعيفة جدا فاول قانون عمل فى اوربا لابطال تلك الطريقة رتبه هنرى الاول ملك الانكليز ونهى فيه عن العمل بها فى الدعاوى المدنية التى يكون النزاع فيها على قدر معلوم عينه الملك المذكور واباح العمل بها فيما زاد على ذلك وتابعه على ذلك لويز السابع ملك فرانسا حيث رتب قانونا نظير ذلك فى الاحكام واما سنت لويز الذى كان له فى الشرائع معارف اعلا جدا من سائر معارف عصره فانه بحث عن وسايط ترتيب قوانين اكمل واعظم مما عندهما وان يستبدل تلك الطريقة بطريقة شرعية بالبراهين ولكن ما رتبه فى هذا القصد لم يجر العمل به الا فى التزاماته فقط لان عظماء اتباعه فى تلك المملكة كانوا يتمتعون بحكومة مستقلة

وكانوا

وكانوا يميلون بالطبع الى طريقة المقاتلة القديمة فلم يمكن هذا الملك ان ينشرها
احد في جميع المملكة ولكن بعض البارونات قبل ترتيبه بالطوع والاختيار
وشنع ارباب المحاكم على هذه الطريقة الشنيعة وشرعوا في ذمها واللوم على من
عمل بها ولكن لما كان الاشراف يرون انهم من غير هذه الطريقة لا يكون لهم
شرف ولا عرض اخذتهم شدة الحمية فلم يرضوا بابطالها حيث انها مزية من
خصايص طايفتهم ولما لم يمكن خلفاء سنت لويز ان يدخلوهم تحت حكمهم لقوة
شوكتهم لم يقتصروا على التساهل في تلك المادة بل اباحوا بالكلية ما كان ابطله
الملك سنت لويز واما بلاد اوربا الاخرى فكان اشرافها في القوة والذب عن
تلك الطريقة كالاشراف بل قهروا ملوكهم على ان يحلوا لهم عنها ويتركوها
لهم ولكن جميع الامرا الذين اظهروا الثبات والمعارف لم يقطعوا نظرهم اصلا
عن هذا المقصد السياسي بل مارست تصدر اوامرهم لابطال تلك الطريقة
غير ان ما قدمناه من ان هؤلاء الاشراف كانوا يزعمون ان لهم الحق في الحروب
الخصوصية هو بعمومه شامل لتلك الطريقة فمجرد نشر القوانين واظهار
الاحكام لا يكفي في ابطال عادة فاسدة ولو كانت بديهية الفساد لا سيما اذا كانت
مالوفة للناس من مدة طويلة ومتقوية بموافقتها لاخلاق الامرين الذي ظهرت
فيه بل يلزم لابطال مثل هذه انه بعد ان تتغير آرا الناس وينشأ في الدول قوة
جديدة يمكن لها مقاومة قوة تلك العادة والانتصار عليها وقد حصل في اوربا تغيير
مشابه لذلك حين شرعت المعارف تدخل في عقول الناس بالتدريج وشرعت
الجمعية في استكمال الهيئة وخواصه بمجرد ما اتسعت حكومة الامرا وحقوقهم
تكونت عندهم شوكة جديدة يمكنها ان تقاوم قوة جميع العادات التي كانت
سابقا في ابتدال الاشراف فصار كل من هاتين القوتين المتضادتين يصادم
الاخرى واستمرا على ذلك عدة قرون وفي بعض الاحيان كان يظهر للقوانين
والاصول الجديدة تقدمات على غيرها ولكن العوايد القديمة احدث بعد ذلك
في القوة فلذلك كانت طريقة المقاتلة الشرعية وان اخذت في التناقص على
التدريج وصارت قليلة الاستعمال في اغلب البلاد يوجد منها بقايا الى القرن

السادس عشر حسبما ذكر في تواريخ فرانسا والانكليز فلما اضمحلت تلك البقايا صارت اشكال تدبير الاقضية والاحكام منتظمة وصار فصل الدعاوى جاريا على قوانين معينة مشهورة وصارت مطالعتها اعظم مقاصد القضاة واهمها ولما بطلت بالكلية تلك الطريقة التي كانت سببا اصليا في خشونة الاخلاق شوهد ان اهالي اوروبا يسارعون الى التمدن والآداب التي تميزوا بها الآن

مطلب في كون اقامة الدعاوى في محاكم الملوك بعد فصلها في محاكم الملتزمين اعانت على تدبير الاقضية والاحكام

وهناك عملية اخرى مثل السابقة في الاهمية ساعدت في تعميم تدبير الاقضية والاحكام واستقامتها وفوقها اكثر من الاولى وتلك العملية هي ان الدعاوى التي فصلت بمحاكم الملتزمين يرخص في اقامتها ثانيا بمحاكم الملوك وعيب شيء في مشروعات الاشراف التي يجيء بها مروا بها في حكومتهم الالزامية على حرم قوانين الملوك هو كونهم يزعمون ان لهم الحق في فصل الدعاوى في محاكمهم وانه يحتوي لهم الحكم في سائر الدعاوى المدنية والجنايات وعند الملل الاخرى شوهد ان الرعايا يتنازعون مع امرائهم ويبحثون عن تقوية شوكتهم وتوسيع حصانتهم ولكن لم يوجد في تاريخ الدعاوى والمشاجرات حتى مثل هذا زعم الاشراف وناهيك فلابد وان عوائدهم واخلاقهم كان بها بعض غرائب عجيبة الهمتهم هذا التصور وحثتهم على هذا الزعم وادعاء تلك المزايا

مطلب اصل استقلال القضا عن الشرف

وعند الامم المتوحشين الذين فتحوا اقاليم الدولة الرومانية المختلفة وشيدوا بها دولا جديدة كان الميل الى الانتقام شهوة شديدة جدا بحيث لا يمنعهم عنه مانع ولم يؤثر في اطفائها حكومة القوانين الا على وجه ضعيف وكان قد بقي من عوائدهم القديمة ان كل مظلوم يعتقد ان له الحق في كونه يجتهد في طلب عدوه حتى يعاقبه بنفسه وينتقم منه اشد الانتقام او يأخذ منه شيأ عوضا عما عمله معه من الاساءة ولكن ما دامت هذه الامم الخشنة مصرة على ان تقضي بنفسها في دعاويها الخاصة بها فلا بد من دوام البغضاء بينها مع شدة الحقد فكان جبرهم وحقدهم غير متناه ولا محدود بحد فنتج من ذلك نتائج غير موافقة لراحة الرعية وحسن ترتيبها فصاروا مجبورين جبرا على ان يبحثوا

لذلك

لذلك عن دواء فادخلوا اولا بعض وسايط فى المجادلات والخصام وتلك الوسايط بواسطة ارشاد صاحب الحق الى الصواب او التضرع له جبرت المظلوم على ان يقبل العوض من الظالم وان يترك كل ما كان عازما عليه من الاضرار ولكن هؤلاء الاقوام الذين توسطوا فى هذا الشان لما لم يكن لهم مدخل فى الحكومة الشرعية ولا علوم سنية لم ينالوا اتباعا توجب الانقياد الخصمين لهم بالطوع والاختيار ولزم بعد ذلك بقليل نصب قضاة وتمكين قوتهم لاجل اجراء احكامهم ولزم لهؤلاء الامم الحربيين ان يجعلوا هذا المنصب المهم لرؤسائهم الملتزمين لكونهم اعتادوا حكمهم وتعودوا لطاعتهم واعتقدوا شجاعتهم واستقامتهم بحيث يكون حينئذ كل رئيس حاكما فى زمن الحرب وقاضيا فى زمن الصلح ويكون كل بارون مرشدا اتباعه فى الحرب وقاضيا بينهم بالعدل فى قصره ووطنه وايضا لما كان هؤلاء الملتزمون متصفين بالكبر معجبين بانفسهم حيث كانوا يستنكفون ان يدخلوا تحت حكومة اخرى ويخضعوا لقانون آخر ولكن لم يمكن لاحد منهم فى زمن الامن ان يجرى وظيفة القاضى من غير ان يعرض نفسه لكثير من الحيرة بل ولعظيم الخطر فكان الانسان حينئذ لا يتجاسر على هذه الوظيفة الا اذا كانت له قوة على حماية احد الخصمين من صيال خصمه وتعاليه عليه وعلى جبر الآخر على الانقياد لما تعينه القضاة من الجزاء على حسب ذنبه فكان هذا سببا فى كون القضاة يفرضون على من يقع منه الاذى للمظلوم مبلغين عظيمين من الدراهم احدهما للقاضى والآخر للمظلوم فكان محصول القاضى لابد من دفعه كالمبلغ المعد للمظلوم صلحا

مطلب
تقدمات هذه المزية وعواقبها الرديئة

نشأ عن اجتماع عدة اسباب طبيعية ملائمة لاخلاق الملل المنقادة للحكومة الالتزامية وحال سياستها ان محاكم الملتزمين الخصوصية على اراضيهم قد ترتبت فى كل مملكة ولم يكتفوا بترتيبها على هذا الوجه بل بحثوا لاجل مصلحتهم الخصوصية وطمعهم عن حفظ ترتيب هذه المحاكم واتساعها*

واختصاص السادات بحق الحكم على اتباعهم ليس بمجرد ان عدمه يخل

بمقاماتهم وشرفهم بل لكونه ايضا كان مساقويا فى جلب فرع كبير من
عصور لانهم استوبه ولولا ذلك الفرع الذى جلبوه لما امكنهم غالبا حفظ
مناصبهم ولا عجب فى كونهم يبذلون جهدهم دائما مع القوة والثبات
فى المحاماة عن هذه المزية المهمة

وقد نشأ عن ذلك الترتيب ان كل مملكة من اوربا صارت منقسمة الى عدة
حكومات التزامية متميزة عن بعضها بقدر من كان فيها من البارونات ارباب
الشوكة والقوة وكان اتباعهم مدة الزمن صلحا وحربا لا يكادون يعرفون
حكما آخر غير حكم ساداتهم اصحاب الالتزامات فكان اتباع كل سيد لا يقبلون
امرا الا منه ولا يتداعون الا الى محاكمه وكانت الارتباطات التى ربطت هذه
الجمعيات لخصوصها بعضها ببعض تتقوى وتتأكد يوما فيوما بخلاف ارتباطات
الاجتماع العمومى فانها ضعفت فى تلك الحكومات بل بطلت وقد بذل
الاشراف جهدهم فى ترتيب قوانين تساعد على تقوية مزاياهم وتناسبها
وتحفظها من البطلان والاستبداد ولاجل قطع عرق تعلق محاكم الملتزمين
بالمحاكم الملوكية وابطال كونها تحت حكمها ولو فى الظاهر حجروا الملوك على
ان يمنعوا بجميع قضاتهم من الدخول فى اراضى الملتزمين ومن اجراء شىء من
احكامهم حيث فكان اذا اراد بعض القضاة الملوكية ان يجرى احكامه على
احد من اتباع الملتزمين احتقارا او تعديا فان هؤلاء الاتباع لا يجدون لذلك
حيلة الا كونهم يتركون الممانعة عن مزاياهم ويشكون لملتزمهم فكان هذا
الملتزم يطلب حق اتباعه ويجبر خلل العيب الذى لحقهم ومن ثم كانت حكومة
هؤلاء القضاة لا تتجاوز الحدود الضيقة للالتزامات الملوكية فضلا عن
انتظام الضبط والربط فى سائر المحاكم المتعددة بقانون كلى تعمل به فى اجراء
احكامها شوهد ان فى كل حكومة التزامية محاكم كثيرة كانت احكامها
مبنية على عوائد مخصوصة عندهم واشكال مختلفة فكانت مصادمة
المحاكم الملوكية والالتزامية لبعضها تؤخر فى اغلب الاوقات اجراء القوانين
والعمل بها فمثل هذه الاحكام المتنوعة المبنية على اغراض الحكام وهوى

انفسهم لم يمكن معه سلوك طريق الحق والانصاف
فاحس جميع الملوك بعظم المصائب المحدقة الى قوانينهم وكانوا يرون انه يصعب جدا البحث عن دوآتها او ابطالها لان الاشراف كانوا ارباب قوة عظيمة بحيث لا يمكن لاحد ان يتجاسر باظهار المعارضة على تجريدهم من الحقوق والاملاك التي حازوها بالتعدى فكان الملوك لا يتوصلون الى استرجاع ما فقدوه منهم الا بطرق بطيئة وهذه الطرق المختلفة التي كانوا يستعملونها لاجل هذا الاسترجاع ينبغي لنا ان نذكرها لانها اظهرت تقدم القوانين في دول اوربا المختلفة فنقول قد بذل الملوك جهدهم اولا في منع قضاة البارونات حيث لم يأذنوا لهم الا في اقامة الدعاوى غير المهمة وان يفوضوا امر المصالح المهمة لقضاة الدولة وكانوا يسمونها دعاوى ملوكية وهذا الترتيب الجديد لم يسعد الا على اصاغر البارونات واما اكابرهم فانهم لشدة بطشهم لم يكترثوا به بل زعموا ان مصالحهم غير محدودة بشيء وجبروا الملوك على ان يرسموا لهم قوانين يعلمون فيها بانهم مرخصون في القضاء في الدعاوى المهمة

مطلب الوسايط التي صنعت لاجل تجديد قوانين الاشراف

ولكن ترتيب الملوك اختصاصهم بالحكم في المصالح المهمة قد اثمر بعض اعمال نافعة حصلت بالفعل واخرى انفع منها صارت فرصة الحصول وذلك ان هذا الترتيب حمل الناس على الالتفات الى ان هناك محاكم اخرى غير محاكم البارونات فاعتادوا على سماع رفعة شان الملوك وسيادتهم على الملتزمين ولما كان الاتباع قد حصل لهم ظلم شديد من الملتزمين حملهم ذلك على ان يتخذوا الملوك مناصرين لهم فاستعدوا اجمع لطلب تحقيق دعاويهم مع امرائهم التي اقيمت في محاكم البارونات بمحاكم الملوك ولكن ما دامت طريقة القتال الشرعي باقية على قوتها الاصلية ومعمولا بها عندهم لم يمكن للدعوى التي فصلت بها ان تحول الى محكمة اخرى فكانوا يفوضون امر الدعاوى المفصولة بهذه الطريقة الى الله تعالى وهو يظهر اثر ارادته الازلية فيما يترتب على هذا القتال وكانوا يعدون من الكفر الشك في عدل هذا الحكم الالهي ولكن عند ما اخذت هذه الطريقة الخشنية في التناقص عند الناس وقل التمسك بها

رغب الملوك اتباع البارونات فى العمل بالقوانين الملوكية عند شكواهم من قضاتهم ومع ذلك فطريقة طلب التحقيق لم تترتب الا بالتعاقب والتدريج والمهلة فالدعاوى الاول التى طلبت للحكم فيها بمحاكم الملوك كان سبب طلبها لذلك اما امتناع محاكم البارونات من الحكم فيها او اهمالهم اياها وحيث كان طلب هذه الدعاوى للمحاكم الملوكية جاريا على مقتضى اصول المتبوعية والتابعية المنصوصة فى مذهب الانفراد لم يكن للاشراف ان يعترضوا فى الاذعان للعمل بهذه العادة عندهم الا قليلا ولكن لما اعقب طلب هذه الدعاوى الذى كان سببه الامتناع او الاهمال دعاوى اخرى كان السبب فى طلبها ادعاء ظلم الحكم الاول الصادر عن البارونات فهم الاشراف ان هذه العادة الحادثة ان صارت عامة عند جميع الناس لم يبق لهم من القوة الا صورتها وان الاقضية الشرعية تمامها تكون مقصورة على المحاكم التى لها الحق فى طلب التحقيق فانتشر عاجلا الحرب بين البارونات واستعدوا للملوك فى رفع هذه العادة قائلين انها من باب التغلب على حقوقهم وكان الملوك فى عدتهم بالقدمن اوربا يتعاطون دائما اسباب تحصيل مقاصدهم ثم كانوا فى بعض الاحوال يضطرون الى تعليق اجراء تلك المقاصد حتى يظهر انهم تركوها رأسا اذا وجدوا عصبة ذات شوكة قوية عليهم بحيث لا يمكنهم مقاومتها ومع ذلك كانوا اذا وجدوا فرصة لضعف تلك الشوكة رجعوا الى البحث عن اسباب اجرائها مع بذل الهمة فيها ولما لم يكن للاقضية الملوكية فى مبدء الامر دار معينة لاقامة الدعاوى ولا زمن معين لاجتماع جمعياتهم فاجراء العدل فى الاحكام عين الامراء للدعاوى على اختلافها محاكم مخصوصة فى امكنة معينة وازمنة كذلك من السنة لاجل اجراء احكامهم وانتخبوا قضاة اعظم وافقه وانجب من قضاة محاكم البارونات واعلوا مناصبهم ورفعوا مجالسهم وجعلوا لها رونقا اعظم من رونق مناصب البارونات وبحثوا عن الاسباب التى يحصل منها فى قضيتهم زيادة الانتظام عن اقضية البارونات وكثرة الضبط فى الاحكام فنشأ عن ذلك كله لمحاكم الملك كثير من الامن

والطمأنينة

واطمأنينة والاحترام العام فعند ذلك ترك الامم محاكم البارونات وقوانينهم
التي كانت على مقتضى اغراضهم وبادروا برفع دعاويهم وخصوماتهم الى
القضاة ارباب القريحة الذكية الذين كانوا في قبول الرشوة اقل من قضاة
البارونات واتخذتهم الملوك يحكمون باسمه نيابة عنه فصار الملوك حينئذ رؤساء
الامارة دفعة واحدة وصار اليهم الحق في الحكم بالعدل على رعاياهم بل في بعض
الممالك ترك البارونات قوانينهم ومحاكمهم لكونها صارت محتقرة وفي بعض
آخر صارت احكامهم على اراضيهم معطلة بالقوانين التي رتبها الامراء لشدة
ظلم تلك الاحكام واحجامها عن صدرت اوامر بتركها بالكلية حتى صار تدبير
الاقضية والاحكام ناشئا عن اصل واحد لا يصدر عن غيره اشتهر عاجلا
في سائر البلاد مع الانتظام والاتحاد

وطريقة الاحكام الشرعية المنتظمة التي صارت محترمة في محاكم القسيسية
ساعدت مساعدة عجيبة في تقدم مراتب الاقضية والاحكام واذا نظرنا
الى تلك الاحكام الشرعية من جهة السياسة سواء كانت آلة توصل بها
القسيسون الى التغلب على ما ليس من حقوقهم بحيث يجعلون لهم دخلا
في الشركة والاحكام التي لا تعنيهم ولا تعلق لها بوظائفهم كانها لا تلائم
سياسة الحكومة الملوكية او كانت كالسبب الاصلي لطمع الباباوات
الذي اضعف المملكة عدة قرون وكاد ان يغير على حرية جميع اوربا وحدها
انه ينبغي اعتبارها كأنها من اكبر المصائب المهولة التي كانت تقع لمنع
سعادة الامم المتمدنة واما اذا لم نعتبرها الا كقانون من القوانين المتعلقة بحقوق
الاشخاص واملاكهم ولم نلتفت الا لما ينشأ عنها من الثمرات والمزايا فانه
يكون لها حكم آخر وفق ما تقدم وفي ازمنة الجهل والتقليد كان القسيسون
محترمين احتراما ناشئا عن اوهام ذلك العصر الفاسدة ولما شرع الامم المتوحشون
الذين اغاروا على المملكة الرومانية كانهم مرتدين منتشرين في تمسكوا بدين
النصرانية وجدوا شوكة القسيسين قوية وان لهم تصرفا مطلقا فحملهم
ذلك على ان يظهروا لهؤلاء المرشدين المستعدين التعظيم والطاعة والانقياد

مطلب
تقدم الظلم القسيسي

الذي كانوا قد اعتادوه لقسيسي دينهم القديم واعتقدوا انهم مرهونون عن التنقيص ومقدسون كان وظائفهم كذلك ورأوا ان من الكذب ادخالهم تحت احكامهم البشرية واما القسيسون فانهم لم يهملوا في اغتنام المنافع التي كان يمكنهم تحصيلها من عبارة هؤلاء الامم فحددوا محاكم لينوبوا عما ينقص عليهم في انفسهم ووظائفهم واموالهم حتى انهم شرعوا في استقلالهم عن حكم القضاة المدنيين فكادوا يستقلون عنهم بالكلية وعما قليل جعلوا تحيلهم وتعجبانهم هذه المزية عامة لكل من ينتمي اليهم ووسعوا احكامهم الى وقائع وصور كثيرة وصار اغلب الدعاوى من وظيفة المحاكم القسيسية تجري عليها احكامها

مطلب كون صورة الفقه القسيسي اكمل من الفقه السياسي المدني

ولاجل الحكم على هؤلاء العوام بعدل هذا الجور والتغلب على تلك الحقوق بلا مخالفة ولا سآمة كان من الضروري ان الانسان يقيم لهم بمنارى قسيسية كاملة في تدبير الاقضية والاحكام ولم يكن هذا الامر صعبا في زمن كان يمكن فيه للقسيسين ان يتعدوا على كل شيء بلا معارض ومانع وكان الشيء اليسير من المعارف الذي كان يستعمل لارشاد الامم في تلك الازمنة المظلمة الجاهلية من المعارف خاصا بالقسيسين فكانوا هم الحاملين للمعارف والمستأمنين عليها وكانوا وحدهم هم الذين اعتادوا على قراءتها وتعقلها والتفكر فيها يستخرجون منها البراهين والاشياء المهمة وكان عندهم بقايا الفقه والآداب القديمة التي كانت محفوظة بالروايات او مرسومة في الكتب التي سلمت من اتلاف الامم الخشنية وبموجب قواعد هذا المذهب القديم رتبوا دستور قوانين موافقا لاصول العدل الطبيعية ولما كانوا مسترشدين بالقوانين الثابتة المعروفة عينوا اشكال محاكمهم ووضعوا في احكامها الاتفاق والاتحاد وكان عندهم القوة اللازمة لردع من تعرض لهتك حرمتها فكان حكم القسيس باخراج انسان من دائرة الدين وغضبهم عليه اشد عقابا من عقاب حكام السياسة الذي كان يمكنهم اجراؤها في احكامهم

فليس من العجيب ان الاحكام القسيسية صارت هي المقبولة المحترمة عند

الاهالي

الاهالى وان التماس المعافاة من الاحكام السياسية صار مطلوبا من عوام
فيه كانه مزية اعطيت لهم على وجه التفضل والانعام وليس عيبا ايضا ان
صارت اصول القانون القسيسى المنتظم فى اعين الامم الجاهلية احسنية اعدل
من الاحكام المتقدمة لجهلة لو كانت تجرى عليها اقامة الدعاوى فى المحاكم
المدنية وذلك ان تلك الاحكام المدنية كانت تبيح فى المخاصمات الواقعة بين
البارونات ان تتم بالمغلوب والقوة بخلاف القانون القسيسى المنتظم فان
جميع المشاجرات كان يستفاد فيه بقوانين معينة واحكام شرعية وكانت
الاحكام المدنية ايضا حين اباحت طريقة القتال فى فصل الدعوى كانها
جعلت كلا من القوة والصدفة حكما عدلا يفصل الحق من الباطل والعدل من
الجور واما الاحكام القسيسية فكانت تحكم فى مادة المشاجرات باصول
العدل والتثبت بالشهود ومن مضار المحاكم السياسية انه كان اذا وقع فيها
خطأ فى حكم بارون له الحكم الالتزامى وظهر الحق لا يمكن نقضه ولا يجوز رفع
الدعوى الى محكمة عليا بخلاف القانون القسيسى فانه جعل المحاكم مختلفة
الدرجة بحيث يمكن للدعوى الواحدة ان ترفع بالتدريج من محكمة الى اعلا
منها على حسب طلب احد المتداعيين حتى تصل الى المحكمة العليا التى جعلت
لها الكنيسة التصرف المطلق فى ذلك واوجبت رجوعه اليها فحينئذ كان
مدرك هذه الاحكام القسيسية كاصول لها سببا العقول لاحتصان التغيرات
الثلاثة التى نشأت عن تلك الاحكام فى المذهب الالتزامى الذى ذكرناه آنفا
وليس فضل المذهب القسيسى مقصورا على هذه التغيرات النافعة للجمعية
فان عدة من القوانين التى هى الآن كحصن حصين يأمن به الانسان على نفسه
واملاكه مناقضة ومخالفة لاصول الاحكام السياسية المدنية التى مكثت
فى اوربا عدة قرون حيث ان تلك القوانين منتخبة من قوانين المحاكم القسيسية
ومقتبسة من وقائعها فلما تمسك الاهالى باحكام محاكم القسيسين المبنية على
الحكمة والعدل حملهم ذلك على معرفة انه يلزمهم نبذ قوانين البارونات
الجهادية واستعمالهم بعموها وارالتها

وهذا المذهب الرومانى ساعد فى معرفة الناس بعض معارف صحيحة اوسع دائرة من غيرها تتعلق بالاقضية الشرعية واحكام الدولة وهو الاطلاع على الحقوق الرومانية وذلك ان من جملة المصائب التى جاءت عقب انتشار الامم المتوحشين وتخريبهم للبلاد حادثة مهولة وهى ابطال الحقوق الرومانية واندثارها وكان المقصود الاعظم من تلك الحقوق ادخال اهل الدنيا باسرهم تحت حكم الامة الرومانية وكانت قوانين هذه الامة المدنية مقيدة بالحكاية لاخلاق امم الشمال المتوحشين وعوائدهم بل ان تلك القوانين كانت مؤسسة على قواعد اجنبية لا تليق بالامم المتوحشة واعاقت ملايمة لحالة عدنية لا تخطر ببال مثل هؤلاء الطوائف المتوحشة فلذلك صار الفقه الرومانى فى جميع الاماكن التى ملكتها الامم المتوحشة نسيا منسيا ومكث على ذلك عدة قرون وهو محجوب بالقوانين المتوحشة العجيبة التى لا معنى لها وكانت لا تستحق ما اطلقه عليها اهل اوربا من اسم قوانين وفى نحو منتصف القرن الثانى عشر عثر اتفاقا فى ايطاليا على كتاب من كتب قوانين جوستنيانوس فتقدمت حالة الجمعية السياسية حينئذ بعض تقدمات عظيمة جدا والتجاريب التى حصلت فى القرون العديدة وسعت عقول الناس فى شأن هذه التقدمات فصاروا يتعجبون جدا حيث اطلعوا على هذا المذهب القانونى الذى عجزت اسلافهم عن ترتيب مثله ومع انه لم يكن عندهم من المعارف ما يكفى فى كسبهم من العلوم القديمة الميل الى الفلسفة الحقيقية والعلوم النظرية ولم يكن لهم طاقة على ادراك حلاوة تآليف الآداب وبلاغتها ومعرفة معانيها كانت لهم معارف كافية فى ان يحكموا بفضل هذا المذهب القانونى الذى كان محتويا على جميع الاحكام الملازمة لوقائع الناس على اختلاف احوالهم واعمارهم مع العدل والاصابة والتدقيق واما اولو المعرفة بالعلوم الادبية فانهم بذلوا همتهم مع الغيرة والاجتهاد فى مطالعة هذا العلم الجديد وبعد ظهور هذا الكتاب القانونى بسنوات قلائل ترتب فى اغلب ممالك اوربا مدرسون للقانون المدنى وامروا بقراءته فى المحافل العامة

مطلب
كون ممارسة الحقوق الرومانية اعانت على نشر بعض معارف اصح مما كان اولا تتعلق بالاقضية الشرعية واحكام الدولة

مطلب
الحالات التى اوقعت القانون الرومانى فى زوايا الاهمال

مطلب
الاسباب التى اعانت على معرفة هذا المذهب

مطلب
ما نتج من مطالعة الحقوق الرومانية من الامور السعيدة المهمة

فكل من مطالعة هذه الحقوق الكامل والعمل به لم يأل جهدا أن نشأ عنه للناس في بعض الاعمال مهمة سعيدة عظيمة جدا وذلك انهم كانوا محتاجين لمعرفة قوانين واضحة عمومية يستوي فيها جميع الناس ليستخرجوا منها جميع المنافع وبادروا الى تعيين الاصول والاشكال التي يلزم اتخاذها كي ان تطبق طرقها واحكامها عليها فحثوا عن تحصيل هذا المقصد المهم جدا في سعادة الامم وجدوا في طلبه مع كثير من الغيرة والهمة فلذلك صار الفرنساويون الالتزامي قبل آخر القرن الثاني عشر مدة ما منتظما وصار كتاب دستور بقوانين مدنية ذا شكل حسن الترتيب سهل مراجعته وصارت العادات القاعدة التي لا ثبات لها الموجودة في الاقاليم المختلفة والممالك المتنوعة يبحث عن تحصيلها وتطبيقها لتدوين جامع الصحة الكاملة التي لم تصدر الا عن معرفة الفقه الروماني وقد تلقى بعض بلاد اوربا الحقوق الرومانية بالقبول واستعملوها بدلا عن الشرائع المدنية فجميع الاحوال التي لم ينص فيها بهذه الشرائع كان يحكم فيها على موجب اصول تلك الحقوق الرومانية وكان بعض الامم يرجحون الفقه الروماني والاصول السياسية بقوانين البلاد وكان كل منهما مساعدا ايضا لقوانين البلاد على تكميل تشريع الشرائع وترتيب القوانين والاحكام وان كانت اعانتها بوجه ضعيف

وهذه التصنيفات المختلفة في المذهب الفقهي وفي تدبير الاقضية والاحكام انتجت في الاخلاق تغييرات مهمة جدا وانتشرت وعظمت ونتج منها البراعة في الصنائع والحرف وصارت الامم مجبورة على ان تمارس معارف عمومية مختلفة وتجتهد في بعض اشغال مخصوصة ليكون لها الطاقة على الوصول لدرجة التوفية بالوظائف المختلفة التي كانت تقتضيها الاحتياجات الجمعية المتعددة واما الامم الحنفية فلم يكن عندهم الا صنعة واحدة شريفة وهي فن العسكرية فمنتهى ادراك العقل البشري عندهم اكتساب القوة والنشاط الذي تحتاج اليه التعليمات العسكرية ولما كانت الاشغال زمن الصلح حقيقة قليلة كان لا يلزم الانسان لاجل تحصيلها ان يتبع المطالعات في الكتب

الادبية هكذا كانت حالة اوربا مدة قرون فكان الرجل العظيم المقدم من حين ولادته للعسكرية ويرغب فيها دون غيرها من سائر الصنايع لا يتعلم من العلوم الا علم الحرب فكانت رياضاته وحركاته على طبق الحركات العسكرية حتى ان طبيعة القاضى الذى كان منصب للاشراف دون غيرهم لم تكن ترغب فى معارف تفوق عن المعارف التى يمكن ان يكتسبها الانسان من غير ممارسة الكتب الادبية * والذى كان البارونات يرونه لازما ضروريا فى اجراء الاحكام على مقتضى العدل والانصاف انما هو كناية عن جمعهم عدة عوايد من الآثار القديمة التى وصلت اليهم بالرواية والتواتر وصارت متداولة محترمة معمولا بها على تداول الايام وعن كونهم يعينون بموجب رسوم معينة مخصوصة ما يلزم للمحاربة وما يترتب عليه وهل ذلك موافق للقوانين العسكرية اولا

مطلب
النتايج التى نشأت للجمعية من هذا التغيير

ولكن لما عينوا امور اقامة الدعاوى الشرعية واوردوا القوانين التى يحكم على مقتضاها صارت الاحكام الشرعية من ذلك الوقت علما لا يمكن تحصيله الا بالممارسة والتعليم والتجربة وخدمة فى المحاكم ومواطن اقامة الدعاوى الشرعية ولم يكن عند الاشراف الذين كانوا لا يتولعون الا بالحرب ولا يعرفون من الكتابة الا ما قل وقت يشرعون فيه فى الاشتغال بتعلم هذا الفقه فكانوا لا يرضون فيه لكونه كان ثقيلا عليهم ومنافيا للحرب الذى كان هو بغيتهم لانهم كانوا يرونه لا يناسب مقامهم فتركوا بالتدريج الوظائف التى كانت لهم فى المحاكم حيث كان جهلهم بالاحكام يعرضهم الى الاحتقار فى هذه المحاكم وصاروا يسأمون من سماع الدعاوى المشكلة التى لا يمكنهم فهم تفاصيلها فالتزموا حينئذ ان يعتمدوا على اناس تمرنوا على دراسة علوم المبادى ومعرفة القوانين فيما يتعلق بالفتوى وبث الاحكام الشرعية اللازمة للحكم فى المشاجرات كما اعتمد عليهم ايضا فى اجراء الاحكام والبحث عن كيفية اقامة الدعاوى وتحقيقها فتلك هذه الطائفة التى لزم اساس جميعها السعى اليها دائما لاستعمالها واتخاذ آرائها فى سائر الاشياء المهمة وكانت آراؤها يتم بها

بعد الانسان وشقاؤه وشرفه وضعته وحياته وموته بلغت في اقرب زمن كمال النجاح والاحترام ونفوذ الكلمة في الاهالي فلذلك نال هؤلاء الاهالي التشريفات التي كانت الى ذلك الوقت مقصورة على ارباب العسكرية في نظير معارفهم بوجودهم وقلدوهم المناصب العظيمة وما يتعلق بها من نفوذ الكلمة والاحترام فنشأ بين عامة الاهالي صنعة شريفة اخرى غير صناعة الحرب وصارت وظيفة التعيين منصبية مطمح نظر الناس وكانوا يسلكون المسالك اللازمة للتوفية بها فنشأ عن ذلك طريقة جديدة في مسابقة الاهالي الى تلك الوظيفة ومنافستهم فيها ووصلتهم الى الغاية بالشرف وصارت فنون الصلح والخصال الجيدة المترتبة عليه معمولا بها واخذت حقها من الجزاء والمكافاة

مطلب التصورات العظيمة والاخلاق الكريمة التي نشأت عن التولع بالامارة

وبمجرد ما ترتبت على التدريج في اوروبا هذه التغييرات المهمة الناشئة عن ادارة الجمعية وتدبير الاقضية والاحكام شرع الشرف يكتسب صفات عظيمة وخصالا كريمة وكان ذلك عائدا على الامارة المسماة شوفالري التي كان ترتيبها عندهم لا معنى له وكانه ناشئ عن الاغراض والشهوات النفسانية والجنون غير انه كان نتيجة طبيعية اقتضتها احوال الجمعية في ذلك الوقت وهو الذي حسن اخلاق اهالي اوروبا بخلاف الحكومة الالتزامية فانها كانت دائما معدة للحرب والنهب والظلم وما يوجب اختلال النظام حيث كان الناس المستضعفون الذين لا اسلحة عندهم دائما عرضة لايذاء السفهاء والاقوياء والسبب الحامل للبيكرادات على حمل الاسلحة حماية الحجاج المظلومين في بلاد القدس هو الذي حمل غيرهم على ان يتصدوا للذب عن البريئين المظلومين في اوروبا فهذا الشيء بمفرده هو الذي كان جديرا بحث هؤلاء البيكرادات الخاطرين بانفسهم على الشجاعة والنشاط حين كان استيلاء المسلمين على ارض القدس تاما وسانحا بجمع الجيوش لحرب الصليب ثم ان قطع عرق ايذاء الاقوياء واعانة الضعاف المساكين وتخليص الاسرى وحماية النساء والانتقام لهن وللايتام والقسيسين وما ترى لا يمكنهم حمل الاسلحة للذب عن انفسهم

وكذلك جبر خلل العيوب وارادة التعدى كل ذلك كان اهلا لحمل البيكزادات على استعمال القوة والشجاعة والخصال الجيدة وكانت المروءة والشجاعة والعدل والشرف من خصوصيات الامارة وحيث كان الدين فى ذلك الزمن له دخل فى جميع الاشياء من القوانين والصفات النفسية كان بعض هذه الصفات المذكورة ايضا نوع من الحمية حتى وصلت الى هذا الافراط العجيب الذى يتعجب منه الآن وصار الاهالى يستعدون للدخول فى مرتبة الامارة بنوع من الزهد باعمال وتمرينات شاقة جدا فكان كل من اراد الارتقاء الى هذه المرتبة دخل فيها بابهة واحتفال عظيم مع مراعاة الديانة فكان لا يوجد احد من البيكزادات الا ويدعى التشريف لنفسه بالدخول فى زمرة ارباب الامارة لانها كانت درجة ممتازة تكاد ان تفوق درجة السلطنة وكان الملوك يفتخرون بتقليدهم بها كما كان

مطلب
الاعمال السعيدة التى نشأت عن هذا الترتيب

وهذا الترتيب العجيب الذى كان يجمع الشجاعة والفتوة والديانة التى امتزجت ببعضها وصارت كالشئ الواحد كانت ملايمته للرغبة فى شرف الحرب والمهارة عجيبة جدا وصار عن قريب له تأثير غريب فى الاخلاق ولما تحلى ارباب هذه الامارة بالمروءة والشجاعة صارت الحرابة قليلة المرواة قساوة وقد تهذبت الاخلاق وحسنت حين كان الرفق معتبرا كانه اعظم صفات هؤلاء الامرآء واخذ كل من الحمية والظلم فى النقص والانحطاط عندما رتبوا قانونا لمعاقبة مرتكبهما او لتهديد من اراد القدوم عليهما وصار الاحترام الصحيح للصدق والاستقامة الصحيحة فى الوفاء بالوعد كلاهما اعظم الصفات المميزة للبيكزادات لان هذه الامارة كانت عندهم معتبرة كانها مدرسة لاكتساب الشرف فلهذا المعنى كان ينبغى لمن اراد الدخول فيها ان يكون على اعلا درجة من الاستقامة واجتناب ما لا يليق

ثم ان كلا من استحسان صفات هذه الامارة وحبها والرغبة فيها بانضمامه الى اعتبار اربابها ومزاياهم وعلو شانهم فى جميع اقسام اوربا كان فى بعض

الاحيان

الاحيان يورث ارباب الحمية عبرة عسكرية تحملهم على مشروعات ذميمة
لا ياذن بها العقل ومع ذلك فكان يساعد على ان يطبع فى قلوبهم عناصر الكرم
وشرف النفس وهذه العناصر كانت تتقوى بما يوجب الشفقة ولين القلب
واما الاعمال الخارقة للعادة المبنية على الجبر والقساوة الصادرة من الامة
رسالة امراء التى كانت تجوب الدنيا للبحث عن الوقائع فانها كانت
معلومة مشهورة ومستحقة لما ذمها به بعض الناس والاستهزاء بها غير ان
هذا البعض لم يمعن النظر فيما ترتب عليها من النتائج السياسية النافعة
ويمكن ان هذا الترتيب العجيب وان كان فى الظاهر قليل النفع
لمصلحة الجنس البشرى له الفضل فى معظم تحسينات الرفاهية وتشريف
العرض والمروءة التى تحمل الانسان على لين الجانب ولو فى حال قسوته على
اكبر اعدائه وهى التى ميزت الاخلاق الجديدة من الاخلاق القديمة
وفى مدة القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كان
للصفات الجيدة التى طبعتها الامارة فى قلوب الناس مدخل بين فى اخلاقهم
وسلوكهم ولتمكنها من قلوبهم لم يمكن ان تمحى آثار تلك الامارة بعد
اضمحلالها ونزولها عن درجة الاعتبار فيما بينهم واستمرت لانه سيأتى
فى التاريخ الذى انا شارع فى تأليفه بعض وقائع مهمة تضاهى مشروعات
الامارة المنقولة اكثر من المقاصد السياسية بمعنى انها اجريت بمحض القوة
والشجاعة دون السياسة والتدبير وبعض الوقائع التى ذكرناها فيه علامات
واضحة تدل على انها من الامور الناشئة عن محض الامارة وكان فرنسيس
الاول يرغب كثيرا فى الافتخار بان يكون من زمرة امراء الشوالرية
ولذلك كان يميل الى اظهار الجسارة التامة والشجاعة الوافرة فى الحرب وعظم
الشان والرفق فى الصلح فكانت شهرته بتلك الصفات الجيدة مساعدة لافرسنه
الذى كان فاتر الهمة ساكن القلب على ان يغير حلمه الغريزى
وخلقه الطبيعى رغبة فى مساواة فرنسيس فى شئ من انواع البطش ولين
الجانب

مطلب
تأثير تقدمات العقل
التأثير التام في الاخلاق

وتقدمات العقل وممارسة العلوم كلاهما اثر كثيرا في تغيير اخلاق ملل اوربا
وادخل عندهم ما هم متميزون به الآن عن غيرهم من الادب والذوق والتمدن
ثم الرومانيون بعد انقراض دولتهم فقدوا في الحقيقة ميل كونهم يسعون
على منوال اسلافهم في تحصيل انواع من الكمال والشرف يربى عليها من يأتى
بعدهم من الامم والاجيال ولكن مازال باقيا عندهم محبة الاداب وممارسة
الفنون مع غاية الاجتهاد وكمال الاشتغال واما الامم المتبربرون فكانوا بعيدين
عن ادراك محاسن هذه الكمالات والرفاهية لعدم المامهم بها ولاستمرارهم
باقية القصور عقولهم ان تصل الى مزاولة تصور الاشياء الممدوحة الحسية
والمعنوية ومعرفة مقدارها لم يكن عندهم الاحتياج والرغبة اللذان
هما السبب في شغل الفكرة وحركة العقل ولما كانوا لا يعرفون فضل الفنون
ولا منفعتها اجتهدوا في ابطال شعائرها بقدر ما اجتهد خلفهم في اظهارها
وحفظها وما حصل من المصائب العظيمة الناشئة عن استيطان الامم
المتبربرين في المملكة الرومانية والتقلبات العديدة المهولة التي وقعت
في الممالك التي جددوها وعيوب صورة حكومتهم التي كانوا رتبوها كل ذلك
كان سابقا في منع تولد الذوق وممارسة العلوم واوجب اشتغالهم بالحروب
وعدم راحتهم واوقف اوربا في اودية الظلمات كما تقدم ذكره آنفا ولكن
الوقائع والقوانين المختلفة التي ذكرنا تاريخها التجب بالتعاقب في الجمعية تغيرات
دائمة وتقلبات مستمرة فبمجرد ان حصلت لهم الراحة الناشئة عن انتقاب
الذى كان سبيا في استقلال بعض ملل اوربا واكتسابها الحرية وبمجرد
ما عرف اهل جمعية اوربا قيمة المنافع الناشئة عن التجارة والانتظام العام
وامن كل انسان على نفسه شرعت عقولهم في ايقاظ قواهم الخاملة وقدح
زند افكارهم التي كانت نارها مخبوءة وسلكت مسلكا جديدا فبذل الناس
جهدهم في اشغال عظيمة وتفتيشات مهمة لم تسبق لهم بها معرفة بل
ولا خطرت ببالهم قبل ذلك اصلا ففي اواخر القرن الحادي عشر خرجت
عقولهم من لجج الغفلة الغزيرة التي مكثت منغمسة مائجة فيها زمنا طويلا

مطلب في ان الجد والاجتهاد الذي حصل اولا في العلوم الادبية كان على خطا وفي بيان سبب ذلك

وتفرغوا بكليتهم الى اشياء جديدة

ولكن تفرغ اهالى اوربا اولا للعلوم الادبية والفلسفة كان بطريق رديئة جدا غير مستقيمة وكان سلوك الامم في ذلك كسلوك الاحاد دردبا وذلك انهم في مبدء الامر تمكنت منهم القوى الجبلية قبل ان تمرن قواهم العقلية وتتدرب على قواعد العلوم النظرية فكانوا يشتغلون بالشعر قبل الفلسفة وكان استشعارهم شديدا وتأثرهم قويا بحيث كانوا يحسنون وصف الاشياء وتخطيطها على وجه بليغ بديع وان لم يكن عندهم من العلوم العقلية التى هى علم الميزان الا شئ يسير فكانوا ينسجون على منوال اوميروس وهر يودوس (شعران) قبل ان يتشبثوا بحكمة تاليس وسقراط (من الفلاسفة) ولكن لسوء حظ الآداب لم يسلكوا المسالك التى تقتضيها الطبيعة بل صرفوا همتهم بالكلية والجزئية الى مافوق الطبيعيات حتى توغلوا فيها وفى العلوم النظرية الصعبة المسائل بمجرد استيطانهم فى البلاد التى فتحوها انتقلوا لدين النصرانية ولكن لم يتلقوه كما هو ولم يسلكوا على منهاج قواعده بحيث يقومونها على اصلها وحالها وذلك ان عدة من الواقفين بالعلوم مزجوا هذا الدين الجليل الكثير الفائدة بتدقيقات فلسفية تبين فى زعمهم باطن الدين ورموزه السرية وتحل مشكلات خارجة عن طوق العقل البشرى وصارت هذه التدقيقات الفلسفية جزأ من دين النصرانية بل صارت كانها الجزء الاهم فبمجرد ماتشوفت النفوس للترقى الى درجة التفكر والتعقل كان اول اطلاعهم على هذه الاشياء فاشتغلوا بها وصارت مطمح نظرهم واول ثمرة نتجت عن تدقيق العقول حين اخذها فى التقوية تابيا فى اوربا هى علم الالهيات التى كانت تقرأ فى المدارس وكانت مشحونة بالاطناب فى المناقشات وبذكر الفروق بين امور دقيقة لا طاقة للعقول البشرية على الجولان فيها

وما كانت هذه الحالة وحدها سببا فى اضلال عقول هؤلاء الناس وسلوكهم سبيل الغى حين اخذوا ثانيا فى ممارستهم وتمرنهم على هذه الامور التى كانوا

قد تركوها جامدة احقابا بل ثم اسباب أخر وذلك ان اغلب من اعانوا على احياء العلوم الادبية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وهموا باعادة معالمها كانوا قد اكتسبوا المعارف والاصول الفلسفية اما من اليونان الذين كانوا بمملكة الروم بالقسطنطينية واما من عرب اسبانيا وافريقية ومن المعلوم ان علوم هاتين الامتين (اليونان والعرب) كانت قد فسدت بسبب افراطهم فى التدقيق فان اليونان كانوا قد جعلوا علم الالهيات مذهبا مشتملا على قواعد نظرية تحتاج لغاية الفكر والتدقيق وعلى مباحث خلافية لا يقف الانسان لها على حد ولا حقيقة واما العرب فقد افسدوا علوم الفلسفة بالتدقيقات الفاسدة التى اخلطوها بها ولا يخفى ان هذه العلوم التى كان الغرض الاهتداء بها لا ينتج عنها سوى الحيد عن الحق والسداد والميل عن سبيل الرشاد فبذلك ضلت عقول اول من اشتغلوا بالفلسفة وصارت غريقة فى بحور المعانى المستصعبة والمباحث المشكلة من غير ان تعلم لها حدا تقف عليه * وعوضا عن كونهم يدعون فكرتهم على قدر طاقتها الطبيعية ويشغلونها بالامور الاختراعية الابتداعية التى تهذب ذوقهم وتوسع عقولهم وبها تعظم دائرة اوهامهم كالاشتغال بالفنون المستظرفة التى هى زينة الحياة ومسلية الهموم تركوا انفسهم ضلت بالاعتماد على آراء من كان قبلهم وبالاقتداء بهم فاتعبوا قوة قرائحهم وعطلتهم فى تدقيقات فلسفية هوسية لا تجدى الا التعب

ومع كون هذه الامور النظرية غير نافعة فى شئ ولا مصيبة كانت لكونها جديدة تحث العقول على الاجتهاد وتزيدها رغبة بسبب جرأتها وغرابتها ومع ان هذه الامور كانت لا تستميل قلبا ولا تلذ عقلا كان يرغب فيها كثيرا وكانت الناس على غاية الاعتناء بمزاولتها فلم يتفق اصلا فى الاعصر المنورة بمصابيح العلوم ان الفلسفة الصحيحة المقبولة قد اعتنى بممارستها ومزاولتها مع الغيرة والنشاط اكثر من هذا وذلك انه فتح حينئذ فى جميع امهات الكنائس واغلب الاديرة الكبيرة مكاتب على نسق المكاتب التى كان انشأها الملك

كرلوس مانوس وجددت ايضا مدارس عظيمة ومجالس بكليات العلوم فتخرج منها جمعيات علماء رخص لها فى انه لا يجرى عليها من الاحكام الا ما شرعته من نفسها ورخص لها ايضا انها تحكم ارباب باقتناء مخصوص بهم متسع جدا وانعم على المدرسين والطلبة بحقوق ومزايا مهمة ولاجل اتحاف كل على حسب ما يليق به ومكافئته اخترعوا القابا تليق بطائفة ارباب العلوم والفنون والمعارف والحرف لتكون مميزة لاربابها على حسب مراتبهم ولم تكن درجات التقدم فى المعارف سببا للترقى فى درجات الشرف وعلو الشان فى خصوص المدارس بل كان شرفهم فى غيرها من سائر المحال الخارجية ايضا فكان العلم فى حد ذاته معتبرا فى الجمعيات وبين الناس وكان سببا لعلو الدرجات والغنى فباستماع هذه المزايا والنظر اليها صار يذهب الى مجامع العلم والمدارس عدد لا يحصى ومقدار لا يستقصى من الطلبة لان جميع الناس كانوا يسعون مع المبادرة الى الدخول فى هذا السبيل الجديد الذى كان يوصل الى العز وحوز مراتب العلا والاعتبار

مطلب

وقائع احوال عاقت ثمرة تقدم هذه المعارف

ومع هذا النشاط العظيم والاجتهاد الكامل الصادر عن بوادر العقول البشرية فى حالة عنفوانها فى مدة امرها لم ينتج عن ذلك كله التقدمات المهمة التى كانت تؤمل منه وذلك انه طرأت حالة اخرى شنيعة اوقفت ثمرات هذا السعى والاجتهاد وهى ان جميع لغات اوربا كانت مدة هذا القرن الذى نتكلم عليه خشنة مجردة عن الفصاحة والبلاغة خالية من اللطف والطراوة وما كان احد تصدى الى وقتئذ لتكميلها ولا لتحسينها فاعتد القسيسون للشرائع والاصول الدينية كلها اللغة اللاطينية وقد قضت العادة التى يوارى حكمها الاحكام الشرعية بان الاداب تكتب وتدرس بهذه اللغة فترتب على ذلك ان جميع العلوم التى كانت تقرأ فى القرن الثانى عشر والثالث عشر صار تعليمها وتعلمها بهذه اللغة وجميع ما الف من الكتب فى هذه العلوم كان بها ايضا فلما ان الامور الشريفة اذا رفت وقرنت باللغة الدارجة على السنة العامة حصل لها اهانة فى تلك الاوهام الفاسدة كانت

دائرة المعارف والعلوم ضيقة جدا وكان لا يسوغ لاحد ان ينتظم فى سلك طائفة الاحبار والحكماء الا اذا كان صاحب معارف جيدة وكانت ابواب العلم والحكمة تغلق عن عوام الناس فاضطرت الى ان تمكث محرومة من الانوار مغموسة فى ظلمات الجهالة كما كانت

مطلب تأثير المعارف فى الاخلاق

ومع ان هذه الاعاقة قد اضعفت تأثير المعارف وضيقت دائرتها حتى لم يمكن نشرها واذاعتها بين الناس فلا شك ان تقدمات المعارف والعلوم تحسب عندها من جملة الاسباب الاصلية التى نشأ عنها تغيير الاخلاق عندها فى اوربا وذلك ان الرغبة التى كانت للناس فى البحث عن كل شئ تكاد كرغبات كانت جارية على اصول فاسدة الا انها حثت الناس على الاشتغال بالحرف والصنايع ونبهت بها العقول الى النشاط والتمرن حتى قصد الناس الى ان يبذلوا قواهم فى اشياء وجدوها نافعة مرغوبة فتعودوا بذلك على اعمال صالحة لان تلطف اخلاقهم وتحسنها وتكسبهم الذوق وحب الفضائل التى تمتاز بها الملل البارعة فى صناعة العلوم وممارستها مع النجاح

مطلب تأثير التجارة فى الاخلاق والحكومة

ومما عاد على هذا الشأن ايضا التجارات التى كانت فى ذلك الوقت آخذة فى اسباب التقدم والازدياد وذلك انها ساعدت فى تهذيب اخلاق اوربا وادخلت بها احكاما عظيمة خالصة وسياسة منتظمة واصولا سهلة مبنية على ارائه [illegible] الله تعالى وفى مدة امن الجمعية كان احتياج الناس قليلا وكذلك كانت مرغوباتهم يسيرة حتى انهم كانوا يكتفون بالمحصولات الطبيعية الخارجة من اقطارهم واقاليمهم وبما كان فى طاقتهم عمله من محصول صنايعهم وحرفهم الخشنية وكانوا يقنعون بذلك بحيث لا يفضل منهم شئ فيعطوه لسواهم ولا ينقص لهم شئ فيضطروا لسؤال الغير فيه فكانت كل بلدة صغيرة تقتات بما حولها من الاملاك والاراضى ولكونها مكتفية بذلك كانت لا تعرف ما حولها من البلاد او كانت تعرفها ولكن بينها وبينها مشاجرة ومنازعة فلا يحصل التئام ومعاشرة بالكلية وذلك ان الائتلاف والمخالطة بين امم مختلفة يستلزم اولا كونهم متقدمين فى شأن

التمدن والاخلاق و بلوغهم فيه درجة الكمال ويستلزم ايضا انشاء قوانين بها يثبت النظام العام و يأمن كل انسان على نفسه ولذلك كان اول شئ حصل من الامم المتبربرين عند استيلائهم بالمملكة الرومانية هو ايقاع الفشل بين الاهالى التى كان الف بينها الرومانيون حتى تفرقوا ومن وقتئذ صارت اوربا منقسمة الى عدة دول مختلفة مكثت عدة من القرون متباعدة عن بعضها حتى كادت المخالطة بينها تفقد بالكلية وكانت جميع البحار مشحونة بارباب الصيال حتى كان يخشى من الملاحة وكان اذا وصل احد من ارباب الملاحة الى مينة فى بلدة غريبة لا يجد فيها امنا ولا اطمئنانا ولا ينفعه استغاث حيث كان الناس كالوحوش الكاسرة و بالجملة فكان لا يمكن المخالطة بين سكان الاقسام المتباعدة عن بعضها ولو فى عملة واحدة الا مع الصعوبة وكانت الاسفار الطويلة وان لم تكن عظيمة الطول من المشروعات الخطرة اذ يخشى فيها من تعرض ارباب الصيال الذين يقطعون الطرق ومن ظلم الاشراف الذين كانت تخشى سطوتهم اكثر من اللصوص لما كانوا يرتكبونه من سوء الافعال فلما كانت هذه الموانع حاصلة فى جميع بلاد اوربا بالضرورة كان كل قليل ان لا يخرجوا من اقاليمهم [illegible] فكان اغلبهم يجهل البلاد البعيدة عنه فلا يعرف وضعها ولا [illegible] ولا امزاج فطرها ولا محصولاتها

مطلب
اسباب رجوع التجارة واحيائها

ولكن ظهرت فيما بعد عدة اسباب اوجبت عندهم الرغبة فى التجارة فتولع الناس بها وتجددت بعض مخالطات واخذ وعطاء بين الملل المختلفة وسبب ان الرغبة فى السفر وفى محصولات بلاد المشرق كانت لم تزل باقية الاثر فى قلوب الايطاليين بسبب العلاقات والمعاشرات التى كانت بينهم و بين مدينة القسطنطينية وغيرها من سائر مدن مملكة اليونان فانتقل منهم معارف هذه الفنون والمحصولات الى امم اخرى مجاورة لبلادهم (بطاليا) ولكن لم تكن التجارة حينئذ الا ضيقة هينة حتى ان العلاقات التى كانت بين الدول المختلفة كانت قليلة جدا واعظم [illegible] هذا المطلب

مع الاسلام فانها جلبت الى آسيا جيوشا عديدة خارجة كلها من ممالك اوربا فنمت واتسعت حينئذ المخالطة واسبابها بين المشرق والمغرب ومكثت بهذه الكيفية عدة قرون والغرض من هذه الجيوش والغزوات وان لم يكن الا مجرد فتح البلاد دون التجارة لم يحصل على وفق المأمول بل صارت عاقبة هذا المقصد سيئة كما انه في اصله كان من خبر الهوس وخارجا عن حد العقل وطريق الصواب الا انه ترتب عليه ثمرة اخرى لم تكن مقصودة منه وهو انه عاد على التجارة بالنفع فحصل لها التقدم التام وفي مدة هذه الحروب التي كان جميع الناس متولعين بها اكتسبت كثير مدائن ايطاليا وغيرها من سائر بلاد اوربا الحرية مع مزايا جعلتها بلادا مستقلة محترمة فتعددت في كل مملكة طوائف من الاهالي استعدت للتجارة وتوصلت بذلك الى سبل الشرف والثروة

مطلب
استكشاف البوصلة وهي بيت الابرة

وبعد مجيء هذه اهل الصليب بقليل كشفت عندهم البوصلة اي بيت الابرة التي صارت بها الملاحة آمنة نامية وسهلت المخالطة بين الملل المتباعدة فكانها قربت الناس بعضهم من بعض

مطلب
تقدم التجارة عند الايطاليين

ورتب اهل ايطاليا في هذا العصر التجارة المنتظمة بين دولهم والمشرق بواسطة مينات مصر وصار يجلب الى هذه الدول جميع المحصولات الهندية النفيسة وتجدد ايضا في ارض ايطاليا معامل للصنائع مختلفة الانواع تقدمت وبرعت وعظمت صنايعها باعانة الاهالي واهتمامهم بها حتى انهم اخترعوا فروعا جديدة من الصنائع ونقلوا من المشرق الى بلادهم عدة من المواليد الطبيعية المتولدة في الاقطار التي هي اعدل حرارة من بلادهم ليطعموها فيها ولم يزل الى الآن يخرج فيها محصولات هذه المواليد المنقولة التي يتجرون فيها تجارة كبيرة كثيرة الربح والفائدة وطالما غنم الايطاليون من ربح ما كانوا يجلبونه من اسيا من البضائع ومما هو نتيجة صنعة ايديهم فانهم كانوا يبيعونها لغيرهم من امم اوربا بمكسب عظيم حيث كان هؤلاء الامم حينئذ آخذين في اسباب التمدن والرفاهية بعد ان كان ذلك مجهولا

او محتقرا

او يحتقرا عند اسلافهم

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر كادت تجارات اوربا ان تكون فى ايدى الايطاليين وكانوا معروفين حينئذ باسم اللنبردية اكثر من اسم الايطاليين ورتبت فى جميع الممالك قبانيات لنبردية اى جمعيات تجار وصارت كلها تحت حماية نفس الممالك المقيمة فيها على اختلافها وكان لها مزايا عظيمة وحقوق جسيمة وكانت كلها معافاة من الاحكام القديمة الخشنة التى كانت تجرى على الفقراء بل وصار تجار اللنبردية فى اقرب زمن هم اهل القوافل والبضائع والصيارف فى جميع البر

مطلب
تجارة المدائن الانسيانيقية اى المتعاهدة للتجارة

وبينما كان الايطاليون بجنوب اوربا يوسعون دائرة التجارة مع غاية النشاط والنجاح ويكملون دائما ميادين اشتغلت بها كذلك عقول امم الشمال فى اثناء القرن الثالث عشر وصاروا فى جهد عظيم فى هذا الشان وفى شان الحرف والصنائع وكانت حينئذ البلاد المجاورة لبحر بلطق مسكونة بامم وحشيين يقطعون سبل هذا البحر فلما احدثت مدينتا همبورغ ولوبيك فى معاملة هؤلاء الامم وفى التجارة معهم اسهمًا ابتعاهدا على دفع صيال هؤلاء اللصوص النهابين حصل لهاتين المدينتين ثمرة عظيمة بمعاهدتهما من هذه التجارة فبادر غيرهما الى مباشرة التجارة والدخول فى تلك المعاهدة فاجتمع عن عجل ثمانون مدينة من اعظم مدائن الايالات المتسعة الممتدة على بحر بلطق الى كولونيا التى على نهر الرين ومنها تكونت المعاهدة الانسياتيقية (معاهدة المدن مع بعضها بقصد التجارة) الشهيرة التى صارت مهابة فيما بعد حتى ان اعظم الملوك كانوا يعتنون كثيرا عن استمالتها اليهم ويخشون بأسها ويخافون عداوتها ويحتاطون على كونهم معها على المحبة

وقد رتب ارباب هذه المعاهدة القوية الشوكة اول صورة للتجارة وهى التى كانت معروفة فى القرون الوسطى وقد استمروا على سلوكها عاملين فيها بالقوانين المرتبة فى مشوراتهم العمومية وصاروا يرسلون لباقى بلاد اوربا

بعض ذخائر ومهمات بحرية واتخذوا عدة مدائن اعظمها مدينة بروجه من بلاد الفلمنك ليجعلوا فيها مخازن لبضائعهم التي كانت التجارة فيها دائمة منتظمة وكان اللمبرديون يأتون بالحبوب الهندية الى تلك المدن وكذلك بمحصولات ورش ايطاليا ويستعوضون عنها الصنائع الجسيمة النافعة التي كانت تأتي من الشمال وما يبتاعه التجار المتعاهدون من الاسمار ويحملونه الى مينات بحر بلطق او يبلغونه في الانهر الكبيرة ليدخلوا في بلاد المانيا

مطلب
تقدم التجارة بممالكة البلاد الواطية

وبهذه المخالطة والمعاملة المنتظمة التي كانت بين اهالي شمال اوربا واهالي جنوبها علموا انهم محتاجون لبعضهم لا محالة وانه لا استغناء لامة عن الاخرى ولما شاهد اهالي البلاد الواطية رواج التجارة ونفاقها وزهوها ... منهم العبرة واشتغلوا مع الجهد والاعتناء التام بتكميل فروع فبريقة الصوف والقطن العجيبتين اللتين اشتهرت بهما البلاد الواطية منذ عصر الملك كرلوس مانوس وتوسيع دائرتهما ايضا وحيث ان مدينة بروجة كانت حينئذ مركز التجارات والمخالطات بين التجار اللمبردية وتجار المدن المتعاهدة لا ... ويمكنون في التجارة مع كل من هاتين القبيلتين بمدينة بروجة فاتسعت عندهم التجارة وتقدمت اتم غاية حتى صار الاخذ والعطاء من جملة عوائدهم النافعة فيهم وصار بها اقليم الفلمنك وما اتصل به من الاقاليم المجاورة له اعني بلاد اوربا واعمرها واحسنها زراعة

مطلب
تقدم التجارة في انكلترة

ولما رأى ادوارد الثالث ملك الانكلتيرة حالة تلك الاقاليم اليانعة بثمار التجارة تعجب كل العجب ثم ادرك سبب ذلك ووقف على حقيقته فاجتهد من وقتئذ في تحصيل الوسائط التي تتقوى بها الصنائع بين رعاياه بعد ان كانوا يجهلون ان بلادهم بسبب وضعها اقرب لذلك من غيرها كما كانوا لا يعرفون منبع الغنى الذي لا بد ان يبرز بينهم ذات يوم فكانوا بذلك يهملون التجارة بالكلية ولا يبحثون اصلا عن تقليد الورش التي رتبت بالبلاد الاجنبية مع ان موادها والاتها كانت خارجة من عندهم فدعى الملك ادوارد عدة شغالين وصنايعية

من قبيل العمل للاستيطان بمملكته وانشأ فوريقي مستحسنة صالحة لتقويتها التجارة وضبطها فتجدد في انكلترة بهمته ورش الصوف وتفرغت عقول الرعايا الانكليزية الكثيرة المهارة والنشاط الى ممارسة هذه الامور التي ارتقوا بها الى اعلى درجة بين الملل ذات التجارات والصنائع

مطلب ما نشأ عن تقدمات التجارة من الفوائد الجليلة النفع

ثم ان هذه التقدمات التجارية والخلطات التي تجددت اذ ذاك بين الامم وان كانت ضعيفة قليلة بالنسبة لعظم التقدمات التي حصلت منذ قرنين الا انها كانت عظيمة غريبة بالنسبة لحالة اوربا قبل القرن الثاني عشر ولا يخفى انه لابد ان ينشأ عن هذا الاصلاح نتائج مهمة جدا فيهما وبالتجارة كان مبدأ اضمحلال الاوهام والاعتقادات الفاسدة التي كانت سببا قويا في انفصال الملل عن بعضها وفي وقوع العداوة والبغضاء بينها وحسنت اخلاق الناس ولطفت وتقربوا من بعضهم حتى صار بينهم الالتئام التام واقوى ميثاق يكون بين الامم وهو معاونة بعضهم بعضا عند لزوم ذلك وقضاء الحاجات لبعضهم وبذلك استعدوا للصلح وتحصيل الاطمئنان لما انه ترتب في كل مملكة طائفة من اهاليها وهي طائفة التجارة راغبة من نفسها في حفظ الامن والاطمئنان العمومي لكونه يعود عليها بالنفع وكان كلما ازداد الميل الى التجارة في مملكة اعتنت حكومتها واعانت على ذلك وعقدت مع الممالك الاخر المعاهدات او انشبت الحروب وعقدت المشارطات ويدل على ذلك ما هو موجود في تواريخ ممالك ايطاليا والعصب المتعاهدة للتجارة وفي اخبار مملكة البلاد الواطية مدة هذا العصر الذي نتكلم عليه وكانت التجارة متى دخلت عند امة من امم اوربا على الخلاء حملتها على الالتفات مع غاية الجهد الى الاشياء التي تهتم بها الامم المتمدنة وعلى التخلق بالاخلاق الحسنة التي اقتبستها من اربابها

انتهى القسم الاول

القسم الثاني في تقدم الجمعية باعمال القوة الملية اللازمة للمصالح الخارجية

مطلب
فى ان حالة الجمعية كانت قد اكتسبت درجة كمال عظيمة

تدبير الجواسيس على الحوادث والترتيبات والتنظيمات التى اعانت بقوة مدخليتهما على تحسين اخلاق جميع ملل اوروبا على التدريج وعلى انشاء حكومات منتظمة وبقى علينا ان نقول انك لو اطلعت على حالة الجمعية والاخلاق للناس فى ابتداء القرن الخامس عشر ثم رجعت بصرك ايضا الى حالة اهالى اوروبا فيما قبل ذلك حين حرب الامم المتبربرين مملكة الرومانيين واستوطنوا بالبلاد التى فتحوها تتعجب من التقدمات العظيمة التى حصلها الناس فى شأن السياسة والانتظام وتأنس وتحسين الاخلاق

مطلب
فى ان حالة الجمعية كانت مختلة فيما يخص تدبير القوى الملية

ومع ذلك فكانت الحكومات فى ذلك القرن المذكور بعيدة عن ان تصل الى درجة السكون والتمكن التى بها تصرف تلك الممالك المتسعة من مجرى وتجمع جميع ما عندها من الوسائط والوسائل وتضارب مع الثبات والاستمرار على جميع ما تبتدأ فيه من المشروعات المهمة حتى تتم مع النجاح ثم يسهل على اهل القبائل الصغيرة ان يتعاهدوا ويتعاونوا بما يقدرون عليه وذلك لانهم لم يحملهم على ما يشرعون فيه الا الاحوال الحاضرة الراهنة مما يرونه نصب اعينهم من غير ان يشغلوا فكرهم بشئ فى تصريف العواقب والمستقبل ولا يجول فكرهم فى المآل ولا يخطر ببالهم ما يشغب افكار الامم المتمدنة فعند القبيلة انه اذا اصابها عدو اجنبى فى دارها تلتهب نيران الغيظ فى قلوب جميع اهلها فتهيج نفوسهم وتقوم عليه القبيلة باسرها واذا انتصرت ملة على اخرى مخاصمة لها تنشأ الغيرة عند الامم المنفصلة لها فالعداوة تنتقل الى جميع نفوس الملة وجميع اعضاء جمعيتهم يتحزبون مع الغيرة والرغبة ويكونون على قلب رجل واحد ويبادرون الى ميدان الحرب اما لقصد انتقامهم او لمجرد الاعتبار والشهرة هذا حال القبائل والملل الصغيرة واما فى البلاد العظيمة الاتساع كما كانت ممالك اوروبا فى ابتداء القرن الخامس عشر فان اعضاء كل مملكة متباعدون الغاية عن بعضهم بحيث لا يحصل بينهم التردد والمخالطة بكثرة ولا يمكنهم الشروع فى امر مهم حتى يتفقوا عليه جميعا اتفاقا عموميا ويتجهزوا له باستعدادات عظيمة ومواد جسيمة ولذلك لا يمكن ان يحملهم

على

على ذلك ويستميل العموم ويرغبهم الا وجود احد شيئين اما حاكم مطلق التصرف فاعل مختار او تدبير حكومة قوية ذات قانون وانتظام وقد شوهد في ممالك المشرق المتسعة ما هو من قبيل الصورة الاولى يعني الحكومة المطلقة التصرف وذلك ان اوامر الحاكم فيها محترمة مسموعة ولو في اقصى اقاليم دولته وما طلب حزبا من رعاياه الا ما كان سارا الى ان يدخل تحت ظل رايته اين كان واما الصورة الثانية اي حكومة القوانين والانتظام فكممالك بلاد اوروبا على ما هي عليه الآن فقصد الملك حيث سلك مسالك التخفيف والتلطيف ويتوصل الى مقصوده باجراء سائر الاحكام والقوانين الملوكية مع حسن التدبير والانتظام يمكنه ان يجمع جميع قوى مملكته بالسهولة ويستعملها في المشروعات العظيمة التي تستلزم الهمة والمواظبة

مطلب
تضييق قدرة الملوك تضييقا بليغا

ولكن في ابتداء القرن الخامس عشر كان قانون الحكومة في جميع ممالك اوروبا بعيدا جدا عن رسوم هاتين الصورتين السابقتين وذلك لان بعض الملوك وان كانوا قد وسعوا حدود ممالكهم في ذلك الزمن ببعض اختلاسات ساعدهم عليها الوقت واعانهم على اقتطاعها من مزايا الاشراف وحقوقهم لكنهم لم يزل حكمهم وتصرفهم محدودا مضيقا جدا وذلك ان القوانين وتدبير الممالك الداخلية وان كانت قد بلغت درجة الكمال بسبب الوقائع والحوادث والتشريعات التي سبق ذكرها الا انها كانت الى ذلك الوقت في حالة ظاهرة من الضعف والنقص وكنت تجد في كل محل طوائف الاشراف عديدة كثيرة ذات باس ومهابة مع ما كان يستعمل من الوسائط العديدة في اضعافهم واذلالهم فكانوا يلاحظون جميع حركات الملوك مع شدة الغيرة والاحتراس منهم فكان هذا يمنع الملوك من الطمع والغلو وكانت الاشراف تتدارك ابطال مقاصدهم التي كانوا يرومون بها اتساع حكوماتهم وتعطلها وتسعى في خيبتها وعدم نجازها

مطلب
قلة ايراداتهم جدا

وكانت ايرادات الملوك المعتادة قليلة بحيث لا تكفي لمصاريف مشروع

منهم فكانوا يضطرون الى ان يستعينوا برعاياهم فيما يحتاجون اليه من الامدادات الجسيمة وكان الرعايا يعطونهم ذلك فى الغالب مع اشمئزاز نفوسهم ولا يعطونهم ابدا ما يكفيهم

وبسبب قلة الايرادات كما ذكرناه كان لا يمكن للملوك ان يجهزوا العسكر للقتال الا جيوشا غير صالحة لخدامة طويلة متصلة ولم يكن لهم عساكر صفوف منتظمة متمرنة على الطاعة العسكرية والضبط والربط خبيرة بالفنون الحربية بل انما كانت جيوشهم مركبة من العساكر التى كان رؤساهم اليهم اتباعهم على حسب شروط الامدادات العسكرية من انه لا يجب على هؤلاء العساكر ان يمكثوا فى الغزوات الا مدة قصيرة ولا يمكن جبرهم على ان يسافروا بعيدا عن مراكزهم المعتادة ولما كان تعلقهم بسادتهم اكثر من تعلقهم بالملك غالبا كانوا يميلون الى ان يعارضوه ويناقضوه فى مقاصده فضلا عن ان يساعدوه عليها او يعينوه على اجرائها ولو فرض انهم فى غاية من الانقياد والطاعة لاحكام الملك تجدهم لعدم تعلم العسكرية كالجمادات غير صالحين لان يوفوا بالغرض ويقعوا فى محذور منهم وسبب ذلك ان القوى العسكرية التى يليق فتوح البلاد والمدافعة والذب عن الحصون والقلاع هى العساكر المشاة لا غير حتى ان ما حصل للرومانيين من النجاح والنصرة مدة الجمهورية كان صادرا فى الاغلب عن صفوف عساكر المشاة وثباتهم وحسن ترتيبهم فلما نسى هؤلاء الامم فى زمن الملوك القياصرة الاصول التى كانت وصلت سلفهم الى ان حكموا وتغلبوا على جميع البلاد غيروا بالكلية طرائقهم ومذاهبهم العسكرية وصارت العساكر الخيالة مطمح نظرهم واصل قواهم حيث كانوا لا يثقون الا بها فلذلك لم يمكنهم ان يقاوموا مصادمة الامم المتوحشين الذين كانوا يقاتلون دائما على ارجلهم مترتبين من غير صف ولا انتظام ولكن لم يتعظ هؤلاء المتوحشون بما جرى للرومانيين من عجزهم بعد اعدامهم المشاة بل تركوا بعد استيطانهم بالبلاد التى فتحوها عوائد آبائهم وجدودهم فى العسكرية ايضا واتخذوا عساكرهم المشاة جيوشا

خيالة كالروماويين ومن المعلوم ان سبب ابطال المشاة عند الروماويين وتجديد الخيالة بدلا عنهم انما هو ارتخاء العساكر وفتور همتهم حيث لم يكن لهم طاقة على تحمل مشاق الخدمة العسكرية واما ملتهم فكانوا اشد ثباتا واعظم سلوكا وسيرة فكانوا يتحملون المشاق من غير تكلف والظاهر ان احداث الخيالة عند الامم التى اسست ممالك جديدة فكانت اوربا متوزعة عليها انما كان منشاؤه تكبر الاشراف وتعاظمهم وذلك ان طوائف الاشراف لما استنكفوا عن ان يختلطوا مدة الحرب مع من دونهم مقاما ارادوا ان يكونوا ممتازين عن الغير مدة الحرب كما هم ممتازون مدة الصلح وقد قوى الرغبة ايضا فى انشاء الفرسان تجديد طائفة امارة الشوالرية وحضور مواسم العاب التورنواس التى كان يحضر فيها الامير متسلحا من الرأس الى القدم راكبا على فرس مزينة بالهرسرج فيتنافسون بالشجاعة والقوة والمهارة

فصار كل الناس فيما بعد يرغبون فى ذلك بحيث ان جيوش اوربا فى القرن الثالث عشر والرابع عشر كادت كلها ان تكون فرسانا فكان لا يرضى احد من الاشراف ان يظهر فى الميدان من غير فرس معتقدا ان قتاله ماشيا يخل بمقامه ويضع بشأنه حتى ان الفرسان كانت تختص دون غيرها باسم عساكر الصف وكان عليها الاعتماد فى الوقائع والمعول فى الظفر والهيبة بخلاف عساكر المشاة فلم تكن معتبرة فى شىء وانما كانت مجمعة من رعاع الناس واخلاطهم رديئة الاسلحة لا تعليم عندها ولا تربية

فجميع هذه الاحوال المانعة لم يمكن لدول اوربا المختلفة ان ترتب امور العسكرية ولا ان تتقوى فى الفنون الحربية فقد عاقت زمنا طويلا ملوك اوربا عن ان تستيقظ وتحترس من سلوك من يجاورهم من الملوك وان تكون على حذر من مقاصدهم وان يبحثوا عن انشاء تعاون به يكون الامن العام وما كان يمكنهم ان يجمعوا امرهم ويتفقوا مع بعضهم على ترتيب ميزان عدل بين الممالك بحيث لا يمكن به ان يحدث لاحدها زيادة درجة ارتفاع وعلو

شوكة يترتب عليها الايذاء والاضرار بجيرانها واستقلالهم فالظاهر ان ملل اوربا مكثت عدة قرون غير متحدة تكاد ان تكون بمعزل عن بعضها وندر ان كان بينها مخالطة بسبب مصلحة مشتركة فكل مملكة لا يهمها شأن غيرها من الممالك ولم يكن بين الملوك معاملات متسعة مستمرة بها يمكنهم ان يعرفوا مقاصد بعضهم ولم يكن يوجد في كل مملكة رسل ولا الجية مقيمون في دار المملكة حتى يمكنهم ان يلاحظوا خفية جميع حركات الديوان وافعاله ويخبروا بها ملوكهم في اسرع وقت وما كانت ملة من هذه الملل ترضى ان تشهر الحرب لرجاء نفع مغيب بعيد الحصول او للاحتراس من خطر مشكوك او ممكن الحصول ولا تهتم بمثل ذلك ما لم تكن عرضة لاخطار عظيمة ولشيء يزري بمقامها ولا يمكن دفعه بالتي هي احسن فاذا لم يمكنها ذلك طلبت من مصلحتها الدخول في المشاجرة الحاصلة او بحثت عن ان تجلب معها بالخصوص ما تتأثر به

ولكن من اراد ان يكتب تاريخ احدى الدول العظيمة ببلاد اوربا مدة هذين القرنين الاخيرين وهما الخامس عشر والسادس عشر يضطر ان يكتب تاريخ اوربا بتمامها وذلك لانه من ذلك الوقت صارت كل الدول متحدة على نسق ونظام واحد وملتئمة ببعضها غاية الالتئام بحيث صار لكل دولة منها رتبة معلومة وحركات كل واحدة توزن غيرها من سائر الدول فاهتمامها مدخلية كافية ونماق ويعمل بمقتضاها اذا لزم واما قبل القرن الخامس عشر فكانت مصالح الممالك لا تعلق لها ببعضها الا في ما ندر وكانت امور كل مملكة مخصوصة بها لا تتعداها الا اذا كثرت المشاجرات بسبب قرب الدول وتجاورها لبعضها او دافعت الفتن والحروب بسبب غيرة وحمية ملية فكثيرا ما كان يحصل في اي مملكة بعض حوادث مهمة وتقلبات عظيمة وكانت الممالك الاخرى تتفرج عليها تفرج الخلي عن الاغراض من غير توسط ولا ميل لاحد الحزبين ولا تخشى ابدا من ان شيئا منها يعود عليها بالضرر

مطلب
قلة الاتحاد والالتئام التي كانت في الدول المختلفة بين بعضها

ثم ان المشاجرات المودية للحروب المهولة التى حصلت بين مملكتى فرانسا وانكلترة كان يتراءى ان الغرض منها محاولة انضمام هاتين المملكتين وجعلهما تحت حكم ملك واحد ولاشك ان فى مثل ذلك مضرة لباقى ممالك اوروبا ومع ذلك فلم تهتم هذه الممالك بشئ مما يبطل هذا المشروع الخطر عليها ولم تقترح طريق احتراس ناشئة عن حسن سياسة تلك الممالك وبديع تدبيرها ثم ان دوق برغونيا ودوق بريطانيا قد تداخلا فى هذه المشاجرات ولكن لم يتعرضا لذلك الا لاضطرارهما اليه لان اوضاع بلادهما كانت لا تسوغ لهما ان يكونا خاليين عن الاغراض فكانا يهتمان فى اغلب تداخلهما بفعل ما فيه مصلحتهما وحظ انفسهما بالخصوص دون ما فيه مجانبة الخطر الذى كان يخشى منه على راحة اوروبا بتمامها وامن جميع بلادها واما غيرهما من سائر حكام اوروبا فكانوا لا يشتغلون بالمرة بشئ من ذلك وكان يستوى عندهم ظفر احد الامرين المحاربين وانهزام الآخر او كانوا يتوسطون فى ذلك على وجه هين لا يتعدى نفعا

مطلب
حوادث اسبانيا

ومع ان اقسام اسبانيا حين كانت منقسمة الى عدة ممالك منفصلة مستقلة عن بعضها قد حصل فيها انقلابات وتغيرات مستمرة عدة قرون وظهر فيما بعد تغير الاحوال وتوابعها تدبير انضمام جميع هذه الممالك الى بعضها وصيرورتها مملكة واحدة كبيرة لم يلتفت ملوك اوروبا الآخرون الى هذا التغيير المهم ادنى التفات فبينما هم كذلك اذ صار مجموع هذه الممالك مملكة عظيمة وتقوت بالتدريج حتى صارت فى اقرب وقت مهابة عند جميع الممالك التى بجوارها

مطلب
حوادث المانيا

وفى اثناء الانقلابات الشديدة التى حصلت فى الامبراطورية الالمانية بسبب ما حصل من المنازعات بين الروماويين واشراف المانيا لتوقع الاولين بان يكون لهم نفوذ كلمة كما ان بعض اشراف المانيا كانت آيسة مائلة للطمع لم يمكن للبابات مع قوتهم ودسائسهم ولا للامبراطور ايا كان ولو الح فى التوسل والرجاء ان يستميلوا احدا من الملوك الآخرين ارباب الشوكة الذين كانوا

ما كمن حينئذ لبلاد اوربا الى الدخول فى تلك المشاجرات التى كانت بين الرومانيين واشراف المانيا ولا الى التوسط فيها ولو مع وجود الفرصة ومساعدة الزمن بل ولو كان ذلك يعود عليهم بالمنفعة

مطلب
فى بيان ان هذا الاهمال الحاصل من جهة الملوك كان ناشئا من كيفية الحكومة وحالتها التى كانت عليها

ولا ينبغى ان ننسب اهمال هؤلاء الملوك مع وجود الفرص العديدة الى قلة اعدم معارفهم وقصور اذهانهم وعقولهم عن ادراك عواقب الحوادث ونتائجها السياسية لان كل زمن ايا كان فيه اناس لهم قابلية وقوة مدركة يراعون الاحكام ويجرون نواميس الفطنة وذكاء القريحة ولا شك ان ملوك اوربا فى ذلك العصر لم يكونوا عميا ولا مغفلين حتى يجهلوا ما فيه نفعهم وصلاحهم او يهملوا ما فيه الامن العام او يعجزوا عن معرفة الوسائط التى بها يمكنهم حفظ خصوص منافعهم والامن العام ولا ينبغى ان ننسب ذلك ايضا الى اهمال هؤلاء الملوك لسلامة بلادهم سلوك طريق الاحتراس الذى به يمكن لارباب السياسة من المتأخرين ان يتداركوا خطرا مقيما وان يعارضوا الدول ذات الشوكة القوية ان تتعدى على الدول الضعيفة حتى صارت كل دولة كنفير عارى عن جميع حقوق من يجاوره وعن استناد لانه حيث لا تستولى دولة على اخرى وانما ينبغى ان ننسب ذلك الى عدم كمال القوانين الداخلية ومجاوزة الحدود فى الاحكام المدنية التى كانت فى الدول وقتئذ فان هذا الخلل الداخلى كان هو السبب فى عجز الملوك عن تحصيل الوسائط التى كان يمكنهم بها ان ينفذوا اغراضهم على حسب ما كانت تقتضيه آراؤهم واحوال المصالح فى ذلك الوقت

مطلب
الوقائع التى حصلت فى القرن الخامس عشر وبها ازداد اجتهاد الملوك وسعيهم وعظمت مشروعاتهم

ولكن قد حصل فى اثناء القرن الخامس عشر عدة حوادث متعاقبة بها امكن للملوك ان يتصرفوا تصرفا اوسع مما كانوا عليه فى احكام دولهم وترتيب قواها العسكرية على نسق جديد وصار لهم اقتدار على ان ياخذوا فى مشروعات كبيرة مهمة وبهذه الحوادث نشأ بين الممالك مخابرات متواترة ومداولات اكيدة فى شأن مصالحها بين بعضها حتى اعتادت هذه الممالك بالتدريج على ان لا تفعل شيئا الا بمشورة بعضها واداها ذلك الى ان رتبت

مذهب البوليتيقية اى سياسية به تثبت ميزان تعديل بين الدول به يدوم الامن العام وحفظ الممالك من المتغلبين

ففى ايام الملك كرلوس الخامس (شرلكان) خطر بالبال تحديد الاصول والقواعد التى تبنى عليها هذه القوانين البوليتيقية فجرى العمل من ذلك الوقت على الحكمة التى عضدت تلك القوانين البوليتيقية وتلقيت بحسن القبول وبذلك نرى ان البحث عن الاسباب والمسببات التى اعانت فى تحديد هذه القوانين السياسية التى هى اعظم ما عاد نفعه على اساس من الاحكام ليس مقدمة لتاريخ كرلوس الخامس فقط بل لابد منه ايضا لمعرفة تاريخ بلاد اوربا

مطلب كون اول حادثة فى ذلك هى طرد الانكليز من الاراضى الفرانسة

واول حادثة ترتب عليها بعض تغييرات عظيمة فى شأن مصالح اوربا هى الحادثة التى بها انضمت الى مملكة فرانسا الاملاك المتسعة التى كانت لمملكة انكلترة بالاراضى الفرانسة وذلك ان الانكليز ماداموا ساكنين على عدة من اقاليم فرانسا وعندها ومدخلين تحت راياتهم وفى عساكرهم مقدارا كبيرا من شجعان سكان هذه المملكة كانوا يعدون انفسهم اقرانا للفرنساوية لانهم اتباع لصاحب الارض التى قطعوها فكان لا يمكن لملوك فرانسا ان يتجاسروا على الاخذ فى مشروع مهم او صعب لانهم كانوا دائما معوقين عن مقاصدهم وما عزموا عليه ومعاقبين فى جميع افعالهم بالانكليز الذين كانوا اقوياء الشوكة كثيرى العدة مستعدين دائما لمعارضتهم ومحاربتهم ان ربما نازعوهم فى حقوقهم ومزاياهم وفى المنصب الملوكى ولما كان يسهل عليهم الدخول والجولان فى فرانسا كان يمكنهم ان يجردوا عليها جميع الجيوش التى كان حقها ان تحامى عنها فكان هذا هو السبب فى الفتور والتراخى الواقع فى المشاور الفرنساوية وضعف احكامها وعدم اتمام ازمانها حتى ان فرانسا بتفريقها هذا وجودها من هؤلاء الاعداء الخطرين اولى الشوكة لم يمكنها ان تلحق درجتها الاصلية التى لها بين ممالك اوربا ولكن من حسن حظها ومن حسن حظ انكلترة عجل الله تعالى بموت الملك هنرى الخامس ملك انكلترة

خلصت فرانسا مما حل بها من المصائب وزال عنها أن ترى كرسي ملكها مشغولا بملك غريب، وبضعف من تولى بعده، وهو هنري السادس لصغر سنه وطول مدة قصوره، وبالفتن التي حصلت في ديوان ذكاترة وما نشأ عنها من الفشل وعدم الالتئام ساغ للفرنساوية أن يسترجعوا ما كانوا فقدوه حتى ان اشراف فرانسا زادت همتهم الطبيعية وسلكوا مسلك الحمية ظنا منهم ان تعجيل موت هنري الخامس انما كان من الله تعالى شفقة عليهم حيث تساعدهم الاقدار وصاروا يميلون الى الحروب يقودهم امهر رؤساء بارعون ولو تجاريب عجيبة وصار ملك الفرنساوية المتولي في ذلك الوقت وهو كرلوس السابع يدبر مصالح المشورة مع الحكمة والذكاء التام حتى انه انتهز هذه الفرصة أن يسترد من الانكليز فتوحاتهم الجديدة وجردهم ايضا من سلطته عن ممالكهم القديمة وصارت اراضيهم في اقرب وقت محصورة في حدود ضيقة واقتصروا على بوغاز كالس وما حوله من الاراضي الصغيرة

فان زادت وعظمت شوكة فرنسا بانضمام هذه الاقاليم اليها اخذ ملوكها في العزم على مقاصد كبيرة في شأن تحسين قوانين السياسة الداخلية والمشروعات الخارجية وصاروا في اقرب وقت مهابين عند مجاوريهم ممن كانوا يلاحظون اتم الملاحظة جميع حركات هؤلاء الملوك حيث كان ذلك من بعض امنهم وطمأنينتهم ومن وقتئذ صار لمملكة فرنسا مدخلية عجيبة وشوكة جديدة بين ممالك اوروبا بسبب تمكن وضعها الطبيعي وانضمام جميع اراضيها ولا سيما بكثرة اهاليها وشجاعتهم وبالجملة فصارت اول مملكة اضرمت نيران الغيرة وارعبت ما حولها من دول اوروبا

ولا يخفى ان اخذ هذه الاقاليم من الانكليز وانضمامها الى فرنسا لم يكن بمفرده السبب في نمو الشوكة الفرنساوية بل اعقب هذه الحادثة حادثة اخرى اعانت كثيرا في تقوية مصالح هذه المملكة وتسهيل مشروعاتها وان كانت هذه الحادثة اقل اهتماما وظهورا من الاولى وذلك انه في مدة هذه الحروب المهولة التي مكثت زمنا طويلا بين فرنسا وانكلترة ظهرت جميع العيوب والامور

الخلل التي كان ادخلها المذهب الالتزامي في القوانين والترتيبات العسكرية وكانت تلك الحروب المستمرة ومتطاولة بلا انقطاع الا مع غاية المشقة حيث انه كان لا يرخص للعساكر ان يمكثوا في الحرب الا مدة قليلة بحكم العادة الجارية وما كان يمكن جبرهم على ان يمكثوا ازيد من ذلك لا سيما وكان اكثرهم خبيثة نقل الاسلحة فكادت لا تكون صالحة لحماية شيء من المدن والحصون التي كانوا يريدون الممتنعة عنها ولا للهجوم على شيء مما كانوا يريدون الاغارة عليه فلاجل تحصيل جيوش خصوصية مستعدة لذلك استمرارية لما ان طول الحروب يستلزم ذلك اضطر ملوك فرانسا الى ان يرتبوا عساكر كثيرة بالجامكية يأخذونهم من اهالي بلادهم او يجلبونهم من اهالي البلاد الاجنبية وحيث ان الحكومة الالتزامية لا يعطى فيها للملك جميع ما يكفي لاكل هذه المصاريف الجسيمة كان يسرح هذه العساكر المملكة في آخر كل سفرة حربية او عند قرب عقد الصلح ولما كانت تلك العساكر غير متمرنة على مراعاة شيء من قوانين الضبط والربط كانت في الغالب تؤذي بلاد المملكة لمعاداتها وحمايتها فتهلك بها الحرث والنسل وتفعل بها من الاتلاف ما يحكى للاعداء ان يفعلوه بها

مطلب
انشاء عساكر البيادة في المشاة

ولا يخفى انه لو كان هناك فرقة خصوصية استمرارية معدة للحرب ومتعودة على التعليمات والحركات العسكرية والضبط والربط لكان ذلك يجبر خلل القوانين الالتزامية وكان يتم يمكن للملوك ان يجروا مشروعاتهم التي كانوا عاجزين عنها وقتئذ ولكن كان احداث هذا الامر مخالفا لما تقتضيه حالة الالتزام والحكومة الالتزامية ومناقضا لمزايا الاشراف وحقوقهم حتى انه مضت عدة قرون من غير ان يوجد من بين ملوك اوروبا ملك جسور ذو شوكة واقتدار على ان يشرع في احداث هذا الامر ولكن حيث كان للملك كرلوس السابع حينئذ شهرة عظيمة بما حصل له من النجاح في حروب الانكليز ونصرة رعاياه الفرنساوية اجترى ما لم يتجاسر اسلافه على الشروع فيه لا سيما وقد اعانه على ذلك آثار الخوف والرعب الذي قد كان طبع في قلوب رعاياه

من ايام حكومة اعدائهم الانكليز فاحتج بانه يلزم فى كل وقت الاحتراس من الانكليز ويلزم لذلك المحافظة على ابقاء عساكر متجهزة كافية لحماية المملكة من اغارة تقع بغتة من هؤلاء الاعداء فسرح جميع العساكر السالفة ولم يبق منها سوى فرقة قدر تسعة آلاف من الخيالة وستة عشر الفا من المشاة وعين جهة لدفع ماهياتهم ووزعهم بين ثغور مملكته وحصونها على حسب ما اختاره واقتضاه رأيه وجعل عليهم ضباطا لاجل حكمهم وتربيتهم فى العسكرية فصار اعظم الاشراف واكثرهم امتيازا يبادر الى الدخول فى هذه الخدامة وفيها تعودوا على اتباع ملكهم والانقياد له وعلى اجراء اوامره وتيقنهم مرغوب بانه وصاروا يعتبرونه كانه قاسم الاستحقاق بينهم يعرف ما يستحق كل منهم وانه ولى نعمتهم واما العساكر الغير المنتظمة التى كان يجمعها الملتزمون من اتباعهم ويامرونهم باتباع اعلامهم والخدامة تحت راياتهم فلم تكن تضاهى هذه العساكر الجديدة المنتظمة التى كانت دائما متدربة مستعدة للحروب بل فقدت جميع هيئتها ولم يبق لها شهرة وانتهى الحال الى ان قوة الجيوش لا يعتبر فيها الا مقدار العساكر المنتظمة التى توجد فيها حتى انه لم يمض قرن الا وصار الاشراف واتباعهم فى العسكرية وان كانوا يجمعون بحسب الاصول القديمة ويقدمون الى الحرب لا يعتبرون الا جموعا مضرة لا ينشأ عنهم الا مزاحمة العساكر المنتظمة التى يحاربون معها وحل نظامها وترتيبها وصار ينظر اليهم بعين الاحتقار جميع العساكر الجديدة المتعودة على تحمل مشاق التعليمات العسكرية الصعبة والمداومة على معاناة متاعبها سنة ١٤٤٥

مطلب ناشئ عن تجديد هؤلاء العساكر

وبترتيب هؤلاء العساكر المشاة الذين هم اول جيش منتظم نشأ فى اوربا احدث الملك كرلوس السابع المتقدم تغييرا مهما عظيما فى مصالح الامم على اختلافها وفى احوالها البوليتيقية اى سياساتها وجرد الاشراف عن مزاياهم وحقوقهم التى كانت ثابتة لهم من كونهم يقودون الجيوش دون غيرهم وعما كانوا اكتسبوه بسبب ذلك من عظم الشوكة ونفوذ الكلمة واصمى

تسمى باسم حكومة الاشراف او الحكومة الالترمية واردى شوكتهم بعزمه وحزمه

ولا يخفى ان ترتيب مثل هذه الجيوش حينئذ قد اكسب فرانسا صولة عظيمة وبأسا شديدا عند من بجوارها من الممالك حيث لم يكن وقتئذ في كل مملكة من ممالك اوروبا ما عداها سوى بلك اورطة تستأجر سنة فصار لها هيبة عظيمة في المهاجمة او المدافعة حتى افضى ذلك الى ان الممالك الاخرى رأت انه يلزمها اولا بد لاجل حفظها والمحاماة عن نفسها ان تقتدى المملكة الفرنساوية قدوة في ترتيب العساكر وتنسج على منوالها فصارت تلك الممالك تأخذ عساكر محكمة انتهى امرها بالتدريج الى ان كانت تسنأمن دون غيرها ومكث الملوك والوزراء حقبة من الزمن يحاولون زيادة مقادير هذه العساكر المستأجرة واصناف بل ابطال جميع الوسائط الماية الاهلية التي يكون بها رواج الملة ومحاماتها عن نفسها

مطلب
شروع ملوك فرانسا في توسيع مزاياهم وحقوقهم

ولما كان ملوك فرانسا هم اول من ابتكروا هذه القوى العسكرية في القرامانهم ايستعينوا بها على الاعمال الخارجية كانوا ايضا اول من دلل الحكومة الارستقراطية اى الالترامية وادخل كبار تباع المملكة تحت الطاعة بعد ان مكثوا زمنا طويلا بلادهم يضيقون بقوتهم المجاورة للحد في الحقوق الملوكية ويحصرونها في حدود ضيقة لما انهم كانوا مضعفين بذلك جميع قوى ملوك اوروبا ومعطلين مشروعاتهم

وقد طرأت عدة عوارض هدمت بالتدريج اساس الشوكة الارستقراطية في بلاد فرانسا وذلك ان الاشراف قد خسروا كثيرا حيث ذهبت اموالهم واملاكهم في الحروب الطويلة التي حصلت بين مملكة الفرنساوية ومملكة الانكليز وحيث كان هؤلاء الاشراف يحامون عن بلادهم مع غيرة تامة وحمية متزايدة ترتب على ذلك فقد عدة عيلات عظيمة منهم ولما كان الحرب ينتقل كذلك على التعاقب في غالب اقاليم المملكة ادى ذلك ايضا الى ان صارت اراضى العيلات الاخرى وبلادهم عرضة لنهب الاعداء

اوسلب العسكر الى كان يستاجرها الملوك ولم يمكنهم فى بعض الاحيان ان يصرفوا لهم ماهيتهم المرتبة وزيادة على ذلك تخربت بقيام الفلاحين الذين كانوا يخرجون حينئذ عن طاعة الاشراف وكذلك صغر الملوك اذ ذاك ان يسلكوا المسلك الردئ فى تغيير معيار النقود ونقص قيمتها دفعة واحدة لعدم انتظام مصالحهم ولكون المصلحة اقتضت ذلك بهذا نقص ايرادا الملتزمين الذى كان يردلهم من الجرائم والغرامات السنوية وغيرها من الحقوق الالتزامية ونقص جدا نقص كل التزام عن محصولاته السابقة وفى مدة هذه الحروب التى كان فيها كرام الاشراف يتنافسون فى الاقدام على اقتحام الاخطار لتحصيل ارتفاعة والافتخار انقرضت منهم عدة عيلات عظيمة وضمت التزاماتهم الى الدولة غيران بعضها وقع ميراثا للنساء فقسم بينهن وبعضها صغر بعد انقطع منه للوقف على الكنائس او تفرق بين الورثة يقتسمونه على حسب فروضهم

مطلب
تقدم الشوكة الملوكيه وتقويتها مدة الملك كرلوس السابع

ثم ان الملك كرلوس السابع فرح بهذه الامارات الظاهرة التى تدل على ضعف لال شوكة هؤلاء الاشراف الذين كان يريد تدميرهم لما ان ذلك كان على وفق مراده فاغتنم فرصة فترة الصلح بينه وبين الانكليز حيث اجتهد فى توسيع المزايا الملوكية مع ضعف المصالح الارستقراطية ولكن حيث ان الاشراف كانوا قد نفعوه عن قرب بحيث لم يتقادم عهد ما فعلوه من الخدمة العظيمة فى حماية المملكة لم يمكنه ان يعاملهم الامع غاية الاحتراس والاحتياط ومع ذلك فبما اكتسبه من الصولة بانتصاره على الانكليز وضعف شوكة الاشراف وزوال قوتهم شرع فى مبدء الامر بتغيير الاحكام والقوانين من غير ان يعارضه احد منهم فى ذلك فمكانه رتب العساكر المنتظمة التى تكلمنا عليها سابقا كان ايضا اول ملك من ملوك فرانسا استقل برأيه من غير ان يستعين بمشورة المملكة وصدر امره باحداث امدادات على رعاياه وكان فيه اقتدار كاف فى كونه رتب دائما عدة مرتبات وقتية كانت قبل ذلك تطلب عند الحاجة اليها ولا تقبض الا نادرا او بهذه الوسايط سنة ١٤٤٠

العديدة

امديه فزادت شوكة كرلوس زيادة كبيرة واتسعت دائرة مزاياه جدا وخرجت الحقوق الملوكية عن حدودها القديمة التي كانت محصورة فيها وبعد ان كان اقل تصرفا وشوكة من جميع الملوك الذين حكموا قبله على فرانسا صار في آخر سني حكمه صاحب صولة وتصرف عظيم لم يتمتع بمثله احد من اسلافه في عدة اعصر خلت قبله

مطلب
مدة لويز الحادي عشر

وحيث ان آمال كرلوس المذكور كانت متعلقة بمحق الاشراف وتذليلهم تأسى به بعد موته ابنه لويز الحادي عشر في تتبع هذا المقصد بقلب جسور اكثر من ابيه ووافق اباه كذلك في النجاح وذلك ان لويز هذا كان ظالما جبارا بالطبع فبعد جلوسه على كرسي المملكة بيسير اخذ في مقدمات تدل على ان مقصوده الظفر بالرعية كي يصير مطلق التصرف فلما كان مخادعا جبارا الاشفقة عنده خليا من اصول العدل والحياء صار لا يبالي بانواع الغصب والتعدي ولم يمنعه عنها شرف ولا عار وان كان ذلك يمنع عادة ارباب السمع وكان يعرف من اين يؤكل الكتف ومن اين يستدفعه ولم يكن له باعث على غرضه الحقيقي الا شيء واحد فكان له اقتدار على ان يتبعه مع الغيرة والشوق التامة ويتعلق به تعلقا كليا بحيث لا يمكن ان يشغل عنه بشيء آخر ولا يعوق عنه ولو بالاخطار والاهوال

مطلب
ما دبره في خفض الاشراف

فكانت احكام ادارته وسياسته مبنية على مدارك عويصة تضر بعز الاشراف فقلد هذا الملك جميع العمالات والاقاليم بعمال مستجدين كان في العادة ينتخبهم من رعاع الناس ويقلدهم بالمناصب المهمة ويأتمنهم ويثق بهم ويجعلهم دون غيرهم امناء سره فكان يشاورهم في سائر مقاصده ومشروعاته ويأتمنهم على اجرائها واما الاشراف الذين كانت عادتهم صحبة الملوك ومجالستهم ومنادمتهم وان يكونوا وزراءهم فقد اذلهم وكسر اوقعهم بحيث ان من لم يرض منهم ان يكون في طرف ديوان الملك الذي لم يكن لهم فيه شيء من شوكتهم القديمة ولو شوكة صورية يجبر على ان يلزم قصره فيمكث فيه نسيا منسيا لا يرد على فكر احد

ولم يكف هذا الملك ما صنعه مع الاشراف من المذلة وبعدان نفوذ الكلمه بمنعهم عن رياسة المصالح بل ضم الى الاحتقار الاهانة فبعدان جردهم عن مزاياهم وحقوقهم الذاتية اخذ فى خفض طائفتهم بتمامها فجعلهم كبقية الرعايا سواء بسواء فكان كل من له اقتدار على ان يجسر من اكابر المترمين على معارضة الملك فى مقاصده او كان من سوء حظه فى نفس الملك منه شئ يشدد عليه بتشديد لم يكن سبق للاشراف مثله فكانت تقام دعاو يوم بمحاكم لم يكن لها حق الحكم على الاشراف فيحكم عليهم فيها بالعقاب والعذاب الشديد من غير التفات الى حسبهم ونسبهم ولا اصلهم ومبدء اصلهم ومن حكم عليه بالقتل قتل قتلا شنيعا فلما تكرر عند الرعايا رؤية كبار الاشراف مسجونين فى الدواميس (وهى حبوس تحت الارض مظلمة) وموضوعين فى اقفاص من حديد لينظرهم الخاص والعام ورؤية دمائهم فى ايدى الجلادين سقط اعتبارهم عندهم وصاروا لا يعتبرون ولا يهابون الا شوكة الملك وسطوته التى اذلت من الاهالى كل عزيز عنيد ومحقت شوكة كل جبار عنيد

مطلب
ايقاع الفشل بين الاشراف

ولما خاف هذا الملك ان شدة استحكامه عليهم وكونهم على قلب رجل واحد لمصلحة حفظ انفسهم ينشأ عنه تعصبهم وان يكونوا حزبا قويا يعارضه تحيل فى ان ينشر بينهم اسباب الفشل والغش فيشتعل باضرامها نيران العداوة القديمة والمنافسة التى هى من طبائع اى حكومة الترامية والتى كانت لم توقد نارها العسيرة وسعرت بين اعظم عيلات المملكة ولاجل نجاحه فى هذا المقصد استعمل جميع انواع الدسائس والحيل والخادعة والتدليس التى اقتضتها سياسته الخبيثة المبنية على التدليس والخيانة فحصل له فى ذلك غاية النجاح والظفر حتى انه فى الشدة التى كان يلزم فيها للاشراف الثبات واتفاق الكلمة لم يظهر منهم فيها سوى الضعف والفشل الا فى مبدء حكومة هذا الملك فانهم اظهروا القوة والعزم

مطلب
زيادة عدد العساكر المنتظمة

وفى مدة اشتغاله بتجريد الاشراف عن مزاياهم لا زال يزيد شوكته ومزاياه

الملوكية فهم بترتيب درجة عسكرية كافية لكي يأمن بها من قيام رعاياه
المتألمة منه في الباطن ولاجل تحصيل هذا المقصد اهتم بالعساكر التي كان قد
جمعها ابوه وجعلها مستعدة تحت الطلب واضاف اليها ستة آلاف من عساكر
السويسة وبحكمهم من ماله فصاروا باعتبارهم اعظم عساكر اوروبا
المشاة سطوة وشجاعة واحسنهم تعليما وتربية وضبطا وربطا لحمله غيرته
الطبيعية التي هي من شأن احبة الطبع على ان يأمن هؤلاء العساكر
الاجانب المستأجرين الذين اعتدهم آلة قوية لظلم وجعلهم انصارا واعوانا
لشوكته الجديدة حتى انه في اول خروج حكمه جعل منهم عدة عظيمة
في معسكر واحد تنتظر اوامره

مطلب
زيادة ايرادات الملوكية

ولما رأى انه يلزم له اموال كثيرة ومبالغ جسيمة لمصاريف هذه العساكر
الزائدة ومصاريف المشروعات التي كان يحققها بذكاء فطنته وعدم
طمأنينته اهتم بابقاء الحق الذي جعله ابوه لنفسه من ان له ان يستقل بجمع
مرتبات وعوائد وامره من غير احتياج الى رأي ارباب مشورة العموم
بل اهتم بتوسيعه والزيادة فيه عما كان عليه اولا فكان ذلك مددا
كافيا لما يحدث في مملكته من المصاريف

مطلب
حذقه ونباهته التي بها عرف ان يسوس مشورة العموم وهي مشورة وكلاء المملكة

وكانت حقوقه ومزاياه وان بلغت ما بلغت لا تكفي داعيا في تحصيل مقاصده
ومطالبه ولكن كان يستعمل ذلك بالحيل والتدبير فكان اول ملك في اوروبا
عرف ان يحكم الجمعيات العمومية التي اقتضت طريقة الحكومة الالتزامية
ان يفوض لها في ايراد المملكة ومصرفها وهو ايضا اول من علم ملوك اوروبا
السير المشؤوم في التعدي على الحرية العمومية بالاستبداد بابادة جميعها
المتقدمة فيستعمل الشوكة والحيلة ليكون انتخاب ارباب تلك الجمعيات
على رأيه ثم فسد بعضهم بالاكرام وبعضهم بالتهديد والتخويف * ومما احدثه
من التغييرات الجديدة في كيفية المذاكرات في المشاورة ازالة الكلمة العليا
على الجمعية بحيث ان ارباب الجمعية الذين كانوا قبل يذبون عن حقوق الامة
واملاكها صاروا من وقتئذ اعوانا يستعين بهم على اجراء مقاصده الخبيثة

وحينئذ لم يكن احد في البلاد من يقدر على معارضة هذا الملك في ظلمه وجوره استمر على جباية الخراج الذي كان قدرتبه ابوه ولم يقتصر عليه بل زاد فيه حتى بلغ مبلغا تعجب منه سائر اهل عصره

مطلب في توسيع حدود المملكة الفرنساوية

ولم يكتف لويز المذكور ابصار بادة شوكة الملك وسنوياته بل وسع التزاماته الملكية باراض اكتسبها بطرق مختلفة فاشترى اقليم روسيلون وآل اليه اقليم بروونسة بوصية الامير كرلوس دنجو وبعد موت كرلوس لوغريز (اى المجازف) تغلب قهرا على اقليمى رغونيا وبرواس اللذين كانا لهذا الملك فى مدة حكومة ذلك الملك رجع الى فرانسا جميع اقسامها القديمة وبسياسته الجافية العوبصة كسر انف الكبار الملتزمين بل جدد حكومة تكاد ان تكون مطلقة جورية تقرب فى الظلم من حكم اهل المشرق

مطلب اكتساب الحكومة الفرنساوية النشاط والتصدى للمشروعات

ومع ان حكومة هذا الملك اضرت بحرية الرعايا فالقوة التى اكتسبها والوسائل التى درها والاستبداد بالرأى المطلق الذى سعى فى تحصيله لنفسه لاجل تدبير مقاصده او تحييزها كل ذلك اعان على تقوية ادارته وسعيه واجتهاده فى ذلك انه عقد مع جميع دول اوربا مشارطات وكان يلاحظ سائر حركات ما بجواره من الممالك ويتداخل فى جميع مهمات امورها السياسية الما بصفة كونه اصلياتها او معينا وكانت عزماته مرتبة الاضبرواعماله قوية شديدة وكان دائما مستأهبا الان يجمع عند الحاجة جميع قوى مملكته وان يسيرها ويوجهها بعدما شاء وكانت شوكة سلفه من الملوك دائما مغلولة ومضيقة بغيرة الاشراف واما من وقت حكمه فتمكن ملوك فرانسا من بلادهم ووسعوا نفوذ كلمتهم فى البلاد الاجنبية وصاروا يرمون كل العزم ويأخذون فى مشروعات كبيرة فى شأن الفتوح والتغلب على البلاد واجروا حروبهم مع قوة عجيبة لم يحصل مثلها فى بلاد اوروبا منذ ازمنة مستطيلة

مطلب في الوسايط التى اجريت

وكان منوال هذا الملك مغايرا لغيره بحيث ان كلا من ملوك اوربا اقتدى به فى ذلك فهنرى السابع على كرسى ممالك انكلترة اخذ فى خفض

فى انكلترة لاجل تقوية شوكة الملك وتوسيع دائرة مزاياه

شوكة الاشراف لاجل تقوية شوكته وتوسيع دائرة مزاياه وحقوقه ولكن كانت عوائقه اكثر من عوائق كرلوس السابع ولم يسلك سبيل النشاط فى مشروعاته كما فعل لويز الحادى عشر وذلك ان كرلوس كان حصل له الظفر التام والنصرة على الانكليز وانتزع عدة من اقاليمهم فبذلك حصل له الشرف عند رعاياه وصاروا يأتمنونه ائتمانا كليا بحيث امكنه ان يقضى بامر على تغيير فى القوانين القديمة من غير ان يصل اليه ضرر فى ذلك ولما كان لويز عاقلا جسورا ازال جميع الموانع التى كانت تحول بينه وبين مقصوده بخلاف هنرى المذكور فان حق استيلائه على المملكة كان متنازعا فيه وكان رعاع الاهالى مستعدين دائما للخروج والقيام عليه ولما عرف بالحروب الطويلة المدنية التى كان فيها للاشراف مظهر بتوليتهم الملوك وعزلهم اياهم ان وسائل الحكومة الملوكية قد تلاشت ودائرة مزاياها قد ضاقت بحيث لم يمكنه فى سلوكه الا الاحتراس التام والتخوف اشتغل خفية بهدم اساس هذه الشوكة المخوفة حيث لم يمكنه ان يبادرها بذلك من اول وهلة فصار يدبر مقاصده مع الاحتراس ويتوانى فى اجرائها ولكن كانت هذه المقاصد كلها حسنة ملائمة للعقل وكان يترتب عليها ثمرات عظيمة فرتب قوانين ترخص للبارونات بيع املاكهم ولو اوصوا بها لغيرهم ورتب ايضا قوانين منع بها الاشراف ان يستأجروا من اموالهم عساكر كثيرة لخدمتهم يتقوون بها ويخرجون عن طاعة الملك فاعان الاهالى والزراعة والتجارة وصارت رعاياه تتمتع مدة حكومته التى طالت بالمنافع التى تنشأ عادة من الفنون الصلحية والامن وعوّدهم على حكم وتدبير منتظم بحيث كانت القوانين والاحكام فيه مجراة مع الثبات والابرام وبهذه الوسائل العديدة المتنوعة احدث بطريق خفى فى قوانين الحكومة الانكليزية جميع ما هو مساعد من التغييرات لتوسيع مزايا الملك وتأكيد حقوقه فما مات الا وقد ترك لمن بعده شوكة عظيمة بحيث عدّ بها من اكثر ملوك اوروبا تصرفا وصار له اقتدار على ان يأخذ فى المشروعات العظيمة ويجريها

مطلب
تقوية الشوكة الملوكية في اسبانيا

ومثل هذه التقدمات في شوكة الملوكية حصل في اسبانيا فاكتسب ملوكها شوكة عظيمة وكان ذلك من عدة اوجه انضمام مملكتي ارغون وقشتيلة الى بعضهما بزواج الملك فردينند بالملكة ايزابيلا والفتوح الفاخرة لاقليم غرناطة مدة حكمهما فان بهذا الفتوح انقرضت دولة الاسلام التي كانت خطرة على هذه البلاد وقيادة الجيوش العصبية التي صارت محفوظة حينئذ على الدوام ومنحصرة لتكميل هذه العروة وما كان من الحزم والثبات في تدبير الملك وزوجته وادارتهما والحيلة التي عرفاها ان لا يضيعا فرصة ما في اضعاف الاشراف وتوسيع مزاياهما وحقوقهما فكل ذلك رفعهما في الشوكة والصولة الى درجة لم ينلها احد من اسلافهما ثم هناك عدة اسباب سيأتي ذكرها في غير هذا المحل اعانت على بقاء الحكومة الاشرافية وحفظها في مملكة اسبانيا وتأخرها فيها اكثر من مكثها في فرانسا وانكلترة فانه في زمن بقائها في مملكة اسبانيا كان ملوك هاتين المملكتين اوسع تصرفا من ملوك اسبانيا ولكن فردينند وايزابيلا بعقلهما وتدبيرهما ما كانا فيه من الشوكة والقدرة المطلقة وتحيلا كل التحيل في كونهما يثبتان لانفسهما جميع حقوقهما الملوكية حتى بلغ منهما ذلك ان صار فردينند اهلا لان يتم مع النجاح العجيب جميع الغزوات العظيمة التي شرع فيها مع البلاد الاجنبية

مطلب
عدة حوادث مكن بها للملوك ان يجروا شوكتهم الجديدة التي كانوا اكتسبوها

وحيث كان الملوك يشتغلون بتوسيع دائرة المزايا والحقوق الملوكية وبتغيير الوسائط التي بها يمكنهم جمع قوى ممالكهم وادارتها كيف شاؤا اذ حصلت عدة حوادث اعانتهم على اجراء شوكتهم الجديدة التي كانوا اكتسبوها حينئذ وصعب قبل تصدر المشروعات عظيمة ووقعت بينهم المشارطات والمصالحات بحيث ان اغراض اعظم ملل اوروبا ومصالحهم صارت بالتدريج مرتبطة ببعضها بروابط مشتركة وحدث بينهم على التدريج مذهب سياسي عظيم حرض باقي الملل الاوروبية بعد قليل من الزمن على الانتباه والتيقظ

فكان

مطلب
زواج وارثة عائلة برغونيا الملوكية

فكانت اول حادثة شهيرة بعد حلتها فى تغيير حاله اوربا هى زواج بنت كرلوس لوغربر التى انحصرت فيها وراثة عائلة برغونيا الملوكية وكان ابوها كرلوس المذكور قد عرض قبل موته زواجها على عدة من الامرآء وكان الحامل له على عرضها عليهم تكليفهم باعانتهم اياه فى مقاصده ومشروعاته التى كانت تسول له ... لطماعة وخوفه من عدم تجير مقاصده

فكان هذا الزواج مأربا مهما لكثير من الامرآء حيث عرفوا ان فيه غبطة عظيمة وهى اكتساب التزامات هذه العائلة واملاكها المقسمة التى هى اعنى الاراضى الجيدة الزراعة التى كانت وتمتد امام جبال الالبه فلما اختطفته المنية فى غير بابه آلت هذه الاشياء الجسيمة لبنته المسماة ماريه ذى برغونيا فرغب فى هذه الاميرة جميع امرآء اوربا وصار كل منهم يبدى غرضه فى زواجها ويود ان يختاره بعلا

مطلب
مطمع لويز الحادى عشر فى زواجها

وكانت ... صلا بمملكة فرانسا عدة من اقاليم هذه الاميرة لانها كانت فى الاصل من تلك المملكة وفصلت عنها والظاهر ان هذا كان حاملا للويز الحادى عشر على الرغبة فى مصاهرتها وكان لايشك فى ان جميع ما يعرضه فى شأن ذلك عما يكون لا تقابل بد من قبوله احسن قبول حيث ان هذه الاميرة كانت من اتباع مملكته وانها من نسل ملوك فرانسا ولم يكن عنده ما يناسب لهذا المعنى الاشيأن احدهما ان يزوجها الدوفين اى ولى العهد بعده والثانى تزويجها انغوليم وهو امير من حفدة المملكة الفرنساوية فرفاجها بالاول كان ينشأ عنه اضافة املاك هذه الاميرة الى مملكة فرانسا وتصير بذلك فرانسا اقوى ممالك اوربا ولكن كان هنا فرق كبير بين سن كل من ماريه وولى العهد حيث كان سنها عشرين سنة وعمره ثمانية اعوام وايضا قد اعتقد الفلمنكيون بانهم صمموا على ان لا يختاروا ما سكانا شوكة قوية تصير بحريتهم لاسيما وكانوا يخشون ان يقعوا تحت حكومة لويز الرديئة وطبيعته وكانت هذه الموانع شديدة بحيث لم يفكر احد فى غلبتها والظفر عليها على خلاف زواجها بالثانى فكان اسهل من ذلك بكثير بل كان يتراءى من ماريه الميل الى التزوج به

مطلب
... في شهر كانون الثانى سنة ١٤٧٧

ولو حصل هذا الزواج لترتب عليه منع وقوع مخلفات عائلة برغونيا في أيدي
دولة من أخصام الدولة الفرنساوية ولترك قوتشة أصوليه طوعا أو كرها للويز
في نظير سعيه في زواجهما املاكا ولكن حيث كان لويز متعودا منذ زمن
طويل على سلوك طريق التعسف في سياسته المبنية على المخادعة لم يمكنه
أن يميل لما هو مبني على السهولة والحكمة وكان يميل كثيرا الى المكر
والخداع بحيث لم يتخذ ذلك وسيلة لمجرد تنفيذ أغراضه بل كان يجعله المقصود
بالذات في جميع أعماله ومشروعاته فبمقتضى هذا الأصل الذي مذهبه في نوبه
لا يرضى أن أحدا من رعاياه يعظم ويعلو شأنه بل ربما كان يكره عائلة برغونيا
ويريد حطها وإضعافها أهمل هذه الفرصة التي كان يمكن لأدنى منه في النباهة
والنشاط أن ينتهزها ويجني ثمارها فضل عن منهج الحق في ذلك وسلك سبيلا
أوفق بطبعه وعقله

مطلب فيما عزم عليه لويز الحادي عشر من الأمور الخبيثة في هذا الشأن

فعزم لويز حينئذ على أن يتغلب بالجبر والقوة على أقاليم مارية التي آلت إليها
من انهزامات فرانسا الملوكية بل وعزم أيضا على أن يجول بالفتوح
في ابراماتها هذه الأميرة ولا يقتصر على أخذ ما كان لمملكة فرانسا سابقا
وكان في أثناء ذلك يسلك معها طرق الخداع ويلح عليها كثيرا في زواجها
بالدوفين مع أنه غير ممكن ثم أظهر في مدة إدراكه هذا المقصد من أنواع التحيل
التام والتدبير العجيب فاكتسب بهذا الشهرة بارتكاب الزور والكذب والخيانة
والخداع مما يتعجب منه في تاريخ مثل هذا الملك فبمجرد موت أبيها كرلوس
سير عساكره وشن الغارة على البلاد الواطية وفتحت له عدة من مدن الثغور
بدفعه الرشا لحافظيها أو باتفاقه مع أهاليها خفية ثم اشتارط مع مارية
مشارطة سرية مهمة فأظهرها لرعاياها ليبغضهم فيها وكان بينه وبين
وزيريها مكاتبات سرية فيها الاتفاق معه فلما اطلع أرباب مشورة قلدرة
على مكاتبتهما تعصبوا جدا من خيانة هذين الوزيرين وأمروا بإقامة
دعوى عليهما لأنهما قد ارتكبا الشقاق من غير أن يلتفتوا الى تضرع الأميرة
ولم يرقوا لبكائها حيث كانت تعلم جميع ما وقع منهما وقد قرنته فضربت

اعناقهما بحضرتها

مطلب
زواج مكسيليان
بماريه وارثة برغونيا
سنة ١٤٧٧

وبينما كان لويز يسلك هذا المسلك الذى لا يليق بمثله من عظماء الملوك ويطلب به على برغونيا وارتوارة والمدن الموضوعة على شاطئ نهر السوم اذ تشاورت اقاليم فلندرة مع الامبراطور فردريق الثالث وعقدوا نكاح اميرتهم مارية على مكسيليان ابن هذا الامبراطور وهو ارشيدوق اوستريا فمجد هذا الامير وحسبه والمنصب الامبراطورى الذى سيؤول اليه جعل هذا الزوج مشرفا لها ومع ذلك فبعد اراضيه الوراثية وعدم كثرة ايراداته جعل شوكته فى بلادها واهية جدا حتى كان لا يعتنى بأمره الفلمنكيون فى شئ

مطلب
تأثير هذه الحادثة
فى حالة اوروبا

وبهذا الامر العجيب وحيلة لويز العظيمة صارت عائلة النمسا مالكة لوراثة عائلة برغونيا فكان انتقال هذه الوراثة اساسا للشوكة العظيمة التى انتهى اليها الملك شرلكان (كرلوس الخامس) وبهذا وجد نفسه مالكا لاراضى عنية اهلها الصباح فى المشروعات الخطرة وهى حروبه مع فرانسا لظفر بمقصوده وحصل له فيها غاية الصباح فعلم من ذلك ان لويز كما كان اول ملك عرف ان يجمع قوى مملكة فرانسا وعساكرها الداخلية ويصيرها مهابة عند سائر ممالك اوربا كان ايضا اول من اعلى دولة صارت خصما لفرانسا حتى مكثت مدة قرنين وهى تبطل اعراض حضانة وتعارضهم وتمنعهم التقدم

مطلب
فى كون غزوة كرلوس
الثامن فى بلاد ايطاليا
هى السبب الثانى فى
التغيرات التى حصلت
فى بلاد اوروبا

وهنالك حادثة اخرى مهمة كان لها مدخلية وتأثير فى حالة اوربا مدة القرن الخامس عشر وهى غزوة كرلوس الثامن فى بلاد ايطاليا فقد نشأ عنها تقلبات عظيمة مأثورة محفوظة كالتى نشأ عنها آنفا وترتب عليها فى الاحكام الملكية والقوانين العسكرية تغيرات مهمة جدا اكثر من الاولى حيث حملت اوربا على ان تتصدى لمشروعات اخص عما كان يعمل قبل ذلك وربطت صالح عدة دول مختلفة على وجه اأكد عما كان سابقا وكان كرلوس لم يكن ضعيف الرأى والهمة لانه كان صبيا ولعل مهونه ادارته واطلب سياسته كان سببا فى اعادة الملك الفرنساوية لاسعادهم كما كان مرة قادرا اكثر مما هو

أصعاف ابيه لهما بالنظام المنفر حتى كادت تتلاشى واخذ الاشراف ثانيا
في التولع بالخدمة العسكرية ورجعت لهم حميتهم الجبلية وبينما كان هذا
الملك الصغير قلقا مستعجلا في كونه يشهر حكومته ببعض وقائع ساطعة
فكان متحيرا ومفكرا الى اي جهة يوجه عساكره اذا كثر التضرع والالحاح
عليه لوير سفورس الايطالياني المتسبب بالامور البوليتيقية في صرف همته
الى امر مخصوص استقر عليه امر الملك بعد اضطرابه لما ان لوير المذكور
كان من ذوي الاعتبار في المعروف والتدبير وان كان مختصا بعمايه
وذلك انه كان قد عزم على ان يعزل قريبه دوق ميلان من الحكومة ويتغلب
على بلاده ولكن كان يخشى تحزب امراء ايطاليا عليه واعانتهم لدوق ميلان
المذكور لما ان اغلبهم كان بينه وبينه لحمة النسب او المعاهدة فرأى انه لابد له
من ناصر قوي الشوكة يعتمد عليه ويلتجئ اليه فالتمس ذلك من كرلوس الثامن
ملك فرانسا ولكن لم يطلعه على مقصوده الحقيقي واظهر له انه يريد
توجه هذا الملك الى ايطاليا بعساكر عديدة ليتغلب على كرسي مملكة نابلي
حيث ان له فيه حقا يطلبه بكونه وارث عائلة انجو الملوكية وذلك لان حقوق
هذه العائلة في مملكة نابلي كانت قد انتقلت من كرلوس دي انجو الذي هو
فوتته منه بوصية الى الملك لوير السادس ولكن لما ان الملك لوير المذكور
من غير مهولة ولا ارتاح جميع البلاد التي كانت تحت تصرف كرلوس حقيقة
لا مجرد كونه له الحق فيها لم يلتفت الى ان يحصر بان يتخذ له نصبا ولو صوريا على
بلاد اخرى يحكمها ملك اخر من غير ان [illegible] امنه احد فابى ان يتعرض
لذلك خشية ان يخاطر بنفسه في مهالك [illegible] الايطاليانية بخلاف ابنه
فانه لما كان دونه في الحزم واحسن منه دخل مع العزم الشديد في هذا المشروع
* ومن غير ان يلتفت الى ما عرضه له ارباب المشورة المجربون تجهز ليثبت
في هذا المقصد ويظهر مع الهمة التامة

مطلب
وسايطه التي تجهز بها لاجل هذا المشروع

ولاشك ان كرلوس هذا كان عنده شوكة كافية في مثل هذه الغزوة وفتوحاته
فيها فانه ورث عن ابيه سطوة عظيمة وشوكة قوية بها كان متصرفا على

ممالك

مملكة فرانسا يفعل كيف يشاء لاسيما وقد كان وسع اراضى مملكته بما ورثه من زواجه بوارثة بريطانيا الذى به صار حاكما على هذا الاقليم البريطانى الذى هو آخر اقليم من الالتزامات الكبيرة بقى الى ذلك الوقت غير منضم الى مملكة فرانسا فجمع كرلوس عاجلا جميع العساكر اللازمة لتجهيز هذا المقصد وكان من مبدء شروعه فى الامور الحربية مولعا باشهار نفسه ببعض فتوحات تولع شديدا باع به انه ضيع منفعة محققة بامر موهوم وذلك انه ارجع اقليم روسيلون لفردينند ملك اسبانيا وتخلى لمكسيمليان ارشيدوق اوستريا عن جزء من املاكه التى فى اقليم ارتوارة وكان ذلك لمجرد ان لا يحصل منهما نكير لفرانسا مدة غيبة عساكرها فى ايطاليا

مطلب تجهيزاته

وكان تجهيز جيوش اوربا فى ذلك الوقت اى فى القرن الخامس عشر مغايرا بالكلية لما بيناه فى تاريخ شرلكان وذلك ان العساكر التى جهزها كرلوس لتجهيز هذه الغزوة العظيمة كانت غاية ما بلغت عشرين الفا ولكن ما رتبه فى نقل المدافع والامدادات والذخائر على اختلاف انواعها كان كثيرا جدا بحيث يمكن مقابلته بالتجهيزات العظيمة التى تستدعيها حروب هذه الاعصر الاخيرة

مطلب نجاحه

لما دخل عساكر الفرنساوية فى بلاد ايطاليا لم يجد قوة تكون اهلا لمقاومتهم وذلك ان دول هذه البلاد المختلفة قبل هذه الغارة بزمن طويل كانت فى راحة عظيمة ولم يطرق عليها عدو غريب ابدا وكان اهمال شأن المصالح الحربية والادارة الداخلية سبب مخصوص بهما ولاجل التوفيق ما بين اغراض الملوك الذين كانت اسبابها متنوعة بينهم وتعديل شوكتهم كثرت بينهم المشارطات المتتابعة التى لا تنتهى وكانوا يديرونها مع دقة البوليتيقية المبنية على المحاولة والمبالغة فى التحيل والمكر واذا سلكوا مسلك الحرابة كانت مساعداتهم تتم بحروب هزلية وبنصرات سالمة لم يكن فى مقابلتها سفك دم احد

فحين بدء لطالبين الخطر الذى هددهم نهضوا الى سلوك طريق التدليس

الذي كانوا متعودين عليه فاستعملوا جميع وسائط الدسائس لاجل ابعاد هذا الخطر المهول ولكن لم يحصل لهم بهذه الوسيلة النجاح الذي كانوا يأملونه وحيث لم يكن لهم من القوى العسكرية الا عساكر مستأجرة ذات جبن ورخاوة ولم تكن متعودة الا على الحروب الهزلية داخلهم الرعب والخوف بمجرد منظر هذا الحرب الجد وظهر لهم انه لا يمكنهم مقاومة شجاعة الفرنساوية وتجلدهم ففتحت ابواب فلورنسة ورومة وبيزة لعساكر كرلوس بالسهولة من غير توقف * وقرب هذه العمارة المهولة من بلاد نابلي ارعب ملك نابلي رعبا شديدا افضى به الى الموت ان صح ما ذكره بعض المؤرخين وخلع من بعده المملكة بذلة الرعب وهرب الثالث من بلاده عند قرب الاعداء من الحدود وسار كرلوس بعساكره من سفح جبال ألبه الى نابلي مع غاية السرعة ولم يجد فيه من الموانع الا ما ندر فسلكها كانها بلاده واخذ مع الراحة والسهولة مملكة نابلي ومن وقتئذ صار يتزعزع منه ويهابه ملوك ايطاليا الآخرون وصار يرتب عليهم ما شاء من الشرائع والقوانين

مطلب
ثمرة هذه الغزوة وبيان منشأ مذهب التعادل في الشوكة والقوة

فبذلك انتهت هذه الغزوة الشهيرة التي ينبغي ان تعتبر كانها ثمرة الشوكة والقوة الجديدة التي اكتسبها ملوك اوربا واحدوا في اجرائها وقد كانت نتائج هذه الغزوة عظيمة بقدر ما كان نجاحها عجيبا وذلك ان الايطاليين لما لم يمكنهم حجز هذا السواد العظيم الذي نزل بهم كسيل العرم تركوه في مبدء الامر يجول في اراضيهم كما شاء ولم يلبثوا برهة من الزمان الا وا استشعروا انه لا يوجد في ايطاليا دولة ايا ما كانت فيها هيبة لان تعد قوى كافية لمقاومة قوى كرلوس الذي كان له اراضي واسعة وامارة امة حربية ذات شجاعة وحماسة ولكن خطر لهم ان دول ايطاليا يمكنها بالتعاهد مع بعضها ان تفعل ما لا تفعله اي دولة على حدتها بل لا يمكن ان تشرع فيه فبادروا الى هذه المعاهدة التي لم يبق لهم سواها في الخلوص من ربقة اسر الفرنساوية وتخفيفه عنهم فبينما كان كرلوس المذكور ببلاد فرنسا

لعدم حزمه يضيع وقته بمدينة نابلى فى الاعياد وانهماكه فى مسراته بما لا طائل تحته او بشغل فكره بتخيل فتوح بلاد المشرق ويتخرف بذلك اذ تحزبت عليه عصبة قوية من اغلب دول ايطاليا ومعضدة بالامبراطور مكسيمليان وفرديننده ملك اراغون ونسيت هذه الدول المختلفة ما بينها من العداوة الخصوصية او علقتها الى وقت اخر لتجتمع بتمامها على عدو مشترك كلهم فى عداوته لانه كان خطرا على كل دولة منها فكان هذا الاتحاد مخرجا لكرلوس من الدعة الخطرة فرأى انه لا امان له الا برجوعه الى مملكة فرانسا فجمعت تلك الدول المتعاهدة جيشها وكان مقداره ثلاثين الفا ليقطعوا طريقه ويصدوه عن الخروج ولكن لما كانت شجاعة الفرنساوية وجراءتهم تجبر قلة عددهم فتكوا بجيش الايطاليين وانتصروا عليهم نصرة صعوبتها ملكتهم طريقا آمنة توصلهم الى مملكتهم ثم بهذا فقد كرلوس جميع فتوحاته سريعا كما كان اكتسبها كذلك ورجعت طريقة حكومة ايطاليا الى ما كانت عليه قبل هذه الغزوة

مطلب
فى ان مذهب التعادل
سار فى مبدء الامر
زمام الممالك فى ايطاليا
ثم انتقل منها الى ممالك
اوربا

والظاهر ان ما نتج عن هذه المعاهدة السريعة النجاح انتفاع لا مزيد عليه ملوك ايطاليا من سنة اعتنوا فى حال سياستهم وارشدهم الى ملوك ما فيه مصلحتهم لان كانت اغارة الفرنساوية اخرجتهم وبددت شملهم وقد نشر هؤلاء الدول المتعاهدون من وقتئذ على مصالح اوربا اصولا من التعاهد السياسى الذى لم يستعمل قبل ذلك الا لتدبير مصالح دول صغيرة فى نفس بلادهم لمجرد اغراض خصوصية فهم اول من ابدع فى منع اى ملك كان ان يرتفع فى الشوكة الى درجة عالية لا تلائم الحرية العمومية وافادوا ملوك عصرهم اهمية هذا الاصل العظيم المبتدع فى السياسة الذى هو كناية عن حفظ توزيع القوة بين اعضاء جسم واحد مؤلف من دول اوربا حفظا تاما مؤسسا على الانصاف ثم فى مدة الحروب التى كانت مملكة ايطاليا ميدانها وفى اثناء المناحنات التى كادت ان تكون دائمة وكانت ناشئة عن ضعف رأى لويز الثانى عشر وطمع فرديننده ملك اراغون وتمكنت فى هذه البلاد من آخر

القرن الخامس عشر الى حكومة الملك شرلكان التفت ارباب السياسة الايطالية التفاتا كليا وبذلوا جهدهم فى حفظ تعادل الشوكة بين الفريقين المتحاربين وهذا القانون التعادلى لم يكن مقصورا على دول ايطاليا بل ادركت نفعه دول اخرى لمصلحة حفظ نفسها وبادرت اليه بعد ما قليل صار العمل به عاما ومن مبدء ذلك الوقت يمكننا ان نلاحظ ونتتبع ما حصل من تقدمات المحالفة التى ربطت ممالك اوربا بعضها ببعض ربطا اكيدا لانه من ذلك الوقت عرفت اهمية تدبير تلك المعاهدات التى بها ينحصر فى اعقاب حيث انها زمن الصلح يدرء بها الاخطار البعيدة الممكنة الحصول ومدة الحرب تدفع الفتوحات السريعة الموجبة للتخريب والدمار

مطلب
فى كون حروب ايطاليا جعلت ترتيب العساكر المنتظمة عموميا

وليس ذلك بمجرد نتيجة هذه الحروب التى اوقعها كبار ملوك اوربا فى ايطاليا بل نتج عنها امر آخر وهو تعميم التعبير فى تنظيم العساكر الذى بادر اليه الفرنساوية قبل غيرهم فقد الجأت تلك الحروب جميع الملوك الذين برزوا فى ايطاليا التى هى ميدان حرب جديد لهم الى ان يرتبوا عساكرهم على نسق عساكر فرانسا وذلك انه لما كان من الممكن ان ميدان الحرب يكون بعيدا عن الممالك التى تريد الاغارة عليه وكانت منفعة العساكر التى كان يتعهدها الملتزمون للملك لاتفى بمطلوبه وليس لها عظيم جدوى رأى الملوك انهم محتاجون ضرورة الى استخدام عساكر منتظمة متعلمة لاتخرج عن العسكرية بحال بل تكون دائما على طرف الميرى فسار كرلوس الثامن الى ايطاليا بفرقة خيالة كلها من البلكات العسكرية التى كان قيدها فى العسكرية كرلوس السابع واتقاها بعده لويز الحادى عشر وبفرقة من المشاة غالبها من عساكر القسكوبين منظمة ومعلمة على منوال العساكر السويسيين واضاف الى ذلك لويز الثانى عشر فرقة من العساكر الفناوية اشتهرت فى حروب ايطاليا وتعرف بالارط السود ولم يعتمد احد من هؤلاء الملوك على العساكر الالتزامية ولم يطلبها مع انه كان يمكنه جمعهم وقيادتهم على منوال العادة القديمة

وكذلك مكسيمليان ومكسيمليانوس وجرد بعده قد استعملا مثل هذه العساكر المنتظمة عند شروعهما فى حرب ايطاليا ولم يعتمدا فى شان تحصيل مقاصدهما الا على العساكر المجمكة

مطلب
كون اهالى اوروبا عرفوا فضل العساكر المشاة فى الحرب

وقد حصل عقب هذه الحادثة المتعلقة بترتيب العسكرية حادثة اخرى نشات عن استخدام السويسيين فى حروب ايطاليا وذلك ان عساكرهم وتعليماتهم العسكرية كانت مغايرة بالكلية للجارى به العادة عند غيرهم من سائر ملل اوروبا ومشاهدته انه فى مدة الحروب الطويلة التى سفكت فيها دماء كثيرة وكان القصد منها الذب عن حريتهم ارسلت اليهم عائلة اوستريا الملوكية عساكر تضاهى عساكر غيرها من الممالك الكبيرة القوية الشوكة وكان اغلبها من الخيالة الكثيرة الاسلحة فلما رأى السويسيون انهم لفقرهم وقلة ملتزميهم وجدب اراضيهم وعقمها فى ذلك الوقت لا يمكنهم ان يربوا جيوشا من الخيالة الصالحة لمصادمة خيالة اعدائهم ولا ان يقوموا بمصاريفها صرفوا افكارهم الى ترتيب العساكر المشاة وجعلوا اعتمادهم عليها ولاجل ان يكون لتلك العساكر قوة على مصادمة فرسان اعدائهم اعطوا لكل عسكرى منهم من اسلحة الوقاية والذب عن النفس درعا وخودة ومن اسلحة الاغارة رمحا طويلا ومزراقا وسيفا ثقيلا ثم جعلوهم ارطاطا عظيمة وضموها منضمة الى بعضها كانهم بنيان مرصوص بحيث كان اعداؤهم كلما توجهوا اليهم من اى جهة كانت لا يجدون امامهم الا جبالا رواسخ

ولم يمكن لهؤلاء الخيالة بوجه ما ان يزلزلوا اقدام المشاة السويسيين ولا ان يوقعوا الخلل فى صفوفهم بل اعتاد المشاة عليهم جميع ما ابدوه للتغلب على بلاد السويسة وهزموا ايضا عساكر برغونيا الخيالة الذين لم يكونوا اقل عددا ولا قوة من خيالة فرانسا ولما دعى مشاة السويسيين اول مرة الى حروب بايطاليا بادوا جميع من تجاسر على مصادمتهم بمثل هذه البراهين العديدة الواضحة والوقائع التى دلت على وفور شجاعتهم عادت لهم شهرتهم القديمة ورسخ فى الاذهان على التدريج ما كان قد نسى منذ زمن طويل من

ان الفضل للسويسيين في الفنون الحربية لكن لما ثبت لهم الفخار والشهرة بمثل هذا النجاح وقع في نفوسهم انهم بلغوا في الشجاعة الدرجة القصوى وانه لا يستغنى عنهم في اى مشروع كان فطغوا وبغوا وادعوا وعتوا كبيرا فعند ذلك اشمأزت منهم نفوس الملوك الذين كانوا يستأجرونهم لدفع الملمات واشتغلوا بتحصيل وسائط تغنيهم عن هؤلاء الغرباء المستأجرين فبذل كل ملك جهده في استكمال عسكره المشاة الملية (اى الذين من ملته واهل مملكته)

مطلب
ترتيب العساكر المشاة الملية ببلاد المانيا

فشرع ملوك المانيا في تحصيل هذا الغرض وسهل عليهم بسبب صلاحية رجالهم لان يكونوا من اقوياء العساكر لما فيهم من الشجاعة والجلد أن يجروا على وجه السرعة في عساكرهم تغييرا صاروا به اكفاء للسويسيين في الشجاعة والضبط والربط والمهارة العسكرية

مطلب
ترتيب مثل ذلك في فرنسا

واما ملوك فرانسا فلزمهم في تحصيل ذلك أن يمكثوا زمنا طويلا ويبذلوا جهدهم اكثر من ملوك المانيا حتى استمالوا عقول طوائفهم الصعبة الى مثل هذه التعليمات واعتنوا اعتناء تاما بترتيب قوانين توجب احترام العساكر فترتب على ذلك انه منذ حكومة لويز الثاني عشر تنازل الاشراف عن دعاويهم القديمة وسمحت نفوسهم بالدخول في الخدمة العسكرية

مطلب
ترتيب ذلك في اسبانيا

واما اهل اسبانيا فكانت حالتهم لا تأذن لهم ان يستعملوا غير عساكرهم الملية في جنوب ايطاليا الذى كان ميدانا لغزواتهم العظيمة في هذه المملكة ولم يقتصروا على اكتساب التعليمات العسكرية السويسية بل كملوها بامور اخرى حيث نظموا في ملك عساكرهم عساكر جديدة مسلحة بنوع ثقيل من اسلحة النار (يقال له الرملك ويضرب بواسطة الفتيل) فبذلك ترتب عندهم عساكر مشاة صار لها شهرة عظيمة وهيبة في جميع اقطار اوروبا حتى ان الافرنج مكثوا يخشون بأسها ويتعجبون منها مدة مائة وخمسين سنة

مطلب
ترتيب ذلك في ايطاليا

واما دول ايطاليا فتناقصت من عندها الخيالة شيأ فشيأ واخذت تسبح على منوال من كان بجوارها من الممالك القوية الشوكة حتى حصروا قواهم

العسكرية فى العساكر المشاة
ومن ذلك الوقت صارت ملل اوروبا على اختلافها ناظرة فى الحروب مع عساكر قوية مستعدة اكثر مما كانت لاى خدمة من الخدم العسكريه فى اى مكان كان وصار لها اقتدار على فتح البلاد وحفظها بعد فتحها

مطلب
فى ان حروب ايطاليا كانت سببا فى ازدياد الايرادات العمومية فى دول اوروبا

ثم ان حروب ايطاليا التى وصلت امم اوروبا الى تلك التغييرات التى قدمتهم فى القوة الحربية كانت اول شئ افهمهم انه لابد للمشروعات العظيمة والحروب الطويلة من مصاريف جسيمة وعودهم على تحمل اثقال الجرائم والغرامات اللازمة لتلك المشروعات وذلك انه فى مدة ما كانت حكومة الاشراف والملتزمين باقية على شوكتها وكانت العساكر كناية عن اتباع هؤلاء الملتزمين يطلبهم الملك منهم عند الحاجة للهجوم على مملكة بجوارهم فيمكثون فى الحرب مدة قصيرة ليوفوا بما يجب عليهم من الحقوق للملك فى شأن الخدمة العسكريه كانت مصاريف الحرب قليلة حيث انه كان يكفى للملك فى تدبير اهم مشروعاته اقل امداد يعطى له فلما صارت ايطاليا ميدانا عموميا لعساكر ملل اوروبا الذين كانوا يظهرون فيه بمظهر الابهة والفخار ويتنافسون فى القوة العسكرية ويتفننون الحربية عظم امر الحروب وثقلت احمالها فالتزم لذلك تجديد غرامات كثيرة فى كل مملكة من ممالك اوروبا ليتيسر بها تحصيل المواد والادوات اللازمة للاغارات فى البلاد البعيدة وتكفى فى جامكيات العساكر المستمرة فى العسكرية ومؤنهم اللازمة لهم فى البلاد الاجنبية ومحاصراتهم لمدائن اعدائهم وعقتهم عن مدائنهم

ولكن عظمت اطماع الملوك وصاروا ياخذون فى مشروعات بعيدة جدا بحيث كان يتعذر عليهم فى هذه الامر ان يجعلوا على الناس جرائم وغرامات تقوم بالمصاريف التى كانت تستدعيها هذه المشروعات العجيبة فمن ذلك ان الملك كرلوس الثامن لما عزم على الاغارة على مملكة نابلى كانت المصاريف اللازمة لهذا المشروع تزيد بكثير على الغرامات العظيمه التى كانت تؤخذ

وفتشه من عسكره ساحتى انه قبل ان يصل الى ضواحى ايطاليا بدد ما كان معه من الاموال والذخائر الواسعة التى كان جمعها من مملكته حيث كان له حقوق واسعة ومزايا كبيرة ولما كان لا يمكنه حينئذ ان يجعل على رعاياه غرامات جديدة لان الغرامات التى كانت مضروبة عليهم كانت متجاوزة للحد لم يجد وسيلة فى تجهيز عزيمته الا كونه يقترض من اهالى جنوة المبالغ التى كانت لازمة له فى استمراره على السير الى بلاد ايطاليا ولكن لم يمكنه اقتراض ذلك منهم الا بربح جسيم وهو اثنان واربعون فى كل مائة وكان معاصروه من الملوك بهذه المثابة ايضا فكانت ايراداتهم لا تفى بمصاريفهم فمن ذلك الوقت اخذت الغرامات والجرائم فى الازدياد حتى وصلت محصولاتها زمن الملك شرلكان فى كل مملكة من ممالك اوربا الى مبالغ جسيمة جدا حتى بالنسبة الى حالة آخر القرن الخامس عشر وكان ذلك طريقة لافراط ملوك الاعصار المتأخرة فى الظلم فيها حتى وصلت الى الدرجة التى عليها الآن

ومما ينبغى التنبيه عليه من الحوادث السياسية التى حصلت قبل حكومة الملك شرلكان وكان لها دخل فى تغيير حالة اوربا عصبة كمبريه وهى آخر الحوادث المذكورة وكان مقصد جميع الملوك الذين كان لهم دخل فى هذه العصبة اذلال جمهورية البنادقة وتقسيم اراضيها او لتزاماتها — عصبة كمبريه

وكان منشأ تلك العصبة هو ان قانون البنادقة كان موضوعا على قواعد متينة بحيث لم يعتره كبير تغيير منذ عدة قرون وكانت جمهورية البنادقة تدبر مصالحها فى تلك المدة على حسب قواعد سياسية مشهورة بالحكمة والثبات واستمرت محافظة عليها ومواظبة على العمل بها من غير تغيير ولا تبديل ففاقت بذلك غيرها من سائر دول اوربا وعرف اكابر الملوك ان هذه الدولة كانت تدبر آراءها واعمالها واشكال حكومتها وكذلك من كان منوطا بها بالادارة والتدبير فبواسطة استمرار تلك الجمهورية على هذا المنوال امكنها توسيع اراضيها وصارت فى اسرع وقت اعظم شوكة فى ايطاليا وصارت اعنى — منشأ هذه العصبة

دولة فى اوربا واعظمها ثروة بسبب اتساع تجارتها ومحصولات مريقاتها النافعة المرغوب فيها ورواج أنفس البضائع المشرقية عندها حيث لم يكن يشركها احد فيها

ولما عظمت شوكة البنادقيين وقع الخوف والغيرة فى قلوب مجاوريهم وصار اعظم ملوك الافرنج يحسدهم على ثروتهم وغناهم حيث كان يشق عليه ان يرى آحاد هذه الجمهورية تضاهيه فى عظم المبانى ونفاسة الامتعة والملابس وظرافة المائدة وعظم رونقها فشرع البابا جاليوس الثانى فى تحزيب عصبة على اهل البنادقة وهو وان كان فى المعارف كاسلافه من البابات الا انه كان يزيد عليهم فى الطمع والشره فدبر فى نفسه ما يكون ملايما لطباع الملوك فى استمالتهم اليه فاوقع الخوف فى قلوب البعض والشح فى انفس الآخرين حتى توصل بذلك الى أن حزب على تلك الجمهورية عصبة تعد من اخوف التعصبات التى حصلت فى اوربا واعانه على ذلك ايضا مقتضيات احوال اخرى لا حاجة لنا بها فى كتابنا هذا

مطلب سرعة نجاح المتعصبين

وكان ايمبراطور المانيا وملك فرانسا وملك اراغون والبابا جاليوس الثانى هم رؤساء تلك العصبة التى اقرها اغلب ملوك ايطاليا وكان اقل ملك منهم يأمل أن يكون له نصيب فى سلب تلك الجمهورية التى استصوب تخريبها جميع الملوك وكان يمكن لاهل البنادقة أن يمنعوا هذه الاغارة المهولة عن انفسهم بالكلية او يضعفوا شدتها الا انهم كانوا من الجسارة فى دعوى عريضة لم يوجد نظيرها فى تاريخهم فلم يراولوا شيأ بعد تلك الاغارة عنهم بل ظهرت شجاعة الفرنساوية على جميع ما اعتدوه من الاحتراسات لامن جمهوريتهم وانقرض فى واقعة جيار ادادة الجيش الذى كان يعول عليه فى حماية الجمهورية وتغلب جاليوس الثانى على جميع المدن التى كانت للبنادقة فى الحكومة القسيسية واعاد فرديناند الى مملكة نابلى جميع المدن التى على سواحل كالابرو كان قد تغلب عليها البنادقة وقدم مكسيمليان مع جيشه الى البنادقة من جهة واغار عليها الفرنساوية من جهة اخرى

فلما رأى اهل البنادقة انهم محصورون بين هؤلاء الاعداء الكثيرين ولم يجدوا لهم حليفا يأخذ بناصرهم نزلوا عن دعوى الخسارة والتجأوا الى اليأس والقنوط وتركوا سائر البلاد التى كانت لهم فى الارض القارة وانحصروا فى داخل اسوار تخت مملكتهم حيث لم يجدوا منه أعز وأنسب مما عداه من الحصون والمدن

مطلب
وقوع الفشل بينهم

ثم ان سرعة نجاح هؤلاء المتعصبين عادت عليهم بالضرر وذلك ان ارباب هذه العصبة كانوا على قلب رجل واحد قبل وقوع فريستهم فى ايديهم وعند الاغتنام عادوا الى ما كانوا عليه من الغيرة والعداوة والبغضاء فلما رأى البنادقيون علامات الفشل بين اعدائهم تنورت قلوبهم بأشعة الامل والرجاء فأحيوا فى مشاورهم ميت الحكمة والثبات اللذين كانا من شأنهم وسلكوا بهما مسلكا نجحوا من بعض الوجوه لما لدى عدوهم من فتور همتهم وعدم احتياطهم فاستردوا من اعدائهم بعض البلاد التى كانوا فقدوها وسكنوا غيظ البابا جاليوس الثانى وملك أراغون ببعض عطايا جليلة النفع ارضت انفسهما وبالجملة لم يزالوا فى المداهنة حتى توصلوا الى حل تلك العصبة التى كادت تخرب جمهوريتهم وتبيدها

مطلب
حوادث اخرى نشأت عن سياسة المتعصبين وطمعهم

ولما نجح جاليوس فى هذه العصبة التى دبر امرها بنفسه داخله الكبر والتعاظم طالما انه لا يشرع فى مشروع الا ويتم فعزم على ان يطرد من ايطاليا جميع الملوك الاجنبية فاستعمل جميع وسائطه السياسية لاجل تنجيز هذا الغرض الذى هو جدير بان يصدر عن مثل تلك القريحة الواسعة المحورة فأغار اولا على الفرنساوية لانهم كانوا معرضين من عدة وجوه عند الايطاليين اكثر من غيرهم من الدول الاجنبية التى كان لها بلاد فى مملكة ايطاليا ولعظم مهارة هذا البابا وتحيلاته عرف أن يستميل قلوب اغلب الملوك الذين كانوا فى عصبة كمبريه الى أن يديروا اسلحتهم نحو لويز الثانى عشر الذى كان معهم فى تلك العصبة واستمال ايضا الملك هنرى الثامن وكان قريب عهد بالولاية على مملكة الانكليز الى اعانته على تنفيذ غرضه فأغار الملك المذكور

على

على مملكة فرنسا ولكن صار لويز يدافع عن نفسه مع القوة والشجاعة هذه العصبة المهولة القعابية ووقعت المحاربة بينه وبينهم عدة مرات في ايطاليا وسواحل اسبانيا واقليم بيكارديا وكانت النصرة والخذلان مترددين بين صفوف الفريقين ثم ضعفت قوته بكثرة اعدائه وانسداد ابواب الحرب التي كانت مفتوحة عليه وعجز عن مقاومة هذه العصبة التي كانت قواها وعساكرها تزيد على ما عنده باضعاف وكان رؤساؤها ارباب نشاط وتجلد على مكابدة المشاق فاضطر أن يعقد معهم عدة مشارطات صلحية ويكف عن قتالهم فترك لهم جميع ما كان اكتسبه في ايطاليا ما عدا قلعة ميلان وبعض مدن قليلة العظم من دوقية ميلان

مطلب
كون هذه الحوادث ترتب عليها ازدياد المخالطات بين ملل اوربا

ثم ان ما وقع في ذلك الزمن الذي هو زمن محن وتقلبات من المداولات والمعاهدات التي حصلت بين ملوك لم يكن بينهم قبل ذلك كبير اختلاط وربط كان سببا في ازدياد الارتباط بين ملل اوربا واتساع دائرة المخالصة التي ذكرت انها من جملة ما نشأ عن حوادث القرن الخامس عشر وايضا لما عظمت مقاصد الملوك ومشروعاتهم وكانت الاراضي التي يتصدون للاغارة عليها بعيدة وكانت حروبهم طويلة شديدة التعب اضطروا الى ان يبذلوا وسعهم في سلوك مسالك لم تكن في القرون الماضية قبلهم

مطلب
كون الحوادث السابقة فتحت طريقا لحوادث القرن السادس عشر

وليست هذه الوقائع العظيمة والحوادث العجيبة التي امتاز بها الزمن الذي هو موضوع تاريخنا هذا ناشئة عن خصوص طمع شرلكان وفرنسيس الاول ومهارتهما ومعاداتهما بل لها اسباب اخرى وهي ان ممالك اوربا كانت اذ ذاك قد اكتسبت تقدما عظيما في العلوم والادارة الداخلية واكتسب ملوكها شوكة بحيث صار عندهم قدرة على ان يجمعوا من ممالكهم جميع العساكر التي يحتاجون اليها للحروب في الاقطار الاجنبية فبذلك اتسعت دائرة مشروعاتهم الحربية وعظمت مساعيهم ومجهوداتهم اكثر مما كانت عليه وكان اول ما ظهر بواسطة شوكتهم الجديدة التي اكتسبوها هي حروب ايطاليا التي نشأ عنها أن صار كل منهم يدعي لنفسه خلاف ما يدعيه الآخر وثارت

بين الملل المختلفة نيران الشقاق والفشل فكانت منشأ لمشاجرات وحروب عديدة ترتب عليها تقلبات عجيبة فى جميع بلاد اوربا فمن ثم دلت جميع الامارات فى اوآئل القرن السادس عشر على ان هذا القرن تكثر به الحوادث العظيمة وتنتشر فيه اعلام الوقائع الحسية انتهى القسم الثانى

(القسم الثالث)

فى الكلام على القوانين السياسية التى كانت فى دول اوربا الكبيرة فى ابتدآء القرن السادس عشر

مطلب فى ان قوانين ملل اوربا كانت متباينة تباينا كليا

قد سبق لنا ذكر الوقائع الاصلية العظيمة التى بدخليتها وتأثيرها فى جميع دول اوربا اعانت على تكميل حكوماتها الداخلية وتحسينها وتوسيع دآئرة اعمالها ومشروعاتها وازدياد عساكرها الملية ولم يبق علينا من الشروط التى يتوصل بها قارئ كتابنا هذا الى مطالعة تاريخ شرلكان الا بيان القوانين واشكال الحكومات المدنية التى كانت عند من كان له شوكة قوية وتأثير كبير مدة هذا القرن من ملل اوربا ولنذكرها لك فى هذا القسم مفصلة كل ملة مع ما يخصها من القوانين والحكومة المدنية

واعلم ان القوانين والوقائع التى سبق ذكرها وان كان يظهر منها انها توجب الاتحاد فى اخلاق اهل اوربا لانها كانت تخرجهم من حيز الخشونة والتبربر الى التمدن والتأنس بطرق متحدة تقريبا الا انه طرأت عوارض اخرى ترتب عليها تباين كلى بين قوانينهم السياسية واختلاف فى اشكال حكوماتهم المدنية بان صار لكل دولة حكومة خصوصية لا تشبه حكومة غيرها من الدول ونشأ عن هذا الاختلاف فى الحكومات تغاير عظيم فى اخلاقهم ومقاصدهم

مطلب بيان لزوم معرفة الحالة السياسية لكل ملة منذ حكومة شرلكان

ولا يخفى ان معرفة الحوادث الاخيرة ليست دون معرفة الحوادث السابقة فى اللزوم نعم وان كان ما ذكرته لك من الحوادث والاسباب التى عم تأثيرها فى احوال اوربا يعينك على ادراك منشأ المشابهة العظيمة التى ترى بين السياسات الداخلية والمشروعات العسكرية عند امم اوربا لكن اذا لم يكن

عندك معرفة صحيحة بصور الحكومات المدنية وكيفية ترتيبها اشكل عليك جزء كبير من تاريخ هؤلاء الامم فلا تعرف له وجها ولا سببا واما المؤرخون الذين تصدوا لتاريخ كل ملة بخصوصها فانما تعرضوا فى كتبهم لما كان مرعيا لاهل بلادهم ولهم فيه فائدة معتقدين ان اهل بلادهم يعرفون حق المعرفة اخلاق وطنهم وقوانينه الداخلية فلذلك لم يتعرضوا لتفصيل ذلك تفصيلا شافيا يكفى فى افادة الاجانب جميع الاسباب والمناسبات بين الوقائع التى ذكروها بخلاف ما اذا كان التاريخ يشتمل على حوادث كثيرة متنوعة فى بلاد مختلفة ولا يتعرض لبحث عن اصول قوانين تلك البلاد وحالتها السياسية فان ذلك يعد عيبا ونقصانا لان تلك الاصول تكسب من اطلع عليها ما يكون له به اقتدار على ان يعرف معرفة صحيحة سلوك الملل واحوالهم

ومع ذلك فلا يليق بهذا المختصر ان نفصل فيه جميع القوانين والحكومات الخاصة بكل امة لان شرح ذلك يطول بل نقتصر على ذكر الامور الكبيرة التى تمتاز بها كل حكومة عن الاخرى فان ذلك هو غاية ما يناسب موضوع هذا الكتاب ونهاية ما يلزم فى توضيح ما نحن شارعون فى سرده من الوقائع فنقول

مطلب حالة السياسة فى ايطاليا

كانت سياسة ايطاليا فى مبدء القرن السادس عشر مباينة بالكلية لسياسة غيرها من ممالك اوروبا وذلك انه حين كانت اوروبا منقسمة الى ممالك متسعة كانت ايطاليا منقسمة ومبددة الى عدة ايالات صغيرة كل واحدة منها لها حكام تخصها وقوانين مستقلة عن قوانين الاخرى ولم يكن فى ايطاليا حينئذ الا مملكة واحدة وهى مملكة نابلى وكانت حكومة الباباوات مغايرة لما عداها ولا تشبه فى شئ غيرها من الحكومات قديمة كانت او جديدة وكانت حكومة كل من البنادقة وفلورنسة حكومة جمهورية واما ميلان فكانت محكومة بامراء يلقبون بلقب الدوق

وكان اعظم حكام ايطاليا فى المنصب والمقام هو البابا ولم يكن الاقل منهم بالنظر الى اتساع الاراضى وكان لاساقفة الكنيسة الكبرى او الاصلية

شوكة مساوية لشوكة البابا وربما كان لهم نوع اعتبار في المقام بسبب
شرف الكنيسة التي هي تحت رياستهم وان لم يكن لهم خصايص ومزايا
حقيقية الا ما يكتسبونه بفضل معارفهم وزيادة تقوى يقتدى بها *

مطلب
اصل شوكة البابا وزيادتها

وحيث ان مدينة رومة كانت دهرا طويلا وهي كرسي الامبراطورية
الرومانية وتخت الدنيا بتمامها كان لاساقفتها اعتبار وشرف على غيرهم
لحظوا من الاحترام والتعظيم بالحظ الاوفر ولكنهم مكثوا عدة قرون من غير
ان يكون لهم مزية اخرى او يدعوا لانفسهم مزية غير مزية الشرف التي
توصلوا بها شيأ فشيأ الى ان صار لهم في عقول الناس تأثير قوي بحيث
صارت جميع اوربا منقادة لهم وتقبل احكامهم وتأخذها قضية مسلمة
فادعوا ان احكامهم وافتاآتهم تكون على كافة الناس لانهم رؤساء الدين وانهم
معصومون من الخطا في الاحكام لانهم خلفاء ماري بطرس مع ان هذه
الدعوى محض هوس ومخالفة لاصول دين النصرانية غير انهم لما كان عصرهم
عصر جهالة واهله قد طمست بصايرهم فيذعنون لكل ما يدعونه شيدوا
على هذا الاساس مباني دعواهم ووسعوا دايرتها جدا حتى صار امرها
عجيبا فكان ما يستقر عليه رأيهم في المذاكرات القسيسية كأنه تنزيل
من حكيم حميد ولم تكن شوكتهم مقصورة على مثل هذه الامور من احكام
وافتاآت وغير ذلك بل كانوا يعزلون الملوك ويرخصون للرعايا فيما يجب
عليهم لملوكهم من الطاعة ويعطلون مصالح الممالك بحيث لم يكن في اوربا
مملكة الا واضطربت وتعكرت من مساعيهم ولا كرسي الا وارتج من افعالهم
ولا ملك الا وتزلزلت اقدامه من شوكتهم

مطلب
كون اراضي البابات لم تكن كافية لتأييد افتاآتهم الدينية

ولم يبق للبابات في تصيير كلمتهم نافذة بالكلية وتخريبهم للحكومات المدنية
ليشيدوا حكومتهم على آثارها واطلالها الا ان يحصلوا شوكة دنيوية
تكفي في تعضيد احكامهم الدينية ولكن من سعادة البشر كانت
اراضي البابات ضيقة جدا حين كانت احكامهم وفتاآتهم واسعة جدا
حتى كان يظهر منها انها بلغت اعلى الدرجات فكانوا يرون من بعيد

احبارا مهابين ولى شوكة قوية بحسب الظاهر فقط واما بالنظر لكونهم ملوكا فلم يكونوا الا امراء ضعفا لا شوكة لهم فى الواقع ثم قد اشتغلوا فى مبدء امرهم باستعمال وسائط توصلهم الى توسيع اراضيهم كالوسائط التى استعملوها فى توسيع احكامهم وافتاآتهم فتحيلوا على الامبراطور قسطنطين حتى أمدهم بعطية من عنده وكذلك كرلوس مانوس اواوبوبان منحهم بعطية اخرى جعلوها وسيلة للتغلب على بعض مدن قريبة من مدينة رومة لم يستفيدوا من هذه الوسيلة الا دعاية الكاذبة الا شيأ قليلا بخلاف ما منحهم به النورمنديون الذين فتحوا مملكة نابلى وكان لهم فى القسيسين اعتقاد حسن ومما أمدته اليهم الكونتيسة ماتلدة بجهلها فانه كان كبيرا وتسعت به اراضيهم اتساعا عظيما

مطلب
ضعف شوكة البابات حتى فى اراضيهم وممالكهم

ولكن لما اشتغلوا بتوسيع اراضيهم تفرغوا لذلك بالكلية ولم يلتفتوا لتوسيع شوكتهم بحيث يكون اتساعها واتساع اراضيهم على حد سواء فترتب على ذلك ان عساكر كل ايالة من ايطاليا صاروا تحت طاعة حكامهم وفى مدة التقلبات والفتن التى حصلت فى القرون السابقة تغلب اغنياء الاشراف ورؤساء العصب الاهلية على حكومة عدة مدن من المدن الاصلية وحصنوها ورتبوا فيها عساكر مستأجرة من اموالهم وبعد ذلك تخلوا عن استقلالهم بانفسهم فبذلك صارت البلاد التى اكتسبتها الكنيسة مشحونة بحكام طاغين لم يبقوا للبابات من الحكم عليها الا الصورة والخيال

مطلب
ابطال شوكتهم رأسا بسبب اطماع اشراف الرومانيين

ولما اضمحلت شوكة البابات فى اغلب البلاد التى كانت تحت حكم الكنيسة بتغلب هؤلاء الحكام عليها بحيث لم يبق لهم من الشوكة الا ما ندر صار بارونات الرومانيين يعطلون حكم البابات فى نفس مدينة رومة وكان قد ظهر فى القرن الثانى عشر رأى جديد شاع عند كافة الناس وتمكن من عقولهم وهو انه حيث كانت وظائف القسيسين لا تتعلق الا بمحض الديانة ولا دخل لها فيما عدا ذلك فلا ينبغى ان يكون لهم شئ من الاملاك والالتزامات وليس لهم حق فى الافتاء والحكم بل يكونون على منهاج اسلافهم الذين هم اهل الكنيسة

الكبرى ولا ينظرون فى غنائمهم لا مايأتى اليهم من الاوقاف والصدقات التى شرع بها الاهالى فبادر الى قبول هذا الرأى وتعضيده والعمل به جميع من كان يعلم طمع القسيسين وبخلهم واجتهادهم على وجه مذموم فى تحصيل الثروة وتقوية الشوكة وذلك ان بارونات الرومانيين الذين ذاقوا ألم ظلم القسيسين ورهقت نفوسهم من شدة جورهم سارعوا الى العمل بمقتضى ذلك الرأى وشرعوا فى تخليص رقابهم من ربقة الاسر لما وجدوه من صعوبة الاسترقاق وثقله عليهم فحثوا على احياء ميت حريتهم القديمة بكونهم رتبوا مشورة السنت وخصوها بالكلمة النافذة وكانت قوة الاجراء والتنفيذ تارة تناط بواحد من اكابر اربابها وتارة باثنين منهم وتارة بحاكم لقبوه بلقب بتريس (وهو عند اهل رومة لقب لذى الفضل والشرف والواضع له قسطنطين) (سنة ١١٤٤)

فعند ذلك بذل البابات وسعهم فى تعطيل ما لحق حكومتهم وشوكتهم من الشغب والتعدى عليها حتى ان واحدا منهم لما رأى ان مجهوداته لم تجد نفعا ولا طائل تحتها لحقه من الغم ما افضى به الى الهلاك وتجاسر آخر على الهجوم على ارباب مشورة السنت مع جماعة متسلطة فجرح فى المعركة جرحا كان سببا فى حتفه فبذلك انحطت درجة البابات وضعفت شوكتهم ومكثوا مدة مستطيلة واحكامهم محصورة فى حدود ضيقة جدا فى جميع الاماكن حتى فى مدينة رومة التى هى دار اقامتهم وضاق بهم الامر حتى لو ارادوا أن يصدروا حكما فى قضية واحدة من غير اطلاع مشورة السنت اصعب عليهم ذلك

ولم يكن ابطال شوكة البابات ناشئا عن خصوص تعدى اشراف الرومانيين عليهم بل نتج ايضا مما سلكه الاهالى من الفتن والدسائس وذلك انه فى القرن الرابع عشر اضطر البابات الى أن يهاجروا من مدينة رومة ويجعلوا دار اقامتهم مدينة اوينيون فمكثوا بها سبعين سنة وكان اهل رومة يرون انفسهم انهم من نسل اناس فتحوا جميع الاقطار وشرعوا فيها القوانين والاحكام فاستنكفوا

مطلب ابطال شوكتهم ايضا بقبح الاهالى من (سنة ١٣٠٨) الى (سنة ١٣٧٧)

أن يدخلوا تحت طاعة اناس سلم لهم البابات زمام حكومة تخمهم وكانوا قد تصدوا عدة مرات لمناقضة اوامر البابا الذى كان يحكم وقتئذ وكانوا يستعدون لاشهار السلاح بمجرد ما يظهر لهم انه ستحصل حادثة لا تكون على وفق مرادهم او امر يعود عليهم بادنى ضرر لاجل الذب عن حقوقهم وحمايتها ثم ظهر فى ابتداء القرن الرابع عشر رجل يقال له نقولة ريانزى وكان مجهول النسب صاحب فتن ودسائس جامعا بين الطمع والفصاحة والجسارة فأثار الفتنة بين اهل رومة فطردوا منها جميع الاشراف وجعلوا حكومتها جمهورية واتخذوه رئيسا عليها وجعلوا له الكلمة العليا لكن طيشه ورداءة سلوكه اسرعا فى ابطال هذه الحكومة الجديدة واعادة الحكم الاول وكان كلما وقعت فتنة عادت بالضعف على احكام البابات واقتدارهم وشوكتهم وبالجملة فكان طيش الاهالى وفتنهم وميل الاشراف الى الاستقلال سببا فى حصر شوكة البابات وتضييق حكومتهم فلما ظهر اغريغوار السابع ومن بعده من البابات ارباب المطامع نجزوا ما عجز عنه سلفهم من المشروعات العظيمة التى جعلتهم مخوفين عند سائر الملوك والاعبراطرة ولم يكن ذلك ناشئا عن قوة عسكرية لهم ولا عن اتساع شوكتهم وانما نشأ عن خوف ملوك اهل اوروبا من قدحهم فى ديانتهم وعن دسائسهم وخداعاتهم واستعمالهم فى تقويم أناس يكونون اخصاما لاى ملك ارادوا اذلاله او اهلاكه

مطلب
صيرورة البابات ملوكا ارباب شوكة قوية باعانة اسكندر السادس وجاليوس الثانى لهم

وقد اخذ البابات فى مشروعات عديدة ابتدأوا بها من تعدى على المدن القريبة و يقمعوا اهل رومة ويزجرهم عن الفتن والدسائس لكن مكثت هذه المشروعات مدة مستطيلة لم تحدث شيأ حتى ظهر اسكندر السادس فاذل بسياسته الخداعية المذمومة طائفة الاشراف وأهلك اعاظمهم وجعل البابات مستقلين بالاحكام فى دوائرهم ثم جاء بعده جاليوس الثانى فاضاف بكثرة طمعه الى التزامات الباب التى بايطاليا التزامات اخرى كبيرة فبذلك صار البابات على التدريج ملوكا دنيويين اولى شوكة قوية حتى انهم فى عصر شرلكان كان لهم من الاراضى والالتزامات اكثر مما يكونه فى عصرنا هذا

مطلب
خلل حكومة البابات

وكانت بلادهم فى الزراعة وكثرة الاهالى احسن مما هى عليه الآن وكان اهم غرامات وجرآءم على جميع اقسام اوربا فكانوا يفوقون بها على ما جاورهم من الممالك فى الثروة والغنى وكانت تحمل فى وسعهم التصدى الى مشروعات عظيمة وتسهل عليهم تمييزها فى اسرع وقت

ومع ذلك فكانت حكومة البابات فى الواقع صالحة لاجرآء الفتاوى والاحكام الدينية اكثر من صلاحيتها لاجرآء لمصالح الملوكية وحفظ الشوكة الدنيوية فكانت قوانين حكومتهم فيما يخص المصالح القسيسية او الدينية ثابتة مستمرة لا تتغير فكان كل من تولى من البابات يجرى على سنن من قبله لان التربية والعوائد القسيسية كانت متسلطنة فيهم بحيث كانت طبيعة كل انسان منهم تذهب الى ما يوافق طبيعة الوظيفة القسيسية وكان كل شخص منهم يؤثر مصلحة طائفة القسيسين على مصلحته الخصوصية وهذه الوظيفة وان كانت تتغير الايدى القابضة على زمامها لم يكن يعتريها تغيير ولا تبديل فى كيفية جريانها فكانت الادارة القسيسية دآئما على نهج واحد بخلاف غيرها من الحكومات فانها كانت حينئذ مضطربة لا تستقر على حالة واحدة فى قوانينها وتدبيراتها وكان هذا الثبات وعدم التغيير هو منشأ نجاحها فى مشروعاتها العظيمة التى لا تصل اليها اطماع غيرهم من الناس

ولكنهم لم يسلكوا هذا المسلك المستقيم فى حكوماتهم الدنيوية بل كانت كغيرها من الحكومات الاخرى فى تغير المقاصد والمشروعات على حسب اعراض متوليها ومصالحه الخصوصية ولما كان من القوانين المقررة ان لا يقلد البابا منصبه الا اذا طعن فى   طعنا فيما كان ولاة هذا المنصب يتغيرون عاجلا ولا يمكثون الا مدة قصيرة ومن ثم كان وفور حزمهم واهيا لا يضاهى غيره فى الحكومات الاخر وذلك ان كل من تولى من البابات كان يشتغل فى مدة حكومته القصيرة بمصلحة نفسه وكان لا يملى آماله الا بما فيه منفعة نفسه وعائلته غير ملتفت لمصلحة العامة وفى الغالب كان من يتولى

بعده لا يبتغى الا بنقص ما رتبه سلفه

ولما كان القسيسون ماشين فى لصلح ومتعودين من صغرهم على هذه السياسة التى امكن بها لديوان رومة أن يوسع دائرة حكومته الدينية ويحافظ عليها كان البابات يسلكون مسلك تلك السياسة ايضا فى مصالحهم الدنيوية فكانوا مستعدين لان يسلكوا فى جميع افعالهم طرق التحيل والخداع اكثر من استعدادهم لان يسلكوا فيها مسلك القوة العسكرية فديوان البابا هو اول من جعل الخداع والتحيل واسطة فى تمشية المصالح واصلا يعتمد عليه فى ذلك حتى انه فى القرن السادس عشر صارت رومة تعتبر كانها اعظم مدرسة يتعلم فيها هذا الفن

وحيث كانت الوظيفة القسيسية لا تأذن للبابات أن يكونوا قائدين للجيوش ولا ان يحكموا بانفسهم العساكر التى فى اراضيهم لم يمكنهم حمل رعاياهم على حمل الاسلحة فكانوا لا يستعملون فى جميع حروبهم سواء كانت لمحض التغلب او للمدافعة عن انفسهم الا عساكر مستأجرة

ومن المعلوم ان الملوك الذين لا يعقبون ذرية ترث شوكتهم وممالكهم لا يهتمون بشأن المصالح العامة كغيرهم ممن له ذرية تخلفه فى ملكه ولما كانت مدة البابات قصيرة كما سبق ولم يكن لهم ذرية تعقبهم كانوا ينتهزون فرصة هذه المدة لمجرد مصلحة انفسهم ولا يعلقون آمالهم الا بتحصيل الاموال وجمعها ولا يلتفتون الى تعميم دولتهم وتحسينها ثم قد احدثوا بعض مبانى للزينة والمباهاة كى يبقى بعدهم آثار تدل على علو شأنهم وعظم منصبهم وربما كانت مقتضيات الاحوال تلزمهم باحداث امور نافعة لكن ذلك لم يكن الا لتسكين غضب اهل رومة وقطع السنتهم . ولم يخطر ببالهم أن يقصدوا الى مصلحة عامة يبقى نفعها الى بعدهم فكانت مملكة مارى بطرس (اى مملكة البابات) اقبح ممالك اوربا بالادارة واردأهم حكما ولو كان فى البابات انسان عفيف كريم النفس لا يمكنه فى مدة حكمه مداواة داء مملكتهم الذى نشأ من الادارة القسيسية وجبر ما لحقها من الخلل الذى اضر بها لكن بقى هذا الداء من عهد

دوامه وصار يأخذ في الازدياد من قرن الى آخر حتى ادى الى انقراض دولتهم بعد تقدمها وازديادها

مطلب
الفوائد التي اكتسبها البابات من جمعهم بين الشوكتين الدينية والدنيوية

وكان في حكومة ديوان رومة امر غريب جدير بالتنبيه عليه وهو انه لما كانت الرياسة الدينية والرياسة الدنيوية مجتمعتين في رئيس واحد كانت تعين احداهما الاخرى في جميع المشروعات وكان بينهما من الاتحاد والارتباط ما لا يمكن معه انفصالهما في الخارج بل ولا في الذهن فكان اذا اضطر ملك ما كان الى معارضة البابا في مشروعاته الدنيوية من حيث كونه ملكا دنيويا منعه من القدوم على ذلك ما هو قائم بنفسه من اعتقاد وجوب احترامه حيث انه رئيس الكنيسة وخليفة عيسى (عليه السلام) واذا اتفق انه قدم على المعارضة والمشاجرة كان ذلك مع انكسار نفسه ونفورها خشية ان تفضي به المعارضة الى التوغل في الاساءة والاذية وكان اذا ظهر له من البابا ادنى ميل الى الصلح بادر اليه واجتهد في حصوله بل في الغالب يكون هو الطالب له من اول الامر ولو كانت شروطه صعبة جدا فكان علم البابات ارباب الطمع بهذه المنفعة هو الحامل لهم على التصدي الى مشروعات خارجة بحسب الظاهر عن حد العقل فمن ثم كانوا يعتقدون ان ما لا تكفي شوكتهم الدنيوية في تصييره من هذه المشروعات يكفيهم فيه ما لهم من السهولة والشرف باحترام الناس لمنصبهم الديني ولكن لما كثر فيما بعد اختلاطهم وتداخلهم في مشاجرات الملوك وفي حروب اوربا وكان ذلك لا لنفعهم او لاعانة غيرهم انخمد ذلك الاحترام في النفوس حتى اضمحل بالكلية وسقطوا من اعين الناس كما ستقف عليه في عدة وقائع نذكرها في تاريخنا هذا

مطلب
في بيان قوانين جمهورية البنادقة ومنشئها وتقدمها

وكانت جمهورية البنادقة بعد الباب اقوى ممالك ايطاليا ارتباطا بسائر اوربا ولا يخفى ان انعقاد هذه الجمهورية كان في مدة اغارة الهونيين في القرن الخامس وان تخت مملكتها كان موضوعا وضعا غريبا حيث جعلوه في الجزائر الصغيرة التي في جون البنادقة وان صورة قوانين ادارتها كانت اغرب من ذلك واذا لم نعتبر في حكومة البنادقة الا ما يتعلق بمصالح الاشراف

وخصائصهم

وخصايصهم فنقول ان القوانين المشروعة فى هذا الشأن هى اعظم ماشرع
من القوانين وان وظائف الشورى والتشريع واجراء الاحكام كانت موزعة
على وجه حسن بحيث تعد من ملح السياسة واما بالنسبة الى ما يتعلق
بالرعايا المنقادين لقوانين تلك الحكومة فلا يشاهد فيها الا حكومة
ارستوقراطية مشتملة على التعسف والغرضيات حيث تجعل الحكومة
تماميها فى قبضة عدد يسير من اعضاء الجمهورية لاذلال بقية الناس
وظلمهم

مطلب
عيوب حكومة هذه الجمهورية لا سيما بالنسبة الى ترتيباتها العسكرية

ولا يخفى ان مثل هذه الحكومة لا تخلو عن الغيرة والحسد فان اشراف البنادقة
كانوا لا يعتنون بتعليم ابنائهم فى حمل الاسلحة وانما كانوا يشغلونهم
على تعلم فنون التجارة والصنائع وكانوا يستخدمونهم فى الورش وفى الملاحة
ولا يدخلونهم فى العساكر الى ان كانوا يستأجرونها فكانت عساكر الجمهورية
كلها مستأجرة من الاجانب وكانت رياسة تلك العساكر لا تعطى للاشراف
خوفا من أن يصير لهم فى العسكرية شوكة تضر بحرية العامة وخشية انهم
اذا تعودوا على الرياسة وتمكن حبها من قلوبهم يشق عليهم عند انقضاء
الحرب أن يتركوا تلك الاستعدادات وينقادوا للحكام ولما كانت الجمهورية
تقلد العسكرى لاجنبى كان هذا ملائما لاطماع الرؤساء الايطاليين
الذين كانت تجارتهم فى الحروب والغزوات حيث كانوا يجمعون العساكر
ويؤجرونها للممالك المختلفة مدة القرن الخامس عشر والسادس عشر
ولكن حيث كان الحامل للجمهورية على ارتكاب مثل ذلك انما هو الارتياب
وسوء الظن حملهم ذلك ايضا على عدم ائتمان تلك العساكر الاجنبية فبعثت
مشورة السنت اثنين من الاشراف ليكونا مع العساكر فى وقت الحرب وكانا
يسميان عندهم باسم بروويديتور وهما شبيهان برسولى الحرب الذين رتبهما
الفرنساويون فى الاعصر الاخيرة وكانت وظيفتهما ملاحظة حركات رئيس
الجيش وملازمته فى سائر افعاله

ومن المعلوم ان الجمهورية التى تسوس نفسها بمثل هذه القوانين مدنية كا

او عسكرية لا تصلح لفتح البلاد فكانت لا تنجح هذه الجمهورية في مشروعاتها الحربية مادامت رعيتها ممنوعة من حمل السلاح وشرفاؤها محرومة من رياسة العساكر وكان ينبغي لها أن تتعظ من هذا الامر وتعلم ان الغرض الاصلي من الحكومة انما هو حفظ الدولة والامن العام غير ان الجمهوريات وكذلك الملوك هم دائما عرضة لتسلط الطمع فيهم وتمكنه منهم فان جمهورية البنادقة شهدت عيوب حكومتها وقوانينها ولم تلتفت الى مداواتها وعلقت آمالها بالفتوحات ولكن النكبة التي حلت بها في الحرب عقب عصبة كبريه دلتها على انه لا تسلك امة ايا ما كانت مسلكا يخالف كيفية حكومتها وادارتها الا وحصل بها النكال والوبال

مطلب
عظم قوتها البحرية الملاحية

وقد استبان من ذلك ان شوكة جمهورية البنادقة لم تكن ناشئة من قوة العسكرية وانما نشأت من تجارتها ومهارتها البحرية وذلك ان هذين الامرين كانا ناشئين من الغيرة والجد وليس فيهما ما يعود بالضرر على الحرية فكان الاشراف متفرغين بكليتهم الى التجارة والخدمة في السفن الحربية حتى دخلوا في زمرة التجار والقبطانات والدوائر وظهرت مهارتهم في التجارة والصنائع ووسعوا دائرة سلوكهم وقوتهم البحرية

مطلب
اتساع تجارتها

وصارت تجارات جمهورية البنادقة كثيرة الارباح حتى ان جميع ممالك اوروبا كانت تحتاج اليها وتأخذ منها بضائع البلاد المشرقية ومحصولات ما احدثته من الورش التي تصنع منها على وجه لم يوجد له نظير في سائر ممالك اوروبا فما اكسبت هذه التجارة البارعة تلك الجمهورية اعانات جسيمة ستر عيوب قوانينها في تقدم ذكرها وجعلت في وسعها أن تقوم بمصاريف جيوش عديدة تكافي جيوش عدة ممالك ولا تكترث بجيوش اعظم ممالك اوروبا حتى انها في مدة الحرب الذي وقع بينها وبين الملوك الذين كانوا في عصبة كبريه جمعت من الاموال مبالغ جسيمة جدا خارقة للعادة بحيث لو وجدت في عصرنا هذا لتعجب منها غاية العجب ففي مدة ما كان ملك فرانسا يقضي ما عليه من فائض ما كان قد اقترض من اقتراضه بالربح في كل مائة اربعون وفي مدة ما كان الامبراطور مكسيميليان

الشهير لاموال عنده ويبعث عمن يقرضه شيأ ولا يبعد وجدت هذه الجمهورية
من يقرضها جميع ما تحتاجه بفائض يسير وهو خمسة على كل مائة

واما قوانين فلورنسة فكانت مباينة بالكلية لقوانين البنادقة لانه تسلط فيها عدم الضبط والقلق التي تنشأ عادة عن الحكومة الدمقراطية اى جمهورية الاهالي بخلاف البنادقيين فكانت جمهوريتهم ارستوقراطية اى منوطة احكامها بالاشراف فهي صعبة لا ينشأ عنها ذلك ولكن كانت فلورنسة تجارية لا حربية الا ان قوانينها كانت مساعدة للتجارة وكان اهلها يميلون فيها بالطبع حتى ان كوم دومديس الاول المبالغ في الثروة درجة عاليه بما اكتسبه بعشقه بالتجارة وكان كريم النفس سخي اليد ذا خصال حميدة صار له شأن عظيم عند اهل بلاده وتأثير كبير عند ارباب مشوراتهم فبذلك آل امره الى أن تقلد رياسة جمهورية فلورنسة من غير ان يحدث ادنى تغيير بل ابقى الدواوين وغيرها على حالها تحت ادارة من كان عليها من الحكام المنتخبين لقدم عهدها وشهرتها وكان ذلك على حسب الاصول الجارية عندهم فلم تتغير صورة الحكومة الجمهورية ولم يخرجه ذلك عن كونه من آحاد الاهالي

ثم انتقل الى ذريته من بعده شيء عظيم من شوكته وكانت حالة فلورنسة السياسية في معظم القرن الخامس عشر غريبة جدا فكانت صورة حكومتها في الظاهر باقية على حالها بلا تغيير وجميع الاهالي يوالون بيت ويميلون اليه كل الميل حتى انه في بعض الاحيان ظهرت منهم حمية عظيمة في الذب عن مزاياهم ولكنهم اذنوا لتلك العائلة المخصوصة أن تتولى ادارة مصالحهم وأن تجري الاحكام على وجه بحيث تكاد أن تكون مستبدة بالتصرف حتى كأنها تقلدت بالشوكة الملوكية

ثم ان غيرة عائلة مديسيس وولوع اهل فلورنسة بالتجارة سهلا على الجمهورية أن تجعل قواعد العسكرية مغمورة بالقوى العسكرية في سائر دول ايطاليا وكان اغلب عساكر هذه الجمهورية التي تستعملها في حروبها وغزواتها

من العساكر المستأجرة التي كان يأتي بها اليهم الرؤساء الايطاليانيون الذين تقدم ذكرهم بل كانت هذه الجمهورية تأخذ من هؤلاء الرؤساء على طرفها

مطلـــــب في قوانين مملكة نابلي

وكانت الحكومة الالتزامية في مملكة نابلي التي اضيف اليها حكم جزيرة سيسليا اكثر عيوبا من حكومات ممالك اوربا في العيوب والاختلال ثم زادت عيوبها واكثر خللا بسبب امور بالغة لا تصدق مما حصل لهذه المملكة من الفتن العديدة والتقلبات العديدة وما كانت وراثة هذه المملكة مضطربة لا تثبت على حال واحد كان كرسيها في الغالب مشغولا بملوك اجنبيين وزال ما كان في قلوب اشرافها لعائلات ملوكهم من الارتباط والاحترام اللذين حصلت بهما الممانعة في كثير من الممالك الالتزامية عن الحقوق و امراء الملوكية وحمايتها من تعسفات البارونات وزيادة على ذلك كان من يدعي ان له حقا في تاج المملكة ويطمع في حيازته يراعي اغراض من يحتاج اليه من البارونات الذين يرى ان اعانتهم له امر ضروري لا بد منه فيزيد في خصائصهم ويمنحهم جهات وارضا ومقاطعات واسعة ويعينهم على مظالمهم الجائرة حتى ان الملك المتولي لا يمكنه أن يزيد شوكته او ينقص شوكة اشراف الارض الجائرة الحائزين لوجود من ينازعه في منصبه ويدعي استحقاق التاج الملوكي

فلمثل تلك الاسباب صارت مملكة نابلي اكثر ممالك اوربا فتنا وتقلبات وصار ملوكها من الملوك شوكة ثم ان الملك فرديننده الاول الذي كان تولى الحكم (سنة [illegible]) احدث اسباب بغض الاشراف واذلالهم بالتدريج ثم جاء ولده من بعده وظن انه يمكنه اذلالهم من اول وهلة مرة واحدة فاهلك اقوى البارونات شوكة واعلاهم كلمة معتقدا ان ذلك يسهل عليه تنفيذ غرضه وتجاسر على ارتكاب هذا الفعل السيء المذموم الذي تكلم عليه المؤرخون ولم يترتب عليه ما كان يأمله من اذلالهم بل كان سببا في اضطرام نار غضب الاشراف وشدة غيظهم وتقوية شوكتهم وعظم هولهم حتى ينبغي ان يكون

ذلك

ذلك أقوى أسباب سرعة وسهولة فتح الملك كرلوس الثامن لمملكة نابلي

مطلب ما وقع من المشاجرات في شأن وراثة تاج هذه المملكة (سنة ١٢٥٠)

وقد وقع في القرن الثالث عشر مشاجرات كبيرة وحروب كثيرة في شأن وراثة تاج حكومتي نابلي وسيسليا ترتب عليها خراب هاتين المملكتين مدة طويلة وذلك انه لما مات الامبراطور افردريق الثاني وكان له ولد من الزنا يقال له مانفرد وذبح هذا الولد اخاه الامبراطور كوراد بن وجلس محله على سرير مملكة نابلي وكان البابات يكرهون عائلته الملوكية كراهة شديدة فلم يكفهم عدم اعترافهم لهذا الولد بالملك بل اجتهدوا في البحث عن أن يجدوا له ضدا ذا شوكة قوية يخلعه عن الملك واتفقت آراؤهم لأجل هذا الغرض على كرلوس قونتة أنجو اخي سنت لويز ملك فرانسا وقلدوه حكومة نابلي وسيسليا لكونهما من التزامات الكنيسة فحصل لكرلوس النجاح في مشروعته التي عزم عليها وذلك ان مانفرد قتل في واقعة كانت بينهما وجلس كرلوس على سرير المملكة ولكنه بعد ذلك بيسير دنس هذا النصر الذي اكتسبه حيث افضى به الظلم الى ان امر الجلاد بقتل الامير كورادين وكان آخر عائلة سوابه ووارث تاج الملك وقد احرص هذا الامير الشاب عند موته على حفظ مقامه وعلو شأنه بحيث لم يظهر منه ادنى تذلل فكان بذلك يستحق ان لا يعامل هذه المعاملة الصعبة وذلك انه وصى وهو تحت الخرطة بوراثة الملك لبطرس امير اراغون الذي صار فيما بعد ملك اراغون وكان متزوج بنت مانفرد ثم نزع الكفوف التي كان يلبسها في يديه والقاها بين الاهالي وترجى منهم أن يسلموها لبطرس المذكور لتكون امارة شاهدة له بان هذا الامير وهب له حقه في التاج فحمله الطمع وحب الانتقام في نظير الاساءة التي لحقت المنصب الملوكي وهي قتل الامير كورادين على أن يشهر السلاح ليستولي على المملكة ومن ذلك الوقت اضطرمت نيران الحروب والمشاجرات بين عائلتي اراغون وانجو في شأن تاج نابلي ومكثتا على ذلك نحو قرنين (سنة ١٤٣٤) وفي اثناء تلك المشاجرات والفتن المشحونة بالخطايا والمآثم التي لم يذكر مثلها المؤرخون في شأن مملكة اخرى كان كرسي نابلي

دائرا ما بين امراء هاتين العائلتين المتعاديتين ثم استقر الكرسى بعد انقضاء حروب عديدة طويلة سفكت فيها دماء كثيرة الى عائلة اراغون ثم انتقل الى فرع رابع من فروع تلك العائلة

مطلب
ادعاء كل من ملوك فرانسا واسبانيا المملكة نابلى
(سنة ١٤٩٤)

ولكن مازالت ذرية ملوك عائلة انجو باقية لم تنقرض وتطلب حقها فى مملكة نابلى ثم بعد قونته مينة وبرونسه الذى هو وارث تلك العائلة انتقل الادعاء وطلب الحق فى تلك المملكة للويز الحادى عشر ومن بعده من ملوك فرانسا فقام كرلوس الثامن حبا بالأبهة كما اسلفناه فانفذ جيشا جرارا عازما على اثبات حقه فى المملكة المذكورة وكان هذا الجيش اكثر قوة وعددا من الجيوش التى استعملها غيره من الملوك الذين ورث عنهم هذا الحق ومن المعلوم ان نجاحه فى تلك العروة كان على وجه السرعة وكذلك قصر مدة استيلائه على المملكة وذلك ان امردريق وهو وارث فرع الرابع من ملوك اراغون عاد عاجلا الى الكرسى الذى طرده منه كرلوس الثامن فتحزب كل من لويز الثانى عشر ملك فرانسا وفرديننده وكان من عائلة اراغون لاسباب متباينة على امردريق لكون كل منهما يرى هذا الملك انما استولى على مملكة نابلى ببعض التعدى والغصب واتفقا على اقتسام المملكة بينهما

(سنة ١٥٠١)

فلما رأى امردريق انه لاطاقة له على مقاومة هذين الملكين المتحزبين عليه لكونهما اقوى منه تخلى لهما عن مملكة نابلى فبعد أن كان لويز وفردينند متفقين ومرتبطين ببعضهما لاجل فتح تلك المملكة وقع بينهما الفشل والشقاق عند اقتسامها واستحالت معاهدتهما عداوة وترتب على هذا الشقاق الحرب بينهما وقد ظهر فى تلك الحرب رجل يقال له عونسلودوكوردو ومعارفه العسكرية التى قل أن يوجد مثلها اوجبا استحقاقه لقب الجنرال الاعظم فطرد الفرنساوية عن سائر ما كان لهم فى مملكة نابلى وجعل فرديننده ملكا عليها من غير منازع ولكن كان نجاح الجنرال المذكور مبنيا من بعض الوجوه على المخادعة والخيانة التى لا تصدر الا من كل جبان وتضيع حسن السيرة مادامت متذكرة ومرسومة فى الاذهان ثم بعد موت

فرديننده

فرد بندورثة اسمه شرلكان فى مملكة نابلى وممالك اسبانيا وحقه فى مملكة نابلى وان لم يكن خاليا بالكلية عما يوجب المنازعة والمعارضة الا انه لا اقل من مساواته لحق الفرنساويين فيها

مطلب حالة سياسة دوقية ميلان

ثم ان دوقية ميلان لم يكن فى قوانينها وترتيباتها السياسية شئ جدير بالذكر هنا غير انه لما كانت وراثة هذا الاقليم الخصب هى السبب فى اغلب الحروب التى حصلت فى بلاد ايطاليا مدة حكومة شرلكان وجب الوقوف على اصل هذه المشاجرات واختبار دعاء المدعين لحكومة هذا الاقليم فنقول

مطلب المشاجرات التى حصلت فى شأن وراثة دوقية ميلان

انه فى مدة المشاجرات الطويلة التى سفكت فيها دماء كثيرة فى ايطاليا وكان منشؤها حزبى غوويلفس وجيبلينس الشهيرين اكتسبت عائلة ويسكونتى نفوذ الكلمة عند اهل ميلان وذلك ان هذه العائلة لما كانت مرتبطة بالحزب الامبراطورى وهو حزب جيبلينس كافأها الامبراطور على نصحها فى خدمته بمنصب النيابة عنه فى بلاد ايطاليا وجعل ذلك مستمرا فيها وانعم عليها امبراطور آخر حيث جعلها دوقات مدينة ميلان واقطع لها اراضيها التزاما متوارثا ولما كان يوحنا ملك فرانسا قد الجاءه ما حل

(سنة ١٣٥٤)

بحكومته من المشكلات العديدة الى البحث عن وسائط يحصل بها من الاموال ما كان محتاجا اليه رضى بتزويج احدى بناته ليوحنا غلياس من عائلة

(سنة ١٣٩٥)

ويسكونتى وكان اول دوق من دوقات ميلان وكان قد اعطى الملك المذكور مبالغ جسيمة من الاموال ورزق منها بنت يقال لها والنتينه ويسكونتى وهى التى تزوجها ابن اخيها لويز دوق اورليان اخو كرلوس السادس الذى لم يكن له اخ سواه وقد اشترط فى وثيقة نكاح هذه البنت (والنتينة) التى اقرها البابا ان دوقية ميلان عند انقراض سلالة الذكور من عائلة ويسكونتى تؤول الى ذرية والنتينة ودوق اورليان فلما مات فيليبش مارى (سنة ١٤٤٧) وهو آخر الورثة من عائلة ويسكونتى ادعى هذه الدوقية بعده جماعة يزعم كل منهم ان له الحق فى وراثتها فاثبت كرلوس دوق اورليان ان له الحق فيها بموجب وثيقة نكاح امه والنتينة ويسكونتى واظهر الفونس

ملك نابلى وثيقة تشهد له بان له الحق فيه بموجب وصية فيليبش مارى له بها وقال الامبراطور حيث انقرضت سلسلة المذكور من عائلة ويسكونتى وجب ان ترد هذه الدوقية لمالكها الاصلى فتضم الى الامبراطورية لكن لما كان اهل ميلان يميلون الى الحرية لانها كانت منتشرة فى سائر دول ايطاليا لم يرضوا بواحد منهم وجعلوا حكومتهم جمهورية

ولكن فى اثناء تداعى هؤلاء الملوك وتنازعهم فى وراثة هذه الدوقية صار ما كانوا يتنازعون فيه غنيمة لرجل لم يكن يتوهم فيه انه يصدر عنه منازعة فى هذا المعنى وذلك أن ياكمى سفورس بعد ان كان من آحاد الفلاحين صار بمعارفه وشجاعته من اعظم الرؤساء الايطاليانيين واقواهم شوكة واعتبارا وكان له ولد من الزناء يقال له فرنسيس سفورس خلفه من بعده على رياسة الطائفة العسكرية التى كانت تحت لواء ابيه وتزوج بنت من زناء آخر دوقات ميلان مبنى على هذا الاصل الواهى ما زعمه من ان له حقا فى دوقية ميلان ومازال يعضد دعواه بقوته ومهارته العجيبة حتى استولى على كرسى هذه الدوقية وصار يسلك فى احكامه مسالك الحكمة والحزم حتى أنسى اهل ميلان أن حقه فيها كان واهيا ثم انتقلت بعده لابنه ومنه الى حفيده من غير أن يعارضهما احد فى ذلك الا ان الاخير قتله اخو جده المسمى لودوويق وكان يلقب بلقب مور وتغلب على دوقية ميلان واثبت حقه فيها بتقليده بها من الامبراطور مكسيميليان (سنة ١٤٩٤)

وكان لويز الحادى عشر يميل الى ما كان فيه اذلال اقاربه من الامراء ويستحسن من فرنسيس سفورس معارفه السياسية فمن ثم لم يأذن لدوق اورليان أن يسعى فى اثبات حقه فى دوقية ميلان وزيادة على ذلك حصل بين لودوويق مور وكرلوس الثامن ملك فرانسا ارتباط اكيد مكث معظم مدة هذا الملك فبقيت حقوق عائلة اورليان موقوفة فلما استولى لويز الثانى عشر دوق اورليان على مملكة فرانسا اشتغل باحياء حقوق عائلته فى دوقية ميلان ولم يكن فى وسع لودوويق المذكور مقاومة هذا الخصم

القوى الشوكة ملبت منه الدوقية المذكورة فى زمن قايل وتقلد منصب لويز الثانى عشر ودخلها باحتفال وموكب عظيم واسر لودوويق فمن قايل من الزمان خانه السويسريون الذين كانوا متأجرين اذ ذاك عنده فى العسكرية واسروه وبعثوه الى فرانسا فسجن فى قلعة لوش ومات فى السجن من غير أن يرثى احد لحاله

ولكن حصلت واقعة من الوقائع الغريبة التى كثر ذكرها فى تاريخ ميلان ترتب عليها تغلب مكسيمليان سفورس بن لودوويق مور على دوقية ميلان (سنة ١٥١٢) ولكن كان فرنسيس الاول الذى خلف لويز الثانى عشر على غاية من الكبر والطمع بحيث لم ترض نفسه أن يتلقب باسم ولى دوق فأن دوقية ميلان فمجرد جلوسه على كرسى فرانسا تأهب لاخذ الدوقية المذكورة وكان حقه فيها اقرب للحق والحلال من الحقوق التى كان يدعيها غيره فى هذه الدوقية ويعارضه بها

ولا فائدة فى الكلام على كيفية حكومة جنوبرة وبرمه ومودين وغيرها من الدول الصغيرة بايطاليا وان كانت اعمالها تذكر فى اثناء تاريخ شرلكان لانها كانت ضعيفة الشوكة واما ما حصل لها من الوقائع والتغيرات فلم يكن من نفسها وانما الاولى أن ينسب ذلك الى الملوك الذين اغاروا عليها وداهموها عنها الا الى شئ من سياساتها وقوانينها

مطلب
قوى اسبانيا وحكومتها

واما اسبانيا فكانت من اعظم الممالك الموضوعة أمام جبال ألبه وحيث انها هى المملكة الوراثية للملك شرلكان وهى منشأ قوته وثروته كان من المهم معرفة قوانينها السياسية معرفة تامة لاجل الوقوف على حقيقة اسباب الحوادث التى حصلت فى حكومة هذا الملك ومناسباتها بعضها فنقول

مطلب
فتح الونداليين لبلاد اسبانيا

ان الونداليين والغوتيين الذين دمروا دولة الرومانيين وازالوا شوكتهم من بلاد اسبانيا ارتبوا فى هذه البلاد كيفية جديدة فى حكومتها حيث ادخلوا فى تلك البلاد عوائد وقوانين تشبه بالكلية العوائد والقوانين التى ادخلتها

مطلب تاريخ اغارة العرب على اسبانيا وهو (س ٧١٢)

القبائل المنصورة الشمالية فى باقى بلاد اوربا فما قليل تكاملت الحالة المدنية عند سكان اسبانيا مستعدين بصعودها و تقدمها على التدريج كما حصل فيما عداها من البلاد الافرنجية ولكن اغارات العرب على تلك البلاد اوقفت على حين غفلة هذا التقدم و التكامل و لم يمكن للقوطيين مقاومة هؤلاء الامم الذين تقوت شجاعتهم بالحمية الدينية فتغلبوا على مملكة اسبانيا فى اسرع وقت كما هو عادتهم فى غزواتهم وادخلوا باستيطانهم فيها دين الاسلام واللسان العربى و الاخلاق المشرقية والتولع بالفنون والرفاهية و الزينة التى كان الخلفاء الاسلاميون شرعوا فى استعمالها فى دولهم

ثم ان من ابى من اشراف القوطيين ان ينقاد للعرب الفاتحين فر الى جبال استوريس واستوطن بها لانها صعبة المرتقى ولا يمكن الوصول اليها ورضوا أن يعيشوا بها على دين النصرانية وحكومة قوانينهم القديمة وانضم اليهم عدد عظيم من ابطال ابناء اوطانهم وغزوا جميعا احزابا صغيرة كانت على حين غفلة تغير على قبائل العرب القريبة منهم ولكن كان قصدهم بتلك الاغارات القصيرة العديدة انما هو مجرد السلب و النهب والانتقام لا فتح بلادهم واستعادتها ومع ذلك فازالت غزواتهم وتتسع مقاصدهم شيأ فشيأ ورتبوا بينهم حكومة منتظمة وعزموا على توسيع اراضيهم واستمروا على تلك الاغارات مع حمية دينية تتزايد وتتقوى دائما بغيرتهم على دينهم وتلهفهم على الانتقام وتعلق آمالهم بانقاذ بلادهم من الظلم والجور فكانوا اذا شرعوا فى شئ يسلكون فيه مسالك الشجاعة التى هى من شأن من لا شغل له الا الحرب والقتال ولا معرفة له بامر بل ثبات القلوب او فسدها واما العرب فكانوا على خلاف ذلك فقد فقدوا بالتدريج كثيرا من الوسائل التى كانت سببا فى نجاحهم وذلك انهم استقلوا بالكلية عن خلفائهم واهملوا المراسلات المتتابعة بينهم و بين ابناء وطنهم بافريقية وكانت سلطنتهم فى اسبانيا منقسمة الى عدة ممالك صغيرة و بالجملة فالفنون التى كانوا يمارسونها واكسبتهم الرفاهية

وارفاهية

والرفاهية اضعفت جزأ من قواهم العسكرية و نقصت جيشهم الحربية ومع ذلك كانوا شجعانا ولم يزل عندهم من الوسائط ما يكفيهم حتى انه على حسب ما في تواريخ اسبانيا مضت ثمانية قرون وهم في حروب متتابعة بلغت وقائعها ثلاثة آلاف وسبعمائة ولم يحصل أن ادنى ممالكهم انقادت للنصارى

مطلب
انضمام ممالك اسبانيا الى بعضها
(سنة ١٤٩٢)

ولما كانت فتوحات النصارى لبلاد اسبانيا ثابتا واخذهم اياها من ايدى المسلمين واقعة في ازمنة مختلفة وكانت من رؤساء عديدين استبد كل منهم بمملكة من تلك البلاد مستقلة عما عداها من مجموع البلاد التى اخذوها من اعدائهم فبذلك صارت اسبانيا منقسمة الى ممالك متميزة عن بعضها بقدر ما كان فيها من الاقاليم وصار كل ملك يختار له مدينة عظيمة من مدنها ويجعلها دار اقامته ويظهر فيها ابهة المنصب الملوكى ثم بعد عدة سنين بواسطة التغيرات التى تنشأ عادة عن الزواج والوراثة والفتح آل امر تلك الممالك الصغيرة الى أن انضمت الى المملكتين القويتين وهما مملكة كاستيلة او قسطيلة ومملكة اراغون ثم تزوج فرديناند ملك اراغون بالملكة ايزابيلا التى ارتقت الى كرسى مملكة قسطيلة حسب الرغبة فيها فبذلك انحصرت ممالك اسبانيا كلها في عائلة واحدة

مطلب
بقاء قوانين اسبانيا وعوائدها القديمة مع ما حصل فيها من التقلبات
(سنة ١٤٨١)

ومن ذلك الوقت شرعت قوانين اسبانيا السياسية في أن يكون لها كيفية منتظمة ثابتة لا تتغير وبذلك تيسر لنا معرفة حقيقة حكومتها لنبين تقدم قوانينها وعوائدها بيانا شافيا فنقول انه مع ما حصل فيه من التقلبات العجيبة والمشاق الغريبة التى كابدتها مدة مديدة تحت اسر الاسلام لم يتغير ما كان ادخله فيها الوندليون والقوطيون من العوائد والاخلاق لانها كانت متمكنة من قلوبهم ملائمة بالكلية لحكومتهم حتى انه في جميع الاقاليم التى اخذها النصارى من ايدى الاسلام كانت احوال الناس وكيفيات قوانينهم السياسية باقية على حالة قريبة مما في غيرها من اوربا وذلك أن العوائد القديمة التى كانت على الاراضى كان معمولا بها وكانت الاقضية والاحكام

باقية على ما كانت عليه وكذلك مراتب الاشراف وخصوصيتهم ولم تزل
منشورة العموم باقية على شوكتها وكان لحفظ القوانين الالتزامية في بلاد
اسبانيا عدة اسباب وان كان يظهر ان فتح العرب لتلك البلاد لم يبق منها شيأ
وبيانها ان جميع اهل اسبانيا الذين مروا من اسر المسلمين استمروا متمسكين
بعوائدهم القديمة وكان الحامل القوي لهم على ذلك بغضهم للعرب وشدة
نفرتهم منهم لاختلافهم في العوائد لان اصول حكومة العرب وقواعد
احكامهم فيما يتعلق بالاراضي مخالفة بالكلية لقوانين الالتزامات التي كانت
عند هؤلاء النصارى بل من دخلوا تحت اسر الاسلام ورضوا بان يكونوا
رعية للمسلمين لم تبطل من عندهم القوانين القديمة بالكلية وذلك ان اهل
الاسلام رخصوا لهم ان يبقوا على دين النصرانية وبمعاملاتهم القديمة
المتعلقة بالاراضي ويستمروا على ما كانوا عليه في نحو ذلك من الاقضية
والاحكام ويتمسكوا في معاملات الملك التي كانوا عليه اولا فاهل الاسلام
دون غيرهم من ارباب الحمية هم الذين جعلوا ديدنهم الغيرة على ادخال الناس
في دين الاسلام والترخيص لهم في البقاء على دينهم الاصلي فتراهم اذا حلوا
اسلطنتهم لتوسيع دائرة الاسلام ونشره في الاقطار يأذنون لمن لا يحب
الدخول أن يبقى على ما كان عليه من العقائد والعبادات فبقاء تلك العوائد
والقوانين القديمة في اسبانيا مع ما حصل من سائر الاخطار الحسية والاهوال
المعنوية التي نشأت من فتح المسلمين لها واستقرارها مع ظهور دين جديد
وترتيب حكومة جديدة ليس دليلا على ان هذه المزية العربية المختصة
بالمسلمين وعن رغبتهم في استمالة من ظهروا عليه الى حكمهم ويظهر
من ذلك ببادئ الرأي انه بمثل هذه الاسباب يسهل على النصارى
اعادة حالتهم وعوائدهم وقوانينهم الى ما كانت عليه سابقا في سائر
اقاليم اسبانيا التي انقذوها بالتدريج من اسر المسلمين لا سيما وكان اغلب
اهل اسبانيا باقين على تولعهم بعوائد اسلافهم واحترام شرائعهم
فكانوا لا يتمنون الا رجوعها الى قوتها القديمة وأن ينقادوا اليها

مطلب
اختلاف احكام اسبانيا وقوانينها

ومع ان الحكومة الالتزامية مع جميع قوانينها الخاصة بها كان معظمها باقيا في مملكتي قسطيلة واراغون وما يتعلق بهما من الممالك كان يوجد في الاحكام السياسية بهذه الممالك المختلفة خصوصيات تميزها عن غيرها فكانت الخصايص والمزايا الملوكية ضيقة جدا في جميع الممالك الالتزامية وكانت في اسبانيا اضيق منها في غيرها بحيث ان الملك لم يكن له من المزايا والخصايص الا شوكة صورية واما مزايا الاشراف فكانت متسعة جدا بحيث يكاد ان يكونوا على غاية من الاستقلال واطلاق التصرف وكان للمدآئن مزايا وخصايص عظيمة جدا فكان لها مدخلية كبيرة في مشاور لعموم الاهلية وكانت تصت عما يكون به اتساع شوكتها اكثر مما كانت عليه ففي هذه الحالة كان امر السياسة غير منطوم وكانت قوانين الممالك لا تناسب بينها الا فيما ندر فكانت بذلك مملكة اسبانيا عرضة لفتن داخلية اعظم من الفتن والانقلابات التي تنشأ عادة عن عدم الانتظام في الحكومات الالتزامية ويدلك على صحة ذلك تاريخ اسبانيا فانه لما اخرج المسلمون من تلك البلاد وامن اهاليها سطوتهم لعدم مباشرتهم اياهم احدثوا في اضرام نيران الفتن التي كانت ذلايها كيفية حكومتهم وصاروا دآئما مستعدين للقيام على ملوكهم والخروج عن طاعتهم واساءتهم وهتك حرمة مقامهم ومثل هذه الفتن توجد في تاريخ اسبانيا اكثر من تواريخ الممالك الاخرى ولكن في اثناء هذه الفتن والتقلبات كان يظهر في اسبانيا آرآء عدل تطلب حقوق الرعايا وأخرى تعضد مزايا الاشراف ولم يكن يوجد لهذه الآرآء نظير في باقي ملل اوروبا

مطلب
براهين تؤيد الملحوظة السابقة
(مملكة قطلونية)

فقد اتفق انه في امارة قتالونيا التي كانت منضمة الى مملكة اراغون قام الرعية على ملكهم يوحنا الثاني معتقدين انه يظلمهم وشهروا اسلحتهم عليه لينتصفوا منه ونقضوا مبايعته واعلنوا انه وذريته ليسوا اهلا للجلوس على سرير المملكة وارادوا ان يرتبوا في قتالونيا حكومة جمهورية ليأمنوا على ما تعلقت به آمالهم من التمتع بالحرية على الدوام

وحصل قريبا من ذلك الوقت ان اشراف قشتيلة قاموا ايضا على ملكهم هنري الرابع لبغضهم ادارته وعدم حزمه وزعموا ان من جملة خصايصهم ومزاياهم التي لا تنفك عنهم كونهم لهم الحق في ملاحظة افعال الملك والحكم عليه اذا وقع منه خلل ولاجل اشهار هذا الحق بين الناس طلبوا من جميع احزابهم ان يجتمعوا بمدينة آويلة ونصبوا ميدانا واسعا في بطحاء خارج اسوار هذه المدينة ووضعوا فيه تمثالا على صورة هنري الرابع جالسا على الكرسي وعليه حلة الملك وعلى رأسه التاج وبيده قضيب الملك متقلدا بسيف العدل ثم قرأ واحد منهم باعلى صوته ما كانوا يتهمون به هذا الملك وصدر الحكم بعزله في هذا المحفل العام ولما قرئ اول بند من بنود التهمة تقدم مطران مدينة توليدة (مدينة طليطلة) ونزع التاج عن رأس التمثال وبعد قراءة البند الثاني تقدم قومس بلنسية وجرده من سيف العدل وبعد قراءة البند الثالث تقدم قومس بنوانته ونزع من يده قضيب الملك وبعد قراءة البند الاخير تقدم الامير دون دييغو لوبيس الى التمثال والقاه من فوق الكرسي على الارض واعلنوا حينئذ بسقوطه وتنصيب الامير الفونس اخي هنري على مملكتي قشتالة وليون

ولاشك ان رؤساء تلك القضية مهما بلغت جسارتهم ما كان يمكنهم فعل مثل ذلك على هذا الوجه لو كانوا يعلمون ان الاهالي معارضونهم في هتك حرمة المرتبة الملوكية وان الشرائع الموجودة في حكومة قشتيلة وفي اراغون لم تسوغ للناس استحسان مادة فيها الرضى به

مطلب قوانين حكومة اراغون واصول ترتيبها

ثم ان حكومة اراغون وان كانت حكومة ملوكية الا ان قوانينها واصولها كانت جمهورية محضة وذلك ان الملوك مكثوا زمنا طويلا وهم يولون على سبيل الانتخاب ولم يكن لهم من الشوكة والقوة الا خيالها وصورتها وكانت الشوكة والسلطنة الحقيقية للقرطس (وهي مشورة وكلاء المملكة) التي كانت مركبة من اربع مراتب مختلفة (الاولى) رتبة اشراف الدرجة الاولى (الثانية) رتبة اشراف الدرجة الثانية (الثالثة) وكلاء المدن

والقرى

والقرى الذين هم بموجب ماذكر فى تواريخ أراغون كان لهم حق الحضور فى تلك المشورة لا عن حدوث بل من ابتداء ترتيب قوانين المملكة (الرابعة) مرتبة القسيسين وهى مركبة من اعيان الكنيسة و بعض وكلاء من المرتبة القسيسية الدنيا فكان لا يثبت حكم فى هذه المشورة الا برضى كل واحد من اربابها من له الحق فى الشورى فكان لا يمكن وضع دردة ولا اشهار حرب ولا عقد صلح ولا ضرب معاملة ولا تغيير شئ فى المعاملة الجارية الا باذن تلك المشورة التى كان لها ايضا الحق فى أن تحقق الدعاوى والاقضية التى كان يحكم بها فى جميع المحاكم السفلى وان تلاحظ كل ادارة وتبطل ما يكون مخالفا للاصول وكل من له مظلمة او شكوى كان يعرض لهذه المشورة ويطلب الانصاف لا على سبيل الترجى والتذلل بل على سبيل كون الانصاف من الحقوق الطبيعية الثابتة لكل انسان حر وحيث ان ارباب تلك المشورة كانوا متوطنين بالمحافظة على حرية الرعايا وجب عليهم البحث عن تحصيل ما يقع لهم من طرف الرعايا وكانت هذه المشورة عدة قرون وهى تجتمع فى كل سنة مرة ومكثت فى مدة القرن الرابع عشر تجدد قانون به عقدها لا يكون الا كل سنتين مرة كانت تنعقد المشورة المذكورة كان لا يمكن للملك تأجيلها او فسخها الا اذا رضى اربابها بذلك وكانت مدة انعقادها اربعين يوما

مطلب وظيفة القاضى الاعظم

ثم ان اهالى مملكة أراغون لم يكتفوا بكونهم اقاموا للقوة الملوكية تلك الموانع الكبيرة التى تمنعها عن مقاصدها ولم يريدوا ايضا ان يثقوا فى حفظ حريتهم بمجرد انتظام المشاور المرتبة عندهم وتدقيقها وان كانت مشابهة لمشاور الديت (اسم موضوع مشورة وكلاء الدولة فى المانيا و بولونيا وأسوج) ومشاور (البرينا) ودواوين (البرلمان) التى يأتمر بها غيرهم من الامم المنقادين للحكومة الالتزامية بل رتبوا ترتيبا خاصا بهم لا يوجد عند غيرهم من الامم فانتخبوا قاضيا عظيما وسموه باسم جوستوزا وكانت وظيفته مشابهة لوظيفة القضاة المسمين (ايفوره) وهم قضاة (اسبرطة) من قديم الزمان فكان

هذا القاضى ناصر الرعية وظهيرها وملاحظا للملك فى اعماله ومفتشا عليه
وكان محترما عندهم وكانت شوكته واقتداره لا ينحصران فى حد وكان فيهم
فاعلا مختارا وكان اعظم ترجمان لقوانينهم وشرائعهم اى المفسر لها
والمفصح لهم عنها وكان من دونه من القضاة يرجعون كلهم اليه بل وكذلك
الملوك كانوا يضطرون الى مراجعته [illegible] الشك والتوقف فى الاحكام
ويتبعون ما يحكم به من [illegible] وكانت تعرض عليه ايضا
الاقضية والاحكام التى [illegible] الملكية ومن القضاة الموجودين
فى الاراضى الالتزامية لى [illegible] البارونيين وكان بامكانه
ان يسلك [illegible] جميع الدعاوى [illegible] وان يمنع القضاة المعتادين
من [illegible] عندهم بل كان يستحضر الدعاوى فى اسرع وقت
ويلقى [illegible] الى حبس الدولة المسمى باسم مانفستيون وكان
لا يدخل احد فى هذا السجن الا باذنه وكان له ايضا قوة عظيمة تحريرية مالية
فى شأن تغيير الحكومة كقوته [illegible] فى شأن اجراء الشرائع والاحكام
ومن خصائص وظيفته ايضا انه كان له [illegible] والبحث عن سلوك جميع
الناس ولو الملك وكان له ايضا الحق فى [illegible] عن احكام الملك واوامره
وينظر هل هى موافقة للشرع بحيث يجرى العمل بها ام لا وكان من جملة
حكومته الخاصة به انه يجوز له ان يمنع وزراء الملك من اجراء المصالح
وان يجبرهم على ان يخبروه بتدبيرهم وما هو لم يكن يجبر باعماله احدا
الا مشورة (ليزنا) اى مشورة وكلاء المملكة فكان [illegible] كيفية توقيته
ووظائفه التى هى اهم وظائف اتى عليها الدهر فى ملته

ولا شك ان تلك الخصوصيات التى كانت لمشورة أراغون والحقوق التى
كان يتمتع بها هذا القاضى تدل على انه لم يكن للملك من القدرة والشوكة الا شئ
واهن ذلك أن الملة كان يتراءى منها انها اعتادت جهدها فى سلوك تلك
المسالك لتظهر للملوك عزمهم ومع ان متابعة الملوك يلزم ان تكون مع غاية
التعظيم والتبجيل والخضوع ملك اهالى أراغون مسلكا آخر حيث انهم

مطلب انحصار الشوكة الملوكية فى حدود ضيقة

اخترعوا

اخترعوا وعامن صيغ المبايعة بقيد الملك انه لا يكون مطلق التصرف في الرعية وكانت تتلى هذه الصيغة عند عقد المبايعة على طاعة الملك وهي أن القاضي الاعظم حين المبايعة يقول للملك عن لسان البارونيين ارباب الكبر والأنفة (نحن كل منا على حدته مثلك ومجموعنا اعظم منك في الشوكة فان اردت منا الطاعة لاحكامك فاحفظ حقوقنا ومزايانا والا فلا انتهى) وبموجب هذه المبايعة [illegible] وانه اذا هتك الملك حرمة حقوقهم ومزاياهم [illegible] وانتخاب غيره ملكا عليها وقد شوهد من اهالي أراغون [illegible] هذه الحكومة العربية تشكل ميلا عظيما ويحترمونها [illegible] وذكروا في بعض مقدمات قوانينهم انه حيث كانت اراضي مملكتهم قحطة وسكانها فقراء [illegible] ان يجعل خلال ذلك حرية وحقوق تميزهم عن غيرهم من الملل الاخرى والا خرجوا منها الى اراض اكثر خصوبة من اراضي مملكتهم يستوطنون بها ليتيسر لهم اسباب السعادة

وأما مملكة قشطيلة فما كان لها شيء غريب في شكل حكومتها يميزها عن غيرها من ممالك (اوروبا) [illegible] وان كان الملك يجري فيها شوكة جبرية عظيمة الا ان هذه المزية كانت ضيقة جدا وكان تشريع القوانين من خصوصيات مشورة القرطس التي كانت مركبة من الاشراف ومن ارباب الوظائف من القسيسين ومن وكلاء المدن وجمعية مشورة (القرطس) المذكورة كانت موجودة بتلك المملكة من قديم الزمان بحيث كانت مبدؤها من مبدء قوانين ترتيب حكومتها فكانت هذه الطوائف الثلاثة التي كان لها الحق في الشورى يجتمعون في محل واحد ويتذاكرون مع بعضهم فما يحط عليه رأي الجمهور هو الذي يكون عليه العمل وكان لهم الحق في وضع الجرائم والغرامات وانشاء القوانين وابطال المظالم وكانت عادتهم ان لا يتذاكروا في شأن الامدادات والمساعدات التي يطلبها الملك من الرعية الا بعد تتميم المصالح التي كانت تخص المنفعة العمومية حلافه على أن يقر

مطلب
قانون قشطيلة
وحكومتها

ماشرعوه من القوانين للمصلحة العامة ونظمها في سلك الشرائع
المعول عليها

والظاهر ان مدخلية وكلاء المدن في مشورة قسطيلة كانت ثابتة لهم من قديم
الزمان وانهم كانوا قد اكتسبوا في اسرع وقت درجة عظيمة من الصولة
والسطوة ونفوذ الكلمة وقت ان كانت قدرة الاشراف في المدن الاخر
وشوكتهم كاسفة لنور بعض من عداهم من طوائف الاهالي على اختلاف
مراتبهم وكان عدد وكلاء المدن كبيرا بالنسبة لعدد الطوائف الاخرى فلذلك
كان لهم نفوذ كلمة في الدولة وبهذه الحادثة الآتية يمكن معرفة درجة
اعتبارهم في المملكة وهي انه عند موت الملك يوحنا الاول ترتبت (سنة ٢٩)
مشورة نيابة تحكم المملكة مدة قصور ولده حتى يبلغ رشده وكانت هذه
المشورة مركبة من عدد متساو من الاشراف ووكلاء المدن وكان وكلاء
المدن في الرتبة والمقام والشوكة مثل الاكابر والاحبار الذين هم من الدرجة
الاولى ولكن مع ان ارباب الجمعيات البلدية (ويقال لها الاهلية)
(في قسطيلة) كانوا وقتئذ اعظم مقاما من ارباب الجمعيات البلدية الموجودة
في غيرها من الممالك وكانوا قد اكتسبوا شوكة عظيمة في شأن السياسة
حتى لم يكن ليمنعوا ان الاشراف الارستقراطية لا الترابية منعهم عن الدخول
في شأن تدبير امور الحكومة ولا يخفى ان الاشراف لم يزالوا متعززين
على كونهم يرجعون مزاياهم وخصائصهم عن المزايا الملوكية مع محاماة
وكلاء المدن لها فلم يكن في اوربا فرقة من الاشراف امتازت بمحبة الاستقلال
والحرية والسلوك مسلك الكبر والجراءة والثبات في الادعاء والزعم اكثر
من طائفة اشراف قسطيلة فقد بين لنا تاريخ هذه المملكة امثلة عديدة
وذكر لنا وقائع كثيرة بها يستدل على انهم كانوا متعرضين الى ملاحظة
جميع حركات الملك وكانوا يعارضونه مع الثبات والكلفة في مشروعاته اذا
رأوا انها تضر باحكامهم او تحط بمقامهم او تضيق قدرتهم وتضعف شوكتهم
وكان لهم ايضا في الدولات الخصوصية التي كانت بينهم وبين ملوكهم انفة

وتعاظم

وتعاظم كبير في انفسهم بحيث ان اكابرهم كانوا يعدون من جملة مزاياهم كونهم يسترون رؤسهم في حضرة الملك على خلاف العادة الافرنجية ولا ينزعون البرانيط عند الدخول عليه ويدنون منه كانهم اقرانه لا رعاياه

واما سياسة الممالك الصغيرة التي كانت من تعلقات مملكة قسطيلة ومملكة أراغون فكانت سياسة كل مملكة منها تكاد ان تكون مثل سياسة المملكة المنسوبة اليها من هاتين المملكتين فكان الاشراف في سائر تلك الممالك الصغيرة محترمين جدا اولى حرية واستقلال وكانت بعض مدنها تتمتع بشوكة عظيمة جدا ومزايا كثيرة

ومن لاحظ حالة اسبانيا وامعن النظر في غرابة امورها وتذكر ايضا الحوادث المختلفة التي وقعت فيها على التعاقب منذ اغارة المسلمين الى زمن صيرورتها بالاتحاد مملكة واحدة تحت حكومة فرديننده وايزابلة بعد ان كانت منقسمة الى ممالك مختلفة عرف بسهولة جميع اسباب النوادر الخصوصية التي ذكرناها لحكومة هذه المملكة ووقف على اصولها

ثم ان اهل اسبانيا لم يتوصلوا الى تخليص اقاليمهم من ايدي الاسلام الا على تدريج مع غاية التعب والمشقة في الحروب التي حصلت حينئذ كان كل من دخل من الاشراف تحت ظل راية رئيس ممتاز وحارب معه يشترط عليه أن يقتسم معه ثمرات النصرة فكان الاشراف يطلبون من رؤسائهم الذين قاتلوا معهم الجزء العظيم من الاراضي التي يأخذونها من الاعداء نظير خدمتهم في الحرب فصارت تزداد شوكتهم بتزايد شوكة ملوكهم واتساع اراضيهم

وفي اثناء الحروب الدائمة مع العرب اضطر ملوك اسبانيا الى أن يستعينوا باشرافهم وعرفوا انه من الضروري لهم ترغيب هؤلاء الاشراف فيهم وأن يكونوا من حزبهم ولذلك صاروا يتحفونهم بعطايا متتابعة ومن بعد ذلك كان الملك بمجرد استيلائه على اقليم يؤخذ من ايدي الاسلام يقسم بين امراء البارونية معظم اراضيه ويقلدهم زيادة على ذلك

قضاء خصوصياتهم ومزايا كانوا يفرحون بها ان يكونوا مطلقي التصرف
وبذلك كانت الممالك التي تحدث وقتئذ في بلاد اسبانيا صغيرة قليلة الاعتبار
بحيث لم يكن ثم امتياز لملوك تلك الممالك الصغيرة عن اشرافها بل كان
الاشراف يرون انفسهم مثل ملوكهم بلا فرق وكانوا يفعلون ما شاؤا ولم يكن
يمكن للملك أن يجبرهم ويدخلهم تحت طاعته حيث لم يكن له سطوة عظيمة
عليهم فلما رأى الاشراف انه لا فرق بينهم وبين ملوكهم لم تسمح نفوسهم
أن يعاملوهم بالتعظيم والتبجيل الذي كان يعامل به اهالي اوربا ملوكهم
العظام

وبجميع تلك الاحوال المذكورة ارتفعت شوكة الاشراف وانخفضت
شوكة الملوك وبعدة مقتضيات احوال اخرى عظمت كذلك مدن اسبانيا
وقويت شوكتها

وذلك انه في مدة الحروب مع المسلمين كانت البلاد المكشوفة الخالية
عن الحصون دائما عرضة لاغارات العرب حيث لم يكن يتأتى معهم عقد صلح
وهدنة يستريح بها اهالي تلك البلاد ويتمتعون فيها بالامن والاطمئنان
فاضطر جميع الناس على اختلاف مراتبهم الى الاقامة بالمدائن والحصون
ليكونوا مستعدين للمدافعة عن بلادهم وحفظ انفسهم واما قصور البارونيين
التي كانت في غير هذه البلاد محلا آمنا يحتمي فيه من ارباب الصيال ومن اهوال
الفتن الداخلية فلم تكن بتلك البلاد حصينة بحيث يمكن بها مقاومة جيوش
الاسلام الماهرين في التعليمات العسكرية حيث انهم مع مهارتهم وشجاعتهم
كانت اغاراتهم مستمرة لا تنقطع عن تلك البلاد فكان لا احد من الاهالي
يأمن ان يخرج من بلدته الا اذا كان خروجه ليذهب الى بعض مدن معلومة
يجتمع بها الناس للمدافعة عن جميع البلاد وهذا هو السبب الذي ينسب اليه
ازدياد عظم مدن اسبانيا التي فتحها النصارى ثانيا ونمو شوكتها في اقرب
وقت حيث كان جميع اهالي اسبانيا الذين يفرون من المسلمين يذهبون
الى تلك المدن وكانت كذلك ملجأ لعائلات من كان يتصدى من النصارى

لمقاتلة المسلمين
فمكثت كل مدينة من هذه المدن مدة قصيرة كانت او طويلة وهى تحت المملكة صغيرة وتمتعت بسائر المزايا التى تزداد بها الاهالى عادة فى سائر الثغور وامهات المدن

وكانت اسبانيا فى ابتداء القرن الخامس عشر محتوية على مدن كثيرة اعمر من باقى مدن اوروبا ماعدا مملكتى ايطاليا والبلاد الواطية وذلك لان العرب كانوا قد انشأوا فى تلك المدن فبريقات وورشا عديدة وقت ان كانوا حاكمين فيها ولاختلاط اهاليها بهؤلاء الامم تعلموا منهم الفنون التى كانت عندهم واستمروا على ممارستها والاشتغال بها والظاهر ان عدة من تلك المدن كانت فى ذلك الزمن ذات تجارة معتبرة واستمرار تجارته كان سببا فى بقاء الاهالى فيها بكثرة كما انهم كانوا قد آووا اليها لخوفهم من الاخطار والاهوال التى كانت على كافة الناس

وحيث كانت تلك المدن كثيرة العمران كان يوجد فيها اناس كثيرون من الاعيان اكثر ممن كانوا يسكنون غيرها من مدن ممالك اوروبا والسبب الذى به كثرت اهاليها جذب كثيرا من الناس اليها فصار يهرع اليها الناس من جميع الممالك ليحتموا فيها من الاعداء ولانهم كانوا يأملون منها النفع لهم من غيرها فى الممانعة ودفع الاعداء

وهناك حوادث مختلفة مذكورة فى تاريخ قشتالة تدل على ان وكلاء المدن الذين كانوا من اعضاء مشورة العموم ومن كانوا مؤتمنين ومقلدين بمناصب الشرف العالية فى حكومة القرى كانوا فى الغالب ارباب رفعة واعتبار بحيث كانوا يشرفون موكليهم ووظائفهم التى هم مقلدون بها

وحيث رأى النصارى انه لا يمكنهم المقاومة فى تلك الحروب الدائمة بينهم وبين المسلمين بمجرد القوة العسكرية التى كان يقدمها البارونيون المعروفات على حسب قوانين الخدمة الالزامية فى العسكرية عرفوا فى اقرب وقت انه لابد لهم من كونهم يحرزون عندهم دائما على طرفهم جميع ما يلزم لهم

من ابتيوش خصوصا من عساكر الخيالة الخفيفة وكان من مزايا الاشراف معافاة اراضيهم من الخراج وافرد فكانت المدن بمفردها هى التى يطلب منها مصاريف العساكر اللازمة لاجل القلاقل العمومية وحيث كان الملوك في باقى تلك البلاد مضطرين الى طلب امدادات ومصاريف من هذه المدن الخادم ذلك ان يحثوا عن استمالتها اليهم فصاروا يتحفون اهلها بمزايا وعطايا عظيمة فتسعت من حينئذ مزاياها وخصائصهم وازداد غناها وعظمت شوكتها وكثرت ثروتها

واذا علم الانسان انه بانضمام تلك الاحوال التى لم تقع الا فى اسبانيا قد تقوت نتائج الاسباب العمومية التى اعانت على نمو شوكة هذه المدن وعظمها وعلو شأنها فى باقى البلاد وبالاخص بالمملكة المسماة بقشتالة مدينة الكمبو ولذا اصل المزايا العديدة المهمة التى اكتسبتها تلك المدن فى كل موضع ومنشأ اعتبارها العربى الذى اكتسبته فى جميع ممالك اسبانيا

مطلب
وسائط استعملها عدة ملوك مختلفة من ملوك اسبانيا لاجل توسيع قدرتهم وازدياد شوكتهم لاسيما الملك فرديننده والملكة ايزابيلة زوجته

وهذه المزايا العظيمة الثابتة للاشراف والشوكة العجيبة الثابتة للمدن كانت صيرت الملوك اسبانيا من جميع الوجوه محصورة فى حدود ضيقة فاغتاظ عدة من هؤلاء الملوك من تلك العوائق التى كانت تمنع تقدم قدرتهم ونمو شوكتهم فبذلوا جهدهم فى عدة فرص مختلفة فى اطلاق شوكتهم وفك قيدها واضعاف شوكة الرعية ولكن قصرت قواهم او همتهم عن تتميم هذا المشروع فمكثوا زمنا طويلا ومجهوداتهم لا ينشأ عنها كبير جدوى فلما تملك فرديننده وايزابيلة على جميع ممالك اسبانيا وآلت كلها الى ملك واحدة تحت حكمهما وكانا حينئذ آمنين من اهوال الحروب الاهلية واخطارها السابقة للتقدم امكنهما تصيير المشروعات التى كان اشهرها المتقدمون من اسلافهما لاجل تقوية الشوكة الملوكية وتوسيعها ولم يصيروها مصما فى ذلك لانه كان لفردیننده فراسة غزيرة فى تدبير مقاصده ونشاط عظيم فى سلوكه وكان ثابتا جلدا لا يجزع من شئ فى تصيير مشروعاته وهذه هى الصفات التى لابد منها فى تصيير مثل هذا المقصد المهم

ولما كانت

مطلب
وسائط مختلفة استعملت لاجل تنقيص شوكة الاشراف

ولما كانت شوكة الاشراف ومزاياهم قد تجاوزت الحد وكان ذلك هو الذى يغضب كثيرا ملوك اسبانيا وكانوا يتضررون منه جدا ولا يغفلون هذه الامور غاية القلق والاضطرار كان قصد الملك فرديناند مجرد تضييق دائرة مزايا هؤلاء الاشراف حتى لا تتجاوز حدودها فصار يتعلل بعلل مختلفة فتارة كان يسلك سبيل الجبر والاكراه وتارة يعمل بما يصدر من المحاكم الشرعية فى شأنهم حتى سلب من البارونيين بعض الاراضى التى كانوا اكتسبوها من اكارم الملوك الاولين واسرافهم لاسيما الاراضى التى كانوا اكتسبوها من تبذير سلفه الملك هنرى الرابع وضعفه

ولم يجعل ادارة المصالح وتدبيرها مقصورا على أعيان الاشراف اذ كانوا قبل ذلك متقلدين باهم امور التدبير وكانوا وحدهم ارباب شورى الملك ويرون هذه خصوصية مزية لازمة لطائفتهم لا تنفك عنها ولا احد يشركهم فيها فكان غالبا يعقد امورا ومشارطات مهمة من غير مشورتهم وقلد اناسا آخرين بمناصب مهمة علية الشأن من مناصب الدولة لكونه رأى منهم الميل الى مصلحته ومنفعته واحدث فى ديوانه رسوما لاحترام المقامات كل انسان على حسب مقامه لم تكن معهودة فى اسبانيا مدة تقدمها الى عدة عائلات صغيرة وبهذه الرسوم اعتاد الاشراف على ان لا يبدوا من الملك الا مع التعظيم والتبجيل وصارت الرعايا تحترم ملوكهم وتهابهم وتعتنى بأمرهم وتنقاد اليهم اكثر مما كانوا عليه سابقا

مطلب
انضمام رياسة الرتب الثلاثة العسكرية الى الملك

وزيادة على ذلك ضم الملك فرديناند الى المنصب الملوكى منصب رياسة الرتب الثلاثة العسكرية وهى رتبة سان ياكس ورتبة كلتراوه ورتبة الكنترة وبذلك ازدادت كثيرا ايرادات ملوك اسبانيا وعظمت شوكتهم وكان القصد من هذه الرتب الثلاثة كالقصد من رتبتى تمبليه وسجان دجودير اليم (اى طائفة عساكر حروب الصليب) وهو محاربة اهل الاسلام على الدوام وحماية الزوار الذين كانوا يذهبون لزيارة قمبسطيلة وغيرها من الاماكن المقدسة الموجودة فى اسبانيا فالغيرة الدينية التى كانت فى اهل هذا الزمن الذى

حدثت فيه تلك الرتب واوهامهم الفاسدة واعتقاداتهم الكاسدة حملت الناس على اختلاف مراتبهم أن يعدوا هؤلاء الحائزين للالقاب بهدايا عظيمة فصاروا في اقرب زمن اصحاب املاك وجمعوا مقدارا جسيما من اموال الناس واراضيهم وبناء على ذلك كانت رياسة كل رتبة من هذه المراتب من اعظم الوظائف واهمها وكان ذلك يكسب الاشراف مزايا الاعتبار ونفوذ الكلمة ويجلب لهم الاموال والغنى لان امراء هذه المراتب كانوا يتصرفون فيها كما يشاؤن بحيث كانوا بواسطتها يكادون أن يساووا ملوكهم في المقام والاعتبار وحيث رأى الملك فرديننداند وجاق الاشراف عظيم الهيبة والسطوة ورأى ان حكمهم وولاءهم على هذه المراتب لغنية يزيدهم من عظيم شوكة ومهابة اشتغل بسلب تلك المزية عنهم ليزيد بها رونق الشوكة الملوكية ودبر بحذقه وفراسته امر هذا المقصد ولم يزل باذلا جهده فتارة كان يسلك طرق الملاطفة وتارة يعد بعض الناس بحسن المكافأة وتارة يهدد آخرين حتى توصل الى ان جعل امراء تلك المراتب الثلاثة ان يجعلوه هو (سنة ١٤٧٦)
رئيسا لها رئيسا عاما وقد شرف هذا العقد وازداد ثباتا وأكده (وسنة ١٤٩٤)
كون البابا انوسان الثامن والبابا اسكندر السادس اقراه وامضياه برضاهما وحكم من تولى بعدهما البابوية بانه لا يجوز فصل تلك الرياسة عن المنصب الملوكي وبينما كان هذا الملك ينقص قدرة الاشراف وشوكتهم كان لا يغفل عن تقوية شوكته واكتساب سطوته درجة ورتبة جديدة وكان يدبر تدبيرات اخرى ليست اقل تأثيرا من الاولى فكأنه يريد التوصل الى مقصد واحد بوسائل عديدة وذلك انه لما رأى الحكم المطلق الذي للبارونيين في اراضيهم واقطاعاتهم من اعظم المزايا التي كانت تقتضي تعاظمهم وكبرهم وعتوهم تطلع الى تجريدهم عنه مع انهم كانوا يعتنون جدا بهذا الحكم ويعدونه من اعظم مزاياهم بحيث لو اراد احد أن يجردهم منه بالقوة والسلاح لمانعوا عنه باسلحتهم وبذلوا جهدهم في ابقائه ولكن مثل هذا الامر لا يعبأ به ملك ذو قريحة وفراسة واحتراس مثل فرديننداند فبحث هذا الملك عن الوسائل

التي

التى توصله الى ان يهدم خفية بالتدبير دعائم هذا الامر الذى كان يعجز عن تحصيله جهرة بالقوة فلم يزل يدبر امره حتى لاحت له فرص عظيمة من الحالة التى كانت عليها الممالك وقتئذ ومن طبيعة رعاياه فانتهزها بمهارته ونشاطه وذلك ان جميع اقاليم اسبانيا كانت مشحونة بالفتن و التعكيرات بسبب تحريب المسلمين لها على الدوام لعدم تعليم الجيوش الاسبانية التى كانت مقابلهم وبسبب الفشل والنزاع الذى كان يتجدد دائما بين الاشراف والملك ويهلك به اناس كثيرون وبسبب حروب البارونيين مع بعضهم وكثر بتلك الاقاليم النهب والظلم والقتل وبطلت التجارة فى اثناء تلك الفتن المخلة بالنظام وانقطعت المخالطة والمواصلة جهرا بين البلاد وضاع الامن والاطمئنان الذى هو المقصد من بعث الناس عن الائتلاف والتأنس والاجتماع ومن الالتفات الى حفظ النظام الداخلى والضبط والربط مدة ما كانت القوانين الالترامية معمولا بها فى الممالك واهمل تدبير العدل والشرائع وضعفت واضمحلت رسومها حتى كان لا يسوغ اجراء القوانين المسطورة ولا توسط القضاة المعتدين فيها وبذلك كله قويت مصائب الناس لاسيما سكان المدن فانهم كانوا فريسة هذه المحن فالجأهم حرص حفظهم الى ان يتعاطوا دواء مجربا لتطبيب جراح هذا الداء وهو انها اجتمعت فى اثناء القرن الثالث عشر مدن مملكة اراغون وبعدها مدن مملكة قشطيلة واتفقت مع بعضها وتسمت باسم الجمعية او المعاهدة المقدسة واعانت تلك المدن المتعاهدة بعضها حتى رتبت جيوشا عظيمة اعدتها لحماية المسافرين السواحين وللبحث عن المذنبين ورتبت ايضا قضاة نصبوا محاكمهم فى بلدان مختلفة من المملكة فكل من كان قد سبق له قتل او سرقة او غيرهما مما يخل بالراحة العامة ووقع فى ايدى جيوش تلك الجمعية المقدسة كان يحضر به بين ايدى القضاة وهم يحكمون عليه بالعقاب من غير نظر الى انه لا يجرى عليه سوى افتاء ملتزمه فبذلك تقوى العدل فى اقرب وقت كما كان وتجددت رسومها كرواحى الانظام وحصلت الراحة الداخلية

واطمأنت الاهالى وعادت تلك الحادثة بالضرر على الاشراف وجدهم حتى تشكوا بانها جور عظيم وتعد ظاهر على بعض من امتيازاتهم العتيقة الاصلية وتشكوا كثيرا للملك من هذه الجمعية حتى اظهروا انهم لا يعطونه الامدادات التى يطلبها منهم الا اذا ابطلها او عارضوها ولكن رأى فرديننده ان هذه الجمعية نافعة لازمة جدا لحفظ السياسة وبقاء الضبط والربط فى مما لك اسبانيا وينتهى امرها بحصول غاية مله ومقصوده لاصلاح وتوضيح احكام البارونيين فى شأن الاراضى واصلاح الاحوال بمصره وبذل جهده فى حفظها فاستمر الى هذا الملك حيث لم يكتف بمشروعاته التى فعلها بنفسه كباقى ملوك اوروبا عرف ان يستفيد فى تلك الحادثة التى لم تحصل الا فى اسبانيا فائدة عجيبة وهى تضييق دائرة الحكم المطلق الذى كان يدعيه الاشراف وكانوا مستقلين به لانه كان مخالفا للشوكة الملوكية ونظام الجمعية

ومع الملك فرديننده بهذه الحوادث السعيدة دائرة خصائصه ومزاياه ووصل شوكته الملوكية الى درجة لم تلاحظ تحت احد ممن تقدمه من الملوك ومع ذلك فكان هنالك عدة عوائق تجرى قوية تمنع من تقدم مزايا الشوكة الملوكية وذلك لان محبة الحرية كانت متمكنة من قلوب اهالى اسبانيا وكان الاشراف متولعين بالاستقلال فكانت سطوة فرديننده على رعاياه اضيق من سطوة غيره من ملوك اوروبا المشهورين على رعاياهم واما كونهم اعانوه مع الرغبة والحماسة فى حروبه الخارجية الاجنبية وسهلوا له جميع الوسايط التى تجزيها مشروعاته العجيبة فانما كان ذلك لتولعهم بالفخار الذى امتازوا به فى تواريخهم ولذلك ترى فى عدة وقائع مختلفة من تاريخ شرلكان ان حقوق الملك فى اسبانيا مكثت محصورة ضيقة الدائرة الى أن مضت مدة مستطيلة من حكومة شرلكان الذى خلف فرديننده المذكور

مطلب
قوانين فرانسا وحكومتها

ثم ان القوانين القديمة التى كانت بمملكة فرانسا تشبه قوانين الممالك المحكومة حكومة التراتيبية فلا حاجة الى التعرض لذكر جميع التفاصيل

التي يعرف بها حقيقة القوانين الخصوصية التي كانت في ابتدائها وما نشأ عنها
وقد تقدم انا عند ذكرنا الوسايط التي سلكها ملوك فرانسا ليصير لهم التصرف
والولاء على العساكر والقوى الاهلية بمملكتهم لاجل ان يمكنهم التصدي
للحروب الاجنبية الكبيرة ذكرنا كيفية وصولهم بالتدريج الى توسيع
شوكتهم السياسية وتقسيم مزاياهم وخصايصهم من غير كثير منازعة
ولم يبق علينا في شأن ترتيب فرانسا الا ان ننبه على الامور الخصوصية
التي كانت تميزها عن الدول الاخرى او التي تفيد ما شيا في شأن الوقايع
التي حصلت في زمن حدث يشتمل عليه تاريخ حكومة شرلكان

مطلب
شوكة الجمعيات العمومية من الملة في زمن اول دولة من الملوك

وفي حكومة اول دولة من ملوك فرانسا كانت شوكة الملك ضعيفة جدا
وجمعيات الملة العمومية التي كانت تجتمع كل سنة في زمن معين
هي التي كانت شوكتها نافذة في سائر اقسام المملكة فكان لها الحق
في تنصيب ملوكها وفي اعطائهم الامدادات والاعانات اللازمة وكانت
هي التي تشرع القوانين والشرائع وتبطل جميع المظالم وتحكم في جميع
الدعاوى على اختلافها من غير ان يراجعها احد في حكمها ولو عظم
مقام صاحب الدعوى

مطلب
شوكتها في زمن الدولة الثانية

ومع ما اكتسبته الشوكة الملوكية من القدرة والثروة بسبب الفتوحات
والنصرات التي حصلت للملك كرلوس مانو [illegible] الدولة الثانية من الملوك
كانت لم تزل تلك الجمعيات المتقدمة مستمرة على عظم شوكتها وتعبير
حكمها وتنفيذ اوامرها في زمن الدولة الثانية فكان لها الحق في كونها
تنتخب من العائلة الملوكية الامير الذي يجلس على كرسي المملكة
ولا يولى ملك الا برضاهم وبذلك كان الملوك يدعونهم في كل امر ويستشيرونهم
في شأن المصالح المهمة في الدولة وكان لا يمكن من غير رضاهم ترتيب قانون
جديد ولا احداث فردة جديدة على الرعايا

مطلب
شوكتها في الدولة الثالثة

واما الملك هوغ كابيت رئيس الدولة الثالثة من ملوك فرانسا فانه عند
جلوسه على كرسي المملكة احدث في سياستها تغييرات عظيمة بحيث اثرت

في شوكة الجمعيات العمومية المتقدمة وفي احكامها واقتنائها ولكن كانت الشوكة الملوكية حينئذ قد ضعفت وزلت عن رتبتها بسبب جبن ذرية كرلوس مانوس وكادت لاتكون الا خيالا فمكان كل صاحب ارض عظيم يجعل ارضه بارونية مستقلة خارجة عن حكم الملك وكانت الدوقات الذين هم حكام الاقاليم والقونتات الذين هم حكام القرى والاخطاط الصغيرة وكذلك الضباط الملازمون للملك واكابر اتباعه قد جعلوا مناصبهم وراثية لاولادهم وعائلاتهم مع انهم كانوا [illegible] في الاصل [illegible] بمادة حياتهم حتى ينزعها الملك منهم وكان كل بارون من البارونيين قد نسب لنفسه بالادعاء وال[illegible] الحقوق التي لم يكن قد اتصف بها احد قبل ذلك الوقت سوى الملك كاجراء احكام خصوصية في اراضيهم والتزاماتهم وكضرب المعاملة واشهار الحرب وغير ذلك فكانت كل ارض محكومة بحسب عوايد اهلها ولها ملتزم مخصوص لا تنقاد لغيره ولها مزايا مخصوصة وبالجملة لم يبق عند سفهاء هؤلاء البارونيين من الطاعة للملك والانقياد اليه الا الطريقة الجارية عندهم في احترامه وتعظيمه بل كانوا لا يعملون ذلك الا باختيارهم وارادتهم

ولاشك ان المملكة المنقسمة الى عدة بارونيات مستقلة عن بعضها قل أن يوجد فيها اصول [illegible] حفظ نفع الناس كافة ولتنافي [illegible] بعضهم وحيث كان في تلك [illegible] الاعلى والادنى ولم يكن الناس فيها على حد سواء كان لا يمكن للمشورة العمومية أن تعتبر في احكامها الملة على حد سواء بحيث تكون بجسم واحد ولا أن ترتب اصولا وقوانين عمومية لكافة الاهالي حتى تكون جارية على نسق واحد في جميع اقسام الدولة وكان يمكن للملك أن ينشر قوانين جديدة ويجريها في التزاماته الخصوصية حيث انه ملتزمها دون غيره ولكن لو اراد ان ينشر هذه القوانين في جميع المملكة ويجريها فيها لاغتاظ منه سائر البارونيين وحقدوا عليه وعدوا ذلك تطاولا منه وهتكا لحرمتهم ومحض نقض القصد منه ابطال

استقلالهم فى الحكومة والاقتالات وكان الباريزيون كذلك لا يتعرضون ابدا لتحديد قوانين او شرائع عمومية لان حق اجرائها يكون للملك وذلك يزيد فى قوته وشوكته وهو عكس مرادهم والداعى لغيرتهم منه وبالجملة ففى زمن حكم ذرية هوغوس كابيت كانت مشورة ايربا جنرو (اسم للمشورة العليا التى كانت فى فرانسا ومعناها مشورة وكلاء المملكة) قد فقدت شوكتها ونفوذ كلمتها فى شأن الشرائع او اهملت اجراءها وتنفيذها ومن وقتئذ صار [illegible] حكام ارباب [illegible] ثم مقصورة على ترتيب فرد وغرامات جديدة وعلى انشاء فى بعض مسائل تتعلق بوراثة [illegible] المملكة عند موت الملك وتعيين نائب ينوب عن الملك المتوفى اذا لم [illegible] يوصى بوصيته من ينوب عنه وعلى انشاء بعض قوانين فى شأن المذهب التى تشتكى منها الاهالى وتطلب اصلاحها

وحيث ان ملوك اوروبا مكثوا عدة قرون من غير ان تلجئهم الحاجة والضرورة الى ان يطلبوا من رعاياهم امدادات واعانات كبيرة تستلزم عقد مشورة ايتا جنرو وكانت الا[illegible] وال اى استدعى تلك المشورة نادرة صار عقد تلك المشورة المستقبل نادرا فى ممالك فرانسا ونمسا كان مجمعها الملوك حتى كان يحملهم [illegible]الخوف او الاحتياج على استعانتهم بها [illegible] كل مشورة الديت اى كانت فى الامبراطورية النمساوية ولا مثل [illegible] اسبانيا المسماة قرطس ولا مشورة ساترة المسماة بيرلمان يجب ان تكون شطرا من الاصول التى عليها ترتيب المملكة مثل هذه المشاورة المذكورة التى كانت تقوى الحكومة وتنشطها باستدامتها على اجراء وظائفها المنوطة بها

مطلب
تغلب الملوك على
حق التشريع

فاذا تركت مشورة ايربنا حق التشريع لاحد ملوك فرانسا يتعلمون عليه ولكن لم يتجاسروا فى مبدء الامر على انشاء شئ من الشرائع الا بعد التبصر والاحتراس التام خوفا من ان تقوم عليهم الرعايا لتصديهم الى هذا الامر الجديد ولم يظهروا فى مبدء امرهم فى الاحكام والاوامر التى نشروها شيأ مما يدل على تسلطهم واقتدارهم ونفاذ بأسهم بل كانوا يحسنون معاملة

رعاياهم ويعرضون عليهم الطرق والوسائط التي كانوا يرون انها الانفع والاصوب لتحصيل النفع العمومي ويلتمسون منهم قبولها والعمل بموجبها في المملكة في اقرب وقت ازدادت الرئاسة والخصائص الملوكية على التدريج وعظمت شوكة ملوك فرانسا واتسعت دائرة احكامهم الشرعية واعترف لهم الناس بان لهم الانفراد الاعلى فصاروا حينئذ يصدرون لرعاياهم التعالى وبطش المشرعين وبأسهم وقبل ابتداء القرن الخامس عشر كانوا قد احاطوا بجميع اطراف حق التشريع وانفردوا به

مطلب استيلاء الملك على حق ضرب الفرد والغرامات على الاهالي

ولما تمكن الملوك من تلك الخصوصية الجديدة وقويت بها شوكتهم واستولوا عليها ثبت لهم كذلك بسهولة حق ضرب الفرد والغرامات وذلك ان الاهالي كانوا يرون الملوك كلما صدر عنهم اوامر تعود بالنفع على املاك الرعية وعقاراتهم لم يحصل لهم غم عند ما طلب منهم بالاوامر الملوكية دفع مال ضربت عليهم لحاجة المملكة ومصاريف الاعمال والمشروعات النافعة وحين شرع الملك كرلوس السابع والملك لويز الحادي عشر في اجراء تلك العادة الحادثة وكان ذلك اول مرة كانت الشوكة الملوكية قد ازدادت بالتدريج وهيأ ازديادها عقول الرعايا بقبول تلك الحادثة فتلقوها من غير ان يحصل بينهم شقاق ولا افتراق وان وقع بينهم بعض قلق وتشكي منها

مطلب صيرورة حكومة فرانسا ملوكية محضة

ولما اكتسب ملوك فرانسا اعظم شوكة يمكن اجراؤها في الحكومة كحق تشريع الشرائع والقوانين وترتيب الفرد والغرامات على الناس وابقاء جيوش مستأجرة على الدوام وعقد صلح واشهار حرب آل ترتيب المملكة بعد أن كان قريبا من الحكومة الدمقراطية (اى الجمهورية) في زمن الدولة الاولى وصار في زمن الدولة الثانية ارستوقراطيا (اى من قبيل حكومة الاشراف) الى ان صار في زمن الدولة الثالثة مونرشيكا (اى ملوكيا محضا) والظاهر انه من وقت بحث مع الاهتمام عن ازالة جميع ما يظهر ان فيه مزاولة لابقاء شيء من آثار حكومة الازمنة المتقدمة او يكون منافيا لتذكرها في مدة حكومة فرنسيس الاول الطويلة التي لم تخمد نيرانها كان هذا الملك في حروب

كبيرة

كبيرة مستمرة لا ينقص ازدحامها فاضطر الى ان جعل على الرعايا فردا وغرامات جسيمة من غير ان يجمع مشورة ابيرتا ويسترضيها فى ذلك وكان لا يؤذن للاهالى فى توزيع الفرد والغرامات بانفسهم على التقسيم مع ان هذا كان ثابتا قبل ذلك لكل رجل حر بموجب قوانين الحكومة الالتزاميه

ولكن مع ذلك كله كان تدقيق شيئان من الرسوم القديمة ضيقا على المزايا الملوكية وحصراها فى حدود معينة لا تتجاوزها الى ان يتقيد ترتيب مملكة فرانسا ويؤول الى الظلم والتعدى احدهما الحقوق والمزايا التى كان يطلبها الاشراف فكان هذا شيئا ثالثا مانعا للشوكة الملوكية عن تعديها وتجاوزها الحدود وحصرها كيف تشاء ثم الاشراف بفرانسا كانوا وقتئذ فاقدين لشوكتهم التى كانت لهم بمقتضى القوانين ولكن كان ذلك بالنظر لمجموع طائفتهم بخلاف الحقوق الشخصية فكانوا باقين على المحافظة عليها وعلى رفعة قدرهم بحيث ان كل شخص منهم كان لا يدعى حقوقه ولا علو مقداره فكانوا يعلمون ان مرتبتهم لم تزل فوق مراتب الرعايا وكانوا معافين من الفرد والغرامات دون الاهالى وكانوا يستحقرون شغل الاهالى ويعدونها عارا عليهم بحيث كانوا لا يشتغلون بها ولا يدخلون فى مصلحة من مصالح الاهالى الا بحرية خصوصية يمتازون بها وذلك انهم كانوا يأخذون نشانات وعلامات ظاهرة فى ملبوساتهم لكى يستدل بها على رفعة شأنهم وامتيازهم عن غيرهم من سائر الطوائف وكانوا يعاملون بالمراعاة فى زمن الصلح وكانوا فى زمن الحرب يدعون خصوصيات يمتازون بها عن الرعية ثم وان كان كثير من هذه الخصوصيات غير ثابت لهم بموجب اوامر ملوكية ولا ماخوذ من الشرائع والقوانين الصحيحة الموجودة بالمملكة الا انه مبنى على رسوم تعظيم واحترام كانت لهم وهذه الرسوم وان كانت لا تصل الى درجة القوانين الشرعية والاوامر الملوكية فى التأثير والثبوت على اصل مبنى الا انها لم تكن دونها فى الاحترام

مطلب
حصر الشوكة الملوكية بمزايا الاشراف وخصايصهم (وهو الشيء الاول)

ولما كانت حقوق الاشراف ناشئة عن احترامهم الذي كان يجتهدهم على حفظها ومحاماتها صارت محترمة حتى عند الملك وكان اذا عارضت حقوقهم في امر مع حقوق الملك عطلت الحقوق الملوكية وابطلت اجراءها ولو كان هنالك ملك ظالم ذو بطش شديد لامكنه محق هذه الطائفة وتدميرها بالكلية ولكن مادامت تلك الطائفة باقية على حالها ومحافظة على امتيازاتها الشخصية كان لا يرجى للشوكة الملوكية ان تتسع بل تمايل لكون محصورة في حدود ضيقة

وحيث ان اشراف فرانسا كانوا كثيرين جدا وعندهم غيرة كبيرة على حفظ رفعة شأنهم لم تزل شوكتهم في ازدياد وازدياد حتى انتهى الامر الى ان صاروا يعينون للملك الطرق التي يسلكها في احكامه بحيث لا يتعداها الى غيرها وبذلك امتازت المملكة الفرانساوية عن غيرها وصارت الرئاسة حائلا متوسطا بين الملك والرعايا وصار احترام مزايا طائفة الاهلية من الامور الضرورية الواجبة في جميع الاحوال و[illegible] حرس من حصول ادنى تعد ظاهر على خصوصياتهم ومزاياهم [illegible] الحرمة وبذلك كنت ترى ان فرانسا نوع حكم مونرشيكي (اي ملوكي) لم يكن معلوما عند الاقدمين وهو ان شوكة الملك كانت غير ضيق عليها بقانون شرعي مخصوص وانما كانت محدودة محصورة بحسب رأي طائفة من رعاياه اقتضى تضييقها

واذا تأملت في هوائه صدر من دواوين البرلمان التي كانت بمملكة فرانسا خصوصا من برلمان باريس احكام بها ازداد حصر الشوكة الملوكية في حدود ضيقة وذلك ان برلمان باريس كان في الاصل ديوان ملوك فرانسا او المحكمة العليا التي كان يأتمنها الملوك على تدبير القضاء والحكم بالعدل في الرعايا ثم وارتضاهم حتى كانوا يرخصون لاربابه ان يحكموا حكما نهائيا قطعيا في جميع الدعاوى التي كانت ترسل اليهم وتحال عليهم من دواوين البارونيين فلما انتظم حال هذا الديوان وتعين زمن انعقاده ومكانه وانتظمت احكامه واصوله وكيفية اقامة الدعاوى فيه وصارت تحال عليه جميع الدعاوى المهمة

مطلب
تضييق شوكة الملوكية بحكم دواوين البرلمان (وهذا هو ثاني الشيئين المتقدمين)

واعتادت الاهالى السعى اليه كمحكمة العدل الكبرى زادت شوكته ونفذت كلمته واكتسب اربابه علو القدر والاعتبار حتى صارت احكامهم محترمة نافذة ومع ان خصوصية التشريع وانشاء القوانين والاحكام كانت من خصوصيات ملوك فرانسا كانت لا تجرى احكامهم واوامرهم الا اذا عرضت على پرلمان پاريس وقبلت فيه وقيدت وبعد ذلك تعد من القوانين الجارية فى المملكة وحيث كانت مشورة وكلاء المملكة لا تنعقد الا فى اوقات مخصوصة كان الملوك فى خلال المدة التى لا تنعقد فيها تلك المشورة يشاورون البرلمان فى شأن المعضلات والمصالح التى يصعب تدبيرها بل كانوا غالبا يسلكون على حسب رأى ارباب هذا الديوان سوآء كان ذلك فى اشهار حرب وفى عقد صلح او غير ذلك من المصالح الجسيمة المهمة وصار هذا الديوان فى فرانسا محكمة كبرى تستخدمها جميع الشرائع وكانت كيفية احكامه منتظمة لا تتغير حتى ترتب عليه طرق جديدة لاقامة الدعاوى واصول لاجرآء العدل صارت محترمة بحيث [illegible] كان يخشى ان يتعداها او يهتك حرمتها ومع ان ارباب هذا الديوان [illegible] يكونوا معتقدين بخصوصية التشريع ولم يكونوا وكلاء الرعية فقد امكنهم بما اكتسبوه فيما بعد من الاعتبار ونفوذ الكلمة ان يعارضوا فى كل حادثة ومصلحة صدر بها قانون من طرف الملك

ولم تزل فرانسا فى ازدياد واتساع حتى وصلت الى صورتها الآن

مطلب ترتيب ايمبراطورية المانيا وحكومتها

ايمبراطورية المانيا التى نذكر لك هنا قانونها السياسى على ما كان عليه فى ابتدآء القرن السادس عشر من غير ان نأتى فى ذلك بتفاصيل يضل فى اعماقها عقل قارى كتابنا هذا كتعداد محاكمها وبيان اربابها الكثيرين ومنازعة بعضهم بعضا فى الحقوق والخصايص التى كانوا يدعونها وما كان يقع بين علماء الاحكام من المناقشات والمجادلات العديدة فى شأن تلك الاشياء

مطلب حالة ايمبراطورية المانيا تحت حكم كرلوس ماكوس وذريته

وكانت ايمبراطورية كرلوس ماكوس كبنيان عظيم واسع بنى وشيد فى قليل من الزمن بحيث لا يمكن دوامه ففى زمن حكومة اول خلفائه اخذ اساس هذا البنيان فى تزلزل وارتجاج اعقبه تدمير واضمحلال فقطت هذه

الامبراطورية كانت اضغاث احلام فانفصل من وقتئذ تاج المانيا عن تاج مملكة فرانسا ولم يجتمعا ثانيا فاسس خلفاء كرلوس مانوس هاتين المملكتين الكبيرتين اللتين حصل بينهما الشقاق والخصومة وصارتا عدوتين لبعضهما بسبب وضعهما الذى هما فيه بالنسبة لبعضهما فالفرع الذى استولى فى المانيا على كرسى السلطنة من ذرية كرلوس مانوس سعد حاله اقل من الفرع الذى حكم فى فرانسا لان الشوكة الملوكية بالمانيا كانت فى مبدء الامر باقية على درجة من القوة لم تكن للملوك فرانسا حتى ان اشراف المانيا مع انهم كانوا يتمتعون عزايا واسعة جدا وكان لهم املاك واراض التزامية كثيرة لم يمكنهم ان يصلوا الى استقلالهم بانفسهم الامع البطئ والتأنى ولم يزل اكابر ضباط التاج ملازمين اطاعة الملك وتحت طاعته برهة طويلة ومكثت الالتزامات مدة مستطيلة على حالتها الاصلية من غير ان تكون وراثية لعائلات من كانت بايديهم بل كانت تنتقل من مقدم الى آخر ومن عائلة الى اخرى على حسب ارادة الملك

ثم انقرض الفرع النساوى من العائلة الكرلوفنجية بعد المكابدات والتقلبات العديدة واما الفرع الذى كان يحكم فى مملكة فرانسا فانه حينئذ سقط من أوج الاعتبار الى حضيض الاحتقار حتى صار اهل الفرانسا لا يعتبرون احدا من ملوك هذا الفرع وتجاوزوا الحدود فى حقوقهم الثابتة لهم بحريتهم فعقدوا مشورة عمومية من الملة والتصقوا بحضرة اربابها كوراد فونتة فركونيا واقاموه ايمبراطورا عليهم وانتخبوا بعده هنرى دو سكس ثم ثلاثة من ذريته يسمى كل منهم باسم أوتون فعادت بهجة المملكة اليها بسبب اتساع اراضى الايمبراطرة السكسونية وبعد رعبهم وجسارتهم وشجاعتهم وازدادت الشوكة الملوكية وعظم بأسها وخيف بطشها فتوجه الايمبراطور أوتون الاكبر الى ايطاليا قاصدا اجتياح اراضيها فى سلطة كرلوس مانوس فتغلب على تلك البلاد ورتب فيها قوانين وشرائع جديدة واقره على حكومتها جميع عمالات اوربا ونصب بابات بارادته وعزل آخرين وضم مملكة ايطاليا الى ايمبراطورية (سنة ٩١١) (سنة ٩٥٢)

مطلب
اكتساب اشراف المانيا القوة والاستقلال

المانيا عموما بعد انتصاره هذا واغتر بسراب نجاحه ولقب نفسه بالقيصر واوغسطوس وزعم انه خليفة امبراطرة مدينة رومة القديمة وانه وارثهم في حقوقهم ودولتهم مع انه مولود بالبلاد الجرمانية

ولكن بينما كان هؤلاء الامبراطرة يزيدون على التدريج في شوكتهم بواسطة هذه الالقاب والفتوحات الجديدة اشتغل اشراف المانيا بتوسيع مزاياهم وتقوية احكامهم وقتا فآتهم لاسيما وكانت احوال الوقت تساعدهم في مشروعاتهم حيث ان القوة والسطوة التى اكتسبتها الشوكة الملوكية في زمن كرلوس ماينوس كانت قد ضعفت وتلاشت في اقرب وقت فحصل لبعض خلفائه ضعف وعجز كبير بحيث انه كان يسوغ لاتباعهم الذين هم اقل شوكة من الاشراف ان يزيدوا ويتشددوا في مزاياهم ويدعوا حقوقا جديدة وكان البعض الآخر من الامبراطرة خلفاء كرلوس ماينوس مشغولا دائما بالحروب المدنية الداخلية فاضطروا الى ان صاروا يراعون خاطر الاحزاب التى كانت معهم من الاهالى التى تساعدوهم فكانوا يتغافلون عن تعدى هذه الاحزاب الحدود بل كانوا على ذلك يقرونه ويستحسنونه فصارت الالتزامات على التدريج وراثية يتوارثها العصبة او الحواشى وكان النساء والرجال يطلبون حقوقهم في الالتزام الموروث لهم واخذ يرتب كل من البارونيين في اراضيه والتزاماته احكاما خصوصية وافتاء مستقلا عن افتاء المملكة وكذلك دوقات المانيا والقومسات اشتغلوا عند وجود هذه الفرصة بجعل اراضيهم التزامات مخصوصة مستقلة بنفسها وكل ذلك كان لا يخفى على الامبراطرة بل كانوا يعلمونه غير انهم كانوا يعلمون انه لا يمكنهم قمع نفوس اتباعهم الطماعين الا اذا صرفوا جميع قواهم وبذلوا كل جهدهم اذ كان هؤلاء الاتباع ارباب شوكة وقوة عظيمة وحيث كان هؤلاء الملوك وقتئذ يعتنون في الاكثر بغزواتهم مع بلاد ايطاليا ورأوا انه لا يمكنهم النجاح بتلك الغزوات الا باعانة الاشراف لم يريدوا أن يغضبوا رؤساء تلك الطائفة بالتعدى على مزاياهم وافتائهم وظنوا انه يمكنهم أن يتوصلوا

مطلب
اكتساب قسيسى
البابا شوكة مثل شوكة
الاشراف

الى هذا المقصد بطريق اخرى وهى أن صاروا يعطون لطائفة القسيسين املاكا عظيمة وأغدقوا عليهم بالخيرات وجعلوها طائفة محترمة مؤملين أن قدرة هذه الطائفة فيما بعد تكون موازية ومعادلة لقدرة الاشراف

مطلب
النتائج القبيحة التى نشأت عن تقوى شوكة القسيسين واتساع قدرتهم
(سنة ...)

وعما قليل ظهرت نتائج وثمرات شنيعة لهذا التدبير السياسى الذى كان عن خطاء ونشأ عنه خلاف مقصود هؤلاء الايمبراطرة وتغيرت احوال الممالك فى زمن ايمبراطرة عائلات فرنكونيا وسوابه الذين انتخبهم اهالى المانيا بالطوع والاختيار للاستيلاء على الايمبراطورية فصارت البابا بهذا التغيير سيدا والواقعة تعجب منها اهالى اوربا ولا يمكن الآن التصديق بها عقلا وهى ان البابات الذين كانوا الى ذلك الوقت من تعلق الايمبراطرة ومن اتباعهم وتحت حكمهم ولم يحصل لهم ترقية ولا اكتسب شوكة الا بعناية الايمبراطرة طلبوا ان تكون لهم الحكومة العليا فى الافاق زاعمين انهم خلفاء الله فى ارضه فصاروا يحكمون على الايمبراطرة بالعقاب والفسق والخروج عن الدين وبالعزل عن منصب الايمبراطورية وهذه المشروعات لم تكن ناشئة عن طمع كاهن او بابا اعتز باتساع حكومته الدينية وعظم شوكته الباباية بل من تصدى لذلك كان جديرا به وهو البابا اغريغوار لانه كان نشطا جسورا وكان يؤمل نجاح دعواه وتصديه لهذا المقصد بسبب حذقه واستقامة سياسته وكثرة معارفه السياسية فلما وجد امير آل المانيا واشرافهما بين عدد ايمبراطرة اولى سطوة بسبب اتساع التزاماتهم واراضيهم واستقلال افتنتهم من انشاء ايمبراطرة عصرهم ورآهم مستعدين لتجهيز اى مشروع كان يفضى الى حصر الشوكة الايمبراطورية فى حدود ضيقة ورأى ايضا ان القسيسين المساوية كانوا فى القوة تقريبا مثل هؤلاء الامراء والاشراف وانهم بلا شك يعينون بقدر ما يمكنهم كل من يظهر المحاماة عن مزاياهم وخصايصهم ويجتهد فى طلب استقلالهم اخذ يتداول فى هذا الشأن مع الاشراف والقسيسين حتى يتفق قبل ان يدخل الميدان

مطلب المشاجرات التى حصلت بين البابات والاباطرة

مع الامبراطور ان هناك من احزاب هاتين الطائفتين اناسا كثيرين ارباب شوكة قوية يعينونه اتم الاعانة على مرامه

فتعلل اغرغوار بعلل يظهر انها حقة وان كانت فى الواقع لا اصل لها وبدأ بالشقاق والمنازعة مع الامبراطور هنرى الرابع وذلك انه تشكى من كون هذا الامبراطور قد وهب بنفسه للقسيسين عطايا كثيرة وتبرع لهم بانعامات واموال قسمها بينهم وهذا مخل بمزايا اغرغوار لانه يزعم ان حق هذه القسمة من خصائصه اذ هو رئيس الكنيسة وطلب من هنرى المذكور أن لا يعود لمثل ذلك وان لا يتعدى حدود الاشياء الملكية وان لا يحكم فى ما عداه من الاشياء وان يجتنب الجور والتعدى على ما هو من وظيفة البابات مما يتعلق بالديانة فأبى الامبراطور ذلك ولم يرض بترك هذه الحقوق لانها كانت ثابتة لاسلافه فصار مغضوبا عليه وطريد الكنيسة فخرج عليه امراء المانيا واعيانها واكابر قسيسيها واخذوا فى قتاله وحرضوا عليه امه وزوجته واولاده حتى بغضوه وتبرأوا منه جميعا ونقضوا كل رابطة بينهم وبينه طبيعية كانت او شرعية وانضموا الى حزب اعدائه فهذه هى الحيلة والواسطة التى اشترى بها بابوات رومة نيران حمية بدع هذا العصر وهوس اهله وعرف ان يأخذ بعقول احزاب الفتن من اهل ايطاليا واهل المانيا حتى ان هذا الامبراطور المشار اليه بالفضائل العالية والمعارف النادرة الوجود اضطر الى ان يظهر بالتضرع على ابواب قصر البابا ومكث عليها ثلاثة ايام مكشوف الرأس فى شدة القر وبرد الشتاء يطلب العفو من البابا ومع ذلك فلم يناله الا مع الصعوبة واشتراط شروط مفضحة تمزق العرض

(سنة ١٠٧٧)

فتلك الكيفية المدنسة بعثت بمقام الامبراطورية وبقى اثرها مدة طويلة ونشأ عن هذه المشاجرة التى حصلت بين اغرغوار وهنرى تحزب حزبين عظيمين عدوين لبعضهما احدهما يقال له حزب القويلف والاخر يسمى حزب الجبلين فكانت بهما نيران الفتن مضطرمة بين المانيا وايطاليا ثلاثة قرون من غير خمود فكان حزب القويلف يتبع ما يدعيه البابات

مطلب
تنازل الشوكة الامبراطورية وانحطاطها على التدريج
(سنة ١٢٥٦)

(سنة ١٢٧٣)

من المرد وحرب الجيلين يحامى عن الشوكة الامبراطورية ولكن فى اثناء هذه التعكيرات والفتن ظهر رأى معضد شديد العصبة يقول باذلال الامبراطرة وبخسهم واضعاف شوكتهم وصار هذا الرأى متبعا ومؤيدا عدة قرون وكان بابات ايطاليا وقاليها المستقلة الحرة واشراف المانيا وقسيسوها يرغبون جميعا فى نجاح هذا الرأى ومع ان الشوكة الامبراطورية كان يحصل لها قوة وصولة فى مدة بعض امبراطرة ارباب عزم وحزم لم تزل آخذة فى الانحطاط والاضمحلال حتى انه فى مدة الفترة الطويلة التى حصلت عقب موت الامبراطور غليوم الهولندى لم يكن بقيا فيها الا مجرد الخيال والصورة

ثم ولى رودولف دوهبسبورغ امبراطورا على المانيا بالانتخاب وهو الذى نقش علم اوستريا ومهد لها ما يكون به علو شأنها فى المستقبل ولم يكن انتخابهم له ناشئا عن ظنهم فيه انه يرجع دعائم شوكة الامبراطورية بل لظهور نوع من ضعف شوكته وقوة اقترانه بالايعاز منه امراء المانيا الذين كانوا يأملون ان ينتزعوا لانفسهم ما بقى من شوكة الملوكية التى كانوا اضعفوها ثم تولى الامبراطورية بعده عدة امبراطرة لهذه العلة بعينها وكانوا ضعفاء الشوكة فسلبت منهم جميع الحقوق التى كانت باقية للامبراطرة حيث لم يمكنهم ادارتها ولا المحافظة عليها

مطلب
تغيير ترتيب تلك الامبراطورية تغييرا كليا

وفى هذا الزمن الكثير التعكيرات والفتن حصل انقلاب عظيم وتغيير جسيم فى ترتيب الجمعية الجرمانية فلم يبق مبانيه على اصله سوى الاسماء القديمة التى كانت تسمى بها الحاكم واسماء القضاة ولم يبق من السياسة القديمة الا مجرد الصورة الظاهرية واما باطن الحكومة فقد تغير بالكلية وذلك انه حصل مدة الفترة التى كانت بعد موت غليوم الهولندى وخلو كرسى الامبراطورية عن حاكم ان اكابر الاشراف واعيان القسيسين واهالى المدن الحرة المستقلة بذلوا جهدهم فى اثبات ما كانوا يزعمونه من الحقوق وتوسيع ما كانوا قد حازوه بالغصب والتعدى فادعوا ان لهم الحق فى كونهم

يحكمون فى اراضيهم بحكومة مطلقة مستقلة ولم يرضوا أن ينقادوا الرئيس فى مصلحة ما يخص تدبيرهم الداخلى وسياسة التزاماتهم وكانوا يحدثون قوانين وشرائع جديدة ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح ويضربون المعاملة ويرتبون الفرد والغرامات على الاهالى وبالجملة كانوا يجرون سائر الاعمال الملوكية التى تباشرها كل دولة مستقلة عن غيرها وبحيث اصول الانتظام والقوانين السياسية التى كانت انضمت بها اقاليم المانيا الى بعضها وصارت جمعية واحدة فلولا انه كان هناك صورة ارتباط وعلاقة بين الجمعية الجرمانية والحكومة الالتزامية لانحل عقد نظامها وصارت عدما الا ان ارتباطها بالحكومة الالتزامية وان كان صوريا انقذها من ان تتعرض بالكلية

مطلب
وسايط مستعملة
لابطال اختلال
الدولة

ثم ان هذا الارتباط الجامع بين الحكومة الاترسية والجمعية الجرمانية كان واهيا جدا بحيث لم يبق فى الجمعية الجرمانية قوة كافية لحفظ الامن بين الناس وابقاء الراحة العمومية بل ولا ما يوجب الطمأنينة الشخصية وبالجملة فمن استيلاء رودلف دوهبسبورغ على كرسى الامبراطورية الى حكومة مكسيمليان الذى خلفه ثم لكان قاست تلك الامبراطورية جميع الاهوال والمصائب التى تكون عرضة لها كل دولة فقدت شوكتها ولم يبق فى وسعها وسيلة تدافع بها عن نفسها فكانت بلاد الجمعية الجرمانية فى كرب شديد مما كان يتجدد فيها على الدوام من اسباب الفتن والشقاق التى تصدر عن جنايتها فكانت نيران مشاجراتها الخصوصية لا تنطفى لما كان فى الناس وذلك من الحقد على بعضهم ولم يكن هناك شوكة قوية تمنعهم عن بعضهم وتطفئ تلك النيران المتقدة بينهم فطغوا وبغوا وفشا بينهم الظلم والجور والسلب والنهب فى جميع البلاد وانقطعت التجارة وتعطلت الصنايع وصارت اقاليم المانيا اشبه ببلاد اتلفها الاعداء وخربوها فتنبه الناس الى استعمال بعض وسائط يسترجعون بها الراحة والامن بينهم ويضبطون بلادهم ويزيلون خللها وهذه الوسائط نفسها مما تدل على ان المصائب التى نشأت

عن تلك التقلبات وعن عدم الحكم كانت لاتطاق فعينوا جماعات منهم ليكونوا حكما بين الاخصام فى شأن المشاجرات التى كانت تقع بين الايالات المختلفة وجمعت المدن عصبة واحدة وتعاهدت على قمع الاشراف عن التعدى والظلم وتفق الاشراف كذلك مع بعضهم على ان يحافظوا على الطمأنينة والامن وأن لايعملوا مايوجب الفشل والشقاق بينهم وقسمت المانيا الى عدة اقسام كل قسم منها له حكومة تخصه واحكام مقصورة عليه تقوم مقام المحكمة العمومية المشتركة بين عموم الناس ولكن جميع هذه الوسايط لم تجد نفعا بدليل ما يستدل على عظم المصائب والاهوال التى حدثت تلك الجمعية ثم انه بعد المكابدات الكثيرة والمشاق الصعبة توصل الايمبراطور مكسيمليان الى استرجاع الامن والنظام والطمأنينة العمومية فى جميع بلاد تلك الايمبراطورية بحيث احدث فيها ديوانا يقال له المجلس او الديوان الايمبراطورى وهو عبارة عن محكمة مركبة من عدة قضاة بعضهم انتخبه الايمبراطور وبعضهم انتخبه الاهالى ورخص لهذا الديوان أن يحكم ويقضى فى جميع دعاوى الجمعية الجرمانية بحيث لايكون لاحد غيره أن يراجع فى حكمه احد وبعد مضى بعض سنوات غير هذا الايمبراطور صورة المشورة الاولية (اى المشورة العليا) التى كانت تحال عليها دعاوى الالتزامات والدعاوى التى تخص ابناء الايمبراطور وبذلك اكتسبت شوكته بعض قوة وشدة

ومع انه حصل بما احدثه هذا الايمبراطور بعض موزاعات كثيرة على اقامة الايمبراطورية كانت حكومة تلك الايمبراطورية فى ابتداء القرن الذى نتكلم عليه لم تزل حكومة خصوصية لاتشبه فى شئ جميع الحكومات التى عهدت عند المتقدمين والمتأخرين وذلك لان تلك الايمبراطورية كانت مركبة من عدة دول مختلفة كانت كل واحدة منها تجرى فى شأن اراضيها والتزاماتها عادات واحكاما مخصوصة لاتعلق لها باحكام الاخرى من تلك الدول التى كان يحكمها ايمبراطور واحد فكان جميع ما ينشر فى الايمبراطورية من الاوامر والقوانين التى تخص كافة الاهالى والرعايا يصدر باسمه وكان له

مطلب
تجديد المجلس الايمبراطورى

(سنة ١٤٩٥)
(سنة ٩٠٠)

مطلب
فى ان تلك الايمبراطورية فى ابتداء القرن السادس عشر كانت مركبة من مجموع دول مستقلة عن بعضها فى الحكم

جدرة

قدرة على اجرآئه وتنفيذه فى جميع بلاده ولكن تلك القدرة لم تكن الاصورية فقط حيث كانت قدرة الامرآء والاشراف والدول اشد تأثيرا منها فى تدبير سائر الاعمال السياسية فكان لا يمكن من غير رضى مشورة الهيئة احداث قانون فى الجمعية الجرمانية ولا عمل ذى يخص المصلحة العامة وكان كل امير له الحق فى أن يحضر فى هذه المشورة ويعطى رأيه وكذلك وكلاء كل دولة من الدول المستقلة السابقة كانوا يحضرون تلك المشورة ويشاركون فى الشورى وكانت شرآئع الامبراطورية ترتب على حسب ما استقر عليه الرأى فى تلك المشورة ويجب على الامبراطور قبولها والامر باجرآئها

مطلب الخصوصيات التى امتازت بها الجمعية الجرمانية

واذا نظرت الى ترتيب تلك الامبراطورية من هذا الوجه وجدت فيها مشابهة للعصبة الاخائية التى كانت ببلاد اليونان فى الازمنة الخالية وللمعاهدة التى كانت بالاقاليم المجتمعة والاقاليم السويسية فى الازمنة الاخيرة واذا نظرت اليه من جهة اخرى رأيت فيها من الخصوصيات ما يميزها عن غيرها من الجمعيات وذلك ان هذه الجمعية الجرمانية لم تكن مستقلة عن بعضها استقلالا كليا بل كان جميع امرآئها ودولها ساقرعايا للامبراطور وكانت تعترف له بالتملك عليهم وكانت اراضيهم فى الاصل التزامات للامبراطور ثم اقطعها لهم على انها لا تزال امبراطورية بمعنى انهم ينتفعون بها من غير تملك وله ان يستردها منهم متى شاء فكان يجب عليهم أن يوموا له بما يجب التوفية به للملتزم على اتباعه الذين يدفعون له الخراج ثم وان كان هذا الامر قد انعدم وتلاشت التبعية الالتزامية لان الرسوم والقوانين القديمة كانت محفوظة فى الصورة باقية على ما كانت عليه حتى كانت كلمة امبراطرة المانيا نافذة وشوكتهم قوية فى بلادهم ككثيرهم من ملوك اوربا فبذلك كان يوجد فى الامبراطورية الجرمانية مباينة كلية بين باطن الحكومة وكيفية التدبير وذلك انه بمقتضى الحكومة لم يكن الامبراطور الا رئيسا على الجمعية حيث ولاه اهلها ملكا عليهم باختيارهم واتبعوه بارادتهم

مطلب
امور مخلة كانت موجودة فى ترتيب الايمبراطورية

واما بالنظر الى التدبير وظاهر الحكومة فكان يظهر ان للايمبراطور الحكم المطلق فى الحكومة فبناء على ذلك كان ترتيب الجمعية الجرمانية مشتملا على امور موجبة للفشل بين اعضاء تلك الجمعية حيث كانت تضعف الروابط الباطنية بينهم وتمنعهم من تنظيم اعمالهم وتدبير مشروعاتهم السياسية ونشأ عن هذا الخلل الذى كان ملازما لعوائق الايمبراطورية حوادث عظيمة يتعذر على جاهلها ان يقف على حقيقة كثير من وقائع حكومة شرلكان وان يعرف الحكومة الجرمانية معرفة صحيحة

مطلب
عيوب اخرى نشأت من حصر الشوكة الايمبراطورية وشدة التضييق على الملك

وفى ابتداء القرن السادس عشر كان ايمبراطرة المانيا ممتازين بافخر الالقاب الملوكية ونيشانات وعلامات دالة على علو شأنهم فكان يظهر ان لهم شوكة اعلا واعظم من شوكة غيرهم من الملوك وكان اعظم امراء الايمبراطورية يصحبونهم ويخدمونهم فى بعض الاحيان بوظيفة ضباط بيت الملك وكانوا يتمتعون بمزايا وخصوصيات لم يمكن لغيرهم من الملوك أن يتجاسر على أن يدعى مثلها لنفسه فحافظوا على جميع الحقوق التى كانت ثابتة لاسلافهم فى الازمنة الخالية واما من جهة الاملاك والايرادات الواسعة التى كانت لايمبراطرة المانيا سابقا على امتداد شاطئ نهر الرين من مدينة بالة الى مدينة كولون فانهم تجردوا عنها وعن غيرها من سائر الاملاك الارضية بحيث لم يبق لهم مدينة ولا قصر ولا [illegible]ن الارض يملكونه بوظيفة كونهم رؤساء الايمبراطورية وبذلك قلت [illegible]تهم جدا حتى كادت ان تكون عدما [illegible] والامدادات العظيمة الجسيمة التى كانوا يأخذونها بالسهولة من ا[illegible]ى عند الحاجة صارت لاتعطى لهم الا بغاية الصعوبة والتقتير والتحسر من الاهالى حتى ان امراء الايمبراطورية وسائر دولها لم تكن رعية للايمبراطور الا بالاسم فقط وان كان يظهر منها الانقياد والامتثال له لان كلا من الامراء وتلك الدول كان يجرى فى اراضيه احكاما وافتاآت خصوصية مستقلة عن افتاء الايمبراطور

ولما

مطلب
فيما يتعلق بلقب
الاعبراطرة
وادعاآتهم

ولما كانت الحكومة بهذه الصورة رديئة التدبير حصل لها مضار عظيمة
تعذر اجتنابها وذلك ان الاعبراطرة لما اغتروا بابهة القابهم ورونق شاناتهم
التى كانت تدل على اتساع الشوكة وعظمها حملهم ذلك على ان اعتقدوا
انهم هم ملوك المانيا الحقيقيون وانهم لا يشركهم فيها احد فصاروا يسعون
دائما مع بذل الجهد فيما يثبت لهم التمتع بالحقوق والمزايا التى كان يظهر لهم
امكان تحصيلها بموجب قوانين الاعبراطورية لاسيما وكان يتمتع بها قبلهم
كرلوس انوس والاعبراطور اوتون ولما كان الامرآء واهل الدول لا يجهلون
مآرب ... بهم وانهم فى دعوى عريضة صاروا يلاحظون الديوان الاعبراطورى
فى سائر حركاته وافعاله لحصر شوكتهم فى حدود اضيق مما كانت عليه ونشأت
المنافسة بين الحزبين فكان الاعبراطرة يستندون على ثبوت تلك المزايا
الادعائية لهم بالرسوم والقوانين القديمة وكان الامرآء واهل الدول
يعدون هذه الرسوم من الامور التى الغيت وبطل العمل بها ويعضدون
بقواعد واصول جديدة ويؤسسون دعواهم على خصوصيات حادثة
يدعون ان الملوك معتدون عليهم فى شأنها عادلون فيها عن منهاج الحق

مطلب
طريقة انتخاب
الملوك

وقد ازدادت غيرة الامرآء واهالى الدول من الشوكة الاعبراطورية
وعظمت المعارضة والمناقضة بين حقوقهم وحقوقها واشتدت المنافسة
بينهم وبينها حين صار الاعبراطرة يولون على المملكة بانتخاب بعض امرآء من
الاشراف مخصوصين ممتازين عن غيرهم فى الدرجات والمناصب وكان قبل ذلك
يجتمع اهل ... الجرمانية كلهم ليتفقوا على انتخاب رئيس للاعبراطورية
عند خلو الكرسى من الاعبراطرة ثم فى اثناء الفتن والتقلبات التى
افسدت حالة اوروبا مدة قرون عديدة ظهر سبعة من الامرآء اصحاب
التزامات واراض واسعة جدا نالوا من مناصب الدولة العظيمة حقا وراثيا
فادعوا انهم دون غيرهم لهم الحق فى انتخاب الاعبراطرة وثبت ذلك الحق لهم
بالفرمان المسمى فرمان الذهب الصادر من الملك كرلوس الرابع وبهذا
الفرمان تبين لهم طريق هذا الانتخاب وكيفيته ولقب هؤلاء السبعة بلفظ

ايلكتور اى المنتخبين فلما رأى الاشراف واهل المدائن الحرة انهم تجردوا
عن تلك المزية وخرجوا عن دائرة اربابها مع انها كانت ثابتة لهم منذ زمن
طويل تناقصت محبتهم فى الامبراطور حيث لم يكن لهم دخل فى توليته
بل كانوا يخافون من ازدياد شوكته ولكن عما قليل عظمت سطوة هؤلاء
المنتخبين حتى صار يهابهم الامبراطرة ويخشون بأسهم لعظم شوكتهم
واتساع دائرة مزاياهم وخصوصياتهم لانهم كادوا يساوون بها الامبراطرة
فى بعض الاحكام الاستثنائية وبالجملة فلم يترتب على انشاء هذه الجمعية
الانتخابية فى الامبراطورية واكتسابها الشوكة الا تقوية الفشل
الذى كان ملازما للجمعية الجرمانية مع انه كان القصد من انشائها قطع
عرق الفشل وازالته

مطلب
تنوع صور الحكومات فى دول الجمعية الجرمانية

وكانت اسباب هذا الفشل مقوية تنوع صور الحكومات المدنية التى كانت
فى الدول الجرمانية بل ربما كانت هذه الحكومات متناقضة مع بعضها
لتلك الاسباب ولا يتصور وجود التئام واتحاد كامل بين الدول المستقلة
عن بعضها ولو فرض ان صور حكوماتها متقاربة ومتشابهة وحيث ان
الامبراطورية الجرمانية كانت مركبة من امراء وقسيسين ومدائن حرة
مستقلة وكلها كانت بمعزل عن بعضها كان يتعذر ائتلافها والتئامها
مع بعضها التئاما تاما فكانت المدائن الحرة جمهوريات محترمة لها قوانين
الاستقلال وتولع بالحرية كما هو شأن الحكومات الجمهورية واما الامراء
والاشراف فكان لهم الحكومة العليا حيث كانوا يتحدون فى التزاماتهم
بنوع تصرف ملوكى وادارتهم الداخلية كانت تشبه ادارة الممالك الكبيرة
الحكومة على حسب القوانين والاصول الالتزامية فيتعذر بلا شك ان يكون
هناك موافقة بين اغراض هذه الحكومات المختلفة واصولها وذلك لان
اغراض المدائن التى كانت تميل اليها وتسعى فى تحصيلها هى التولع بالحرية
والتجارة واما اغراض الامراء والاشراف فكانت منحصرة فى كسب الشوكة
وحوز الفخار العسكرى فلذلك كان من المستحيل توافق آرائهم واغراضهم

ولم يكن

مطلب في بيان اسباب المنافسة التي كانت بين قسيسي الايمبراطورية وامرائها واشرافها

ولم يكن ايضا بين الايمبراطورية اتفاق ولا اتحاد بين قسيسين والامراء والاشراف بل كان كذلك بين امراء آل الحرة والاشراف فكان في المباعدة اسقفيات وديورة بها اراض وتزامات واسعة وكان لقسيسين اصحاب المقامات مناصب مهمة من اعظم مناصب الدولة ثابتة لهم تحق وراثة وكانت ما عدا البكري من اشراف الرتبة الثانية اذا اعتلوا طبقة قسيسية يعطى من تلك المناصب القسيسية المثارة فكان يتدرر الامراء واشراف الرتبة الاولى من كونهم يرون من هو ادنى منهم رتبة يصل الى درجاتهم ويصير معهم في رتبة واحدة بل ربما كانوا يعطفون بحرمتهم [illegible] وايضا كان القسيسون بتربيتهم وتعليمهم ووظيفتهم وملازمتهم لديوان البابات بمدينة رومة هم طماع وخصوصا [illegible] مطامع [illegible] هم من اهل الجمعية الجرمانية الذين كانوا يشركونهم في المذاكرات [illegible] وجب [illegible] في الايمبراطورية برمتها [illegible] ارادوا وقوف على حقيقة [illegible] الجمعية الجرمانية

مطلب في عدم المساواة بين اهالي الايمبراطورية في الثروة والشوكة

وكذلك كان عدم المساواة بين دول الايمبراطورية في الشوكة والثروة معدودا من جملة اسباب الشقاق والفشل التي ذكرناها وذلك بالامراء [illegible] المنتخبين واشراف الرتبة الاولى كانوا امراء مقتدرين ذوي شوكة يحكمون على بلاد واسعة معمورة عامرة حكما مستقلا مطلق التصرف وكانت عدة حرب من الدول تتمتع بحقوق عمومية وحكومة مطلقة ولكن كانت اراضيها قليلة ولم تكن هناك مناسبة بين شوكتها وشوكة امراء الاعيان وكان من المستحيل ان يتركب من هذه الاجزاء عدة مهدودة وصدها جمعية تكون على قلب رجل واحد حيث كان الحزب الضعيف يعار من الهون بعدم اقتداره على التمتع بحقوقه ومزاياه الثابتة له شرعا ولا على ممانعة عنها وكان الاقوياء مستعدين دائما لسلوك طريق الجور والتعدي وكان امراء الانتخاب والاعيان طرة يشتغلون بتقوية بعضهم بعضا بتوسيع دائرة شوكتهم حيث كانوا يتعدون على حقوق الضعاف من اهل الجمعية الجرمانية وكان الضعفاء من خوفهم وخشيتهم يحيلون امرهم

عن مزاياهم الثابتة لهم بل كان معظمهم يساعد بما يعطى له من الرشوة فريق الافوريا في ادعاآتهم ومشروعاتهم لاضرار الضعفاء

مطلب في كون هذه العيوب منعت الجمعية الجرمانية من ان تنتظم بعضها او تتشارك في تنفيذ مشروعاتها

واذا تأملنا هذه الاسباب الموجبة للفشل والخلل الذى كان ملازما لامبراطورية المانيا سهل علينا ان نقف على اصل عدم الالتئام والتوافق الموجود الآن في جميع مشروعات تلك الامبراطورية واغراضها ولا عجب في بطء هذه الامبراطورية في تنفيذ مشروعاتها وتراخيها وترددها في مشاورها وعدم تصميمها على مقصد تحرزه حيث ان ذلك من شأن كل جمعية مركبة من احزاب لا ارتباط بينها الا بروابط ضعيفة فكانت تتنازع مع بعضها بالقسوة والشدة ولكن كانت الامبراطورية الجرمانية مشتملة على بلاد واسعة جدا معمورة بامم هي بين اقوياء المبنية بحيث لو كان فيهم امبراطور صاحب معرفة عزله همتهم اذ كان فيهم غيرة ورغبة في تحصيل المنفعة العمومية لبلادهم مع ثم وتحريضهم على اظهار شجاعتهم بجميع قواهم لامكن لاى دولة كانت مصادمة جمعياتهم الكبيرة واذا اطلعت على تاريخ الملك شرلكان رأيت مقاصد هذا الملك ومشروعاته اى اجتهد في تنفيذها الاجتهاد التام في الغالب غير ناجحة على وفق مراده او معطلة بالكلية وسبب ذلك وجود الغيرة والفشل وتفرق الآراء واختلافها حيث ان هذه الامور المختلة كانت ملازمة للجمعية الجرمانية لا تنفك عنها ولم يحصل لهذا الملك ظفر الا بعد ان صارت له صولة على امراء تلك الامبراطورية وصارت يده فوق ايديهم يجبرهم على ان يضموا قواهم الى قواه وامكنه حينئذ تتميم بعض مشروعاته العظيمة التى امتازت بها حكومته وصار لها رونق بين الممالك

مطلب حكومة الدولة العثمانية

ثم ان الدولة العثمانية كان لها في زمن شرلكان ارتباط وتعلق بدول اوربا العظيمة وكانت تتداخل غالبا بشوكة عظيمة وبطش كبير في حروب امصارى واداراتهم وجميع مصالحهم ومشروعاتهم بحيث ان ذكر حالة سياسة هذه الامبراطورية الواسعة الشديدة البأس لا فائدة لمن قرأ هذا الكتاب ليس اقل

(روما من ذكر الدول الاخرى التى تكلمنا عليها

مطلب أصل الدولة العثمانية

وقد سبق القضاء فى الازل ان الاقاليم الجنوبية التى هى اخصب بلاد آسيا لابد وان يفتحها عدة مرات الامم الشجعان الاقوياء البنية الذين كانوا يسكنون بلاد تاترستان الواسعة فمن هؤلاء الامم طائفة تسمى بالترك ويقال لها ايضا امة التركمان جاءت مع رؤسائها مرارا عديدة وفتحت بالتوالى فى البلاد من سواحل بحر الخزر الى بوغاز الدردانيل (وهو بوغاز اسلامبول) وفى اثناء القرن الخامس عشر فتح هؤلاء الشجعان ارباب السطوة والعنفوان مدينة القسطنطينية عنوة وجعلوها كرسى سلطنتهم وتغلبوا على الروم وهم اليونان وعلى بغدان والافلاق وغيرهما من بلاد روملى ومقدونيا وعلى قسم من بلاد المجار

مطلب ظلم هذه الدولة

ومع ان كرسى السلطنة العثمانية كان فى اوروبا وكان للسلطان اراض واسعة بهذا القسم الذى هو احد اقسام الدنيا كانت طريقة حكومته مشابهة لحكومات آسيا بالكلية فيمكن ان يلقب بكونه ظالما اى فاعلا مختارا يتصرف كيف يشاء فى رعيته يعنى انه ليست حكومته حكومة ملوكية بالمعنى المتقدم ولا جمهورية وسبب ذلك ان اقتداره العالى وكمال التصرف من خصوصيات كل ملك من بنى عثمان لانهم طاهرو النسب عند الاتراك حيث يعتقدون ان تلك السلالة وحدها هى التى تستحق السلطنة وانها اهل لذلك دون غيرها فلما كان هؤلاء السلاطين يرون ان رعاياهم يخضعون لهم مع غاية الذل كانوا لا يجنحون عن ان يدخلوا فى ممالكهم شيئا من القوانين التى فى غيرها من الممالك والدول يمنع تعدى الملك وظلمه واختصاصه باطلاق التصرف وكان لا يوجد فيها كغيرها محاكم شرعية تعرض عليها القوانين والشرائع قبل تمامها ونشرها فى المملكة ولم يكن بها طائفة اشراف ولا امراء وراثية كما فى المانيا مثلا يغارون على مزاياهم ومناصبهم فيضيقون قوة الملك وشوكته ويمنعونه عن فعل كل ما يريده ويكونون حكما بينه وبين رعاياه بل كانت الدولة العثمانية خلية عن ذلك فكان جميع الرعية فيها

على حد سواء ولا امتياز عندهم الا لمن هو متعلق بخدمة السلطان ان كان هذا الامتياز على قدر المنصب الذي يتقدم فيه الانسان بحيث لا يستظل بظله الا صاحبه دون ذريته وعائلته فاعلى منصب في الدولة لا يفيد الرتبة ولا ارتفاع المنزلة لعائلة صاحبه وكان كل انسان قبل ان يصل الى منصب عظيم ذي رفعة لابد ان يمكث زمنا طويلا في الخدمة والذل لاجل تعليمه واختباره واذا عزل عن منصبه عاد كما كان وتسومى امره وعائلاته وجرى عليه وعلى عشيرته سائر احكام الرعايا وبالجملة فتلك الحكومة المشرقية ليست الا حكومة ظلم وجور مستكملة لانواع الرذائل والقبائح حيث ان السلطان يتوصل بها الى اعدام جميع الرعايا وتجريدهم من جميع الاشياء ويحوزها له بظلمه ويزول بها من قلوب الناس اعتقاد حريتهم ولا يرون انفسهم الا عبيدا وكانه مخلوق لان يحكمهم كيف شاء ويذيقهم العذاب بالعقاب وهم مخلوقون لان يخافوه ويطيعوا امره

مطلب
تحديد قدرة السلطان وتقييد افعاله بالدين

ولكن كما ان هنا في كل دولة حسنة التدبير والحكم موانع واحوال تعوق في اغلب الامور السالفة ذكرها وتبطلها بالكلية كذلك يوجد ايضا في كل دولة قبيحة الحكم بعض احوال تمنع من حصول الامور المضرة وتضعف مصيبتها ان تعذر منعها فمع انه في حكومة الدولة العثمانية كان يوجد الظلم والجور وكانت القوانين لا تمنع الملك عن فعل ما يريده ويشتهيه ربما وجدت موانع واحوال اخرى خصوصية تكون زماما للسلطان تمنعه عن ان يفعل كيف يشاء بمحض ارادته ولو بلغ السلطان ما بلغ من كونه متصرفا مطلقا ولا يخفى ان احكامه مقيدة بالدين وانه ممنوع لتصرف بها اذ احكامه مقصورة عليه وشوكته مستمدة منه وكان ايضا محصورا بالعساكر الذين هم الآلة التي يعضد بها شوكته ففي جميع الاحكام التي بينها الدين يجب على السلطان الامتثال والانقياد من غير تخلف فاذا بين القرآن شيئا من المعاملات او من العبادات او شيئا من سياسات الدول ومصالحها وجب على السلطان ان يعمل بموجب ذلك فاوامره لا يمكن

ان

مطلب
تضييق قوة السلطان
بالعساكر

ان يبطل ما هو منفر وعيب بالدين وزيادة على ذلك كانت العساكر تمنع السلطان منعا كليا وتضيق عليه وذلك ان كل سلطان ظالم يريد ان يتصرف في مملكته كيف يشاء لابد له من قوة عسكرية كافية تكون ملازمة لكرسيه لاجل تأييده وتعضيده واجراء احكامه والاستعانة بها عند الحاجة وحيث ان الدولة العثمانية كانت قد وسعت حكومتها حتى استولت على امم آثرت تلك الدولة ادنيا بها تحت حكمها على تدبيرها رأت انه لابد لها من ان تزيد في عساكرها وتقويها فاراد السلطان مراد وهو السلطان الثالث من الدولة العثمانية ان يحدث وجاقا من العساكر لخدمة نفسه ليكون ورديانه وحفظه فامر ضباطه ان يأتوا اليه كل سنة بخمس الاولاد الشبان الذين يؤخذون اسرى في الحرب ليجعل هذا المقصد حيث انه من منافع الدولة فصارت تعطى له هؤلاء الاولاد الاسارى فيربيهم ويعلمهم صور دين الاسلام حتى اعتادوا من صغرهم على الطاعة والضبط والربط والامور العسكرية ثم جعل منهم بعد ذلك طائفة سميت الانكشارية يعني العساكر الجديدة فتمت الغيرة الدينية والحمية الاسلامية وامتازت من السلطان باهم علامات الشرف التي يضعها الملوك لمن شاؤا فكان هذا سببا في تقدم هذه الطائفة في اصول العسكرية ورغبتها في الفخار والقتال فعلا شأنها وازداد مقامها وصارت عن قريب اعظم العساكر العثمانية وسببا في نجاحهم وانتصارهم وبالجملة فازداد وجاق هؤلاء العساكر الانكشارية واشتهروا بالشجاعة والامتياز عن جميع الوجاقات التي كانت معدة لخفر ذات السلطان حتى استطالوا وانفردوا بذلك

مطلب
صولة الانكشارية
في الدولة العثمانية

وحيث كانت القوة العظمى في جميع الممالك الشاهى في الحقيقة لمن معه القوة العسكرية صار هذا الوجاق بعد ان كان في مبدء امره آلة للسلطان يقوى بها شوكته ويوسعها وكان ذا هيبة وقدرة بحيث كان السلطان يخشى سطوته وذلك ان الانكشارية كانوا في الاسلام بمنزلة العساكر البريتورية الذين كانوا بمدينة رومة في قديم الزمان اذ ادركوا ان لهم فائدة كبيرة

في اقامتهم تحت السلطنة ثبت لواحد اسماه على ذات السلطان وصاروا يبذلون جهدهم في خدمة السلاطين حتى صار السلاطين يراعون وجاقهم ويعاملونه احسن المعاملة وكان وجاق انقابوكولى يعني حفر باب السلطان هو المهاب في الدولة الذي يحتمي بأسه السلطان ووزراؤه فتفرغ السلاطين بجميع مجهوداتهم وسياستهم الى استمالة وجاق الانكشارية اليهم وجعله صدقا انهم لايخونهم ولا يغدرهم وفي حكومة كل سلطان عنده معرفة وشجاعة ونباهة واهلية لحكومة دولته كنت ترى عسكر طائفة الانكشارية مطيعين له كآلات تنفذ للسلطان اغراضه وتفعل ما يأمر به وتخوله مطلق التصرف يفعل كيف يشاء فيهم كعبيدهم واما اذا كان السلطان ضعيفا اوصبيا فالخطر انهم يتمردون مدة حكومته ويوقدون نيران الفتن والاذى ويسكرون من سلاف الحكم والرياسة ويجهرون انهم ارباب الحل والعقد في الدولة ويعطون تاج السلطنة لمن شاؤا ويحرمون منه من ارادوا عزله وحرمانه ويجوزون هؤلاء السلاطين الذين لو كانوا في حد [illegible] كانت نظرة من عينهم او اشارة وكلمة تكفي في قتل من ارادوا قتله

ومن زمن السلطان محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية الى السلطان سليمان الذي تولى السلطنة بعد تولية شرلكان الامبراطورية بعدة اشهر كانت الدولة العلية محكومة بسلاطين ارباب مهارة وسياسة وشهرة ومعارف ادخلوا تحت طاعتهم جميع طوائف رعاياهم على اختلاف مراتبهم وكانوا يتصرفون في عساكرهم الواسعة تصرفا مطلقا حتى ان السلطان سليمان الذي لم يكن مشهورا في الدول الافرنجية الا بكونه ذا فتوحات اشتهر عند مورخي العثمانية بكونه مشرعا كبيرا انشأ قوانين عديدة بها ضبط مملكته واحسن سياستها وحكم بلاده مدة حكومته الطويلة مع الحكمة والمروءة والحزم وكان مطلق التصرف فقسم مملكته الى عدة ايالات وجعل على كل ايالة عدة معينة من العساكر على حسب [illegible] وجعل في كل اقليم اقساما

مخصوصة

مخصوصة من الاراضى يأخذ ايرادها الامداد عساكره ورتب مع غاية التنظيم والاتقان جميع ما يلزم لضبط العساكر وربطهم ورتب امرائهم وبين خدمهم المطلوبة منهم ونظم ايضا تدبير ايرادات المملكة ومصاريفها ومع ان الفرد والغرامات التى تؤخذ من بلاد العثمانية وسائر البلاد المشرقية التى تحت حكمه كانت قليلة الايراد لاتكفى مصاريف السلطنة فى الواقع بتدبيره وتوفيره كانت كافية

مطلب
ما فاق العثمانية به النصارى فى القرن السادس عشر

ثم ان العثمانية كانوا يقاومون اشد المقاومة فى حروب النصارى ويظفرون بهم وينتصرون عليهم فى مدة السلاطين الذين هم من قبيل السلطان سليمان يحسنون الادارة الداخلية المدنية والادارة العسكرية لان الدولة العثمانية كانت قد ازدادت شوكتها تحت سلاطينها العظام ذوى النشاط الذين حكموها على التوالى مدة مستطيلة حتى كان يظهر فى القرن السادس عشر انها وصلت الى اعلى درجات الكمال لقابلها بخلاف دول النصارى الكبيرة فانها كانت بمعزل عن هذه القوة العظيمة وكانت قوى الدولة العثمانية تعادل قوى جميع تلك الدول مع بعضهم وسبب ذلك ان العساكر العثمانية كانوا يتمتعون فى ذلك العصر بمزايا ... فكان يحثهم ذلك على بذل جهدهم فى التعليمات العسكرية ولتقوى فيها اصولا وفروعا حتى فاقوا فيها غيرهم وحين تسلطن السلطان سليمان كانت الانكشارية مرتبة قبله بقرن ونصف وكانت فى غاية الضبط والربط ولم يحصل منها ازعاج ولا نفور فى طرف هذه المدة وكان العساكر الذين يؤخذون من الاقاليم ملازمين تحت الاسلحة لانهم كانوا دائما مشغولين بالحروب التى كان يعملها السلاطين على الدوام من غير انقطاع فلهذا صلح تمثل هؤلاء العساكر المتدربين المتمرنين على الحروب كانوا يظفرون بجيوش النصارى فى كل واقعة وجميع مؤرخى القرن السادس عشر ارباب المعارف والصدق الخالين عن الاغراض يعترفون ببراعة الاتراك وتفوقهم على النصارى فى الفنون العسكرية والصناعة الحربية ويتأسفون على انحطاط منهم ومما يدل على ثبوت ذلك انهم

نصراتهم وظفرهم باعدائهم فى جميع الغزوات واما وقائع عساكر النصارى على الاتراك كما هو مشاهد الآن فلم يحصل الا بعد ان ترتبت عندهم العساكر المنتظمة واستكملت فى التعليم وبعد ان وجدت عدة اسباب ووقائع افسدت القوانين العسكرية القديمة من عند الاتراك وضعفت شوكتهم بالتدريج ولا حاجة الى بيان تلك الاسباب ولا تلك الوقائع هنا اذ بما ذكرناه تم المرام ونسال الله حسن الختام

قول مترجمه

وحيث كان هذا الكتاب رؤس عبارات * واطراف حكايات * واشارات ورموز * ورتبه امهات كوره اذ كل عبارة فيه * ودقيقة اودعت في قواديه * تشير الى نوادر جمه * او وقائع مبهمة * رأى المؤلف ان ذكر الاصل في مثل ذلك جدير بان يلتفت اليه * اذ هو مهم يعول عليه * وهذه عبارة من خطبة المؤلف حيث ان الغرض من المقدمة المسماة اتحاف الملوك الالباء تقدم الجمعية في ورقات وجيزة في مباحث جدالية عديدة يجوز ان تكون من خصوصيات الاصولي او الجدلي لا من خصوصيات المؤرخ جعلت هذه المباحث جزأ مستقلا برأسه ربطته بالجلد الاول من تاريخ الامير طوبنرالكان وجعلته بالبراهين والتوضيح وظن ان هؤلاء الناس لا يهتمون بهذه المباحث ولا يلتفتون اليها حق الالتفات ولكن لا شك انه يوجد ناس آخرون يهتمون بها اعتناء كاملا بل ويعدونها الجزء الاهم من كتابي هذا * وقد بينت في تلك المباحث بمأخذ الوقائع التي ذكرتها في هذا التاريخ وذكرت عبارات المؤرخين الذين اعتمدت عليهم الا معنى عباراتهم ودققت بعناية في ذلك حتى في الاشياء الدنية منه بحيث انه ان كان يحدث للانسان فخر لكونه قد قرأ كتبا كثيرة واطلع على تاليف عديدة اقول ان من تامل في المؤلفات الجمة التي نقلت عنها يتراءى له اني ادرس واقتصر تعدادها الا اعدادها وهي مشتملة على كتب كثيرة ما كان يخطر بالي ان انصرف في ورقاتها * ولا ان اشغل فكري بان أمل في صفحاتها لو كنت لم اعزم على تحقيق وقائع هذا التاليف وعلى تأكيد حقائقه والبحث عن تعضيدها مع غاية الاهتمام ليكون على وفق المرام انتهى

وحيث وجدت ان هذه المباحث نفيسة ثمينة * وفوائدها كثيرة * لم آل جهدا في تعريبها * وتهذيبها وتوضيحها * وقد راعيت تسمية الاصل فسميتها عقد جمان التوضيح * بالبرهان الصحيح * ونسأل الله التوفيق * وان يوصلنا الى تتميم هذا المقصد [illegible] طريق

هذا عقد جمان التوضيح بالبرهان الصحيح

المبحث الاول

في بيان مضمون مطلب النتائج الرديئة التي نشأت عن حكم الدولة الرومانية

بصحيفة ١٨ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لايخفى ان الاحزان والاشجان التي كانت منبثة ومنتشرة بين اهالي البريطانيا وقت ان هجم عليهم اهالي كالدونيا (المسماة الآن ايقوسيا) وامة البكت بعد انصراف جيوش الرومانيين عنهم تدلنا على ان مذلة الابريطانيين كانت قد بلغت الغاية في المدة المستطيلة التي مكثوا فيها تحت اسر الرومانيين حتى انهم بعثوا للشجاع أيوس مكتوبا سموه انين البريطانيا وهو هذا لانعرف الى اي جهة نتوجه اليها ولاى رشد نتخذ فيها اذ نحن محصورون بين البحر والامم المتبربرة فالبحر يلجئنا اليهم وهم يطردوننا اليه ولم يبق لنا الا اختيار الموت باحد سببين اما غرقا بالامواج او ذبحا بالنصال انتهى كذا قال المؤلف نقلا في تاريخه وبسبب هذه الامارات الدالة على الجبن يبعد على الانسان ان يصدق بان هذه الامة من نسل الامم الحربيين الشجعان الذين طردوا القيصر عن بلادهم ومكثوا زمنا طويلا يدافعون عساكر الرومانيين عن حريتهم

المبحث الثاني

في بيان مطلب اغارة الامم الاجنبية

بصحيفة ١٨ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

كانت الملل المتبربرة مع جهلها تحتقر الآداب لانهم كانوا يرون ان سكان الاقاليم الرومانية اهل رخاوة يهابون الحروب ومن المعلوم ان مثل هؤلاء الناس اصحاب الانفة الذين لايبالون من اقتحام الاهوال ولا الاخطار يكون عندهم احتقار للجبن واصحابه فلو تتبعنا [illegible] اردنا سبب عدو ونسبته

[illegible]

بالصفات القبيحة المكروهة تقول له انت رومانى فان هذا الاسم وحده يشتمل على جميع الرذائل كدناءة وجبن وبخل وفسق وفساد وكذب وغير ذلك من النقائص والعيوب انتهى ذكر ذلك المؤلف موراطورى فهؤلاء الامم المتبربرون كانوا بجهلهم يسببون فساد اخلاق الرومانيين لجهلهم الآداب وتوغلهم بها حتى انهم عند استيطانهم بالاقاليم التى فتحوها لم يأذنوا لاولادهم ان يتعلموا شيأ من انواع المعارف والعلوم لانهم كانوا يقولون ان العلوم تكسب الانسان الخمول والدناءة وضعف القوى لانه اذا كان الانسان يتعود من صغره على الفزع من عصى المؤدب او المعلم يأبى له ان يثبت امام رمح وسنان انتهى كذا ذكر المؤلف بروكوب فى تاريخه ثم مضت مدة مديدة وهؤلاء الامم غريقون فى بحار التبربر والخشونة مرتدون بجلال الجهل يبغضون العلوم والمعارف حتى لم يخرج منهم فى تلك المدة مورخ فيه قابلية لتقييد حوادثهم وتسطير اخلاقهم ورسوم قوانينهم التى كانت فى بلادهم ولم يكن عندهم فى تلك المدة ايضا من يروى لنا حالتهم القديمة بحيث لم تبق لهم تواريخ نستفيد منها المؤرخون فى بعد فائدة صحيحة حتى ان المؤلف يورنندس والمؤلف بواص ودينفرد والمؤلف اغريغوار دو تورس مع انهم اقدم المؤلفين الذين كتبوا تاريخ هذه الامم واكثرهم صيتا وشهرة لم يفيدونا فائدة كافية فى شأن اخلاق الغوطيين او الغوثيين واللومبرديين والفرنسيس ولا فى شأن قوانينهم وعوائدهم واما الشئ اليسير الغير الموثوق الذى نعرفه فى شأن مبدء حالة هؤلاء الامم المتبربرين فلم نستفده من هؤلاء المؤلفين المذكورين وانما استفدناه من مؤرخى اليونان والرومانيين

المبحث الثالث

فى بيان مطلب حالة البلاد التى خرج منها هؤلاء الامم المتبربرون

بصحيفة ١٩ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

وقد ذكر المؤلف رسكويس في تاريخه على الرسالة المعنونة الى الملك أتيلا ملك الهونيين حكاية تدلنا دلالة واضحة على تولع الملل المتبربرة بالحروب حيث قال انه بعد ان قدم الملك أتيلا الطعام للرسل الرومانيين قرب اليه اثنان من امة السيت واخذا في انشاد قصيدة تشتمل على نصرات هذا الملك وفضله في العسكرية وجميع الهونيين يصغون اليها واعينهم متطلعة الى صفائح الخيل بل ظهر على بعضهم امارات الاضطراب من هذه الاشعار وبعضهم كاد يطير فرحا عند تذكر غزواته وحروبه وسالت دموع شيوخهم كالانهار * عند ذكر ما فيه الحماسة والفخار * وتحسروا على عجزهم * وضعف قواهم وكبر سنهم

المبحث الرابع

في بيان مطلب التغيرات العمومية التي حصلت في اوربا عن فتوحات هذه الامم الوحشية صحيفة ٢٥ من القسم الاول من تحف الملوك لالئا يوجد في تاريخ انكلتره جميع التفاصيل التي تدل على صحة ما ذكرناه في صحيفة (٢٥) من تحف الملوك الالئا وذلك ان امة السكسونيين لما قهروا ابريطانيا الكبرى سرقوها كغيرهم من الامم المتبربرين عند استيلائهم على مملكة او اقليم فدمروا البلاد وقطعوا دابر الابريطيين وتشتت شملهم من ورد ذهب الى جبال بلاد غمنة ليلتجأ بها ومنهم من اسر وادخل السكسونيون حينئذ في ابريطانيا بامرهم شرائعهم وقوانينهم واخلاقهم ولغتهم وشكل حكومتهم حتى انه عما قليل محيت جميع قوانين الابريطانيين القديمة ورسومهم ولم يبق لها اثر وفيما بعد حصل ضد هذه الحادثة وذلك ان غليوم النورمندي شن الغارة على السكسونيين وهزمهم من اول واقعة وجلس على كرسي مملكة انكلتره وسلك بالسكسونيين مسلك الظلم والتعسف لا التدمير والاهلاك وبذل ما في جهده من قوة الشوكة والسياسة ليدخل عندهم قوانين النورمنديين واخلاقهم فلم يمكنه ذلك لان

السكسونيين وان كانوا مغلوبين كانوا اكثر عددا من الغالبين اعنى النورمنديين فلما اختلط السكسونيون بالنورمنديين وزالت عوائق الاتحاد والاختلاط بينهم غلبت اخلاقهم وشرائعهم لكثرتهم على اخلاق النورمنديين وتقوت على التدريج ثانيا حتى تلاشى اغلب الشرائع النورمندية وطمست معالمها الا ان هذه الشرائع كانت مبنية على الجور وغير مقبولة عند الناس حتى انه يوجد الى الان فى قوانين الانكليز السياسية وفى لغتهم امور شتى يعرف بديهة ان اصلها سكسونى لا نورمندى

المبحث الخامس

في بيان المطلب المتقدم ذكره

بصحيفة ٢٥ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لم يذكر المؤرخ بروكوب انه لم يتعرض لتفصيل قساوة الوندال وسوء معاملتهم بالناس لان تلك افعال شنيعة تشمئز منها الانفس وتنفر بمروءة البشر ونص عبارته فى ذلك لا اريد ان انقل الى اهل الاعصر الآتية مثالا خشية بربرية لانه ربما يسعوا على منواله انتهى ولكن حيث ان تلك الحادثة التى تكلمنا عليها واعتبرنا انها ضيعت استيطان الملل المتبربرة بالاقاليم التى كانت سابقا منقادة للدولة الرومانية هى حادثة كبيرة بحيث لا يتصور انسان حصولها الا بعد ان يتصور تدمير معظم الاهالى الاقدمين فلهذا ان مثل هذه الحادثة العجيبة التى تهيج والتأثير حرية بامعان النظر والبحث عنها مع الاعتناء وهذا هو السبب الداعى لنا الى كشف القناع عن بعض اطراف هذه الحادثة الخربة التى سكت عنها بروكوب ولم يتعرض لها واحتشمنا الاطناب فى ذلك بحيث لم نذكر منها الا بعض امثلة انتخبناها من الكتب يستدل بها على تخريب امتين من الامم المتبربرة التى استوطنت بامبراطورية الرومانيين وعلى ما ارتكبته هاتان الامتان من الافعال السيئة القبيحة فنقول

ان الوندالين هم اول امة متبربرة غزت على اسبانيا وكانت وقتئذ من اغنى اقاليم الامبراطورية الرومانية واكثرها عمرانا واهلا وكان سكانها قد امتازوا بالشجاعة والفروسية ومكثوا عدة سنوات يدافعون عن حريتهم العساكر الرومانية مدافعة عظيمة لم تحصل من غيرهم من امثال الافرنج ولكن لما تغلب الرومانيون على اهل اسبانيا فيما بعد ضعفت قلوب الاسبانيين على الارتضاء والجبن بحيث ان الوندالين لما دخلوا اسبانيا (سنة ٤٠٩) تمموا فتوحهم في اقل من سنتين وقسموها بالقرعة فيما بينهم في اوائل (سنة ٤١١) وذكر المؤلف ايداس الذي شاهد التخريب الذي حصل عقب غارة الوندالين ما نصه قد خرب المتبربرون البلاد مع ما فيها باشد قسوة وانضمت الى تلك المصيبة اهوال الطاعون وعم الوباء والقحط بهذه البلاد حتى اضطر الاحياء الى ان يتقوتوا بالجيف والرمم وكل هذه المصائب المهولة كانت قد حلت في آن واحد بالعباد وتخربت بها تلك البلاد اشنع ثم ان الغوتيين هجموا على الوندالين في بلادهم الجديدة فاتقدت بينهم نيران حرب مهولة وخرب كلا الفريقين البلاد وسلب العباد حتى ان المدائن التي سلمت من ايدي الوندالين في اول مرة دثرت في تلك الواقعة الاخيرة وصارت دارسة بالكلية وصار الاهالي عرضة لجميع انواع المصائب والاهوال التي تنتظر من فاقة مثل هؤلاء الامم المتبربرين ذكر ذلك المؤلف ايداس وايده من معاصريه المؤلف ايدور دوسويل وغيره

وبعد ان خرب الونداليون اسبانيا انتقلوا الى افريقة (سنة ٤٢٨) وكانت بلاد افريقة اخصب الاقاليم الرومانية بعد بلاد مصر لانها كانت خزانة عظيمة يستغل منها الغلال والحبوب للامبراطورية الرومانية حتى سماها بعض المؤلفين الاقدمين حياة الجمهورية وكانت عساكر الوندالين لا تزيد على ثلاثين الف محارب ومع ذلك تغلبوا على افريقة في اقل من سنتين وتصرفوا فيها تصرفا مطلقا وهاك عبارة ذكرها بعض مؤلفي ذلك العصر ناطقة بكيفية تخريب تلك البلاد بهؤلاء الاقوام فقال دخلوا بتلك

الاقطار

الاقطار من جدب وهادات زراعة * يانعة ثمار الزراعة * كانها زينة الارض
اذ كانت تتمتع بكل حظ عظيم * وفيض عميم * فاتعبوها بالسنان * وحرقوها
بالنيران * حتى لم يبق محل من محاسنها الطبيعية * الا وصار بافسادهم كالبقيعة *
وخربت العمران * وانقرضت الوديان والبلدان * وقلع العنب باشجاره *
وقطع الشجر باثماره * لئلا يجد من اختفى من الاهالى فى المغارات * وفر الى
الجبال الشامخات والمغارات * شيأ من القوت * فيتجرع كاس الموت *
وصار هؤلاء الاقوام كالوحوش الكواسر * تلعب على رقاب العباد سيوفهم
البواتر * وتحيرت من قسوتهم القلوب * وامتدت بالناس الكروب * وعذبوا
الاسارى بالعذاب المهين * الذى لم تسمعه اذن ولم تره عين * ليبينوا لهم
الرموز * ويطلعوهم على الكنوز * وكلما كانوا يطلعونهم على شئ من ذلك *
تزيد قسوتهم عما هنالك * ويطلبون ان يطلعوهم على غيره بالتهديد *
ويذيقونهم العذاب الشديد * وما كان يضعف طغيانهم وعتوهم مروءة
سامية * ولا شفقة نامية * فكانوا لا يرحمون الشيوخ ولا رؤساء الدين *
ولا يرأفون بالنساء وذوى العاهات المستضعفين * وعم كذلك الاشراف
والاكابر * بغى هؤلاء الامم الفواجر * بل كان يعظم مصاب الاسير
اذا كان فى قومه ذا شان كبير * يضاعف عقابه * ويكبر عذابه * وهدموا
جميع العمارات العمومية * والمبانى المحكمة البهية * التى سلمت من الدروس *
وعفيت منها الرسوم والآثار * وخربوا عدة مدن بحيث لم يبق فيها احد
من السكان * واندرست المعالم وتهدمت الاوطان * وكانوا اذا قربوا من صرح
حصين * او حصن متين * ورأوا انه لا يمكنهم التغلب عليه * ولا الوصول اليه
لعدم درايتهم بالتعبيات العسكرية * وقلة معرفتهم بالفنون الحربية * يقبضون
من الاهالى على مقدار جسيم * ويسفكون منهم الدم * ويدفنون رممهم بدون
دفن * فى اطراف ذلك الحصن * لاجل انه اذا انتشرت رائحتها المنتنة * ورأى
المحافظون تلك الحالة المحزنة * تركوا الحصن لهم * والقوا السلاح دونهم *
انتهى وذكر مثل ذلك المؤرخ سنت اوغوستين الذى ولد بافريقة وكان موجودا

في عصر هذه الحادثة وبعد ان مكث الونداليون في افريقة مائة سنة هجم عليهم البربر وطردهم منها ونشأ عن هذا الحرب ايضا تخريب جديد قال بعض واصفيه من مؤرخي ذلك العصر وهو المؤرخ بروكوب ان افريقة تخربت وفنيت بحيث كان الانسان يسافر فيها عدة ايام متتابعة من غير ان يجد شخصا واحدا حتى يمكن ان نقول من غير مبالغة انه في مدة هذا الحرب هلك خمسة ملايين من الناس فاكثر انتهى كلامه وذكر ذلك ايضا المؤلف بيرنت

وانما اطنبنا في ذكر المصائب التي حلت ببلاد افريقة لانه تصدى لذكرها عدة مؤلفين من مؤرخي ذلك العصر وايدهم آخرون شاهدوا هذه الحوادث باعينهم ويعضد قول كل من الفريقين الحالة الراهنة التي عليها بلاد افريقة حيث ان عدة من اعمر مدائنها الزاهرة قد انمحت وطمست بحيث لم يبق منها اثر يستدل به على الحالة التي كانت تلك المدن بها * واراضيها الخصبة التي كانت تقوت الامبراطورية الرومانية صارت الآن قفرا في اغلب اجزائها غير صالحة للزراعة وصارت محلا لقطاع الطرق وارباب الصيال

وفي مدة ما كان بعض الامبراطورية الرومانية غنيمة للوندال المتبربرين كان البعض الآخر فريسة لامم الهونيين الذين كانوا ملازمين لحدوده

ثم ان الهونيين كانوا اطغى الامم المتبربرين واكثرهم توحشا واغتيالا وقد وصف اخلاقهم وحكم منهم المؤلف أميين مرسولان الذي هو مؤرخ عصرهم واحسن مؤرخي الدولة الرومانية حين سقوطها ويوجد من عاداتهم ان الهونيين اقرب شبها بقدماء السيت والتتار الأخرين ويشبهون ايضا في بعض اخلاقهم وعوائدهم الامم الوحشية الذين هم بشمال افريقة وان ميلهم الى الحروب والغزوات مفرط عجيب وهذا نص عبارته ان الامم المتمدنين يحبون الصلح والراحة واما الهونيون فلا يميلون الا الى الحروب واقتحام الاهوال والاخطار وحظ الانسان عندهم ان يموت في غزوة والسلاح بيده ويعار عندهم ان يموت هرما او مريضا

ويعبر

ويفتخر كل منهم بقدر ماقتل من الاعداء وزينة النصرة عندهم هى
ان يعلق الفارس فى طقم فرسه شعور من قتله امتى واول اغاراتهم على
الايمبراطورية الرومانية كان فى القرن الرابع وكان الرومانيون قد تعودوا
وقتئذ على التجلد لاغارات الامم المتبربرين ومع ذلك فتحيروا الغاية
وامتلأت قلوبهم رعبا وخوفا من تخريب الهونيين لبلادهم ومن افعالهم
القبيحة واول ماخربه هؤلاء الامم الختنيون هو اقليم روملى واقليم بانونيا
واقليم ايليريا وحيث لم يكن قصدهم الاستيطان ببلاد اوربا كانت اغاراتهم
على هذه البلاد متتابعة كثيرة وذكر المؤلف بروكوب انه كان يقتل ويؤسر
فى كل اغارة مائتا الف نفس وبعد ان كان اقليم روملى فى الزراعة
ابدع بقعة فى تلك الجهات صار قفرا كالصحراء حتى ذكر المؤلف بروسكوس
انه لما ذهب بمعية الرسل الذين ارسلوا من طرف الرومانيين الى اتيلا ملك
الهونيين دخل فى اقليم روملى فوجد منه عدة مدائن خالية من السكان
غير ان فيها بعض اناس قليلين اختفوا فى آثار الكنائس المخربة ووجد
الخلاء مشحونا بعظام الناس الذين حصدت مناجل الهونيين اعمارهم *
ثم ان أتيلا المذكور كان قد تولى ملكا على الهونيين (سنة ٤٣٤) وصار
هذا الرجل بفتوحاته ينتظم فى سلك اعظم المتغلبين الذين ذكروا فى التواريخ
واكثرهم شجاعة واجتراء حيث وسع مملكته وتغلب على البلاد الواسعة
التى كانت تسمى سابقا فى تقسيم الارض القديم باسم السيثيا وباسم الجرمانيا
ومع انه كان يحارب الملل المتبربرة كانت تخشى منه الايمبراطورية الرومانية
لانه كان يطلب امدادات جسيمة من جميع الملوك الذين كانوا حاكمين وقتئذ
وكانوا لضعفهم لايستطيعون مخالفته وفى (سنة ٤٥١) دخل فى بلاد
الغلية بجيش عظيم اودع فيه رجالا من جميع الملل التى تغلب عليها وكان
هذا الجيش اكبر جيش اغار على الايمبراطورية الرومانية الى ذلك الوقت
من جيوش الامم المتبربرين فخرب أتيلا بهذا الجيش الضياع والبلدان وحرق
المدائن اليانعة الزاهرة وافسد حالها ونهب اموالها وقد ذكر وصف ذلك كله

المؤلف سلوبان والمؤلف ايدامس ولكن هزم اتيلا بعد ذلك في الواقعة المشهورة
التي كان ميدانها بقرب مدينة شالون فعيق عن فتوحاته في تلك السنة
وقد قال مؤرخو ذلك العصر انه لم يقتل في هذه الواقعة اقل من ثمانين الف رجل
وفي السنة التي بعدها عزم اتيلا على ان يشن الغارة حتى يصل الى وسط
الامبراطورية الرومانية فتوجه اولا الى ايطاليا وخربها وهو في شدة غضبه
بسبب الهزيمة التي حصلت له في السنة الماضية حتى ان مقاساته ايطاليا
من المصائب والاهوال في هذه الاعصر كان يزيد على جميع الاهوال التي
حلت بها وذلك من اغارات الامم المتبربرين وقد جمع المؤلف كورنجيوس
عدة عبارات من كتب المؤرخين الاقدمين تبرهن على ان الهونيين
والونداليين خربوا البلاد التي على شاطئ نهر الرين تخريبا شنيعا وجعلوا
باهلها الموت والقتال ولا شك ان العقل لا يستطيع ان يتصور هذه الحروب
التي خربت البلاد واهلكت العباد فاذا نظر انسان الى افعال هؤلاء الامم
المتبربرين ورآهم يسبحون مع الفرح في بحار دماء القتلى ودموع الباكين
نفر قلبه وازداد رعبه وتحسر على ما حل بالجنس البشري من هذه الاهوال
والبرهان القطعي الذي يدل على فساد هؤلاء الامم المتبربرين وكثرة تخريبهم
هو الحالة التي مكثت عليها ايطاليا عدة قرون بعد استيطان هؤلاء الامم
المتشتتين فيها وذلك لانه من المعلوم ان البلاد ان فات اهلها ان تزرعها
الاشجار والاعشاب تعوق الاراضي الغير الصالحة للزراعة حتى يتكون منها
على التدريج غابات كبيرة وترى قيعة اراضيها تؤول الى بحيرات ومستنقعات
بسبب المياه التي تطفو على سطح الانهر والمياه الراكدة وقد اجتمعت في ايطاليا
هذه العلامات فبعد ان كانت مركز دولة الرومانيين وابهج بلادهم وكانت
يانعة بالزراعة خربها المتبربرون ونكسوا منها اعلام الحرف والصنائع
والتجارات والزراعة حتى انها في القرن الثامن كانت اراضيها مشحونة
بالغابات الكثيفة والبحيرات الواسعة وقد اطنب المؤلف موراطوري
في شرح وضع هذه المملكة واكثر من البرهان باصح البراهين على ان معظم

اراضيها

اراضيها كان بعضه مغصوبا بالغابات وباقيه مستورا بالمياه وهذه الاراضي
لم تكن مجدبة بطبعها بل كانها اراض بالغ في خصوبتها المؤرخون الاقدمون
وصارت زراعتها الآن في اعلا درجات الكمال وهناك برهان آخر
على كل ما قدمناه مستفاد من عبارة ذكرها احد مؤرخي القرن العاشر
في وصف مدينة مودين ببلاد ايطاليا والظاهر تخريب المتبربرين في بقية
البلاد وربما كان على هذا المنوال لانه يوجد الآن عدة من الاوامر القديمة
يذكر فيها ان الاراضي التي كانت تعطى للديور والكنائس اولا سادات الناس
كان منها اراض مزروعة عامرة واراض قفرة خربة ومنها اراض اعطيت
للآحاد في الصحراء لانهم احيوا امواتها بالعمران والزراعة كما يفهم ذلك
من امر صادر من الامبراطور كرلوس مانوس ذكره المؤلف ايكرنو ومن عدة
اوامر اخرى صدرت من خلفاء هذا الامبراطور نبه عليها المؤلف دوكنج
ومن المعلوم ان كل بلد يكون فيها حق مثل هذا في تملك العقارات لا تكون
الا قفرة غير معمورة وبهذا السبب امكن لاول من اتوا اليها من القبائل
الامريقية ان يتملكوا معظم اراض من اراضيها * وكان كل من قدر على احياء
ارض وزرعها يتملكها فكان اصلاح الارض كان تملكها وذلك هو
منشأ الاقطاعات الارضية التي ذكرناها فلو لحظت ترى كل الممالك متشابهة
بعضها في هذا الشأن * وقال موراتوري ان ايطاليا مدة القرن الثامن
والقرن التاسع كانت مشحونة بالذئاب والحيوانات الوحشية وهذا دليل
على انها كانت خالية من السكان فمن يشاهد ايطاليا بعد ان كانت
تعجب به الدنيا القديمة بسبب خصوبتها ومن تكميل زراعتها صارت ترى
وكأنها كقبيلة جديدة شارعة في الانتعاش والتعمير ولا شك ان بعض
هذه العبارات التي نقلتها مشتمل على المبالغة بل اعلم كذلك ان جميع هؤلاء
الامم المتبربرين لم يكونوا يسلكون على نحو واحد عند استيطانهم بالبلاد
التي كانوا يفتحونها بل حيث يظهر من بعضهم انه صمم على تدمير سكانها
الاقدمين ويظهر من بعض اخر انه مال الى ابقائهم وجعلهم من حزبه

ولا حاجة لنا بالبحث هنا عن سبب الاختلاف الذى كان حاصلا فى سلوك هؤلاء الامم المتبربرين فى فتح البلاد ولا بوصف حالة البلدان التى كان سكانها الاصليون يعاملهم الامم المتبربرون المتغلبون عليهم معاملة حسنة وفيما نقلناه كفاية فى البرهنة على ان غارات هؤلاء الملل الشمالية على الامبراطورية الرومانية قد تسبب عنها فناء وتخريب للجنس البشرى اكثر مما يظنه اغلب المؤلفين

المبحث السادس

فى بيان مطالب الاصول التى اسس عليها الامم (الشمالية) استيطانهم فى اوربا (بصحيفة (٢٦) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا)

قدمنا فى المبحث الثانى على ان الشئ اليسير الذى نعرفه معرفة يقينية فى شأن الحالة الاصلية التى كان عليها الامم المتبربرون انما استفدناه من مؤلفى اليونان والرومانيين لا غير ومن هؤلاء المؤلفين اثنان مشهوران لو وردا [illegible] بل ربما كانا اصدق من كتب فى شأن اخلاق هؤلاء الامم المتبربرين وشرائعهم وهما قيصر وتاسيت وقد كتبا فى تآليفهما فوائد جليلة يرجع اليها جميع ما قاله غيرهما من المؤلفين فى هذا الشأن * اما قيصر فقد وصف لنا قدماء الجرمانيين مع الاختصار فى المقالة السادسة من كتابه واما تاسيت فقد الف كتابا مخصوصا فى هذا الشأن * وما ذكره هذان المؤلفان هو اعظم ما الفه الاقدمون واكثرها فائدة لاهالى اوربا الموجودين الآن وهاك ما استفدناه من تآليفهما

اولا قال قيصر كانت حالة الجمعية عند قدماء الجرمانيين خشنية جدا ساذجة خالية عن انواع الزينة والرفاهية فكان قوتهم الصيد والمرعى وكانوا يهملون الزراعة واغلب غذائهم اللبن والجبن واللحم انتهى وقال تاسيت مثل ذلك تقريبا * وكان الهونيون كذلك يهملون الزراعة كما ذكره المؤلف بيرنت وغيره وكانت حالة الجمعية كذلك خشنية عند الهونيين

لانهم

لانهم كانوا يحتقرون زراعة الارض وتأبى نفوسهم ان يحكموا حرثا كما ذكره المؤلف مرسولان وذكر ايضا ان الالمانيين يشبهونهم كذلك في الاخلاق * وما دام هؤلاء الناس على حالتهم الاصلية لم ينقص استقلالهم الطبيعي عن بعضهم بعد التئامهم وتضامهم وضمهم الاشياء قليلا جدا

(ثانيا) انه عند قدماء الجرمانيين كانت شوكة الحكومة المدنية ضيقة جدا فما كان لهم مدة الصلح قاض معين يحكم بينهم باجمعهم وانما كان الرؤساء يحكمون بينهم في الاقضية والخصومات وكل واحد منهم كان يحكم في خطه الذي هو رئيس عليه كذا ذكره قيصر واما ملوكهم فلم يكونوا مطلقي التصرف وانما كانت كلمتهم في الرعايا كناية عن مزيتهم في اعطاء رأيهم في الشورى لا حقا لاتباعهم في ان يأتوا بامر او نهي مطلق بشأن رعاياهم فكانت المصالح الغير المهمة تقضى على ايدى الرؤساء واما المصالح المهمة العامة فكان لا يخوض في الحكم فيها الا المجموع الملتئم والقاله تاسيت وكان الهوبيون يشتركون كذلك في الشورى في المصالح الضرورية ولم يكونوا مقادين لحكامهم ملك مطلق التصرف ذكره اميان مرسولان

(ثالثا) كان كل انسان عند قدماء الجرمانيين امرء مخيرا في شأن كل مشروع حربي فان شاء دخل وان شاء ابى ولا احد يكرهه في هذا الشأن قال قيصر اذا عرض رئيس من رؤساء الملة مشروعا حربيا كان كل من استحسن قوله ورضي باتباعه فيه يقوم ويعقد نيته فاذا عزم بعد ذلك ولم يوف بعقد نيته عد جبانا خائنا للوطن ولحقه الذل والعار انتهى وقال تاسيت كذلك على هذه العادة لكن بطريقة مشكلة

(رابعا) حيث كان كل انسان من هؤلاء الناس حرا لا يجبر على شيء من اعماله فمن كان يريد نصب نفسه رئيسا كان لا بد له ان يبحث عن احزاب يستميلهم اليه ليعينوه على تعمير مقاصده ويسمي قيصر هؤلاء الاحزاب اتباعا ويسميهم تاسيت اصحابا * وكان اعظم شيء يميز الرئيس منهم ويكسبه الشوكة والقدرة هو ان يكون معه اصحاب كثيرون من الشبان المخصصين لما ان هؤلاء

الشبان مدة الصلح هم حرس الملك ومتبوعه ومدة الحرب يكونون امامه وحصنه والرئيس منهم كان يستميل قلوب اصحابه بواسطة هدايا يعطيها لهم من الاسلحة او من الخيل او بواسطة كثرة الطعام لاطرافه انتهى تاسيت (ملخصا) وبسبب هذه الحرية والاستقلال الشخصي الذي لم يزل بين الجرمانيين بل وبعد التئامهم واجتماعهم بعضهم ببعض كانت ذات افتئات قضاتهم واحكامهم ضيقة الدائرة جدا وكان الجرمانيون يحقدون على بعضهم حتى يسعدهم الوقت في الانتقام وما كان يمكن للقاضي ان يحبس انسانا حرا ولا ان يعاقبه بجلد ونحوه انتهى تاسيت وكان كل شخص منهم كذلك لاقاربه واحبابه من عصبة حصلت لهم او هتك حرمة حتى صارت العداوة والحقد تتوارث من فرع الى آخر ولكن لم تكن وصلت الى درجة حقد لا يشفى غله حتى في القتل وكان اذا قتل انسان آخر يمكنه ان يأمن من حقد صاحب الثود باعطائه قدرا مخصوصا من المواشي ذكره تاسيت وقال ايضا ان بعض جريمة القصاص كان يعطى للملك وللدولة والباقي يعطى للشخص المتعدى عليه او لاهله انتهى

ومع ان هذه الخصوصيات التي ذكرناها من اخلاق الجرمانيين وعوايدهم لا تخفى على كل عالم متمكن من آداب الاقدمين واخلاقهم وعوايدهم ظهر لنا من اللازم ذكرها على هذا النسق السابق ليطلع عليه القاصر ممن يقرؤ كتابنا هذا لانها تثبت جميع ما ذكرناه في شأن الملل المتبربرين وتبين جميع الملحوظات التي سنذكرها في شأن التغيرات والتقلبات التي حصلت في حكومة هؤلاء المتبربرين واخلاقهم * ثم ان الشرائع والعوايد التي ادخلها هؤلاء الامم في البلاد التي استوطنوا فيها هي اجل ما يذكر شرحه لتآليف قيصر وتاسيت وبناء على ذلك فملحوظات هذين المؤلفين هي اعظم مفاتيح كنوز هذه الشرائع والعوايد

ويوجد فيما ذكره قيصر وتاسيت في شأن الجرمانيين امر مهم ينبغي التنبيه عليه وهو ان شذرة التي ذكرها القيصر في اخلاق الجرمانيين كان قد اخفها

قبل ان يكتب تاسيت تأليفه فى هذا الشأن بمائتى سنة وهذه مدة كبيرة جدا تقدم فيها الخلاق كل ملة ايا ما كانت لاسيما اذا كانت هذه الملة تكثر فى تلك المدة من معاشرة الملل المتمدنة ومن مخالطتها وهذه الحالة كانت موجودة عند الجرمانيين لانهم كانوا قد عرفوا الرومانيين من وقت ان اجتاز قيصر نهر الرين وصارت المخالطة بين الجرمانيين و بين الرومانيين تتزايد كل يوم من منذ هذه الحادثة الى وقت تأليف تاسيت كتابه فى اخلاق المتبربرين وزيادة على ذلك كانت القبائل الجرمانية تختلف حالتها التأنسية او التمدنية اختلافا كليا عن بعضها فكانت قبيلة السويتوس مثلا قد تقدمت فى التمدن حتى احدث تاسيا فى الهبوط والتنازل كما ذكره تاسيت واما قبيلة الفينوس فكانت على غاية من التبربر والخشونة بحيث كان يتعجب منها كيف امكنها مع هذا التبربر أن تعيش بين الناس انتهى تاسيت ولا ينبغى ان يغفل عن هاتين الحالتين من يريد ان يصف اخلاق الجرمانيين او ينشئ بعض فوائد مناسبة على حالة الجهبة والتأنس عند هؤلاء الامم

وقبل ان نختم قولنا فى هذا الشأن لا بأس ان ننبه على انه وان كانت تغيرت بالكلية اخلاق الامم المختلفة التى فتحت امبراطورية الرومانيين بسبب التغيرات المتعاقبة التى حصلت عندهم فى القوانين والرسوم وبسبب التقدم الذى حصل لهؤلاء الامم فى شأن التمدن وانتشاره فنقول ان صورة اخلاقهم موجودة الى الآن فى امة تقرب فى التأنس وحالة الجهبة من الحالة التى كان عليها امم الشمال المتبربرون حين ابتداء فتوحاتهم الجديدة وهذه الامة هى الاقوام المتشيمون السكونين بشمال أمريكة فبناء على ذلك ليس من الاقتضاب المحض الذى لاجدوى فيه ولا من محض التشوق الى الامور الغريبة ان نبحث عن توافق هؤلاء الامم فى السابق هل نشأ عنه مقاربتهم لبعضهم فى الاخلاق والعوائد ام لا فان وجدنا بينهم مشابهة كبيرة فى الاخلاق والعوائد كان ذلك برهانا لصحة ما وصف به سكان اوربا

الاقدمون اقوى عما ذكره قيصر وتاسيت وهاك اصول اخلاقهم
(أولا) قوت الامريقيين فى الاغلب هو صيد البر والبحر لا غير ومنهم قبائل
يجهلون الزراعة بالكلية واما القبائل التى تزرع بعض قطع من الارض
بقرب مساكنهم فالنساء هن اللاتى يزرعن دون الرجال ويفعلن جميع
الاشغال الاخرى كذا ذكر كرلوكس فى رحلته التى الفها فى شأن بلاد
امريكة * ولا يخفى ان الناس اذا كانوا على مثل هذه الحالة فلا يحتاجون
بعضهم احتياجا ضروريا دائما ولا يختلطون ببعضهم الا اختلاطا قليلا جدا
ويستمرون على التمتع بحريتهم الطبيعية واستقلالهم عن بعضهم حتى يمكن
ان ذلك لا ينقطع من بينهم واول شئ يعرفه هؤلاء المتبربرون الامريكيون
هو ان كل انسان قد ولد حرا ذا استقلال فلا حق لانسان آخر ايا ما كانت
قدرته وشوكته على وجه الارض ان يضيق عليه فى حريته الطبيعية ولذلك
قل ان توجد بينهم صورة طاعة وانقياد فى الحكومة المدنية والمنزلية
بل كل انسان فى عائلته يعمل كيف يشاء فالاب والام واولادهما يعيشون
مع بعضهم كأن اجتماعهم ليس الا شيأ حاصلا بالصدفة والاتفاق وليس
بينهم شئ من الروابط الطبيعية او غيرها يربطهم ببعضهم وهذا ناشئ
عن التربية حيث ان الآباء لا يعاقبون اولادهم ابدا بل ولا فى حال الصبى
والصغر فاذا كبروا يتركونهم بالكلية يتصرفون ولهم مطلق التصرف
فى سلوكهم يفعلون كيف شاؤا ولا يجب عليهم ان يقصوا امرهم على احد
راجع كرلوكس فى رحلته
(ثانيا) شوكة قضاتهم المدنية ضعيفة جدا * وفى اغلب القبائل ترى الرئيس
ينتصب لقبيلته بنفسه (والرئيس يسمى عندهم ساكيم) ويجعل له مشورة
مخصوصة اربابها الشيوخ ومن غير ارباب هذه المشورة لا يجوز له ان يبت حكما
فى شأن مصلحة مهمة فلا يدعى احد من هؤلاء الرؤساء ان له شوكة واسعة جدا
كيف وهو يعرض ما يريد وله على سبيل العرض والترجى لا على
سبيل الحكم والتحكم وبالجملة فطاعة هؤلاء الناس لرؤسائهم

عاهى طاعة اختيارية انتهى كزنوكس

(ثالثا) لا يجبر احد على الدخول فى مشروع حربى بل ذلك باختيار الناس فمدة الحرب يقوم رئيس من الرؤساء ويتكفل بقيادة الجيش فيتبعه من يريدون هذا المشروع ويختارونه ويقومون وراءه واحدا بعد واحد وهم ينشدون الاشعار الحماسية الحربية ولكن بعد هذه الجمعية اذا انجم انسان من الطهر والعزم وابى ان يتبع رئيسه لدى انضمامه الى حزبه حيف عليه من الهلاك ويفتضح بين الناس ويلحقه اكبر عار بدنس العرض انتهى من الرحلة المذكورة

(رابعا) ان اتبع الناس رئيسا لا ينتظرون منه سوى الاكرام وان يعاملهم باحسن معاملة لانه يجب عليه ان يخدمهم بيدا با جليلة (كما ذكر كزنوكس فى رحلته)

(خامسا) القاضى بينهم يكاد ان لا يكون له اعتناء فى شأن اقضية الذنوب والقصاص بل المتعدى عليه او عيلته ينتقم من المتعدى بشأنه كما ذكر كزنوكس وحقد هؤلاء الناس لا يشفى غله ولا يمكن مع طول الزمن ان تطفى من قلوبهم نار الانتقام ولا ان يخمدوا لهيبها الا باخذ الثار الذى هو اعظم ميراث عندهم يوصى به الآباء عند موتهم لاولادهم وينتقل الحقد من جيل الى جيل حتى يسعف الزمن باخذ الثار (كذا ذكر كزنوكس) ولكن ربما يمكن غضب المتعدى عليه فيعطى الدية فى القتل احيانا او باحدها اقارب القتيل والدية عندهم عادة هى ابل من الحرب يقوم فى العائلة مقام القتيل ويسمى باسمه ولكن يكون مقبولا مالوفا عند العائلة

وقد توجد المشابهة كذلك بين هؤلاء وبين شعائر اوربا الاقدمين من عدة وجوه اخرى ولكن يكفينا فى بيان غرضنا ذكر هذه المشابهات المأخوذة من عاداتهم الاصلية التى هم ممتازون بها عن غيرهم ولا يخفى ان المؤلف نوكرت وغيره من مؤلفى العصر الاخير بينوا فى شأن الامم الطوطونية وعولوا فى تآليفهم على المباحث الادبية اكثر من العلمية كما اذا رأوا ادنى مشابهة

بين الملل وان كانت تلك الملل بعيدة جدا عن بعضها يجدونها مشابهة كبيرة ويبنون على ان هذه الملل اصلها واحد ولاشك ان هؤلاء المؤلفين لو رأوا هذه المشابهة الكلية الموجودة بين المتبربرين الذين تغلبوا على ايمبراطورية الرومانيين وبين امم امريقة المتبربرين لاثبتوا ايضا يقينا ان هؤلاء الامم كانوا امة واحدة فرقت بينها صروف الزمان بخلاف المؤلف فانه لا يعتبر مثل ذلك وانما يقول ان اخلاق الملل وطبائعها ناشئة عن حالة جمعياتها ومن قوانينها السياسية الجارية بينها ويقول ان الناس اذا كانت مقتضيات احوالهم واحدة يكونون في اي زمان واي مكان على خلق واحد وكيفية واحدة

وانما اطنبنا في الكلام على المقابلة بين قدماء الجرمانيين وبين الوحشيين الذين هم في امريكة لان ذلك لازم لتوضيح موضوعنا الذي نحن فيه * ولا نزعم ان حالة الجمعية بين هاتين الامتين متساوية مساواة كلية لان عدة قبائل من الجرمانيين كانت اكثر تمدنا من الامريكيين فكان منهم من يعرف الزراعة وكان اغلبهم عنده مواش يقتاتون منها غالبا بخلاف الاقوام الامريكية فمعظمهم لا يعيش الا من الصيد وهم اكثر تبربرا وتوحشا من قدماء الجرمانيين ولكن نقول انه يوجد في حالة جمعية كلا هذين الفريقين مشابهة عظيمة لم نشاهد بين امتين اخريين ومن هذه المشابهة نشأ كذلك بينهما نوع تعجب في الاخلاق

المبحث السابع

في بيان المطلب المتقدم صحيفة (٢٦) من القسم الاول
من الحاق الملوك الالما

الغنيمة التي كان ياخذها الجيش كانت توزع على عساكره بالحصص حتى ان الملك نفسه كان لا ياخذ منها سوى ما يخصه بالقرعة وذكر في تاريخ افرنسيس مثال شهير في هذا الشأن وهو ان عساكر الملك قلوبس الذي انشأ المملكة

الفرنساوية

الفرنساوية قد نهبوا كنيسة فى غزوة تهم واحد وامنها امتعة مقدسة من جملتها
اناء كبير جدا لطافته لا يمكن ان يحيط بها قلم واصف فبعث الاسقف حالا الى
قلوبس وسلا يترجونه ان يرجع هذا الاناء الى الكنيسة لاجل استعماله فيما هو
معد له من الخدم المقدسة فقال قلوبس للرسل اذهبوا معى الى مدينة سواصون
التى تقسم فيها الغنيمة ووعدهم بانه ان كان هذا الاناء يقع فى نصيبه يرجعه
الى الاسقف فلما وصلوا الى سواصون جمعت الغنائم ووضعت وسط العساكر
فطلب قلوبس ان يعطوه قبل القسمة الاناء المذكور زيادة على حصته فظهر
من جميع العساكر انهم يريدون مراعاة الملك واجابة طلبه الا انه ظهر من بينهم
عسكرى جسور تقدم كالوحش ورفع بلطته وضرب بها الاناء مع القوة
وقال للملك لا تأخذ منه الا ما يحصل بالقرعة كذا ذكر المؤلف
امرعوار فى تاريخ فرانسا

المبحث الثامن

فى بيان مطلب كون الحكومة الالتزامية هى ابتداء ترتيب الجمعية الداخلى
(بصحيفة (٢٨) من القسم الاول من اعمال الملوك الاول)

لا يخفى ان تاريخ انتشار المذهب الالتزامى والتقدمات التى حصلت له هو
تاريخ ترغب فيه جميع ممالك اوربا والى الآن توجد بعض بلاد اغلب شرائعها
واثبتها فقهية التزامية محضة وفى بعض بلاد اخرى توجد بعض رسوم
او جملها العادة والقوانين واذا تأملت ترى ان منشأها احكام المذهب
الالتزامى حتى انه لا يمكن الوقوف على حقيقتها ومعرفتها حق المعرفة الا بمعرفة
احكام هذا المذهب واصوله وقد بذل عدة من المؤلفين المشهورين بالقريحة
وسعة العلم جميع جهدهم فى توضيح هذا الامر الا انهم مع ذلك تركوا فيه محالا
مظلمة لم تقتبس من انوارهم ما يضيئها ويكشف القناع عن مخدراتها
وسنذكر مع التدقيق فى هذا المبحث جميع التقدمات والتغيرات التى حصلت
عند الممالك المتمدنة فى شأن عموم الاراضى ونذكر كذلك الاسباب التى كانت

مبدأ هذه التغييرات وما نتج عنها

والظاهر ان تملك الاراضي قد حصل له عند الامم الذين استوطنوا باقاليم الامبراطورية الرومانية اربعة انواع متوالية من التقلبات وهي

(الاول) كان الامم المتبربرون مدة مكثهم ببلادهم التي ولدوا بها لا يعرفون ابدا تملك الاراضي ولا العقارات ولم يكن لهم املاك معينة محدودة بينهم بل كنت ترى العائلة منهم تنزل بارض وتترك مواشيها ترعى في مروجها ثم بعد ذلك ترحل من هذه الارض الى ارض اخرى وتمكث فيها بعض ايام ثم ترحل الى غيرها وهكذا ولما لم يكن للناس عقارات ولا املاك مخصوصة كانوا لا يجبرون ابدا على خدمة بلادهم وكل ما كانوا يفعلونه من الخدم والمصالح فما كان اختياريا وكان في المشروعات الحربية يباح لكل انسان ان يعد وجهته الى بعضها وكان لا يتبع انسان رئيسا في حرب الا لكونه يميل بهذا الرئيس لا لكونه يرى ان هذا الحرب واجب عليه وقد بينا ذلك برهانه في المبحث السادس وما دام هؤلاء الناس بهذه الكيفية لا يعرفون تملك الاراضي ولا تملك العقارات كان لا يمكن ان يوجد في عوائدهم ما هو مشابه رسوم الملتزمين ولو في شيء او لا ان يوجد عندهم في الخدم العسكرية الطاعة والامتثال الذي حدث بين الملتزمين بعد انشاء عادة الاقطاعات الالتزامية عندهم

(الثاني) لما استوطن هؤلاء الناس المتبربرون بالبلاد الاجنبية التي تغلبوا عليها اقتسم العساكر المنتصرون الاراضي التي فتحوها وكل عسكري كان يتصرف في قسمه الذي وقع له كانه حر له استحقه بعزمه وقوته وكانه وطن له اخذه بسيفه وصار كل فرد من العساكر متملكا على قسمه كتملك انسان حر على عقاره وكان يتمتع به مدة حياته وعند موته كان يتصرف فيه بما شاء كان يتركه ارثا لاولاده او غير ذلك ومن وقتئذ صار تملك الاراضي تملكا تاما مستمرا وصار ايضا ألوديا يعني ان المالك كان له حق مطلق في ملكه لا ولاء عليه لسيده الذي كان سابقا يحترمه ويلازم خدمته ولكن حيث كانوا يحسنون

(كما ذكرنا في اتحاف الملوك الالبا) ان يشركهم في املاكهم من كان باقيا من الاهالي الاصلية ويخافون كثيرا من أن يهجم عليهم امم اكثر تبربرا وتوحشا واشد منهم طمعا رأوا من تقضاء انفسهم انه لابد لهم ان يفرضوا على بعضهم لاجل المدافعة عن جمعياتهم واجبات احكم واضبط من الواجبات التي كانت مفروضة عليهم في بلادهم التي ولدوا فيها فبناء على ذلك صار كل واحد من هؤلاء الناس بعد استيطانهم بلادهم الجديدة يتسلح من نفسه ويتجهز لحمايتها بدون اهمال واذا اهمل فرد منهم في هذا الامر او ابى ان يوفي بواجبه حكم عليه بعقاب شديد ثم ان هذا الامر لم يكن ثابتا بقانون صريح اقر بمحفل او جمعية شرعية وانما كان هو وجميع الاشياء التي فيها التئام بين اعضاء الجمعية مؤسسا على رضاء عام تقديري لان الناس كانوا مضطرين الى اقراره وتجهيزه لاجل حفظ انفسهم وابقاء الامن والاطمئنان بينهم * واذا صعدنا الى اصل هذا الامر الجديد الذي كان واجبا على اصحاب الاملاك والعقارات نرى انه يصل الى زمن قديم جدا من تاريخ الفرنك (قدماء الفرنسيس) وذلك ان الملك شلبريق الذي ابتدأ حكمه (سنة ٥٦٢) كان قد حكم بجريمة على عدة اناس ابوا ان يصحبوه في بعض حروبه كما ذكره المؤلف اغرعوار وكذلك شلديبرت الذي تولى المملكة (سنة ٦٧٥) قد اجرى هذا العقاب على بعض اناس من رعاياه لكونهم ارتكبوا هذا الذنب بنفسه (ذكره اغرعوار) وكذلك كرلوس مانوس امر ان كل انسان حر يملك تسعين فدانا فاكثر يجب عليه وقت الازدحام ان يمشي بنفسه لمصادمة العدو وفي (سنة ٨١٥) اعطى الملك لويز لوديبونير بعض اراض لاناس اسبانيين هربوا من بلادهم عند اغارة الاسلام عليها واذن لهم ان يستوطنوا في مملكته بشرط ان يخدموا في العسكرية كسائر الناس الاحرار ويوجد في القوانين التي شرعها كرلوس مانوس ذكر الاراضي المملوكة على سبيل كونها عقارات ومعناها على حسب ذلك العصر الاراضي الالودياليه اي المعافاة المطلقة التي لمالكها ان يتصرف فيها بما شاء حسبما قرره دوكنج وقد ذكر المؤلف

واحدة بل على التدريج كشكل تغييرهم وكان الغرض الاصلى للناس وقتئذ من كونهم يصيرون اتباعا هو ان يجدوا لهم ربما يحامى عنهم فأرضى اول اصحاب العقارات المطلقة بان يكونوا اتباعا لبعض رؤساء ذوى شوكة وكلمة تركوا من شعائر حريتهم واستقلالهم القديم جميع ما هو مخالف للتبعية التى عقدوها عن قريب وكانوا يؤدون الى رؤسائهم الملتزمين احترام ما يقال له الاحترام الوسط حيث كان هؤلاء الملتزمون لا يطلبون منهم سوى الامانة ولا يجبرونهم على خدم عسكرية ولا على الحضور فى المحاكم الالتزامية ويمكن ان يوجد الى الآن بعض آثار واهية من آثار الاحترام الوسط المذكور ذكره المؤلف بروسيل

وذكر المؤلف دوم دويك والمؤلف دوم ويسيت فى تاريخهما المسمى تاريخ اللنغدوق عدة احكام وقوانين قديمة منها ما سمياه باسم الاحترام وهو كما هو الظاهر حد متوسط بين الاحترام الوسط الذى نبه عليه المؤلف بروسيل كما تقدم متفاوتين وجوب الوفاء بالخدمة الالتزامية بتمامها وكان الملتزمون يعدون ان يحموا اتباعهم ويعطوهم قصورا واقطاعات ارضية وكان الاتباع كذلك يعدون بانهم يدافعون عن ساداتهم الملتزمين ويساعدونهم فى المدافعة عن املاكهم وعقاراتهم عند الطلب والحاجة ولم تكن هذه المواعدة من الواجبات الالتزامية التى يشترط فيها الخدم الالتزامية وانما كانت بين الملتزمين والاتباع كمصلحة خصوصية منعقدة بين اقران لا كشروط الزامية بما يجب على كل تابع ان يخدم سيده من الملتزمين انتهى من شواهد تاريخ اللنغدوق وبمجرد ما اعتاد الاتباع على هذه الخدم نشأت منهم بالتوالى خدم التزامية اخرى وقد ذكر المؤلف مونتسكيو فى كتابه المسمى روح الشرائع ان الاراضى التى كان يعطيها الملتزمون لاتباعهم هى التزامات كان يجب فى الاصل على من تملكها ان يدخل فى الخدامة العسكرية انتهى وزعم المؤلف صلى ان من كانوا يأخذون هذه الاقطاعات الرعية لم يكونوا ملزومين فى اول الامر بشئ سوى الخدمة التى كانت تجب على كل

انسان حر واما نحن فنقول اننا اذا قابلنا بين براهينهم وادلتهم ومناقضاتهم لبعضهم وتأملنا فى أن كل انسان حر كان يجب عليه الخدمة فى نظير عقاراته ومعاملاته واذا أبى يعاقب بقصاصات شديدة نرى انه لا يوجد هناك سبب معقول عقلا فى اعطاء هذه الاراضى لاناس آخرين من غير ان تفرض عليهم بعض واجبات جديدة وما الداعى مثلا للملك الى تجريد نفسه من املاكه واراضيه واعطائها لاناس آخرين اذا كان ذلك لا يكسبه حقا عليهم فى خدم كان لا يتأتى له ان يلزمهم قبل ذلك بها فنستنتج من ذلك انه حيث كان اصحاب العقارات المطلقة يجب عليهم خدمة الجمعية فكذلك يلزم انه كان يجب على الاتباع اصحاب الاملاك الربعية ان يخدموا الملتزمين الذين كانوا يعطونهم هذه الاملاك وان يكونوا امناء فى حقهم وكانت هذه الالتزامات اختيارية غير الزامية يعنى ان الملتزمين الذين كانوا يعطونها للاتباع كانوا يأخذونها منهم متى شاؤا ولا يوجد فى حوادث القرون الوسطى حادثة جرى تأكيدها اكثر من هذه الحادثة المذكورة حتى يمكن ان نقتبس منها براهين عديدة تثبت بها الحوادث التى ذكرت فى روح الشرائع للمؤلف مونتسكيو وفى تأليف دوكنج

(الرابع) لم يمكث ملك الاراضى الربعية على هذه الحالة زمانا طويلا لان الملك الاختيارى الغير الثابت لا يكفى فى استمالة الاتباع الى ساداتهم فما زال الاتباع يتطلبون حتى صارت هذه الاراضى الانتفاعية تبقى معهم مدة حياتهم (ذكره مودور) وقد جمع المؤلف دوكنج من القوانين القديمة والتواريخ عدة عبارات تبرهن على ثبوت ذلك قال ان الاتباع بعد هذا الامر سهل عليهم أن يتوصلوا بالرضا او بالغصب الى ان كتبوا عقدا بينهم وبين ساداتهم بوراثة هذه الاراضى الربعية الانعامية فتتوارثها اولا الابناء من الذكور ثم الحواشى من الذكور ثم الاناث انتهى

ويعسر تعيين زمن كل من هذه التغييرات المذكورة وذكر المؤلف مبلى فى هذا الشأن ما يترآى عليه الصحة وهو ان الملك كرلوس مرتيل هو اول

من انشأ عادة اعطاء الاراضى الانعامية عطاء لا يرد مادام المنعم عليه حيا ويظهر من الاسانيد التى اسس عليها هذا المؤلف رأيه ان الملك لويز لودبويير هو واحد من ابتدأوا بجعل هذه الانعامات وراثية ولكن قد ذكر المؤلف مابيلون نص الفرمان الذى صدر من الملك لويز لودبويير فى (سنة ٨٦) ويفهم منه ان هذا الملك كان لم يزل يعطى هذه الانعامات مدة حياة المنعم عليه فقط وفى (سنة ٨٨٩) اعطى ملك فرانسا المسمى أودوس دوباريس بعض اراضى لتابعه المسمى ريكابودوس واذن له ان ينتفع بها مدة حياته وانه اذا وجد له ابن بعد موته ينتفع هذا الابن ايضا بتلك الاراضى الى ان يموت انتهى مابيلون) فهذه درجة اخرى متوسطة بين التزامات العمرى المحضة وبين الالتزامات الوراثية الدائمة الوراثة وما دامت الالتزامات لم تجرد الانتفاع على حالتها الاولى وهى ابقاؤها بيد التابع المنعم عليه الى ان يشاء استاذه نزعها منه كان السادات زيادة على مزاياهم السيادية التى تجب لهم على اتباعهم محافظين على تلك العقارات ولا يأذنون لاتباعهم الا بالانتفاع بها فقط فلما آلت الى الحالة الاخيرة وهى حالة التوارث كان الفقهاء اذا كتبوا فى شأن الالتزامات يكتبون على حسب الاصول الاولى ومع ذلك لم يكن ملك عقارها للسادات بل كان قد انتقل للاتباع وبمجرد ما عرف الملتزمون واتباعهم النفع الذى يحصل لهم من جعلهم تلك الالتزامات بهذه الطريقة الاخيرة وهى طريقة الوراثة استحسن كل من الملتزمين والاتباع حتى صارت الاراضى من وقتئذ تعطى التزامات وراثية وكذلك المدخولات البرانية كالمكس وحرف العمر والمرتبات وما شبه ذلك وانما كان الاتباع فى نظير ذلك يعدون بان يقوموا بالخدامة العسكرية كما يطلبها منهم ساداتهم الملتزمون (ذكره المؤلف موربس والمؤلف بروسيل)

ومع ان جعل مثل هذه الاملاك والمدخولات البرانية التزامات وراثية لا يخلو عما لا يستحسنه العقل يوجد فى العوائد الالتزامية احكام اخرى اغرب من هذه وذلك ان محصول مرتب الوعظ فى الكنائس كان معدودا

من المدخولات القسيسية وكان يرجع مدخول كل دير او كنيسة من هذه الجهة الى القسيسين الذين يخطبون بمحرابهما ثم حصل ان بعض البارونيين الاقوياء الشوكة تغلبوا على هذا الامر واثبتوا حق هذه المدخولات لا تقسم بان احدوها من الكنائس التزامات لهم وقسموها بين اتباعهم كغيرها من الاراضي (ذكره بوكيت)

والسبب الباعث لجعل الالتزامات وراثية هو الذى حمل الاشراف على أن غصبوا من ملوكهم عدة وظائف فى المملكة مهمة وجعلوها وراثية لهم ايضا فصارت عدة من اهم الوظائف الملكية وراثية للاشراف فى اغلب ممالك اوربا وكان الملوك يعرفون معرفة جيدة ان هذه الفعال اختلاس وتعد من جهة الاشراف وكانوا يحترسون الغاية من ازدياد ذلك واتساعه حتى انهم كانوا فى بعض الاحيان يجبرون من يعطونه منصبا او وظيفة من الاشراف على ان يكتب وثيقة شرعية على نفسه بانه لا يجوز له ولا لورثته من بعده ان يتملكوا هذا المنصب او هذه الوظيفة بدعوى حق الوراثة وقد ذكرت امثلة ذلك فى الكتب اكثر من مرة * و بتغير حالة العقارات والاراضى تغيرت كذلك حالة السياسة باصولها لان اكابر اتباع الملك كانوا كلما زادت املاكهم والتزاماتهم زادت شوكتهم وكثرت كلمتهم وخفضوا افناء الملك واحتقروه من بالرعايا * وانما كان البحث عن اراضى الملتزمين امرا يرغب فيه فى التاريخ لانه كان يوجد وقتئذ التعادل بين الالتزامات والشوكة اذ كان كلما عظمت اراضى الملتزم عظمت شوكته و بالعكس واذا علم الانسان حالة الالتزامات والاراضى فى اى وقت كان يمكنه ان يعلم على التحقيق درجة شوكة الملوك والاشراف فى ذلك الوقت

وقد حصلت حادثة اخرى فى تغيير حالة الالتزامات والاراضى جديرة بان ينبه عليها وقد ذكرنا انه عند الامم المتبربرين على اختلافهم حين تقاسموا البلاد التى فتحوها فى القرن الخامس والسادس كان غلال الاراضى تملكا مطلقا معافى من جميع الحقوق والغرامات الالتزامية ولكن من ابتداء القرن العاشر

صار غالب تملك الاراضي في عدة من ممالك اوربا تملكا التزاميا وحيث ان التملك بالطريقة الاولى يظهر انه انفع ويرغب فيه اكثر من التملك بالطريقة الثانية كان تحول التملك من الاولى الى الثانية مما يستغرب لاسيما اذا نظرنا الى ما في التاريخ من ان التملك المطلق العتيق كان يؤول غالبا الى تملك التزامي بموجب حجة يكتبها مالك الارض باختياره وقد اجتهد المؤلف مونتسكيو في البحث عن الاسباب التي دعت الناس في الاعصر الاول الى ان يقنعوا بالعقارات ادعاء الا مخادعة لما سلكه اهالي الاعصر الاخيرة وحرر هذه الاسباب مع الاتقان كما هو عادته واقوى هذه الاسباب هو السبب الذي ذكره لنا المؤلف لمبردوروس وهو مؤلف قديم ذكره المؤلف دوكنج وهذا السبب هو انه بعد موت كرلوس مانوس صارت بلاد اوربا في انقلاب واضطراب واختلال لعدم وجود ملك اذ ذاك وفي هذا الوقت كانت روابط الالتئام والعلائق الجامعة بين ارباب الدول والسياسات قد وهت وتلاشت وكانت الرعايا عرضة لكل اذى وبغي واجحاف وما كان يمكن للدولة المدافعة عنهم فاضطر كل واحد من الرعايا الى ان يبحث له عن حام قوي الشوكة يستظل بظله ويدخل تحت رايته ويضمه معه ويحميه عن الاعداء الذين لا يمكنه التصدي لمقاومتهم فبهذا صار كل صاحب عقار يتنازل عن حريته واستقلاله ويدخل في الخدم الالتزامية ليستظل بظل الامان في حمى الملتزمين القادرين ذوي الاحترام فبذلك صارت الاراضي والعقارات الالتزامية بعد ان كانت مطلقة معافاة وعم ذلك في بعض بلاد اوربا حتى محيت حرية اصحاب الاملاك والاراضي بحيث صار لا يمكنهم ان يختاروا من يريدونه من الملتزمين بل جبروا على ان يتخذوا لانفسهم سادات من الملتزمين يكونون اتباعا لهم وذكر المؤلف بومنوار انه في قومنة بوريس وقومنة كلرمون كان سادات الملتزمين او القومسات اذا وجدوا في حصصهم ارضا لم يخدم مالكها في الخدامة الالتزامية ابدا ولم يدفع عليها شيأ من الفرد والغرامات يرغمونها منه فورا ويقولون انه على حسب عوائدنا ورسومنا لا يجوز لاحد ان يملك

ارضا

ارض تملكا مطلقا معافاة وعلى هذه القاعدة حكم فى القوانين الفرنساوية وصار الآن عاما فى مملكتهم وهو ان كل ارض لابد لها من ملتزم . وفى اقاليم اخرى من مملكة فرانسا غيرها فليس المتقدمين (بوودين وكرمون) يظهر لسان الاملاك المطلق المعافى كان معتبرا اكثر من الاملاك الملتزمة وان الملك الاول قد مكث فيهما من غير تغيير اكثر مما مكث فى اقليم بوودين واقليم كارمون

وقد ذكر فى تاريخ لنغدوق العمومى فى المجلد الثانى جملة كبيرة من صور الوثائق فمنها مايدل على ان الاراضى المعافاة بهذا الاقليم (اى اقليم لنغدوق) كانت تعطى اقطاعات للناس ومنها مايدل على انها كانت تباع ومنها مايدل على انها كانت تستبدل بل الظاهر انه فى مدة القرن التاسع والعاشر ومعظم القرن الحادى عشر كانت الاراضى بهذا الاقليم مطلقة معافاة وقل أن يوجد فى جميع وثائق هذا الاقليم بعض آثار من الرسوم والعوايد الالتزامية والظاهر انه فى اقليم قطلونيا واقليم روسيلون كانت الاملاك فى القرن التاسع والعاشر ومعظم القرن الحادى عشر على نسق ما كانت عليه فى اقليم لنغدوق كما يستفاد ذلك من الوثائق الاصلية التى ذكرت فى مقدمة كتاب المؤلف بطرس دومركا والظاهر ايضا ان الملك المعافى مكث كذلك فى مملكة البلاد الواطية اكثر من البلاد المتقدمة بل لم تزل فيها آثار الاملاك المعافاة الى القرن الرابع عشر

ولا يخفى ان آراء فى شأن ملك الاراضى والعقارات كانت تختلف بحسب اختلاف معارفهم واهوائهم وشهواتهم النفسانية وذلك انه اتفق فى آن واحد ان بعض الناس كان يترك بعض اراضيه المعافاة ويبحث عن ان يكون من اتباع الملتزمين وبعض آخر كان شديد الرغبة فى جعل اراضيه الالتزامية اراضى معافاة مثال ذلك ماذكر فى قانون الملك لويز لودجوبير الذى ذكره المؤلف ايكردو وامثلة كثيرة فى مؤلفات اخرى ومثل هذا الاختلاف حصل فى مملكة البلاد الواطية

وما ذكرناه هنا في شأن تغيير الاراضي وتحولها من حال الى اخرى يكاد ان يكون مقصورا على ما وقع من ذلك في المملكة الفرنساوية وسبب ذلك ان آثارهم القديمة اعتنى بجمعها اكثر من غيرها او وجدت اكثر من آثار غيرها من ممالك اوربا

وهذه التغيرات السابقة قد حصلت ايضا في اراضي بلاد ايطاليا وكانت على النسق المتقدم ولكن هنا البراهين دالة على ان التملك المطلق المجاني مكث مرغوبا فيه عند الايطاليين زمنا اطول من زمن رغبة الفرنساوية فيه والظاهر ان عدة من القوانين التي احدثها ملوك ايطاليا في القرن التاسع تؤذن بتملك الاراضي تملكا مطلقا مجانيا ولكن حصل في القرن الحادي عشر ان بعض الناس تركوا تملكهم المطلق في اراضيهم وجعلوها التزامية وقال المؤلف موراطوري ان لفظ التزام الذي جرى على السنة الناس بعد لفظ ريع لم يعهد كتابته في وثيقة صحيحة مؤرخة قبل القرن الحادي عشر وان اقول ان اقدم وثيقة وجد فيها لفظ التزام هي الوثيقة التي صدرت من الملك روبرت ملك فرانسا حسبما ذكره المؤلف بوكيت في المجلد العاشر من تاريخ العائلة وفرانسا ثم وجد كذلك لفظ التزام في امر ملوكي ظهر (سنة ٧٩٠) ذكره المؤلف روميل ولكنه مختلف في صحته وايضا كثرة ذكر هذا اللفظ في الامر الملوكي المذكور ربما ادت الى الشك في صحته ثم ان المعنى الذي صرت به التملك المطلق المجاني والتملك الالتزامي تستفاد صحته من منشأ هذين اللفظين لان التملك المطلق يسمى ألود او ألوديوم ولفظ ألود مركب من لفظين نمساويين وهما لفظ آل ولفظ لود ومعناهما الارض المأخوذة بالقرعة وذكر المؤلف دوكنج وغيره ان امم الشمال تقاسموا الاراضي التي تغلبوا عليها بطريق القرعة واما الالتزام فيسمى فيودوم وهو مركب ايضا من لفظين وهما لفظ اود ومعناه الملك او المال ولفظ فيو ومعناه الرهن او الجامكية وبهذا يتبين ان الالتزامات كانت نوعا من الاجرة يعطى لمن يخدم في نظير خدمته

والمذهب الالتزامى عند الجرمانيين قد تقدم كذلك وبلغ الدرجة التى بلغها
فى مملكة فرانسا كما سبق ولكن حيث كان ايمبراطرة النمسا يفوقون فى المعارف
جدا على ملوك فرانسا الذين كانوا فى عصرهم لاسيما بعد ان انتقل التاج
الايمبراطورى من ذرية كرلوس مانيوس الى عائلة سكس لم يمكن للاشراف
اتباع الدولة ان يجعلوا بطلب استقلالهم كما حصل فى مملكة فرانسا فلم ينالوا
المزايا التى ثبتت فى فرانسا مع السرعة من تملك الاراضى الرعية بحق وراثى
وعلى حسب ما ذكر المؤلفون الجامعون لكتب الالتزامات كان كونراد
الثانى المسمى لوساليك اول ايمبراطور من ايمبراطرة النمسا جعل الالتزامات
وراثية وكان جلوس كونراد على كرسى الايمبراطورية (سنة ١٠٢٤) واما
فى مملكة فرانسا فلم تصر الالتزامات وراثية ولم يشع ذلك بين الناس الا فى ايام
الملك لويز لودبونير الذى خلف اباه فى السلطنة (سنة ٨١٤) ولم تحصل هذه
الحادثة كما ترى بين اتباع ايمبراطرة المانيا الا بعد عصر واما عند الفرنساوية فكانت
وزيادة على ذلك كانت هذه الحادثة بعد ان رتبها كونراد فى بلاد النمسا داخلة فى
قوانين تلك البلاد دلما ان هذه القوانين كانت لم تزل محافظة على العوايد
والرسوم القديمة فاذا كان لانسان من الاتباع التزام وراثى ولكن كانت
الوثيقة لم تنص صراحة على ان التزامه يصير بعده لورثته كان يحكم
بان هذا الالتزام لم يكن اعطى له الا لينتفع به مدة حياته بل بعد انشاء وراثية
الالتزامات بامر كونراد كان لا يستغرب فى بلاد النمسا اعطاء بعض التزامات
على سبيل العمرى فقط وذكر بعض المؤلفين وثيقة من هذا القبيل
وتاريخها (سنة ١٣٧٦) ثم ان حق انتقال الالتزامات الوراثية الى الحواشى
والى فروع الاناث لم يثبت فى المانيا الا مع غاية التراخى والبطء وذكر بعض
المؤلفين وثيقة تاريخها (سنة ٢٠١) مشتملة على توريث بعض نساء ولكن
كان اعطاء ذلك على سبيل الانعام لخصوصية حين اقتضت مراعاتهن
وفى نظير بعض خدم مهمة اقتضت ذلك ايضا كما ذكره بوهمير ولا يخفى
ايضا انه بعد حدوث الفلاق الالتزامى بمدة مستطيلة وجد فى بلاد النمسا

وفى مملكة فرانسا وايطاليا مقدار جسيم من الاراضى باق على التملك المطلق المعاف ويظهر من قانون الدبر المسمى ديربوك ان جزأ عظيما من التزامات اقليم سفيه مكث مملوكا تملكا معافى الى القرن الثالث عشر ويظهر ايضا ان التملك المعافى كان موجودا كذلك وقتئذ فى خط آخر من اراضى اقليم سفيه المذكور

المبحث التاسع

فى بيان المطلب المتقدم بصحيفة (٢٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

وحيث انه يكفينى ان اذكر فى غير هذا المبحث حالة الناس الذين كانوا يسكنون المدن اقتصرت هنا على ذكر حالة سكان البلاد فاقول ان الناس الذين كانوا يشتغلون بزراعة الاراضى فى الاعصر التى نتكلم عليها يمكن تقسيمهم الى ثلاث مراتب

المرتبة الاولى مرتبة المستعبدين او الاسرى والظاهر ان هذه الطائفة كانت اكثر من غيرها اما لانه كان اباؤها اسرى اخذوا فى الحرب او لانها صاروا ارقاء بسبب بعض الشروط والوسائط التى ذكرها المؤلف دوكنج وهناك عدة امور تفيد ان ارباب هذه الطائفة كانوا فى غاية الذل والاسترقاق وهى (اولا) كان السيد مطلق التصرف فى شأن من هم تحت ولايته من المستعبدين فكان يجوز له ان يعاقب من شاء منهم بالموت من غير ان يتعرض له احد فى فعله ولم يزل هذا الحق الشنيع ثابتا للسادات على ارقائهم من الازمان الخالية الجاهلية الاخلاق الى القرن الثانى عشر وبعد ان قلت هذه الفعال وضاقت دائرة افتتاء السادات كانت نفس الرقيق لا قيمة لها بحيث كان اقل شئ من الاموال يكفى فى خلوص قاتله من ذنب القتل وحيث كان السادات يتصرفون فى نفوس ارقائهم بما شاؤا من قتل وابقاء فمن باب أولى كان لا يمكن منعهم عن ان يعاقبوهم بما شاؤا من انواع العذاب

وكانت

وكانت العقابات المرتبة بالقوانين القديمة للمستعبدين في نظير ذنوبهم الكبيرة غير العقابات المرتبة للناس الاحرار لان الاحرار كان لا يحكم عليهم في نظير كبائرهم الا بان يدفعوا جريمة معلومة واما المستعبدون فكان يحكم عليهم بقصاصات جسمانية كانت احيانا من اشد العذاب فانه كان من الممكن ان يحكم عليهم بالتعذيب في نظير ادنى ذنب يقع منهم وبالجملة فالشرائع التي تخص هذا الشأن تنفر منها نفوس ذوي المروءة والانسانية

(ثانيا) حيث كان تصرف السادات في نفوس ارقائهم مطلقا بهذه المثابة لزم انهم بالنسبة الى اعمال ارقائهم الذاتية وما كان تحت ايديهم لم يكونوا في تصرفهم في ذلك اقل من التصرف السابق ففي مبدء الامر كان لا يؤذن بالزواج لاحد من المستعبدين ثم كان يمكن للنساء ان يعشن مع الرجال كالازواج بل كان السادات يحملون الرجال والنساء من ارقائهم على ذلك ولكن لم يكن هذا معتبرا زوجية بينهم وانما كان عما شائعا حتى انه بعد ان دخل الملل المتبررون في دين النصرانية بمدة قرون كان المستعبدون الذين يعيشون مع بعضهم كالزوج والزوجة ليسوا مجتمعين ببعضهم بعقد دين ولا نكاح صحيح فلما صار هذا الاجتماع فيما بعد معتبرا بين المستعبدين كنكاح شرعي صار لا يؤذن لهم ان يتزوجوا الا بعد رضا سيدهم وكل من كان يتجاسر على خرم هذه القاعدة بان يتزوج بغير اذن سيده كان يعاقب باشد العقاب بل وكان يحكم عليه احيانا بالموت فلما حسنت اخلاق ملل اوربا وتنقحت عقولهم صار من يتزوج من المستعبدين بغير اذن سيده لا يحكم عليه الا بجريمة معينة

(ثالثا) اولاد المستعبدين كانوا مستعبدين ايضا وكان ملك رقبتهم لسادات آبائهم

(رابعا) كان للسيد ملك رقبة ارقائه بحيث كان يتصرف فيهم بالبيع كيف شاء ومادام المستعبد في خدمة منزل سيده كان يجوز بيع رقبته كباقي امتعة البيت واثاثه فلما صار المستعبدون بعد ذلك معينين للفلاحة وخدمة

الاراضي صاروا يباعون مع اخطاطها والارض التي هم في خدمتها وقد جمع المؤلف بو تجيسير جميع القوانين والوثائق التي توضح هذا الامر المشهور في شأن المستعبدين

(خامسا) كان لا يمكن للمستعبدين ان يطلبوا من ساداتهم سوى الاكل والكسوة وكل ما يكتسبونه بكدهم وتعبهم كان يرجع لساداتهم فان اقتضى الحال ان السيد ينعم على ارقائه ويعطيهم جهة شغل يتعيشون منها او يعين لهم مبلغا معلوما كان يرجع اليه ما زاد على كفايتهم فكل ما كانوا يجمعونه كان ملكا لسيدهم وكل من مات من المستعبدين كانت مخلفاته ترجع الى سيده ولا يجوز له ان يتصرف فيها بالايصاء

(سادسا) كان المستعبدون يمتازون عن الاحرار بلبوسهم وحيث كان طول الشعر عند جميع الملل المتبربرين مما يدل على المقام والحرية كان المستعبدون مجبورين على ان يحلقوا رؤسهم ومع ان هذا الامر بالنظر لذاته يستوي وجوده وعدمه كان يذكرهم في كل وقت رقهم واستعبادهم وكان من جملة القوانين المرتبة في شرائع اعاب مثل ادر با ان الرقيق لا يقبل ابدا في محكمة للشهادة على حر

(المرتبة الثانية) طائفة الويلاني وهي طائفة تخدم بعض اراض تسمى ويله ولذلك سميت طائفة الويلاني وكانوا يباعون مع الاراضي التي يخدمونها ان بيعت والفرق بين هذه الطائفة وطائفة المستعبدين كما ذكره بطرس دومو تيه ان الويلانيين كانوا يدفعون لساداتهم مقدارا معينا من محصولات الاراضي التي كانوا يزرعونها وبعد ان يدفعوا المقدار المعمول عليهم يكون لهم ان يتصرفوا كيف شاؤا في ثمرات اشغالهم وكدهم

(المرتبة الثالثة) من مراتب الناس الذين كانوا يشتغلون بالزراعة هي طائفة الاحرار وهنالك ما يدلنا على ان الناس الاحرار كانوا ايضا يملكون بعض عقارات صغيرة تملكا مطلقا معافى وزيادة على ذلك كانوا يزرعون بعض التزامات لمن جاورهم من الملتزمين الاغنياء ويعطون اهؤلاء الملتزمين في نظير

ذلك مقدارا معينا ويجد موثهم فى عدة امور حقيقية كحراثة قطعة ارض الملتزم
مثلا واعانته وقت الحصاد ووقت اجتناء الكروم وما اشبه ذلك وذكر المؤلف
موراطورى برهانا لذلك وحججا جدا وكذلك المؤلف دوكنج ولكن لم يمكنى
أن اعرف هل كان هؤلاء الناس يعزلهم الملتزمون متى ارادوا او كانوا
يستأجرون اراضى الملتزمين مدة معلومة من السنوات ولا يمكن عزلهم قبل
انقضاء مدة الاجارة والظاهر بحسب احوال الزمن وقتئذ ان الامر الاول
هو الاقرب وان كان هؤلاء الناس احرارا بمعنى انهم حازوا الصفات الشريفة
الدال عليها لفظ حرية لانهم كانوا يتمتعون بجميع مزايا الاحرار وكانوا
يدعون الى الخدم الحربية مع انها كانت خدما شريفة لم يكن للمستعبدين
حق فيها كذا ذكره موراطورى

وما ذكرناه فى شأن تلك المراتب الثلاثة يعين قارئ كتابنا على اتقان برهان
سنذكره لاجل اثبات ما قدمناه فى اجحاف الملوك فى شأن سوء حال الاهالى
فنقول مع انه كان هناك بون بعيد بين طائفة المستعبدين وطائفة الاحرار
كان ظلم الملتزمين الكبار شديدا فكانوا يعاملون من يستوطن باراضيهم
ظلما متواليا لا يطاق بحيث ان عدة من الناس الاحرار سئموا من ذلك فتنازلوا
عن حريتهم وجعلوا انفسهم باختيارهم من جملة المستعبدين لهؤلاء الطغاة
الجائرين وانما جعلوا انفسهم من جملة المستعبدين ليتقربوا الى ساداتهم
فيحموهم ويعطوهم قوتهم وقوت عائلاتهم وصورة هذا الاستعباد الذى
كان مشهورا وقتئذ باسم أوبنوكسيامبون مذكورة فى كتاب المؤلف
ماركولف وفى كتاب آخر لا يعلم مؤلفه الا انه جمع الرسوم والقوانين القديمة
والذى اشهر هذا الكتاب الاخير هو المعلم بينون

فيعلم من هذين الكتابين ان لفظ أوبنوكسيامبون كان مدلوله حالة الفقر
والظلم التى كان فيها كل شخص يتنازل عن حريته باختياره وكان الناس
الاحرار فى الاكثر يتنازلون عن حريتهم ويدخلون تحت طاعة الاساقفة
ورؤساء الديور لاجل ان يكون لهم جانب من الامن الذى كان يستظل به

اتباع الكنائس والديور وارقاؤها لان حالى ذلك العصر مرتهنهم وارقاءهم كانوا يحترمون القديسين والقسيسين ويدخلون في سلكهم ذكره دوكنج ولابد ان حالة الاحرار كانت سيئة جدا حيث ان الاحرار كانوا مضطرين الى ان يتنازلوا باختيارهم عن حريتهم ويدخلوا تحت طاعة غيرهم كالمستعبدين ثم ان مقدار المستعبدين كان جسيما جدا عند كل ملة من ملل اوربا لانه في ابتداء الجيل الثالث في مملكة فرانسا كان معظم رعاع الناس قد آل الى الاستعباد ولذا كان في روح الشرائع وكذلك في انكلتره ويوجد في كتاب المعلم باركتون عدة حوادث غريبة في شأن الحالة التي كان عليها الويلاينون والمستعبدون في بلاد انكلتره

المبحث العاشر

في بيان مطلب كون الآثار التي ترتبت عن هذه الهمجية اضرت بالعلوم والفنون صحيفة (٣١) في القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

يمكن ان نبرهن على هذا الامر بادلة كثيرة جدا فانه وجدت عدة قوانين وعدة وثائق صادرة عن الاعيان ذوي الدرجات الرفيعة يستبين منها ان هؤلاء الاعيان كانوا لا يعرفون كتابة اسمائهم ولا وضع امضاآتهم وبسبب ذلك كانوا يعملون صورة صليب على الوثائق الصادرة عنهم وكانت هذه العلامة امضاآتهم وقد بقي الى زمننا عدة وثائق بعضها صادر عن الملوك وبعضها صادر عن الاعيان امضاؤها صورة الصليب فقيل ان هذه العلامة رسم ابدعهم لانهم كانوا لا يعرفون الكتابة ذكره دوكنج وفي القرن التاسع كان القونت هريبود رئيس المحكمة واعظم قضاة الدولة مع انه كان لا يعرف ان يكتب اسمه بل ووجد في القرن الرابع عشر الذي هو قريب العهد منا ان دوغسقلين رئيس الجيوش الفرنساوية واعظم رجال الدولة واول اكابر عصره كان ايضا لا يعرف القراءة ولا الكتابة كما ذكره سنتبالي وهذا الجهل لم يكن مقصورا على العوام بل كان اغلب القسيسين ارباب المناصب لا يمكنهم

ان يكتبوا اسماءهم على القوانين التي كان يحط الرأي عليها في المجالس التي كانوا يحضرونها وكان من جملة القوانين انه يلزم ان كل من طلب ان يتقلد منصبا او وظيفة يسئل هل يعرف ان يقرأ الانجيل والمكاتبات ويفسر معناها ولو كلمة بكلمة من غير نظر الى تفسير الجملة وطالما كان يشتكي الملك ألفريد الاكبر من انه لم يكن يوجد في البلاد التي بين نهري هومبر وتاميز احد من القسيسين يفهم الدعوات القدسية بلغتها الاصلية ويمكنه أن يترجم من اللغة اللاطينية ولو العبارات السهلة ويشتكي ايضا من ان البلاد التي كانت بين نهر تاميز والبحر كان قسيسوها اجهل من قسيسي البلاد التي ذكرت آنفا

وقد وصف لنا بعض مؤرخي تلك الاعصر جهل القسيسين وقتئذ ولكن بالغ في ذمهم على وجه السخرية والاستهزاء بعبارة لا يمكن ترجمتها بما يؤدي مؤداها بحيث يكون على الوجه الذي حاكه وزيادة على تلك الاسباب التي ترتب عليها عموم الجهل ويمكن اخذها من حالة الحكومات واخلاق الناس من القرن السابع الى القرن الحادي عشر نقول ان من اسبابه ايضا ندرة الكتب وقتئذ وعدم انتشارها بين الناس

وذلك ان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على جلود مصقولة او على رق قشر شجر البابيروس المسمى بردي او فيلكون ويقال له ايضا ورق النيل لانه كان يأتي اليهم من مصر ولما كان قشر البابيروس ارخص ثمنا كان استعماله عندهم اكثر من الجلود ولكن بعد ان فتح الاسلام بلاد مصر في القرن السابع انقطعت المخالطات بين اهالي مصر وبين ملل ايطاليا وغيرهم من ملل اوربا وبطل استعمال ورق السن من بلاد اوربا فاضطر الناس الى أن يكتبوا جميع الكتب على الجلود وحيث كانت غالية الثمن صارت الكتب كذلك غالية ونادرة جدا ويستفاد من هذا انه كان يصعب تحصيل مواد يكتب عليها ويوجد الى الآن عدة كتب من مؤلفات القرن الثامن والتاسع كلها مسوخة في جلود ازيلت منها الكتابة القديمة وعوضت بكتابة اخرى جديدة ويمكن

ان هذه السابقة كانت هى السبب فى ضياع عدة مؤلفات قديمة وكانوا
مثلا يمحون تأليف المؤلف تيتوس ليوس اوتاسيت ويكتبون بدلها سير بعض
القديسين او دعوات بعض الكهنة والرهبان كما ذكره موراطورى وقد ذكر
المؤلف منتفوكون ان معظم الكتب القديمة التى عثر عليها كان مكتوبا
على جلود وكان قد مسح منها بعض الكتابة القديمة الا ما كان قبل القرن
الثانى عشر وحيث كان ندور المواد التى يكتب عليها من جملة الاسباب
التى ضاع بها مقدار عظيم من كتب المتقدمين استفيد منه سبب قلة كتب
المتقدمين السابقة على القرن الحادى عشر مع ان هذا القرن كان اول
اخذ الكتب فى الكثرة والانتشار لسبب سنذكره فى آخر هذا المبحث
وهنالك وقائع اخرى كثيرة تدل على ان الكتب مدة القرون التى نتكلم عليها
كانت نادرة جدا وقل ان وجد فى ذلك الوقت اناس يملكون بعض كتب
بل بعض الديور والكنائس الكبيرة لم يكن موجودا فيها سوى نسخة وحيدة
من كتاب القداس (صلاة النصارى) كما ذكره موراطورى وقد كتب الراهب
المسمى لوب وهو قسيس دير فريرس (سنة ٨٥٥) مكتوبا الى البابا واقسم
عليه فيه ان يعيره نسخة من كتاب الاديب شيشرون ومن قونت كنتليان
قائلا انه وان كان يوجد عندنا بعض شذرات من هذا الكتاب الا انه لا يوجد
نسخة كاملة فى مملكة فرانسا بجمعها انتهى ذكره المؤلف موراطورى
ثم ان ثمن الكتب لم يزل آخذا فى العلو حتى ان الناس المتوسطى الحال فى الغنى
كانوا يعجزون عن شراء شىء منها وقد اشترت قونتيسة انجو نسخة من كتاب
مواعظ هيمون اسقف هلبرستادت دفعت فيها مائتين من الضأن وخمس
مقادير من الارض مزروعة قمحا (يقال للمقدار منها كارتيه) وخمسة
اخرى مزروعة من قمح الجاودار وخمسة مزروعة من الذرة البيضاء
كما فى تاريخ آداب فرانسا ولما استعار الملك لويز الحادى عشر (سنة ١٤٧١)
من جمعية الطب البشرى بمدينة باريس مؤلفات الفخر الرازى وهو من حكماء
العرب رهن هذا الملك فى نظيرها مقدارا جسيما من امتعته النفيسة

الثمينه

الثمينة بل وطلب معه كفيل بضمنه حتى يرد هذه الكتب نعم ذلك بعض الملتزمين واستلمها كذا ذكره المؤلف نودى وذكر ايضا عدة وقائع واحوال غريبة تدل على علو ثمن الكتب فى القرون الوسطى بحيث لو اطلعت على مجموع هذا المؤلف الذى استنبطه من الكتب لوجدت الآداب جديرة بان تشد اليها الرحال وحرية بان يتولع بها فحول الرجال وكان اذا وقف احد كتابا على كنيسة او دير (لانه لم يكن فى تلك الازمان المتبربرة كتبخانات الا فى الكنائس والديور) عددت امرا عظيما حتى ان واقف الكتاب يدنو بنفسه من المحراب ويضع الكتاب فيه لمغفرة ذنوبه كذا ذكره موراطورى

وفى القرن الحادى عشر اخترع فن اصطناع الورق المعتاد الآن فى جميع البلاد وباختراعه تعددت الكتب وسهلت ممارسة العلوم سهولة غريبة كما ذكره موراطورى ولا يخفى ان اختراع صنع الورق واختراع الطبع هما حادثتان مهمتان من حوادث تاريخ الآداب فكان اختراع فن الورق مقدمة لنمو الآداب والفروع الفلسفية فى اواخر القرن الحادى عشر واختراع الطبع اخرج اوروبا من ظلمات الجهالة ونشر بها سواطع الانوار التى ازالت عنها لياليها الحالكة وردتها عن ضلالها الى اقوم المسالك

المبحث الحادى عشر

فى بيان مطلب مداخلة الحكومة الانتخابية فى الامور الدينية
بصحيفة (٣١) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لا يخفى ان جميع القواعد والاصول الدينية التى كانت فى اعصر الجهالة تبرهن على ما قدمناه فى الكتاب ونذكر لك شاهدا على ذلك استنبطناه من كتاب عقد ...وامه من قديسى كنيسة رومة وهو اسقف نوبون المسمى الواه وكان موجودا فى القرن السابع ونص عبارته خير النصارى من يتردد غالبا الى الكنائس ويقدم الى المحراب القربان الذى يتقرب به الى الله تعالى ولا يذوق ثمرة كده الا بعد ان يتقرب بعضها الى الله تعالى ويقبل المواسم

والاعياد المقدسة بعدة ايام بلازم الرياضة والعفة في عيشته ولو مع زوجته بحكم التقرب الى محراب الله تعالى طاهر الفلب خالص النية وغيرهم ايضا من يمكنه ان يستمر على تلاوة ادعية الحواريين والصلاة فاهدوا ايها الناس نفسكم بالطاعة وانقذوا ارواحكم من التلف والفساد قبل ان تضيع منكم كل وسيلة ولا تجدوا لكم قدرة ولا استطاعة وأتحفوا القسيسين بالهدايا واخرجوا لهم العشر من اموالكم ومحصولات اراضيكم واكثروا من التردد الى الكنائس وحافظوا على التضرع والخضوع الى القديسين ليظلوكم بحمايتهم ورعايتهم فان حافظتم على هذه الاشياء وقفتم ثابتين الاقدام * بحضرة الملك العلام * يوم يدعو الداعي هذا يوم القيام * هذا يوم الاهانة والاكرام * فيصيح من اتقى الله في السيئات * وقدم الحسنات * قائلا للحق الديان * الكريم المنان * اللهم أعطنا فاسمحنا وآنسنا بالوجه لنا علنا * كذا ذكره اشير * ثم ان المترجم العالم الحاذق الذي ترجم تاريخ القسيسين لدى أنقه العالم موسهيم قد كمل هذا التاريخ ووسعه بحواش نفيسة زادها عليه ذكر في حاشية منها عبارة صحيحة نعقب بها عبارة القديس ألواء السابقة ونصها قد رأينا في عبارة القديس ألواء وصفا بين التقى من ابناء النصرانية ولكن لم يذكر فيه حب الله ولا الرضاء بما تعلقت به ارادته تعالى ولا الانقياد لشريعته ولا التحريض على اتباع سبيل العدل والانصاف والمراعاة والاحسان بين الناس وبين بعضهم انتهى

البحث الثاني عشر

في بيان المطلب السابق ايضا

من المضر لكنيسة رومة ان مذهبها ان لا تغير شأن الحافل والرسوم الدينية التي هي مقبولة عند عامة الناس من اعصر الجهالة وهي في الاعصر المنورة بمصابيح العلوم والمعارف مضطرة الى ان تستمر على ملاحظة العوايد التي لا يمكن قبولها الا في اعصر الجهالة التي يصدق فيها الناس بكل شئ

ثم ان عدة من هذه العوايد والمحافل الدينية مأخوذة من عوايد عبدة الاوثان مع بعض تغيير خفيف وكان يوجد فيها امور هزلية بحيث لو كنا نشاهد ان كل قرن يخلو عن انواع الاوهام الفاسدة والبدع الكاسدة لما امكن للانسان ان يعتقد ان مثل هذه الامور كان مقبولا ومرعيا في الاعصر الماضية ومن هذه المحافل المضحكة محفل كان يعمل سابقا في عدة كنائس من مملكة فرانسا في شأن فرار السيدة مريم الى بلاد مصر وهذا المحفل كان يسمى موسم الحمار وصورة هذا المحفل انهم كانوا يصورون فتاة شابة مزينة بافخر الملابس حاملة طفلا فوق ذراعيها راكبة على حمار مسرج بسرج فاخر والناس يقودونه الى المحراب مع الزفاف والاحتفال ثم يصلون وهم في محفل وزحام عظيم وقد عودوا الحمار بجثو على ركبتيه في احيان معلومة وقت الصلاة وبعد الصلاة ينشدون اشعارا معناها كلام لصغار مكفره ثم بعد هذا العمل يصرف القسيس الناس بكونه ينهق كالحمار ثلاث مرات عوضا عن ان يصرفهم بالكلام المعتاد وكذلك الحاضرون عوضا عن ان يردوا عليه بالجواب المعتاد ينهقون مثله ثلاث مرات ذكره دوكنج

وهذا الموسم المضحك لم يكن يعمل في الكنيسة على سبيل الاستهزاء واللعب الذي كانت عادة الناس ان يعملوه بعض امور دينية بل كان يعمل على سبيل انه امر تعبدي يعمله القسيسون وتقره الكنيسة وكذلك الموسم المسمى موسم المجانين وغيره من مواسم هذه الاعصار ولكن حيث ان هذا الامر لم يكن مقبولا عند الكنيسة القاثوليقية بل كان من الامور المخالفة للعقل التي لا تصدر الا عن البهائم آل الامر الى ان بطلت تلك العادة بالكلية

المبحث الثالث عشر

في بيان مطلب انهار مرمة المجاهدة الصليبية بصحيفة (٣٥) من القسم الاول من المحاف الملون الالبا

وحيث ان تاريخ الدنيا لا يوجد فيه واقعة اعرب من واقعة المجاهدات

الصليبية رأينا من المفيد المرغوب ان نذكر مافيه توضيح كيفية الاختلال العجيب بل والجنون الغريب الذى كان حاصلا وقتئذ لعقول اهل المشرق فقد ذكرنا فى اتحاف الملوك الالبا انه كان هنالك عدة اسباب حركت عقول الناس شيأ فشيأ الى الفعال العجيبة التى حصلت منهم لاسيما وكان قد حثهم على ذلك وهيج قواهم وعزائمهم القديس بطرس لرميت بوعظه اياهم وحيث ان تاريخ هذه الغزوات المرغوب فيه ليس موضعا توصيف شافيا فيطهر ان ذكر هذه الغزوات وتبيين احوالها تفصيلا على قدر اللازم يرغب فيه ويعتنى به بعض قراء كتابنا هذا

ومانستشهد به من كلام المؤلفين يحمل الانسان على ان يتيقن ان الناس فى آخر القرن العاشر واوائل القرن الحادى عشر كانوا منتظرين قيام الساعة وكانوا يقولون انها قريبة من عهدهم حتى صار الناس كافة بهذا الوهم فى حرن واشجان وتمكن من قلوبهم حتى بان اثره فى الوثائق المدنية ويوجد عدة وثائق سطرت فى آخر القرن العاشر اولها هكذا حيث ان الآخرة قد قربت كما يستدل على ذلك بالفتن ولغضب الحالّ بالناس من الله تعالى اختبارا لهم نقول كذا وكذا الى آخره انتهى من تاريخ دعدوق للمؤلف وبسبب هذا الرعب ذهب مقدار جسيم من حجاج النصارى الى بيت المقدس ليموتوا فيه او ينتظروا نزول المسيح عيسى فصار الملوك والامراء والاساقفة وكثير من القسس والقوسات ورعاع الناس كلهم يحثون السير الى ارض القدس وذكر بعض المؤرخين ان قونتة انجوليم ذهب الى بلاد القدس (سنة [illegible]) بعدد لايحصى من الناس ثم ان هؤلاء الحجاج بعد رجوعهم من بلاد القدس ملأوا اوربا من الحكايات المبكية على المعاملة السيئة الحاصلة للنصارى فى ارض القدس ذكره ولديرم وزيادة على ذلك كان يرى كثير الناس من النصارى الساكنين بمدينة القدس وغيرها من مدائن المشرق يسيحون فى بلاد اوربا للشحاذة ويبالغون فى فقر النصارى الموجودين ببلاد المسلمين ليحسن اليهم الناس ويحرضوا اصحاب الغيرة

وحثه من النصارى على ان يأخذوا فى بعض مشروعات بها يكون خلاص النصارى وانقاذهم من ظلم المسلمين ذكره بلدريسى

وفى (سنة ٩٨٦ م) كتب مطران راوين المسمى جربرتى الذى تقلد منصب البابوية من ذلك الوقت وسمى سيلوسترو الثانى مكتوبا لجميع النصارى باسم كنيسة مدينة القدس وكان هذا المكتوب بليغا فصيحا يهيج القلوب من عباراته لما ان فيه تحريض الناس على ان يسيروا متسلحين الى مدينة القدس ليخلصوها من ظلم المسلمين وبتحريضه القوى فى هذا المكتوب هاجت قلوب بعض اهالى جمهورية بيزه وجهزوا سفنا حربية حتى وصلوا الى المسلمين بارض الشام كما ذكره مورطورى

وقد بثت غزواتهم الاحزان والاشجان ببلاد المشرق وفى (سنة) ظهر رأى جديد فى بلاد النصارى وهو ان الملل النصرانية يجب عليها ان تنضم الى بعضها لاخراج المسلمين من ارض القدس كما فى تاريخ ويكيت فبهذه الحوادث المذكورة يفهم ان الآراء التى صارت اساسا على الغزوات الصليبية التى هى من قبيل الهوس والجنون قد ظهرت شيأ فشيأ على التدريج وحيث كان كذلك فلا ينبغى للانسان ان يكثر من التعجب من كون الناس كافة اصطفوا قياما للمجاهدة الصليبية حين اشهر اوربان الثانى رايات الصليب لان عقولهم كانت متيقظة لذلك من قبل

وتلك الحوادث التى ذكرناها فى هذا المبحث وفى الاعقاب تكفى فى افادتنا الحمية التى تمكنت فى عدد لا يحصى من الناس وحثته على الاقدام والدخول فى هذا المشروع الخطر وهو المجاهدة الصليبية ولنذكر هنا الخصوصيات والمزايا التى كانت تعطى لاتباع الصليب فى هذه المجاهدة حيث ان ذلك يدل على طول مكث تلك الحمية فى اوربا فنقول اولا كان المحاربون مع الصليب فى تلك الغزوات لا يطالبون بديون ماداموا من اهل الحرب المقدس

(ثانيا) كانوا معافين من ربح الدراهم التى اقترضوها

(ثالثا) كانوا معافين من الجرائم والغرامات دواما او لاجل معلوم

(رابعا) كان يباح لهم ان يعطوا اراضيهم لمن شاؤا من غير اذن ملتزميهم الذى اقطعها لهم ذكر ذلك كله دوكنج

(خامسا) كانت ذواتهم وامتعتهم فى حماية مارى بطرس فكانت الكنيسة تحمى بسهام الغضب والمقت جميع من كان يتعرض لهم بسوء او يبحث عن مشاجراتهم ماداموا مشتغلين بالحرب المقدس ذكر ذلك دوكنج والمؤلف غيبرت

(سادسا) كانوا يتمتعون بجميع مزايا القسيسين فلم يكن يجب عليهم الحضور بالمحاكم المدنية وانما كان يحكم عليهم بالافتاآت الدينية قاله دوكنج

(سابعا) كانوا اذا ارتكبوا ذنبا يسامحون مسامحة كاملة ويغفر ذنوبهم لانهم كانوا يعتقدون ان ابواب السماء مفتحة لهم ولا يطلب منهم كفارة لخطاياهم لان كفاراتهم هى دخولهم فى المجاهدة الصليبية التى كانت ملايمة لطباعهم وشهواتهم حيث كانوا يحبون الحرب حبا جما ذكره غيبرت

وحيث ان القوى المدنية والقسيسية كانت تبذل كل الجهد فى تقرير مشروعات تزيد اباطيل اوهام الناس وتعضدها فهل يستغرب انه كان من العار وقتئذ الامتناع عن الدخول فى الحرب المقدس وان الناس كانوا يعدون من الجبن والعار احجام الانسان عن هذا الحرب فاذا ويلزم ثم ان تواريخ الغزوات الصليبية التى الفت اخيرا لا تفيد ما التواريخ الذى كان قائما بامالى اوربا وقت هذه الغزوات الا فائدة ناقصة قليلة جدا لان المؤلفين المتأخرين الذين الفوا هذه التواريخ عوضا عن ان يذكروا لنا الآثار والاصول التى كانت يسلكها الامم القديمة الى تصدى هؤلاء المورخون لبيان تاريخها بدلوها باآراء اعصرهم الاخيرة واصولها واما المؤرخون المتقدمون فكانوا متولعين بما كان يتولع به اهل عصرهم فلم يصفوا لنا هذه الاعصر وحلاتها الا بالامور العجيبة ثم ان اضطراب المؤرخين وحاجتهم عند ذكر النتائج التى ترتبت على تحريض البابا فى المشورة القسيسية التى عقدت فى مدينة كلرمون وكذلك ما اظهروه من المسرة عند سرد الناس الذين رهبوا انفسهم

في هذه العروة المقدسة واعتمادهم ولو كلهم على حماية الله عز وجل وفرط
الحظ والفرح الذى ظهر منهم عند وصولهم الى مدينة القدس كل ذلك
يعين على معرفة الغيرة المفرطة والحمية الجنونية التى اضطربت بها عقول
الناس وقتئذ اضطرابا شديدا بل ويمكن ايضا ان ذلك يولد فى عقل الخلق
قدر ما تولده فيه اى حادثة عظيمة اخرى من الحوادث المعلومة فى التواريخ
ولا فائدة فى ان نذكر لك هنا نصوص المؤرخين التى تثبت هذه الملحوظة
ولكن ربما قيل ان هؤلاء المؤلفين لم يذكروا ذلك على سبيل المبالغة الا لمجرد
تزيين حكاياتهم وتحسين عباراتهم فلاجل ذلك استحسنا ان نذكر لك هنا
مكتوبا نعضد به قولنا لان هذا المكتوب حرره الرئيس اتيين قونتة تيرروس
وبلواس وكان من رؤساء هذه العروة الى زوجته عديله يذكر فيه التقدم
والصلاح الذى حصل لاهل الصليب فكتب فيه ما يفيد ان اهل الصليب
هم جند عيسى المصطفون وانهم جند الله المجاهدون فى سبيله وانهم تحت
حماية الله القدير من غير واسطة اجنبية اذ انه كان يرشدهم بقدرته ويوصلهم
الى النصرة والفتوح وقال فى حق الترك انهم امة كافرة مغضوب عليها
من الله اذ كان سبحانه وتعالى لا يعمل بها سوى التخريب والتدمير وقال
فى حق عساكر النصرانية الذين ماتوا او قتلوا ان ارواحهم بمجرد خروجها
من اجسامهم دخلت بلا شك فى جنات النعيم ذكره داشير

ولا يخفى ان اللازم لانتقال هذه الجيوش العديدة من اوربا الى اسيا مبالغ
جسيمة حصل فى جمعها مشاق كبيرة لان الايرادات السنوية العمومية
كانت وقتئذ عند جميع اهالى اوربا قليلة جدا وقد بقيت بعض خصوصيات
بينت لنا الطرق التى سلكها الامير هومبرت الثانى الذى هو دوفين دوفينه
فى تحصيل المبالغ اللازمة لعساكره التى اعدها للمجاهدة الصليبية
(سنة ١٣٤٥) ولا بأس بذكر هذه الخصوصيات لانه يعرف بها تأثير تلك
الغزوات الصليبية ومدخليتها التى كانت لها وقتئذ فى الاملاك والعقارات
والحكومة المدنية فنقول (اولا) قد باع هذا الامير بعض التزاماته باذن ملك

فرانسا الذى كان اعطاها له واذن لهذا الامير بيعها حيث اعد اثمانها لامر جليل مقدس

(ثانيا) صدرت منه فرمانات يعد فيها الاشراف بمزايا جديدة وبعد ايضا مدائن التزاماته وقراها بخصوصيات جديدة بشرط أن يعطيه الاشراف واهالى المدائن والقرى من عبرتاخ مبالغ معلومة لاجل الغزوات الصليبية ومن ثم ترتبت عدة شرائع للجمعية سنتكلم عليها فى مبحث آخر

(ثالثا) انه لاجل أن يجمع المصاريف اللازمة لمشروعه فرض قدرا معلوما على كل من لم يصحبه بنفسه من رعاياه الى تلك الغزوة سواء كان هذا الممتنع من طائفة القسيسين او العامة

(رابعا) قد عين مبلغا جسيما من ايراداته المعتادة لمصروف الجيوش التى تخدم فى هذه الغزوة

(خامسا) اخذ مبالغ جسيمة من اليهود القاطنين بلاده ومن صيارفة اللومبرديين وغيرهم من الصيارفة الذين كانوا ساكنين بلاده فبتلك الوسائل كلها صرف مصاريف واسعة فى تلك الغزوة بحيث انه اضطر بعد رجوعه الى ان طالب رعاياه ثانيا وطلم اليهود بغرامات جديدة اخذها منهم ذكر ذلك كله فى تاريخ الدوفينه ولما سافر قونتة فواكس فى اوّل غزوة لم يمكنه جمع المبالغ اللازمة لمصاريف هذه الغزوة الا بعد ان باع بعض التزاماته كما فى تاريخ لنعدوق واما بودوان قونتة هينوت فانه رهن او باع جزأ من اراضيه لاسقف ليجه (سنة ١٠٩٦) كما فى تاريخ دوموند وبعد ذلك بزمن طويل اراد بودوان قونتة نامور (سنة ١٢٣٩) ان يدخل فى الغزوات الصليبية فباع بعض بلاده الى رمن الديور كما فى له مبروى

المبحث الرابع عشر

فى بيان مطلب تأثير حرابة اهل الصليب فى الامن على الاملاك بصحيفة (٣٨) من القسم الاوّل من اتحاف الملوك الالبا

قد جرت العادة ان الانسان اذا اراد أن يعلم اخلاق ملتين مختلفتين بلزمه ان ينظر في الوقائع التي ذكرها المؤرخون في شأنهما او يوجد في تاريخ اليونان عدة عبارات في وصف رونق الامبراطورية اليونانية وبهجتها التي كانت عليها وقد استنبط القسيس مونتفوكون من تاريخ القديس كريزستوم حكاية تبين بيانا شافيا ظرف اليونانيين ورفاهيتهم مدة عصره ووصف بعض اخلاق اهل عصره وعوايدهم في مواعظه باوصاف مفصلة يستغرب مثلها في مقام الوعظ المعد للخطابة على المنابر وقد جمع هذا القسيس تلك الاوصاف وفصلها بعناوين مختلفة والظاهر ان ديوان القدماء من امبراطرة اليونانيين كان مشابها كثيرا الدواوين ملوك المشرق في العظم والرونق وفساد الاخلاق وكذلك امبراطرة القرن الحادى عشر فانهم وان كانوا اضعف من المتقدمين في الشوكة لكنهم لم يكونوا اقل منهم في الرونق والغنى ويمكن أن تقابل بين اخلاق امبراطورية المشرق واخلاق ملل غربي اوربا بوجه آخر اظهر مما ذكرناه وربما كان اصح منه وهو انه لما كانت مدينة القسطنطينية ملتقى الجيوش الصليبية كانت كذلك ملتقى الامم المشرقية والامم المغربية ويوجد الى الآن عدة مؤلفين من تلك الاعصر بعضهم يوناني وبعضهم لاطيني قد شاهدوا باعينهم اختلاط امم المشرق بامم المغرب اختلاطا غريبا بعد ان كان اغلب هؤلاء الامم يجهلون بعضهم قبل ذلك وقد حكى هؤلاء المؤلفون مع التخلى عن الاغراض جميع ما ارتسم في عقول الناس من التأثيرات عقب هذا الاختلاط بل ويمكن ان هؤلاء المؤلفين اذا وصفوا ملة وذكروا عوايدها واخلاقها يكون وصفهم لها اصدق من وصف غيرهم

وقد وصف اليونانيون امة الفرنك (قدماء الفرنساوية) بانها امة متبربرة كالوحوش الكاسرة خشنة جاهلة ذات حمية شديدة وسلكوا في هذا الوصف مسلك التهم والتعالى بحيث يرى من عباراتهم ان امتهم كانت اكثر تمدنا من الفرنك وانها كانت متبحرة في فن ادارة الحكومة مستضيئة بانوار التمدن والذوق السليم وكان ذلك مجهولا عند الامم الشمالية

وبهذه الكيفية وصفت الاميرة انكومنينة اخلاق اللاطينيين كما فى تاريخ بيرنت فلم تتكلم عليهم الا مع الاحتقار حيث وصفتهم بانهم امة خشنية متبربرة يكفى د كراسمها فى تدنيس التاريخ وازالة بهجته ورونقه وكذلك المؤلف استاس كرونيات فانه بالغ فى ذم هذه الامة اكثر من انكومنينة ووصفها فى نهبها وسلبها بعبارات تقرب كثيرا من العبارات التى قالها المؤرخون قبله فى وصف اغارات امم العوثيين والوندالبين ذكره فى تاريخ بيرنت

وايضا المؤرخون اللاطينيون تعجبوا غاية التعجب عند نظرهم بهاء امبراطورية المشرق وثروتها وظرفها فبمجرد ما نظر احدهم وهو المؤلف فولكرد وشرتروس الى مدينة القسطنطينية تعجب من منظرها وصاح قائلا بالهما من مدينة ظريفة واسعة وما اكثر دورها وما اكثر قصورها البديعة البناء وما اكثر ما يرى فيها من الورش العجيبة وما كنت توهم انه يكثر بها انواع الاشياء والنفائس من ذهب وفضة واقمشة متنوعة كيف لا وقد شاهدت مينا ها يأتى اليها فى كل ساعة سفن موسوقة من جميع الاشياء اللازمة لاستعمال الناس انتهى و ماغليوم مطران مدينة صور وكان اعلم جميع المؤرخين الذين الفوا تاريخ الغزوات الصليبية فقد وصف فى عدة مواطن بهاء ديوان القسطنطينية وعظمه وذكر ان ما كان يراه اهل المغرب فى تلك المدينة كان يجب أن تحيط به عقولهم واما بنيامين لعراقى وهو من مدينة تودلة باقليم نوار وكان مبدء رحلته (سنة ١١٧٣) فالظاهر انه تعجب كذلك من عظم مدينة القسطنطينية حيث وصفها بعبارات تدل على غاية التعجب من تلك المدينة وذكر مثل ذلك المؤلف رجرون فى رحلاته فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وما بعدهما وقد ألف الراهب غونتير الفرنساوى تاريخا فى فتح القسطنطينية بالجيوش الصليبية فى القرن الثالث عشر وتكلم فيه على عظم تلك المدينة وبالغ فيها كغيره ثم ان جرفروا دوويل هردوان الذى هو من الاشراف الممتازين وكان

متعودا على الرفاهية التي كانت وقتئذ فى بلاد المغرب فقد ذكرنا عبارة فى هذا المعنى وبالغ فى التعجب الذى ادهش بعض عساكره الذين لم يروا مدينة القسطنطينية الاتلك المرة فقال كان يعسر على هؤلاء العساكر أن يصدقوا بانه يوجد فى الدنيا بتمامها مدينة ظريفة غنية مثل هذه المدينة حتى نظروا الى اسوارها الكبيرة وحصونها المشيدة العالية وقصورها البهية اللطيفة وكنائسها النفيسة المنيفة فكبر ذلك فى اعينهم بحيث لو لم يروا هذه المدينة باعينهم لم يتأت لهم أن ينعتوها بما يقتضى وصف واصف انتهى

وهذه العبارات الصادقة المبينة لنا حالة اللاطينيين فى التعجب الذى قام بانفسهم تقتضى ان اليونانيين يحق لهم ان يعتبروا اللاطينيين امة متبربرة خشنية قليلة التمدن وان اللاطينيين كانوا يحتقرون ميل اليونانيين الى الامور الغير الحربية وكانوا لا يعترفون ايضا بان اليونانيين يفوقون عليهم بكثير فى شأن فنون الرفاهية والظرف

ولا شك ان الحكومة والاخلاق قد بلغا فى ايطاليا درجة كمال لم تكن قواعدها من باقى ممالك اوربا وهذا ثابت مبرهن عليه بالحوادث والحكايات المذكورة فى التواريخ بل يظهر ان امهر رؤساء الجيوش الصليبية تعجبوا من هذا الفرق الكبير بين الايطاليين واليونانيين وكتب المؤلف ياكوس دو بترى الفرنساوى تاريخا فى الحرب المقدس وبالغ فى مدح اخلاق الايطاليين وعوايدهم فذكر انهم امة أأدب واكثر حياء من غيرها ومدحهم خصوصا بمحبة الحرية وبنشاطهم فى حكومة بلادهم

المبحث الخامس عشر

فى بيان مطلب اول ترتب الحرية فى مدن ايطاليا بصحيفة (٤١) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

مما يستصوب ان ننبه هنا على الوسائل والوسائط التى استعملتها مدائن ايطاليا لاجل توسيع حكمهم وتقوية شوكتهم فنقول ان هذه المدن بمجرد

ما اطمأنت على حريتها وعرفت ما صار لها من الاهمية وتأثير اشتغلت بأن تملك
على الاراضى التى حول أسوارها وذلك أنه لما كانت هذه المدن فى حكم
الرومانيين تتمتع بمتاآت ومزايا المدينة كانت جميع الاراضى المجاورة
لمدينة تنسب لتلك المدينة ومن مجموع هذه الاراضى تكون عقارات الجمعية
ولكن لم تكن سياسة المتبربرين تساعد هذه المدائن فى حفظ مزاياها واراضيها
فتسبب عن ذلك أن أخذت منها هذه الاراضى فيما بعد وقسمت بين من فتحوا
بلاد ايطاليا ثم اعطيت للباروئين بنوا قصورهم قريبا من ابواب المدن التى
كانوا يحكمون عليها فاغارت عدة من مدائن ايطاليا على هؤلاء الباروئين
المجاورين لها فى املاكهم متعللين بان تلك الاملاك كانت لهم وغصبت
منهم والآن يريدون اخذها فطردوا الباروئين منها وشركوا مع غيرهم
فيها ومن ثم ازدادت قوة المدائن وقويت شوكتهم كثيرا وحصل فى القرن
الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر من تلك المدن كثير من انواع التعدى
كما ذكره موراطورى وكان طمعها يزيد بازدياد شوكتها فهجمت
بعد ذلك على الباروئين القاطنين بعيدا عنها وجبرتهم على ان يحلفوا
انهم يكونون من جملة اعضاء الجمعية المدنية او الاهلية وان يعقدوا الميثاق
على الانقياد لقضاتها وان يصبر على اراضيهم جميع الفرد والغرامات
التى تفرض عليها من طرف الجمعية البلدية وان يكونوا انصارا لهذه الجمعية
ويحاموا عنها من كل عدو يتعدى عليها وان يسكنوا المدائن مدة معلومة
فى كل سنة قاله موراطورى

فامتثل الاشراف للحكومة المدنية فى سائر البلاد ولكن لا يخفى انهم مع
انقيادهم هذا كانوا يتأذون كثيرا من هذه الكيفية لانهم كانوا متعودين
على ان يعيشوا فى الاستقلال وقد وصف المؤلف أوتون دوفريزنجان
الحالة التى كانت عليها ايطاليا مدة حكم الملك فريدريق الاول
فقال المدن تحب الحرية كثيرا ولا تتحمل اذى حاكم صاحب شوكة وقدرة
حيث نقضت كل حكم كان عليها الا حكم القضاة فانها رضيت ان تكون

بحكومة به حتى ان ايطاليا لا ّن منصورة بالمدائن الحرة التى جبرت اساقتها على ان تسكن من داخل اسوارها وقل ان وجد احد من الاشراف ولو عظمت شوكته مهما عظمت الا وهو مكلف بالشرائع واصول حكومة المدينة التى هو مقيم بها انتهى وذكر هذا المؤلف فى عبارة اخرى ان الملتزم مونتو ميرات هو الذى امكنه دون غيره من بارونى ايطاليا أن يبقى على استقلاله كما كان وفى أن يكلفوه بشئ من الشرائع والقوانين التى كانت توجد بمدائن ايطاليا ذكره موراطورى

واختار بعض الاشراف من نفسه ان يكون تابعا للمدن حين نظر حيث بها الاهلية يتمتعون بأمن عظيم ونفوذ كلمة وامتياز وشوكة وثروة فاحب أن يكون له جزء من هذه الفوائد وعزم على ان يدخل تحت حماية هذه الجمعيات القوية الشوكة فجعل نفسه من جملة اهالى المدن القريبة لاملاكه وترك قصوره القديمة وصار من وقتئذ يسكن فى داخل المدن ولو مدة معلومة فى كل سنة ويوجد الى الآن وثائق تدل على ان عدة من شهر عائلات اشراف ايطاليا تجمعت مع بعضها على وجه كونها منسوبة لجمعيات مختلفة من الجمعيات الاهلية ذكره موراطورى ويوجد ايضا الوثيقة التى بها صار الملتزم أتود وماسورانا من جملة اهالى مدينة أوزيمو فى اقليم مرشودنكون وشرط على نفسه فى هذه الوثيقة أن يكون من جملة اهالى هذه المدينة وأن يفعل جميع ما يكلف به ليزداد عزا وسعادة وان يكون مطيعا لقضاة هذه المدينة ولا يتعصب ابدا عليها مع احد من اعدائها وأن يقيم داخل المدينة شهرين فى كل سنة بل وا كثر من ذلك اذا كلفه القضاة بذلك ولكن يلزم ايضا ان تتكفل هذه المدينة بحمايته وحماية عائلته واحبابه وان تدفع عنه كل عدو يتعدى عليه

وكان الدخول فى جملة اهالى الجمعيات المدنية مزية كبيرة بحيث ان العوام بل والقسيسين اصحاب الامتياز رضوا بان يكونوا من جملة ارباب الجمعيات المدنية الكبيرة ليتمتعوا بالأمن وشرف المقام الذى كان لارباب هذه الجمعيات

ذكره موراطورى وقبل حدوث الجمعيات المدنية كان الاشراف لا يقيمون الا بقصورهم وكانوا ينصبون فيها دواوينهم وكانت المدن وقتئذ خربة لايسكنها الا الارقاء المستعبدون وبعض من رعاع الناس ولكن بسبب هذه الحادثة التى تكلمنا عليها صارت المدن اعمر من املاك الملتزمين والاشراف وصارت منصورة بسكان اعيان اولى احترام واسبار وتجددت فى ايطاليا تلك العادة السعيدة الموجودة فيها الى الآن فترى العائلات ذات الامتياز التى تسكن المدن الكبيرة من ايطاليا اكثر من العائلات الشهيرة التى تسكن المدن الكبيرة فى باقى بلاد اوروبا ولما صارت مدن ايطاليا مسكونة بالاكابر والاعيان ازدادت بهجتها وعظم احترامها وزاد تولعها بحفظ حريتها واستقلالها ثم ان الايمبراطرة كان لهم سابقا فى اغلب مدن ايطاليا الكبيرة قصور ينزلون بها وقت ان كانوا يمرون فى بلاد ايطاليا وكان العساكر الذين يصحبونهم يوزعون على بيوت اهالى المدن فكان اهالى المدن يرون ان فى ذلك اذلالا لهم وخطرا عليهم لانهم كانوا يقولون ان هؤلاء الناس الداخلين فى مدنهم حكامنا واعداؤنا فاشتغلوا سريعا بانقاذ انفسهم من هذا الامر فبعض مدن حلفها الايمبراطرة على ان لا يدخلوها ابدا بل يجعلون مساكنهم خارج اسوارها كما فى الوثيقة الملوكية التى ذكرها موراطورى وبعض آخر رخص له الايمبراطرة ان يهدم القصور الملوكية التى فى داخل الاسوار بشرط ان يبنى قصورا غيرها فى الرساتيق لتنزل بها الايمبراطرة

وهذا التعدى الحاصل من طرف مدن ايطاليا أفزع جميع الايمبراطرة وملأ قلوبهم بالاحزان والاشجان فصمموا من وقتئذ على ان يجددوا بها ثانيا الاقتدار الملوكى وان يردوا فيها الاشياء الى حالتها القديمة وكان من جملة من اظهروا العزم فى هذا الشأن واجتهدوا فى تتميم هذا المشروع الملك افريدريق بربوروس فاجتمعت عند ذلك جميع المدن الحرة من ايطاليا وصارت عصبة واحدة وتأهبت للمدافعة عن نفسها وبعد المنازعات

والمحاربات

وبعد الحروب الطويلة التي كابدها كل من الفريقين يربح تارة ويخسر أخرى عقدت في مدينة قونسطانسه (سنة ١١٨٣) مشارطة صلح بها ثبت للمدن ايطاليا الكبيرة جميع المزايا والخصوصيات التي كان اعطاها لها الايمبراطرة المتقدمون ذكره موراطوري ثم اعتبرت هذه المشارطة بعد ذلك كأنها حصل منهم من شرائع القرون الوسطى حتى جرت العادة بقرنها مع قوانين الالتزامات في ... كتاب الحقوق المدنية حيث كانت تضمن للمدن المتعاهدة حفظ الاهم من مزاياها ومع ان هذه المشارطة كانت تثبت للملك شوكة عظيمة ... ورسما لم تزل المدن مواظبة على قوة عزمها وبذل جهدها في توسيع دائرة مزاياها وساعدتها في سعيها الاقدار حتى ان اغلب مدن ايطاليا الكبيرة قبل انقضاء القرن الثالث عشر كانت قد رفضت طاعة الايمبراطرة وصارت جمهوريه مستقلة بنفسها في احكامها واقتنيا آنها ولا حاجة الى أن نذكر هنا الطرق التي سلكتها حتى وصلت الى أوج هذه الشوكة العظيمة التي هي طالع نحس على الايمبراطرة وطالع سعد لحرية بلاد ايطاليا وقد جمع المؤلف موراطوري الذي عادته الصدق والتدقيق عدة وقائع نقلها عن المؤلفين كما هي من غير تصرف في عبارتهم توضح هذا الامر لمن يرجى المرغوب الذي فيه من يعرفه وذكر ذلك ايضا المؤلف وبلاروف

المبحث السادس عشر

في بيان مطلب ادخال الحرية في فرانسا وغيرها من باقي ممالك اوربا
بصحيفة (٤٢) من القسم الاول من اتحاف ملوك الالبا

وقد انشئت الجمعيات البلدية والاهلية في مملكة فرانسا من طويل اعطى الفرمون وثائق عتق او وثائق مزايا لبعض مدن وقرى من التزاماتهم ولكن كانت هذه الوثائق مباينة بالكلية للوثائق التي انتشرت في القرن الثاني عشر والثالث عشر حيث لم تجعل المدن بنسبة الوثائق جمعيات بلدية كما جعلت الوثائق التي انتشرت في القرنين المذكورين ولم ترتب فيها حكومة بلدية

ولم تأذن لهم بحمل السلاح ولم يكن في تلك الوثائق الا مجرد اعتاق الاهالي من الاستعباد والرق الذي كانوا فيه ومعافاتهم من بعض خدم شاقة مذلة ولكن فرضت عليهم بعض غرامات معلومة يدفعونها لساداتهم الملتزمين في نظير ما كانوا يكلفونهم به سابقا كيف شاؤا ويوجد الى الآن من هذه الوثائق وثيقتان لقريتين من قومية روسيلون تاريخ احداهما (سنة ٩٧٤) والاخرى (سنة ١٠٢٥) ذكرهما بطرس دومركه والظاهر ان هذه الوثائق لم تكن مجهولة في غير مملكة فرانسة من بلاد اوروبا وانها كانت واسطة يتوصل بها الى المزايا الواسعة التي اعطاها لويز لوغروس (اي لويز السمين) لمدن الترامانه وجفانكه

ثم ان الجمعيات البلدية في فرانسا لم تصل ابدا الى درجة الاستقلال الذي كانت تتمتع به جمعيات ايطاليا ثم ان جمعيات فرانسا قد اكتسبت مزايا وخصوصيات جديدة ولكن كان حق الحكم عليها منوطا بالملوك او بالبارونات الذين يحكمون مدائن تلك المملكة ويعطونها وثائق الاعتاق ويوجد الآن في مجموع اوامر ملوك فرانسا عدة كبيرة من هذه الوثائق صادرة من ملوك فرانسا ومن كبار اتباعهم ومن قرأ هذه الوثائق يتعجب من الحالة السيئة التي كانت عليها المدن قبل حدوث الجمعيات البلدية وقت ان كان عليها قضاة منصوبون من طرف الملتزمين وكان هؤلاء القضاة يفعلون فيها كما شاؤا حيث لم يكن ثم شريعة سوى شريعتهم وقوانينهم وكانت العطايا التي تذكر في هذه الوثائق كناية عن اعطاء بعض مزايا لم يكن يتمتع بها الناس قبل والقوانين التي كانت فيها كناية عن واسطة لازالة بعض المظالم التي كان يتأذى منها الناس وتشتمل هذه الوثائق ايضا على الوسائط التي كانت اول منشاء الحكومات المنتظمة وقوانين التعادل وبهذين الامرين كانت تلك الوثائق حرية بان يلتفت اليها التفاتا خصوصيا فرأينا انه عوضا عن كوننا نحيل من قرأ كتابنا هذا على المؤلفات المطولة التي توجد فيها هذه الوثائق مشتتة نذكر له هنا ما يكون له به المام ببعض بنود مهمة مذكورة في تلك الوثائق

ونرتب ما جمعناه من سبب التقدم على فصلين الفصل الاول فيما يخص الامن الشخصي والفصل الثاني فيما يخص الامن على العقارات والاراضي فنقول

(الفصل الاول فيما يخص الامن الشخصي)

لا يخفى انه في حالة تفرق وانقلابات التي نشأت في اوروبا من فساد الحكومة الالتزامية كان الامن الشخصي اهم مقصد لكل انسان وكان وقتئذ لا يمكن لاحد ان يحامي عن اتباعه الا كبار البارونية الحربيين فكان ذلك احد الاسباب الاصلية التي وصلتهم الى اكتساب السطوة وعظم الشوكة ولكن كان انشاء الجمعيات البلدية فيما بعد واسطة لامن كل انسان على نفسه من غير ان يحتاج لحماية الاشراف والبارونين كما كان سابقا وذلك من عدة وجوه

(اولا) كان مبنى كل وثيقة ان اهل الجمعية الاهلية يلزمهم ان يتحالفوا على ان يعين بعضهم بعضا عند الحاجة وان يحاموا عن انفسهم وينتقموا لبعضهم من كل عدو او ظالم يتعدى عليهم

(ثانيا) انه متى طلبت مدينة حريتها وجب على جميع سكانها أن ينضموا الى بعضهم ويصيروا جمعية واحدة ليحاموا عن انفسهم واذا أبى احد منهم ذلك حكم عليه بغرامة كبيرة في نظير امتناعه

(ثالثا) كان لاهالي تلك الجمعيات البلدية الحق في ان يحملوا السلاح وان يضربوا اعداءهم الخصوصية وان يستعملوا قوتهم العسكرية في تنفيذ جميع الاحكام التي تصدر عن قضاتهم ذكر الوجوه الثلاثة مؤلف داشوري

(رابعا) بطلت عندهم عادة اخذ دية القتيل اموالا وكذلك عادة اخذ الاموال في نظير كل فعل قبيح يخالف انتظام الجمعية وامن الناس وصار كل من ارتكب ذنبا من الكبائر الفاحشة يعاقب بالقتل او يحكم عليه بعقاب آخر شديد على حسب ذنبه الذي جناه

(خامسا) كان لا يجب على اهالي الجمعيات ان يبرؤا انفسهم او يدافعوا عنها

بالمقاتلات الشرعية فكان اذا اتهم انسان بجناية لا يحكم عليه بشئ الا بعد ثبوته بالبينة واقامة الدعوى على الوجه الشرعى ذكر هذين الوجهين داشورى و لمؤلف سيروى

(سادسا) اذا كان انسان من اهالى الجمعيات يظن بآخر انه يريد اذيته وانه عدوه ساغ له ان يشكو للقاضى لكن يلزمه اليمين فى هذه الحالة فيحضر القاضى الشخص المدعى عليه ويطلب منه ضامنا يتكفل به لا يقع منه ضرر فى حق المدعى ويشترط عليه انه ان وقع منه ذلك عوقب بدفع غرامة كبيرة ذكره داشورى

ومثل هذا الامن موجود الى الآن فى ابقوسيا واول حدوث هذا الامن فى فرانسا كان بين اهالى الجمعيات البلدية وحيث تحقق الناس فيما بعد ان نفعه كبير فى امن كل انسان على نفسه توسعوا فيه حتى عم سائر اعضاء الجمعية كما ذكره دوكنج فى كتابه المسمى حياة الملك سنت لويز

(الفصل الثانى فيما يخص الامن على العقارات و الاراضى)

كانت وثائق الجمعيات البلدية لا تهمل فى شأن الامن على العقارات بل كانوا يعتنون به كما يعتنون بالامن الشخصى وذلك انه على حسب القوانين القديمة التى كانت بمملكة فرانسا كان لا يجوز القبض على احد ولا وضعه فى السجن بسبب دين خصوصى فى ذمته فكان اذا قبض على انسان لاى سبب كان ما عدا ارتكابه للكبيرة من الجنايات و الذنوب يجوز تخليصه من ايدى الضباط القابضين عليه قهرا عنهم واستمر انه فى بلاد اخرى غير بلاد مملكة فرانسا كان الناس يتمتعون بهذا الحق ايضا وهو عدم جواز القبض عليهم من اجل الديون مادامت الجمعية باقية على اصول مشروعاتها وعدم تقدمها كان الدين معتبرا كانه امر ذاتى يتعلق بذات المدين لا باموالهم ولا بعقاراته واما لما تقدم الناس فى التمدن وصار كل غريم له الحق فى ان يقبض على عقارات مدينه حتى يدفع له ما عليه فاول واسطة استعملت فى هذا الشأن كانت فى الجمعيات البلدية ثم اخذت فى التقدم

شيأ فشيأ على الوجه الذى نذكره وهو (اولا) كان فى مبدء الامر اذا باع انسان لآخر شيأ بثمن مؤجل استوثق البائع من المشترى برهن يحفظه عنده حتى يسلمه الثمن ويوجد الى الآن من هذه العادة عدة وثائق ذكره داشورى

(ثانيا) كان اذا لم يدفع المشترى لبائعه رهنا وماطل عند انقضاء الاجل او اعسر كان لغريمه الحق ان يقبض بنفسه على امتعة مدينه قهرا عنه وقد صدر امر من ملك فرنسا يرخص لجميع اهالى مدينة باريس ان من له دين على آخر يجوز له ان يستولى كيف شاء فى اى محل كان على جميع ما يخص مدينه حتى يقضى ما عليه وهذه العادة الخشنية التى هى من قبيل القساوة الجبلية الفطرية مكثت زمنا طويلا اكثر مما يظن بالنظر لحالة الجمعية وقتئذ حيث كانت منتظمة غير مبنية على شرائع وقوانين وبيان كون هذه العادة مكثت زمنا طويلا هو ان هذا الامر الملوكى لم يذكر فيما كان صدوره من الملك (سنة [illegible]) واما الامر الذى نسخه ونهى عن ان يأخذ الغرماء امتعة المدينين الا بامر القاضى وتفتيشه لم يصدر الا (سنة [illegible]) ولكن يظهر انه مضى زمن طويل قبل ان تأتى الشرائع بدواء يقطع عرق هذه العادة القبيحة كان الناس مجبورين على ان يسلكوا فيه مسلك التعسف لما كان يترتب عليه من المضار التى كانت تحفهم وان تفطنت لذلك رأيت ان هذه العادة موافقة لعوايد كثيرة قد ذكرناها فيما تقدم ولا ينبغى ان ننسب العوايد الحميدة للشرائع والقوانين التى اقتضت لان القوانين فى الصدر دائما تقر بعض عوايد بعد ظهور بالتجربة انها نافعة لائقة

(ثالثا) بمجرد ما صار للقضاة مدخلية فى هذا الشأن رتبوا صورة مستحسنة فى القبض على المنقولات من امتعة المدين واثاثه وان نقصت قيمة هذه الامتعة عن الدين قبض على عقاراته واملاكه وبيعت حتى يستوفى الغريم دينه ذكره داشورى وبهذا القانون كان يأمن كل غريم على حقه امنا كليا ولكن حيث ان هذا القانون كان صعبا على الناس اخذت المروءة الانسانية

من نفسها فى تضييقه وتحقيقه فمنع الغريم من القبض على ملابس مدينه وفرشه وباب بيته وآلات زراعته وغير ذلك كما ذكره داشورى وذكر ايضا انه لما صدر قانون القبض على امتعة المدين عاما شاملا منع كذلك ان يقبض الغريم على فرس مدينه وسلاحه اذا كان من الاشراف وحيث كان الصيد تسلية الاشراف الحربيين وكانوا دائما متولعين به منع الملك لويز لوديونير أن يقبض على صقر احد من الاشراف فى نظير دين او حجز عليه ولكن اذا اتفق ان المدين ليس له من الامتعة الا هذه الاشياء فانها تؤخذ كغيرها

(رابعا) لاجل ان يصير الامن على العقارات اكيدا فى الجمعيات البلدية كان كل من اراد ان يكون عضوا من اعضائها يجبر على ان يشترى او يبنى له بيتا او يضع له ارضا من اراضيها او يأتى معه فى المدينة التى يسكنها بمقدار معلوم من الامتعة والاثاث بحيث يكون معه ضمانا على سلوكه ووفاء ما عليه ذكره داشورى

(خامسا) انه لاجل تأكيد هذا الامن حسب الامكان صار اهل الجمعيات فى بعض المدن مضطرين الى كفالة بعضهم بعضا ذكره داشورى ايضا

(سادسا) جميع القضايا التى تخص العقارات كان يحكم فيها القضاة الذين ينتخبهم الاهالى وكان ما يحكم به هؤلاء القضاة اعدل واصح من احكام البارونيين الذين كانوا يعتقدون ان احكامهم فوق كل حكم مع انهم كانوا يحكمون كيف شاؤا على حسب اهوائهم وشهواتهم النفسانية ذكره داشورى

(سابعا) كان لا يجوز أن يفرض على اهالى الجمعيات غرامات اختيارية غير مضبوطة بحيث تكون على حسب ارادة من يفرضها لان الملتزم الذى كان يعطى وثيقة اعتاق او معافاة لبعض المدن كان لا يأخذ من جمعياتها الا مبلغا معلوما فى نظير جميع انواع الحقوق التى كانت له عليها وكان لا يجوز ايضا توزيع هذه الغرامات الا بالسوية فكان يجب ان يوزع مقدار الغرامات المفروضة على الجمعية بين أهاليها على حد سواء خشية أن يخص الضرر جماعة دون آخرين حتى انه فى وثائق بعض الجمعيات الاهلية ذكرت قوانين تبين طريق توزيع الغرامات على كل انسان ذكره داشورى

وقد صدر من الملك سنت لويز فى هذا الشأن امر شاع بين جميع الجمعيات ولا يخفى ان هذه القوانين كانت تعين الناس كثيرا على تحصيل الحرية والتشبث بها حيث كان حق توزيع الفرد والغرامات بموجب هذه القوانين منوطا ببعض اناس من الاهالى ينتخبون من كل بروامس (اى خط الدورى) وتوخذ عليهم المواثيق انهم يوفون بهذه الوظيفة على وجه الحق والعدل ثم ان الذين احدثوا الجمعيات الاهلية صمموا على مقاصد عظيمة من اعظمها انهم عزموا على ان يقووا ميثاق الامن على العقارات حتى تصير آمنة اكثر مما ذكرنا ويدل على هذه العزيمة مقتضيات الاحوال التى كانت فى ذلك الوقت ويدل عليها ايضا عبارات عدة وثائق حررت وقتئذ كوثيقة الملكة اليونوره ملكة انكلتره التى صدرت منها لجمعية بوانيرس ذكره دوكنج وما قدمناه هو بعض القوانين الاصلية التى احدثت لاجل الجمعيات البلدية مدة القرن الثانى عشر والثالث عشر ويمكن أن نعتبر هذه القوانين كانها مبادى اصول التشريع والسياسة من ضبط وربط لانها اعانت كثيرا فى نشاه حكومة منتظمة بين جميع اهالى الجمعيات فبمجرد انشاء الجمعيات اخذ الناس فى التعاطم والتجاسر ونشروا اعلام الحرية حتى ان الملتزم هومبير ملتزم بوجوللا اعطى لمدينة بلويل وثيقة الاعتاق طلب من اهاليها أن يحلفوا على أن لا يجوروه ولا يجوروا خلفه من بعده واخذوا عليه المواثيق ايضا ان يحافظ على حريتهم وعتقهم ولاجل كمال امنهم جبروه على ان يعين عشرين من الملتزمين يلتزمون بما التزم به ذكره دانورى ونظير ذلك ماوقع من الملتزم دوموارس فى اقليم دوفينه حيث عين عدة اشخاص ليكونوا ضامنين له اذا تخلف عن العمل بموجب البنود المبينة فى وثيقة جمعية مدينة موارس وتكفل هؤلاء الاشخاص الضامنون بان يسلموا انفسهم لسكان مدينة موارس اذا تعدى ملتزمهم على بعض حقوقهم وان يمكثوا اسرى عندهم الى ان يعدل هذا الملتزم عنه كما فى تاريخ اقليم دوفينه وكان اذا عاب انسان من مشايخ البلدة او اكابر القضاة فى حق احد من الاهالى جبر

على أن يحضر ضامنا يلتزم بحضوره فى المحكمة لتمام دعواه كالآحاد فاذا حكم عليه بعقاب كان يحكم عليه ايضا كالآحاد سوآء بسوآء بالنظر للذنب الذى ارتكبه فانه داشورى وكل ذلك يفهم منه أن جميع الناس كانوا على حد سوآء وهذا امر لم يكن يعرف فى المذهب الالتزامى ولا فى الحكومة الالتزامية وكانت الجمعيات البلدية تحافظ على الحرية مهما امكن حتى بالغوا فى ذلك وصار يطلق لفظة حرية على كل جمعية منها كما ذكره دوكنج وكان الاشراف فى مبدء الامر لا يميلون كثيرا الى هذه الجمعيات حيث يعلمون أن فيها تضييقا لشوكتهم وحكمهم وقد سماها الراهب غيبرت بالاستدامات القبيحة المشؤومة لانها كانت واسطة فى اعتاق المستعبدين وانحرافهم عن طاعة ساداتهم وهذا على زعمه مخالف للشريعة والعدل ذكره دوكنج ايضا وقد حصل ان بعض الاشراف والقسيسين اولى الشوكة والبأس تصدوا لتعطيل انشاء هذه الجمعيات وكلفوا انفسهم ما لا تطيق فى تضييق دآئرة مزاياها حتى اظهروا فى هذا الشأن غيرة زائدة جدا عن حد العادة وشاهد ذلك المنازعة والمنافسة التى حصلت بين مطران مدينة رمس وسكانها اذ مكث جميع المطارنة رمناطويلا وهم يشتغلون بتضييق دائرة امتيازات جمعية هذه المدينة وحقوقها واما الاهالى فكانوا مدة خلو الكرسى القسيسى من رئيس وهم يشتغلون بتمكين امتيازاتهم وتقويتها وتوسيع دائرة حقوقهم ومزاياهم ذكره أنكتيل فى تاريخ مدينة رمس المدنى والسياسى

وهذه المخطوطات التى قدمناها فى بيان حالة المدن وسكانها ثابتة ببراهين جمة صرحت بها عبارات شتى فى تواريخ القرون الوسطى وشرائعها وزيادة على ذلك كان بعض المدن الكبيرة العظيمة يتمتع بشروط ومزايا احسن من المتقدمة وكان لها من الحرية حظ اوفر عما تقدم وذلك انه فى مدة حكم الرومانيين كانت الحكومة البلدية المرتبة فى المدن حكومة ملائمة للحرية بالكلية وكان حكم مشورة السنت فى كل جمعية نافذا ودائرته واسعة

وكذلك مزايا الاهالى و يمكن ايضا ان بعض المدن كالتى نجت من تخريب الامم المتبربرين كانت باقية الى ذلك الوقت على المعظم من صورة حكومتها القديمة فكانت محكومة بشورة اربابها من الاهالى والقضاة الذين ينتخبهم اهالى تلك المدن وهناك ما يعضد هذا الامر كما ذكره الراهب دوبوس فى تاريخه و يستفاد من بعض وثائق الجمعيات التى اعطيت للمدن فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ان هذه الوثائق الحادثة لم تكن الا لتثبت المزايا التى كان يتمتع بها الاهالى قبل انشاء الجمعيات البلدية ذكره داشورى وكان هناك مدن اخرى تبحث عن حقوقها ومزاياها وتستند فى ذلك على ان هذه المزايا ثابتة لها لم تنفك عنها منذ زمن الرومانيين كما ذكره دوبوس ولكن المدن التى كانت تتمتع بهذه المزايا الاخيرة كانت قليلة بحيث لا يمكن الاستدلال بها على شئ يخالف ما ذكرناه فى هذا الشأن باتحاف الملوك الالبا

المبحث السابع عشر

فى بيان المطلب المتقدم ايضا بصحيفة (٤٢) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا عند الكلام على شروع مدن المانيا فى ترتيب الحرية التى هى اساس حريتها الآن

بعد ما ذكرناه تفصيلا فى انشاء الجمعيات البلدية فى مملكة فرانسا وايطاليا وفى النتائج التى نشأت عن ترتيب هذه الجمعيات أردنا أن نذكر كذلك مع الاعتناء وزيادة التأمل جميع التقدمات التى حصلت للمدن والحكومة البلدية فى بلاد المانيا حيث رأينا ذلك من الامور المهمة فنقول ان قدماء الجرمانيين لم يكن لهم مدن اصلا وانما كان لهم كفور وقرى لا يكون بيوتها متلاصقة كما فى المدن كما ذكره تاسيت وكانوا يرون ان جبرهم على السكنى بمدينة ذات اسوار من جملة امارات الرق والاستعباد حتى انه لما كانت قبيلة منهم تقوم على الرومانيين لتتخلص من حكمهم كان اهل القبائل

يرمزونها بان تهدم اسوار المدن التى بناها الروماويون فى اراضيهم المستدل بذلك على انها صارت حرة وكانوا يقولون ان احرار الوحوش اذا اسرها انسان ووضع فى حبس تضعف قوته وتضيع شدته كذا قاله تاسيت ايضا ثم كان الروماويون قد بنوا عدة مدن كبيرة على شواطئ نهر الرين ولكن قبل القرن التاسع من الميلاد كان يقل أن توجد مدينة واحدة فى جميع الاقطار والاقاليم الواسعة التى بين نهر الرين وبحر بالطيق كذا قال المؤلف كونرنجيوس وخالفه المؤلف هيكسيوس ولكن اذا تاملنا جميع ما استدل به هذا المؤلف الاخير واستند اليه رأينا انه لم يكن بهذه الاقطار الواسعة الا بعض محال سماها بعض المؤرخين مدائن وليست مدائن حقيقية واما فى زمن الامبراطور كرلوس مانوس وذريته فان حالة المانيا السياسية اخذت فى الانتظام على وجه حسن واسست عدة مدن واعتاد الناس على التأنس والاجتماع فى محل واحد وذلك ان كرلوس مانوس جدد فى اكبر مدن المانيا مطرانيتين وتسع اسقفيات وزادها خلفاؤه من بعده وحيث كان المطارنة والاساقفة مقيمين بالمدن ويحكمون فيها بالاقضية الدينية حضر كثير من الناس الى الاستيطان بتلك المدن كذا ذكره كونرنجيوس ثم ان الملك هنرى لوازولور (اى صياد الطيور لانه كان مشتغلا بصيدها) الذى جلس على كرسى المملكة (سنة ٩١٩) هو اعظم من اسس المدائن فى المانيا وذلك لان المانيا كانت وقتئذ مضطربة باغارات اهل المجار وغيرهم من الملل المتبربرة فعزم هنرى المذكور على ان يسد مجرى سيل هذه الاغارات فحصن المدن بالاسوار والبروج وامر رعاياه بالاستيطان بها وامر بعض الاشراف ايضا بذلك فلما سكن الاشراف مع الاهالى شرف مقام الاهالى وعظموا عما كانوا عليه سابقا فمن وقتئذ لم تزل المدن آخذة فى الازدياد وصارت تترقى فى العمار والغنى الا انها كانت فى ذلك الوقت محرومة من الحرية والاستقلال باقامتها البلدية لان المدن التى كانت من التزامات الامبراطورية كانت تحت حكم الامبراطور وقضاته الذين كانوا رؤساء المحاكم يقضون فيها

بالعدل واما المدن التى كانت فى اراضى البارونيين فكان كل بارون يزعم ان المدن التى بارضه من جملة الزاماته ويحكم فيها بنفسه او نوابه ذكره كونزنجيوس وهيكسيوس ثم تأسى اهل المانيا بالايطاليين فى انشاء الجمعيات البلدية فكان امردريق بربوروس (اى ذو اللحية الشقراء) هو اول من خطر بباله زمن ايمبراطرة المانيا ان يفعل مثل الملك لويز لوغروس حيث زاد فى عدد الجمعيات البلدية ليضيق بها دائرة شوكة الاشراف ويضعف قوتهم ذكره المؤرخ بفيفيل فى تاريخ المانيا

وقد وجدت عدة مقتضيات احوال اعانت على ازدياد مدن المانيا من حكم هنرى لو واز ولو رالى ان صارت هذه المدن مستكملة لجميع مزاياها وخصوصياتها ثم ان انشاء الاسقفيات الذى تكلمنا عليه آنفا قد جلب الى المدن اناسا كثيرين استوطنوها وكذلك انشاء الكتدرالات (اى امهات الكنائس) بتلك المدن فانه جلب اليها كثيرا من السكان فصار من وقتئذ تعقد فى المدن جمعيات قسيسية ومجالس اقنانية من كل نوع قسيسية او مدنية وعتق فى القرن الحادى عشر عدة من المستعبدين استوطن معظمهم بالمدن واستكشفت عدة معادن واستخرجت فى اقاليم عديدة وبهذا صار الناس يتنادمون فى سكنى الاقاليم ويأتون اليها افواجا ونشأ عن ذلك احداث عدة مدن كما ذكره كونزنجيوس وفى القرن الثالث عشر اخذ اهل المدن فى الضرب والتعصب لاجل المدافعة عن انفسهم لمنع الخلل وعدم الانتظام الناشئ من اسباب حروب البارونيين الخصوصية وظلمهم وجورهم فى الناس وبهذا التعصب صار حال سكان المدن احسن وآمن من غيرهم من سائر طوائف الرعايا حتى ان كثيرا من الناس انتظموا فى سلك الجمعيات البلدية بالطوع والاختيار كما ذكره كونزنجيوس ايضا

وكان سكان مدائن المانيا منقسمين الى ثلاث مراتب كما ذكره كينيسكيلد (الاولى) مرتبة الاشراف (الثانية) مرتبة الاحرار من الاهالى (الثالثة)

مرتبة الصنايعية وكانوا مستعبدين فلما تولى هنرى الخامس المملكة (سنة [illegible]) اعتق الصنايعية المستعبدين الذين كانوا ساكنين بالمدن وجعلهم من مرتبة الاحرار كما ذكره المؤلف المذكور والمؤلف بفيفل ثم ان مدن المانيا وان كانت قد مكثت فى الاستعباد اكثر من مدن فرانسا الا انها لما ملكت حريتها صارت توسع دائرة مزاياها حتى فاقت مدن فرانسا كثيرا فى هذا الشان فجميع المدن الامبراطورية الحرة مع كثرتها تلقبت بالمدن المباشرة او المتصلة ومعنى كل من هذين اللفظين فى اصطلاح فقهاء الجرمانيين ان هذه المدن كانت تحت ايدى الامبراطور وحده مباشرة بدون واسطة وانه كان لها فى خطها جميع حقوق الاستقلال وكمال التصرف وقد بين كينيسكيال مزايا تلك المدن الامبراطورية وهى مرتبة بان تلقب باعظم حفظة للحرية الجرمانية واصول هذه المزايا معلومة فى الجملة فلا حاجة الى ان نتصدى لذكرها هنا مفصلا

المبحث الثامن عشر

فى شرح قوله ودخلت فى جميع بلاد اسبانيا الى آخره صحيفة (٤٢)
من المدخل المتقدم فى القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ثم ان مؤرخى اسبانيا لم يذكروا الا شيئا واهيا جدا فى اصل انشاء الجمعيات البلدية وتقدماتها فى اسبانيا بحيث انه لا يمكننا ان نعين رسم انشاء هذه الجمعيات فى تلك المملكة ولا كيفية احداثها ولكن ذكر المؤلف ماريانا ما يفهم منه انه فى (سنة ١٠٣٥) كانت ثمان عشرة من مدائن اسبانيا لها الحق فى الحضور بمشورة القرطس فى مملكة قسطيلية وهى فى اسبانيا نظير مشورة البرلمان بانجلترة فى فرانسا او نظير مشورة الدييت فى المانيا وبولونيا واسوج وكل من هذه المشاور الثلاثة يسمى مشورة العموم او مشورة وكلاء المملكة وما ذكرناه فى القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا فى شأن ترتيب هذه المدن والحقوق التى كانت تدعيها لنفسها يبرهن لنا برهانا جليا على انها فى شكل

حكومتها ومزاياها كانت مماثلة للجمعيات الالتزامية وهذا الامر بانضمامه
لكون جميع الدول المحكومة حكومة التزامية كانت كلها تشبه بعضها بعضا
كليا في ترتيبها وتدبيرها السياسي ينتج منه ان الجمعيات البلدية قد حدثت
في اسبانيا على سبق حدوثها في غيرها من بلاد اوروبا ويمكن ايضا انها
حدثت عند الاسبانيين قريبا من زمن حدوثها عند غيرهم من اهالي اوروبا
وسنذكر في بعض المباحث الآتية ان الظاهر انه في مملكة اراغون كانت المدن
قد بادرت الى اكتساب مزايا كبيرة حتى صار لها حق في التشريع وانشاء
القوانين وفي (سنة [illegible]) كان اهالي سراغوسة يتمتعون بالحرية السياسية
وكانوا مساوين في الرتبة والمقام لاهالي المرتبة الثانية من مراتب الاشراف
وكانوا ايضا قد اكتسبوا مزايا اخرى عديدة لم يكن نائلها وقتئذ من كان
في مرتبتهم من اهالي اوروبا الآخرين كما ذكره زوريتا في تاريخ ارغون

واما انكلترة فلم يحصل انشاء الجمعيات البلدية فيها الا بعد ان فتحها النرمنديون
وذلك انه بعد هذا الفتح نقل اهل انكلترة هذه العادة عن الفرنساوية واحدثوا
في بلادهم الجمعيات البلدية وصارت المزايا التي يعطيها الملك في انكلترة مشابهة
بالكلية للمزايا التي تكلمنا عليها فيما سبق ولكن حيث ان هذا امر معلوم لمعظم
الناس فلا نتصدى لذكر شيء مخصوص منه وانما نقتصر على ان نوصي من قرأ
كتابنا هذا بان يراجع كتب المؤلفين الذين وضحوا هذا الامر المهم من تاريخ
انكلترة ومنهم المؤلف برادي والمؤلف مادوكس والمؤلف هوم

ثم يمكن ان بعض مدن انكلترة في زمن الملوك الساكسونيين كانت قد آلت
الى جمعيات وان الوثائق التي اعطاها ملوك العائلة النورمندية لم تكن
وثائق اعتاق وانما كانت تثبت المزايا التي كانت تتمتع بها المدن سابقا كما ذكره
ليتلتون ومع ذلك كانت مدن انكلترة مدة القرن الثاني عشر صغيرة ضعيفة
وهنا البرهان جلي على ذلك مذكور في تاريخ هنري الثاني للمؤلف ليتلتون
واما المؤلف فيتز سطوفان وهو احد مؤلفي هذا العصر فقد وصف
مدينة لوندرة مدة الملك هنري الثاني وتكلم على تجارة هذه المدينة وثروتها

ورفاهية سكانها وبالغ فى ذلك حتى ان ما ذكره من الوصف لا يصح ان يصدق على حالة هذه المدينة التى هى عليها الآن وان كانت فى وقتنا هذا اكبر مدائن اوربا واغناها ولكن ما نسبه هذا المؤلف من العظم والبهاء لتلك المدينة انما هو بالنظر لحالها وقتئذ بالنسبة الى غيرها وذلك ان دطرس دوبولواس احد مؤرخى ذلك العصر وكان رئيس خامسة مدينة لوحده وهو الذى يعرف احوال هذه المدينة حق المعرفة لتوفر اسباب ذلك عنده قد ذكر ما يفهم منه ان هذه المدينة التى بالغ فى وصفها المؤلف ونظوسطوفان لم يكن سكانها اكثر من اربعين الف فانظر الى المدن الاخرى تعلم بالقياس كمية اهاليها حيث ان اهل تخت المملكة كانوا لا يزيدون على اربعين الفا وبالجملة فلم يكن لاهذه المدن اقتدار على ان تثبت لانفسها مزايا واسعة جدا وكذلك ترتيب القرى فى ايقوسيا كان يشبه من عدة وجوه ترتيب مدن فرانسا وانكلترة كما هو موضح فى بعض التواريخ

المبحث التاسع عشر

فى شرح قوله وقويت خصوصيات الرعايا على التدريج الى آخره بصحيفة (٤٧) من مطلب النتائج السعيدة التى نشأت فى الحكومة عن هذه الحادثة بصحيفة (٤٦) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ثم انه بعد انشاء مشورة الاهالى بقليل وظهور ما بين مشاورها من الاستيقاظ عقول الفرنساوية بسبب هذه المشورة الحادثة الى التولع بالحرية ونشأ عن هذا التولع ثمرات جليلة تحصل فى عدة اقاليم من مملكة فرانسا ان الاشراف والجمعيات البلدية قد تشاوروا مع بعضهم واتفقوا على ان يحاموا عن حقوقهم ومزاياهم من تعدى الملك الذى كان يتصرف كيف شاء بسطوته وشوكته التى كانت له وقتئذ وقد نقل القوميسة بولانوليرس نسخة من نسخ القوانين التى كانت ترتبها هذه الجمعيات المتفقة تاريخها (سنة ١٣١٤) وذلك بعد ما صار لرسل العمالات والمدن دخل فى مشورة

وكلاء

وكلاء المملكة وصاروا من ذلك بأجمعها ثلاث عشرة سنة وتشدد الاهالى كثيرا
فى المدافعة عن حقوقهم ومزاياهم حتى صار الملك يحترمهم فى جميع
حقوقهم وخصوصياتهم ولا يتعدى عليهم فى شئ فمكثت هذه المشاورات
والتحزبات بين الاهالى والاشراف ست سنوات وبعد هذه المدة كتب الملك
فيليبش لولونت (اى فيليبش الطويل) ملك فرانسا الى جمعية مدينة تربون
مكاتيب من عنده ليدعو اهل هذه الجمعية اليه وكتب فى اولها ما معناه
بعد ما يليق من التحية والاكرام من فيليبش الذى انعم الله عليه بملك فرانسا
وملك نوار الى احبابنا واتباعنا سكان مدينة تربون حيث ان احب
الاشياء الينا وغاية آمالنا هو ان نحكم بعون الله تعالى مملكتنا ورعايانا
مع الامن والراحة من غير ان نعكر عليهم فى شئ وحيث اتفق ايضا تطهير
مملكتنا من جميع المظالم الموجودة فيها وراحة رعايانا الذين كانوا مكلفين
بالاطيقون من الفرد والغرامات بسبب رداءة تدبير كثير ممن كان لهم
مدخلية فى الحكومة كما علمنا بذلك السنة العامة وحكايات عدة اناس
من الثقاة المعتبرين أمرنا ان تعقد مشورة بمدينة بونتيرس فى الاسبوع
الذى يلى عيد العنصرة (ويسمى ايضا عيد حلول روح القدس) وان نكون
رئيسا على هذه المشورة لتكون مبنية كما يريد على العدل والحق ونروم
ان تكون احكام هذه المشورة متقنة محكمة بآراء قسيسى مملكتنا وباروناتها
واهالى مدنها الذين انتم من جملتهم ونرجو ان كل ما يحكم به فى تلك المشورة
يكون على ما يرضى الله تعالى وينفع رعايانا وبناء على ذلك نتمنى الحكم
كيت وكيت ذكره المؤلف ثم قال وهذا الكلام وان كان من قبيل الكلام
الدارج الجارى فى كتابة الوثائق العمومية الان ما ينتقش فى الذهن منه
من الاحكام صحيح معقول بدليل عمل من عصر خفى مثل ذلك العصر
ولا شك انه اذا كان هذا الملك ابى الجانب من ملوك اربطانيا الكبرى الذين
يحبون مسايرة الاهالى وملاطفتهم تعذر عليه ان يتكلم فى ديوان البرلمان
بعبارات اليق من هذه فى شأن الحرية العمومية * واذا قرأ الانسان

في تواريخ فرانسا يتعجب من التقدم الذي نشأ لتلك المملكة عن التولع بالحرية
ويتعجب ايضا من الشوكة القوية التي اكتسبها بالتدريج رسل المدن
في مشورة وكلاء المملكة وفي اثناء المصائب التي كانت متراكمة على مملكة
فرانسا بسبب حرب جامع انكلترة وبسبب اسر ملكها يوحنا خاطر ارباب
مشورة وكلاء المملكة وهموا همة جاسرة في توسيع مزايا الاهالي واتفق انهم
في (سنة ١٣٥٥) انعقدت مشورة وكلاء المملكة في مدينة باريس ورتبت
قوانين في شأن اخذ الفرد والغرامات (لان تدبير هذا الامر لم يكن مفوضا فيه
للملك بل كان لوكلاء مخصوصين من طرف مشورة وكلاء المملكة)
وفي شأن ضرب المعاملة واجتناب المظالم والتعدي الذي يقع من المنتسبين
المنصوبين من طرف الملك وشأن انتظام تدبير المحاكم الشرعية وكل ذلك يصلح
ان يكون من قبيل الحكومة الجمهورية اكثر من صلاحيته لان يكون
من قبيل الحكومة الالتزامية وهذا القانون الذي يرغب فيه موجود
في الكتاب المسمى مجموع الاوامر الملوكية في الجلد الثالث ومن تعذر عليه
تحصيل هذا الكتاب الكبير فليبحث عن ذلك القانون في مختصر تاريخ فرانسا
للمؤلف ويلاريت او في تاريخ الحكومة القديمة لمملكة فرانسا
للمؤلف بولانو يلبرس

ثم ان مؤرخي الفرنساوية لما تكلموا في تواريخهم على اسقف مدينة لايون
وعلى اسقف مدينة مرسيل وكان هذا الاخير شاهبندر تجار مدينة باريس
وكان كل منهما اعظم ارباب مشورة وكلاء المملكة واكثرهم مداخلة وتأثير
واكبرهم شوكة وصفوهما بانهما كانا صاحبي فتن وتعسف وكانا من ارباب
الاغراض كثيري الطمع لا يقنعان بشيء وكانا لا يبحثان الا عن ان يحدثا
في مملكة فرانسا حوادث مضرة وان يجعلاها على نسق بلادهما في الحكم
والترتيب وهذا الامر لا يبعد على مثلهما ومع ذلك كان الاهالي يأمنونهما
بالخصوص واذا رأى الانسان ما كان يعرضه هذان الرجلان للمشورة
من الوسائط التي كانا يحكمان بانها انفع واصلح من غيرها فلا يشك في ان

التوسع بالحرية كان قد بلغ فى مملكة فرانسا أوجا عاليا وان الحرية كانت قد تقدمت واتسعت دائرتها جدا وان الناس كانوا فى الغالب يعرفون الحكومة اصولا صحيحة مستقيمة

ومشورة وكلاء المملكة التى انعقدت فى باريس (سنة ١٣٥٥) فى شأن طلب الحرية كان عدد اربابها نحو ثمانمائة نفس كان اكثر من نصفهم رسلا من طرف المدن كما ذكره المؤلف سوكوس والظاهر انه فى جميع المشاور العمومية التى انعقدت فى ايام الملك يوحنا كان لوكلاء المدن فيها تأثير كبير وكانت طائفتهم محترمة كطائفة القسيسين وطائفة الاشراف بدون فرق وهكذا هذه المشروعات الكبيرة رمناطويلا وهى تحصل فى فرانسا قبل ان يكون لديوان الجمعيات البلدية فى انكلتره مدخلية كبيرة او تأثير عظيم فى شأن التشريع وانشاء القوانين وكان المذهب الاتزاعى كان قد وصل فى صعوده الى اقصى الدرجات فى فرانسا قبل انكلتره فكذلك عدم سقوطه واضمحلاله تأخر فى انكلتره اكثر من فرانسا وجميع الوسايط التى استعملت فى انكلتره لاجل تقوية الحرية وتوسيع دائرتها بين الاهالى نجح اغلبها واما فى فرانسا فحصل خلاف ذلك وليس هنا محل البحث عن الاسباب السياسية التى طرأت واوجبت اختلاف هاتين المملكتين فى هذا الشأن

المبحث العشرون

فى بيان قوة ثار وصار اغلب اقاليم فرانسا خاليا من الاسترقاق فى مطلب اسباب الاعتاق وتقدماته بصحيفة (٤٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا قد ذكرنا فيما سبق (فى المبحث الثامن) كيف كانت حالة الناس الذين كانوا معدين للزراعة وذكرنا ايضا المصائب والاساآت التى كانت حالة تفريقهم ولكن وثائق الحرية والاعتاق التى اعطيت لهم فيما بعد كانت ترخص لهم فى اربعة اشياء عظيمة كل شئ منها يقابل واحدا من الاشياء الاربعة التى هى اعظم ما كان يضر بهم زمن استعبادهم وهى (اولا) ابطال حق التصرف

في ذواتهم ببيع او هبة او غير ذلك (ثانيا) رخص لهم ان يوصوا لمن شاؤا باموالهم وما في ايديهم او يعطوها لمن شاؤا بوجه آخر من الوجوه الشرعية فاذا مات احدهم من غير ايصاء انتقلت امواله واملاكه لورثته الشرعيين كغيرهم من الاهالي الاحرار (ثالثا) الفرد والخدم التي كان يجب عليهم تأديتها لملتزميهم صارت معينة محدودة بعد ان كانت سابقا اختيارية مطلقة يعني ان الملتزم كان قبل ذلك يكلف اتباعه بما يشاء ويريد (رابعا) رخص لهم ان يتزوجوا بمن شاؤا بعد ان كان لا يجوز لهم ان يتزوجوا بغير امرأة ملتزميهم وبدون اذن منهم وجميع هذه الخصوصيات مذكورة في وثيقة اعطيت (سنة ١٢٧٦) لسكان مدينة مونبروطون كذا في تاريخ اقليم دوفينة

وبانضمام عدة مقتضيات الى الحوادث التي ذكرناها في اضعاف الملوك الاول تخلص سكان الخلوات من الغم الذي كان حالا بهم وذلك ان دين النصرانية دين الرفق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاصل فيه تساوي الناس بعضهم لان الخلق عند الله سبحانه وتعالى كلهم في درجة واحدة لا فرق بينهم بين غني وفقير وحقير وامير وجعلهم المولى سبحانه وتعالى في نعمه على حد سواء وهذا كله مخالف لعادة الاستعباد التي كانت جارية بين الناس فيما اقتضت الاحوال ان كل انسان صار لا يعتبر الا لمصلحة نفسه وحدثت طرق سياسية رديئة اضطر الناس الى ان يسلكوا سبلا مخالفة للاصل الذي هو مراعاة المساواة بين بعضهم ولكن عرفوا فيما بعد ان ذلك مخالف للاوامر الربانية بحيث كانوا يعتبرون ان اعتاق النصارى من هذا الاستعباد من باب الرأفة والشفقة التي ترضي الله سبحانه وتعالى فالرفق الذي امر به الدين النصراني كان يعارض جميع القوانين والعوائد الحادثة وكان اقوى سبب اعان على انتشار عادة اعتاق المستعبدين وقد انعم البابا اغرغوار الاكبر الذي كان في أواخر القرن السادس بالحرية على بعض المستعبدين مستندا في ذلك لسبب يرجع الى الدين كما ذكره المؤلف بوتيجسترو ذكر ايضا انه يمثل

هذا السبب اعطيت عدة وثائق بالاعتاق وقد اعطيت عدة وثائق بالحرية ايضا قبل حكم الملك لوير العاشر حبا فى الله تعالى وطلبا لعفوه ورضاه ذكر ذلك المؤلف موراطورى والمؤلف دوكنج

وكان محفل الاعتاق يعمل فى كنيسة بموكب عظيم كانه من المحافل الدينية والشخص الذى يراد اعتاقه كان يطاف به حول المحراب الاكبر وفى يده شمعة موقودة وبعد ذلك يقف فى احدى اركان المحراب ويتلى عند ذلك صيغة العتق ذكره المؤلف دوكنج * واذا قرأت وثائق الاعتاق التى كانت تعطى وقتئذ تستدل بها على قلة معرفة الناس باللغة اللاطينية فى ذلك العصر الذى هو عصر تدبر وجهالة لما انها ركيكة العبارات والتركيب غير موافقة لقواعد الاعراب واصول النحو وقد نقل تلك الوثائق المؤلف موراطورى وكان الاعتاق يقع فى مرض الموت او بالوصية لان الناس فى هذا الوقت يميلون الى الصدقة وعمل الخير * وهذا وجه يؤيد ما ذكرناه من ان الاعتاق كان من الثمرات الناشئة عن الدين ذكره المؤلف دوكنج وكان هناك طريق اخرى يعتق بها الانسان من استعباده وهى ان يدخل فى مراتب القسيسين او ينذر نفسه لبعض الديور ولكن لم تمكث هذه العادة مباحة الا مدة قليلة من الزمن وذلك انه لما رأى اسيادهم ان ارقاءهم قد خلص منهم مقدار جسيم بهذا السبب شددوا فى تضييق تلك العادة حتى انها منعت فيما بعد باشتراط عند اكثر ممالك اوروبا كما ذكره المؤلف موراطورى وكان الملوك والامراء اذا رزقوا بولد ذكر او حصلت لهم حادثة اخرى سعيدة يعتقون مقدارا من المستعبدين حمدا لله وشكرا له على هذه النعمة الجارية كما ذكره المؤلف مركوف وذكر ايضا عدة طرق للاعتاق وكلها كانت مبنية على الدين يعنى ان الحامل لهم على الاعتاق هو اما الرغبة فى نعم الله تعالى او رجاء ان تغفر ذنوبهم ويستفاد ذلك ايضا من عدة مؤلفين آخرين * وكان كما انه كان هناك اناس تجبرهم تقواهم على ان يعتقوا اخوتهم فى دين النصرانية كان هناك ناس آخرون يسعون بانفسهم الى الاستعباد لما ترتب

مبنية ايضا على الديانة لكن هذه ديانة مضرة وفى غير محلها فكان اذا اعتقد انسان مثلا فى قديس من رهبان الكنيسة او الدير الذى عادته ان يحضر فيه الصلوات كان يهب نفسه وعائلته وذريته الى هذا القديس ويصيرون جميعا ارقاءه

ثم ان هؤلاء المستعبدين الذين كانوا يهبون انفسهم للكنائس والديور كانوا كثيرين جدا ويمكن تقسيمهم الى ثلاث مراتب مختلفة وهى (المرتبة الاولى) كانت من اناس يجعلون انفسهم واموالهم تحت حماية الكنائس والديور بحيث لا يعارضهم احد لكن بشرط ان يحاموا عن حقوق الدير او الكنيسة التى هم تحت حمايتها وان يدفعوا عن اراضيها ومن اياها كل من تعدى عليها وهؤلاء الناس لم يكونوا ينقادون للكنائس بقصد الديانة فقط بل كانوا يحامون عنها لحماية انفسهم ومنهم من تعدى الغير عليهم فالاولى تسميتهم اتباعا لا مستعبدين حتى ان بعض الاشراف احتضن هذه الواسطة فى امنه وحماية نفسه ودخل فى حمى الكنائس (المرتبة الثانية) كانت من اناس يفرضون على انفسهم شيأ سنويا يعطونه للكنائس والديور التى هم يحماها او مبلغا من الدراهم يعطونه اياها على عقاراتهم واملاكهم الارضية وربما كانوا يفرضون على انفسهم ان يخدموا الكنائس فى بعض مصالح وكان اهل هذه المرتبة يسمون سنسوال اى اهل الجزية (المرتبة الثالثة) كانت من اناس يتركون حريتهم بالكلية والجزئية فتراهم ارقاء مستعبدين يتصرف فيهم بجميع ما يشمله مدلول لفظ الرق وكانت تسمى ميتبيتريال اى الواهبة نفسها للقديسين وذكر فى بعض الوثائق ان اهل هذه المرتبة كانوا يجعلون اجسامهم فى الذل والاستعباد ليفوزوا بعتق ارواحهم وكان القسيسون يسعون مع الرغبة التامة فى تقوية هذا الاستعباد الاخير وتعضيده كما يفهم ذلك من بعض خطب اشاروا فى هذا الشأن لاناس وهبوا انفسهم لبعض الكنائس ذكرها المؤلف دوكنج وغيره

والظاهر ان مدة الاعتاق لم تكن كثيرة حين كان المذهب الانترامي باقيا على اصل قوته وتشديده بل كان هنالك شرائع تشدد في منع هذه العادة طبا انها تضر بالجمعية وآخر طائفة من المستعبدين لم تنل الحرية الا بعد اضمحلال حكومة الاشراف الارستوقراطية التي كانت تجعل لبعض افراد قليلين من الناس شوكة واسعة يتصرفون بها كيف شاؤا وتترك الباقين من الناس في المظالم وانواع الجور وكان بعض الناس قد تعوّد على الرق والاستعباد وصار الذل سجية لهم حتى انه لما امر الملك لويز العاشر بالاعتاق وابطال عادة الاستعباد في جفا لكه عرض العتق على عدة اناس من المستعبدين فابوا ان يخرجوا من رقهم كما ذكره المؤلف داشوري * وبعد حكم هذا الملك بزمن طويل كان كثير من الاشراف مستمرين على عادتهم القديمة في شأن المستعبدين والظاهر ان الشهير دوغسقلين قائد جيوش فرنسا كان قد صدرت عنه اوامر تذم عدة عتق المستعبدين وتقييداتها معتبرة كما ذكره المؤلف موريس في كتابه المسمى شواهد تاريخ بريطانيا حتى ان المستعبدين الذين كانوا معدين لخدمة الاراضي والغيطان مكثوا بعد عتقهم مدة من الزمن وهم مجبورون على ان يخدموا ساداتهم في بعض الاحوال وكانوا يعتبر وبهم اعتبارا لا كاعتبار بقية الناس فما كان يؤذن لهم ان يشتروا شيأ من الاراضي ولا ان يصيروا من ارباب الجمعيات الاهلية الموجودة في بلاد الملتزمين الذين كانوا تحت ولايتهم ولكن الظاهر ان هذا الامر لم يكن شائعا في البلاد

وفي كتاب قوانين انكلترة لا تجد اصلا قانونا عموميا لاعتاق المستعبدين يكون مشابها للقانون الذي رتبه ملوك درانسانم وان كانت حكومة انكلترة ملائمة للحرية الشخصية الا ان الاستعباد الشخصي مكث زمنا طويلا في بعض محال من انكلترة حتى ان هنالك وثيقة تاريخها (سنة ١٥١٤) صدرت عن الملك هنري الثامن باعتاق رقيقين كانا الى وقتئذ باقيين على رقهما في بعض التزاماته كما ذكره المؤلف ريمروذ كرايضا ان الملكة اليزابيطة

(سنة ٥٧٤) فقد وكت جمعية فى شأن اعتاق بعض المستعبدين الذين كانوا ارقاء لها الى ذلك الوقت

المبحث الحادى والعشرون

فى بيان قوانين افادت اصولا صحيحة للحكومة والانتظام والامن العام بصحيفة (٥٣) من مطالب استعمال وسايط مختلفة لاجل ابطالها بصحيفة (٥٢) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ليس فى عوايد القرون الوسطى اغرب من عادة الحروب الخصوصية فان هذه العادة كانت من الحقوق المهمة بين الناس وكانت مقبولة عندهم بحيث ان القوانين التى تخصها كانت من اعظم شرائع ذلك العصر ومع ان المؤلف مونتسكيو قد وضح امورا كثيرة عويصة من القوانين الالتزامية وانار بمصابيح معارفه عوايد كانت قبله مظلمة الدياجى لا تعرف لها اصل لم يأذن له موضوع تأليفه ان يبحث عن هذا الشأن فمن ثم استنسبنا ان نذكر هنا مع التوضيح والتفصيل العوايد والقوانين التى كانت تأذن بهذه العادة الهالمة الآن لعقول الملل المتمدنين العارفين بنظام الجمعية والحكومة فنقول

(اولا) كان عند قدماء الجرمانيين وغيرهم من الملل الذين لم يكونوا اكثر منهم فى التمدن والمعارف اذا سب انسان آخر او عاب فى حقه فينتقم منه خصمه بنفسه لان هذا الانتقام كان وقتئذ حقا مخصصا خصوصيا فكان يجوز للمتعدى عليه ان يخلص حقه من المتعدى بالسلاح من غير ان يرفع دعواه الى قاض او حكم عدل يحكم بينه وبين خصمه وقد بينا ذلك بادلته بيانا كافيا فى المبحث السادس

(ثانيا) كانت هذه العادة جارية بين الملل المتبربرين بعد استيطانهم بالاقاليم التى تغلبوا عليها من الامبراطورية الرومانية وكانت اسباب الفتن دائما تمور وتزيد بين هؤلاء الملل ولذلك كثرت البغضاء بين العائلات وصارت الحروب الشخصية كثيرة متواترة وشواهد ذلك فى تآليف أقدم مورخى هؤلاء الامم

وفي كتب قوانينهم كما ذكره المؤلف اعرعوارد دورس وكان يجوز للاقارب ان ينتقموا لكل واحد من عائلاتهم ممن سبه او تعدى عليه بل كان ذلك واجبا عليهم وكان من قوانين الانغلوس وامة الويرامس ان ينتقم للعائلة من ربها في اراضيها

(ثالثا) كان لا يجوز لاحد ان يعمل حربا خصوصيا ما عدا الاشراف واهل الحسب واما جميع المشاجرات التي كانت تحصل بين المستعبدين على اختلافهم وبين سكان المدن والاناس الاحرار الذين هم في الرتبة ادنى من الاشراف فكانت تقام دعواهم في المحاكم بين ايدي القضاة وكذلك المشاجرات التي كانت تحصل بين الاشراف واناس آخرين ليسوا من رتبتهم لان حق الحرب الشخصي كان شرطه ان يكون الانسان شريفا بحسب الاصل والعنصر وان تكون هناك مكافأة بين احساب الاخصام وانسابهم كما ذكره المؤلف بومنوار ثم ان القسيسين اصحاب المراتب والوظائف كان لهم حق في الحروب الشخصية ولكن حيث كان لا يليق بهم ان يحاربوا بانفسهم كانوا يستنيبون عنهم وكلاء ينتخبهم أهل الديور والاسقفيات وكان هؤلاء الوكلاء في العادة من ذوي الحسب والامتياز والشهرة فكانوا يتكلفون بحماية هذه الاسقفيات والديورو يقاتلون لاجلها كما ذكره المؤلف بروسيل والمؤلف دوكنج وكان يحصل غالبا ان بعض قسيسين من أهل الحسب والنسب يتعودون على الحروب بسبب اخلاق ذلك العصر وغرابته فينسون الصلح الذي هو روح وظيفتهم القسيسية ويبارزون بانفسهم في الميدان أمام اتباعهم كما ذكره المؤلف دوكنج

(رابعا) كان الاشراف كانوا يدعون الى الحرب كل من تعدى عليهم بسبة او نحوها كانوا يحكمون هذا المسلك ايضا مع من يظلم احدا ظلما كبيرا او يسبه او يهتكه او يفعل فعلا يخص بالعامة ويوجب لها العار و بالجملة فجميع الذنوب والنكبات التي عقابها الآن الموت عند الامم المتمدنين كانت تحال عند هؤلاء الناس الحروب الخصوصية كما ذكره المؤلف بومنوار

والمؤلف دوكيج ومع ان الانتقام من السبات كان محرما بحال شرعا الحروب الخصوصية كانت المنازعات التي تحصل بين الناس في شأن العقارات المدنية ينشأ عنها غالبا العداوة والبغضاء التي كانت تؤول الى حروب بين الفريقين المتشاحنين كما ذكره المؤلف دوكيج

(خامسا) كل من كان حاضرا في مبدء مشاجرة او عند ارتكاب مظلمة او فاحشة كان يجبر على ان يكون له دخل في الحرب الذي يترتب على هذا الامر الذي حصل بحضوره لانهم كانوا يقولون انه لا يمكن ان يحضر انسان مثل هذا الفعل ويكون خليا عن الاغراض بحيث لا يميل الى احد الخصمين

(سادسا) جميع اقارب الخصمين كانت تلحقهم الدعوى بحيث يجبرون على ان يباشروها ويكونوا عصبة معهما كل مع قريبه وهذه العادة مبنية على قاعدة كانت موجودة عند قدماء الجرمانيين وهي انه يجب على الانسان ان يعادي من عادى ابويه واقاربه كما يجب عليه مودتهم وتتهم ولاشك ان مثل هذه العادة لا تنشأ الا عن طبائع الملل المتوحشة التي تكون حالة مبادئها وجميعها ملائمة لهذه العادة الرديئة * ثم ان بيان درجة القرابة التي كانت توجب على الانسان ان يكون له دخل في دعوى قريبه هو مما ينبغي التنبيه عليه فنقول انه ما دامت الكنيسة تمنع الزواج كان الاقارب الذين يدخلون في الحروب الشخصية او الخصوصية معلومين بنفس هذا المنع البدعي الذي لا يستحسنه العقل وبناء على ذلك كان جميع الاقارب الى الدرجة السابعة يدخلون في الحرب الشخصي كل فريق مع قريبه من احد الخصمين ولكن لما حصل التخفيف في هذا المنع حيث لم يمنع الزواج الا الى الدرجة الرابعة انتقل وجوب الدخول مع القريب في الحروب الشخصية على الاقارب الى الدرجة المذكورة (وتوضيح ذلك ان درجة القرابة تعتبر بعدد البطون فكل بطن يسمى درجة وتوالي الدرجات يسمى جهة وهي قسمان جهة مستقيمة وجهة حاشية فالمستقيمة هي توالي درجات بين عدة اشخاص كل واحد منهم ولد لمن بعده وهكذا وجهة الحاشية هي توالي الدرجات بين

اشخاص ليس كل واحد منهم ابا لمن بعده ويجمعهم اصل واحد وعدد درجات
الجهة المستقيمة يكون على حسب ما فيها من البطون فكل بطن درجة فالابن
بالنسبة لابيه في الدرجة الاولى وابن الابن في الدرجة الثانية وهكذا وكذلك
الاجداد بالنسبة للاولاد واولاد الاولاد واما درجات جهة الحاشية فهي
ايضا على حسب عدد البطون فالاخوة او الاخوات درجة ثانية والاعمام
والاخوال واولاد الاخ او الاخت درجة ثالثة واولاد الاعمام والعمات
او اولاد الاخوال والخالات من غير واسطة درجة رابعة وهكذا)

(سابعا) الاخوان اذا كانا شقيقين لا يجوز لهما ان يتضاربا لان الاقارب
يكونون متضامنين في هذه الصورة ولا يجب على احد منهم ان يرجح اعانة احد
الاخوين على الآخر بخلاف ما اذا كانا غير شقيقين فيسوغ لهما
ان يتحاربا لان كلا منهما يكون له في هذه الصورة اقارب غير اقارب الآخر
كذا ذكره المؤلف بومنوار

(ثامنا) اذا كان احد الشخصين من الرؤساء وجب على اتباعه ان يدخلوا معه
في الحرب الشخصي لانه بموجب قوانين المذهب الاقطاعي يجب على كل تابع
ان يدافع عن رئيسه وان يساعده في جميع حروبه ومشاجراته وذلك بمجرد
ما حدثت التبعية الاقطاعية اي صار للملتزمين اتباع وصارت هناك رابطة بين
الملتزمين واتباعهم اعتبر الاتباع في شأن الحروب الشخصية كالاقارب وصار
يجب عليهم ما يجب على الاقارب كما ذكره بومنوار

(تاسعا) مكثت الحروب الشخصية كثيرة متواردة عدة قرون ولم توجد حادثة
اخرى اقوى من هذه الحادثة تأثيرا في ازدياد خلل الحكومة وشراسة
الاخلاق التي اوقعت ملل اوروبا في الحالة الهرجة الشنيعة التي كانت فيها
مدة العصر الذي نتكلم عليه وليس هناك حادثة غير هذه الحروب ترتب عليها
عوائق كثيرة منعت من تقدم تدبير المحاكم والاقضية الشرعية ولم تحصل
حادثة اقوى منها ايضا في تعطيل الصنائع والحرف ومنع التقدم ومدارسة
العلوم والفنون الصلحية وهذه الحروب كانت تحصل مع العناد والقساوة

الحرب التي يقتضيها الحقد الشديد سببا وكان هذا الحقد ازداد متحققا
بسلاح الحجة ومؤيدا بالقوانين والشرائع ويستفاد من قوانين التي منعت
تلك الحروب الشخصية او خففتها ان ضرر الغارات لامم المتبربرين على البلاد
اخف من ضرر هذه الحروب الاهلية وقد وصف اهل ذاك العصر من مؤلفيهم
القساوة والوحشية المفرطة التي كانت تقع في تلك الحروب بحيث ان من قرأ
عباراتهم زاد عجبه وكثر رعبه ونفر منها ذهنه

فهذه هي القوانين الاصلية التي ترتبت على عوائد اسست في الحروب
الشخصية التي كانت من جملة الحقوق الاكيدة * ولنذكر لك هنا الوسائط
المختلفة التي استعملت لاجل تضييق دائرة هذه العادة الخطرة وابطالها
مرتبة على اسبق ازمنتها فنقول

(اولا) اول واسطة استعملها الحكام المدبرون في تخفيف شدة حقد
الناس لبعضهم هي ما رتبته القوانين من فرض غرامة على كل انسان فعل
كبيرة بحيث ان كان المتعدى عليه يشتفي نفسه لنفسه في المسئلة التي كانت تحصل
له او في العيب الذي كان يفعله انسان في حقه فان شاء قتل من تعدى عليه
بالانتقام او جعل عليه شيأ في نظير جرمه الذي اجترمه وبذلك كان حقد الناس
لبعضهم شديدا فكانوا على بعضهم كالوحوش الكاسرة وكانت عادتهم في
الغالب ان شرف الانسان هو عدم عفوه عمن تعدى عليه وان لا يأخذ منه شيأ
في نظير الجناية ومن اجل ذلك كان من الضروري اللازم ان ترتب هذه الجرائم
التي تكثر في قوانين الملل المتبربرة وبعد هذا الترتيب كان اذا حصل ذنب من
انسان في حق آخر وتعدى عليه رفعت الدعوى الى الحاكم المدني فيعين
للشخص المتعدى عليه المبلغ الذي يستحقه على المتعدي وقد صرح روتاريس
مشرع اللومبرديين وكان حاكما في اثناء القرن السابع بقصده من الغرامات التي
كان يضربها على المتعدي وفي ازدياد الغرامات الاصلية فقال ما فعلنا
ذلك الا لاجل اطفاء نار البغض والحقد من قلوب الناس حتى لا يصروا
على الانتقام من بعضهم ويحصل الامن بينهم انتهى

(ثانيا) عند ظهور الامبراطور كرلوس مانوس فى وقت الحروب تسامح بحصول هذا الامر الردى حيث صدر عنه امر وهو ان كل من ارتكب ذنبا يوجب حرمة وجب عليه ان يكفر عن سيئته من غير زواج بالكفارة التى اوجبها الدين ومن يدفع الجريمة التى فرضها عليه الشرع ودا الى المتعدى عليه او قاربه من قبول هذه الجريمة وطلبوا الانتقام من المتعدى على وجه الحرب ضبط على اراضيهم واملاكهم وضبطت للمعتدى انتهى

(ثالثا) كانت قريحة هذا الامبراطور فى هذا الامر وغيره من القوانين التى كان يرتبها تفوق على عقول اهل عصره وكانت قرائحه يجوز ان تدرك حكمته عقول هؤلاء الناس وكان ما يتصوره اهل عصره فيما يكون به الحكومة منتظمة وهيا يكاد ان يكون عدما وكانت اخلاقهم خشنة بحيث لم تأذن لهم باتباع ذلك الامر ومع جميع المصائب التى كانت تترتب على الحروب الشخصية تمسك الناس بعد موت هذا الامبراطور بعادة الحروب الشخصية اكثر مما كانوا عليه اولا ولم يمكن ان يحكموا ابدا بابطالها ولما اشتد هذا الداء رأى القسيسون انه يلزمهم ان يتوسطوا فى ابطالها واقدم القوانين التى رتبها القسيسون فى هذا الشان تاريخه من اواخر القرن العاشر وهو موجود الى الآن وذلك انه فى (سنة ٩٩٠) اجتمع عدة من اساقفة الاقاليم الجنوبية من فرنسا ورسموا بعض قوانين ونشروها بين الناس لاجل تضييق دائرة هذه العادة التى كانت كثيرة متواترة وحكموا بانه اذا تجاسر احد فى اختفائهم على نقض اوامرهم سلبت منه مدة حياته جميع المزايا الثابتة لابناء النصرانية وبعد موته يحرم من الدفن على طريقة النصرانية ولكن لم ينشأ عن هذه الروابط الا مدد اوقية بعض هذا الداء فاضطروا الى ان عقدوا شورة قسيسية اخرى فى مدينة ليموجوس سنة ٩٩٤ ونقلوا الى هذه الشورة على حسب عوائد ذلك العصر اجسام اولياء من القديسين واقسموا على النصارى بهؤلاء القديسين ان يبطلوا تلك الحروب وان يطفئوا نيران العداوة والعصيان من قلوبهم وتحالفوا معهم على انهم من الآن فصاعدا لا يعكرون الامن العام

بعد الحروب الشخصية وانعقدت عدة مشورات قسيسية اخرى لاجل هذا
المأرب ذكرها المؤلف دوكنج والمؤلف بوكيت

(رابعا) هذه الاوامر القسيسية وان كانت محترمة في ذلك العصر الا انها كانت
ضعيفة جدا غير نافذة بحيث لم يمكنها ان تؤثر في ابطال تلك العادة التي كانت
ملايمة لكبر الاشراف وموافقة لشهواتهم النفسانية القوية فعظم هذا الداء
وصار لا طاقة لاحد على تحمله حتى اضطر القسيسون الى ان يستعينوا على
قطع عرقه بوسايط فوق الطبيعيات كادعاء امور خارقة للعادة وذلك انه
في (سنة ١٠٣٢) ادعى اسقف من اقليم اكيتينا انه نزل عليه ملك من السماء
ومعه مكتوب فيه النهي لكافة الناس عن عادة الحروب الشخصية والامر
بصلحهم مع بعضهم وكان وقت اشتهار هذا الوحي وقت مصائب عمومية
كانت تؤثر في عقول الناس فلذا كان يرتسم فيها كل تأثير ديني ومستعدة
لان تفعل كل شيء يرفع مقت الله وغضبه عن الناس فنتج عن ذلك هدنة عمومية
وبطل الحرب عند كافة الناس مدة سبع سنوات وحكم بانه لا يجوز لاحد
ان يهجم على خصمه مدة زمان المواسم الدينية الكبرى ولا يجوز له ذلك ايضا
من مساء يوم الخميس الى صبيحة يوم الاثنين من كل اسبوع فهي ثلاثة ايام منها
يومان من الايام الحرم المقدسة لان احدهما يوم موت المسيح والآخر يوم
احيائه بعد موته وهذا التغيير الفجائي الذي حصل لعقول الناس عد من
خوارق العادات لانه نشأ عنه امر كان لا يرجى حصوله لتمكنه من قلوب
الناس وهو ابطال هذه الحروب هدنة الله كما ذكره بوكيت وغيره وبعد ان كان
هذا الامر خاصا بمملكة واحدة عم جميع البلاد النصرانية وصار قانونا لكافة
النصارى واقره البابا وعد بان من يتعداه يحكم عليه بالكفر والخروج عن
دين النصرانية ويكون بذلك مستوجبا لان يحل به غضب الله ومقته ذكره
دوكنج

وفي تاريخ قدم وفي قانون اتفق عليه الرأي في المشورة القسيسية التي عقدت
سنة ١٠٤١ في مدينة طولوجوس باقليم روسيلون رد مشتمل على جميع

لتمرده

الشروط التى اوجبتها هدنة الله

ولما كانت الحروب ممنوعة مدة ثلاثة ايام كوامل من كل اسبوع كان يمكن ان تخمد نيران غضب المتعدى عليه فى طرف تلك المدة الواسعة وكان كل انسان آمنا فى تلك المدة من مصائب الحروب الشخصية ومعه فسحة يبحث فيها عن الوسائط التى يحترس بها من خصمه اذا دعاه الى الحرب بعد هذه الايام الثلاثة ولو بقيت هدنة الله على ما هى عليه من اركان وشروط لكفت فى ابطال الحروب الشخصية لكن لم يستمر العمل عليها بل صار الاشراف فيما بعد لا يعتبرونها بل كانوا يتبعون اخصامهم على الدوام كما كانوا اولا وصارت الحروب الشخصية لا تنقطع من بينهم ابدا ولم يكن هناك امر يؤثر فى قمع شدة الغضب والحقد الذى كان يقوم بنفوس هؤلاء الاشراف فضجت الناس من ذلك كثيرا وامر الاساقفة جميع الخوارنة الذين كان الاشراف العصاة مقيمين باخطاطهم ان يبطلوا العبادات والمناسك الدينية ليكون ذلك حاملا للاشراف على تجديد الميثاق الذى كانوا عقدوه لاجل ابطال الحروب الشخصية

(خامسا) لما كان الناس يبحثون دائما عن دواء يعالجون به امراضهم لم يجدوا لهم مفرا الا ان يتعينوا بادعاء وحى جديد فادعى رجل نجار من اقليم غيين فى اواخر القرن العاشر انه رأى عيسى عليه السلام ومعه امه مريم فامره ان يعظ الناس ويأمرهم بالصلح ولاجل ان يوثق بكلامه اتى بصورة مريم حاملة ابنها على ذراعيها قائلا ان هذه الصورة اعطاها الى المسيح وكان مكتوبا على تلك الصورة هذه الكلمات انت يا الله ومحقت المعاصى عن الدنيا فامنحنا بالصلح انتهى وهذا الرجل الضلالى كان فى عصر جهالة اهله عمى البصائر فكانت عقولهم مستعدة لان يرتسم فيها جميع ما هو من قبيل خوارق العادات فصدق فيما اخبر به واعتقد الناس انه مرسل اليهم من الله تعالى فاجتمع بعض الاحبار والكهنة والبارونيين فى مشورة بمدينة بوى وتحالفوا على ان يتركوا من الآن فصاعدا الاذى او التعدى الذى حصل لهم

من الغير وعلى ان يجمعوا على كل من يأبى ابطال الحرب ويمتنع من ان يتصالح
مع عدوه وتعاهدوا على تنفيذ هذا الامر ولقبت عصبتهم بلقب شريف وهو
عصبة انصار الله ولكن تأثير هذا الوحي الموهومي الخرافي لم يمكث مرتسما
في قلوب الناس زمنا طويلا

(سادسا) اضطر الملوك الى ان يبذلوا جميع جهدهم في ابطال تلك العادة
التي كان يخشى منها تدمير الحكومة واضمحلالها فقد قال بعض المؤلفين ان
الملك فيليبش اغسطوس او الملك سنتلويز امر (سنة ١٢٤٥) انه لا يجوز
للمتعدى عليه ان يدعوا احباب خصمه ولا اتباعه الى الحرب الا بعد اربعين
يوما من وقت المشاجرة التي هي السبب في ذلك الحرب وكل من تجاسر على
نقض هذا القانون حكم عليه بما يستحقه في نظير كونه خان ونكث العهد
وتعدى الشرائع وارتكب ما يخل بالامن العام وكان عقابه بمعرفة القضاة
المعتادين ولذلك سمي هذا القانون الهدنة الملوكية ولا شك ان في هذه
الهدنة فسحة بحيث يهدأ فيها الغضب الشديد وتطفى نيران الحقد ويسهل بها
لمن يريدون ان يصطلحوا بين المتشاجرين ان يسعوا ويجتهدوا بجميع ما يمكنهم
فعله من الطرق والوسايط والظاهر ان هذا امر قد اثر ونشأت عنه نتائج
سعيدة جدا لان من حكم بعد هذا الملك اهتم كثيرا بابقاء تلك الهدنة
الملوكية والمحافظة عليها

(سابعا) لما حكم الملك فيليبش لوبيل تعلقت آماله بتضييق عادة الحروب
الشخصية اكثر مما كانت عليه فامر سنة ١٢٩٦ بابطال الحروب الشخصية
مدة حرب الدولة مع دولة اجنبية وهذا القانون الذي هو امر لازم لحفظ
الجمعية ودائما كان يجدده في الغالب خلفاء الملك المذكور ولما كان
الملوك يتمنون الغاية بانتشار هذا القانون آل امره الى منع الاشراف منعا كليا
من الحروب الشخصية وبعد ان كان هذا القانون خاصا بمملكة فرانسا عم
في اقرب وقت جميع بلاد اوروبا وقبل عند سائر اهاليها

(ثامنا) لما كان هذا الداء قد ازمن وتطاول عهده لم يمكن مداواته

بجميع هذه الادوية وذلك انه بمجرد ما اخذ الناس في الهدنة والصلح مع بعضهم
ابتدأ الاروباويون ثانيا في تجديد الحروب الشخصية واجتهدوا ان يثبتوا
لانفسهم حق اجراء تلك الحروب الشخصية من غير ان يعارضهم في ذلك احد
وذلك انه بعد موت فيليبش لوبيل خرج جميع اشراف مملكة فرانسا وطلبوا
ممن حكم بعده ان يمحو جميع القوانين التي كان احدثها فيليبش لاجل تنقيص
مزايا مرتبة الشرف ولم يستوا حق اجراء الحروب الشخصية بل عدوه من
اعظم مزاياهم وطلبوا اباحة هذه الحروب كما كانت اولا ورفع العوائق
والشروط المفروضة في قانون هدنة الله وقانون الهدنة الملوكية والامر الذي
صدر من فيليبش لوبيل سنة ١٢٩٦ فكان ولدا الملك فيليبش لوبيل اللذان
حكما بعده على التعاقب يحاولان تارة في منع بعض اشياء من هؤلاء الاشراف
وتارة كانا مضطرين الى التصابر في بعض اشياء اخرى ثم ان الاوامر الملوكية
التي كانا امرا بها في هذا الشأن لم نذكرها هنا بعباراتها الاصلية ولكنها
مرغوب في تشوف الغوص اليها كل التشوف خصوصا وهي مفيدة جدا
لمن قرأها من الانكليز لانها تفيده فائدة جليلة في شأن تاريخ انكلترة مدة اول
زمن حدثت فيه بعض مشروعات لاجل تضييق دائرة المزايا الملوكية وهذه
المشروعات لم تكن من جهة الاهالي لاجل المدافعة عن حريتهم بل كانت من
جهة الاشراف لاجل توسيع دائرة مزاياهم وازدياد شوكتهم ولا حاجة الى
ان نذكر هنا ما يبرهن على ان الحروب الخصوصية كانت لم تزل باقية مدة
حكم خلفاء الملك فيليبش لوبيل

(ثامنا) ثم بعد ذلك حدثت واسطة اخرى في منع الحروب الشخصية تكاد
ان تكون مثل الهدنة الملوكية حتى انها كانت صالحة لان تقوي الهدنة
الملوكية وتوسع دائرة نفعها ومنافعها وذلك انه تجدد قانون اوجب على
كل من الفريقين المتشاحنين ان يعطي وثيقة على نفسه انه لا يغدر بصاحبه
ولا يدعوه الى الحرب ابدا او مدة موقتة معينة في تلك الوثيقة وكانت هذه
الوثيقة تسمى وثيقة الامن فكان كل من ينقض العهد من الاخصام يعاقب

عقاباً شديداً وكانت هذه الوثائق تعطى احياناً باختيار الخصمين وفى الاغلب كان القضاة المدنيون يأخذونها منهما قهراً وذلك فى صورة ما اذا كان احد الخصمين يعلم ضعف نفسه فيطلب وثيقة الامن لئلا يتعدى عليه خصمه الاقوى منه فيعرض للقاضى المدنى فى شأن ذلك فيطلب القاضى خصمه الى ديوانه ويكرهه على ان يكتب على نفسه وثيقة امن خصمه الشاكى فاذا حصل من هذا الخصم القوى بعد ذلك تعد على الشاكى فانه يكون بذلك معرضاً نفسه لجزاء المرتب لذنب الخيانة والغدر وهذه الواسطة كانت معلومة فى عصر الملك ستلوير وكانت موجودة كذلك فى ابريطانيا ومن الغرابة ان هذه الوثائق كانت تكتب ايضاً بين المترممين وبين اتباعهم وقد اتفق ان اولورد وكايسون كتب وثيقة من هذا القبيل بينه وبين امره دوق ابريطانيا وكما حصل ذلك فى اقاليم ابريطانيا حصل ايضاً فى غيره من اقاليم فرانسا كما بين ذلك المؤلف روسيل بامثلته ثم ان اشراف بورغونيا اشتكوا من هذه العادة وزعموا على انها مضرة لمزاياهم وحقوقهم وهذه الوثائق كان اول منشأها فى المدن فلما عرف الاشراف ان ثمراتها طيبة لامن الانسان واطمئنانه بادروا الى قبولها بينهم (راجع المبحث السادس عشر)

(عاشراً) كان ينشأ فى بعض الاحيان عن الحروب الخصوصية مصائب كبيرة بحيث ان الاشراف من تلقاء انفسهم تجمعوا واتفقوا على انه اذا حصل لاحد منهم مشاجرة فى شأن عقاراته المدنية او امر يزرى بشرف عرضه يرجع فى ذلك الى مشورة بقية الجمعية التى هو منها ويعمل بموجب ما يحكم به جمهور اربابها كما ذكره موريس

(الحادى عشر) حيث ان جميع هذه الوسائط لم ينشأ عنها ما كان يؤمل من الملك كرلوس السادس (سنة ١٤١٣) امر بمنع الحروب الشخصية باى سبب كان ورخص للقضاة المعتادين ان يجبروا كل انسان على اتباع هذا القانون او يعاقبوا جميع من تعداه بالسجن او بضبط امواله واملاكه او بارسال بعض ناس من طرف الحكمة يسمون بالآكلين او القطاعين ليعيشوا فى اراضى

من

من يتعدى هذا القانون او في بيته يحتموا بها نشأوا ملجأ واذا تعذر القبض على من تعدى هذا القانون ساغ للقضاة المعتادين ان يقبضوا على احبابه واتباعه ويضعوهم في السجن الى ان يلتزموا بالصلح ويأتوا بكفيل يضمنهم في ذلك ووسع الملك ايضا بجميع القوانين والعوائد والمزايا المخالفة لهذا الامر الذي صدر منه

وهذه المعاهدة هي عقل وسام الجمعية حيث بذل الملوك والقسيسون جهدهم عدة قرون لاجل مساعدة ما قررته سابقة التي يظهر لنا الآن انها من باب العدل بحريه على مقتضى الطبيعة لا تكلف فيه بل وبعد ذلك كله اضطر لويز الحادي عشر في ايام حكمه الى ان امر سنة ١٤٥١ بابطال الحروب الشخصية من اقليم دوفينه ذكره دوكنج

ولولا خوف الاطناب والخروج بل امعن لذكرناها مع التفصيل السابق جميع المقدمات التي حصلت بتلك العادة الشخصية في بقية بلاد اوروبا ولكن مختصر فنقول انه في انكلترة كانت قوانين السكسونيين في الانتقام تقرب من مثل قوانين امم اوروبا القاطنين بالارض القارة وكذلك قوانينهم في الحروب الشخصية واخر غرامات التي تعرض على المتعدي للمتعدى عليه فان ما شرعه [illegible] في القرن السادس في شأن الانتقام وعبارته ايضا موجودة في [illegible] العاشر في شأن القتل والمعاداة وما شرعه ايدوارد لوكونفسور في القرن الحادي عشر في شأن الصلح او هدنة الله كانها منسوجة في الموضوع لما شرعه ملوك فرنسا في ذلك العصر بل بعض قوانين ايدوارد كان اصعب من قوانين ملوك فرانسا وفيها بعض اصول واوامر يستدل بها على ان انكلترة وقتئذ كانت اكمل من غيرها انتظاما وضبطا وربطا وبعد فتح النورمنديين لانكلترة لم تكن الحروب الشخصية وقوانينها مجهولة بالكلية كما يفهم من كتاب انموذج القوانين الانكليزية للمؤلف مادوكس ومن مختصر كتاب دومسدي وهو كتاب ميرد اراضي انكلترة وعقاراتها امر بتأليفه الملك غليوم لوكونكيران اي صاحب الفتوحات والظاهر ان الانكليز اخذوا امر هدنة الله والهدنة الملوكية

حكما شرعيا اشتهر فيما بينهم وحوادثه ثم يعطى به للغالب على الجاني كونه يتعدى على انسان في هدنة الله او في الهدنة الملوكية اللتين تكلمنا عليهما فيما سبق ولكن بعد ان فتح النورمنديون انكلترة قلت فيها الحروب الشخصية اكثر من غيرها من بلاد اوربا كما يفهم ذلك من تاريخها حتى انه لا يوجد فيها الآن شيء من تلك القوانين القديمة وسبب هذا التغير العظيم الذي حصل للانكليز في اخلاقهم عجيب حيث لم يحصل لغير الانكليز من مجاوريهم من الملل فلا يدرى اهو شوكة الملك غليوم النورمندي العظيمة التي كان قد اكتسبها في بلاد الانكليز بعد ان تغلب عليها لان هذه الشوكة قد صعب تدبيرها [illegible] مما كان عليه وقوته وجها ابصار اقتدار الملك غليوم النورمندي واسع الدائرة واقوى من اقتدار سائر ملوك اوربا الاخرين الذين كانوا في عصره وبعد موته انقلبت هذه الشوكة الى خلفائه او سبب هذا التغير مجرد استيطان النورمنديين تلك المملكة فابطلوا منها عادة الحروب الشخصية لانها لم تكن معروفة لهم في بلادهم وقد صرحت بعض اوامر الملك بوجه امين مرارا ان الحروب الشخصية لم يؤذن بها اصلا في بلاد النورمندية وما كانت تجوز لانسان الا اذا كانت رتبته وكان من يتجاسر على فعلها بغير ذلك يحكم عليه بجزاء جنايته لانه فعل امرا مخالفا للشرائع والاحكام ونحو ذلك كان دليلا مؤيدا للوجه الثاني في سبب تلاشي الحروب الشخصية في انكلترة ولكن حيث ان بعض المؤلفين العارفين قد كتب بعض ملحوظات على القوانين والشرائع القديمة ونبه فيها على ان بعض قوانين برلمان انكلترة لا يخلو عن غلط فيمكن ان يقال ان هذا الامر لم يكن موجودا في القوانين النورمندية وعلى هذا فذكري امر ملك فرانسا غير صحيح وليس هنا محل ايراد الخلاف في هذا الشأن الذي يرغب في البحث عنه كل عالم خبير بالاشياء التي كانت قديما بمملكة انكلترة من شرائع وعوائد وغيرها

ثم ان عادة الحروب الشخصية كانت كثيرة منتشرة جدا في مملكة قسطيلة بل كانت مأذونة بموجب قوانين تلك المملكة وعوائدها وحيث كان اشراف

قسطيلة

قبيلة اقوياء الشوكة الاوروبية وتعصبات كانت لا تنقطع بينهم المعادات والحروب الشخصية حتى ان وطنهم كان مشحونا بالمصائب والاهوال الكبيرة كما برهن على ذلك المؤلف مارياتا بادلة عديدة وكذلك في مملكة ارغون كانت القوانين تأذن في الانتقام بطريق الحروب الشخصية وكانت هذه الحروب جارية فيها مع غاية الشدة والافراط كما كانت في غيرها ويوجد الى الآن وثائق تدل على انه كان هناك معاهدة بين ملوك اسبانيا واشرافها على ان لا ينقضوا عهد الصلح وان يستمروا على موجب هدنة الله بل حصل في (سنة ١١٦٥) ان الملك وارباب دولته في ارغون عقدوا مشورة واتفقوا على ابطال حق الحروب الشخصية وعلى عقاب من يدعي ان هذه الحروب حق ومزية له ولكن كان هذا الداء قد تمكن من قلوب الناس وتشعب الى شعب كثيرة حتى اضطر الامبراطور شرلكان (سنة ١٥١٩) الى ان رتب هرمندادا لاجل احياء القوانين القديمة التي كانت وضعت لدفع عدة تلك الحروب ثم نسيت

ثم ان اللومبرديين وغيرهم من ملل الشمال الذين استوطنوا في ايطاليا قد ادخلوا اليها عادة تلك الحروب الشخصية ونشأ عن هذه العادة في ايطاليا ما نشأ في غيرها فلما كثرت هذه الحروب بايطاليا كما كثرت بفرانسا لزم ان يستعمل في ابطالها من ايطاليا نفس الوسائط التي استعملت في فرانسا

واما المانيا فقد ترتب فيها على الحروب الشخصية مصائب وتعكيرات اعظم مما حصل في غيرها من سائر ممالك اوروبا وذلك ان شدة الحروب المدنية التي حصلت بين امبراطرة قبيلة شوابيه وامبراطرة قبيلة فرنكونيه كانت قد اضعفت الشوكة الامبراطورية كثيرا حيث ان الاشراف بل واهالي المدن كادوا ان يكونوا مستقلين حتى انهم ابوا ان ينقادوا لشيء من الشرائع والقوانين التي كانت وقتئذ ويفهم من التواريخ الجرمانية ان الحروب الشخصية كانت كثيرة متواترة بين اهالي المانيا وقد بالغت تلك التواريخ في وصف النتائج الشنيعة المهولة التي نشأت عن الحروب الشخصية في بلاد المانيا وان كانت هدنة الله التي حصلت اولا في فرانسا قد بادر اليها ايضا

هل المانيا الا انها لم تجد شيئا ولم تمكث الا مدة قليلة وازدادت الفتن مع السرعة حتى وصلت الى درجة خيف منها اضمحلال نظام جمعيات المانيا بالكلية فاضطروا الى تعاطى الدواء الذى لا دواء غيره لهذا الداء وهو ان منعت الحروب الشخصية فيها منعا كليا وفى سنة ١٢٥٥ صدر امر بذلك من الايمبراطور غليوم قبل امر كرلوس السادس ملك فرانسا بمائة وستين سنة ولكن لم يقدر هذا الايمبراطور ولا خلفاؤه على اجراء هذا الامر وحصلت حينئذ فى المانيا حادثة تدل على عظم المصائب المهولة التى نشأت عن الحروب الشخصية وتدل على ضعف ايمبراطرة المانيا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وهذه الحادثة هى ان اهالى المدن والاشراف عقدوا جمعيات ومعاهدات بينهم وتعاهدوا مع بعضهم على ان يحافظوا على الامن العام وان يقاتلوا كل من تجاسر على حرم نظامه وهذه المعاهدات هى اصل عصبة الرين وعصبة سوابه وعدة عصب اخرى صغيرة وقد حقق المؤلف ذات اصل تلك الجمعيات وتقدمها والنتائج السعيدة التى ترتبت عليها حيث قال ما حاصله لا يخفى ان الامن العام ونظام الحكومة المدنى مكثا فى ايمبراطوريه المانيا من ابتداء القرن الثانى عشر الى الخامس عشر كان سببهما تلك الجمعيات السابقة وفى ظرف هذه المدة عظم عدل تدبير الحاكم فى المانيا واتسعت السياسة وصار الناس يحترمون الشرائع والقوانين ولكن ابطال عادة الحروب الشخصية الابطال الكلى لم يتم الا فى سنة ١٤٩٥ لان الشوكة الايمبراطوريه كانت قد ثبتت وتشيدت وكانت عقول الناس قد تحسنت اراؤها وعرفت طرق الحكومة والطاعة المدنيتين فبعد ان مكث الاشراف زمنا طويلا عاكفين على تلك الحروب الشخصية وكانوا يعتبرونها حقا لازما لهم رأوها بعد من الامور الشنيعة الخسيسة ورأوا انها مخالفة لسعادة الناس ومؤدية لاضمحلال نظام جمعيتهم ولاجل قطع عرق المنازعات التى كان يمكن حصولها بين اهالى الجمعية الجرمانية جعل للديوان الملوكى القضاء بالحق فى جميع امور الايمبراطوريه وصار هذا الديوان يحكم بالقضاء من غير

معارض فى جميع الدعاوى التى تقدم له ومن ذلك الوقت ترتب فى المانيا محكمة محترمة جدا لم تنفك عن الجمعية الجرمانيــة من ذلك الوقت وهى الى الآن موجودة بها ومعدودة من الفروع المهمة اللازمة لنظامها وترتيبها ذكر ذلك المؤلف دات والمؤلف يفيفيل

المبحث الثانى والعشرون

فى بيان مطالب الوسايط المختلفة التى ابدوها لابطال هذه الطريقة بصحيفة (٦٠) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لا نذكر هنا جميع الطرق التى كان يسلكها الناس فى طلب الانصاف بحكم الله وكانت ناشئة عن جهل هــذه الاعصر لان ذكرها تفصيلا يؤدينا الى التطويل الممل وانما نذكر منها طريقة واحدة لانها هى الموجودة الموضحة فى صورة دعوى عملت بحضرة الامبراطور كرلوس مانوس وهــذه الطريقة تكفى فى ان تبين اناان تدبير انفصال الاحكام الشرعية كان فاسدا جدا فى تلك الاعصر بل وفى زمن هذا الامبراطور العظيم وذلك انه سنة ٧٧٥ حصلت منازعة بين اسقف مدينة باريس وبين القديس دنيس فى شان دير صغير يدعى كل من الخصمين انه ملكه وانى كل منهما بوثائقه ونقاياته التى تشهد له وتثبت دعواه معوضا عن ان يتطرق وتانى كل منهما ويبحث عن تحقيق مضمونها احيلت دعواهما الى طريقة يقال انها حكم الصليب فقدم كل من المتخاصمين انسانا نائبا عنه ليقف هــذان النائبان مدة الصلاة امام الصليب الذى فى محراب الكنيســة واذرعتهما ممدودة فكل من تعب منهما اولا ونزل الهيئة التى كان عليها ضاع حقه فاتفق ان نائب الاسقف كان ضعيفا عن نائب القديس دنيس فثبت الحق للقديس المذكور كما ذكره مابيلون فاذا كان مثل هذا الامبراطور مع معارفه ونباهته يقر هذا الحكم المخالف للعقل فلا عجب ان غيره من ملوك ذلك العصر قد مكثوا زمانا طويلا واضيين تلك العادة

ثم ان المؤلف موتسكيو قد تكلم فى كتابه المسمى روح الشرائع على المقاتلة

او المحاربة الشرعية وشرحها شرحا كافيا واودع فى مخطوطاته التى ذكرها فى هذا الشأن صفتيه المميزتين له من بين مشاهير المؤلفين وهما تدقيقه فى البحث على وجه الصحة عن جميع احوال القوانين القديمة والحوادث التى خل من يعرفها ودكاء عقله وكمال غور بحثه فى ادراك اسباب تلك الاحوال واصولها التى هى مؤسسة عليها فلذلك احلنا من يقرأ كتابنا هذا على كتاب هذا المؤلف الشهير ليستوفى منه ما يلزم فى تلك المواد لان من نظر فى كتابه وجد اغلب الاصول والقواعد التى بنيت عليها فى توضيح تلك العادة ويظهر من تنبيهات المؤلف مونتسكيو والوقائع التى ذكرها المؤلف مورا طورى ان عادة طلب حكم الله بواسطة اختبار الانسان بالنار او الماء وما اشبه ذلك كانت معروفة عند الامم الذين استوطنوا فى اقاليم الامبراطورية الرومانية وكانت جارية عندهم قبل استعمال المحاربة الشرعية ولكن فى زمن امبراطور الملل المتبربرين فى الامبراطورية اول مرة كانت المحاربة الشرعية عندهم اقدم الطرق التى كانوا يسلكونها فى انهاء المنازعات التى تحصل بينهم وقد ذكر المؤلف وليوس باركولوس لذلك برهانا واضحا فقال ان جميع الدعاوى التى كان يلزم ردها للشرع عند الرومانيين كانت تقضى بطريق الحرب عند الجرمانيين ومثل ذلك يوجد ايضا فى انموذج قوانين قدماء اهل اسوج وعوايدهم للمؤلف ستيرنهوك ثم يمكن معرفة ان الملل المتبربرين الذين تغلبوا على الامبراطورية الرومانية لما تمسكوا بدين النصرانية ابطلوا المحاربات الشرعية مدة لما انها كانت مخالفة للدين الذى تمسكوا به ولكن اضطروا فيما بعد بالتدريج الى تجديد هذه العادة ثانيا بسبب عدة مقتضيات قد ذكرناها فيما تقدم

ويظهر ايضا من القانون الذى ذكره المؤلف ستيرنهوك ان المحاربات الشرعية كانت سابقا مباحة ومأذونا بها فى صورة ما اذا كانت الدعوى التى بين الخصمين قد عابت فى العرض ثم توسع فيها بالتدريج حتى صارت مأذونة فى جميع الجنايات ودعاوى العقارات وهذا نص عبارة القانون المتعلق

بهذا الشأن اذا سب انسان آخر او قذفه كأن قال له انت لست رجلا كبقية الرجال او ليس فيك عزم الرجال فاجابه الآخر بقوله انا رجل مثلك لزمهما ان يتبارزا في الفلاة فاذا حضر المتعدى في محل الوعد وغاب المتعدى عليه اكسبه ذلك تدنيسا اكثر مما لحقه من المسبة التي دعته الى ميدان الحرب مع خصمه فلا تقبل له شهادة سواء كانت في حق رجل او امرأة ولا يجوز له ان يوصي بشيء من امواله واما اذا حضر المتعدى عليه وغاب المتعدى نادى الحاضر الغائب ثلاث مرات باعلا صوته ويرسم علامة في الارض فبذلك يلحق الغائب عار وخزى عظيم في نظير كونه تفوه بكلمات لا قدرة له عليها واذا برز كل منهما مستكملا لما يلزم من ادوات الاسلحة وقتل المتعدى عليه في القتال لزم المتعدى نصف ديته واما اذا قتل المتعدى فهذا جزاؤه في نظير وقاحته التي افضت به الى ذلك فيبقى مطروحا في الميدان ولا تطلب له دية انتهى ذكره مسترتوهولتم ان هؤلاء الامم الحربيين كانوا يثرون الغاية مما يدنس عرضهم في الشجاعة والعسكرية ففي قوانين امة السليان اذا قال انسان لآخر انت ارنب اي جبان او اتهمه بانه قد ترك ترسه في ميدان الحرب لزمه في نظير ذلك غرامة كبيرة وفي قوانين اللومبرديين اذا قال انسان لآخر انت اركا اي لا تنفع في شيء جاز ان خوطب بهذا اللفظ ان يدعو من خاطبه به الى القتال وفي قوانين لسليان ايضا اذا قال انسان لآخر انت سيتوس (كلمة توبيخ تقرب في المعنى من لفظ اركا) لزمه دفع غرامة كبيرة جدا وقد وصف المؤلف بولص دياكرو الغضب المهول الذى حل بانسان من انباء بلده عند سبه بهذا اللفظ المدنس وذكر ما نشأ عن سبه بهذا اللفظ من الاشياء الشنيعة فيعلم من ذلك ان المحافظة على شرف العرض التي نعتبرها الآن من جملة محاسن التمدن الجديد والناشئة الحروب الشخصية التي هي نتيجة ذلك كانتا من عوائد قدماء الافرنج في تلك الازمان الخالية التي كان المتقدمون فيها قليلي التأدب والتمدن

ولكن حيث ان مقصد المؤلف موتسكيو في هذا الشأن لم يوصله الى البحث

على وجه التفصيل عن جميع الاحوال التى تخص المحاربات الشرعية نذكر لك هنا بعض وقائع خصوصية لازمة لتوضيح ما ذكرناه فى هذا الغرض ونمثل لك ذلك بمسئلة فقهية مشكلة قد حكم فيها بالمحاربة الشرعية وذلك انه حصلت منازعة فى القرن العاشر فى شأن ميراث لان الحقوق الميراثية وقتئذ كانت غير معلومة فى اوروبا وان كانت الآن معلومة فيها عند الخاص والعام فقال بعض المؤرخين كان من المشكل معرفة هذه المسئلة وهى هل اولاد الابن كاولاد الصلب بحيث يرثون كاعمامهم سواء بسواء فى صورة ما اذا مات ابوهم وكان جدهم موجودا فعقدت مشورة لحل هذه المسئلة واعط رأى الجمهور فيها على تفويض هذا الامر للقاضى ولكن استحسن الامبراطور غير ذلك فامر أن يحكم فى هذه المسئلة بالمحاربة بين شخصين نائبين عن كل من الفريقين فاتفق ان الشخص الذى كان يحارب نيابة عن اولاد الميت انتصر على صاحبه فحكم من وقتئذ ان الاولاد يقاسمون اعمامهم فى التركة انتهى ذكره المؤلف وينيكند كوربان

واذا امكن ان يقال ان الخرافة والشهوات النفسانية تؤدى الانسان الى ان يقوم بنفسه تصورات جنونية اكثر من الحكم فى مثل هذه المسئلة الفقهية بالمحاربة الشرعية قلنا اكثر من ذلك فى الجنون والحمق قد ما وقع من اختبار آراء مختلفة فى الدين بالمحاربة الشرعية ليعلم صحيح هذه الآراء من فاسدها فمن امثلة هذا الجنون الذى يعاب به على العقول البشرية انه اتفق فى القرن الحادى عشر ان حصلت منازعة بمملكة اسبانيا فى شأن مذهبين دينيين فاختلفت الآراء فى معرفة الاحسن منهما عند الله تعالى هل هو المذهب الموررابيكى الذى كان معمولا به فى كنائس اسبانيا او المذهب الذى كان يستحسنه البابات وكان مخالفا للاول من بعض الوجوه فصار اهل اسبانيا يحامون مع الغيرة عن مذهبهم الذى نقلوه عن آبائهم واجدادهم وصار البابات يشددون عليهم فى قبول مذهبهم الذى كانوا يستحسنونه ووضعوا عليه امضاءهم الذى لا ينقض

ولايوضع

ولا يوضع الا على كل مصون عن الخطأ وازال فشأ عن ذلك منازعة كبيرة فحكم الاشراف بان الاحسن فى هذا الامر انهى بالمحاربة الشرعية واختص الملك رأيهم وخرج من كل فريق محارب شاكى السلاح وبرز المحاربان لبعضهما فى الميدان فانهى ان المحارب الذى كان محاميا عن المذهب الموزرابيكى ظفر بالنصرة على صاحبه ولكن كان كل من الملكة ومطران ... يميل الى مذهب البابات فأشارا بان يكون اختبار صحة هذين المذهبين وصلاحهما بطريق آخر غير طريق الحرب لا مدخلية لاحد فيه سوى الله تعالى ولا يمكن ... بعد مراجعته ولا التخلف عما يبديه وكان اهما شوكه ونفوذ كلمة بحيث امضيا امرهما وهذا الطريق هو ان اشعلوا نارا كبيرة ورموا فيها كتابا من كل مذهب واتفقوا على ان الكتاب الذى يحترمه اللهب ولا تأكله النار يصير معمولا به فى جميع كنائس اسبانيا فحمى الله المذهب الموزرابيكى وقال المؤلف رودريكز دو توليده انه لم يحصل لكتاب هذا المذهب ادنى خلل من النار بخلاف كتاب مذهب البابات فانه صار رمادا ولكن كل من الملكة والمطران حاولا بشوكتهما او بحيلهما هذا الحكم بحيث لم يؤذن فى العمل بالمذهب الموزرابيكى الا ببعض كنائس قليلة وهذا الحكم خارق للعادة كغيره من الاحكام التى سبقت فى هذا الشأن (راجع تاريخ تقلبات اسبانيا للمؤلف رودريكز دو توليده)

ويوجد فى شرائع اللومبرديين واقعة شهيرة تدل على ان اختبار الاشياء بطريق الحرب كان شائعا عند جميع الناس بل كانوا يميلون اليه كثيرا وكانت عادة الناس فى تلك الاعصر المتبربرة الخشنة ان كل انسان مخير بالنظر للشرائع ولكن اذا اختار شريعة وجب عليه اتباع ما توجبه هذه الشريعة ولا يلزمه ان يعمل بشئ مما تأذن به شريعة اخرى فكان من يتبع شريعة الرومانيين مثلا ويعمل بالاحكام الفقهية القديمة على حسب ما يلائم جهالة تلك الاعصر لا يجب عليه مراعاة شئ من الاقضية والاحكام المرتبة فى شرائع البرغونيين واللومبرديين وغيرهم من الملل المتبربرين ولكن حرم الامبراطور

وتون هذه القاعدة العمومية بامر صدر منه وهو ان كل انسان مهما كانت شريعته المتمسك بها ولو كان متمسكا بشريعة الرومانيين يجب عليه العمل بمقتضى الاوامر الملوكية الصادرة بخصوص الحكم بطريق المحاربة انتهى

ومادامت العادة جارية بالمحاربة الشرعية كانت الادلة الثابتة بالوثائق والحجج والشرائع وغير ذلك باطلة لا يعمل بها بل كانوا يحاولون فى الشهداء التى كانت معمولا بها فى الاقضية الشرعية التى تقام فى المحاكم فكان اذا قدم احد الخصمين وثيقة او ذكر قبالة يثبت به حقه يجوز لخصمه ان يرفض هذه الوثيقة ويبرهن على انها باطلة لا اصل لها ويطلب بيان صحتها بطريق المحاربة الشرعية ثم ذكر المؤلف بومنوار بعض صور كان يجوز للقاضى فيها ان يأبى انهاء الدعوى بطريق المحاربة الشرعية منها هذه الصورة وهى ان الدعوى ان امكن اثباتها ثبوتا يقينيا بوجه آخر فلا حاجة الى المحاربة الشرعية انتهى ولكن مثل هذه الصورة لم يكن ينشأ عنه ابعاد الضرر الا من جهة واحدة وذلك لان الخصم المدعى عليه كان اذا وقع فى قلبه ريب ممن شهد عليه يسوغ له ان يتهمه بانه اخذ الرشوة و ينكر عليه شهادته ويدعوه الى الحرب فاذا اتفق انه ظفر على الشاهد فلا يجوز قبول شهادة اخرى واما الخصم المشهود له فيضيع حقه ذكره بومنوار وسبب كون الشاهد يجبر على اجابة الخصم المشهود عليه الى الحرب جديرا بالالتفات اليه لانه من قبيل المحافظة على شرف العرض وهو كما نصت عليه الشريعة اذا كان الانسان جازما بانه يعرف الشئ على حقيقته كما ينبغى ولا ينكل عن يمين فى شأنه فلا ينبغى له ان يخشى من اثبات ما هو جازم به بطريق الحرب انتهى

ومن المعلوم ان اختبار الدعاوى بطريق المحاربة الشرعية كان مقبولا فى جميع بلاد اوروبا وكانت العادة جارية بذلك على سبيل التواتر والكثرة كما يشاهد ذلك فى كتب الشرائع القديمة التى كانت تأذن به وفى كتب المؤلفين الاولين الذين كتبوا فى شان شرائع ذلك العصر التى كانت جارية فيه عند ملل

اوروپا على احتلامهم فان هؤلاء المؤلفين قد اطالوا فى شرح هـذه العادة وذكروا قوانينها واصولها تفصيلا من غير ان يفوتهم منها ادق شئ واهتموا بتوضيح معانيها وحل رموزها اهتماما زائدا لان هـذا الامر كان مهما ومعتبرا جدا فى شرائع ذلك العصر ولا يوجد فى دستور الشرائع امر آخر التفت اليه المؤلف بومنوار والمؤلف بطرس دوفنتين وغيرهما من جمع ما نحط عليه الرأى فى المشورات القسيسية التى عقدت ببيت المقدس واعتنوا به اكثر من هذا الامر المذكور واثبت ذلك ايضا اقدم المؤلفين الاجانب فذكر مادوكس ما يفيد ان اختيار الدعوى بطريق الحرب كانت العادة جارية به كثيرا فى انكلترة بحيث ان الجرائم والغرامات التى كانت تجبى من ذلك كانت من عطايا من ايرادات الملك وقد ذكر المؤلف موريس وصفاعرية احد المحاربة شرعية حصلت بحضرة دوق بريطانيا (سنة ١٣٨٥) بين روبرت دوبومنوار وبطرس دوتورنومين وجميع القوانين والرسوم التى كانت تلاحظ مع هـذه العادة الغريبة ذكرها هذا المؤلف بطريق اوسع مما ذكر فى جميع ما راجعته من الكتب والمؤلفات القديمة وصورة هذه المحاربة التى حصلت امام الدوق المذكور هى ان بومنوار اتهم تورنومين بانه قتل اخاه فبارز بعضهما وهزم الاول اى بومنوار الثانى فثبت على تورنومين القتل وحكم عليه شرعا بالشنق فى الميدان ولكن من كرم خصمه بومنوار اسقط حقه وعفا عنه وفى تاريخ باويه للمؤلف بريارد وتوضيح جيد مبين لمنشاء الشرائع والقوانين المرتبة للمحاربة الشرعية

ثم ان المحاربة الشرعية كانت مستحسنة عند الناس حتى ان القسيسين مع منع الدين عن هذه العادة اضطروا الى استحسانها والى تعضيدها وتأييدها كما مثل ذلك المؤلف بـ كـ فى كتابه المسمى بالابحاث اليقينية فى المملكة الفرنساويه بمثال جدير بالالتفات اليه وكان القسيس ويتيكند كوربان الذى نقلنا عنه فى هذا المبحث العبارة المتعلقة بالارث يعتبر ان انهاء مسئلة فقهية بطريق المحاربة الشرعية هو احسن واشرف واسطة فى انهاء الاحكام وحصل

(فى سنة ٩٧٨) محاربة شرعية بحضرة الامبراطور هنرى وذلك انه وقعت منازعة فى دعوى بين اثنين من اشراف دوائه فاشار عليه المطران ألديرت بان يحكم فى دعواهما بطريق المحاربة الشرعية فقبل الامبراطور ذلك من المطران وامرهما بالمبارزة لبعضهما ومن انهزم من الاثنين ضرب عنقه فى الميدان ذكره بوكيت فى كتابه زبدة التواريخ وكان يحكم كذلك بطريق الحرب فى شان الدعاوى المتعلقة بمنف الكنائس والديورفن ذلك المنازعة التى حصلت (سنة ٩٦١) فى شان كنيسة سنت ميدارهل تنسب لراهب بوليو ام لا فحكم بان هذه المسئلة لا يحكم فيها الا بطريق المحاربة الشرعية وقد اعلن الامبراطور هنرى الاول ان قانونه الذى رتبه فى الترخيص بالعمل بالمحاربة الشرعية كان من رضاء عدد من ثقاة الاساقفة المؤمنين فانظر كيف كان الناس متولعين بالحروب وقتئذ وكان حكم الحرب معتدا على حكم الشرائع القانونية وعلى احكام القسيسين واوامرهم (وفى سنة ١٥٢٢) اذن الامبراطور شرلكان بمحاربة شرعية فى اسبانيا او رد الخصمان فى الميدان بحضرته وكانت المحاربة بينهما على حسب الرسوم القديمة المرتبة فى شرائع امارة الشوالرية وقد ذكر المؤلف بونوس هوبوروس جميع ذلك موضحا اتم توضيح

واخر واقعة حصلت فى فرانسا من المحاربات الشرعية هى المحاربة الشهيرة التى حصلت (سنة ١٥٤٧) بين جرنالدو كستنيره (وفى سنة ١٥٧١) اذن فى انكلتره بمحاربة شرعية ووكل بملاحظتها قضاة محكمة الخصومات العمومية ولكن لم يشتد فيها كالمحاربة الاخيرة التى حصلت فى فرانسا الان الملكة ايليزابيطه توسطت فيها بصولتها وامرت الخصمين ان يتمما تلك المحاربة على وجه مستحسن ولكن المحاربان لاجل شرف عرضهما بارزا بعضهما وعملا فى الميدان جميع الرسوم الاولية التى كانت جارية بها العادة فى المحاربات الشرعية ذكره سيلمان وفى (سنة ١٦٣١) اذن كذلك فى انكلتره بمحاربة شرعية توكل بملاحظتها كل من قائد جيوش انكلتره ومارشالها

الاكبر

الا كبر وكانت هذه المحاربة بين دوبلد لوردرى وداود رمسى ولكن تمت هذه المحاربة ايضا من غير سفك دم بين الخصمين لانه توسط فيها الملك كرلوس الاول وبعد بسبع سنوات حصل ايضا فى انكلتره محاربة شرعية اخرى

المبحث الثالث والعشرون

فى شرح قولنا الاصل فى تدبير الاقضية والاحكام بالنشاء اصل واحد الى آخره صحيفة (٦٧) من مطلب الروابط التى صنعت لاجل تحديد قوانين الاسراف صحيفة (٦٥) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

قد ذكرنا فى اتحاف الملوك الالبا الوقائع الكبيرة المهمة التى تدل على تقدم شوكة القصاص السابق عند ملل اوربا وعلى تقدم اقتراتهم واحكامهم عمومية كانت او خصوصية ولكن حيث ان هذا امر مهم يرغب فيه رأيناه جديرا بان نفصل فى شرحه زيادة عما ذكرناه فى الاتحاف وبين الطريق التى سلكتها العقول البشرية فى هذا الفن الذى هو فرع من الفنون السياسية فنقول ان دفع الغرامة لمكافأة الشخص المتعدى عليه او العائلة المتعدى عليها كان اول واسطة اخترعها الامم المتمدنون فى اطفاء نار الحقد الشخصى الذى كان يقوم بانفس الناس للانتقام والاخذ بالثار وكان ينتقل من جيل الى جيل ولا تخمد ناره الا بسفك الدم واذا تأملت عادة دفع هذه الغرامة رأيتها قديمة تصل الى عصر قدماء الجرمانيين وكانت موجودة ايضا عند ملل آخرين غير الجرمانيين خشنيين مثلهم وكثيرا ما ذكرت شواهد ذلك فى التواريخ ثم ان هذه الغرامات كانت تفرض وتقبض بثلاث طرق مختلفة الطريقة الاولى كانت الغرامات اولا تعين باتفاق اختيارى بين الفريقين المتشاحنين وذلك ان الفريقين لما كانت تخمد نار غضبهما الاول كانا يدركان المضار التى تنشأ لهما عن استمرار حقدهما البعض فيتصالحان على غرامة تعطى للمتعدى عليه ويفهم من ذلك ان هذه الغرامة كانت عن تراضيهما كما فى روح الشرائع ويؤخذ من

بعض الشرائع القديمة انه بعد ترتيب القوانين لم تزل الاشياء على هذه الحالة
الاولية ثم كان يحصل فى بعض الاحيان ان الانسان اذا تعدى على آخر
يصير عرضة لغضب من تعدى عليه الى ان يمكنه ان يتصالح معه ويسكن
غضبه بطريق الاستعطاف * الطريقة الثانية فى تعيين هذه الغرامات
هو ان الامر كان يفوض فيها لرأى حكم يقام بين الخصمين لان الحكم من شأنه
ان يكون خليا عن الاغراض دون الخصمين ولانه اعدل منهما فى تعيين المكافأة
اللازمة ويعسر علينا ان نبرهن بادلة صحيحة على تلك العادة لانها كانت
قبل زمن التآليف التى وجدت عند ملل اوربا فى شأن الاعصر القديمة ولكن
يوجد فى القوانين التى جمعت فى القرن السادس قانون فيه الاشارة الى مصالحة
وقعت بين خصمين بموجب توسط حكم بينهما لا بموجب حكم قاض
كما ذكره يوكيت فى زبدة التواريخ ولما كان يلزم ان يكون فى الحكم شوكة
لاجل تنفيذ احكامه ترتب من وقتئذ قضاة مخصوصة لهذا الشأن وصار
لهم شوكة كافية فى ان يجبروا الخصمين على اتباع احكامهم وقبل هؤلاء
القضاة كانت الغرامات فى هذا الامر لا تجدى شيأ ولا تؤثر فى الداء الشنيع
الذى كان متمكنا من قلوب الناس وهو داء الحقد الشخصى ولكن بمجرد ترتيب
القضاة صار القاضى منهم يجعل نفسه قائما مقام المتعدى عليه ويعين
الغرامة التى تجب على المتعدى للمتعدى عليه وصارت جميع المظالم والجنايات
التى يمكن وقوعها بين الناس مبينة الاحكام والعقوبات وصارت
جريمة كل ذنب ومظلمة محددة على حدتها مع غاية التدقيق بحيث ان هذا
التدقيق كان يؤدى فى بعض الاحيان الى احكام دقيقة جدا لا تنشأ
الا عن كل قريحة غريبة وفى بعض اخر كان يؤدى الى احكام جنونية
لا يقبلها عقل ولا يقرها ذوق سليم وزيادة على الغرامة التى كانت تدفع
للمتعدى عليه كان يدفع المتعدى للامراء او الدولة نوعا من الجريمة يسمى
فردة كذا قال المؤلف تاسيت وفى قوانين الامم المتبربرين ان هذه الفردة
كانت لبيت المال وقد قابل بعض المؤلفين بين سياسة عصرنا هذا الدقيقة

ومما

وما انحط رأيهم عليه في شأن تلك الاعصر القديمة فتبين لهم من هذه المقابلة
ان هذه الفردة كانت تفرض للجمعية على المتعدى في نظير كونه ارتكب امرا
يخل بالامن العام والظاهر ان هذه الفردة هي المحصول الذي يأخذه القضاة
في نظير حمايتهم للمتعدى واطفاء نيران غيظ المتعدى عليه ثم انه بانشاء
هذا القانون حصل للناس تقدم عظيم في تحسين قوانين العقوبات والجنايات
وفي بعض كتب الشرائع القديمة لا يوجد لهذه الفردة ذكر او ذكرت نادرا
بحيث يفهم ان العادة لم تكن جارية بها الا قليلا واما الشرائع الاخيرة
فان هذه الفردة فيها مطلوبة ومؤكدة كالجريمة التي تعطى للمتعدى عليه
سواء ابسوا او كانت في الاحوال المعتادة في الدعاوى على الثلث من الجريمة
المذكورة واما في الاحوال الصعبة التي كان يعسر فيها معاملة الشخص
المتعدى والمدافعة عنه فكانت تزيد على ذلك بحسب ذنب الانسان المتعدى
وكانت هذه الفردة ترعة خصيصة من ايرادات البارونيين والمتربين لان جميع
الاراضي التي كان فيها القضاء البارونى كان لا يجوز لقضاة الملوكية
ان يطلبوا منها شيئا من الفرده

ثم ان ما فسر به لفظ الفردة قد واصب في معظمه رأى المؤلف مونتسكيو
وان كان قد علم ان عدة من العلماء قد فسروا هذا اللفظ بغير ذلك وكان اعظم
مقصد للقضاة في هذا الشان هو انهم كانوا يجبرون احد الخصمين على المكافأة
التي يوجبها عليه الشرع ويكرهون الآخر على قبولها فترتبوا لاجل ذلك
قوانين عديدة وصاروا يهددون بالعقاب الشديد جميع من تعدى تلك القوانين
وكان يجب على كل من يأخذ جريمة ان يقطع من حين اخذها جميع اسباب
العداوة والبغضاء بينه وبين خصمه الذي كان تعدى عليه ولاجل تأكيد ذلك
كانوا يلزمونه ان يحلف أن لا ينقض ميثاق الصلح بينه وبين خصمه ولا يتعرض
بطلب شئ فيما بعد وايضا بعد ذلك وتأكيد صفا خواطرهم كان يجب على المتعدى
عليه ان يعطى لخصمه الذي دفع له الجريمة وثيقة أمن يطمئن بها من كل
ما يطالب به بعد ذلك في هذا الشان وذكر المؤلف ملركولف وغيره ممن جمعوا

الوثائق والقوانين القديمة عدة من قبيل هذه الوثائق ونوع يشبهها شبها كليا
الوثائق المعروفة في قوانين ايقوسيا بوثائق سلان فانها كانت تؤخذ على
ورثة المقتول واقاربه بعد اخذ جزء من القاتل انهم قد عفوا عن سفك دم
قريبهم وانهم لا يرجعون ابدا الى البغضاء والعداوة بل يتركون ما كانوا
عازمين عليه من الغدر والانتقام من القاتل او من ذريته في نظير قتله لقريبهم
ويعفون عنه من كل فعل وجزاء مدني او قصاصي يجري عليه او على امواله
حالا او مستقبلا وعلى حسب وثائق سلان القديمة كان الفريق المتعدى
عليه يصفح بالكلية عن ضرر عمله او نيته بل كان يعفو عنه ايضا في صورة
ما اذا وقع في حقه كبيرة من الكبائر وقد قابل المؤلف دلاس هذه العادة
باصول عصره فرآها من التعدي على الحقوق الملوكية اذ لا حق في العفو
عن الكبائر الا للملك ولكن في تلك الاعصر المتأخرة كان الامر بيد
المتعدى عليه فكان له ان يمتنع من طلبه او يعفى فيه اي يعفو عنه وقد ذكر
المؤلف هادوكس وثيقتين احداهما عن روب في حكم الملك ايدوارد الاول
والاخرى في حكم الملك ايدوارد الثالث ويستفاد منهما انه كان يجوز
لاحاد الناس ان يعفوا عن كل فعل سيء كخيانة وسرقة وقتل وغير ذلك ولكن
يظهر من الوثيقة الاخيرة ان الناس كانوا يراعون في هذا الشأن حقوق الملك
لان من كان يعفو غير الملك كان يقول في صيغته قد عفونا فيما يخصنا بل بعد
ان ترتب القضية المدنية وتقووا وتداخلوا بشوكتهم في عقاب المذنبين
من اصحاب الكبائر مكثوا زمنا طويلا والعقاب الذي كانوا يحكمون به
يعتبر كانه مكافأة لتسكين غضب الفريق المظلوم المتعدى عليه ويوجد
في بلاد العجم الى الآن انه اذا قتل انسان آخر يسلم فيه لاقارب القتيل ليقتلوه
بايديهم واذا عرضت لهم الدية ولم يقبلوها وطلبوا ان يقتلوا قاتل قريبهم
لا يمكن للملك ولو كان مطلق التصرف في تلك البلاد ان يعفو عن القاتل
كما في رحلة كاردين ورحلة تاورنيه وهذه العادة موجودة ايضا عند
العرب مع انهم من اعظم الامم المشرقية التي كانت قد ترفهت وتقدمت

فى التمدن والتأنس كما فى كتاب تخطيط بلاد العرب للمؤلف دوهر وكان يوجد فى مملكة اراغون سنة ١٥٦٤ قانون لا يأذن لاحد فى صورة القتل بالتوسط فى تخفيف العقاب الا اذا كان ذلك عن رضا اقارب القتيل اوورثته

فاذا تعهد انسان كما ذكرنا بان يكظم غيظه و يطفئ نار حقده ولا يتعرض ابدا لمن تعدى عليه ثم حدث منه بما بعد اظهار معاداة او تعدى على من كان دفع له جريمة لاجل تسكينه او تعدى على اقاربه اوورثته كان يأثم بذلك اثما كبيرا و يعاقب باشد العقاب لان ذلك كان يعد عصيانا كبيرا وخروجا عن طاعة الملك فرتم عقاب من تجاسر على فعله بكل تشديد ادن به الشرع ليكون ذلك زجرا لغيره فبذلك صار الناس لا يتبعون مع الدوام من تعدى عليهم ولا يحقدون عليه ورتبت غرامات شرعية لكل ذنب بحسبه وتحدد الصلح والتوافق بين الناس بملاحظة الملوك ولا يخفى انه فى وقت استيطان الملل المتبربرين باقاليم الامبراطورية الرومانية كان لهم قضاة يحكمون بينهم بقدرة جبرية فعالة حيث كان يجوز لهم جبر من شاؤا على قبول ما يستحسنونه ويفهم من كلام المؤرخين الاقدمين فى مؤلفاتهم انه كان يوجد فى الازمان الاولى قضاة اوقدرة جبرية مثل هؤلاء القضاة كما ذكره دوكنج حق الاحكام الارضية التى كان يزعمها البارونيون الملتزمون لم يكن محض تعديهم لان القادرين من رؤساء الملل المتبربرين بعد دخولهم فى البلاد التى قصدوها جعلوا بعض اخطاط منها عقارات لهم وتملكوها ملكا مطلقا وجعلوا الانعام عليها حق الحكم والافتاء الارضى وصاروا من وقتئذ يجرونه فى اراضيهم وكان افتاؤهم مطلقا يتصرفون به فى جميع الاحوال وقد ذكر المؤلف بوكيت ادلة ذلك موضحة والظاهر ان كل بارون صاحب التزام كان فى الاصل له الحق فى ان يحكم بين اتباعه فى مشاجراتهم وكان ذلك حقا ثابتا له اذ هو الملتزم وصاحب الارض وداخلا امنا فى دفاتر هؤلاء الملل واستندنا لها افادة صحيحة نرى ان الالتزام والافتاء كانا متلازمين كالشئ الواحد لا يوجد

احدهما بدون اذن الآخر حتى كان الانسان ملتزما كان له حق الافتاء وقد اطلعت على وثيقة من الوثائق القديمة اعطاها لمرتبة اللاييك الملك لويز لوديبونير (سنة ٨١٤) تفيد بطريق النص والصراحة ثبوت حق لافتاء الارضى هؤلاء الناس وهناك عدة وثائق اقدم من هذه اعطاها الملك للكنائس والديور وثبت لها مثل هذا الافتاء المتقدم حيث منعت جميع القضاة الملوكية ان يدخلوا فى اراضى هذه الكنائس والديور ويجروا فيها شيأ من الاقضية والاحكام الشرعية ذكره بوكيت وقد ذكر ايضا المؤلف موراطورى عدة وثائق قديمة جدا مشتملة على مثل هذه المزايا لمرتبة اللاييك وللكنائس والديور وفى اغلب هذه الوثائق كان بند فى منع طلب الفردة بالمعنى المتقدم وهذا يدل على ان تلك الفرد كانت من عاجب من الايرادات العمومية اى ايرادات المملكة وكان اذا اقيم عن انسان دعوى تلك الحاكم يصرف فى قضائها مطعا حسبما بحيث كان هذا الامر بمفرده يكفى فى صد الناس من اقامة منازعاتهم او ادامة دعاويهم بموجب الاحكام الشرعية ويفهم من بعض وثائق القرن الثالث عشر ان الملتزم الذى كان له حق الحكم فى الدعوى كانت الفردة التى يأخذها فى ذلك خمس قيمة الشئ الذى هو موضوع المنازعة بين الخصمين فاذا رسى الخصمان بعد الشروع فى عمل دعواهما ان يتصالحا او يقبلا حكما يحكم بينهما فلا ينقذهما ذلك من دفع خمس قيمة الشئ المتنازع فيه للمحكمة التى فتحت بها تلك الدعوى وهنالك قانون يشبه ذلك فى وثيقة الحرية التى اعطيت لمدينة فريبورغ (سنة ١١٢٠) وبموجب هذه الوثيقة كان اذا تشاجر اثنان من اهل تلك المدينة ورفع احدهما شكواه الى ملتزمه او الى محكمة ملتزمه وانفتحت دعواهما ثم تصالح الشاكى مع خصمه جاز للقاضى ان لا يقبل هذا الصلح وان يجبرهما على تتميم دعواهما وكان كل من حضر صلحهما يحرم من انعام الملتزم المتولى امره

ويتعذر علينا الآن ان نحدد على وجه الصحة اتساع دائرة الافتاء الذى كان يتمتع به الملتزمون فى الاصل وانما نقول انه فى مدة الفتن والتقلبات التى حصلت

فى جميع

فى جميع ممالك وروبا عرف كان اتباع الملوك ان يحتسبوا من ملوكهم جميع ما يكفيهم فى ان يوسعوا دائرة اقطاعهم بقدر ما يمكنهم لان هؤلاء الملوك كانوا ضعفاء الشوكة فى تلك المدة فصار الملتزمون الاقوياء من القرن العاشر باختلاسهم هذا لهم الحق فى ان يحكموا فى جميع الدعاوى سواء كانت جنايات او غيرها وجعلوا انفسهم متصرفين فى الاحكام والاقضية الحقيرة والجليلة فى المحاكم الدنيا والعليا فكانت احكامهم بتية لا يجوز الرجوع فيها الى محكمة اخرى كما يدل لذلك عدة شواهد معتبرة ذكرها المؤلف بروسيل ولم يقتصر البارونيون على ذلك بل جعلوا التزاماتهم على نسق الجفالك الملوكية فاحدثوا فيها جميع حقوق الاقطاعات والمزايا الملوكية وقد حصل مثل ذلك فى مملكة فرانسا ولكن ما حصل منها فى ايقوسيا كان اكثر مما حصل فى فرانسا لان شوكة الاشراف الملتزمين فى ايقوسيا كانت قد بلغت الغاية القصوى وتجاوزت الحدود ثم وان كانت شوكة الملوك النورمنديين قد اضعفت فى انكلتره شوكة البارونيين حتى صارت دائرة اقطاعاتهم اضيق من سائر الاقطاعات والاحكام الموجودة فى الحكومات الالتزامية الا انه ترتب فى انكلتره وقتئذ عدة قونتيات بالاطيبية (اى حربية) كان لا يمكن لقضاة الملوكية ان يدخلوا فيها ولا يمكن نفوذ وثيقة باسم الملك فى قونتية منها الا اذا كانت مشتملة على ختم القونتية البالاطيبية فاذا كان اتباع البارونيين الذين جعلوا التزاماتهم جفالك ملوكية يطلبون فى دعوى بالمحاكم الملوكية كان لهؤلاء البارونيين الحق فى منعهم ان شاؤوا ولهم ان يرسلوهم الى ما ذكره بروسيل وكان هذا الحق ثابتا ايضا فى شريعة ايقوسيا وكانت العادة جارية به بحيث ترتب عليه ابطال الحكم وكان منشأ لاغلب الفتن والتعكيرات الكبيرة التى بها اختل نظام المملكة

وحدث فى انكلتره مثل هذه المضار بسبب حدوث انشاء القونتيات البالاطيبية وكثيرا ما استعمل الملوك من الوسائط لاجل الاحتراس من المضار التى كانوا يتوقعونها من هذه الحقوق والمزايا التى اختلستها منهم

فكانت الحقوق والمزايا الملوكية فى ايام الامبراطور كرلوس مانوس وذريته لم تزل قوية واسعة الدائرة حيث كان هناك نوعان من القضاة النوع الاول القضاة المعتادون ويسمون بالقاطنين (لانهم كانوا قاطنين ببلاد مخصوصة) وهؤلاء هم الدوقات والقومسات والنوع الثانى القضاة الغير المعتادين ويسمون بالرسالة (لانهم كانوا ينتقلون من بلدة الى اخرى للبحث والتفتيش) وكل من النوعين كان له فى الاقاليم التى هى تحت ولايته افتاء مساو لافتاء البارونيين فى بعض الاحوال بل وكان افتاؤهم يزيد عن افتاء البارونيين فى احوال اخرى كما ذكره دوكنج واما بعد هؤلاء الملوك فضعف خلفاء كرلوس مانوس وضعف كذلك معهم القضاة الملوكية واخذت شوكتهم فى السقوط ومن ثم اختلس البارونيون الافتاء الواسع جدا الذى تكلمنا عليه آنفا وقد بحث لويز السادس ملك فرانسا عن ترتيب القضاة الرسالة واحيائه وطلبتهم بان يعيد ترتيبهم الاول واقيم بالقضاة المرتبين ولكن كان البارونيون اقويا بالشوكة فلم يسلموا له فى ذلك لما علموا انه يضر بشوكتهم فاضطر الى ترك هذا المشروع ولكن سلك خلفاؤه طرقا اخرى لم تظهر مهولة للبارونيين مثل طريقه التى سلكها ولم يحصل لهم منها خوف بقدر ما حصل لهم من الاولى فرتب هؤلاء الملوك حقا انه يجوز للانسان اذا لم ينصفه ملتزمه ان يقيم دعواه الى اعلا منه ويسمى هذا الحق حق طلب الانصاف وهو اول مشروع نجح فيه الملوك فصار من جملة قواعد الشريعة الالتزامية انه اذا لم ينصف البارون احدا من اتباعه او توانى فى انصافه فلهذا التابع ان يرفع دعواه الى ارباب محكمة هذا الملتزم فاذا لم يكن لهذا الملتزم اتباع كثيرون بحيث تكفى آراؤهم فى ان يحكموا على بعض فى محكمته جاز له ان يرفع دعواه الى محكمة الملتزم الاكبر كذا فى روح الشرائع وقاله ايضا المؤلف دوكنج ثم ان محاكم البارونيين كان اربابها يبلغون غالبا مقدارا جسيما وقد ثبت دعوى جنائية (سنة ١٢٩٩) فى محكمة الويقونت دولوتريك فحضر فيها اكثر من مائتى نفس وكلهم اعطوا آراءهم

عند الحكم كما فى تاريخ لنغدوق ولكن حيث كان حق الافتاء وقتئذ ثابتا
لمقدار جسيم من صغار البارونيين كان فى الغالب لا يمكن لهؤلاء
البارونيين ان يضبطوا محاكمهم فمن ثم اذن باقامة الدعاوى الى اعلا عند
وجود المقتضى وصارت العادة بذلك جارية منتشرة حتى حصل بالتدريج
ان صار الناس يرفعون دعاويهم الى المحاكم الملوكية بعد اتمامها فى اعظم
محاكم البارونيين وذكر المؤلف بروسيل حكاية تؤخذ منه ان القضاة الملوكية
كانوا يرغبون كثيرا فى ازدياد اسباب رجوع الدعاوى اليهم ولكن لا يخفى
ان حق طلب الانصاف المتقدم الذى رتبه الملوك ساعد فى اضعاف افتاء
الاشراف اقل مما ساعد به الحق المسمى بحق الحكم الباطل (اى طلب الانصاف
من حكم باطل لم يراع فيه منهاج الحق) فلما صار الملوك اقوياء واتسعت دائرة
اقتدارهم كثر رجوع الدعاوى اليهم وصارت تلك الدعاوى تعمل بطريقة
تلايم عوايد الناس خصوصا لا تعقد عندهم فكان الاخصام المظلومون
يذهبون الى قصر الملك ويصيحون باعلا صوتهم العدل والانصاف وفى مملكة
اراغون كان اذا رفع انسان دعواه الى الجوستيسيا اى القاضى الاعظم يعلم انه
فى خطر كبير كموت او فضيحة وحشة وكان اذا حضر امام القاضى يصيح قائلا
باعلا صوته اوى اوى فورزا فورزا (اى الاعانة الاعانة الانصاف الانصاف)
ويتضرع لهذا القاضى الاعظم فى اعانته وانقاذ نفسه ثم ان ابطال المحاربة
الشرعية كان ايضا سببا من بعض الوجوه فى احياء عادة رفع الدعاوى الى قضاة
الملك وحيث كان قضاة الملك يعدلون فى محاكمهم ويعتنون كثيرا بالاقضية
والاحكام نشأ عن ذلك طاعة الناس لهم وترتب على هذه الطاعة ثمرات
عظيمة جدا فصارت جميع الدعاوى المهمة تقدم لمحاكم دواوين الملك كما ذكره
(بروسيل) وتجدد فى روح الشرائع جميع الاسباب والاحوال التى اعانت على
استحداث عادة رفع الدعاوى الى القضاة الملوكية وعلى ازديادها وانتشارها
ولكن ليس هناك حادثة اعانت فى هذا الشأن بقدر ما اعان فيه عزم الملوك
ونصحهم على ان يجعلوا فى محاكمهم ودواوينهم الشرعية طريقة معقولة ثابتة

في الاحكام بحيث لا تصعب ابدا ولكن من العوايد القديمة ان الملوك يحضرون في محاكمهم ويحكمون فيها بانفسهم كما ذكره (ماركولف ومورا طوري) فكانت عادة كرلوس مانوس انه في وقت لبسه يحضر الاخصام امامه وبعد ان يسمع شكواهم يفكر في ذلك ليختبر الدعوى ثم ينطق بالحكم فورا ولا شك ان حضور الملك بتلك المحاكم كان يزيد هيبتها ويكسب احكامها اعتبارا فلما حكم الملك سنت لويز الذي فاق غيره من ملوك عصره في تقوية عادة رفع الدعاوى الى المحاكم الملوكية احيى تلك العادة القديمة وصار يحكم هو بنفسه ويدير امر الاقضية والاحكام مع صفاء نيته وحسن طويته والتخلي عن الاغراض قال جوانويل كنت ارى هذا الملك غالبا يجلس في ظل شجرة بلوط في غابة ونسين وكل من كان معه شكوى يدنو منه من غير ان يمنعه احد وكنت اراه احيانا يأمر بفرش سجادة في بستان ويجلس لاجل استماع الدعاوى التي تعرض عليه كما في تاريخ سنت لويز ثم ان الامراء الذين كان لهم حق في المحاكم كانوا في بعض الاحيان يحكمون بانفسهم ولا يتركون محاكمهم فيدل على ذلك امران في تاريخ وفيه ولكن حيث ان الملوك والامراء كان لا يمكنهم ان يحكموا بانفسهم في جميع الدعاوى وكان لا يمكن ايضا ان يحكمهم غيرهم في محكمة واحدة رتبوا نوابا من القضاة في سائر اخطاط دولهم وجعلوا لهم حق الاذن فكانت قدرة هؤلاء القضاة تشبه من بعض الوجوه قدرة القومسات الذين كانوا يحكمون سابقا وقد رتب هؤلاء القضاة في فرانسا في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر كما ذكره (بروسيل) ثم ترتبت هذه المحاكم في الاقاليم امر الملك رعاياه ان يرفعوا دعاويهم اليها واخذ هؤلاء القضاة لخصوص مصلحتهم في توسيع دائرة اقتدارهم واعانهم على ذلك قصد تحصيل الامن العام وتنظيم السياسة فكان اذا حصل في محاكم البارونيين حكم باطل او خال عن الانصاف اتخذه القضاة الملوكية فرصة لهم يستعينون بها على ابطال رفع الدعاوى الى محاكم البارونيين وقصرها على محاكمهم ولا يخفى انه كان يوجد سابقا في المذهب الالترامي فرق بين الفتوى

الدنيا والفتوى العليا حتى ان عدة من البارونيين كان بهم الفتوى الدنيا دون العليا اما العليا فكانت محاكمها منوطة بجميع الكبائر والجنايات الكبيرة الفاحشة ككل مشروع يعود بالضرر على الدولة واما الفتوى الدنيا فكانت مقصورة على الجنايات والذنوب الصغيرة وهذا التباين اعان كثيرا على تعليق الاقضية والاحكام التي كانت تحصل في محاكم البارونيين وعلى تضييقها وعرضها على المحاكم الملوكية

ثم بعد ذلك بقليل ولي حادثة انشاء هؤلاء النواب من القضاة الملوكية حادثة اخرى عجيبة من اهم الحوادث وهي ان عين لديوان الملك العالي او لبرلمان الزمان والمكان اللذان ينعقد فيهما وذلك ان ديوان الملك في فرنسا وغيرها من سائر الممالك الافرنجية كان اولا غير معين المحل بل كان مع الملك حيثما توجه ولا ينعقد الا في بعض مواسم كبيرة معلومة فاراد الملك فيليبش لوبيل (سنة ١٣٠٥) ان يجعل مقر هذا الديوان في مدينة باريس وان ينعقد مدة معظم ايام السنة وصدرت اوامره بذلك مكررا ثم ان هذا الملك ومن بعده من الملوك جعلوا لهذا الديوان العالي قدرة واسعة التصرف واعطوا اربابه مزايا وخصوصيات لا حاجة بنا ههنا وعينوا قضاته من اناس اولي اعتبار مشهورين بالاستقامة والكمال وصلاحيتهم للشرائع والاحكام الفقهية ثم بالتدريج صار برلمان باريس وغيره من البرلمانات التي كانت تحكم باسم الملك في اقاليم مملكة فرانسا لها الحق في ان لا تراجع في شيء مما تحكم به في سائر الدعاوى المهمة ولكن لا يخفى ان برلمان باريس لم تتسع دائرة اقتداره الا مع غاية التراخي لان اكابر اتباع الملك بذلوا جميع جهدهم في تعطيل تقدم احكامه وازدياد شوكته حتى انه في اواخر القرن الثالث عشر اضطر الملك فيليبش لوبيل الى ان منع ديوانه عن ان يقبل شيئا من الدعاوى التي تقدم اليه من دواوين قونتة بريطانيا واقر بنفسه لهذا القونتة بحق الاعتناء الملوكي الذي كان يزعمه القونتة المذكور ذكره (موديس) ثم ان الملك كرلوس السادس اضطر في اواخر القرن الرابع عشر الى ان يثبت باقرار بقي حق هذا الاعتناء

لدوقات ابربطيب وكثيرا ما ارع البارونيون فى رفع الدعاوى الى الدواوين الملوكية حيث كانوا يرون ذلك يضر بمزاياهم وقدرتهم حتى ان بعض المؤلفين ذكر والدلك عدة شواهد يرى فيها ان البارونيين كانوا يحكمون بعقوبات شديدة على من كان يتجاسر على رفع دعوى الى برلمان باريس من الدعاوى التى كانت تفصل فى محاكمهم فكانوا يعاقبون من يفعل ذلك تارة بالموت وتارة بجدع عضو من اعضائه وتارة بسلب امواله واملاكه

وفى الممالك الاخرى الالتزامية حصل للافتاء تقدم يقرب مما حصل فى مملكة فرانسا وذلك ان البارونيين فى انكلتره كان لهم افتاء ارضى واسع من قديم وبعد ان فتح النورمنديون هذه المملكة صارت حكومتها التزامية اكثر مما كان قبل ويعلم من الوقائع المذكورة فى تاريخ انكلتره ومن حادثة انشاء القونتيات البالاطينية التى تكلمنا عليها سابقا ان اختلاس الاشراف حقوق الافتاء بهذه الجزيرة لم يكن اقل من الاختلاس الذى حصل وتقدم فى الاراضى القدرة من اوروبا والوسايط التى استعملت فى انكلتره لاجل تضييق دائرة هذا الافتاء الخطر او ابطاله بالكلية هى نفس الوسايط التى استعملت فى غيرها فان غليوم لوكونكيران رتب فى قصره ديوانا لذلك وجعله دائما مستقرا ومن ثم نشأت المحاكم الاربعة الموجودة الى الآن فى انكلتره واما هرى الثانى فقسم انكلترة الى ستة اخطاط وارسل فيها قضاة رحالة وعين لهم ازمانا يعقدون فيها مجالسهم ورتب من حكم بعده من الملوك فى كل قونتية قضاة يقال لهم قضاة الصلح فصار افتاء هؤلاء القضاة يتسع شيأ فشيأ حتى صاروا يستفتون فى كثير من الدعاوى المدنية ثم ان مزايا القونتيات البالاطينية تناقصت شيأ فشيأ حتى بطلت بالكلية فى بعض محال وانتقل تدبير الاقضية والاحكام الى المحاكم الملوكية اوالى قضاة معينين من طرف الملك وقد ذكر المؤلف داليرمبلو الوسايط التى استعملت لاجل التوصل الى هذا المأرب

ثم ان الاختلاس الذى ارتكبه الاشراف فى الحقوق الامتيازية فى ايقوسيا كان نشاء عما حصل فى غيرها من الممالك الانكليزية ولكن التقدم الذى حصل لهذه الاختلاسات والوسائط التى استعملها الملوك لاجل تحديد وابطال امتيازات البارونيين الارضية واستقلالهم حيث كانت كلها تقرب مما ذكرناه آنفا وقد اطنبنا فى هذا الشرح فى كتاب آخر من مؤلفاتنا

ولا نذكر على وجه التدقيق التقدم الذى حصل للامتيازات فى الامبراطورية الجرمانية لان ذلك يجرنا ونقرانا كتابنا هذا الى التوغل والعرق فى لجج بحور الفقه والشرائع الجرمانية والغريب فى ان ننبه هنا على ان الشوكة التى تتمتع بها الآن المشورة العليا فى الامبراطورية وتتمتع بها ديوان الامبراطور لم تحدث الا بسبب اختلاس البارونيين الامتيازات الارضية وكان تعاظم هذه الشوكة على نسق ما حصل للحكام الملوكية فى الممالك الاخرى وذكر المؤلف بفيفيل اصول الاصلية من هذه الشريعة فى كتابه المسمى مختصر تاريخ المانيا وحقوقها العمومية وذكرها ايضا المؤلف لوكوكدولن فى كتابه المسمى الحقوق العمومية للامبراطورية الالمانية وهذان الكتابان يوثق بهما كثير الا انهما الفا باطلاع رجل ماهر من مشرقى المانيا وهو المعلم سكوبفلان دومشبورغ

المبحث الرابع والعشرون

فى بيان مطلب كون صورة الفقه القسيسى اكمل من الفقه السياسى المدنى صحيفة (٦٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

يعسر عليك ان تبين على وجه الصحة الزمن الذى طلب فيه القسيسون معافاتهم من الافتاء المدنى لانه فى مدة حينية للكنيسة الاصلية كان القسيسون لا يزعمون استحقاق مثل هذه المزايا فكانت اوامر القضاء المدنى جارية على جميع الناس على اختلاف طوائفهم ومعه ولا يهاف فى سائر انواع الدعاوى كما برهن على ذلك مؤلفو البروتستانتيين ومشاهير مؤلفى القاثوليقيين

اروماتيين لاسماء المؤلفين الذين كانوا يحامون عن حرية الكنيسة
الغاليكانية اى الفرنساوية

وقد نقل المؤلف موراطورى فى كتابه عبارات عديدة يستدل بها على ان
دعاوى القسيسين المهمة جدا كانت فى القرن التاسع والعاشر تحصل على
ايدى القضاة المدنية وشواهد ذلك ايضا فى كتاب الشرائع القديمة التى كانت
عند الفرنساوية وغيرهم للمؤلف هوارد ولم يخرج القسيسون عن الانقياد
للاقضاء المدنى دفعة واحدة وانما نالوا هذه المزية فى سائر ايامهم الاخرى على
التدريج والظاهر ان معافاتهم من هذا الاقضاء فى الاصل كانت من باب
التفضل والانعام لان القسيسين كانوا اولا مكرمين محترمين فى ذلك
ان الامبراطور كرلوس ماينوس (سنة ٧٩٦) كرامة لكنيسة ماديس امر القضاة
بانه ان حصلت منازعة بين انسان البابا كان ونحو من نظار ايرادات هذه
الكنيسة لا يطلبون هؤلاء النظار عن رؤس الاشهاد بل يلزم اولا ان يتحرر
بانهاء المشاجرة بين الخصمين على وجه لا يضر باحد من هؤلاء النظار فصارت
هذه الرخصة التفضلية فيما بعد معافاة شرعية او حق لازم ناشئ عن جهل
العوام واحترامهم للقسيسين ووظائفهم وما يتعلق بخدمتهم ومما يدل على هذا
الاحترام ما صدر عن الملك افريدريق ربوروس (سنة ١١٧٢) من منع
القضاة الملوكية ان يتعرضوا لقسيسى دير اشبورغ ويمكروا عليهم فى افعالهم
ولا حاجة لنا فى توضيح ما ذكرناه فى الاتحاف مما يتعلق بهذا الباب ان نبين هنا
كيفية جمع الحقوق القانونية من الكتب ولا ان نبين ان هذه القوانين التى
كانت اكبر معين للقسيسين مؤسسة على الجهل والكذب او مستندة الى التزوير
والتدليس لان هذه الاشياء توجد موضحة فى تاريخ الشرائع والقوانين
القديمة للمؤلف جيراردو وتوجد ايضا فى كتاب المعلم ربادنير وان كان ذكر
تاريخ التقدمات التى بها اتسعت دائرة الاقضاءات القسيسية مع بيان
الحيلات التى استعملها القسيسون ليجلبوا اليهم اصل سائر الدعاوى لا يرغب
فيه اقل من غيره من الامور الغريبة حيث انه يوضح لنا عوايد تلك الاعصر

الجاهلية

الجاهلية وبين لنا غوايتها واختلافها الا ان ذلك خارج بالكلية عن موضوعنا وقد جمع المؤلف دوكنج اغلب الصور والدعاوى التى ادعى القسوس ان الاختصاص لهم دون غيرهم وبين الوثائق التى استند عليها والمؤلفين الذين نقل عنهم وذكر المؤلف جياون هذه المواد فى تاريخه المدنى لمملكة نابلى وتكلم على ادعاآت الكنيسة مع التعقل والوقوف على الحقيقة كما هو عادته ونبه المؤلف ملورى ايضا على ان القسيسين ما زالوا يتزايدون فى ابتداعهم وتغلبات وسعوا ايضا دائرة شوكة المحاكم القسيسية حتى امكنهم ان يمنعوا جميع الناس وسائر الدعاوى عن الاقضاء المدنى نعم وان كان الاقضاء القسيسى واهى الاساس ولا يخلو عن الظلم والجور الا ان اصوله وطرقه العقلية كانت اكمل واحسن من الاصول التى كانت جارية بها العادة فى المحاكم الفلايكية ومن المعلوم ان القسيسين مكثوا بعض قرون من الاجيال الوسطى لا يستطيعون شيئا من قوانين الملل المتبربرة وشرائعهم بل كانوا محكومين بموجب الحقوق الرومانية وكانوا يحررون جميع مصالحهم على حسب اصول الشرائع الرومانية التى وصلت اليهم بالروايات او كانت موجودة فى شريعة تيودور وغيرها من الكتب القديمة وذلك ثابت ايضا بعادة كانت جارية عند كافة الناس فى تلك الاعصر وهى انه كان يجوز لكل انسان ان يعمل بموجب ما يريد من القوانين والشرائع التى كانت جارية وقتئذ فى الدعاوى المهمة كان يجب على الفريقين المتخاصمين ان يبينا الشريعة التى يريد ان العمل بموجبها لتفصل دعواهم بموجب اصول هذه الشريعة وشواهد هذه العادة كثيرة جدا فى وثائق الاجيال الوسطى ولكن كان القسوس يعدون من جملة مزاياهم اللازمة روحا وذاتيا لمرتبتهم انهم يحكمون بموجب الحقوق الرومانية حتى انه اذا دخل معهم انسان فى خدم الدين المقدسة وجب عليه ان يجحد شريعته التى كان عليها اولا ويلتزم باتباع الشريعة الرومانية من حين تقلده بالوظائف القسيسية

وفى القرن التاسع شرع الناس فى جمع قوانين الحقوق القسيسية ومضى

مائتا ســنة قبل ان يجمع شيء من العوايد التي صارت اساسا للاحكام والاقضية في محاكم البارونيين ودواوينهم فكان قضاة القسيسين يعملون بموجب شرائع مسطرة عندهم معروفة بخلاف قضاة اللايك اى العوام فلم يكن لهم قانون يرشدهم بل كانوا يسلكون على حسب عوايد ورسوم نقلت اليهم بطريق الروايات فكانت مبهمة غير اكيدة عندهم حيث لم يكن لها قوانين مسطرة وزيادة على ذلك كانت اصول الحقوق القسيسية وقواعدها اقبل عند العقل واقرب للصواب من الاصول التي كانت جارية في المحاكم اللايكية واكثر صلاحية منها في شأن المحافظة على العدل في الاقضية والاحكام وقد تقدم في المبحث الحادي والعشرين والثالث والعشرين عند الكلام على الحروب الشخصية والاختبار بالمحاربة الشرعية ما يفهم منه ان ذوق القسيسين وقوانينهم كانت تمج هذه العوايد التي لم ينشأ عنها الا سفك الدماء واعدام العدل والانصاف وسبق ايضا ان القسيسين بذلوا جهدهم في ابطال هذه العوايد الجنونية ونحو بعضها بفصل الدعاوى على مقتضى الشرع وبالاختبار بموجب الشهادة ثم انه في المحاكم اللايكية كانت القوانين والرسوم التي تنتظم بها الدعاوى الشرعية تكاد ان تكون كلها مقتبسة من القوانين القسيسية حتى ان الملك منت لوير احدث في قوانينه بعض قوانين جديدة في شأن كيفية ملك الاراضي وادارة المحاكم اخذها من القوانين القسيسية وبذلك اعتمدها الناس ووثقوا بها مثلا استنبط من القوانين القسيسية القبض على امتعة المدين حتى يقضي ما عليه من الدين وكذلك بيع اموال المفلس واستنبط ايضا ما بني عليه قانونا جديدا في شأن اموال من يموت من غير ايصاء وجميع هذه القوانين النافعة وغيرها اقتبسها مشرعو القسيسين من الحقوق والقوانين الرومانية وهناك شواهد كثيرة نفيسة غير ما ذكر ترجح القوانين القسيسية على قوانين المحاكم اللايكية ولذلك كان الناس يعتبرون ان من اعظم المزايا اتباع الاقضاء القسيسي ومن جملة المزايا والخصوصيات التي اغرت الناس واستمالت قلوبهم الى اختصام اموال

حروب بلاد القدس الاعلان بان من يأخذ الصليب ويدخل فى تلك الحروب الصليبية لا يحكم عليه من الآن فصاعدا الا فى المحاكم القسيسية وهذا الامر كان من اعظم الاسباب التى اغرت وقتئذ وحثت الناس على المبادرة الى المحاربة الصليبية (راجع المبحث الثالث عشر)

المبحث الخامس والعشرون

فى بيان مطلب ما نتج من مطالعة الحقوق الرومانية من الامور المفيدة المهمة بصحيفة (٧١) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

من العجيب ان العلوم والقوانين الرومانية صارت تدرس فى سائر بلاد اوروبا مع السرعة الغريبة وذلك انه فى مدينة املفى (سنة ١١٣٧) عثر على نسخة من شريعة البندكت التى جمعها الملك جوستنيان وبعد ذلك بقليل من السنوات فتح المعلم ابرنيوس فى بولونيا مدرسة لتعليم الحقوق المدنية وفى اثناء هذا القرن صارت هذه الحقوق المدنية يتعلمها الناس فى عدة مدائن من مدن فرانسا وصارت من جملة العلوم السكولاستيكية (اى التى تقرا فى المدارس) ومن (سنة ١١٤٧) اخذ المعلم واكريوس فى تدريس الشرائع المدنية بمدينة اوكروفورد (وفى سنة ١١٥٠) ظهر فقيهان من ميلان كتبا قوانين الزامية على نسق الشرائع الرومانية وفى هذه السنة صحح المؤلف كراتيان قانون الشرائع القسيسية واضاف اليها زيادات كثيرة واقدم قوانين الشرائع القسيسية هو القانون الذى كان يعمل بموجبه فى المحاكم والمجالس الشرعية وهو القانون الذى رتب فى المجالس القسيسية التى انعقدت فى مدينة انقرة وهذا القانون جمع (سنة ١٠٩٩) كما يستفاد ذلك من خطبة كتابه وكان سبب ذلك انه حصلت عدة مقتضيات احوال خصوصية دعت الناس الى جمع هذا القانون وجعله فى كتب مخصوصة فلما انتصر النصارى فى الحروب الصليبية استوطنوا فى تلك البلاد الاجنبية فتكونت من جميع ملل اوروبا بهذه البلاد قبيلة جديدة فاتفقوا على النص اللازم الضرورى

ان ترتب الشرايع والعوايد التى تنتظم بها جميع المصالح المدنية وادارة المحاكم والدعاوى الشرعية ولكن لم يكن يوجد وقتئذ شئ مسطر من العوايد بل ولم يكن هناك احد فى بلاد اوروبا بتمامها شرع فى ترتيب شرائع معينة فاول من شرع فى هذا الشان هو المعلم غانوبل الذى [illegible] رئيس المحاكم فى مملكة انكلترة فالف قانونه (سنة ١١٨١) وبعده [illegible] ظهر فى بقوسيا قانون جديد ينسب الى داود الاول وكان هذا القانون على [illegible] غانوبل كلمة بكلمة بحيث لا يفيد اريد منه [illegible] فى هذا القانون المنسوب الى داود المذكور ان بطرس دوفونتين [illegible] اول من شرع فى مملكة فرنسا فى عمل قانون من هذا القبيل الف [illegible] على عوايد بلاد ورمندواس فى ايام حكم الملك سنت لويز تاوله (من سنة ١٢٢٦) وفى هذا الزمن كان يوجد المؤلف بومنوار الذى ضمن كتابه عوايد بلاد البوفرزيس ثم نشرت قوانين الملك سنت لويز بامره وكانت مبينة بيانا شافيا للعوايد التى كانت فى بلاد الجفالات الملوكية فبمجرد ما عرف الناس اهمية تسطير الشرائع والعوايد وتقييدها بالكتابة لما انها تنفعهم وتعينهم فى كل حال صارت عادة جميع الناس تحرير كل عادة حدثت وتسطير كل شريعة ظهرت ثم ان كرلوس السابع ملك فرانسا امر (سنة ١٤٥٣) بجمع الشرائع التى اوجبتها العادة فى كل اقليم من اقاليم فرانسا كما ذكر ذلك المؤرخ ويلى والمؤلف ويلاريت فى تاريخ فرانسا واوجد هذا الامر من تولى بعده وهو الملك لويز الحادى عشر ولكن لم يكن تتميم هذا المشروع المهم العظيم الفائدة على ما ينبغى ولو تم ما امر به هذان الملكان العاقلان لكانت الشرائع الفرنساوية القديمة منقحة ومهذبة اكثر مما عليه الان وهذه العادة كانت جارية فى القرون الوسطى تدل دلالة واضحة على ان القضاة لما لم يكن عندهم وقتئذ من القوانين التى بموجبها يقضون احكامهم ويفصلون الدعاوى الا عوايد ليست مكتوبة كانوا غالبا يتحيرون فى امرهم عند ترتيب الاسباب والاصول التى يبنون عليها احكامهم فكانوا فى كل امر مريب او مشكل يجمعون عدة رجال من الشيوخ الهرمين ويعرضون عليهم

الدعوى وسألوهم عما جرت به العادة فى مثل هذا الامر وكانت هذه العادة تسمى بحث الجم الغفير ذكره دوكنج ولا يخفى ان النتائج التى ترتبت على تجديد الشرائع الرومانية كما هو موضح فى روح الشرائع للمؤلف مونتسكيو وفى تاريخ انكلترة للمؤلف هوم وقد استعد بافوائد كثيرة من عباراتهما واى انسان يتبع من هذين المؤلفين و تاليفه ويجيء على منوالهما من غير ان يستفيد و ينتج ولكن نقول ان معرفة الشرائع الرومانية لم تكن مفقودة بالكلية فى القرون الوسطى ببلاد اوروبا كما يظنه اغلب الناس وليس من موضوعنا ان نبحث عن هذا الامر الذى قد يجمع اغلب وقائعه المؤلف دوبانو ونيبادسى

ولا شك انه كان هناك علاقة اكيدة فى عدة من بلاد اوروبا بين الشرائع المدنية العمومية والشرائع البلدية او الارضية الخصوصية ومع انه فى انكلترة كان يظن ان القوانين التى اوجبتها العادة مخالفة بالكلية للقوانين الرومانية وكان من يمارس فى انكلترة القوانين التى اوجبتها العادة يفتخر بوجود الفرق بينهما نقول ان تلك القوانين الاكثر بها مشتملة على كثير من اصول القوانين المدنية الرومانية وقواعدها كما يوجد ذلك موضحا فى كتب بعض المؤلفين العارفين

المبحث السادس والعشرون

فى بيان مطلب النتائج التى نشأت للعصبية من هذا التغيير صحيفة (٧٢) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ثم ان تاريخ القرون الوسطى بجميع اجزائه يدل على ان الاشراف لم يكن لهم صنعة سوى صنعة الحرب التى هى الغرض الاصلى من تربيتهم بل بعدما تغيرت الاخلاق وصار للعلوم والفنون موقع فى قلوب الناس مكث الاشراف زمنا طويلا على الاخلاق القديمة وصفاتهم المميزة لهم ويوجد فى كتاب المؤلف فلورنجوس جميع الاشغال والرياضات والتمرينات التى كان يشتغل بها الملك فرنسيس اوفرنسوا الاول فى صباه فاذا تأملتها علمت ان القصد منها جعله

محب [illegible] مصارع وانما احب هذا الملك جميع الآداب والفنون المستظرفة لانه كان صحيح العقل والمزاج سليم الذوق لان ذلك ناشئ عن تربيته واقوى ما برهن به على ان الصنايع لم تكن مرعية ولا معتبرة عند بعضها ببلاد اوروبا في القرون الوسطى كما ينبغي هو اخلاق اعيان [illegible] بالنظر الى شان القسيسين الدينيين وطبعهم كان بينهم وبين [illegible] العوام فرق كبير كان طائفة [illegible] معايرة لطوائف بقية الاهالي وكان هؤلاء [illegible] المناصب [illegible] ممتازين حسبا ونسبا ومع ذلك كانوا لا [illegible] يسعون على منوال الاشراف في عوايدهم و[illegible] وكانوا لا يمتثلون لاوامر البابا ولا لقوانين الجمعيات القسيسية وكانوا يحملون الاسلحة ويقودون اتباعهم الى الميدان لمحاربة اعدائهم وقل ان عرفوا ان الوظائف القسيسية ممتازة عن غيرها بل كانوا يظنون ان العلوم العسكرية والفنون الحربية هي وحدها اللايقة لشرفهم وعظم مقامهم واما العلوم التي بها تكون معرفة الله بصفاته ومعرفة الفضايل الجيدة التي هي اليق وانسب للوظائف الدينية فكانت عندهم محتقرة منسية

ولما عرف الناس عظم العلوم الشرعية واهميتها وصارت تقرأ وتدرس وصارت جارية عند الناس صار من يتخذها صنعة له ويفوق الاقران فيها يكتسب انواع الشرف والامتيازات التي لم تكن تعطى قبل ذلك الا لكل عارف بالعلوم العسكرية والفنون الحربية وحيث ان مرتبة امارة الشوالري مكثت عدة قرون وهي تكسب من دخل فيها اعظم الشرف واجل الامتياز وكان لا يثبت للانسان مزايا هذه الامارة لا بمقامه ورتبته ولا بكونه كريم الاصل شريف الحسب والنسب جليل القدر من يوم ولادته بل كل من نجب وظهرت براعته في معرفة الشرائع رقي الى مرتبة الشوالري وساوى من حاز الاحترام والاعتبار بفضله وبراعته في العسكرية فصار الشرف منوطا بكل من العلوم الشرعية والفنون الحربية واذا كان قاض من القضاة

يبلغ درجة مستحسنة فى اجراء الشرائع والاقضية كان ذلك يكسبه حق فى جميع مزايا امارة الشوالرى وما يترتب عليها من الشرف وحوز الامتياز كما ذكره [illegible] دوسنتمارى وحيث كانت معرفة القوانين [illegible] الشرف والامتياز صار لها اعتبار كبير [illegible] رتق الى اعلا درجات الجمعية ومراتبها [illegible] الفنون الحربية

[illegible] والعشرون

فى بيان مطلب [illegible] من هذا الترتيب بصحيفة (٧٤) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لا يخفى ان معظم قصدنا من هذه المباحث هو ان نطلع من قرأ كتابنا هذا على جميع الوقائع التى تبين او تثبت بعض محال من تاريخنا ولكن اذا كانت هذه الوقائع مشتتة فى كتب عديدة او غير مشهورة او يعسر مراجعتها رأينا ان الاحسن جمعها او التقاطها من اصولها بخلاف ما اذا كانت هذه الوقائع موجودة فى كتب مشهورة او جديرة بان تكون مشهورة فانا نكتفى بان نحيل عليها من قرأ كتابنا وهذا هو ما سلكناه فى شأن توضيح امارة الشوالرى بجميع الوقائع والاحوال التى ذكرناها فى الاتحاف وعدة خصوصيات اخرى غريبة من خصوصيات هذه الامارة مذكورة فى كتاب امارة الشوالرى القديمة المعتبرة كما انها حادثة سياسية وحربية للمؤلف دولاكورن دوسنتوپالى

المبحث الثامن والعشرون

فى بيان مطلب تأثير المعارف فى الاخلاق بصحيفة (٨٠) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

اعلم ان المقصود من ابحاثنا لا يستلزم ان نذكر هنا تاريخ تقدمات العلوم فى ذلك

العصر ومن تقدمه من الوقائع والمحاورات يكفى فى بيان مدخلية مقدمات
هذه العلوم فى تحسين اخلاق الجمعية وما ألفه وفى مدة ما كانت شموس العلوم
كاسفة بالكلية فى غرب اوروبا كانت مضيئة بمدينة القسطنطينية وغيرها
من بلاد الامبراطورية اليونانية الآن [illegible] بسبب دقة عقولهم تفرغوا
بكليتهم الى المناقشات فى الامور [illegible] فى ذلك
وسائر اهالى اوروبا اكتسبوا من اليونانيين [illegible] وعلومهم وكان
اليونانيون ايضا اسبق من ال[illegible] صنف فيها الحكماء
والفلاسفة ولم تزل الى الآن شاهدة [illegible] وافكارهم
(انظر ما قاله اوماس طوبوس وما ذكر فى تاريخ آداب فرانسا) وبعد ان ترتبت
دولة الخلفاء فى بلاد المشرق بقليل من الزمن ظهر من بينهم عدة ملوك اقاموا
شعائر العلوم ورغبوا الناس فى ممارستها ولكن لما التفت العرب الى علوم
اليونانيين والرومانيين الادبية القديمة وجدوها غير حماسية لان اليونانيين
والرومانيين اهل ظرف ورقة ذوق بخلاف العرب فان عقولهم وتصوراتهم
حماسية تميل بطبعها الى الحماس والتصورات العريضة البليغة فكان
لا يعجبهم شعر مدينة اثينا ومدينة رومة وما فى نحوهما ولكن كانوا يعترفون
بنجابة حكمائهما وفلاسفتهما فكانت اصول علم الميزان عند اليونانيين
والرومانيين اكد وامكن من القواعد الادبية والتخيلية وذلك لان من المعلوم
ان تأثير الحقيقة فى العقول واحد لا يتفاوت تقريبا بخلاف التصورات
الظريفة او الرقيقة او الحماسية فانها تختلف باختلاف الاعصار ولذلك اهمل
العرب ما الفه اوميروس من الاشعار والآداب وترجموا الى لغتهم تأليف
مشاهير فلاسفة اليونان فلما اتبعوا هؤلاء الفلاسفة وسلكوا على نسق قواعدهم
واستكشافاتهم تفرغوا بالكلية للعلوم الهندسية والفلكية والطبية وعلم
المنطق وعلم ما وراء الطبيعيات وهى الالهيات فحصل لهم تقدم كبير
فى العلوم الهندسية والفلكية والطبية ووقفوا منها على فائدة جليلة فاعانهم
ذلك كثيرا على الترقى والصعود الى درجة العلو والكمال التى وصلوا اليها من

وقلدوا امائل الآخرين وهما علم المنطق وعلم الالهيات فقد اتخذوا ارسطاطاليس منهاجا لهم فاقتفوا اثره وزادوا من عند انفسهم امورا دقيقة على التدقيقات والمناقشات التى اشتهر بها هذا العلم حتى [illegible] ان [illegible] بالكلية وصار لا مفهوم بهما وقد حصلت شهرة كبيرة للمدارس التى جددها العرب [illegible] المشرق لمدرسة العلوم والفنون وتبعهم فى الميل الى العلوم ولا [illegible] مصر [illegible] واسبانيا وفتحت فى تلك البلاد مدارس لم تكن [illegible] مدارس بلاد المشرق بكثير ومن اشتهر فى العلوم من جميع الامم [illegible] والثالث عشر كان اغلبهم قد تعلم من العرب كما استشهد لذلك المؤرخ روكبر بشواهد كثيرة فى تاريخه وبالجملة فمضت عدة قرون وجميع العلماء المشهورين يكتسبون معارفهم من بلاد العرب التى كانت مدارس يتعلم فيها الخاص والعام واول معرفة الناس فى القرون الوسطى بفلسفة ارسطاطاليس كانت بواسطة معرفة تراجم مؤلفاته باللغة العربية حيث كان ترجموا العرب معتبرين وقتئذ كانهم اعظم مرشد واعجب دليل فى معرفة مذهب ارسطاطاليس ذكره كوزن فى تأليفه وكذلك مورالطورى وعن العرب اخذ العلماء العارفون بعلم الكلام السكولاستيكى اى الذى يقرأ فى المدارس قواعدهم واصولهم الفلسفية التى نشأ عنها تأخير تقدم الفلسفة الحقيقية الصحيحة

ثم ان انشاء الكوليجات (المدارس الكبيرة) والاونيورسيات (الجمعيات التى فيها كليات العلوم) من اهم حوادث تاريخ العلوم الادبية وذلك انه فى مكاتب الديور والكتدرالات اى امهات الكنائس كانوا يعلمون علم النحو وكان كل مكتب فيه مدرس واحد او اثنان فقط لتعليم هذا الفن واما الكوليجات فكانت مشتملة على عدة مدرسين معدين لتعليم كل علم وفن وكان فيها رئيس كل علم منتسبا وكانت تعمل بها امتحانات لمعرفة تقدمات الطلبة وكل من ظهرت نجابته شهد بفضله على غيره كوفئ بالقاب ومراتب وتشريفات اكدمية (اى علمية) والذى نقل الينا اصل هذه المراتب وكيفيتها هو المؤلف

باكستبرو المؤلف وسفانى وهنالك بعض تفاصيل غير مفيدة مبينة للمراتب
الاكدمية التى كانت (سنة ١٢١٥) فى اونيورسة مدينة باريس التى
اخذتها اونيورسات بلاد اوروبا على عوايدها وقوانينها كما ذكره كرو
مؤلف تاريخ اونيورسة باريس وقد كمل ترتيب هذه الاونيورسات
والكوليجيات (سنة ١٢٣١) ولا فائدة فى استقصاء هنا لمزايا عديدة اعطيت
اذ ذاك للمدرسين والمعلمين والعلماء لان المقصد الواحد محقق فى بيان
الاعتبار الذى كان يتمتع به العلماء فى سائر الجمعيات العلمية فنقول انه كانت
تحصل منافسات بين العلماء وبين امراء الشوالرى فى شأن التصدر وكان
ينتهى الامر فى الغالب بترجيح العلماء وترقيتهم الى مرتبة امارة الشوالرى مع انها
امارة عظيمة قد ذكرنا مزاياها وخصوصياتها فيما تقدم بل وحكم ان العالم له
الحق فى ان يلقب باسم الشوالرى من غير ان يقتضى لان يكون من اربابها وقد
ذكر المؤلف برطول ان العالم الذى درس الحقوق المدنية مدة عشر سنوات
كان يعد من امراء الشوالرى وامارة العلماء الشوالرية كانت تسمى الشوالرى
الدكتور (اى العلمية) ومن كان يبلغ درجتها من العلماء كان يسمى
الشواليه كارك (اى الامير العالم) ثم كثرت المدارس والاونيورسات وازداد
شرف العلماء وجلت مزاياهم وبهذا كثر الطلبة واتوا الى المدارس العالية من
كل فج عميق حتى ان اونيورسة مدينة بولونيا (سنة ١٢٦٢) كانت تشتمل
على اكثر من عشرة الاف من التلامذة مع انه يفهم من تاريخ هذه
الاونيورسة انه لم يكن يدرس فيها حينئذ الا علم الحقوق بمفرده واما اونيورسة
مدينة اوكزوفورد فكان فيها (سنة ١٢٤٠) ثلاثون الفا من الطلبة كما ذكره
سييد وفى ذلك القرن اضطربت الآراء فى مسئلة باونيورسة باريس فاجتمع
عشرة آلاف من العلماء فى تلك الاونيورسة لاجل حل هذه المشكلة وهذا القدر
لم يكن الا من ارباب المراتب لان حق ابداء الرأى لم يكن ثابتا وقتئذ الا لارباب
الرتب فعلى ذلك كان مقدار الطلبة يبلغ مقدارا عجيبا ذكره ولى فى تاريخ فرانسا
ثم وان لم يكن فى اوروبا وقتئذ الا قليل من الاونيورسات الان مقدار الطلبة

يكفى فى اثبات الغيرة والتولع العجيب الذى كان يحث الناس على ممارسة العلوم ويدلنا على ان الناس كانوا قد اخذوا حينئذ فى اعتبار عدة فنون وصنايع اخرى غير صنعة الحرب عرفوا نفعها بعد ان كانوا لا يعتبرون الا الفنون الحربية

المبحث التاسع والعشرون

فى بيان مطلب تأثير التجارة فى الاخلاق والحكومة بصحيفة (٨٠) من التمم
ذيل من تعاليق المؤلف لاليا

ثم ان المواد التى بيناها والمواد التى تصدينا الآن لبيانها واسعة ومتنوعة جدا بحيث يصح ان ننقل قول المؤلف مونتسكيو حين اخذ يتكلم فى كتابه على التجارة ان المواد الآتية تستلزم ان يتكلم عليها بازيد مما ذكرناه ولكن موضوع كتابنا لا يتحمل ذلك فاردنا ان نسير على نهر راكد فاجذبنا الى سيل عرم انتهى

وفى التاريخ شواهد كثيرة تدل على ان الامم فى القرون الوسطى لم يكن بينهم من المواصلات والمعاشرات الا علاقات ضعيفة فمن ذلك ان بوشارد فى اواخر القرن العاشر اراد ان يبنى ديرا فى قرية سود يفوص بقرب مدينة باريس فذهب الى رئيس دير كلينى فى بورغونيه المشهور بالتقوى والصلاح وخاطبه بخطاب عجيب راجيا منه ان يأتى لهذا الدير برهبان تحت يده اى فساعدت سفرا طويلا وارتكبت فيه مشقة فادحة وقد تعبت كثيرا من طوله فبناء على ذلك ارجو من القديس اجابة سؤالى بحيث لا يكون سعيى الى هذه البلاد البعيدة خائبا فاجابه القديس بجواب اعجب من سؤاله وهو انه منعه صراحة عما يطلبه متعللا بانه يشق جدا الذهاب معه الى اقطار غريبة لا يعرفها من يذهب اليها ذكره بوكيت وفى ابتداء القرن الثانى عشر كان رهبان دير قرية فرييه فى ابرشية سنس لا يعرفون انه يوجد فى بلاد فلمنك مدينة تسمى تورنى وكان رهبان مدينة دير تورنى يجهلون ايضا فى اى الجهات تكون فرييه ولم يحصل

بيوم مخالطة فبعد الايام مصلحة كانت بين الديرين فلما احتاج هذان
الديران الى بعضهما اخذ يبحث كل منهما عن الآخر ليعرف فى اى جهة
يكون وبعد البحث الطويل الذى اطنب فى بيانه المؤلفون عرف كل منهما
الآخر لكن على سبيل الصدفة والاتفاق كما ذكره هيرغانوس والمؤلف
دشورى وكان جهل امم القرون الوسطى بالجغرافيا وبوضع البلدان البعيدة
عنهم كبيرا جدا فكانوا لا يعرفون شيأ من الممالك والمسالك واقدم خرطة
جغرافية معروفة لنا الآن توجد فى نسخة من تاريخ القديس دنيس وهى
اثر يستدل به على حالة العلوم الجغرافية التى كانت فى بلاد اوروبا مدة تلك
الاعصر فترى فى هذه الخرطة اقسام الارض الثلاثة التى كانت معروفة
وقتئذ والثلاثة موضوعة بحيث ان مدينة القدس توجد فى وسط الكرة
واسكندرية قريبة منها كمدينة نازاريت والظاهر انه فى تلك الاعصر
الجاهلية كان لا يوجد بالبلاد خانات ولا منازل عمومية للمسافرين كما
ذكره مورالطورى وهذا دليل على انه لم يكن هناك الاضافة واهية بين
الملل ولا يخفى انه عند الامم الذين يكونون على اصل الفطرة ولا يأتى
الى بلادهم انسان اجنبى الا نادرا نجد اكرام الضيف من اعظم الفضائل
ونجد فى كل جمعية قليلة التمدن كجمعيات القرون الوسطى اكرام الضيف
من الواجبات الحتمية لانهم كانوا يميلون الى ذلك بطبعهم وجبلتهم او بكرمهم
وسخائهم ولذلك كان اكرام الضيف عندهم واجبا بالشرع ومن يأباه يحكم
عليه بعقوبات معلومة   ومما ينبغى الالتفات اليه انه بعد ترتيب شريعة
البوركيون بزمن مستطيل اعنى فى زمن اخذ السياسة والترتيب فى الاستكمال
زاد مقدار الجرائم المقدية التى كانت تؤخذ قبل ذلك الزمن ممن كان يأبى
اكرام الضيف وهناك شرائع اخرى فى هذا المعنى جمعها المؤلف بولانك
ولا يخفى ايضا ان شرائع امة السكلاوون فى هذا الشان اصعب من الشرائع
التى ذكرها هذا المؤلف   فكانت هذه الشرائع تأمر بحرق بيت من يأبى
اكرام الضيف وضبط امتعته واموالها الى بيت المال وكانت ترفق بالغرباء

حتى وصلتها تلك المروءة ان اذنت لصاحب البيت بالسرقة لاكرام ضيفه على ما ينبغى وبناء على تلك الشرائع وحالة الجمعية التى كانت تجعلها الازمنة كان اكرام الضيف محتما مشددا فيه مادام بين الناس روابط واختلاطات قليلة فكان كل غريب أوى الى بيت ايا ما كان يتيقن انه يرحب به ويحسن قراه والذى يدل زيادة على ان المخالطات بين الناس كانت قليلة هو انه بمجرد ما اتسعت المخالطات بين الناس صار اكرام الضيف ثقيلا بعد ان كان لا تسأم منه النفوس بل كان فيه حظها وسرورها وصار دخول السواحين فى كل بلدة من فروع الكسب المفيدة لاهلها

ثم ان شرائع القرون الوسطى برهان قطعى على قلة المخالطات التى كانت توجد وتنعقد بين الملل لانه بقوانين المذهب الاقطاعى والغيرة التى لا تنفك اصلا عن الجهل كان الارباب يأبون من اسقاطهم خروج بلادهم فاذا كان احد ينتقل من اقليم الى آخر ولو فى مملكة واحدة كان يجب عليه بعد مضى سنة ويوم ان يصير من اتباع البارون الذى استوطن هو بارضه ومن خالف هذا القانون كان يغرم جريمة معلومة واذا مات غريب فى ارض ملتزم كان قاطنا بها ولم يوص قبل موته بشئ لهذا الملتزم كانت جميع امواله تصير لبيت المال وكان يجرى فى حق الغريب الذى يستوطن بلادا غريبة قوانين اصعب من هذه فكان فى تلك الازمان اذا استوطن غريب بارض ملتزم يجوز لهذا الملتزم ان يقبض عليه ويجعله من ارقائه وشواهد ذلك مذكورة فى التاريخ وهى اخلاق وقوانين متعارفة فانها لما ان النورمنديين فى القرن التاسع لما خربوا البلاد واتلفوا حال العباد خرج كثير من سكان الاقاليم المجاورة للبحر من مملكة فرانسا وبالوافى داخل تلك المملكة ولكن عوضا عن ان يقبلوا فيها مع المروءة والشفقة التى كان يستلزمها سوء حالهم كبلوا باغلال الاسر فى تلك البلاد واتخذهم اهلها ارقاء لهم ولكن آل الامر الى ان كلا من الشوكة المدنية والقسيسية استشعرت انه يلزم ابطال هذه العادة المتبربرة الخشنية كما ذكره روبرتسن وفى بلاد اخرى كانت الشرائع تأذن لسكان

السواحل ان يأسروا جميع من تغرق مركبه ويقع في ايديهم من الغرباء وهذه العادة الوحشية التي لا مروءة فيها كانت توجد في مملكة فرانسا من بلاد اوروبا والظاهر ان عادة الاستيلاء على امتعة الغريق وضمها الى بيت مال الملتزم الذي رست السفينة على ارضه كانت عامة في جميع البلاد ذكره وسغالين ودوكنج وعند قدماء الروس وهم سكان بلاد ذنه كان يجوز قتل ثلاثة من غير قصاص الخائنين والغرباء والمتلونين بدا . . كما ذكر ذلك في بعض التواريخ وذكر المؤلف لوربير عدة وثائق تدل على انه في عدة من اقاليم فرانسا كان الغرباء يستعبدهم الملتزم الذي يستوطنون في ارضه وقال المؤلف بوشور انه كان في بعض بلاد مملكة فرانسا كل غريب استوطن في ارض واقام بها مدة سنة ويوم يصير رقيقا لملتزم الارض التي استوطن بها تلك المدة كما في كتاب عوائد اقليم بواريس ولكن حيث ان مثل هذه العادة المباينة للمروءة والشفقة لايمكن استمرارها طويلا انحط رأى كبار الملتزمين فيما بعد على ابطالها والاكتفاء عنها بفرض بعض جرائم سنوية على الغرباء الذين يستوطنون باراضيهم او بفرض بعض خدم غير معتادة ولكن عند موت الغريب في اراضيهم لا يجوز له ان يوصي بشيء من امواله بل كانت كلها من حق رواثات ترجع للملك او الملتزم البارونية التي كان فيها ولا يأخذ احد منها شيا ولو ورثته الطبيعيين (كاولاده واخوته وما اشبه ذلك) وهذا ما يسمى في فرانسا حق وراثة الغريب كذا ذكره بيرو بروسيل ودكنج وسكيير وهذه العادة قديمة جدا وهي مذكورة بطريق غير واضح في قانون من قوانين كرلوس مانوس رتب سنة ٨١٣ ولم تكن هذه العادة جارية في حق الغريب البعيد البلاد بل كانت جارية ايضا في حق كل انسان استوطن في ابرشية غير ابرشيته او بارونية غير بارونيته ولو في مملكة واحدة او اقليم واحد قال بروسيل وقل ان يكون هناك قانون اقبح من ذلك يؤدي الى منع مخالطات الامم وارتباطهم ببعضهم وان كان يمكن ان هناك ما يقرب من ذلك في الشرائع القديمة التي كانت سابقا جارية في جميع ممالك اوروبا وما يتعلق من ذلك

بابطالها راجع فيه المؤلف موراطورى ومن العار الكبير اللاحق لحكومة فرانسا انه يوجد بها الى الآن هذه العادة المخالفة للمروءة والشفقة والتأنس لان الفرنساوية ليس باعهم قصيرا فى التمدن حتى تمسكوا بهذه العادة ولكن هذه العادة المسماة حق وراثة الغريب زالت كلها من فرانسا او كادت تزول قبل الفتنة الاخيرة التى حصلت بين الفرنساوية واما الآن فلم يبق لها اثر فيها

ثم ان الحكومة وقتئذ كانت ضعيفة لا قدرة لها على انشاء قوانين نافعة او اجراء شرائع محكمة توجب الضبط والربط ولذلك كانت تنشأ عنه الفتن التى كانت يهيجها العصاة اهالى الاقاليم مع بعضهم ولو فى مملكة واحدة خطرة جدا وقد كتب القديس لوب رئيس رهبان دير فرير فى القرن التاسع مكتوبا يفهم منه ان الطرق السلطانية والشوارع العمومية كانت مشحونة باللصوص بحيث ان السواحين كانوا يجتمعون مع بعضهم قوافل ويمشون امام العسكر ليأمنوا من هؤلاء اللصوص كما ذكره بوكيت وقد رتب فى هذا القرن الملك كرلوس لوشوف (اى كرلوس الاصلع) عدة قوانين تدل على ان النهب والسلب كان كثيرا حينئذ وكانت هذه الامور قد كثرت وشاعت بحيث ان كثيرا من الناس كاد لا يعدها من الذنوب الكبيرة الفاحشة ولذلك كان يجبر اصاغر القضاة على ان يحلفوا بانهم لا يسرقون ابدا بانفسهم ولا يحامون عمن يسرق (ذكره بالوز) وقد وصف مؤرخو القرن التاسع والقرن العاشر هذه الامور الحاصلة فى العراق ووصفها الذى كانت عليه وقتئذ وهناك عدة عبارات عظيمة فى هذا الشأن مذكورة فى كتاب مباحث المؤلف بجرو وبالجملة فكانت هذه الافعال التى فيها هتك حرمات الشرائع كثيرة متواترة تجاسر عليها الناس جسارة كبيرة حتى ان سطوة القضاة المدنية لم يكن لها قدرة على منعها فاستعانوا بشوكة القسيسين وانعقدت فورا جمعيات قسيسية بمحافل كبيرة حملت اليها اجسام القديسين الهالكين ونادوا فيها بدعوات قاصفة كالرياح العاصفة لتحل باللصوص

وغيرهم ممن يسعى فى حصول ما يخل بالانتظام والامن العام ذكره بوكيت وقد نقلت البماصورة خطبة من هذه الخطب المحرضة على اتباع العدل والاستقامة خطب بها فى سنة ٨٨ ٩ وهى خطبة مغايرة للخطب المعتادة فى فصاحتها وبلاغتها بحيث نرى جديرة بان نذكر ترجمتها هنا فنقول انه بعد المقدمة على حسب عادة ذلك العصر وبعد ذكر المظالم والافعال القبيحة التى كانت سببا فى تحرير الخطبة قيل ايها الناس جعل الله على ابصاركم غشاوة لان الشره قائدكم * والوله حوابكم * وجفت منكم الايادى لانها طالما اختلست واختطفت * وشلت منكم جميع الاعضاء التى للمعاصى جنت واقترفت * وسلط الله عليكم الشغل الابدى * والتعب السرمدى * واكثر جريكم وسعيكم * وقلل خيركم وكسبكم * والقى فى قلوبكم الخوف والفزع * والقلق والجزع * امام كل عدو لكم * وبدد عند اللقاء شملكم والقى فى قلوبكم الهزيمة * وخيب سعيكم فى كل مشروع وعزيمة * وجعل الله حظكم ان تكونوا بجوار الخائن يهوذا فى ارض هول وظلام ووباء الى ان تطهر قلوبكم التى اتخذت المعاصى منهلا عذبا والمآثم مآربا * ولا ابعد الله عنكم هذه الدعوات المشؤمات * ولا كشف عذابه عنكم فى سائر الاوقات * مادمتم بالفجور موصوفين * ولابواب المعاصى طارقين * امين

المبحث الثلاثون

فى بيان مطالب ما نشأ عن تقدمات التجارة من الفوائد الجليلة النفع بصحيفة (٨٥) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

بموجب ما ذكرناه فى التجارة بصحيفة (٨٠) يمكن ان يقال ان بلاد ايطاليا كان لها بعض تجارات مع مدن الامبراطورية اليونانية من ايام الامبراطور كرلوس ماوس وكانت هذه البلاد الايطالية تجلب محصولات المشرق النفيسة الثمينة كما ذكره مورا طورى وفى القرن العاشر فتحت ابواب التجارة بين اهل البندقية وبين الاسكندرية بمصر وبين هذه الثغور المذكورة

وحدبنى

ومدينتي امالفي وبيزه ذكره مورلطوري ايضا وقديما في صحيفة (٣٩) من هذا الجزء كيف كان للمحاربة الصليبية مدخل في نمو تجارات بلاد ايطاليا وازدياد ثروتها لاصطحابها وانتفاع البلاد المشرقية فان اهالي ايطاليا كانوا يجلبون من البلاد المشرقية محصولات الهند بل ورثوا في بلادهم مصنوعات وورشا بديعة الصنع وقد وصف المؤلف مورلطوري عدة من هذه الورش في مباحثه على فنون القرون الوسطى ومن وقتئذ حصل للايطاليين تقدم كبير في هذه الورش لاسيما في ورش الحرير التي مكثت زمنا طويلا وهي خاصة بالاقاليم المشرقية في آسيا وكانت اقمشة الحرير في مدينة رومة القديمة غالية جدا حتى انه لم يكن هناك الا اناس قليلون لهم اقتدار على شرائها وفي زمن الملك اوريليان سنة (٢٧٠) كان رطل الحرير برطل من الذهب وفي القرن السادس اتى الملك جوستينيان في بلاد اليونان فن تربية دود الحرير وبهذا استعمل الحرير اكثر مما كان عليه وان كان لم يزل غاليا ومعتبرا من انواع الرفاهية وعلامات العظم المخصوصة بالاكابر والاعيان ولا يلبس الا في المواسم والمحافل العظيمة وفي سنة ١١٣٠ ارسل روجير الاول ملك جزيرة سيسيليا الى مدينة أثينا واحضر منها عدة صنايعية من صناع الحرير واسكنهم بمدينة بالرمة وقوى هذا الملك صناعة الحرير في مملكته ومنها انتقلت الى اجزاء ايطاليا الاخرى ذكر ذلك المؤلف جياوون في تاريخ نابلي فانتشرت اقمشة الحرير من وقتئذ حتى انه في اثناء القرن الرابع عشر كنت ترى في محفل من محافل مدينة جنوه نحو الف من اهلها لابسين ثياب الحرير ومن محصولات المشرق قصب السكر وذلك انه جلب من آسيا بعض اعواد من القصب وكان ايضا اول زراعة في جزيرة سيسيليا في اثناء القرن الثاني عشر ثم بعد سيسيليا زرع في الاقاليم الجنوبية من اسبانيا ثم نقل الى الجزائر الخالدات والى جزائر مادره ثم الى بلاد امريكه وباسر دلوير كيناردين البضائع والمحصولات التي كانت تجلب الى مينا انوير سنة ١٥٠٠ هذا القصب الذي كان يحضر اليها من بلاد اسبانيا و بلاد

البورتغال وذكرانه من محصولات جزائر مادره وجزائر الخالدات ولم تكن زراعة القصب معلومة فى بلاد الهند الغربية او انها كانت قليلة فيها حتى كانت لاتعد فى القرون الوسطى من المواد التجارية الهندية ومع ان السكر كان نادرا حينئذ وكان لايدخل فى جميع الاستعمالات المعاشية فالظاهر انه كان فرعا عظيما من فروع تجارات ايطاليا

ولما كان الايطاليون يأتون الى بلاد اوروبا بجميع انواع البضائع وفروع التجارات صار لهم موقع عظيم وقبول حسن عند هذه البلاد وفى القرن الثالث عشر استوطنوا فى مملكة فرانسا وصار لهم فيها اعظم مزايا حيث رخص لهم فى الامور التى تتعلق بها تجاراتهم واعطيت لهم حقوق ومزايا خصوصية لم تكن ثابتة للرعايا فرنسا فى فرانسا قانون خصوصى لمنافاتهم من حق وراثة الغريب الذى تقدم شرحه وحيث كان اللومبرديون (اهل لومبردة وهى قسم من ايطاليا) مستغرقين لجميع تجارات الممالك التى كانوا مستوطنين بها جعلوا فى اقرب زمن مقادير جسيمة من الاموال وصارت النقود المضروبة بين ايديهم يشترون بها بضائعهم بل وكانت هى نفسها نوع تجارة يكسبون منها كسبا عظيما حيث كانوا يرتبون بها بانكات وصيارف عظيمة الربح فانهم فى هذا الفرع وفى غيره من فروعهم التجارية كانوا يسلبون اموال الناس كما هى عادة اهل الحكر فى التجارات من غير ان يعارضهم معارض فى مجاوزتهم الحدود ومما اعانهم على مجاوزتهم الحدود فى التجارات والمعاملات واحل لهم مثل هذه الافعال رأى معمول به عندهم وهو ان التجارة لاتروج الا اذا اعطى المقترض لمقرضه بعض ربح فى نظير استعمال دراهمه التى اقترضها منه لان رأس ماله بيد الغير عرضة للضياع وهذا امر مرتب الآن شرعا فى جميع البلاد التجارية ويسمى ربح الاموال الشرعى فاتفق ان بعض القسيسين فى ذلك العصر ناقض فى جواز هذه العادة واستند الى عبارات من الكتاب المقدس الذى يمنع الربا فنعت هذه العادة وصارت من وقتئذ من المحرمات التى يأثم فاعلها وسلم فى ذلك ايضا علماء الكلام

السكولاستيكى وابدوه لانهم كانوا يدعون ان ارباح عالية على ما هى
عليه من غير نقد ولا فحص كما ذكره ملاكستون فصارت تجارات اللومبرديين
ممنوعة شرعا واذا عثر على احد عقد عقدا بمثل الشروط الاولى عند تما
وعوقب فلما شدد عليهم بهذا الوجه صاروا لا يكتفون بالمبلغ الذى كان يكفيهم
وقت ان كانت التجارة فى الاموال مأذونة بالشريعة فكانوا اذا اقرضوا
احدا اموالا يطلبون منه مبلغا فى نظير اسم مال المال ومبلغا آخر فى نظير
عقوبة الربا لانه ربما عثر عليه ولا يسلم من العقوبة وفى القرن الثالث عشر
كان الربح المعتاد عشرين على كل مائة كما ذكره موراطورى وقد حصل
فى اثناء هذا القرن ان قونتيسة الفلنك اضطرت الى ان تقترض اموالا
لفداء زوجها فطلبت ذلك من بعض تجار ايطاليين او يهود فكان اقل
ما اخذوا منها ربحا عشرين على كل مائة بل بعضهم طلب منها ثلاثين فى كل
مائة ذكره ماربين دوبرند وفى القرن الرابع عشر (سنة ١٣١١) امر فيليبش
الرابع ان لا يزيد الربح الشرعى فى المال باسواق اقليم شمبانيا عن عشرين
على كل مائة وفى ارغون كان اقل من ذلك وفى سنة ١٢٤٢ رتب الملك
ياكوس الاول قونونا وجعل فيه على كل مائة ثمانية عشر لا غير ومن
سنة ١٤٩٠ صار الربح فى ابرسه اربعين على كل مائة وبهذا الكسب
العجيب صارت تجارة ايطاليا عظيمة جدا وذكر المؤلف كبشاردان
فى تاريخه ان شرلكان جعل ربح المال فى ممالكه التى بمملكة البلاد
الواطية لا تزيد عن اثنى عشر فى كل مائة وفى زمن تأليف هذا المؤرخ كان
لا يستغرب ان يكون الربح ازيد من ذلك ومع ذلك فقال ان هذا القدر تجاوز
للحد وبين بالبرهان النتائج القبيحة التى تنشأ عنه فى التجارة والزراعة
وهذا الربح المفرط بكثيره دلالة على ان التجارة كانت حينئذ واسعة الكسب
عظيمة الثمرة وفى القرن الثالث عشر استوطن اللومبرديون بلاد انكلتره
بل ويوجد الى الآن فى مدينة لوندره زقاق كبير يقال له زقاق
اللومبرديين ولهم فى انكلتره مزايا كبيرة وتجارة واسعة كثيرة الربح والكسب

لاسيما البانكات وذكر المؤلف اندرسون جميع الاوامر الملوكية والوثائق التى اثبتت للومبرديين فى انكلترة المزايا والخصوصيات التى جعلت لهم هذا كله وكانت مدينة اروجه اعظم مراكز تجارات ايطاليا واكبر مخازنها لان الملاحة كانت وقتئذ ضعيفة غير معروفة جيدا فكان السفر بحرا من بحر بلطق الى البحر المتوسط لا يمكن تتميمه فى صيف واحد ففى نظر التجار ان من اللازم لهم ان يجعلوا مخزنا يدعون جميع تجاراتهم فى نصف الطريق بين مدائن الشمال الغربية ومدائن بحر البلطيق فرأوا ان مدينة اروجه هى الاصلح والاوفق لذلك فجعلت مركز التجارات بين البلاد ... بسبب ذلك مملكة البلاد الواطية الثروة وصارت مدينة اروجه مخزنا لصوف انكلترة ومحصولات ورش مملكة البلاد الواطية من جوخ واقمشة والمتاجر البحرية وغيرها من المصانع الآتية من البلاد الغربية والمواد التجارية التى كانت تأتى اليها من ايطاليا ... من مصانع الهند ومن محصولات ايطاليا التى كان يشتغل الاسبانيون ومما يدل على عظم تجارة التى كانت بين مدينة اروجه ومدينة ... فى المحصولات الهندية هو انه فى سنة ١٣١٨ وصلت الى مدينة اروجه خمسة غلايين كبيرة من البنادقة واسعة وسقاعها من المصانع الهندية تباع فى سوق هذه المدينة التى كانت اكبر اسواق اوروبا وشواهد ذلك كثيرة فى تواريخ ومؤلفات القرن الثالث عشر والرابع عشر ولا حاجة الى الاطناب فى ذلك فانما نقول انها موضحة فى تاريخ اندرسون فراجعه ان شئت لكن وان كان كتابنا لا يحتمل الاطالة فى شرح ذلك نقول ان هنالك بعض حوادث منفردة يعرف بها غنى البلاد التجارية من الفلنك وايطاليا ولذلك استحسنا ان ننبه على بعضها فنقول قد حصل سنة ١٣٣٩ ان دوق اقليم رابنط (من بلاد الفلنك) عقد نكاح ابنته على الامير ثوار ابن ادوارد الثالث ملك انكلترة واعطى هذا الدوق لبنته من المهر ثلاثمائة الف من لورا الاسطرلنغ (هو نوع من النقود يساوى فى القيمة نحو اربعة وعشرين من الفرنكات والفرنك اربعة من

القروش

القروش الرومية) وكذلك جاس دوق اقليم ميلان (من بلاد ايطاليا)
اتم وسنة ١٣٦٧ عقد نكاح بنته على الامير ليونيل دوق كلارنس وهو
ثالث اولاد الملك ايدوارد فدفعت هذه الاميرة لزوجها مائة الف من
ليرا الاسترلينية مهرها ابوها بهذا المبلغ كذا ذكر المؤلف ربيير وهذه مبالغ
جسيمة تزيد بكثير عما كان يعطيه حينئذ اكابر الملوك و يتعجب منها
في عصرنا هذا مع ان الاموال قد زادت كثيرا في اوروبا عما كانت عليه وقت
جهل ثروة الناس نموا كبيرا ولاشك ان مثل هذه المبالغ كانت ناشئة عن
كسب التجارات التي كانت تجبر بسببها الثمار الثروة التي روت تلك البلاد
وانتشارها وان اول مبالغ تلك البلدان الموضوعة على بحر بلطيق هو صيد سمك
الهارنك الذي كان يكثر جدا على شواطئ اسوج ود عبارته كما هو كثير
الآن على شواطئ ... وذكر بعض مؤلفي القرن الثالث عشر
عبارة يصف بها الثروات التي كانت ... صيد هذا السمك فقال كان اهل
دانيمرقة سابقا يلبسون كمصر الملاحين واما الآن فتراهم يلبسون الثياب
الارجوانية والاقمشة الرفيعة وسبب هذا الغنى من السمك الذي
يصيدونه كل سنة من سواحل اقليم سكونيا لان جميع الملل كانوا يذهبون اليهم
في بلادهم بالاموال من ذهب وفضة و [illegible] رفيعة والزينة
ليستبدلوها منهم بسمك الهارنك الذي انعم الله به عليهم ذكره ارلوندوس
لوباسبس ثم ان العصبة او المعاهدة الهنسياتيقية هي اعظم معاهدة
عهدت وفي التواريخ ذكرت وكان منشؤها في اواخر القرن الثاني عشر
وقد ذكر المؤلف كنيبسوكله سبب اتفاق الناس عليها وتكلم المؤلف
اندرسون على الحوادث الاصلية التي تخص تقدم تجارات هذه المعاهدة
والمزايا التي نتجت لها في عدة بلاد والتي تخص الحروب العديدة التي حصلت
بينها وبين عدة من الملوك وتكلم ايضا على الهمة التي بذلتها والشجاعة التي
اظهرتها في المدافعة عن حرية التجارة وعن الحقوق التي لولاهما لاضمحلت
التجارة وحيث كانت هذه المعاهدة الجديدة سعي لانسفل الابادور

التجارة نشأ عنها في مدة قريبة أن نشرت في جميع بلاد اوروبا رايات عدل وصلح وانتظام لم تتمتع بها قبل ذلك قط

واما في انكلترة فكان تقدم التجارة على غاية من التراخي وسبب ذلك واضح وهو انه وقت ان كانت انكلترة منقسمة بين سبعة ملوك كانت بريطانيا الكبرى منقسمة الى ممالك صغيرة كثيرة لا تنقطع الحروب بينها وبين بعضها وبذلك كانت عرصة لنهب الدانيماركيين وغيرهم من لصوص الامم الشمالية ولاغاراتهم الخشنية وحيث كانت على هذا الوجه منغمسة في الجهالة والشر كان لا قدرة لها على الاشتغال بالتجارة ولا على ترتيب قانون به يحصل الضبط والربط ومنع الاجحاف والاضرار فلما اجتمعت هذه الممالك وصارت مملكة واحدة واخذت انكلترة في اصلاح حالها بالعناية هاجمتها النورمنديون متوجهين الى هدم جميع ما كان اسس فيها وبهذه الحادثة ارتبكت انكلترة وانقلبت حال عاداتها والاملاك بين اهلها حتى ان امة الانكليز بمضت عليها عدة حكومات وهي لا تعرف من عنائه الذي حصل لها عقب هذه الحادثة فلما اتحد سكان انكلترة في الانتظام وصار الانكليز مع النورمنديين المتغلبين عليهم كامة واحدة صرفت ملوك الانكليز جميع جهدها في اثبات دعوى ملوكها ان لهم حق الملوكية في مملكة فرانسا فصرفت قواها واموالها واتعبت فكرها في الحروب التي اثرتها لاجل التغلب على مملكة فرانسا فلما عاندهم الدهر في مشروعاتهم وخسروا فيها كل الخسران واضطروا الى ابطال هذه الحروب الخارجية واخذوا بعدها في ذوق طعم الراحة وجمعوا بعض قواهم حصلت حروب مهولة بين عائلة يورك الملوكية وعائلة لنكستر فتراكمت ثانيا على مملكة انكلترة مصائب جديدة فلم تكن تجارة انكلترة معطلة بمجرد الحكومة الالتزامية والاخلاق البربرية التي كانت عامة في القرون الوسطى بل كانت معطلة ايضا بوجود اسباب خصوصية كما رأيت ولا شك ان مثل هذه الحوادث المتتابعة منافية بالكلية لامر التجارة فهي كافية في تعطيلها بالكلية او في زوالها وبطئها ولو كان هنالك اسباب اخرى تعين على تقدمها

ونجاحها

وبجانبها قياسا على ذلك ترى ان انكلتره من بين ملوك اوروبا هم الذين تاخروا
في اغتنام فوائد الفرص التي ابدتها لهم الطبيعة في شأن التجارة فقبل
حكومة الملك يدوارد الثالث كان صوف انكلتره كله ماعدا شيأ يسيرا
كان ينسجه الاهالي جوخا غليظا خشنا ويلبسونه ويباع لاهل الفلنك
واللومبرديين لانهم كانوا يسحونه ثم ان هذا الملك شرع سنة ١٣٢٦
في احضار بعض نساجين الى انكلتره من بلاد الفلنك ولكن مضى بعد ذلك
مدة طويلة قبل ان يصير للانكليز قدرة على اصطناع بعض من الجوخ
ليباع للغرباء وكان الصوف الذي ينقل من عندهم بحالته الاصلية الى البلاد
الاجنبية هو اعظم تجاراتهم كما في تاريخ التجارة للمؤلف اندرسون وجميع
البضائع الاجنبية كانت تأتي الى انكلتره بواسطة تجار اللومبرديين
الانسياتيقية فكانت مينات انكلتره يجلب اليها السمك الحار به من شمال
اوروبا ومن جنوبها وصار الغرباء يتولون بذلك معظم الملاحة الانكليزية
ويحضرون لها جميع ما كانت تحتاجه واول مشارطة تجارية ثبتت
لانكلتره في تاريخها هي المشارطة التي عقدتها سنة ١٢١٧ مع الملك هاكن
ملك نروج كما ذكره اندرسون في الجزء الاول من تاريخه صحيفة (٨)
ولكن لم تتجاسر انكلتره على ان تفاخر بنصب ونشر اعلام سفنها في بحر
بلطيق الا في ابتداء القرن الرابع عشر ذكره اندرسون صحيفة (١٥١) ولم يبصر
اهاليها بعض سفن في البحر المتوسط الا بعد نصف القرن الخامس عشر ذكره
اندرسون ايضا صحيفة (٠٧٧) وقبل هذا الزمن بمدة قليلة كانت قد ارسلت
بعض سفن الى مينات اسبانيا والبورتقال وانما اطنبنا في شرح بطء
سير التجارة الانكليزية لانه الى الآن لم يعتن بها احد الاعتناء الذي تستحقه
ولا يخفى ان ازدحام الغرباء في مينات انكلتره بانضمامه الى المخالطة التي
لم تنقطع بين بلاد اوروبا من ابتداء القرن الثاني عشر تكفي في بيان صحة
الملحوظات التي ذكرناها في الاضافة في شأن مدخلية التجارة في تحسين اخلاق
الناس وانشاء التأنس والالتئام بينهم في جمعياتهم

المبحث الحادى والثلاثون

فى بيان مطلب وظيفة القاضى الاعظم بصحيفة (١٤٣) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

لم يمكن ان نعلم على وجه الحزم واليقين على اى حالة كان انتخاب الجوستيزيا اى القاضى الاعظم وانما كان اهل العصمة المشاهدة التى تعززت على الملك [illegible] كوس الاول سنة ١٢٦٤ يدعون ان الملك لا حق له اصلا فى انتخاب القاضى الاعظم الا برضاء الاشراف كما ان ثارا عونيا للمؤلف ذوريتا بصحيفة (١١٠) من الجزء الاول ولكن عارضهم الملك فى دعواهم بانه قد جرت [illegible] منذ ازمان خالية وكذلك جرت قوانين المملكة بان الملك بموجب مزاياه الملوكية هو الذى ينصب القاضى الاعظم ذكره ذوريتا بصحيفة (١٨١) من الجزء الاول وقد ذكر ذلك ايضا المؤلف لانكا فى صحيفة (٦٥٦) من تاريخه وقد ذكر ذوريتا فى عبارة اخرى انه مادام اهل اراغونيا لهم حق التعاهد والاجتماع يعنى مادام لهم الحق فى تعاهدهم وتعززهم على معارضة ملوكهم اذا تعدوا على حقوق الاهالى ومزاياهم كان حق انتخاب القاضى الاعظم ثابتا للملك بل وكان للملك ايضا ان يعزله من منصبه متى شاء ولم يمتنع عن هذه العادة الثابتة للملوك شئ مضرا اصلا لان مزية التعاهد الثابتة للاهالى كانت قامعة لعظم الشوكة الملوكية وتجاوزها الحدود ولكن لما بطل حق التعاهد الذى كان ثابتا للاهالى لما كان مخالفا لنظام المملكة وراحتها حصل الاتفاق على انه اذا ولى القاضى الاعظم لا يجوز عزله من منصبه مدة حياته ومع ذلك فاتفق كثيرا ان الملك اذا شابه ريب من القاضى الاعظم او تهمة بجناية عزم بعزله من منصبه وقد تجمع فى هذا الامر ملوك كثيرون ولكن لاجل الاحتراس من التعدى والظلم الذى يضر بالقوانين ويبطل اجراآتها ومن ان يكون القاضى الاعظم كآلة فى يد الملك بحيث لا يمكنه محاماة الاهالى ولا المدافعة عن حقوقهم ثبتت مشورة

القورطس (مشورة وكلاء المملكة) سنة ١٤٤٢ قانونا يقول ان هذا القاضي
الاعظم يكون دائما على منصبه مدة حياته ولا يجوز عزله الا باذنها
وبموجب الشرائع القديمة كانت ذات القاضي الاعظم محترمة ولا يجترئ احد
على ايذائه الا مشورة القورطس وقد كتب المؤلف ذوريتا تاريخه وقت
ان كان القاضي الاعظم في اراغونيا باقيا على مزاياه الاولى وحقوقه الاصلية
وكذلك المؤلف بلانكا ومع ذلك اهمل كل منهما توضيح اشياء كثيرة
من خصوص وظيفة هذا القاضي وسبب ذلك انهما كانا من اهالي بلادهما
وهم كانوا عالمين بما يكون من وظائف هؤلاء القضاة الذين كانوا معتبرين كانهم
حفظة الحقوق الاهلية ولا فائدة في مراجعة تواريخ اسبانيا التي الفت
اخيرا في هذا الشأن لان تلك التواريخ مع [illegible]
ذلك لان القوانين القديمة التي كانت بتلك المملكة كانت قد تغيرت صورتها
وصارت فيها حكومة مطلقة على الدوام في تقدمها الى ان [illegible] وقت
ان شرع مؤرخو هذا القرن الاخير وما قبله في تأليف تواريخهم وسبب عدم
بحثهم عن ذلك ان بعضهم كان لا يرغب في معرفة حقيقة القوانين التي كانت
تكسب آباءهم واسلافهم الحرية السياسية وبعضهم كان يخاف كثيرا
من تجاسره على ذكرها مع كثير من الصحة والتدقيق [illegible] تاريخ
المؤلف ماريانا الذي كان المؤلف مابلا وكذلك تاريخ المؤلف فرورادس وبين
تاريخي ذوريتا وبلانكا الذين استنبطنا منهما ما ذكرناه في شأن قانون
مملكة اراغونيا

وغير الامور التي قدمناها في الاعتناء بما يخص القاضي الاعظم يوجد
امران آخران جديران بان ننبه عليهما هنا الاول انه كان لا يجوز اقامة
القاضي الاعظم من اشراف المرتبة الاولى وانما كان ينتصب من اشراف
المرتبة الثانية او من مرتبة الكوالروس الذين كانوا وقتئذ بمنزلة ارباب المشاور
البلدية في انكلترة وذلك ان الريكوس هومبرو اي اشراف المرتبة الاولى
كان لا يجوز في اي حال عقابهم بعقوبة كبيرة كموت ونحوه فلزم لاجل الامن

الدائم جعل القاضي الاعظم من مرتبة اخرى بحيث يكون ضامنا اذا تعدى او جاوز حدود منصبه المعطى له و يكون مضطرا الى ان يقتصر على ما يجب عليه ولا يتعداه في شيء خوفا من الشرع الآتي وشدة عقوباتها كذا ذكر المؤلف بلاسكا بصحيفة (٦٥٧) وصحيفة (٧٥٦) وكذلك المؤلف دوربتا في الجزء الثاني من تاريخه بصحيفة (٢٢٩) وذكر ذلك ايضا غير هذين المؤلفين ويظهر من عدة عبارات ذكرها المؤلف دوربتا ان القاضي الاعظم كان يحجه ولا يمنع احتقاف الاشراف وتعديهم ومع شوكة الملك وحيث ان الامر ذلك لزم انتخابه من طائفة من الاهالي غير طائفة الاشراف حتى يكون خاليا من الاغراض و يكون ميزان عدل لا يراعي شوكة الملوك ولا طائفة الاشراف

الامر الثاني ان القاضي الاعظم لو لم يكن فوقه شوكة اقوى من شوكته لامكنه ان يتصرف في امور اهم بالمملكة فلم يخف ذلك على المشرعين بل رسموا في الشرع الآتي ما يكون دواء لهذا انه اذا ظهر ردي فكان يجب على وجه القرعة من كل جمعية من منورة القورطس سبعة عشر شخصا ويجعلون في محكمة يقال لها محكمة التفتيش مكونة للتفتيش والبحث في افعال القاضي الاعظم واحكامه وكانت هذه المحكمة تجتمع ثلاث مرات في كل سنة في اوقات معلومة وكان لكل انسان حق في ان يشكي لهذه المحكمة من ظلم القاضي المذكور واهماله وكان يجوز احضار هذا القاضي بجميع ارباب ديوانه الى تلك المحكمة ليحاسبوا على اعمالهم وكل من ارباب محكمة التفتيش يعطي رأيه سرا ثم يحكمون على كل من ثبتت عليه جنحة من القاضي الاعظم او ارباب ديوانه بضبط امواله الى بيت المال او بالعزل بل ويجوز لهم الحكم بالقتل ولكن الشريعة التي رتبت هذه المحكمة و بينت كيفية انعقادها واحكامها نسخت سنة ١٤٦١ ذكر ذلك دوربتا في تاريخه وكذلك بلاسكا وقبل هذا الامر كان يفتش ايضا في اعمال القاضي الاعظم لكن بطرق وقوانين غير المذكورة وكان القاضي الاعظم بمجرد توليته يصير

عرضة

عرضة لتفتيش مشورة القورطس وبهذا تندفع الصعوبات الناشئة عن الاغراض كان القاضي المذكور دائما في الخشية والخوف وكان ذلك سببا قويا لحمله على الاستقامة وتأدية واجباته على وجه الصحة وحصل في سنة (١٣٨٦) امر غريب يدل على قوة شوكة القاضي الاعظم ومعارضتها لشوكة الملك وذلك ان قوانين مملكة اراغون كانت تثبت لابن الملك الكبرى او لمن يظن انه يرث اباه في المملكة شوكة كبيرة وتصرفا عظيما في المملكة فاتفق ان الدون بطرس الرابع تزوج بامرأة ثانية فاغرته تلك المرأة ان يمنع ابنه من التصرف في المملكة فسمع كلامها وعزم على ان يجرد ولده من جميع حقوقه وامر رعاياه ان لا يطيعوه في شيء فعند ذلك رفع الامير دعواه الى القاضي الاعظم الذي كان حامي الرعية من كل ظلم واجحاف يصدر من الملك فطلب منه القاضي اميلا حضوره في المحكمة عند الطلب واعطاه وثيقة بانه لا يجوز تجريده عن شيء من حقوقه ومزاياه الا بموجب حكمه واقامة الدعوى بين يديه فشاع هذا الامر في المملكة بتمامها وصار الملك بطرس الرابع يعارض فيه ومع ذلك لم يمكنه تغيير ما اراده واستمر ابنه على التمتع بجميع حقوقه ونفوذ كلمته في سائر المملكة

المبحث الثاني والثلاثون

في بيان مطالب انحصار الشوكة الملوكية في حدود ضيقة بصحيفة (١٤٤) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

قد حملنا قول عدة من المؤلفين الثقاة على ان نعترف بصورة المبايعة التي ذكرناها في الاتحاف هي الميثاق الذي تعهد به اهل اراغون بان لا يجوروا مالكهم ولكن مما نعترف به ايضا ان هذا الميثاق الغريب لم نره ابدا في كتب مؤرخي اسبانيا التي امكننا الاطلاع عليها فلم نره في كتاب ذوريتا ولا في كتاب بلانكا ولم نره ايضا في كتاب ارجونسولا ولا كتاب مايانس مع ان هؤلاء الاربعة كانوا معينين من طرف مشورة القورطس بمملكة

راعونيا بجمع شرائع المملكة وتقييدها وكل من الاربعة كان له فصل غريب بين المؤلفين وهو انهم كانوا يدققون فى ذكر تقدم شرائع بلادهم وقوانينها على ماهى عليه فسكوتهم عن الميثاق المذكور جعل فى اعتنا بعض ريب فى صحته ولكن حيث ذكر فى كتب كثير من المؤلفين بالعظة القديمة الاسبانية التى كان اصل التعبير عنه بها فيمكن انهم عثروا به فى بعض كتب القضاة الذين لم تقع لهم على تأليف وايضا ان معنى هذا الميثاق موافق بالكلية لما فى ميثاق قانون مملكة اراغونيا

و بمجرد ما اشتهر كتابنا هذا اول مرة و تنشر بالاقطار تفضل علينا العالم الموز مدرس علم التاريخ فى مدينة بنروب بدوقية مكلنبورغ ببيان ان المؤرخا الثقة من مؤرخى اسبانيا ذكر صورة هذا الميثاق وهو شهير انطونيو بيرز كاتب سر الملك فيليبش الثانى وولد فى مملكة اراغونيا وذكر الفاظ هذا الميثاق كلمة بكلمة باللغة الاسبانية وهذا معناه كلمة بكلمة نحن نساويك وجعلناك ملكا علينا بشرط ان تحفظ شرائعنا وحقوقنا والا فلا انتهى ذكره انطونيو بيرز بصحيفة (١٤٣) من تاريخه

ثم ان مزية الاجتماع او التعاهد التى كانت ثابتة لاهل اراغونيا كما ذكرناه فى المبحث السابق ونبهنا عليها ايضا فى المبحث الآتى هى ولا شك اغرب شئ يمكن حصوله فى حكومة منتظمة مثل اراغونيا ولا يخفى ان الميثاق الذى تكلمنا عليه لا يدل على ازيد من هذه المزية الاصلية التى كانت حقا ثابتا لاهل اراغونيا فاذا كان الملك اووزراؤه يتعدون بعض الشرائع او يجورون على المزايا الثابتة للرعايا ولا ينصفون احدا فيما طلب كان اشراف المرتبة الاولى واشراف المرتبة الثانية وجميع قضاة المدن يجتمعون مع بعضهم فى مشورة القورطس او فى غيرها ويتعاهدون على ان يكون كل منهم امينا فى حق الآخر و يتحالفون على ان لا ينقضوا هذا العهد من بعد ميثاق فاذا فعلوا ذلك وتحالفوا يقدمون على الملك بجميع العصبة المتعاهدة ان ينصفهم فاذا لم يعتن الملك بطلبهم او يشرع فى ادخالهم تحت طاعته بطريق الحرب

جاز

جاز لهم بموجب حق التعاهد ان يقصروا ميثاق الامان بينهم وبينه وينكروا تمالكه عليهم ويتشاوروا فى شأن انتخاب ملك سواه من غير ان يأثموا ولا يعمهم ضرر من ذلك كما ذكره بلانكا وهذا التعاهد لا يشبه فى شئ معاهدات غير اراغونيا من الممالك الاخرى المحكومة حكومة الشراسية لانه كناية عن تعاهد شرعى تطلب حقوقا من اقامة بشرائع المملكة وقوانينها وتصدر من اربابه اوامر باسم الاهالى وكان يجرى جميع افعاله بموجب قوانين ورسوم استمرارية لا تختلف ولم يكن هذا الحق الخطر مجرد زعم وادعاء غير ثابت بل جرى به العمل غير مرة ففى سنة ١٢٨٧ تعاهد اهل اراغونيا على معارضة الملك الفونس الثالث وجبروه على ان يعطيهم ما كانوا يطلبونه وعلى اقرار حق هذا التعاهد الذى هو مضر بالشوكة الملوكية كذا قال ذوريتا فى تاريخه صحيفة (٣٢٢) وفى سنة (١٣٤٧) تعصب اهل اراغونيا على الملك بطرس الرابع وحصل لهم نجاح ثبت لهم حق التعاهد وزاد تأييدا ذكره ذوريتا ايضا لكن بعد ذلك بمدة قليلة هزم الملك بطرس الرابع رؤساء هذا التعاهد وكانوا مصطفين ونسخ حق التعاهد بالكلية من مشورة القورطس وابطل ايضا جميع القوانين والشرائع التى كانت تثبته وطلب هذا الملك بحضرة ارباب مشورة القورطس الوثيقة التى كان قد اقر فيها عقد التعاهد على اخذها وجرح يده بخنجره ووضعها على الوثيقة قائلا يلزم ان لا تمحى هذه المزية التى كانت خطرة على الدولة ومضرة بالشوكة الملوكية الا بدم ملك من الملوك انتهى كذا ذكره ذوريتا

ثم ان الشريعة التى نسخت حق التعاهد حفظت ومن يومئذ صار القاضى الاعظم حصنا متينا للحرية العمومية ولكن لم ينشأ عن شوكته واقتداره من الفتن الكبيرة مثل ما نشأ عدة مرات عن حق التعاهد ومع ذلك كانت قوانين اراغونيا لم تزل على غاية من الحرية ومن جملة اسباب هذه الحرية قبول وكلاء المدن من مبدأ الامر فى مشورة القورطس ويظهر من كلام ذوريتا ان الاهالى كانوا يقبلون فى مشورة القورطس منذ انشاء اول قانون فى المملكة

وقد تكلم على عقد مشورة القورطس حصل فى سنة (١١٣٣) فقال ان الاهالى
قد قبلوا فيها باسم وكلاء المدن وذكر ايضا انهم بهذا الاسم كانوا يدخلون فى كل
مشورة تنعقد من مشاور القورطس وكانوا كذلك مسمين به فى الدفاتر
والظاهر ان مثل هذا المؤرخ لثقة لا يسميهم بهذا الاسم الا اذا كان نقله ذلك
عن محال صحيحة ومن ذلك الوقت مضى نحو قرن قبل ان يحصل فى غير اراغونيا
من ممالك اوروبا قبول لوكلاء المدن فى المشاورة للملك وانما حكومة
اراغونيا فقد اشتهرت بالحرية فى عدة احوال حيث كانت فيها مشورة
القورطس تمنع الملوك من تغيير ما يشرعونه لاجل ازدياد ايراداتهم
واتساع دائرة مزاياهم وكانت ايضا تطلب حقوقا عديدة ونالتها وكانت
شوكتها كبيرة بحيث كان يتعجب منها حتى فى البلاد المتعودة على التمتع
بالحرية ففى سنة (١٢٨٦) ادعى ارباب مشورة القورطس بان لهم الحق
فى انتخاب ارباب مشورة الملك وانتخاب ضباط قصره والظاهر انهم ظفروا
بذلك ومكثوا يتمتعون به برهة من الزمن كما ذكره دوربنا وكان من جملة حقوق
مشورة القورطس انتخاب ضباط الجيوش المرتبة باوامرها كما يفهم ذلك
من بعض عبارات دوربنا وفى سنة (١٥٠٣) جددت تلك المشورة فرقا
عسكرية لحراستها الى بلاد ايطاليا وحررت للملك امرا بانتخاب الضباط
العمومية التى تكون رؤساء على هذه الفرق ذكره دوربنا وذلك يدل على ان
هذا الحق لم يكن من حقوق الملك وذكر بعض المؤلفين عرضين عموميين اشهرا
لطالب حقوق اهل اراغونيا ومزاياهم احدهما فى زمن حكم بطرس الاول
سنة (١٢٨٣) والثانى فى حكم باكوس الثانى سنة ١٣٢٥ ولكنهما مفرطان
فى الطول بحيث لا ينبغى ذكرهما هنا وانما نقول يفهم منهما ان مزايا الاشراف
وحقوق الاهالى كانت حينئذ اعظم واحكم من الحقوق والمزايا التى كانت
ثابتة لكل من هاتين الطائفتين فى مملكة اخرى من سائر ممالك اوروبا حيث
كان الملك متعاهدا معاهدة شرعية صحيحة بحفظ حقوق الاهالى وحريتهم
وكان ارباب مشورة القورطس يغارون على حفظ قوانينهم وشرائعهم الغيرة

التى

التي هي من عادات كل مملكة ذات حرية بل كانوا يدققون تدقيقا كليا في حفظ
ادنى رسوم جرت بها العادة عندهم فمن جملة شرائعهم وعوايدهم
انه لا يجوز لاجنبي عنهم ان يدخل في الديوان الذي ينعقد فيه مشورة
القورطس ولما سافر الملك فرديناند الى غزواته في بعض الجهات سنة (١٤٨١)
اقام زوجته ازابلة وكيلة عنه في المملكة وكان بموجب الشرع بعد انه اذا اقيم
وكيل على المملكة يلزمه ان يحضر بمشورة القورطس ليعقد امام اربابها
ميثاق الامور وحيث كانت الملكة ازابلة عروسة وليست من ارباب
مشورة القورطس لزم في هذه الصورة ان كتب ارباب تلك المشورة امرا
للحاجب بان يفتح لها باب الديوان ويعطيها اجازة بالدخول قال المؤلف
دورينا وذلك في مدة ما كان اهل اراغونيه معتنين بحفظ رسومهم
وعوايدهم ولو ادنى مهما شي

وكما كان ارباب مشورة القورطس عاطفين على الحقوق الشخصية للاهالي
كانوا يعتنون كذلك على حفظ حرية القوانين والشرائع وكانت شرائعهم
منبئة دائما بحفظ كل من هذين الامرين وهناك حادثتان فيما يخص هذا
الشان جديرتان بان ينبه عليهما الاولى هي انه صدرت اوامر سنة (١٣٢٥)
بمنع تعذيب اهل اراغونيا لاجل الاقرار وحكم بان المدعى عليه
مادام تثبت عليه الدعوى ببينة يكون بريئا كما ذكره دورينا مفتخرا بهذا
القانون لكونه يدل على مروءة اهل وطنه من شرائع اراغونيا بشرائع
رومة التي كانت تستثني الاحرار وسكان المدن من هذا التعذيب
الوحشي الفاحش الذي يؤدي الى الفضيحة وهتك العرض وكان لا يذوقه فيها
سوى المستعبدين الارقاء ولاشك ان مدح هذا المؤلف لشرائع بلاده
في محله لان هذا التعذيب كان في ذلك الوقت مستعملا عند جميع ملل اوروبا
الاخرين حتى في انكلترة التي نسخ منها منذ زمن طويل بموجب شريعة
مبنية على الحكمة والمروءة

وهناك حوادث اخرى تدل على ان ما كان من خصوصيات شرائع اسبانيا

كالحرية والمحافظة على الحقوق والمزايا كان كذلك موجودا فى طباع اهاليها وكان ذلك سببا فى حصول الحادثة الاتية وهى انه فى سنة (١٤٨٥) حصل ان الملك فرديناند وزوجته الملكة ايزابيلا لتولعهما بالدين ارادا ان يرتبا محكمة تفتيش قوتوليقية فى مملكة اراغونيا ومع ان اهل اراغونيا كانوا تابعين للمذهب القتوليقى الرومانى كغيرهم من اهالى اسبانيا ويرغبون كثيرا فى قطع عرق الضلالات والبدع التى عرضها المسلمون واليهود فى بلادهم قاموا على قضاة هذه المحكمة القتوليقية وشهروا عليهم السلاح وقتلوا رئيسهم ومكثوا زمنا طويلا لا يعطلون انشاء هذه المحكمة والسبب الذى ابدوه فى عصيانهم هو ان طرق محكمة التفتيش فى اجراء اقضيتها واحكامها مخالفة للحرية وذلك انه فى هذه المحكمة لم يكن القضاة يحضرون المدعى عليه مع الشهود ويسألونه امامهم بل كانوا يعاونونه ابدا بالشهود به المشهود عليه وانهم كانوا يعذبونه ليقر بما ادعى عليه به واذا ثبت وحكم عليه بعقوبة كانت جميع امواله فيا لبيت المال (ذكره دوريتا)

ثم ان شكل حكومة مملكتى والنسية وقطلونيا اللتين ضمتا الى مملكة اراغونيا كان ملائما للحرية كشكل حكومة اراغونيا حيث كان اهل والنسية يتمتعون بحرية الاجتماع او التعاهد بالمعنى السابق كاهل اراغونيا ولكن لم يكن لهم قاض يشبه الجوستيسيا واما اهل قطالونيا فكانوا يغارون ايضا على حريتهم كاهل اراغونيا واهل والنسية وكانوا يدافعون عنها بقوة عزم وشجاعة كاهالى هاتين المملكتين ولا حاجة الى ان نعيد اكثر مما ذكرناه فى شأن الخصوصيات التى كانت ثابتة لهذه الممالك بالنظر الى ترتيبها وقوانينها لان ذلك ليس بلازم فى توضيح ما قدمناه فى الاقناع

المبحث الثالث والثلاثون

فى بيان قوله وكان عدد وكلاء المدن كثيرا الى قوله فى الدولة بصحيفة (١٤٦) من مطلب قانون قسطيلة وحكومتها بصحيفة (١٤٥) من القسم الثالث

طالما بحث ناس عن طائل في تآليف مؤرخي مملكة قسطيلة عن فوائد يمكننا ان نعرف بها درجات تقدم شرائع الحكومة في هذه المملكة او توضح كيفية ترتيبها وقوانينها على وجه الصحة كما فعلت ذلك في قوانين اراغون وحالتها السياسية فان جميع تواريخ قسطيلة وكذلك شرائعها القديمة لاسيما كتاب الشريعة المسمى لوفويرو وجوزكو تدل على ان ملوك قسطيلة كانوا في الاصل يولون على سبيل الانتخاب فكان ينتخبهم الاساقفة والاشراف والرعية ولقد عرف بعض ناس هذا الكتاب القانوني المذكور ان حقوق ملوك قسطيلة ومزاياهم كانت قليلة جدا وقد ذكر المؤلف ويلاديكو في شرحه على شرائعها بعض حوادث واسباب تثبت هذين الامرين واما العالم جيدوس الذي كان عارفا حق المعرفة بكتب اسباب الاديرة ونوادرها فانه يشكي من كونه لم يجد احدا من المؤلفين بين بيانا شافيا ما يتعلق بشورة القورطس او الجمعية الملية الكبيرة التي كانت تنعقد في قسطيلة وتوضيح كيفية انعقادها وبيان مقدار عدد نوابها الذين كان لهم الحق في حضورها ولكن ذكر المؤلف جيل كوزال داويلا الذي الف تاريخ هنرى الثالث في بعض مكاتيب ومراسلات حررها هذا الملك الى مدينة ابولا تفيد ان هذه المدينة قد انتخبت وكلاء ارسلتهم الى شورة قورطاس التي عقدها الملك سنة (١٣٩٠) ويستفاد مما قاله هذا المؤلف ان احبار القسيسين والدوقات والملتزمين ورؤساء المراتب الثلاثة العسكرية والكونتات واكابر الاشراف كل هؤلاء دعوا الى الحضور في تلك الشورة وكانوا فريقين فريق القسيسين وفريق الاشراف وكانا عضوين لهذه الشورة المشرعة وكان هنالك ثمان واربعون مدينة بعثت رسلا ينوبون عنها تلك الشورة وكان مقدار هؤلاء الرسل يبلغ مائة وخمسة وعشرين (لان كل مدينة كان لها الحق في ان تبعث الى تلك الشورة من الوكلاء بحسب قدرها وعظم شوكتها) كما ذكره جيدوس واما تكلم زوريتا الذي كانت عنده الصدق والتحقيق

على مشورة قورطس التي عقدها الملك فرديناند في مدينة طورو سنة ١٥٠٥ ليثبت لنفسه حق الملوكية على قسطيلة بعد موت زوجته الملكة ايزابله ذكر اسماء ارباب هذه المشورة واسماء المدن التي ارسلت وكلاءها اليها ويظهر من كلامه انه لم يكن في تلك المشورة من وكلاء المدن الا ثمانية عشر رسولا وبين هذا القدر والمتقدم بون بعيد بالنظر لما بين المشورتين وليس في وسعنا توجيه ذلك ولا بيان سببه

المبحث الرابع والثمانون

في بيان قولنا في المطلب السابق عن رأي الاشراف الى قولنا ملوكهم اعظام بصحيفة (١٤٨) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

كان معظم اراضي اسبانيا للاشراف ويقال ان العالم مارينوس سيكولوس في ايام الامبراطور شرلكان كتابا ذكر فيه اشراف اسبانيا ومدخولات مواضعهم ونص على ان ما ذكره في هذا الشان صحيح بالكلية وعلى مقتضى كلامه تبلغ سنويات اراضي الاشراف مليونا واربعمائة واثنين وثمانين الفا من الدوقات (نوع من النقود) واذا قابلت بين قيمة النقود في القرن الخامس عشر وقيمتها الآن ولاحظت ان مارينوس المذكور لم يتكلم في تاليفه الا على اكابر الاشراف الممتازين بذوي الالقاب ولا سيما الفاخرة رأيت هذا المبلغ جسيما جدا * وكانت جمعيات مملكة قسطيلة البلدية في اجتماعاتها ومجادلاتها مع الملك التي سيذكرها المؤلف في غير هذا المبحث تشكي من اتساع اراضي الاشراف وتدعي ان هذا الامر مضر بالمملكة ويستفاد من بعض العرضحالات التي كانت تقدمها هذه الجمعيات البلدية ان الملك لم يكن له اكثر من ثلاث قرى في المسافة الكبيرة التي كانت بين اقليم الاندلس ومدينة سنتياقوس في اقليم غاليس مع ان هذه المسافة كان مقدارها مائة فرسخ وما بقي منها كان للاشراف من غير ان يدفعوا عليه خراجا ويظهر مما قاله المؤلفون الذين ذكرهم المؤلف بواديله ان الاملاك الواسعة

التى كانت للاشراف وارباب امارة الشوارى كان قد اعطاها لهم ملوك قسطيلة فى نظير كونهم اعانوهم على طرد المسلمين من المملكة وصار للاشراف بهذا السبب كلمة نافذة وسطوة كبيرة فى المدائن التى كان كثير منها تحت ولاية هؤلاء الاشراف قبل ذلك اى كانوا ملتزميها

المبحث الخامس والثلاثون

فى بيان قوله فى المطلب السابق ايضا واداعلم الانسان الى قوله فى جميع ممالك سبانيا صحيفة (١٥٠) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

قد سبق لك فى المبحث الثامن عشر انه لم يمكننا ان نعرف على وجه الصحة اصل ترتيب الجمعيات الاهلية او المدائن الحرة فى مملكة اسبانيا وانما يمكن ان يقال انه بمجرد خلوص هذه المدائن من رق اسر المسلمين صار يسكنها ناس اعيان ذوو شوكة وصولة ولذلك صار لهم جميع مزايا الاكابر فى الحكومة الاهلية وفى الافتاء والاحكام ويوجد الى الآن براهين جلية تدل على بهاء مدائن اسبانيا الذى كانت عليه وثروتها وشوكتها فقد وصف لنا المؤلف جيروم بولوس مدينة برسلون فشبهها بمدينة نابلى فى الكبر وبمدينة فلورنسه فى ظرف المبانى وكثرة الورش واتساع التجارة وذكر المؤلف مارينوس ما يفيد ان مدينة توليده كانت مدينة كبيرة كثيرة الاهالى وكان فى اهاليها ناس اعيان ممتازون وكانت تجارتها رائجة زاهرة وكان يكثر بها خصوصا ورش الحرير والصوف لان هذين الفرعين كان عدد الناس الذين يشتغلون بهما بلغ نحو عشرة آلاف وقال ايضا لا اعرف مدينة تفضل بطراقتها وثروتها على مدينة توليده انتهى وهناك حادثة تدلك على اهالى هذه المدينة وهى ان سكانها اقاموا (سنة ١٥١٦) على الكردينال اكزيمينس خرج ثلاثون الفا شاهرين السلاح فى هذه الواقعة وكلهم من تلك المدينة ومن الاراضى التابعة لها ثم ان الورش التى كانت فى اسبانيا لم يكن يخرج منها ما هو لازم لاهاليها فقط بل كان يخرج منها ايضا بضائع الى البلاد الاجنبية وهذه

البضائع كانت كثيرا عظيما تغنى منه اهالى اسبانيا وتزداد ثروة ولا يخفى ان القوانين البحرية التى كانت بمدينة رسولون صارت اساسا للقوانين التجارية الموجودة الآن كما ان قوانين جزيرة رودس كانت كذلك اساسا للقوانين التجارية عند الاقدمين لان جميع الايالات التجارية التى كانت فى ايطاليا اتخذت هذه القوانين ووضعت على منوالها فى شأن التجارة ويظهر من بعض الاوامر الصادرة عن ملوك فرانسا ان تجار مملكتى اراغون او اراغونيا وقطلونيا كانوا بموجب هذه القوانين يتمتعون بما كان يتمتع به تجار ايطاليا من المزايا والخصوصيات وبالجملة فكانت المدائن على حالة زاهية زاهرة حتى صارت فى اقرب وقت حزبا محترما فى الجمعية وصار لها كلمة نافذة فى شأن التشريع ووضع القوانين وكان قضاة رسولون يطلبون اعظم شرف كان يدعيه بعض الرعايا فى اسبانيا وهو كونهم يسترون رؤسهم بحضرة الملك ويعاملون كاكابر المملكة واعيانها

المبحث السادس والثلاثون

فى بيان قوله لان امر آخذ المراتب الى قوله ان يساووا ملوكهم فى المقام والاعتبار صحيفة ١٥٢ من مطلب انضمام رياسة الرتب الثلاثة العسكرية الى الملك صحيفة (١٥١) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

كان اعظم واعلى المراتب الثلاثة العسكرية التى ترتبت فى اسبانيا هى رتبة سنتياكوس التى ترتبت سنة (١١٧٠) واقرها فرمان صدر من اسكندر الثالث تاريخه سنة (١١٧٦) وكان فى ذلك الوقت جزء عظيم من اسبانيا فى امر المسلمين وكانت جميع البلدان عرضة لسلب المسلمين واللصوص فترتبت طائفة سنتياكوس المذكورة لاجل طرد المسلمين اعداء النصارى من تلك البلاد ومنع من كانوا سببا فى وقوع القتل والفتن التى كانت تمنع من الامن العام واطمئنان الناس وحيث كان القصد منها ذلك فلا غرابة فى كون الناس قد استحسنوها وساعدوا فى تتميمها ثم ان ثروة هذه الطائفة كانت كبيرة

وكانت شوكتهم قد بلغت الدرجة القصوى حتى قال بعض المؤلفين ان رئيس
هذه الطائفة كان بعد الملك اعظم ارباب الشوكة والامتياز من اهالي اسبانيا
وقد ذكر بعض المؤلفين ايضا ان هذه الطائفة كان لها في مملكة قشطيلة
جميع ما تتطلع اليه وتتطلبه نفوس الملوك كما ذكره ذوريتا

وكان من دأب اهل تلك الطائفة ثلاثة اشياء الطاعة والزهد وعدم الانهماك
مع نسائهم فكانوا يطيعون اوامر رئيسهم وكان يخرج منهم نحو الف رجل
متسلحين وكل منهم كان له اتباع معلومون وعلى حسب عوائد ذلك العصر
كان اتباعهم عصب متنوعة في ميدان الحرب فيؤخذ من ذلك ان رجال هذه
الطائفة كانوا عديدين بحسب نسبتهم * وكان لتلك الطائفة ايضا كثير من المزايا
والخصوصيات كما ذكره المؤلف هورتادو فيسهل حينئذ على الانسان
ان يعرف ان الملك كان يخشى من رئيس هذه الجيوش الذي كان منوطا
بادارة ارادات جمة وكان يتصرف كيف يشاء في كثير من المناصب والمصالح
المهمة * ثم ان الطائفتين الاخريين لم يكونا مثل هذه الطائفة المذكورة
في الثروة ووحدة الكلمة غير ان كل طائفة منهما كانت قوية الشوكة جدا ولكن
لم تتغلب عساكر طائفة سنتياكوس على اقليم غرناطة وتخاصموا بسبب ذلك
من امر اعتقادهم المسيحي الذي هو القصد من انشاء هذه الطائفة قامت
بانفسهم اوهام حديثة بذلوا غاية جهدهم في المراجعة عنه فزادوا على
ميثاقهم القديم شيأ آخر وهو انهم قالوا باحد المواثيق على انفسنا انا نعتقد
ان السيدة مريم ام عيسى قد حملت به من غير شيء مثبتين ذلك وان النصارى بهذا
الاعتقاد بجمهورهم واحدا انتهى وكان ظهور هذا الوهم في اثناء القرن
السابع عشر ولم يكن هذا القول خاصا بطائفة سنتياكوس بل كذلك طائفة
كلتراوه التي هي ثاني طائفة من الطوائف العسكرية الثلاثة اظهرت الغيرة
التامة والشجاعة والعزم في هذا الامر الذي فيه تشريف مريم لانهم كانوا
من جملة النصارى الامناء وقد عبروا عن هذا المقصد بعبارة كلامية ادق من
عبارة طائفة سنتياكوس حتى يمكن ان عباراتهم يسر بها من اطلع عليها

من امة الانكليز

ومن ذلك استنبطنا ذكرها هنا فنقول ان كل من انتظم في سلك هذه الطائفة يؤخذ عليه الميثاق امام من كان منوطا بذلك وصيغة ميثاقه ان يقول مما التزم به لله تعالى ولرئيس طائفتنا ونائبها المنوط باخذ المواثيق اذ ذلك خليفة الله في ذلك انى من هذا الوقت الى ما لانهاية اعتقد اعتقادا جازما ان السيدة مريم ام عيسى عذراء وانها حملت به من غير ان تاتى شيأ فريا ولم ترتكب في حياته ما يدنس عرضها وانها عند هذا الحمل السعيد وامتزاج روح اقدس بجسمها امر الله تعالى عليه بصيانتها عن ارتكاب الفاحشة ونظير ما حصل حبابعض من التعذيب والاساءة والقتل لابنها الذى انقذنا معاشر البشر من عقاب الخطيئة التى اقترفها آدم حيث سبق ذلك في علمه تعالى وهذا الشرف انواع المدد التى تعلقت بها ارادة الله تعالى في شان بنى آدم وانقاذهم من شدد وواد وحصته عقيبه عنهم وتعهد بانى احيى واموت على هذه العقيدة معتقد الشرف لسيدة مريم بحسب تنزيها عن الامر المذكور وهذا الشرف من تعلقات قدرة الرب القدير الذى له خرق العوايد انتهى ومع ان كنيسة رومه ابت ان تضع اقرارها على هذا الرأى وهو ان الحمل كان مع الصيانة من قبل كل من الطائفتين القسيسين وهما طائفة سندومنيق وطائفة سنفرنسوا ترى المخالفة لهذا الرأى اشتهر اهل اسبانيا بالطبع على هذه العقيدة المشرفة للسيدة مريم حتى ان ملك اسبانيا في سنة (١٧٧١) رتب طائفة عسكرية جديدة لتشهر بها ولادة حفيده وجعلها تحت حماية العذراء نظرا لاكرامها من الله تعالى حيث حملت بعيسى من غير ان يمسها بشر وحيث ان هذه لعيرتها نوع شبه بالغرض الاصلى من ترتيب امارة الشوالرى فلا غرو ان هذه الطائفة مكثت مقبولة بين الطوائف العسكرية مدة تولع الناس بالامارة الشوالرية ولكن في عصرنا هذا يتعجب من احداث مثل هذه الطائفة الشهيرة لاجل تأييد رأى غريب لا مستند له في الانجيل

المبحث السابع والثلاثون

في بيان قوله بصحيفة (١٥٤) بل عرف ان يستفيد من هذه الحادثة الى قوله وتصام الجمعية من المطلب السابق

قد نبهنا في مواطن كثيرة مما يتعلق بتاريخ القرون الوسطى على اختلال السياسة وعدم الضبط والربط في تلك القرون لضعف الحكومة وعدم الارتباط كما ينبغي بين طوائف الناس وسبق لك في بعض المباحث ان هذا العيب اعان كثيرا على منع المخالطة بين الامم بل وبين اهل المملكة الواحدة فاذا اطلعت على تواريخ اسبانيا ورأيت ما فيها من كثرة القتل والسلب والظلم الذي كان يحصل في اسبانيا تأثرت نفسك وتشوش ذهنك وتصورت ان حالة تلك المملكة وقتئذ كانت تقرب من حالة الفطرة التي هي حالة اختلال وفشل فمن كثرة الغش والتعسفات لزم انشاء محكمه سميت سنتهرمنداد ولكن كانت خواطر الاشراف تراعى حينئذ كل المراعاة حتى كان يحترس الغاية في اول الامر من كون انشاء هذه المحكمة يضر بالاشراف او يعكر عليهم في شئ صار انشاء هذه المحكمة مقصورا على ان تبحث عن معرفة الجنايات الكبيرة التي تضر بالامن العام واما غيرها من الجنايات فكان منوطا بالقضاة المعتادين فكان الانسان اذا ارتكب خطيئة كبيرة كنقض الميثاق وما اشبه ذلك وطلب امام قضاة محكمة سنتهرمنداد لا يمكن لهؤلاء القضاة ان يحكموا عليه بغرامة من عندهم وانما كانوا يحيلون دعواه على قاضي بلده ومع ذلك كله استشعر بارونات المملكة ان هذه المحكمه على طول الزمان تضر بحقوقهم وامتيازاتهم فتوقفت جمعية القورطس بمملكة قسطيلة في ان تقر انشاء هذه المحكمة ولكن تحيل الملك فرديننده على رئيس تلك المملكة حتى رتب هذه المحكمة في الجزء الذي كان فيه اراضي هذا الرئيس والتزاماته من مملكة قسطيلة وهذا الامر بانضمامه الى اقرار اهل اسبانيا انشاء هذه المحكمة اعان الملك فرديننده على ان ازال جميع

العوائق الاخرى التي كانت تحول بينه وبين مقصده من انشاء محكمة سنتهرمنداد وقد تحزب اشراف اراغونيا على منع احداث هذه المحكمة وناقضوا فيها بجميع جهدهم فدافع عنها الملك فردينند اعظم المدافعة ومع ذلك اضطر الى ان رخص لهم في بعض ما كانوا يطلبونه لاجل تسكين غضبهم كما ذكره ذوربتسا * والظاهر ان محكمة سنتهرمنداد كان لها في قسطيلة شوكة كبيرة وايرادات واسعة وقت ان كان الملك فردينند يتجهز لقتال المسلمين الذين كانوا باقليم غرناطة وذلك ان هذا الملك طلب منها ستة آلاف من الدواب لحمل الاحمال وجر المواد والاثقال وطلب ثمانية آلاف من الرجال لاجل توصيل هذه الدواب فاعطته ما طلبه * وفيما بعد عرف اهل اسبانيا ان انشاء هذه المحكمة شيء مهم نافع جدا لحفظ الامن العام ومنع الناس عن ارتكاب الذنوب وانواع المظالم حتى ان هذه المحكمة توجد بها الى الآن مع انها ليست بلازمة ولا يحتاج اليها الآن في دفع شوكة الاشراف ولا في توسيع دائرة شوكة الملوكية

المبحث الثامن والثلاثون

في بيان مطالب شوكتهم من الجمعيات العمومية في الدولة الفرنساوية انظر صحيفة (١٥٥) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لاشيء يوقع الانسان في الزلل والخطأ اكثر من كونه يحكم على قوانين الاعصر الماضية واخلاقها بموجب قوانين عصره واخلاقه ومع ذلك فهذا امر شائع كثير بين العلماء فانه لما ظن فقهاء مملكة فرانسا المهرة ان ملوكهم كانوا يتمتعون في القرن السادس والسابع بشوكة كبيرة وكانوا مطلقي التصرف ظنوا انه يجب عليهم ان يثبتوا انه كلما كانت حكومة فرانسا ملوكية ثبت لملوكها الشوكة واطلاق التصرف حتى ان المؤلف دبال لما تكلم على عصره وكانت فيه حكومة فرانسا ملوكية قال ان حكومة فرانسا الآن ملوكية محضة كما كانت كذلك من مبدأ امرها وان ملوك معشر الفرنساوية كانوا في الاصل مطلقي التصرف كما هم الآن انتهى * ومع ذلك لم يعهد في الجمعيات المدنية

حالتان متباينتان اكثر من حالة المملكة الفرنساوية فى ايام الملك قلوديس وحالتها
فى ايام الملك لويز الخامس عشر * ويظهر من قوانين الطوائف التى كانت
استوطنت ببلاد الغلية وبالبلاد المجاورة لها ومن تاريخ للمؤلف اغرغوار
التورساني وغيره من المؤرخين الاقدمين ان صورة الحكومة بين هذه
الطوائف كانت خشنية جدا فانهم كانوا وقتئذ آخذين ان يعرفوا بعض اشياء
من اصول النظام والضبط والربط اللازم لعقد كل جمعية كبيرة وكان للملك
او للرئيس شوكة ونفوذ كلمة على العساكر ولكن لم يكن ذلك خوفا منهم بل كان
بارادتهم واختيارهم حيث كانوا لا يجبرون اصلا فى شأن مشروع حربى
ولذا كانت تسميتهم اصحابا اولى من تسميتهم عساكر وقد برهنا على ذلك
بطريق جلى فى البحث السادس * وقد ذكر المؤلف اغرغوار التورساني واقعة
حربية تدل على ان ملوك فرانسا سابقا كانوا فى طوع عساكرهم وحاصل
هذه الواقعة ان الملك قلوتير الاول سنة (٥٥٣) توجه الى قتال السكسونيين
فلما وصل بجيوشه اليهم فزعوا منه وطلبوا الصلح والتزموا ان يدفعوا له مالا
جسيما لاجل ان يكف عنهم غضبه وغيظه فرضي قلوتير بذلك وعزم على عدم الحرب
ولكن لم يرض عسكره بذلك بل شددوا عليه بان لا يقبل شيئا وان لا بد من
الحرب معهم فصار الملك يقص حججه عليهم ان يقبلوا الصلح من السكسونيين
على هذه الشروط بل عرض السكسونيون على انفسهم ان يعطوا لعساكر
هذا الملك مبلغا اكبر من المبلغ الذى التزموا به للملك اولا ولما الح هذا الملك على
العساكر ان يرضوا بالصلح غضبوا منه وهجموا عليه فى صيوانه ومزقوه
وصاروا يسحبونه حتى اخرجوه منه وهموا بقتله لولا رضاؤه حالا بالتوجه
معهم لمصادمة الاعداء آه

وحيث كانت شوكة قدماء ملوك فرانسا ضيقة على هذا الوجه مع جيوشهم
يستفاد من ذلك ان من ايام مدة الصلح كانت اضيق من ذلك * وكانوا يولون
منصب الملوكية على سبيل الانتخاب من طرف الرعايا لا على سبيل الخلافة
والوراثية ولا حاجة الى ذكر ما يستدل به على ذلك من عبارات المؤلفين واتم

فعليك على الكتاب المسمى تاريخ العلية الفرنساوية فانك تجد فيه براهين جلية على ذلك مستنبطة من كتاب المؤلف اغرغوار التورساني والمؤلف ايوان وغيرهما من المؤرخين الثقاة الذين كتبوا تاريخ الدولة الاولى من دول ملوك فرانسا ولاشك ان القصد من تولية الملوك على سبيل الانتخاب هو ان لا يكونوا مطلقي التصرف في اعمالهم واوامرهم لان جميع ما يخص مصالح الملك كان امره يعرض لمشورة الملك وكان ينعقد لهذا الشان في كل سنة مشورتان احداهما تسمى غيط ابار والاخرى تسمى غيط ادار وانما سمي مثل هذه المشاور الملية غيطا لان الامم الخشنين كانت عادتهم ان يعقدوها في الخلاء في بعض سهول واسعة جدا حتى تسع الناس الكثيرين الذين كان لهم الحق في الحضور بها كما ذكره المؤلف مور بوروس وانما سميت احداهما غيط ابار والاخرى غيط ادار لانهما كانتا تنعقدان في هذين الشهرين فما كانت تنعقد في شهر ابار سميت غيط ابار وما كانت تنعقد في شهر ادار سميت غيط ادار وكانت غيط ابار تسمى ايضا مشورة ابار وغيط ادار تسمى مشورة مارس وقال بعض المؤرخين انه في هذه المشاور كان يبحث عما فيه سعادة المملكة ونفع الملك كما ذكره المؤلف مريديكير والمؤلف دوكنج وقد سرد الملك قلوتير الثاني المواد التي كانت هذه المشاور منوطة بها واقرانها بالشوكة ونفوذ الكلمة فقال انما جمعت هذه المشاور لان جميع ما يخص الامن العام ينبغي ان يحكم فيه بمشورة عمومية فيجب علي حينئذ ان اعمل على وفق ما يضبط عليه الرأي فيها انتهى كذا ذكره المؤلف ايوان في تاريخ فرانسا والمؤلف بوكيت في كتابه المسمى زبدة التواريخ ثم ان الخلاصات او الاوامر التي كان يستقر عليها الرأي في تلك المشاور وتنشر في المملكة ليجري العمل عليها لم تكن باسم الملك وحده بل كان ارباجها يضعون فيها امضاآتهم فقد قال الملك شلدبيرت في خلاصة صدرت سنة (٥٣٢) ما معناه قد وقعت منا المذاكرة مع البارونات بمشورة ادار في بعض المصالح فكانت نتيجة ذلك ما نشره الآن ليعلمه الخاص والعام انتهى كذا ذكره بوكيت وقال هذا الملك ايضا في خلاصة اخرى قد

انه قسامع بعضنا على كيب وكيت انتهى ذكره بوكيت ايضا وقال ايضا
فى خلاصة اخرى انفقنا مع بعضنا فى المشورة التى اجتمعنا فيها جميعا انتهى
قاله بوكيت وبالجملة فالقوانين السالكية التى هى اعظم القوانين الفرنساوية
كانت كلها على هذا الوجه وكانت الوثائق التى تصدر عن ملوك الدولة الاولى
ينصون فيها على انها عن رضاء اتباعهم ولما تكلم المؤرخون على الوظائف
التى كانت للمداولة فى المشاور المليه ذكروا عبارات تدل على ان الشوكة الملوكية
كانت ضيقة جدا وان كل شئ كان يعرض ديه للمشورة كما فى تواريخ الفرنك
المتعلقة بمشورة دار

وكانت المشاور العمومية تجرى احكامها وارافتاتها الواسعة على جميع
الناس وتعمل بها فى سائر انواع الدعاوى والخصومات وهذا امر جلى
لا يحتاج الى برهان ويكفى فى اثبات ذلك ما حكم به على الملكة برنهوت
سنة (٦١٣) حيث عمل به وان كان من باب الظلم كما ذكره المؤلف فرديكير
فان ما اشتمل عليه هذا الحكم من القسوة والالم يكفى فى الدلالة على اتساع
حكم هذه المشاور واتساع دائرتها حيث ان الملك الظالم قلوتير الثانى طلب ان اقرار
المشورة الاهلية لما حكم به فى شان تلك الملكة التى هى ام وجدة لكثير من الملوك
ليعادل ذلك الحكم الظلمى الخسيس واما الاموال التى كان يدفعها الناس للملوك
فانها كانت قليلة لان اخلاق ذلك العصر وقوانينه السياسية كانت خشنية
بحيث كانت احتياجاتهم قليلة فما كانوا يعرفون عوائد ولا غرامات وانما
كانوا يدفعون تلك الاموال القليلة بالطوع والاختيار وذلك دليل على
انه لم يكن يفرض عليهم غرامات معينة وكان ذلك عادة للجرمانيين والامم التى
خرجت من بلاد جرمانيا ولما تكلم المؤلف تاسيت على طائفتين من الطوائف
القديمة استدل على انهما ليستا من الجرمانيين بانهما كانا يدفعان غرامة
معينة وتكلم ايضا على طائفة من الجرمانيين فقال انها لم تتغير عوائدها
لانها لم يكن عليها غرامات معينة ومن المعلوم ان هؤلاء الامم لما استوطنوا
بلاد الغالة لم يزالوا محافظين على شعارهم القديم وعلى ما توارثوه عن اسلافهم

من الشمم والتعالى فلم يرضوا ان يفرض عليهم غرامات لانهم رأوا فيها شائبة استعباد واذلال كما يؤخذ ذلك من تواريخ القدماء والآثار القديمة وقد بحث كل من المؤلف مونتسكيو والمؤلف مبلى عما يتعلق بهذا المعنى وجالا بأذهانهما فى ذلك الغرض فذكرا براهين جلية على ان اصحاب العقارات الاحرار من الفرنك لم يكونوا ملزومين بدفع شئ على عقاراتهم وعلى ان الدولة ليس لها طلب عليهم فى شئ الا فى الخدمة العسكرية ومصاريفهم فيها من اموالهم وكان يلزمهم ايضا ان يقبلوا الملك فى منازلهم اذا مر بهم فى ذهابه الى جفالكه وان يعطوا للضباط خيولا وعربات اذا كانوا مبعوثين بصدد دعوى تخص العامة ولم تكن ايرادات الملوك الا من جفالكهم ومما يكتسبونه فى محاكمهم من محصول الدعاوى ومما يفرضونه من الغرامات الثقيلة على من ثبت عليه جناية ولا يليق بهذا المختصر ان نتعرض لسرد هذه الاشياء تفصيلا وان اردت ذلك فعليك بكتاب المؤلف مبلى المسمى بالملحوظات السنية على تاريخ الفرنساوية

واذا اتفق ان هؤلاء الاحرار اعانوا الملوك باعانات كبيرة فانما كان ذلك بمحض اختيارهم وكان من عادة مشورتى ابار واذار اللتين كانتا تنعقدان فى كل سنة ان يهديا الملك هدايا من الاموال والخيل والاسلحة او غيرها من الاشياء النفيسة وهذه العادة القديمة توارثها الفرنك عن اسلافهم الجرمانيين واذا نظرنا الى عبارات المؤرخين فى شأن تلك الهدايا وجدناها عظيمة جدا بحيث انها كانت جزأ عظيما من ايرادات الملوك السنوية وقد نقل دوكنج جملة من هذه العبارات وربما كانت بعض الملل المهزومة تعين للملك المقدار الذى تدفعه له فى كل سنة فاذا امتنعت من دفعه طولبت به كانه دين فى ذمتها والظاهر ان هذه الهدايا وتعيين قدرها فى بعض الاحوال هو منشأ العوائد والغرامات فهى وان كانت فى مبدء امرها اختيارية الا انها صارت فيما بعد الزامية بمعنى ان كل امة يلزمها ان تدفع ما هو مقرر عليها ويوجد الى الآن وثائق اصل تلك الغرامات ويفهم منها ان الاعانات التى كانت تعطى للملوك

ذلك في جميع ممالك اوروبا كانت تسمى تبرعات او هدايا وملوك فرانسا
الذين هم من الدولة الثانية كانت تنتخبهم الامة وتوليهم المنصب الملوكي قال بعض
المؤرخين من عصر الملك بيبان ان هذا الملك التقي جلس على السرير بامر
البابا وانعام المسيح وانتخاب جميع الفرنك انتهى ولكن لما كان رؤساء
الامة قد نزعوا تاج المملكة من عائلة واعطوه لعائلة بيبان اخذ عليهم الميثاق
ان لا ينزعوه من هذه العائلة الثانية فمكثت الامة محافظة على هذا الميثاق
مدة طويلة وخلف بيبان على الكرسي ذريته فلما اقتضى الحال ان تقسم
الممالك بين افراد العائلة الملوكية اضطر من آل تلك العائلة ان يشاوروا
في ذلك المشورة الاهلية العمومية وكان الملك بيبان قد ذكر في شأن
ولديه كرلوس وكرلمانيا سنة (٧٦٨) انهما بعده يحكمان المملكة معا
ولما كان هذا الامر يتوقف على رضا المشورة الاهلية فوض لها الملك
المذكور الامر في هذا الشأن

ثم ان الفرنك عقدوا لهذا الامر مشورة بعد موت الملك بيبان ولم يكن الغرض
من انعقادها مجرد تقليد الاميرين المذكورين المنصب الملوكي ذكره المؤلف
ايجنهرت بل بتوا فيها ايضا ما يكون لكل منهما من الممالك والالتزامات
وبهذه المشورة كانت تنتهي جميع المشاجرات التي كانت تقع بين العائلة
الملوكية وقد اقر الامبراطور شرلمانيا افتاء هذه المشورة في هذا الشأن واثبته
لها في الوثيقة التي صدرت منه اليها لتقسيم ممالكه بين عائلته حيث قال
اذا تنازع جماعة في التاج الملوكي ولم يظهر المستحق من غيره فللامة ان تنصب
من تلبسه التاج انتهى

وفي زمن ملوك الدولة الثانية كانت مشاورة كونوانتوس اونالي الاهلية المسماة
ايضا بلاسيتا تنعقد في السنة مرة ومرتين ومن اعظم تواريخ فرانسا مختصر
المؤلف هنكمار مطران ريمس الذي مات سنة (٨٨٢) بعد
الامبراطور شرلمانيا بثمان وستين سنة ذكر فيه الحوادث التي استفادها من
وزير كرلوس ماتوس والامين سره المسمى ادلهرد فذكر هذا المطران ان كرلوس

مانوس كان يعقد فى كل سنة المشورة الاهلية العمومية فكان اربابها يتذاكرون فى شأن ما يخص الامن العام ونفع المملكة قبل المذاكرة فى المصالح الخصوصية ثم ان خلفاء كرلوس مانوس الذين حكموا بأثره اقتدوا به وصاروا لا يدبرون امر مصلحة مهمة الا بعد رضاء المشورة الاهلية العمومية

ثم انه فى ايام الدولة الثانية المذكورة كان أغلب الحكومة الفرنساوية دوموقراطيا (اى يحكم فيها رأى جمهور الاهالى) ولم تكن تلك المشورة من خصوصيات الاشراف والقسيسين اصحاب المناصب و كار ضباط المملكة بل كان للاحرار من الاهالى حق فى الحضور فيها امابانفسهم او وكلائهم وقد وصف المؤلف هانكومار كيفية انعقاد هذه المشورة قال انه فى مدة الصحو وعدم المطر كانت تنعقد فى الخلاء واما فى زمن الغيم والمطر فكانت تنعقد فى عدة محال وكان لكل طائفة من اربابها محل مخصوص فكان ارباب المناصب من القسيسين متميزين عمن لا منصب له منهم وهم الاذييك وكان الاعيان والاكابر متميزين ايضا عن غيرهم وكان لكل من الاهالى واعظم ارباب المناصب فى الدولة حق فى التشريع وترتيب القوانين ولذلك صدر أمر سنة (٨٠٣) مضمونه انه اذا اريد ترتيب قانون جديد لزم عرض ذلك على الاهالى للتذاكر فيه فاذا رضوا به واقروه جرى به العمل بمقتضى امضاء وكلاء الاهالى انتهى وهناك اوامر اخرى تدل دلالة واضحة على ان الاهالى كان لهم مدخلية فى تدبير الحكومة

وكان للاهالى اذا الحقهم امر يضر بهم الحق فى التشكى للملك وطلب الانصاف منه فمما عرضوه للملك فى هذا الشان تقرير طلبوا فيه ان القسيسين يعافون من حمل السلاح ومباشرة الحرب بانفسهم وتاريخ هذا التقرير سنة (٨٠٣) وكان معروضا على الايمبراطور كرلوس مانوس ومن اطلع على عبارته علم انه لا يجترأ على مثله الا من كان من الحرية والمزايا بمكان حيث ان عبارتهم تدل على انهم ان ارادوا بقاءهم رعية له مع الامانة يتوقف مطاليبهم على ما يعطيه لهم

من المزايا

من المزايا وخصوصا من كون هذا الامبراطور الاكبر يغضب من هذه الجساره اباب مطلوبهم بالبشاشة ولين الجانب واظهر لهم انه يميل الى تنفيذ اغراضهم وتحبيز رغوباتهم غير انه لما كان يعلم انه لا يستبد بترتيب القوانين وليس مستقلا بالتشريع وعدهم ان يعرض هذا الامر للمشورة العمومية لان مصالح الرعايا يلزم فيها التشاور والمذاكرة من عموم الناس فاذا انحط عليها الرأى نظمت فى سلك القوانين الجارية

وهاك مايدلنا على كيفية قبول المشورة العمومية مطالب الرعايا بعد احالتها على المشورة المذكورة ويدلنا ايضا على كيفية نظم هذه المطالب فى سلك القوانين الجارية فى المملكة وبيان ذلك ان يقرأ تقريرهم فى المشورة باعلى صوت ثم يلتمس من الاهالى ان تفيدهل اقرت هذا التقرير اولا فان كانوا يرضون بذلك قالوا باعلى اصواتهم ثلاث مرات نحن مسرورون من ذلك وعند ذلك يضع الملك والقسيسون واكابر اللاييك امضاآتهم على التقرير ليجرى العمل عليه ويؤخذ من القانون الذى صدر من الملك كرلوس الاصلع سنة (٨٥١) ان الملك لا يمكنه ان يمتنع من اقرار ما يعرضه الرعايا فى المشورة العمومية ويقبله اربابها

ولا حاجة الى الاكثار من عبارات المؤلفين لنستشهد بها على ان حق التشريع فى مملكة فرانسا مدة الدولة الثانية كان منوطا بمشورة الملة وان تلك المشورة كان لها الحق فى عقد الصلح او الحرب فان اتحاد سائر القوانين الصادرة فى حق التشريع يكفى فى الاستشهاد على الدعوى الاولى (وهو كون حق التشريع منوطا بمشورة الملة) واما الدعوى الثانية وهى عقد الصلح او الحرب فان شواهدها الجلية مذكورة فى الكتاب المسمى اصل الحكومة الفرنساوية والحكومة الفرنساوية القديمة فى المجلد الثالث منه فراجعه ان شئت

وماذكرناه من انه كان للاهالى حق الحضور فى المشورة العمومية بانفسهم ووكلائهم هو مما ينبغى الالتفات اليه لانه مع دلالته على تقدم الحكومة

الفرنساوية حصل نظيره فى انكلترة اذ شرعت الجمعيات البلدية فى ان تصير من ارباب مشاور التشريع ووقع فى تلك المملكة اضطراب عظيم لهذا المرض

المبحث التاسع والثلاثون

فى بيان مطلب تغلب الملوك على حق التشريع بصحيفة (١٥٧) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

هذا التغيير المهم الذى حصل فى ترتيب مملكة فرانسا بانتقال حق التشريع من المشورة الاهلية الى الملوك لم يعتن به المؤرخون ولم يفصلوه تفصيلا شافيا كغيره من المواضع التى اطنبوا فيها فلذلك صرفت الهمة فى بيان الوسائل التى ادت لهذا التغيير العظيم واضفت الى ذلك بعض اشياء توضح هذه الحادثة فنقول ان القوانين السالكية او السالبة وقوانين البرغوتيين وغيرها من القوانين التى نشرتها الطوائف التى استوطنت بلاد الغالة كانت عامة جارية على كل انسان وفى كل اقليم وخط من المملكة التى ترتبت فيها تلك القوانين ثم بطل التشديد فيها بسبب ظاهر وهو انه لما ترتبت هذه القوانين كانت جميع العقارات معافاة من الغرامات وغيرها فلما ترتبت القوانين الالتزامية نشأ عنها كثير من المجادلات والمنازعات فى شأن هذه العقارات ولم يكن فى القوانين القديمة ما يحل هذه المشكلات الجدالية حيث لم تكن مشتملة على اصول تلائم امرا لم يكن زمن ترتيبها فبهذا التغيير الحاصل فى شأن العقارات لزم نشر القوانين الجديدة التى تضمنتها الشرائع الفرنساوية فانها بالاطلاع عليها يعلم انها غالبا لا تخص طائفة دون اخرى من الطوائف الفرنساوية بحيث انها كانت ترتبت فى المشاور العمومية ثم ان ضعف اغلب ملوك الدولة الثانية من فرانسا وما حصل فى مملكتهم من الاختلال الناشئ عن اعتداء الثور متدين اعان البارونات على ان يكتسبوا شوكة كادوا يكونون بها مطلقى التصرف وكان هذا الامر قبل ذلك غير معروف فى فرانسا

وقد بينا فى بعض المباحث السابقة كيفية افتتاحهم واتساعها وترتب على اكتسابهم لهذه الشوكة ان انقطعت العلائق المدنية والارتباطات السياسية بين اهل الدولة وتغير النظام القديم ولم يبق من العلائق بين الملك واتباعه الا علاقة التزامية محضة فضاقت دائرة الاحكام الملوكية بحيث صارت لا تجرى الا فى جفالك الملك والتزاماته ثم تلاشت الجفالك الملوكية فى اواخر الدولة الثانية واضمحلت فى مبدء الدولة الثالثة بحيث ان معظمها كان منحصرا فى التزامات الملك هوغس كابيت الى ورثها عن آبائه لانها كانت اضيفت الى الجفالك الملوكية ومع انضمامها اليها كانت الالتزامات الملوكية قليلة جدا كما فى تاريخ فرانسا للمؤلف ويلى

ثم ان عدة من الاقاليم الكبيرة فى فرانسا لم تقر اولاهوغس كابيت مالكا عليها زاعمة انه لا يستحق ذلك شرعا فكان هذا الملك فى مبدء امره مشارعا فى تولية بحيث لم يكن فى وسعه تأييد الاحكام الملوكية ولا نقض احكام البارونات

وبجميع هذه المقتضيات سهل على البارونيين ان يتغلبوا على الحقوق الملوكية فى شأن جفالكهم بحيث يكونون فيها كالملوك وصارت قوانين فرانسا القديمة والجديدة نسيا منسيا وتعدد فى كل محل عوايد مخصوصة صارت بمفردها فيما بعد قوانين يجرى العمل عليها فى المعاملات المدنية وفى سائر الدعاوى ومما اعان على انشاء هذه القوانين التى اوجبتها العادة ما كان عليه الفرنساوية من الجهالة العامة فى القرن التاسع والعاشر فكنت لا ترى عامة القسيسين انسانا يعرف القراءة الا القليل فبذلك كان يتعذر مراجعة القوانين المسطرة ليعلم الحكم فى شأن مصلحة خصوصية اوفى اجراء الاقضية الشرعية فوجب ان يكون مدار ادارة المملكة على القوانين التى اوجبتها العادة

والظاهر انه فى هذه المدة لم تنعقد مشورة اهلية قط ولم تحفظ بكونها رتبت قانونا تنظر فى ملك القوانين الجارية وذلك ان سائر الاشياء كان يعمل فيها

بمقتضى العوايد المحلية اى كان يعمل فى كل محل على حسب عادة اهله واذا تتبعت تقدم القوانين الفرنساوية وجدت هذا الامر ظاهرا جليا وآخر قانون من القوانين الفرنساوية التى جمعها المؤلف بالورة هو الذى صدر سنة (٩٠١) من الملك كرلوس لوسنبل ولم يتجدد بعده قانون مدة مائتين وثلاثين سنة وبعد تلك المدة ظهر قانون ذكره المؤلف لوربير فى كتابه فهو اول قانون صدر من ملوك الدولة الثالثة بعد المدة المذكورة * واول قانون يستحق ان ينخرط فى سلك الشرائع هو القانون الذى صدر من الملك فيليبش اغسطوس سنة (١١٩٠) فانه انتشر فى جميع اقاليم المملكة وهذه المدة الطويلة التى هى مائتان وتسع وستون سنة من سنة (٩٢١) الى سنة (١١٩٠) كان يعمل فيها بالقوانين العادية السابقة ولم يتجدد فيها شئ على شرائع المملكة القديمة وقبل حكم فيليبش اغسطوس كان هناك قوانين لا يعمل بها الا فى الالتزامات الملوكية

وثم عدة شواهد تدل على ما كان قائما بالملوك من الاحتراس حين اخذهم فى ترتيب قوانين تنشر فى المملكة فقد ذكر المؤلف مبلى الامر الذى صدر من الملك فيليبش اغسطوس سنة (١٢٠٦) فى شأن اليهود الساكنين باراضى الملتزمين وكان كل ملتزم يتصرف فيمن كان بارضه منهم على سبيل انهم ملك يمينه واذا تأملت هذا الامر وجدته اشبه بمشارطة خصوصية بين الملك المذكور وكل من قونتيسة شمبانيا وملتزم دامبير لا امر ملوكى «اى» فان ما تضمنه هذا الامر من القوانين كان عن رضاهما لا بمحض الزام الملك

وكذلك الاوامر التى صدرت عن الملك لويز الثامن سنة (١٢٢٣) فى شأن اليهود فانها كناية عن عقد مشارطة بين الملك واشراف مملكته فيما يخص المعاملة السيئة التى كان يعامل بها هؤلاء اليهود واما القوانين التى رتبها الملك سنت لويز فهى وان كانت جديرة بان تكون قوانين عمومية الا انها لم تنتشر كالشرائع المدونة المسطرة بل كانت كالقوانين العادية المعدة للعمل بها فى الالتزامات الملوكية لكنها لما كانت مبنية على الحكمة والعدل وموجبة

للانقسام والضبط مال اليها الناس وقبلت فى جميع اجزاء المملكة لاسيما وترتيبها كان حريا بالاحترام لخصاله الجيدة وحسن مقاصده فكان ذلك ايضا باعثا قويا للملة على الرضى واقرار هذا الملك على اثبات حق التشريع لنفسه وبعد ذلك بمدة قليلة اتفقت آراء الناس على ان الشوكة العظمى فى التشريع لا تكون الا للملك وقد ذكر المؤلف مونوار ان الملك اذا رتب قانونا يخص التزاماته ساغ للبارونات ان يعملوا بمقتضى عوايدهم القديمة واما اذا رتب قانونا عاما لكافة الناس فانه يلزم العمل به فى جميع اجزاء المملكة فانه لاريب ان مثل هذا القانون العام لا يكون الا بعد ان تذاكر فى شأنه مذاكرة تامة ويظهر ان فيه مصلحة عامة انتهى ومع ان ملوك الدولة الثالثة لم يتفق انهم جمعوا مشورة اهلية عمومية فى المدة الطويلة التى بين الملك هوغس كابيت والملك فيليبس الظريف يظهر انهم كانوا يتشاورون مع الاساقفة والبارونات الذين كانوا بديوانهم فى شأن ما يريدون نشره من القوانين الجديدة وشواهد ذلك فى الكتاب المسمى بمجموع الاوامر الملوكية والظاهر ان هذه العادة مكثت الى حكومة الملك سنت لويز الذى فى مدته تقوت الشوكة الملوكية واشتد بأسها وصارت مشاورة البارونات وعدمها على حد سواء فنشأ عن ذلك لملوك الحظ الاوفر فى حق التشريع وصار فى وسعهم اجراء هذا الحق من غير مذاكرة مع الاساقفة والبارونات

ثم ان المشاور الملية المسماة بمشاور العموم او مشاور وكلاء المملكة كان اول انعقادها سنة (١٣٠٢) ومكثت تنعقد عند الحاجة الى سنة (١٦١٤) ومن وقتئذ بطل انعقادها وكانت هذه المشاور مباينة بالكلية لمشاور الفرنسيس الملية التى كانت تنعقد فى ايام ملوك الدولة الاولى والدولة الثانية من ملوك فرانسا وذلك انه لم يكن لها حق فى المذاكرة فى نشر القوانين ولم يكن لها اختصاص خاص بها كما اتفق على ذلك العلماء ويعضده ايضا تاريخ فرانسا ولنذكر لك هنا كيفية انتهاء الدعوى فى مشاور العموم المذكورة فنقول كان يجتمع اربابها كلهم فى محل واحد ثم يوجه الملك الخطاب اليهم

ويفيدهم عن الغرض الذى جمعهم من اجله فيجتمع عند ذلك وكلاء المراتب الثلاث التى هى مرتبة الاشراف ومرتبة القسيسين ومرتبة الرعايا ليتذاكروا مذاكرة خصوصية مع بعضهم فى شأن ما عرض عليهم وبعد المذاكرة يكتبون اجوبتهم وما يرونه حسنا فى شأن ما سئلوا عنه ثم يعرضون ذلك على الملك ليتذاكر فيه مع ارباب ديوانه ثم يصدر امره بما انحط عليه الرأى واعلم انه لم يكن من اللازم ان يجمع فى الاوامر الملوكية بين المراتب الثلاث المتقدمة بل كان الملك فى بعض الاحيان يرسل امره لكل مرتبة بخصوصها وكان احيانا يوجه الخطاب فيه الى مجموع المراتب الثلاث واحيانا يخص بالخطاب مرتبة دون اخرى بل كان فى بعض الاحيان لا يذكر فى الامر الصادر منه مشورة المراتب التى اشارت بانشاء القانون الذى يأمر به فعلى ذلك لم يكن لمشورة وكلاء المملكة حق سوى ان تفيد رأيها وتعرضه بعد ذلك على الملك واما الشركة النجيزية فى التشريع وترتيب القوانين فكانت من خصوصيات الملك التى لا يشركه فيها غيره

المبحث الاربعون

فى بيان مطلب تضييق الشركة الملوكية بحكم دواوين البرلمان بصحيفة (١٦٠) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

اذا اعتبرنا ان ديوان البرلمان الذى كان بمدينة باريس لم يكن الا محكمة ملوكية رأينا ان جميع ما يخص منشأه وابتدائه معلوما لا يحتاج الى توضيح لانه على ذلك يكون عين الديوان القديم الذى كان سابقا بقصر الملك وانما تغيرت حالته القديمة وصار له محل قرار مخصوص وعينت جهات احكامه واتسعت دائرة اختصاصاته اكثر من قبل وليس الغرض من هذا المبحث ذكر الديوان المذكور بالنظر لكونه محكمة منوطة بتنفيذ بعض احكام مخصوصة وانما نذكر فيه الحق الذى كان يدعيه هذا الديوان من كونه بين كيفية تنفيذ القدرة التشريعية ويدخل فى ادارة مصالح المملكة السياسية لان هذا

امر صعب دقيق حرى بالالتفات اليه والبحث عنه مع الاعتناء فنقول ان المساط الذين كانوا اعضاء لديوان برلمان مدينة باريس كانوا سابقا ينصبون من طرف الملك وتصرف لهم علوفاتهم من عنده حتى اتفق عدة مرات ان الملك عزل من شاء عزله منهم فعلى ذلك لم يكونوا وكلاء الملة ولم يكن لهم حق فى التشريع على سبيل كونهم نواب الاهالى فيلزم حينئذ ان نبحث لهم عن سبب آخر يرجع اليه منشأ المزايا العظيمة التى نسبوها لانفسهم فنقول

كان ارباب البرلمان فى مبدء الامر من اعظم اكابر المملكة واعيانها فكان اربابه هم امراء فرانسا المعروفون باسم البيروكذلك اكابر القسيسين والاشراف الطيبون العنصر ثم زيد فيه بعد على هؤلاء بعض اناس متبحرين فى معرفة الشرائع والقوانين ولما كان هذا الديوان بتلك المثابة استحق ان يكون مشورة وكلاء المملكة حقيقة لما ان اربابه كانوا من البارونات والاعيان الاشراف فكانت عادة الملوك ان يشاوروهم فى جميع الاحكام والقوانين التى يريدون نشرها بين الناس فاظهاره فى خلال مجالس مشورة وكلاء المملكة بل وفى المدة المستطيلة التى لم تنعقد فيها تلك المشورة كانت عادة الملوك ان يشاوروا ديوان البرلمان ويفوضونه فى البحث عما يخص المصلحة العامة ويعرضون عليه الاوامر والقوانين الجديدة التى يريدون نشرها ليقرها هذا الديوان ثم بعده يجرى بها العمل

وفى زمن الدولة الثانية كان كل قانون جديد يحرره امين المملكة على الوجه اللائق ثم يعرضه على الاهالى واذا انتظم فى سلك القوانين الجارية كان يجب على الامين المذكور ان يحفظه عنده فى الدفترخانة العمومية ليعطى منه نسخا صحيحة لكل من يطلب ثم انه كان لهذا الامين الرياسة على برلمان مدينة باريس فى مبدء الامر فلا مانع من ان الملك فيما بعد لم يزل يقلد هذا الامين وظائفه القديمة وهى تحرير القوانين الجديدة التى كانت ترتب وحفظها ونشرها وهنالك ما يستدل به على ان ديوان البرلمان كما كان محكمة للعدل

كان ايضا مشورة العموم فيرى فى القوانين القديمة ما يفيد انه كان محكمة العدل
وان ما يصدر منه من القوانين كان يقرؤه القضاة ويضع امضاءهم عليه واذا كان
هذا الامر قد جرت به العادة لزم ضرورة انه كان لهذا الديوان بباريس حق
فى تحقيق الاوامر الملوكية واختبارها وهذا الامر انما هو بحسب
ما ظهر لى ولست جازما به كما هى عادتى اذا تعرضت للكلام على قوانين الملل
الاجنبية

وهذا الديوان العالى الذى كان فى فرانسا محكمة كبرى لاجراء العدل كان
يسمى برلمان وكان هذا الاسم يطلق على المشورة العمومية فى اواخر الدولة
الثانية ومن المعلوم ان الانسان محل النسيان بالنظر الى عقله وفعله عند
تشابه الكلمات ولذلك امكن لاغسطوس وخلفائه ان يوسعوا دائرة
شوكتهم من غير مانع ولا حصول فتن لانهم حفظوا على الاسماء القديمة التى
كان يسمى بها القضاة فى رومة حين كانت حكومتها جمهورية وكذلك
لما كان لفظ برلمان يطلق اولا على مشورة العموم ثم سمى به ديوان باريس
ترتب على ذلك اختلاط وظائفها بوظائفه وحقوقها بحقوقه والتبس
ذلك على الناس

وجميع تلك الاسباب اوقعت فى اذهان ملوك فرنسا ان ديوان البرلمان هو
الذى يصلح لحمل الملة على ان تقر الملوك على الشوكة الشرعية التى كانوا
ينسبونها لانفسهم فلما كان الفرنساوية معتادين على ان القوانين الجديدة
تعرض قبل نشرها وكان ذلك واقعا فى ديوان البرلمان كما كان واقعا فى مشورة
العموم قبل ذلك لم يدركوا الفرق فى هذا الامر بين مشورة الملة وديوان رتبه
الملك ولما كان ارباب هذا الديوان من اكابر المملكة المحترمين الذين لهم معرفة
جيدة بشرائع الملة كان ذلك كافيا فى قبول الملة لما يرتبه الملك ويقره
ارباب الديوان بحيث تأخذه قضية مسلمة

ولما جرت العادة عند سائر الناس ان الاوامر الملوكية لا بد ان تقع فيها
المذاكرة وتقيد فى ديوان البرلمان بباريس آل الامر الى ان ادعى هذا الديوان

ان هذه الطريقة المذكورة لابد منها وانه لا يجوز ان يعطم امر ملوكي في سلك القوانين الجارية الا بعد المذاكرة فيه وتقييده بالديوان فكان ذلك مبنياً لقاعدة من قواعد القوانين الفرنساوية وهي لا يجوز نشر قانون في المملكة بغير هذه الطريقة ولا يعمل بالاوامر الملوكية اذا لم تكن على هذا الوجه ولا يجب على الاهالي ان تنقاد لتلك الاوامر ولا ان تعتبرها كالقوانين الجارية حتى تحقق في ديوان البرلمان وتذاكر فيه على ما ينبغي انتهى ذكر ذلك المؤلف روشفلاوين في كتابه الذي تكلم فيه على دواوين البرلمان بفرانسا وقد اتفق ان ديوان البرلمان قاوم الملوك مع الثبات التام عدة مرات فقد امتنع غير مرة ان يقرأ او ينشر عدة اوامر ملوكية يرى انها تضر بالاهالي او مخالفة للقوانين الاصلية المبني عليها مصالح المملكة مع ان الملوك الحوا في ذلك كثيرا وذكر المؤلف روشفلاوين انه من سنة (١٥٦٢) الى سنة (١٥٨٩) امتنع من ديوان البرلمان اكثر من مائة مرة ان يقرا اوامر الملوك وذكر المؤلف لينوس كثيرا من الشواهد التي تدل على العزم والثبات الذي اظهرته دواوين البرلمان بمملكة فرانسا في مناقضة نشر القوانين التي ظهر لها انها مضرة

ولكن لم يكن عند البرلمان لاجل المدافعة عن المزية التي كان يدعيها شوكة تعادل اهمية هذه المزية ولا قوة توازي ما كان يظهره اربابه من الثبات في حفظ تلك المزية وذلك انه كان اذا صمم الملك على امر القانون رتبه وعارضه في ذلك ديوان البرلمان ارسل الملك هذا المرسوم وتقدم عرضه بواسطة شوكته الملوكية وكان يذهب بنفسه الى الديوان المذكور ويجلس في المحل السلطاني المعد له فيه ويجبر ارباب الديوان على قراءة القانون الذي يريد اجراءه وعلى تقييده ونشره بحضرته لانه كان من جملة القوانين الفرنساوية ان الملك متى حل بمحل لا يكون لديوان البرلمان ولا لاحد من القضاة شوكة ولا يرد كلمة ولا يجري شيأ بحضرة الملك كما ذكره روشفلاوين وذكر ايضا عدة حوادث اخرى فيها ملوك هذه المزية التي خصتهم بالشوكة التشريعية

وابطلت الحقوق القديمة التى كانت للملة الفرنساوية وذكر المؤلف بسكيير عدة شواهد تتعلق بالمحل السلطانى فى ديوان البرلمان وذكر ايضا المؤلف لجنوس عدة حوادث اخرى لايليق ايرادها هنا لطولها وان كانت توضح هذا الامر المهم من تاريخ فرانسا وتلك المزية الملوكية و كان يظهر انها من باب التسلط الاغتصابية على القوانين الاصلية فى المملكة وثابتة انهم بشواهد عديدة وبها كانت مجهودات دواوين البرلمان فى تحديد الشوكة التشريعية الملوكية غير ولا طائل تحتها

ولم تتعرض فى هذا المقام الا لبيان ديوان البرلمان بباريس حيث ذكرنا كيفية ترتيبه واحكامه دون غيره من دواوين البرلمان بفرانسا لان تلك الدواوين كلها كانت على نسق برلمان باريس فما قيل فيه يقال فيها

المبحث الحادى والاربعون

فى بيان مطلب المشاجرات التى حصلت بين البابات والامبراطرة بصحيفة (١٦٥) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

لا يخفى ان الحالة السيئة التى الجأت اكابر الامبراطرة الى التذلل والخضوع لطلب الصفح من آحاد البابات هى امر غريب جدا وقد عبر المؤلف اغرعوار من هذه الحادثة بعبارات جديرة بايرادها هنا لانها تدل بوجه غريب على كبر البابا واهانته للامبراطور ونصها مكث الامبراطور ثلاثة ايام وهو على باب خيمة البابا بعد ان نزع جميع علامات المنصب الامبراطورى وخلع نعاله ولبس ثوبا من الشعر ولا زال فى هذه المدة يتضرع ويطلب الصفح عنه ويلتمس الرحمة من البابا بحيث ان جميع من حضروا هذا الامر او بلغهم ذلك رثوا لحاله وحنت قلوبهم اليه وتوسلوا الى البابا بالدمع والانتحاب والتذلل فى الخطاب وتعجبوا جميعا من هذه القساوة التى ابعدت من شيم القلوب البشرية انتهى راجع مكتوب اغرعوار فى كتاب القونسيلة ماتيلدة

المبحث الثاني والاربعون

في بيان مطلب عدم المساواة بين اهالي الايمبراطورية في الثروة والشوكة بصحيفة (١٧٣) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

حيث بينا بيانا شافيا في تاريخ نمرا كمال درجات التقدم في الايمبراطورية ووضحنا تفصيلا خصوصيات حكومتها فلا حاجة هنا الى ذكر براهين اخرى وانما نقتصر على المهم من ذلك وقد حصرناه في اربع مواد اصلية

المادة الاولى

في الكلام على شوكة الايمبراطرة واحكامهم وايراداتهم

من اراد الوقوف على حقيقة هذه الاشياء فليراجع مختصر المؤلف بفيفيل الذي الفه في شأن حقوق الايمبراطرة بالنسبة الى زمنين مختلفين احدهما زمن طرد العائلة الكرونية وهو سنة (١٠٢٤) فيستفاد من هذا المختصر انه في هذا الزمن كان للايمبراطور الحق في اقطاع الاراضي القسيسية في المانيا وفي اخذ ايرادات تهامدة حلوانكرسي عن البابا وفي ارث مخلفات القسيسين الذين يموتون لا عن وصية وفي اقرار اونقض انتخاب البابات وفي جمع المشورة القسيسية للمذاكرة في شأن مصالح الكنيسة وفي تلقيب اتباعه بلقب ملك وفي الانعام بالاراضي الغير المملوكة وفي قبض ايرادات الايمبراطورية التي ترد من الترامات الايمبراطور ومن الغرامات والجزية ومعادن الذهب والفضة ومن الغرامات التي كانت على اليهود ومن الاموال التي تضبط لبيت المال وفي الحكم على ايطاليا على وجه كونه ملكها الحقيقي وفي الانعام بالحرية على بعض المدن وترتيب الاسواق بها وفي جمع مشورة الدييت وتعيين مدة انعقادها وفي ضرب المعاملة وفي الترخيص لمشورة الدييت في ضرب المعاملة والزمن الثاني من الزمنين المذكورين هو زمن انقراض ايمبراطرة عائلة لوكسمبورغ وعائلة باويرة قال صاحب المختصر

السابق ما حاصله ان مزايا الامبراطور فى هذا الزمن هى كونه له الحق فى اعطاء
جميع المناصب والالقاب ما عدا تنصيب ارباب مشورة الدييت وفى تنصيب
رئيس واحد مدة حكومته على كل جمعية قسيسية او محل دينى . وفى المعافاة
من تقييد الرشد بالاجل المعلوم وفى احداث مدن واعطائها مزية ضرب
المعاملة وفى جمع مشاورى الدييت والرياسة عليها ويسهل علينا ان نبرهن
على ان المؤلف بفيفيل بنى ما ذكره فى هذا المعنى على قواعد مثبتة ونعضد
ما ابداه فى هذا الشان بشواهد ذكرها من يوثق بكلامه من المؤلفين
وقد استبان مما نقلناه ان الامبراطرة فى الزمن الاول كانوا اقوياء الشوكة
وانهم كانوا يتمتعون باعظم المزايا وانهم فى الزمن الثانى كانوا اشبه برؤساء
معاهدة شوكتهم ضيقة جدا

ثم ان ايرادات الامبراطرة قد نقصت ايضا وتلاشت اكثر من شوكتهم وذلك
ان الامبراطرة الاولين لاسيما امبراطرة العائلة السكسونية كان لهم التزامات
واسعة جدا فى ايطاليا والمانيا غير الالتزامات الكثيرة التى ورثوها عن آبائهم
وكانت ايطاليا تنصب للامبراطرة وحكمها مستقر وراعيهم فكان يرد اليهم
منها ايرادات عظيمة ثم بيعت التزامات الامبراطرة فى تلك المملكة فكانت
اول مملكة بيعت فيها الاراضى الامبراطورية وذلك انه لما صارت مدائن
ايطاليا ذات غنى وثروة وارادت ان تستقل بنفسها اشترت من الامبراطرة
حريتها بمبالغ من الدراهم بينها المؤلف عبارة كالو كيوس وذكر ايضا
الملوك الذين عقدوا هذا البيع مع تلك المدن منهم كرلوس الرابع وابنه
وانسيسلاس باعا جميع الالتزامات الامبراطورية التى كانت باقية فى ايطاليا
ثم ان الالتزامات الامبراطورية فى مملكة المانيا كان معظمها على شواطى نهر
الرين وكان القونتات البالاطينية (اى قونتات نهر الرين) هم الموكلون بادارة
مصالحها ومكثت هذه الالتزامات مدة مستطيلة معتبرة جزأ من اراضى
المملكة ويعسر علينا بيان حدودها ومقادير ايراداتها ولكن يمكن
ان نستفيد بعض فائدة فى هذا الشان مما ذكره المؤلف علوسير وقد فصله

المؤلف .

لمؤلف كلوكيوس الذى ذكرناه آنفا

وكان للامبراطرة ايضا اخطاط كبيرة من الاراضى كانت مختلطة باراضى الدوقات والبارونات وكانت عادة الامبراطرة ان يتقوا عالما على هذه الالتزامات ويستخرجوا منها ما يلزم لهم فى كفاية دواوينهم مدة اقامتهم بتلك الالتزامات ثم تغلب الاشراف على بعض هذه الاراضى الامبراطورية مدة الفترة الطويلة والحروب المهولة التى نشات عن المشاجرات الحاصلة بين الامبراطرة والبابات بل فى مدة التغلب على اراضى الامبراطرة كان ينزع منهم ايضا جميع الايرادات الراتبة لطارئة ككس وكرل وما اشبه ذلك فاثبت الامراء والبارونات لانفسهم سائر محصولات الفرد والغرامات التى كانت ترجع للامبراطرة كذا ذكر المؤلف بفيفل ثم ان كرلوس الرابع بطمعه الشديد المفرط بدد لآثار القليلة التى كانت باقية من الايرادات الامبراطورية لانه فى سنة (١٣٧٦) اراد ان يحمل الامراء المتوطنين بحق الانصاب على ان يجعلوا ابنه وانسيلاس ملكا على الرومانيين فوعدهم بان يعطى لكل امير منهم مائة الف كورون (هو نوع من النقود) ولكن حيث كان لا يمكنه ان يفى بهذا المبلغ الجسيم وكان متولعا جدا بجعل ابنه ملكا على الرومانيين اعطى للقسيسين الثلاثة ارباب الانصاب وللقونتة البالاطينى جميع الاراضى والبلدان التى كانت باقية للامبراطرة على شواطئ الرين واعطاهم ايضا الحقوق والغرامات التى كان يأخذها الامبراطرة من هذا الخط وقدر مقادير تلك الاراضى والحقوق المؤلف تريتيم ومؤلف تاريخ اقليم مكدبورغ وذكرا ان هذه العطية هى آخر سهم اصيبت به الشوكة الامبراطورية ومن ذلك الوقت صارت بقايا الايرادات الامبراطورية القديمة واهية جدا بحيث لم تكن كافية لمصاريف بيت الامبراطور بل ولم تقم بمصاريف الوسطة التى كانت فى الامبراطورية على ما ذكره المؤلف سبيديليوس وكانت هذه الايرادات مع قلتها لم تزل آخذة فى التناقص حتى ان الكردينال غرانويل وزير الامبراطور شرلكان قال سنة (١٥٤٦) بحضرة عدة من امراء المانيا

ان الايمبراطور شرلكان لم يدخل له من الايمبراطورية شئ من الاموال ذكر ذلك المؤلف سليدان فى تاريخه وهذه الكيفية موجودة الى الآن كما ذكره المؤلف كولك دوو يلرى فى مختصره الذى تكلم فيه على حقوق الايمبراطورية ومن مسند حكومة كرلوس الرابع التى سماها مكسيمليان و با ٠ الايمبراطورية لم يبق للايمبراطرة الا القاباتهم الورانية فيها كان حفظ شوكتهم ومعاشهم

المادة الثانية

فى بيان كيفية انتصاب الايمبراطرة سابقا وما اعتراها من التغيير

حيث ان هذه المادة مهمة تحتاج الى توضيح فنقول ان التاج الايمبراطورى هو كغيره من تيجان اغلب ممالك اوروبا لم يكن يناله احد فى مبدء الامر الا بطريق الانتخاب وقد تمسك علماء المانيا وفقهاؤها زمنا طويلا وهم يقولون ان حق انتخاب الايمبراطور انما كان لمطران ميانسة ومطران كولونيا ومطران تريوة ومعهم ملك بوهيمه ودوق سكس ومقترم رندبورغ وقومنة الرين الباالاطينى وزعموا ان هذا الحق قد ثبت لهؤلاء الجماعة بامر صدر من الايمبراطور اوتون الثالث واقره اغريغوار الخامس سنة (٩٩٦) ولكن جميع الوقائع المعروفة فى التواريخ تخالف ذلك فانه من مبدء تاريخ المانيا حصل ان من يحكم على الجميع يكون بانتصاب الجميع كما حصل فى تولية كورادالاول فانه نصبه لذلك امة الفرنك باجمعها كما ذكره بعض المؤرخين وذهب آخرون الى انه انتخبه جميع الامراء والرؤساء وقال جماعة انتخبته الملة وقد ذكر عبارات هؤلاء المؤرخين المختلفين المؤلف ستروبوس والمؤلف كونجيوس

وقد حصل فى سنة (١٠٢٤) ان الملك كونراد الثانى تولى على الايمبراطورية بموجب انتصاب جميع الرؤساء واقرار الاهالى كما ذكره ستروبوس مع ان هذا الزمن متأخر عن زمن تاريخ الامر الصادر من الايمبراطور اوتون الثالث الذى ادعاه العلماء والفقهاء الذين سبق ذكرهم وقد حصل ايضا فى سنة

(١١٢٥) ان مثين الاعب نفس حضر وانتخاب الامبراطور لوتير الثانى لما انه انتخبه الرؤساء ثم عرض ذلك على الاهالى ليقروه كما ذكره ستروبيوس ثم ان اول مؤلف تكلم على السبعة المنتخبين هو المؤلف مارطين بولونوس الذى كان موجودا فى ايام الملك افريدريق الثانى ومات سنة (١٢٥٠) فيفهم مما ذكرنا ان طريقة الانتخاب سابقا هى ان يفوض الاهالى لاكبر امرآء بلادهم واعظمهم شوكة ان ينتخبوا الشخص الذى يريدون تسليم الامبراطورية اليه ثم يعرضون من انتخبوه على الاهالى فان شاؤا اقروا هذا الامر والافلا ثم ان مزية العرض فى هذا الشان تسمى عند فقهاء المباحث ابرتكسيون كما ذكره المؤلف فيفيل وهذه المزية كانت اصلا للحق الذى ادعاه المنتخبون فيما بعد من ان لهم حق الانتخاب دون غيرهم وكان للمنتخبين التزامات واسعة جدا لم تكن لغيرهم من الامرآء فى الامبراطورية وكانت جميع المناصب العالية بايديهم وينتقل من بعدهم لمن بعدهم على سبيل انها من الحقوق الوراثية وبمجرد ما صار لهم فى الانتخاب نفوذ كلمة بحيث يمكنهم ان ينسبوا الى انفسهم حق البرتكسيون رأى قسبو المرتبة الثانية واصاغر البارونات ان الاوفق بهم ان لا يحضروا فى مشاورة الدييت حيث انه لا وظيفة لهم فيها الا كونهم يقرون ما حكم به امرآء اقوى منهم وكان اذا حصلت فتنة لا يمكن لاحد من البارونات ان يذهب الى المحل الذى تنعقد فيه مشورة الانتخاب الا وخلفه نحو عشرين الفا من السلاح من اتباعه الذين كانت مصاريفهم على طرفه وزيادة على ذلك كان حق السبعة المنتخبين مقصد ابذار بيهم وخلفائهم لانهم كانوا يشركونهم فى الشوكة والاعتبار الذى كانوا يكتسبونه من هذا الحق كما ذكره المؤلف بفيفيل ثم ان السبعة المنتخبين صاروا فيما بعد بمنزلة ارباب الرتبة الاولى من اشراف الجمعية الجرمانية وهؤلاء السبعة كان فيهم ثلاثة مطارنة استناداً على ثلاثة اخطاط كبيرة كانت الامبراطورية سابقا محصورة فيها وهى الفرنك وسوق وفرنيه وهذه المقتضيات باضمامها الى بعضها سهل بها جدا حصول حادثة الانتخاب المهمة فى الجمعية الجرمانية وجميع

الامور اللازمة لتحصيل ما يتعلق بهذا الامر السياسى • فمن بينها المؤلف اوتوفرايزنغيس الذى كان فى عصر شرلكان فى مختصره الذى سكت فيه عن الهفوة التى ارتكبها من اظهار الغرض فى شأن الشوكة التى كان ينسبها البابات لانفسهم فى الايمبراطورية فانه مختصر جليل له مزيد فضل بكونه من اول المؤلفات التى تصدت لتحقيق عدة مواضع مشكلة من التاريخ حررها هذا المؤلف مع غاية الاتقان والاعتناء اللازم لاستنباط ما اخذه من الكتب القديمة وتواريخ اهل عصره

وكان المنتخبون ادعوا ان لهم دون غيرهم الحق فى انتخاب الايمبراطور وتوليته زعموا ايضا ان لهم الحق فى عزله وهذا الزعم لم يكن بمجرد الدعوى فقط بل حصل انهم اجروا عدة مرات هذا الحق المهم ففى سنة (١٢٩٨) اتفق ان بعض المنتخبين عزل الايمبراطور ادولف دوناسو وولى بدله البيرت دوتريش والاسباب التى بنوا عليها حكمهم فى ذلك تدل على انهم انما كانوا يفعلون ذلك لمحض التحزب والغرض لا للمصلحة العمومية كما ذكره المؤلف سترويوس وفى اول سنى القرن الخامس عشر عزل المنتخبون ايضا الايمبراطور ونسيلاس وقلدوا التشريف الايمبراطورى للمنتخب البالاطينى المسمى روبيرت والاوامر التى صدرت عنهم بذلك موجودة الى الآن ذكرها المؤلف غولدست فبعد ان العزل حصل باسم المنتخبين وشوكتهم وباقرار عدة احبار وبارونات من الايمبراطورية كانوا حاضرين وقت الحكم وبمثل تلك الاوامر يعلم عظم شوكة المنتخبين وضعف الايمبراطرة وانحطاط درجتهم

ثم ان المزايا الاخرى التى كانت ثابتة للمنتخبين والحقوق التى كانت للمشورة الانتخاب قد بينها المؤلفون الذين الفوا كتبهم فى شأن حقوق المزايا

المادة الثالثة

فى الكلام على مشورة الديت او مشورة العموم التى كانت تنعقد فى الايمبراطورية

لانطنب فى الكلام على هذه المادة لانه ليس القصد تأليف تاريخ خاصا

بالايمپراطورية الجمهورية والازم التصدى الى تفاصيل واسعة حتى نفى بالكلام على كيفية انعقاد مشورة الديت وعلى الاشخاص الذين كان لهم الحق فى الحضور بها وعلى تقسيمها الى عدة مراتب مختلفة وعلى المواد التى هى موضوع مذاكراتها وعلى كيفية المذاكرة فى هذه المواد وابداء الآراء فيها وعلى نفوذ اوامر اربابها ولكن حيث ان تاريخ اهداء عوهى يتكلم على ممالك كثيرة يكفى ان ننبه على ان مشورة الديت المذكورة كانت فى الاصل مشابهة لمشورة ادارو ومشورة ابار المتين كانا بفرانسا فانها كانت تنعقد فى كل سنة مرة فما اكثر وكل انسان حر له الحق فى حضورها وابداء رأيه فيها فهى كناية عن مجلس يجتمع فيه الملك والرعية للمذاكرة فى شان المصالح العمومية ذكره المؤلف آروموس ولكن لما صار للامراء واصحاب المناصب من القسيسين والبارونات الطبقات الرامية يحكمون بها على حدتهم صارت تلك المشورة مؤلفة من مراتب مختلفة من الناس فكانت اشبه بمعاهدة رتيب الايمپراطور وفى مدة ما كانت الايمپراطورية باقية على ترتيبها الاصلى كان الحضور بالمشورة المذكورة من جملة الواجبات والخدم التى توجبها القوانين الالتزامية على الرعية الكهم فكان كل انسان حر يجب عليه ان يحضر فيها بنفسه وكل من تقاعس عن ذلك زال عنه حق اعطاء الرأى وربما حكم عليه بغرامة جسيمة ذكره المؤلف آروموس فلما صار ارباب مشورة الديت مستقلين بانفسهم صار حق ابداء الرأى منوطا بالاراضى او المناصب لا بالاشخاص فبناء على ذلك كان اذا تعذر الحضور على احد من اربابها او لم يرد ان يحضر فيها بنفسه يسوغ له ان يبعث اليها وكيلا ينوب عنه فكان الامراء يبعثون الجميع وكان كل وكيل مرخصا فى اجراء ما كان من وظيفة موكله وبمقتضى هذا الاصل وهو استقلال ارباب تلك المشورة وكون كل واحد منهم له الحق فى ابداء رأيه حصل بالتدريج انه اذا كان انسان منهم له عدة مناصب او اراض كان له الحق فى ابداء آراء بقدر مناصبه او اراضيه كما ذكره المؤلف فيفيل ولما صارت مدن الايمپراطورية حرة وصارت احكامها مستقلة نافذة صارت من اعضاء

مشورة الديت على النسق السابق وكان اهم ما لمشورة الكلمة فى سائر ما يخص المصلحة العمومية للجمعية الجرمانية وجميع ما يتعلق بها من حيث كونها معاهدة واما تدبير المصالح الداخلية فلم يكن من وظائفها ما لم يترتب عليه امر يوجب التعكير فى المملكة او يخشى منه عدم الانتظام واختلال الامن العام

المادة الرابعة

فى الكلام على المجلس الامبراطورى

اعلم ان هذا المجلس الذى كانت احكامه السبب الاصلى فى تجديد انتظام والامن فى المانيا كان الغرض من انشائه منع القتل والفتن التى نشأت فى الامبراطورية عن عادة الحروب الخصوصية وقد تكلمنا فيما سبق على منشأ هذه العادة الفاسدة وفيما تقدمها واتساعها وما ترتب عليها من النتائج الخطرة مع الاضطراب الذى يلائم مثل هذه العادة السيئة التى عظم تأثيرها فى القرون الوسطى والظاهر ان الحروب الشخصية كانت فى المانيا اكثر منها فى غيرها وان عواقبها اضرت بتلك الامبراطورية اكثر من اضرارها بغيرها من ممالك اوربا وشواهد ذلك واضحة فانه ان جمعية الاشراف فى المانيا كانت عديدة جدا فكانت المشاجرات والمنازعات كثيرة جدا على قدر عددهم خصوصا وكانت احكامهم وامتيازاتهم التى تخص التزاماتهم واسعة جدا بحيث لم يكن لاشراف ملة اخرى مثلها فكانوا فى الحقيقة ملوكا مستقلين وطمعوا الى ان نموا جميع المزايا الملوكية لانسب والفترة الطويلة التى خلت فيها الامبراطورية عن الامبراطور وهى من (سنة ١٢٥٦) الى (سنة ١٢٧٣) عودتهم على تجاوز الحدود حيث لم يكن هنالك من يردع جماحهم حتى نسوا ما يجب من الطاعة لحفظ الراحة العمومية فى مدة ما كانت ممالك اوربا الاخرى آخذة فى نمو الشوكة وازدياد الايرادات كانت شوكة امبراطورية المانيا وايراداتها آخذة فى التناقص والاضمحلال ولم يكن هناك من له حق فى الحكم فى مشاجرات البارونات الاقويا ولا شوكة تجبرهم على الرضا بحكمه لا مشورة الديت ولكنها لم تكن تنعقد وقتئذ الا نادرا كما ذكره المؤلف كورنجيوس وكان ارباب

تلك المشورة عند انعقادها بالقرب من عدة الاف وبذلك كانت غير مضبوطة من كثرة اربابها كان يتعذر عليهم ان ينشوا امرا في شأن الحقوق كما ذكره المؤلف سترويوس وكانت مدة انعقادها لا تزيد على يومين او ثلاثة فلم يكن معهم وقت يسمعون فيه مسئلة مشكلة حتى يتذاكروا فيها كما ذكره المؤلف بفيفيل فبذلك كانت المانيا محرومة من محكمة شرعية تجبر حال المصائب التي انشأت فيها عن الحروب الخصوصية

وقد استعمل في المانيا جميع الوسايط التي استعملت في غيرها من ممالك اوربا لابطال هذه العادة الخشنية كما سبق في المبحث الحادي والعشرين الا انها لم تجد في المانيا نفعا وكذلك معاهدات الاشراف على حفظ الامن في هذه الايمبراطورية وتقسيمها الى عدة ايالات لهذا الغرض كما بيناه في المبحث المذكور لم ينشأ عنها منفعة وبالجملة فالدواء الاخير الذي استعمله اهل المانيا لمعالجة هذا الداء هو انهم جعلوا للحكم بين الخصمين حكما يفصل دعواهما يسمونه اوسترويغو وتحالف البارونات وارباب مشورة المدينة في عدة من اقطار المانيا على ان يرجعوا في مشاجراتهم الى الاوسترويغو وان ينقادوا لما يحكم به بحيث يكون حكمه عليهم نهائيا لا ينقض وفي بعض الاحيان كانوا يعينون في وثيقة المحالفة الحكم الذي يحكم بينهم ولذلك شاهد ذكره المؤلف لودويك وفي بعض احيان اخرى كان الحكم المذكور ينتخبه الخصمان المتنازعان وتارة كانا يفوضان انتخابه لاشخاص اجانب من الدعوى وتارة كان انتخابه بالقرعة كما ذكره المؤلف سيدليوس وغيره وبمجرد حدوث هذه العادة صارت المحاكم العمومية لا نفع لها في الاغلب بل كادت تبطل بالكلية

فلما اراد الايمبراطور مكسيميليان ان يعيد شوكة الحكومة احدث المجلس الايمبراطوري في ارض الذي بيناه في الاعقاب وكان ارباب هذا المجلس اولا ستة عشر قاضيا غير رئيسهم الذي كان ينتخب دائما من اشراف الرتبة الاولى وكان الذي يعينه هو الايمبراطور على خلاف القضاة فكان بعضهم

باتصاب الايمراطور وبعضهم باتصاب مشورة الديت على وجه معلوم لاحاجة للاطالة ببيانه وكان يفرض على مشورة الديت رضاها بمقدار معلوم تصرف منه ماهيات قضاة هذا المجلس وغيرهم من المستخدمين فيه ثم ان هذا المجلس ترتب اولا فى مدينة فرنكفورد التى على نهر مان ثم نقل فى ايام الايمراطور شرليكان الى مدينة سبيره ومكث بها مدة تزيد على مائة وخمسين سنة وهو الآن فى مدينة ويتزلارة ومن وظائف هذا المجلس الحكم فى سائر الدعاوى المدنية التى تقع فى الايمراطورية وحكمه فيها نافذ لا ينقض ومن وظائفه ايضا الحكم فى الجنايات التى تضر بالامن العام كما ذكره المزاب بتفصيل

واما الدعاوى التى تخص الحقوق الالتزامية او تخص اراضى ايطاليا التى هى من تعلقات الايمراطورية فكان الحكم فيها للمشورة الاوليقية اى المشورة العليا التى كان ترتيبها على نسق ترتيب الديوان الملوكى القديم الذى كان احدثه ايمراطرة المانيا ولم تكن هذه المشورة الاوليقية تكتسب شوكتها من مشورة الديت بل كان الايمراطور هو الذى له الحق دون غيره فى تعيين اربابها بارادته واختياره واصل منشا هذه المشورة هو ان الايمراطور مكسيمليان لما عزم على ان يسترد بعض الشوكة التى فقدها بسبب عظم شوكة المجلس الايمراطورى جمع لهذا الغرض مشورة الديت فرخصت له سنة (١٥١٢) ان يرتب المشورة الاوليقية ومن ذلك الوقت صار اعظم غرض سياسى يهتم به ديوان مدينة ويانة هو توسيع دائرة احكام المشورة الاوليقية وتقويه شوكتها لتضمحل بذلك شوكة المجلس الايمراطورى وتنحصر احكامه فى حدود ضيقة ثم ان المجلس المذكور فترت همته فى فصل الدعاوى فكان يطول امدها من غير تمييز فانتهز الايمراطرة هذه الفرصة ليتوصلوا بها الى مقصدهم لان هذا التوانى لازم لمجلس اربابه انتخبتهم مشورة الديت يعارضون بعضهم ولا التئام بينهم بخلاف المشورة الاوليقية فان رئيسها واحد لا تقبل حكما من غيره فلذلك كانت تجرى المصالح بلا توان وتميزها

مع

مع الشريعة السامية كما ذكره المؤلف بوفاندورف والمؤلف بفيغيل

المبحث الثالث والاربعون

في بيان مطلب طلوع هذه الدولة (اى الدولة العثمانية) بصحيفة (١٧٥) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

ما ذكرناه في وصف دولة الترك موافق لما ذكره محققو السواحين الذين دخلوا اراضي تلك الدولة وان خالف في ذلك الفرنسوي مارسيغلي في مختصره الذي انشأه في الحالة العسكرية للدولة العثمانية وكذلك سير جامبورتير مؤلف الكتاب المسمى ملحوظات ديانة الترك وشرائعهم وحكومتهم واخلاقهم حيث ان هذين المؤلفين قد تكلما عن كتب في شأن ترتيب سياسة هذه الدولة الشديدة البأس ومنشأ بحثهما طول مكثهما في تلك البلاد فوجدا في بعض سياساتها عدلا وانصافا ولم يصفا هذه الدولة بانها ظالمة محضة كما قال به غيرهما ولكن اذا قيل في حق حكومة ايا كانت انها ظالمة فلا يلزم من ذلك ان الملك فعله دائما مبنيه على الظلم والاجحاف خالية عن العدل والانصاف وايضا جميع انواع الحكومات لابد وان تكون ادارتها المتعددة مضبوطة ببعض اصول مؤسسة على العدل ما لم يكن الملك طائشا ذا طيش واختلال وان لم يبذل صاحب الادارة غاية جهده في تحصيل السعادة لرعيته فلا اقل من كونه لا يجعل غرضه محقهم وابادتهم فهل يمكن ان نطلق اسما آخر غير الحكومة الظلمية على دولة فيها الملك يحكم بالاطلاق ويتصرف على جيوش عديدة ويتصرف كيف شاء في ارادتها الواسعة وليس للاهالي فيها شيء من المزايا ولا دخل في حق التشريع لا مباشرة ولا بواسطة ولا يوجد فيها جمعية اشراف تغار على حفظ حقوقها ومزاياها التي رتبت الامر عن الاصل بحيث ان هؤلاء الاشراف يكونون حاجزا بين الملك والرعية نعم ان الدين وعساكر قابوي كولي يضيقان شوكة السلطان تضييقا بينا ولكن هذا لا يكفي في عدم تسميتها بالحكومة الظلمية لانه لا يغير صورتها

ولاسيما التى هى عليه فلا يخفى انه اذا اراد ملك ظالم ان يتمتع كما يحب بتعضيد شوكته يجعل لهذه العساكر الشوكة الكبرى وهذا هو سبب تعاظم العساكر فى الدولة العثمانية خصوصا الانكشارية كان لهم سطوة كبيرة وبأس شديد فى الدولة وهذا لا يمنع من كون حكومته تحت حماية فان العساكر الامبراطورية فى مدينة رومة كانت تعزل الملوك وتقتلهم وتولى من شاءت على الامبراطورية كما فعلت العساكر الانكشارية فى مدينة القسطنطينية ومع ذلك اتفقت كلمة المؤلفين السياسيين على ان امبراطرة رومة كانوا ظالمين مطلقى التصرف

ثم ان المؤلف سيرجامبورتير مؤلف المخطوطات السابقة ذكر فى مقدمة كتابه فى الطبعة الثانية بعض تنبيهات تتعلق بموضوع هذا المبحث ولائق بنصه ما ابديه فى هذا المقام مما يخالف رأى هذا المؤلف الذى بذل جهده فى البحث عن حالة حكومة الترك ووصفها باوصاف تدل على ان معارفه فى ذلك عزيزة لكن بعد الفحص الشديد مرارا عديدة عن هذا الغرض ظهر لنا ان هذه الحكومة لا يمكن نظمها الا فى سلك الحكومات التى سماها المؤلفون السياسيون بالمقيدة فلا ارى فى قوانين الترك ما يمنع السلطان عن تنفيذ ما يريد تنفيذه بشوكته المطلقة الا الشيئين اللذين تكلما عليهما احدهما مأخوذ من الدين الذى هو اساس للشوكة السلطانية والآخر هو العساكر الذين يحتاج اليهم فى حفظ شوكته وذكر المؤلف سيرجام السابق ان العلماء حاجز بين السلطان ورعيته وفيه ان شوكتهم المانعة لتصرف السلطان وان بلغت ما بلغت لا تخرج عن الدين ثم ان طائفة الملالى يتنصب منها المفتى وغيره من اهل الشريعة هم علماء الدين وانما كانت محترمة عند هؤلاء الناس لانها ترجمان القرآن وصيغة لاسراره الالهية وعلى هذا فما تمنع به هذه الطائفة تصرف السلطان ليس خارجا عن الشيئين المذكورين على ان شوكتهم فى ذلك ضعيفة فان المفتى الذى هو رئيس هذه الطائفة ومن يلحق بها من اهل الشريعة ينصبه السلطان ويعزله متى شاء وقد حصل سنة (١٧٤٦) ان طائفة العلماء ارادت عزل دربركات تبغضه فسلكت فى ذلك واسطة

غريبة تدل دلالة واضحة على ان هذه الطائفة لم يكن بها من الشوكة الا شئ وانه لا يمنع السلطان عن فعل ما يشاء ، وهذه الواسطة على ما ذكره المؤلف سيرجام هي ان هذه الطائفة لم يمكنهم منع المصالح التي كانت حاصلة في الادارة وذلك لاحتراق مدينة القسطنطينية ولا يخفى ما في ذلك من الغرابة

والظاهر ان هذا المؤلف لا يقول ان عساكر القابوقولي اي الحجاب آلة مقوية لشوكة السلطان ولا مانع لتصرفه وبنى هذا الرأي على ان عدد هؤلاء العساكر قليل بالنسبة الى العساكر الاخرى التي تتألف منها جيوش العثمانية وعلى انهم في زمن الصلح لا يشتغلون بالفنون العسكرية واما قولنا ان العساكر الذين يكونون محافظين على الملك وان كانوا قليلين لابد وان يكون لهم سلاطة على ذات السلطان فمن باب اولى تكون لهم السلاطة على الحكومة فان العساكر البريطورية الذين كانوا محافظين على الدولة الرومانية كانوا قليلين جدا بالنسبة الى غيرهم من العساكر الذين كانوا في اقاليم تلك الدولة بل عساكر القابوقولي اكثر عددا من البريطورية فلا شك ان لهم من الشوكة ما للبريطورية فيكونون مهابين عند السلطان والرعية ثم ان الانكشارية لم يكونوا وقت وصف حالهم بما ذكرنا على الحالة التي هم عليها الآن من ضعفهم في العسكرية وقد ذكر المؤلف سيرجام ان الانكشارية لم يعزلوا سلطانا قط بمحض شوكتهم بل كانوا يستندون في ذلك الى الشريعة حقيقة او ادعاء فكان المفتي يفيد السلطان الشقي الحكم الشرعي الذي يوجب عزله وهذا لا يرد علينا لان ذلك امر معلوم فان جميع ما يقع من القيام والخروج عن الطاعة ولو من العسكر لا يترتب عليه غرض العاصين الا اذا اقترنه القوانين السياسية والشرعية التي هي مبنى نظام المملكة

والغرض مما اوردناه في هذا المقام توجيه آراء لا مناقشة ما ذكره المؤلف سيرجام الذي اتى في حقنا بعبارات حسنة ومدحنا في التنبيهات التي اوردها على ما ذكرناه فان اسعد المؤلفين الذين يتصدون لافادة الناس آراءهم اذا كان ما يبدونه من المناقشات لرد ما ورد على تآليفهم محلى بخلوص الطوية والحياء .

ولوقاروا الظاهران هذا المؤلف فى بعض تبيهاته لم يقف على حقيقة ماقصد به فى بعض عباراتى فانى لم اقصد بذكر طول مكث هذا المؤلف والقومنة مارسيعلى بلاد الترك ان اضعف ماذهبااليه فى شأن هذه الدولة واعاذكرته لغرض آخر وهوان من اطلع عليه لا يأخذ رأيى قضية مسلمة حيث انه يخالف رأى هذين المؤلفين اللذين تيسرت لهما معرفة احوال تلك الدولة بوسايط امكن واحكم مماتيسرلى منها

المبحث الرابع والاربعون

فى بيان مطالب تحديد قدرة السلطان وتقيد اوامره بالدين ومطالب تضييق قوة السلطان بالعساكر بتحقيق (١٧٦) و(١٧٧) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

جميع المؤلفين الذين تكلموا على دولة الترك ذكروا منشأ ترتيب الانكشارية ووصفوا الشاما كانوا عليه من الضبط والربط وما كان لهم من الدربة والمهارة العسكرية وقديين الامير كانتوميرالحيلة الدينية التى توصل بها الى غرس الشجاعة فى قلوب الانكشارية فقال ان جدد السلطان مراد الاول رهطا من هؤلاء لعسكريعثها الى الحاج بكتاش وكان من الاولياء عندهم اشتهر بالكرامات والاخبار بالمغيبات وارسل اليه يترجاه ان يسمى هذا الجيش الجديد باسم ويعطيه لوا ويسأل الله تعالى ان يعينهم فى غزواتهم فلما مثل هؤلاء العساكر بين يديه وضع كمه على رأس احد رؤسائهم وقال ليسموهم بالانكشارية واخذ فى الدعاء لهم فقال اللهم اجعل لهم الشوكة القوية دائما ابدا * واجعل النصرة بايديهم سرمدا * واجعل نصالهم قاطعة * وسنانهم على هامات اعدائهم لامعة * واجعلهم فى كل وجهة مسرورين * وردهم امنين فرحين * انتهى

ولم يكن عددهم فى مبدء الامر كثيرا جدا فكانت عدتهم سنة (١٥٢١) فى ايام السلطان سليمان اثنى عشر الفا ثم اخذوافى الكثرة من ذلك الوقت

كما ذكره المؤلف مارسيغلى ومع ان هذا السلطان كان ذا حزم وعزم وشوكة في قمع الانكشارية وادخالهم تحت الطاعة ادرك بعض المتبصرين العارفين في زمنه ان هؤلاء العساكر لابد وان يضروا حالا اومآلا بشوكة السلاطين وقد ذكر المؤلف نقولا دوصواس وكان مع ارامون الجى هنرى الرابع ملك فرانسا عند السلطان سليمان في رحلته اوصاف الانكشارية ومدحهم بالضبط والربط والبراعة العسكرية الا انه ادرك ان هؤلاء العساكر لابد ان يصيروا ذات يوم مخوفين على السلاطين ويفعلوا في القسطنطينية نظير مافعله العساكر البريطوريانية في مدينة رومة

المبحث الخامس والاربعون

في بيان مطالب مافاق العثمانية به النصارى في القرن السادس عشر بصحيفة (١٧٩) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

السلطان سليمان الملقب بالسلطان القاهر ويعرف عند الترك بالقانوني هو اول من ابدع تدبير الخزائن وجعلها على صورة منتظمة واحكم ترتيب العسكرية في الدولة العثمانية فقسم الجيوش الى عساكر قابوى كولية وهؤلاء هم الذين كانوا في الحقيقة ملازمين لخدمة العسكرية والى سرانا كولية اى العساكر المعدة لمحافظة الرساتيق وكان هؤلاء العساكر يجلبهم اصحاب الاراضى التي يسميها الترك تمارتوززيام وهى اراض يعطيها السلطان على سبيل العمرى لاناس بشرط ان يخدموا في العسكرية فهى قريبة من الالتزامات القديمة عند الافرنج وقد بين السلطان سليمان في قانونامه الذى رتبه مقدار هذه الاراضى من كل اقليم من اقاليم السلطنة وبين ايضا عدد العسكر الذى يجب على صاحب الارض جلبه وعين ماهية كل عسكرى مادام في الخدمة العسكرية وقد لخص هذا القانون كل من القونتة مارسيغلى والامير دواص ريكوث ويظهر ان مقدار العساكر العثمانية المعتاد كان يزيد على مائة وخمسين الف وبانضمام هذه العساكر

الى عساكر الدولة تتكون شوكة عسكرية قوية تفوق شوكة اى ملك كان من ملوك النصرانية كذا ذكره المؤلفان المذكوران ولما كانت ايام السلطان سليمان كلها حروب وغزوات كانت العساكر دائماً فى الوقائع مشغولة بالقتال ولذلك كادت العساكر الدولية تساوى الانكشارية فى الضبط والربط

وعلى هذا لا يستغرب ما ذكره مورخو القرن السادس عشر من ان الترك يفوقون بكثير على النصارى فى الفنون الحربية والحركات العسكرية من ذلك ما ذكره المؤلف غيشاردين من ان الايطاليين تعلموا من الترك فن تحصين الثغور وما قاله المؤلف ابارون بوسبك الذى كان الجيب عند السلطان سليمان من طرف الملك فرديناند واغتنم الفرصة بملاحظة حالة العساكر التركية والعساكر النصرانية حيث اشهر مؤلفاً ذكر فيه الطريق المطلوبة التى ينبغى للنصارى سلوكها فى حرب الترك واطنب فى ما اختص به الترك وفاقوا به ابناء النصرانية من الضبط والربط وغير ذلك مما يخص الفنون الحربية ولو امكن ان فى هذا المبحث رسالة تيت بما يكشف عنه الغطاء من الشواهد الواضحة

وقبل ان نختم عقد بحث التوضيح بالبرهان الصحيح ينبغى لنا ان نبين لقارئ كتابنا هذا سبب امرين اهملنا ذكرهما الآن من قرأ هذا الكتاب يمكن ان يلاحظ انى اهملتهما فيجب ان ابين ان ترك احدهما عين الصواب وان ترك علة اهمال الآخر لا تدارك ما يمكن ايراده على ويعترض به على كتابى فاقول

الامر الاول هو ان جميع ما اوردته من المناقشات فى شأن تقدم الحكومة والاخلاق والآداب والتجارة فى القرون الوسطى وكذلك ما قسمناه من وصف القانون السياسى فى دول اوربا المختلفة فى اوائل القرن السادس عشر لم يتعرض فيه لذكر المؤلف ولتيراصلا مع انه تكلم على هذه الحوادث المذكورة وبحث عن احوال تلك القرون فى كتابه المسمى مختصر التاريخ

وليس ذلك منى اهمالا فى مؤلفات هذا الرجل العجيب الذى بذكاء قريحته
واتساع دائرة معارفه تمرن على اغلب انواع الانشاآت الادبية فغلب
مؤلفاته تقضى بفوقانه على غيره وجميعها يشهد له بحسن عبارته وطلاوتها
وغزارة معارفه الا انه يأسف عليه من جهة قدحه فى الاديان وانما حاملا
على ذلك انه قل ان تأسى بمؤرخى المتأخرين الذين يذكرون الاصول
التى استمدوا منها الحوادث التى دونوها فى كتبهم فلم اعتمد على ما نقله فى هذا
الشأن لانى بين امر ابهامها او بيانها ومع ذلك فقد اقتفيت اثره فى هذا الكتاب
فدلنى على شيئين احدهما الحوادث التى اطلعت عليها والثانى استنباطه
منها ولو بين لنا اسماء ما استنبط منه من الكتب التى بسطت الكلام على
الحوادث التاريخية لكفانا المؤونة فى البحث عن معظم هذا التأليف
ولا يعترف له كثير ممن قرأ كتابه الذين لا يشهدون له الا بكونه كاتبا ماهرا رغب
فى تأليفه بانه ايضا مؤرخ عالم متبحر

والامر الثانى هو ان كل قارئ متيقظ يلاحظ انى لم اطنب فى الجزء التاريخى
من الاجحاف ولا فى عقد جمان التوضيح الذى زدته عليه فى الكلام على
القوانين والعوائد القديمة التى تخص دول بريطانيا الكبرى الثلاثة بقدر
ما اطنبت فى الكلام على قوانين الملل الاخرى من اوروبا وعوائدهم والباعث
على ذلك هو ان الحوادث الاصلية التى تتعلق بتقدم الحكومة والاخلاق
فى هذه الدول الثلاث مما لا يخفى على اغلب القارئين فقد اضربت عنها صفحا
لما انه لا داعى الى بسطها ومع ذلك لم اهمل من المحوطات والحوادث ما لا بد
منه فى الوفاء بالمقصود من الجزء التاريخى من الاجحاف بل ذكرته فى المواد
التى هى موضوع كتابنا ولما كانت صور الحكومة فى سائر بلاد الافرنج تكاد
ان تكون متحدة فى عدة قرون رأيت انه ليس هناك ما يوضح تقدم القانون
الانكليزى اتم توضيح الا اجتناء التدقيق عن قوانين دول الافرنج الاخرى
وعوائدها وقد اهمل فى بيان اصول هذا القانون القديمة مؤرخو الانكليز
ومشرعوهم لانهم لما استمروا القانون السعيد الذى يحظى به الآن بلادهم

تفرغوا بكليتهم الى تحسين موزونه واحكام احكامه اكثر من التفاتهم لبيان وضعه القديم مع انه مباين بالكلية للقوانين المتأخرة ولما اطلعت على عيار بطانية الكبرى من الدول الافرنجية ورأيت قوانينها وشرطاتها ومؤلفاتها القديمة تفكرت كثيرا ان كل مؤلف اعتنى فيه بايضاح الكلام على تقدم التشريع والقوانين السياسية ببلاد الانكليز وقوبل ذلك بباقى الدول الاخرى من التشريع والقوانين المشابهة لها يصير عظيم النفع ويكشف الغطاء عن مباحث عويصة باقية على ابهامها الى الآن وبيت الامر فى شأن كثير منها من المباحث التى هى منذ زمن طويل موضوع مجادلات وارتياب بين المؤلفين الذين بذلوا فيها من الجهد الغاية وبحثوا عن تحقيقها ليقفوا الها على نهاية

براهين جلية فى نقض ما قيل فى الدولة العثمانية

المترجم هذا الكتاب الفقير الى مولاه خليفة بن محمود احسن الله فى الدارين مثواه قال مؤلف كتابنا بصحيفة (١٧٥) فلما كان هؤلاء السلاطين يرون ان رعاياهم يحترمون لهم مع غاية الذل كانوا لا يمنعون عن ان يدخلوا فى مملكتهم شيأ من القوانين التى فى غيرها من الممالك والدول يمنع تعدى الملك وظلمه واختصاصه باطلاق التصرف فكان لا يوجد فيها كغيرها محاكم شرعية تعرض عليها القوانين والشرائع قبل نشرها ونشرها فى المملكة ولم يكن بها طائفة اشراف ولا امراء آموراتية كما فى المانيا مثلا يغارون على مزاياهم ومناصبهم فيضعفون قوة الملك وشوكته الى آخره

قول ان الممالك الاخرى انما بحثت عن قوانين تمنع تعدى الملك وظلمه لان الملك فى غير الدولة العثمانية ليس مكبولا مقيدا كتقييد السلطان اى ليس عنده القرآن الذى يرجع اليه السلطان فى الجزئيات والكليات بحيث ان تعداه لا يطاع امره بل قوانينه سياسية لا الهية فتحتاج لمن يذب عنها ويحفظها من تعدى الملك واما قوانين الدولة العثمانية فكلها مستنبطة من الكتاب والسنة ويجب على كل مسلم ان لا يتعداها فى شىء لانه ان تعداها فقد خالف الكتاب والسنة اذ ان من

لم يحترم

لم يحترم الفرع لم يحترم الاصل وحاشا ان يتضيع احد من المسلمين مخالفة
الشرع لا سيما السلطان الذي يعلم انه الحاوي لعدل بين رعاياه ويسبح على
اسمه سيد البرية واما قوانين السياسية عند المسلمين فلا يمكن ان يوجد فيها
ما هو مخالف نص القرآن في الاحكام بل هي احكام مع مخالفة في الالفاظ
لا في المعاني

وايضا ان السلطان لا يجري احكام القران بمجرد ما يفهمه برأيه ولا يتصرف
فيها بشيء الا اذا كان مستكملا لشروط الاجتهاد بل كل شكوى او دعوى
ترجع الى الديوان العالي بمدينة اسلامبول فتذكر في شأنها ارباب هذا
الديوان ومن جملتهم المفتي الذي هو مفتاح آيات التنزيل المبين وترجمان كلام
رب العالمين فاذا حكم بشيء في الديوان نظر فيه المفتي هل هو موافق للحكم
الشرعي اولا فاذا امضى به وافق عليه قدم الى السلطان فان شاء التخفيف عن
مستحق العقاب خفف او العفو عفا الا اذا كان ذنب الجاني كبيرا يضر بمصلحة
المسلمين فان السلطان لا يمكنه ان يتجاوز ما حكم به المفتي وارباب الديوان
ولو كان في حق اخص خاصانه واقربه فقال المؤلف غرضي

ينعقد الديوان السلطاني للحكم في المعاملات والجنايات وغيرها ثم يرجع
الى السلطان ويحقق هذا الديوان ايضا دعوى ما اذا اتهم احد من الرعيه
قاضيا ولو قاضي الاعظم الذي هو قاضي عسكر

ويحقق الديوان المذكور كذلك كل شكوى قدمت الى السلطان في شان وزير
او باشا او احد من ارباب المناصب العالية في الدولة او في الديوان وبالجملة
فهذا الديوان يحقق جميع انواع الشكاوى ولو في حق احد من اربابه فاذا اشتكى
انسان احدا من ارباب الديوان لا يجوز له ان يحضر به حتى يتم تحقيق
دعواه مع شاكيه وكل شيء في هذا الديوان لا يكون الا بموجب
رأي الجمهور

ورئيس هذا الديوان هو الصدر الاعظم واذا غاب يقوم المفتي مقامه
واما اذا اقيمت دعوى في حق احدهما بهذا الديوان كان رئيسه غير المتهم

منهما وليس للسلطان محل بصدر الديوان يجلس فيه بل يجلس في محل مطل على الديوان متصل بسرايته فاذا جلس فيه رأى كل ما يقع في الديوان وسمع كل ما يحصل فيه من المذاكرة كل ذلك وهو لا ينظره احد ويجب على الوزراء وارباب الديوان ان يتكلموا بصوت عال وان يفصحوا في عباراتهم لكي لا يخفى على السلطان شيء مما يتذاكرون فيه فيعرف طوية كل منهم ويظهر له الانفع والاصلح منهم للدولة فيجازيه على عدالته وحسن سلوكه واستقامته انتهى

فنقول ان السلطان ليس مطلق التصرف لان الحكومة المطلقة هي حكومة يكون الملك فيها فاعلا مختارا قادرا على تنفيذ ما تتوق اليه نفسه من غير ان يجد معارضا وليست واجباته مقيدة معلومة بل واجبه ما عليه له رأيه فهو مشرع وملك وقاض وخصم ويحكم لنفسه مع خصمه ولا شك ان يشمل هذا بكسبه محض ارادته ان يقتل من شاء ويعفو عمن شاء ويقرب من احب ويبعد من بغض

ومن الخطاء المحض ان يعتقد انسان ان السلطان بهذه الاوان اي يمكنه بمجرد رأيه ان يقتل احدا من ارباب المناصب في دولته لا بل ولا من الرعاع لان السلطان كما ذكرت لا يفعل شيئا من تلقاء نفسه بل جميع افعاله مقصورة على القرآن والحديث لانهما اصل شوكته واحترامه عند رعيته فان كانوا يطيعونه ويخضعون اليه يكون ذلك بمجرد اوامر القرآن المجيد قال الله تعالى يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فالطاعة واجبة له بتنزيل الرحمن اذ لا ولي امر في الحقيقة سواه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلطان ظل الله في ارضه ولا يسمى السلطان الا اذا اتبع القرآن والسنة لانه ان حاد عن نصوصهما في شيء فقد تعدى الحدود ونفرت منه القلوب لمخالفة الرب المعبود اذ لا يسمع السلطان فيما يجيء مخالفا لتنزيل الرحمن وكم قتلت سلاطين عظام في نظير تعديهم لقوانين الدولة والشريعة وكم حكم ديوان القسطنطينية العالي بقتل وزراء وباشات ظالمين جائرين وكم

حكم كذلك بصلب آخرين بتسمير آذانهم بمسامير على باب السراية ولو كانوا من ندماء السلطان واخصائه * وفي الدولة العثمانية ليست خالية كرعم المخالفين من ديوان يفتش على السلطان في احكامه ويمنعه من كل فعل يضر بالرعية او ببلادهم

قال المؤلف غرابتي من العلماء اعتقاد كون السلطان يمكنه بمحض ارادته وشوكته ان يقتل من شاء قتله من ارباب المناصب في دولته او من رعاياه * ولا شيء اشد فسادا من هذا القول فانه لا يقتل احد من الاكابر الا بعد الحكم عليه بذلك من طرف الديوان العالي فان اربابه هم الذين يتذاكرون في هذا الشأن ويعلمون ما انعقد عليه رأيهم ثم يعرضونه على السلطان لانه اذا حكم الديوان على احد بالقتل لا يجوز اجراء هذا الحكم الا بعد ان يوضع عليه امضاء السلطان وما في غير صورة القتل فيكفي امضاء المفتي وبعض من ارباب الديوان ولابد من قيد صورة الحكم بتمامها في دفاتر الديوان ولا يكتبها الا المفتي نفسه

وغير هذا الديوان العالي الذي ترفع اليه المصالح العمومية والدعوى الكبيرة الحسبية يوجد عند كل باشا من حكام الاقاليم مشورة تسمى ايضا باسم الديوان وهو كناية عن محكمة تبحث عن تحقيق الدعاوى والشكاوى التي تقدم اليه الباشا ولا يحكم في شيء بدون ارباب هذا الديوان وكذلك القبطان باشا اذا سار مع الدونانمة اي السفن الحربية فانه اذا خرج من بوغاز كاسولي ورخص له في احكامه على البلاد التي بالسواحل وصارت شوكته في التصرف كشوكة الصدر الاعظم يعطى له كذلك مشورة بعينه ولا يفعل شيئا الا بعد المذاكرة مع ارباب هذه المشورة * وارباب هذه الدواوين كلهم افندية اي عالمون بالشريعة ووظيفة ارباب كل ديوان تختلف بحسب عظم منصب الرئيس الذي هم بمعيته فبناء على ذلك يرى ان الشوكة المطلقة والتصرف الواسع المرخص فيه للباشات والحكام في بلاد الترك ليست الا شوكة ظاهرية لان هؤلاء استشارتهم في دواوينهم من الافندية

من لا يغفل عن ملاحظتهم ادارة واهمالا وهؤلاء الاحدية المعاونون هم انفسهم يلاحظهم الديوان العالى بالقسطنطينية وهو الذى يعاقبهم عند الاهمال واتباع سبيل الغى والضلال • واذا حكم باشات الاقاليم بالقتل على احد من انفصالا لا ينفذ حكمهم الا بعد عرضه على الديوان العالى لتحققه ثم يصدر منه اوامر بالاجراء او بالمنع الى آخره

وللسلطان الحق فى ان يعفو عن الجانى او يبدل عقابه بعقاب آخر ولكن اذا ثبت على احد فى كبيرة او فعل فيه بعض مصلحة عمومية مهمة وحكم عليه ارباب الديوان بعقاب لا يمكن للسلطان ان يتعداه ولو كان فى حق اعز خصائه وندمائه لان الفتوى تكون فى هذه الصورة من نص الشريعة الرحمانية • لا يمكن نقضها واذا ابى السلطان ان يقبلها تغضب عليه الامة بتمامها وتعلن عصيه فى نظير امتناعه من اجراء هذا الحكم وتصير فى حرب من قاواه

فجميع من قتل من الباشات الطالين والوزراء الحاسبين اصحاب الاختلاس قد قتل بامر هذا الديوان وكذلك من علقوا من آذانهم بمسامير على باب السراية ولقد حصل هذا الفعل مع كثير من ندماء السلطان واخصائه ولا شك ان مثل ذلك عبرة عجيبة تنقلها الخلف عن السلف

وكم حكم ديوان القسطنطينية ايضا بقتل سلاطين عظام من سلاطين الدولة العثمانية وحكم على آخرين منهم بالحبس الابدى الدائم فى نظير كونهم تعدوا قوانين الدولة واتوا بما يخالف الشرع • وفى مثل هذه الصورة لا ينعقد الديوان العالى فى سراية السلطان كعادته بل ينعقد فى الجامع المسمى بصوفية

فيسوغ لنا ان نقول انه فى اى دولة كانت غير الدولة العثمانية لا يمكن ان يكون ارباب الديوان المنوط بادارة مصالح المملكة كارباب ديوان القسطنطينية فى الحرية وابداء الرأى فان كلا من ارباب ديوان القسطنطينية يقول رأيه بقلب قوى ولا يخشى بأس احد ونقول ايضا ان حزب السلطان فى الديوان المذكور اضعف من حزب ملك آخر فى دولة اخرى بحيث يقل ان حزب الملك

في دولة اخرى اقوى شوكة واعظم كلمة من حزب السلطان في الدولة العثمانية الفائقة وان حكومته مطلقة بحيث يتصرف فيها الحاكم كيف شاء

وربما يستبعد قولي هذا من اطلع عليه ولكن اقول يسهل التصديق به عند من عرف ان السلطان لا يسوغ له ان يكون من ارباب الديوان العالي واذ رأى الصدر الاعظم كرأي غيره من ارباب الديوان في الاعتداد والعقود وان السلطان والصدر الاعظم لا يمكنهما حكما نهائيا في شأن ما يخص المصالح الجسيمة كعقد صلح او اشهار حرب وما اشبه ذلك واما في غير هذه الدولة فترى اكثر الملوك هم الذين يتصرفون مع دواوينهم في مثل هذا المعنى واما وكلاء المملكة فليسوا الا صورة وكل شيء اجري لا يكون الا عن ارادة الملك وحزبه وشتان بين هذه الممالك والدولة العثمانية لان الديوان العالي في بلاد الترك هو الذي يحكم بكل شيء من تلقاء نفسه

ولكن ربما قال قائل ان ارباب الديوان العالي كلهم قد ولاهم السلطان وعليهم في الاصل كان تأديبهم بالسراية السلطانية وتربيتهم مع عائلة السلطان وبناء على ذلك لزم ان يكونوا انصاره مطيعين لامره ويفعلون ما يشاء من غير مخالفة ولا تقصير وليست آراؤهم مستقلة في شأن ما تقع فيه المذاكرة بالديوان اقول ان هذا الايراد كان يمكن قبوله وتسليمه لو لم يكن عند الاتراك مانع يمنعهم عما لا يرضي الله وما هو واجب على كل مسلم فترى المسلمين اجمعين يتفقون في اتباعه وهو القرآن الذي يعسر على كل مسلم تبديل ادنى شيء منه كيف لا ومن عقائدهم الدينية انه يجب على كل انسان منهم المحافظة على هذا الكتاب المطهر ومراعاة احكامه مهما امكن فارباب الديوان كلهم يعتقدون اعتقادا يقينيا انه يجب عليهم ان يقدموا احكام القرآن عن غيرها وان يكون اعتبارهم له فوق كل اعتبار ويعتقدون كذلك انه يجب عليهم ان يدافعوا عن القرآن وعن القوانين المبنية عليها الدولة من كل من اراد تبديلها او حدثها ولو كان السلطان ولاجل ذلك ترى انهم ليسوا انصارا للسلطان ولا يطيعونه في جميع اوامره بل ترى ان بعض المناصب

التي يكون لصاحبها الحق في حضور مذاكرات الديوان ومشاورته لا يجوز رفعه من صاحبه اذا قلده به السلطان وبالجملة فارباب هذا الديوان يعرفون ان شريعتهم المبنية على الحكمة قد نهت عن المخادعة واغواء الغير لمجرد حاجة نفسانية فهم آمنون من ذلك

وقد عهد كثيرا في تاريخ الدولة العثمانية ان من اراد من ارباب الديوان ان يتعاظم او يرجح رأيه على رأي غيره ضاع اعتباره عند اهل الديوان وعند الرعية بحيث لا يرجى له فلاح بل لا بد من حطه او قتله فيما بعد كما حصل ذلك مع كل صدر اعظم بحث عن ان تكون له ادارة مذاكرات الديوان ومشاورته وعن ان يكون فوق اربابه كلمة ورياسة فهل يمكن بعد ذلك ان يفعل الصدر الاعظم لاجل حاجة نفسية له ما يجر بالسلطان والدولة الى ادنى حرب او ادنى ضرر والحاصل ان ارباب ديوان القسطنطينية لا يحبون ان يتأمر عليهم احد ولا يطيعون احدا في محذور بل يحبون ان يكونوا مطلقين في ابداء آرائهم لمصالح الدولة كل يقول ما استحسنه عقله واستنبطته نفسه من غير نظر الى مراعاة صاحب شوكة او صولة في دولتهم

ثم ان ما يحكم به في هذا الديوان يعرض على السلطان ولكن لا يمكن للسلطان ان يبطل منه شيئا الا اذا اعتمد على اسباب قوية صحيحة والا يخشى ان ينقض شيئا مما حكم به ارباب هذا الديوان وكذلك الصدر الاعظم فانه يخشى ان يشير على السلطان بشيء في هذا الشأن لانه ان فعل مثل هذا لا يكون آمنا على نفسه فاذا لم يتعرض لشيء ربما كان عند الشدة من الناجين ويقع السلطان وحده فيما جناه على نفسه ولذلك ترى ان احكام هذا الديوان لا يرد منها الا القليل النادر انتهى

ثم ان الدولة العثمانية لم تكن بها طائفة اشراف ولا امراء وراثية يغارون على مناصبهم ومزاياهم فيضيقون قوة الملك وشوكته ولكن اقول ان هؤلاء الاشراف او الامراء كانوا يضيقون قوة الملك لاجل توسيع شوكتهم ولاجل نفع انفسهم لا لنفع الرعية فلا يخفى ما حل بالناس من المصائب والمظالم بسبب

اتساع مرتبة الاشراف وتقوية شوكتهم وسعة اراضيهم والتزاماتهم فكانت
الرعية تسأم من حكومة الاشراف كما كان يسأم منهم الملوك فانظر الى الاهوال
التى حلت بمملكة فرنسا وانكلترة واسبانيا والمانيا وغيرها من ممالك اوروبا
بسبب الاشراف فانك تجد انه لم ينشأ عن حكومتهم سوى تخريب البلاد
ومحق العباد ولا حاجة الى التنبيه هنا على ما فعله ملك كرلوس السابع وابنه
لويز الحادى عشر بعده فى خفض الاشراف ولا على ما حصل للمملكة
الفرنساوية بعد ضعفهم من التقدم والشوكة ونفوذ الكلمة فى البلاد
الاجنبية ولا يخفى كذلك ما فعله ملوك اسبانيا الاول فى توسيع قدرتهم وضعف
شوكة الاشراف التى كانت سببا فى عدم راحة الرعايا لا سيما ما فعله الملك فرديناند
وبالجملة فطوائف الاشراف التى نظر مؤلف كتابنا ان عدم وجودها بالدولة
العثمانية مما يقلل العدل والنظام بها ليست الا منبعا للظلم والغصب
والاختلاس وجميع ما يتصوره العقل من مفاسد الطغيان والبغى وانواع
البلاء ثم حط المظالم هؤلاء الاشراف فى المانيا وغيرها على طوائف الرعايا حتى
كانت الرعايا خدما او عبيدا لهم ولطالما اساؤا الادب على كل من اراد
قمعهم من الملوك واحب ان يمنعهم عن الظلم ليصلح حال رعيته اما انهم توغلوا
حتى صاروا يحكمون حكما مطلقا فى اراضيهم من غير ان يقدر على معارضتهم
احد وصارت احكامهم مطلقة فى المعاملات والجنايات ورخص لهم
فى المزايا الملوكية كضرب المعامل وعقد الصلح واشهار الحرب واحتقر بعضهم
بأسه وقوته وتعاظمه وانفته ان يكون من جملة الرعايا ونقض العهود
التى تربطه بالملك حتى صار هؤلاء الاشراف انفسهم ملوكا مستقلين فصارت
كل مملكة حوزتهم منقسمة الى امارات ووجاقات بقدر ما كان فيها من الملتزمين
الاقوياء وصار كل منهم يطمع فى حوز المملكة لنفسه ويبحث عن تكثير
اراضيه والتزاماته وتضعيف احزابه وازدياد رجاله حتى طورت اسباب
الاختلال من كل جهة واوقدت نيران الحروب بينهم غيرة من بعضهم وسفكت
دماء كثيرة بسبب الحروب التى كان لا يقتضى لها ازدحام من بينهم فكانت

حصون كل مالكه وقلاعهم معدة لمدافعة والاحتراس من الاغارات
الداخلية لا لمنع الاغارات الاجنبية وجرد هؤلاء الاعيان الملك عن معظم
خصائصه حتى صار لايمكنه ان يتعدى على احد منهم ولا ان يعاقب المذنب
وصار لايمكنه ان يعارضهم فى ظلمهم ولا ان يدافع عن نفسه وكذلك الرعايا
حل بهم من طرف هؤلاء الاشراف الظلم والنهب والسلب وصاروا عبيدا
لهم يخدمونهم فى الحرب وغيره ويزرعون لهم الاراضى بل وكانوا يباعون
مع الارض ان بيعت وكانوا فى غاية الذل والاسترقاق اذ كان للسيد مطلق
التصرف فى شأن من هم تحت ولايته من المستعبدين فلا يعارضه احد
فى قتلهم او تعذيبهم او غير ذلك من العقابات التى تنفر منها نفوس ذوى
المروءة والانسانية وكانوا لا يتزوجون وانما كانوا يعيشون مع بعضهم كالزوج
والزوجة لا بعقد دينى فهم اشبه بحيوانات فى دور تناسلها مع بعضها كما هو
مذكور فى المبحث التاسع بصحيفة (٢١٢) من كتابنا هذا فكانت الراحة
مقصورة على اغنياء هؤلاء الاشراف المتغلبين وهل صلح حال بلاد الافرنج
الا بعد قطع دابر هؤلاء الاشراف بطوائفهم وجعلهم كبقية الاهالى
وكفى يا معشر الاسلام فخرا ان دولنا لم يقع فيها مثل هذه الامور
لان طائفة الزراعين ببلادنا تركية فى غاية من الامن والراحة لا كبلاد الافرنج
فان الزراعين فيها يعدون ارقاء او اتباعا للملتزمين واما بلاد الترك فترى
الفلاح فيها لا ملتزم له يأخذ كسبه بل ما يكسبه بفعله وكده يرجع له
ولعائلته فالحمد لله الذى انجى بلاد الاسلام من طوائف الاشراف التى تنوح
بها مؤلف كتابنا لانه شتان بين من يحاول نفع نفسه ومن يحاول نفع وطنه
فان الاشراف كانوا يحاولون نفع انفسهم ولا يقصدون بتضييق شوكة الملك
نفع الرعية ولا راحة الاهالى بخلاف الدولة العثمانية فان الاكابر والرعاع على
حد سواء فترى الاكابر الذين شربوا مشرب الغرب واشربوا الشريعة المحمدية من
صغرهم لا يميلون الى الظلم واذا اراد بعض خبيثة منهم ذلك يرى من
يعارضه فى الديوان العالى بل وفى نفس الرعية حتى يمكن ان يؤدى به ذلك

الى حطه اوقاله

وبالجملة فالاكابر فى الدولة العثمانية يرجحون منافع الرعية على منافعهم فانظر الى ديوان القسطنطينية تر اربابه لايبحثون الاعما فيه نفع الرعية ويبذلون فى ذلك غاية جهدهم وقد حصل عدة مرات ان الصدر الاعظم وغيره من اكابر الديوان قدروا عزلهم وخروجهم من هذا الديوان عن كونهم يتبعون جمهور الديوان فى بعض اشياء راوا انها خطرة لدولة الاسلام كما حصل ذلك عن قريب عهد من المفتى والصدر الاعظم المسمى عزت باشا وذلك انه حصلت مذاكرة بديوان القسطنطينية (سنة ١٢١٤) من الهجرة المحمدية فى شأن مرور بعض سفن موسقوبية سوغاز اسلامبول فابى الصدر الاعظم وهو عزت باشا ان يوافق اهل الديوان فى ذلك وكذلك المفتى فانه ابى ان يعطى الفتوى باجرآء هذا الامر فلما رأيا ان جمهور ارباب الديوان قد رضى بذلك ورأيا ان كلا منهما لم ينفذا استعفيا من الخدمة وذهب احدهما الى جزيرة كريد والآخر الى جزيرة رودس وقد حصل كذلك ان بعض سلاطين الدولة العثمانية قد بويع بالسلطنة على سبيل الانتخاب لكن من نفس العائلة السلطانية حيث ان بعض السلاطين قد توفى وله اخوة واولاد فتخب اهل الديوان من يصلح للحكم منهم وبايعوه فاتفق انهم ولوا الاخ دون الابن او الصغير دون الكبير على حسب ما شاهدوا من صلاحية كل منهم قبل انتقال المتوفى وقد حكم الديوان المذكور كذلك على السلاطين بامور صعبة فى شأن ازواج اذ رأوه يعود بالضرر على دولة الاسلام وصار حكمه بذلك معدودا من القوانين المحترمة فى الدولة حتى انه باق الى الآن وتعرض المؤلف غراسو لذكر هذا الامر فقال

ينبغى لنا ان نوجه العادة الغريبة التى ذهب اليها الاتراك فى حق سلاطينهم وجعلوها من القوانين المعتمدة فى الدولة وهو ان السلاطين لايجوز لهم ان يعقدوا زواجا شرعيا صحيحا وانما يقتصرون على ان يتسروا من الجوارى الارقاء الموجودة بالسراية فنقول ان هذا القانون رتب من ايام السلطان

بايزيد وقد اختلف فى الاسباب التى حملت السلاطين على اقرار هذا القانون فالاتراك يعدونه من اسرار الدولة التى لا يعرف سببها احد واما المؤرخون فقد بذلوا جهدهم فى توجيهه وبيان سببه فقال المؤرخ بوسيك لى المصائب التى حلت بالسلطان بايزيد عقب انهزامه بالملك تيمورلنك ان السلطان بايزيد كان له زوجة تسمى دسبينه وكان يحبها حبا جما فلما وقع الحرب بينه وبين الملك تيمورلنك وهزم اخذ تيمورلنك زوجته دسبينه واحضرها امام عساكره وهى تكاد ان تكون عريانة فقال المؤرخ المذكور ما نصه ان ذلك هو السبب فى كون السلاطين الى الآن لا يتخذون لهم زوجة بعقد نكاح شرعى خوفا من مثل هذه الواقعة انتهى ولكن عد المؤرخون هذه الحادثة من جملة الخرافات المحضة فقال اعقلهم واحسنهم سياسة كالمؤلف ركوت ان هذا القانون لابد له من اسباب سياسية أكدوا اعظم من هذه الحادثة التى لا يقرب انها احتمل عقلا

واقرب من ذلك الى الحق ان يقال ان سبب هذا القانون هو قصد حفظ الدولة العثمانية وابقائها على اصلها وذلك ان الاتراك بعد استيطانهم بلاد اوربا وكانوا اقوياء الشوكة اراد عدة من ملوك الافرنج ان يتخذوهم جانبا يكونوا فى حماهم فعرضوا على السلاطين بناتهم ليتزوجوا بهن فقبل بعض السلاطين ذلك لما ان القرآن يجوز زواج المسلم بالنصرانية

ومن جملة السلاطين الذين تزوجوا من بنات النصارى السلطان اورخان الاول فانه تزوج بالاميرة تيودوره بنت الملك كنتاكوزين لان هذا الملك كان يحب ان يستعين بالسلطان المذكور على الامبراطور باليولوس ولاجل ان يستميل هذا السلطان ويتوصل الى مقصده عرض عليه بنته ليتزوج بها وكانت بديعة الجمال ما لها فى حسنها مثال فكتب السلطان عليها وبعد ان تم العرس نقلت هذه الاميرة الى سراية السلطان ورخص لها فى ان تبقى على دينها

ولكن بعد ان تثبت الاتراك فى بلاد اوروبا اقتضت السياسة ان لا يأذنوا

سلاطينهم بالزواج وذلك ان ارباب الديوان العالى خافوا من ان يصير لدول الافرنج حينئذ بعد ذلك نفوذ وكلمة فى الدولة العثمانية ويصير للافرنج دخل فى احكام دول الاسلام وترتيبها فصمموا على ابطال هذا الامر الذى يمكن ان تكون عاقبته سوأى فجعلوا من جملة القوانين المرعية فى دولتهم ان لا يجوز لاحد من السلاطين ان يعقد زواجا شرعيا وانما يجوز لهم لاجل ان يخلفوا اولاد يرثونهم فى السلطنة ان يتسروا بالجوارى الموجودة بالسراية لانها قد ربيت فيها وتدربت بين المسلمين وعوائدهم ومن بعد هذا القانون انقطعت سلسلة المصاهرة بين المسلمين والنصارى لانه صار لا يجوز للسلطان ان يأخذ امرأة على سبيل الزوجية بل يتملكها بملك اليمين ومن يرضى من ملوك الافرنج ان يعطى بنته او اخته لاحد من السلاطين على هذا الوجه

وفى الواقع يمكن ان يقال ان منع السلاطين عن الزواج من ملة اجنبية هو السبب فى بقاء الدولة العثمانية على اصلها وابقاء شرائعها وقوانينها على حالها لان اسير العشق ذليل مطيع فلو كان السلاطين يتزوجون ببنات ملوك الافرنج او اخواتهم وشغفوا بحبهن لنالوا منهن ذرية لكانوا عرضة لان تتغير طباعهم وربما كان ذلك يجر الى تغيير شرائع الدولة فمن حسن سياسة ارباب الديوان بادروا الى قبول هذه العادة التى صارت اصلا منع من ان يحصل فى بلاد الدولة العثمانية حكومة اشراف ارستوقراطية كما حصل فى غيرها من باقى ممالك اوروبا ولا شك ان مثل هذا الرأى السديد لا ينشأ الا عن كل ذى قريحة عزيزة وفطنة كبيرة

فانظر كيف حكم اهالى العثمانية على سلاطينهم فى شأن الزواج وكيف شددوا عليهم التشديد الكلى فى ذلك بحيث لا يمكنهم الآن ان يتزوجوا ولو من رعاياهم الاحرار انتهى

فعلم من ذلك ان السلطان فى الدولة العثمانية ليس مطلق التصرف بل هنالك قوانين تمنعه عما يريده ان كان لا يصح شرعا او سياسة او كان يضر بالدولة ولتعلم ان السلطان لا يمكنه ان يخالف قوانين بلاده من غير قصاص اذكر لك

هي حادثة ذكرها المؤلف المتقدم في مباحثه وملخصها ان المفتي راجين في ايام السلطان ابراهيم كان له بنت قل مثلها في الجمال وصفات الكمال فاشتهرت بحسنها وبهائها في مدينة اسلامبول حتى قيل انها في قدها ولطفها وبديع صفاتها وحسن صنعها تعلو على محظيات السراية

بروحي منها حاجبا عنج قوسه * نصاله من طرفها اى نابل
وقضبان بلور بدت في خواتم * واعمدة من فضة في خلاخل
وريد بن لولم يمسكا في دمالج * لسالا من الاكمام سيل الجداول
فما اختال طي قلبها في مدارع * ولا مال غصن يانع في غلائل

فاشتهر هذا الخبر حتى طرق اذن السلطان ابراهيم وكان يصبو الى كل ذي جمال فصار يتلذذ بذكر اوصاف هذه الجميلة ويحب تكرارها في كل وقت وحين

يقولون في البستان للنفس لذة * وفي الخمر والماء الذي غير آسن
اذا شئت ان تلقى المحاسن كلها * ففي وجه من تهوى جميع المحاسن

ولم يزل في وله واحتراق وقلق واشتياق حتى الجأه الحب الى ان طلبها من ابيها فتعجب المفتي من ذلك واعتذر له بانه لا يجوز له ان يتخذ امرأة الا من محظيات سرايته ولا يجوز له ان يأخذ بنتا او امرأة حرة من نساء مملكته الا على سبيل كونها جارية محظية لا على سبيل كونها زوجته وانه لا تسمح نفسه بكونه يعطي ماله بنته جارية محظية فقال له السلطان تزوجها بعقد صحيح شرعي فقال له المفتي ان الرسوم تمنعك عن ذلك لانه لا يؤذن للسلطان ان يتزوج فاذا فعلت ذلك يخشى عليك لان الرعية لا تصفح عن السلطان اذا فعل ما يخالف القوانين فهذا الزواج لا ينشأ عنه لك الا كل ضرر ولكن من شدة غرام السلطان لم يسمع نصيحة المفتي وقال لا بد من الابتناء ببنتك فعند ذلك اظهر المفتي انه جنح الى تزويج بنته للسلطان لكن بشرط رضاها

فلما ذهب المفتي الى بيته احضر بنته واخبرها بالقضية وقال لها ان تزويج بنت السلطان حل به كل خطر لان القوانين لا تأذن للسلاطين بالزواج ولو بما ادى ذلك الى ايقاع فتنة او حادثة مشؤومة في الدولة فيلزم ان لا ترضى بزواجه

فاطاعته وطردت رسل السلطان وهداياه النفيسة من جواهر والماس وابت
ان تقبل القصور والسرايات التي اعدها لها فلما علم السلطان بذلك عزم على ان
يجري مقصده بمحض القوة والغصب فجعل ينتظر الفرصة حتى خرجت بنت المفتي
مع جواريها لتذهب الى الحمام فاختطفها مأمور من طرف السلطان وذهب
بها الى السراية فظن السلطان حينئذ انه قد فاز بقصده واخذ يستعطفها
بمواعيد ملؤها رحمة ويتودده اليها تارة وتهديدها تارة اخرى ولسان حاله يقول

صل محبا اعياه وصف هواه * فضناه ينوب عن ترجمانه
كما رقة سوالك نصدت * مقلتاه بدمعه ترجمانه

غيره

يا من يدير نرجسا * في روض ورد ذابلا
اصبح جسمي مدنفا * مذ غبت عنه ذابلا

ولكن لم يجده ذلك شيأ لان هذه الشابة العفيفة لم تظهر له سوى الاهانة والاحتقار فاضطر الى ارسالها بالثاني الى دار ابيها فلما علم المفتي ذلك اغتاظ كل الغيظ لان هذا تعد من طرف السلطان وفيه هتك حرمته ومخالف لقوانين الدولة فتعلقت آماله بالانتقام لنفسه وللملة لان من تعدى على حق فرد واحد يخشى منه ان يتعدى على حق الجميع وحيث ان المفتي رئيس طائفة العلماء اجتمع معهم واتفقوا على تخليص حقه من السلطان فحصروا الجبر على الانكشارية واذاعوه بين الناس حتى علم الخاص والعام ان السلطان يريد ان يخالف قوانين الدولة ويتزوج بنت المفتي فعند ذلك تعللوا عليه بامور سابقة له وحكموا بعزله وقتله

صورة الحكم على السلطان ابراهيم المذكور

قد ارتكب هذا السلطان فعل عدة اشياء اغاظت الرعية لاسيما وكان وزيره الاعظم محمد قبيح السلوك في الادارة والتدبير حتى اتهمته الرعية بانه ظالم مختلس ومع ذلك كان السلطان يحبه ويجعله نديمه فغضبت الرعية على هذا السلطان الى الظلم اذ هو محب من يظلم الناس واضرمت نيران الفتن ببلاد الترك

وكان السلطان ابراهيم قد وقع بينه وبين المفتى عداوة كبيرة بسبب خطف بنته المتقدم ذكره وكان قد اغضب ارباب الديوان بسبب انه اراد ان يحرم القوانين ويتزوج بنت المفتى فابتدأ العلماء والرعية والعساكر بانتخاب وزير غير الصدر الاعظم محمد المذكور وارسلوا الوزير الذى انتخبوه الى السلطان صحبة ثلاثين رسولا من طرف الديوان والرعية ليطلبوا عقاب الوزير محمد فى تفريطه وقبح سلوكه فلما وصلوا الى السلطان نظر اليهم بعين الاحتقار واستنكف ان يصغ لكلامهم وقبض بلحية الوزير مراد اغا الذى انتخبته الرعية وصار يضرب به بين يديه فخلصه منه الرسل الذين كانوا معه ودهموا من عند السلطان يقصون ما حصل لهم فزاد غيظ ارباب الديوان والرعية وفى اليوم الثانى عند انشقاق الفجر ظهرت رأس الوزير محمد معلقة امام الناس حيث ان هذا الوزير قتل ليلا بامر الديوان وفى هذا اليوم ذهب العلماء وارباب الدولة الى جامع اياصوفية ليتذاكروا فى شأن السلطان واعرض المفتى راجيل على اهل المجلس ان الدولة قد حلت بها جميع المصائب بسبب قبح سلوك السلطان وحمقه وقال ان الدولة قبل حكم السلطان ابراهيم كانت فى حالة زاهية زاهرة وفى حكمه تخربت الاقاليم فى اقرب وقت وفقدت حرمة الدولة وفترت همة العساكر وانقرضت قواها البحرية وتغلب النصارى على جزء من بلادها وكل ذلك ناشئ عن ادارة هذا السلطان الذى لم تظهر صولته الا فى ارتكاب الآثام والمظالم وذكر ايضا ما فعله السلطان من اساءة الوزير الذى انتخبته الاهالى وختم بقوله انه من يهمل فى انقاذ الدولة من ذلك بعد فلاشك من اصحاب الكبائر فعند ذلك حكم ارباب الديوان بان يرسلوا للسلطان يحضروه امامهم بالمجلس فكتبوا فتوى ووضع كل منهم امضاءه عليها وارسلوها للسلطان فمزقها واوعد بقتل المفتى فقال له اعضاء سرايته انه يخشى عليك انت نفسك من القتل ويا ليتك تقبل ان تقضى فى السجن ما بقى من عمرك فلما سمع السلطان كلامهم سكن غضبه والتفت الى ضباط سرايته الذين كانوا حوله وقال قد امتنعت عليكم

اسمع

الامم الحرية فهلا ارى فيكم من هو قوى القلب يتصدى لان يحامى عن سيده فلم يجيبوه الا بالصمت فعلم انه لا ينفع الظالم جليس ولا نديم فحكم عليه الديوان اولا بالعزل ثم صدر حكم ثانى بقتله

ولا يخفى ايضا ما حصل للسلطان عثمان الثانى فى نظير كونه اراد ان يتزوج باخت السلطان محمد الثالث واراد ان يبطل عساكر الانكشارية فذهب اليه العلماء واعلموه بانه ان لم يرجع عن هذا القصد لا يرى من رعيته الا الحرب والعصيان فاجابهم السلطان بقوله والله لامحقن كل العساكر الخيالة وكل الانكشارية ولكن بعد ان امحقكم كلكم فى [illegible] * فخرجوا من عنده واعلموا بما اجابهم به فصار كل الناس فى قلق وفزع واشتعلت بينهم نيران فتنة مهولة فاعتكف السلطان بسرايته واغلق ابوابها لان مدافع [illegible] المتعاطين فرقعت كالرعد باطراف السرايه فتكسرت ابوابها وجال المتعصبون فيها الى ان وصلوا للسلطان فاخذوه وعزلوه عن امر الديوان بالصرح المسمى [illegible] وولوا محله السلطان مصطفى وقتل السلطان عثمان المذكور فى اليوم الذى اعقب يوم الفتنة

وقد عزل [illegible] السلطان محمد الرابع والسلطان احمد الثالث ولا حاجة الى التطويل فى [illegible] على ذلك ان حكومة الدولة العثمانية ليست حكومة ظلم وجور كما ذكر مؤلف كتابنا وعلل ذلك بقوله ان السلطان يمكنه اعدام جميع الرعايا وتجريدهم عن جميع الاشياء وحوزها لنفسه لاسيما والناس لا يعرفون الحرية فلا يرون انفسهم الا عبيدا للسلطان فكانه مخلوق لان يحكمهم كيف شاء وهم مخلوقون لان يخافوه ويطيعوا امره

نعم ان الاسلام يهابون السلطان ويحترمونه ويظهرون بحضرته التواضع والخضوع ولكن هذا الخضوع ليس من الدناءة كما يتواضع بعض الناس لآخر مثله خوفا او رياء ولو لم يكن يميل اليه ميلا قلبيا بل هو حق واجب على كل مسلم مادام السلطان متمسكا بالسنة والقرآن اذ هو رئيس دولة الاسلام وحفيظ شريعة سيد الانام فهو خليفة النبى الكريم وسيف الرحمن الرحيم فان كان

المسلمون يحترمونه كل الاحترام ويخصونه بالتعظيم والتبجيل من بين الانام يكون ذلك اتباعا لما خاطب به الملك العلام ثم يطيعون اوامره الصعبة الشاقة ولا يجزعون منها لكونهم يعلمون ان احكامه مستنبطة من القرآن العظيم وسنة الامين الكريم الذى ماضل وماغوى وما نطق قط عن الهوى الا ترى ان الرعية وارباب الديوان بالقسطنطينية قد اشهروا السلاح وفعلوا مالا يباح فى صورة ما اذا تعدى السلطان الحدود ومال عن نهج الحدود

وقد اعترف مؤلف كتابنا ايضا بما يشهد عليه فقال بصحيفة (١٧٦) ما ملخصه ان الدين للسلطان زمام يمنعه عن ان يفعل كيف شاء بمحض ارادته ولو بلغ ما بلغ من كونه متصرفا مطلقا لان احكامه مقصورة عليه وشوكته مستمدة منه فيجب على السلطان الامتثال والانقياد من غير مجاوزة ما بينه الدين فاذا بين القرآن شيأ من المعاملات او العادات او سياسات الدول وجب على السلطان ان يعمل بموجب ذلك ولا ينفذ اوامره فى مناقضة ما هو مفروض بالدين * فيستبان من كلامه ان السلطان انما يحكم بموجب الدين وشريعة سيد المرسلين وحينئذ كان كذلك لا يمكن ان ينسب له الظلم باى وجه كان لانه حاشا ان تكون شريعته ظالمة وهل يظلم ربك احدا كلا وما ربك بظلام للعبيد هذا وقد خالفه فى قوله من ابناء ملته النصرانية عدة من العلماء الماهرين كالمؤلف مارسيغلى والمؤلف سيرجاسبورتير وكذلك المؤلف غرامى والمؤلف سيلوستري فانهما لم يسلكا من تحمل على الدولة العثمانية من مؤلفى الافرنج ووصفوها بصفات ذم لا تصدق عليها

واذا نظرت الى كيفية تربية السلطان فى صغره والى تربية اكابر دولته وارباب ديوانه ترى ان الدولة العثمانية ليست ظلمية ولا جورية بوجه من الوجوه ويظهر لك صحة ما قدمناه من ان السلطان ضيق الشوكة وليس مطلق التصرف بين رعيته فاذا فعل شيأ مخالفا للكتاب او السنة او القوانين السياسية لا يقره عليه ارباب ديوانه بل ولا تقبله الرعية ونقلت فى ذلك عن المؤلف غرامى عبارة صحيحة وان كانت للمسلمين من الضرورياب الالهيا

تضعف قول المؤلفين النصارى الذين وصفوا السلطان بكونه متصرفا مطلقا في بلاده ومن ذلك انتقلوا الى وصفه ووصف حكومته بالظلم والجور وفي ذلك فائدة وهي اننا لا نرد عليهم الا بقول ابناء جنسهم وتلك حجة اقوى في قمعهم وتخطئة آرائهم

قال المؤلف عن امير المذكور والمربية هي منشأ السلطان في التربية اذ يربى فيه مع غاية التدقيق والتشديد تحت ادارة احدى ذوات الحريم ويجب عليه ان يحفظ القرآن حفظا جيدا وان يعرف تفسيره واعرابه حتى يكون له اقتدار على شرح احكامه ويجب عليه ان يتعلم تاريخ الخلفاء وتاريخ العثمانية والتاريخ العام والجغرافيا ومبادى العلوم الرياضية واللغة التركية والعربية والفارسية بل ويتعلم علم الموسيقى واللغة اللاطينية ويجب عليه ان يصلى الاوقات الخمس في كل يوم وان يسلك سلوكا حسنا بحيث يقتدى به اولاد الملوك في اولاد السلطان من هو معد لان يحكم بعد ابيه وبين اخوته الآخرين فترى السلطان يخص انه الذى يترقب الحكم بعده كبقية اخوته وكذلك امه تحدثه بذلك الا انه فاذا اشتغل في شىء من القرآن ولم يحسن الجواب من شىء منه تقشعر رأس الامام المتوكل عليه ويعطى لابن السلطان مهلة يحفظ فيها جميع سور القرآن التى تعلم الانسان مراعاة العدل والحق والرفق بالفقراء ومن علم ذلك فقد حاز صفات الكمال وحميد الخصال سواء كان من آحاد الناس او ممن ولاة امورهم

فهل يمكن ان الامير المتعود من صغره على العمل والطاعة وحسن الاخلاق والعمل بحميد الشيم والخصال يصير ظالما جبارا * نعم ربما امكن ذلك حيث وقع بالفعل في بعض الاحيان لكنه نادر ولو كان السلاطين قد تربوا وانشأوا معشر الافرنج بين تملق وغمام وفساد في الانام لكنت ترى الظلم والقساوة من سجيتهم

ومن المعلوم ان قبيح التربية هو الذى يخشى منه فانه لا يفعل شيئا حسنا واما الامير الذى تعلم من صغره اصول الحق وتعود على الملاطفة وحسن

الاخلاق ومكث بعيدا عن الحسد والمأثم ولوحظ ملاحظة صحيحة من صغره فانه اذا صار سلطانا يستمر كما كان ولا يخرج عن نهج ما يجب عليه

ومع انه بعد توليته يصير رئيس الدولة تراه غير منفك القيد فى تصرفه بل يلاحظه المفتى فى جميع حركاته وافعاله وكذلك العلماء والعساكر وهو تحت ملاحظة طوائف ثلاثة طائفة الرعية وطائفة العلماء وطائفة العساكر وهذه الطوائف الثلاثة يجوز لها بموجب القرءآن ان تقتله او تعزله اذا سلك ما هو مخالف لشريعة النبى (صلى الله عليه وسلم) فترى السلطان لا يغفل ابدا عن فعل ما يجب عليه ولا يخرج عن منهج الحق خوفا من ان يغضب رعاياه لاسيما وهو يميل الى العدل والرفق بالخصال الحميدة التى طبعت فيه بحسن تربيته وتراه لا يفوته وقت من اوقات الصلاة التى اوجبها القرءآن بل يذهب الى المسجد فى ايام الاعياد والمواسم كبقية الناس واذا ذهب الى المسجد يقبل جميع الشكاوى التى تعرض عليه ويحققها وينصف المظلوم من الظالم وبالجملة فحكومة الدولة العثمانية اقل تصرفا من اكثر حكومات اوروبا بالاطلاق والتصرف فترى السلطان فيها مضيقا عليه باناس ذوى دراية لا يغفلون عن ملاحظته وترى شوكته محدودة بحيث لا يمكنه ان يتجاوز حدوده ولا ان يعدل عما يجب عليه مثل ما يفعل غيره من ملوك الافرنج المطلقين التصرف

ولنبين الآن كيفية تربية ارباب الدولة فنقول انهم يدخلون من صغرهم فى السراية ويربون فيها مثل اولاد السلطان بدون فرق فترى المؤدبين يشددون عليهم كاولاد السلطان بل واكثر لان السلطان ان كان يرفق بعض الاوقات بالمتوكلين بتربية اولاده لا يرفق بتربية من هم معدون لان يصيروا ذات يوم ولاة الدولة ومديرى مصالحها فهو يشدد فى ان يعودهم على الرفق والحلم والعدل والكرم ولا يرجى لهم رقى الا اذا تمكنوا من معرفة الاحاديث وتفسيرها وصار لهم اقتدار على تنزيل احكام القرءآن على كل مسئلة تحصل فى الجنايات او فى المصالح المدنية والعسكرية وعلى تفسير الآيات المشكلة من القرءآن هذا ولا يحصل لاحد منهم التقدم والنجاح الا اذا كان ملوكه

حسنا بحيث يقتدى به يعني انه يصلي اوقاته مع الخشوع وصدق النية من غير نفاق ولا سمعة ويلزمه ان يتخذ الطاعة قبلته وحب اخوانه امامه والفضائل كعبته وان يسعى مع الاجتهاد في تأدية ما يجب عليه انتهى

ولنرجع الى عبارة مؤلف كتابنا فنقول انه ذكر ان الدولة العثمانية لا يوجد فيها كما هنا محاكم تعرض عليها القوانين والشرائع قبل بثها ونشرها في المملكة

اقول ما يظهر مما تقدم ان هذا الزعم غير سديد لانا ذكرنا ان ديوان القسطنطينية محكمة يرد عليها كل ما يفعل في الدولة وذكرنا ان اربابه يعدلون ما فيه ضرر الرعية ويجرون ما عداه فاذا صدرت بعض اوامر من السلطان ورأى ارباب هذا الديوان انها مضرة او غير لائقة يردونها على السلطان ولا يخشون بأسه هذا اذا اريد اجراؤها وتنفيذها رغما عن انفهم ترى الرعية لاسيما طائفة العلماء في قلق وهرج وتظهر التكدر والغيظ فان لم يرجع عن عزمه عليه عزل او قتل وقد ذكرنا امثلة ذلك واما نفي المحاكم الشرعية عن بلادنا بالكلية فليس كذلك لان كل مدينة او قرية كبيرة توجد بها محكمة شرعية فيها قاض اعلم بالشريعة المحمدية ومتمكن منها اذ يشترط شرعا ان يكون اعلم اهل زمانه ويفوض اليه في الاجتهاد فيما لم ينص عليه الشارع وقل من كان للقضاة بديار الاسلام دخل مع احد الخصمين فيكونون من قريب من ارشادهم لانهم من صغرهم يتعلمون من القرآن والسنة ما يحثهم على اتباع الحق ويعلمون ما جاء من الاحاديث في شأن القضاة والعلماء الغير العاملين

ذكر في التاريخ انه حصل في ايام الصدر الاعظم كيوبرلي احمد ان رجلا من الاغنياء اصحاب العقارات اراد ان يشتري بيتا من جاره لاجل ان يوسع به بيته فطلبه من صاحبه فابى ان يعطيه له فظن انه يمكنه اخذه بطريق الغصب واحضر شهودا شهدوا بان صاحب البيت قد سامحه وباعه البيت واخذ جانبا من ثمنه فلا يمكنه الرجوع ثم ذهب بهم الى القاضي وكان من احبابه

طلب منه ان يجبر صاحب البيت على ان يعطيه حجة البيع وكان القاضي يعهد صلاح صاحب البيت فسأله هل باع بيته ام لا لان البيع انما هو عن تراض فحلف هذا الرجل بالقرآن المجيد انه لم يبع بيته لشاكيه وانه لم يأخذ منه شيا فالتبس قلب القاضي حينئذ باس ودعى المدعي وقال انه لم يقر ببيع وحلف على ذلك بالقرآن المجيد وانا اعهد فيه الصلاح فعند ذلك اراد المدعي ان يوقف القاضي على الحقيقة حيث انه من احبابه فاخبره بان الشهود قد اخذهم بالرشوة وانهم شهدوا الزور وان صاحب البيت لم يبعه بيته وانه لم يعطه شيأ من ثمنه وانما يريد ان يأخذ منه البيت بهذه الطريقة حيث لم يمكنه ان يأخذه منه بالرضا ثم طلب من القاضي بعد ذلك ان يخرجه من امره ووعده بان يعطيه خمسمائة قرش فاظهر القاضي انه يريد تيسير مقصده بهذا المبلغ فلما احضرت الدراهم في كيس اخذها القاضي ووضعها بجانبه واحضر حالا صاحب البيت ومن يدعي بانه اشتراه منه وسأل اولا المدعي ثم الشهود فشهدوا بان البيت قد بيع امامهم وحلفوا على ذلك فالتفت القاضي الى المدعى عليه وسأله فاجاب بان قول الشهود باطل وان قوله هو الحق وحلف ثانيا بين يدي القاضي فقال له القاضي هل معك شهود فقال لا فاخذ القاضي الكيس الذي كانت به الخمسمائة قرش ووضعه امامه وقال له هؤلاء خمسمائة يشهدون عليك وامر حالا بحجز المدعي والشهود واعلم الصدر الاعظم بذلك فاعرضه على ارباب الديوان فحكم عليهم بالقتل واعطاء اموالهم لصاحب البيت المدعى عليه وعلقت رؤسهم عبرة لغيرهم على باب البيت الذي ارادوا اخذه زورا من صاحبه ولو فرض ان في القضاة من هو ذو طوية خبيثة ونفس دنية لا تتأثر بوعظ ولا باحكام دينية تراه في خوف ورعب من تفتيش حاكم الاقليم او القطر الذي هو به لان الحكام والسلطان لا يغفلون عن مصالح الرعية وما فيه اصلاح حالها فان القاضي يعزل ويقتل اذا ثبت عليه اختلاس او حكم بغير حق

وقد حصل كذلك في ايام السلطان محمد الثاني ان بعض القضاة كتم الحق ونصر

المدعى على الفقير فلما علم السلطان بذلك احضر القاضي وامر بتحقيق الدعوى فثبت الزور عند القاضي فامر السلطان بقتله وسلخه ووضع جلده على كرسي المحكمة ثم ولى ابن هذا القاضي محله وامره ان يجلس على جلد ابيه ويحكم بين الناس وهذا يدل على عدل السلاطين وميلهم الى الحق حيث ان تشديدهم بعض الاحيان فيه زاجر فيرجع الى الصدق وكثيرا ما يوجد في تاريخ الدولة العثمانية من مثل هذه الامور الصعبة التي هي عبرة عظيمة لولاة الامور تدعوهم الى اتباع سبيل الرشد وتزجرهم عن ان يعدلوا عن شريعة سيد العباد

ويعلم مما تقدم ان الدولة العثمانية بديعة الترتيب والنظام راسخة الشرائع والاحكام لا يعتري قوانينها تغيير ولا تبديل بل دوامها في الدول من قبيل وعلى ذلك يمكن حصر الاسباب التي دعت مؤرخي الافرنج الى ذمها في شيئين عدم مراعاة اختلاف الدين من البعض حيث انه في مبدأ الامر كان ارباب الحل والعقد من المسيحيين لتعصبهم لملتهم يرون ما عداهم قبيحا ذميما منسوبين الى الاغراض وعدم النطق بالصواب واما الجهل من البعض الآخر باحوال الدولة العثمانية وقوانينها واحكامها وشرائعها وكل من هذين الامرين مقبول ويقال به من يوثق بكلامه من المؤلفين بل قال به ايضا من هو عدل خال عن الاغراض من مؤرخي الافرنج اما السبب الاول فقد ذكره المؤلف سيلوستري اليوناني وكان يعرف حق المعرفة ترتيب الدولة العثمانية ونظاماتها وقوانينها واحكامها فقال

قد اختلف المؤلفون النصارى في شان الدولة العثمانية فوصفها بعضهم بوصف مهول ينفر من نظر اليه ووصفها آخرون منهم بوصف جيد لطيف يرغب فيه من اطلع عليه بحيث انه اذا نظر انسان في هذين الوصفين يظن ان قول هؤلاء المؤرخين ليس في شان ملة واحدة بل هو في شأن ملتين مختلفتين اما المذهب الاول فهو معتمد القول في جميع الممالك المسيحية من بلاد اوروبا ومنشأوه اختلاف المسلمين والنصارى في الدين والاخلاق واما المذهب

الثاني وهو نائي عن عين الحقيقة

ومن المعلوم ان المؤلفين اصحاب المذاهب ليسوا كلهم مصيبين حيث انهم يتبعون آراء العامة ويكتبون عن لسانها ويعدون اوهامها الكاسدة دليلا يسترشدون به وهذا بل لا يؤدي الا الى سبيل الغي والضلال لا سيما اذا كان من يتبعه من المؤلفين ليس له معرفة خصوصية بالملة التي يريد ان يتكلم عليها وكان لم يبحث قبل ذلك كل البحث عن معرفة عوايدها وشرايعها وديانتها

وجميع المؤلفين من النصارى من غير ان تستثنى منهم احدا قد تبعوا المذهب الاول لاسباب اكيدة منها ان من يقول الحقيقة في شأن الدولة العثمانية يكون عند النصارى عرضة للوم وللاذاء واستهزاء الناس به ومنها انهم انما ذموها في تواريخهم لاجل انه اذا قرأها ارباب التعصب من النصارى لا يرون فيها ما يدل على ان المؤلف يميل الى اهل دين اجنبي فيكون ذلك سببا في تعويق كتابه وعدم نفاقه وقبوله لا سيما وهم يعلمون انه قد حصل عدة مرات ان قائل الحقيقة قد عوقب عقاب اهل الكبائر كما وقع ذلك مع من شذ عن دين الكنيسة وتجاسر على ان يكون من انصار مذهب رفضته ولم تقره بل حصل ذلك ايضا مع من هم جنتهم بعض اشياء صحيحة من العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية كما عوقب الشهير غاليله بحبسه في الديماس لتكفير ذنبه الذي جناه بقدح فكرته وتفضيل قريحته اذ ايد مذهب قوبرنيق دون مذهب بطليموس وقال ان الشمس هي القارة وان الارض دائرة حولها وآخر سبب دعى المؤلفين النصارى الى ذم الدولة العثمانية هو انهم يعلمون ان الاتراك لا يعتنون بقراءة تواريخ بلادهم التي يؤلفها النصارى فهم لا يعتنون من باب اولى بمناقضتها ورد ما ذهبوا اليه فيها * ولكن كان حق هؤلاء المؤرخين النصارى ان يصدقوا فيما ذهبوا اليه وان ينظروا بعين الاحتقار الى كل من اراد ان يتحزب عليهم في الممالك المتمدنة من بلاد اوروبا

واقول هنا اني لم اصنف كتابي هذا لاجل اصحاب المذاهب من المؤلفين

ولست

ولست صاحب مذهب وان ماقلته فى تاليفى ليس الاعن يقين * وها انا ابرزه بقلب قوى لاغرية ولامين * فلا اخشى مما اقوله فى شأن ملة الاسلام قول مناقض * ولاراد ولا معارض * وبالجملة يكفينى ان اقول ان كتابى لم يكن مشحونا بالترهات والخزعبلات * والاكاذيب والخرافات * كتآليف من سبقونى فى هذا الشان * وكتبوا تاريخ بنى عثمان * لانى اقمت خمسة وثلاثين سنة فى مدينة القسطنطينية ومدينة ادرنة وازمير وحلب وجميع البلاد اليونانية التى فى حكم الدولة العثمانية وبذلك امكن لى ان اعرف حكومة الاتراك بجزئياتها وكلياتها معرفة حقيقية فاقول انها ترجح عندى على سائر الحكومات المطلقة ويوافقنى على هذا القول اغلب اليونانيين ابناء جنسى فهم بقطع النظر عن دين الاسلام يوافقوننى اذا قلت ما اسعد هؤلاء الناس بالنظر لقوانينهم المدنية واحكامهم السياسية

وتعلمت فى صغرى وانا بمدينة القسطنطينية اللغة العربية والتركية فاعاننى ذلك كثيرا على مطالعة الشريعة المحمدية ومعرفتها حق المعرفة لما ان اصول هذه الشريعة محصورة كلها فى كتاب واحد وهو القرآن وهو كتاب مقدس يستمدون منه عاداتهم ومعاملاتهم وفيه جميع الاحكام المحمدية التى لا يستطيع احد من المسلمين ان ينبذها فى شئ انتهى

قال المؤلف عرامى الذى نقلت عنه فيما سبق رأى المؤلف سيلوستري رأى سديد * وعلى غاية من التصديد والتأييد * وها انا اذهب اليه * واقسم معه ما يرد عليه * فاقول كما قال انى لم اصنف كتابى لاجل اصحاب المذاهب الذين يحكمون على الشئ قبل تصوره فهم يأخذون بظواهر الاحوال * وظهور الحق مع ذلك محال * وانما جعلته لكل انسان خال عن الاعراض والظنون * والبدع والميون لا يعقد رأيه على شئ الا بعد البحث والتدقيق والفحص والتحقيق انتهى

واما السبب الثانى وهو احتمال جهل المؤلفين الذين ذموا الدولة العثمانية فقد نص عليه المؤلف دوسون ويكفينى فى ذلك ان اذكر هنا نص عبارته وهو

مع ان هذا العصر منور بمصابيح العلوم لا يعرف فى شان الدولة العثمانية سوى مقدار اراضيها ووصفها الجغرافى واما فى غير ذلك فلم يقف احد على حقيقة بل اقتصر الناس على معرفة ظواهرها ولم يحل بل ولا يشاهد خاطر احد من ارباب السياسة الوسائط التى بها انتظام حركات دولاب سياسة هذه المملكة الكبيرة وانما اعتنى ارباب السياسة بمعرفة المسببات دون الاسباب حتى ان اقوال المؤلفين فى شأن الدولة العثمانية كلها باطلة اذ هى مبنية على مخروطات ظاهرية بعيدة عن ما كيدة فهى فى الاصل اكاذيب وترهات ثم اخذت ونظمت فى سلك التواريخ الصحيحة وبذلك ضلت الاوروباويون باتباعهما عن سبيل الرشاد فى معرفة عوائد الاتراك واخلاقهم وقوانينهم وشريعتهم ودينهم

وفى الحقيقة يصعب رؤية احوال الملة التركية من خلف الحجب الكثيفة الحاجبة لها عن غيرها بسبب قلة مخالطتها للملل الاجنبية وذلك انها لاختلاف دينها لا ترضى ان تعاشر غيرها فالذين حاروا حصين بينها وبين الملل الافرنجية لاسيما وهناك اسباب اخرى طبيعية وسياسية تقصد عند الاتراك تلك الاوهام الكاذبة الحائلة بينهم وبين الافرنج الى ان قال

ان من اطلع على شرائع الدولة العثمانية يرى فى احكام الاتراك واصولهم ما هو بديع * ويرى فى معظم ديانتهم ما هو بعيد المنال ورفيع * وفى عباداتهم ما هو جليل محكم * وفى شرائعهم ما هو مبنى على الحكم * وفى عوائدهم ما هو سهل يحب * وفى اخلاقهم ما هو مألوف عذب * ومن قرأ فى تواريخ تلك الدولة التى اتعب المؤرخون لا تزال يرى فيها اناسا ذوى قريحة عزيزة * قد تولوا السلطنة وظهر لهم رونق عظيم وبهجة كبيرة * ويرى ان الدولة العثمانية قد ظهر من اهاليها على اختلافهم اناس نابغون ذوو ذكاء وفطنة ويرى الوسائط العجيبة التى بها انتظام ادارتها والوسائل الحسنة التى بها ترتيب حكومتها

انتهى

ولكن صعب على نقض قول مؤلف كتاب لانه مشهور بين المؤرخين بالصدق

والاصابه * فهو رونق تبحر تلك العصابة * ما بارز في ميدان التاريخ
وغيره الاوسق * ومارمي سهمه الا فتك وفتق * خال عن الاعراض والدع
لا يميل الى قول الترهات جمع * وما ادري ما الداعي له الى مخالفة كثير من
المؤرخين * والعلماء الماهرين * في شأن الدولة العثمانية * والدولة المحمدية *
وطالما قدمت رجلا واخرت اخرى * في نقض رأي تلك الطامة الكبرى * حتى
دعتني الحقيقة فلم يمكني المخالفة * ومن نطق بالحق فما قال سفهه *
وقد استنبطت اداق من تأليف الامير نجم دون كتب الاسلام لئلا
ينسبني احد من اعداء الدين الى غرض بضعف قولي وتلك
حجة اقوى فقلتها بهذه المثابة وبينت من ذكرها من
المؤلفين لكي يعلم ان من ذم الدولة العثمانية من
النصارى لا يخلو عن هذين الامرين الاخيرين
ونسأل الله ان يجعلنا من اهل
السعادة والسلامة
في الدارين
تم

(خاتمة)

في شرح الكلمات الغريبة التي توجد في كتابنا هذا مرتبة على حروف المعجم مضبوطة حسب الامكان ومفسرة على الوجه الاتم سواء كانت اسماء بلدان او شخص من او اشياء ليسهل الوقوف عليها على قارئ الكتاب وتتيسر مراجعتها لمن ارادها من الطلاب

حرف الالف

ابروجه

بكسر الهمزة وسكون الموحدة اسم لمدينة عظيمة من بلاد الفلمنك موضوعة في سهل لطيف على خليج طريف ممتد من مدينة اوستندة الى مدينة غندة وهي بعيدة عن البحر بثلاثة فراسخ وعن شرقي سنتندة باربعة وعن شمال غندة الشرقي بثمانية بينها وبين مدينة باريس تسعة وسبعون فرسخا وهي في الدرجة الحادية والخمسين من العرض الشمالي وفي الثانية عشر من الطول الشرقي وعلى ثلاث وخمسين من الطول الغربي وتجارتها عظيمة وبها فبريقات قطن والصوف والشيت

ابريطانيا الكبرى

بكسرتين بينهما موحدة ساكنة يطلق الآن على مجموع انكلترة وايقوسيا وارلندة والاراضي الواسعة التي اخذها الانكليز من غير ساوية وهي الآن اوسع ممالك الدنيا بسبب حسن سياستها وتدبيرها وحدها من جهة الشمال البحر المحيط الاطلانطيقي ومن جهة الشرق بحر المانيا ومن جهة الجنوب بحر المانش ومن جهة الغرب خليج سنجورج او بحر ارلندة

اخائية

بفتح الهمزة والخاء المعجمة وكسر الهمزة الثانية بعدها مثناة تحتية مشددة

سمة لعصبة الاخائيين نسبة الى اخائى وهو فى الزمن السابق اسم للجزء الشمالى من مملكة المورة الذى كان على شرقيه مملكة سيسيوفى فلما تداخل الرومانيون فى مصالح اليونان وكانت معاهدة الاخائيين اعظم قوة اليونان اطلق الرومانيون هذا الاسم اى اخائى على جميع المملكة التى مبدؤها اقليم تساليه ومنتهاها الاقسام الجنوبية

اراغون

بفتح الهمزة اسم لاقليم عظيم من اقاليم اسبانيا كان سابقا مملكة مستقلة لها قوانين مخصوصة ثم صار من داخل مملكة اسبانيا وتخته مدينة سراغوسه واكبر انهره نهر ابره ويكثر به معادن الملح وفيه معادن الحديد والذهب وحده من جهة الشمال جبال برنات الفاصلة بينه و بين فرنسا ومن جهة الغرب نهر نوار ومن جهة الجنوب مملكة ولنسه ومن جهة الشرق جزء من مملكة والنسه وقتالونيا

ارتواس * اوارتوازه

بفتح فسكون فضم اسم لاقليم من اقاليم فرنسا وهو الآن جزء من اقليم باديكالس كان محدودا سابقا من جهة الشمال باقليم الفلانك الفرنساوى ومن جهة الشرق باقليم الهينوت الذى يقال له الهينواط و باقليم كمبريزيس ومن جهتى الجنوب والغرب باقليم بيكارديا وكرسيه مدينة اراس

ارخبيله

بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة وكسر الباء الموحدة بعدها مثناة تحتية ساكنة فلام مفتوحة آخرها هاء معناه مجمع جزائر ويطلق بالغلبة على بحر جزائر الروم الموجود بين اوروبا وآسيا واشهر هذه الجزائر جزيرة جريد وقبرص ورودس ويقال ايضا ارشيبله

ارستوقراطى

بفتح الهمزة وكسر الراء وسكون السين المهملة فمثناة فوقية هو فى الاصل اسم للجيد القوى ثم نقل الى حكومة الاشراف والاعيان

ارشيدوق

بهمزة مفتوحة وراء ساكنة وشين معجمة مكسورة لقب لامراء عائلة اوستريا

اسبانيا * اواسبانيا

بكسر الهمزة وسكون السين المهملة فباء موحدة بعدها الف فنون فمثناة تحتية فالف هى ما كان يسمى سابقا بجزيرة الاندلس وهى محدودة من جهة الشمال بجبال البرنات وجون غسكونيا ومن جهة الشرق والجنوب الشرقى ببوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين افريقة ومن جهة الجنوب الغربى بالمحيط الاطلانطيقى ومن جهة الغرب ببلاد البرتوغال وجبالها مملوءة بالغابات ومعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزنك وغير ذلك وبها دبغخانات الجلد والصابون والصباغات ومعامل السكر والصابون والزجاج ومع ذلك تجارتها وصنايعها ضعيفة هينة

اسبرطه ويقال ميزتره اوميستره

بكسر الهمزة وسكون السين المهملة فباء موحدة وراء ساكنة وطاء مهملة مفتوحة آخرها اسم لمدينة من مورة على البعد من اثار اسبرطة القديمة بنصف فرسخ وبينها وبين مدينة تريبوليزة تسعة فراسخ وبشرف عليها من جهة الغرب جبل تيجيت وفى شمالها جبل ميسترة الذى عليه قلعتها وهى مدينة حسنة المنظر

استاش * اواستاس

بهمزة مكسورة وسين مهملة ساكنة فمثناة فوقية فالف آخره شين معجمة اومهملة اسم لشاعر شهير لاطينى كان فى عصر الامبراطور دوميسيان

الذى اغدق عليه بالخيرات ومات هذا الشاعر فى نابلى بعد الميلاد بنحو مائة سنة وله قصائد مشهورة احسنها القصيدة المسماة بتيوس وله قصيدة تسمى تيبايد ترجمها الى الفرنساوية كوميليو لترجمة حسنة

استريا * او استرسيا

بهمزة مضمومة فسين مهملة ساكنة فتاة فوقية مكسورة بعدها راء ساكنة فمثناة تحتية آخره الف اسم لايالة من ايالات المانيا تنسب لامبراطور النمسا وحدها من جهة الشمال اقليم موراويا واقليم بوهيميه ومن جهة الشرق بلاد المجار ومن جهة الجنوب دوقية ايستريا وقارنثى ومن جهة الغرب ايالة تيرول ومملكة باويره وبها من المعادن معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد وغير ذلك ويوجد فيها المياه المعدنية

استوريس * او استرويس

بكسر الهمزة وسكون السين المهملة بعدها مثناة فوقية مضمومة فواو ساكنة فراء مكسورة اسم لرجل من هولندة شهير بسياحاته فى بلاد الموسقو والتتار والعجم والهند وغيرها وكان اول سياحاته (سنة ١٦٤٧) من جزيرة مدغشقر الى جزيرة نيابونيا وساح (سنة ١٦٥٥) من ايطاليا الى ارخبيلة وآخر سياحته كان (سنة ١٦٦٨) من بلاد الموسقو الى بلاد العجم وتم بعد الى وطنه الاقى (سنة ١٦٧٣)

اسقفيات

بهمزة مضمومة وسين مهملة ساكنة وقاف مضمومة ففاء مكسورة فمثناة تحتية مشددة جمع اسقفية وهى اسم للاراضى التى يحكمها الاسقف وتطلق على وظيفته القسيسية وعلى محل سكناه

اسكندر السادس

هو اسم لرجل من بابات رومة ولد (سنة ١٤٣١) فى مدينة واقعة باسبانيا

وتقلد

وتقلد منصب البابوية (سنة ١٤٩٢) ومات بعد مدة (سنة ١٥٠٣) ودال على ما قيل انه اراد هو واخوه بورجيا ان يرثا بعض الكرادلة الاغنياء لاحتياجهما الى الاموال اداله منصب ولية ووضعا في بعض قرازات ليسقيا منها من ارادا موته من الكرادلة فعما وشرب بالسم الذي كانا اعداه لغيرهما

آسيا

بهمزة ممدودة وسين مهملة مكسورة فياء تحتية فالف اسم لاحد اقسام الدنيا الخمسة وهي محدودة من جهة الشمال بالبحر المنجمد ومن جهة الجنوب ببحر الهند ومن جهة الشرق بالبحر المحيط الاكبر الفاصل بينها وبين امريقه ومن جهة الغرب بجبال اورال الفاصلة بينها وبين اوروبا وبالبحر الاسود وبحر مرمرة والبحر الابيض وبرزخ اسويس والبحر الاحمر ويكثر بها المحصولات المعدنية والحرير والقطن وغير ذلك

اغرغوار السابع

بكسر الهمزة وسكون الغين المعجمة وراء مكسورة فغين معجمة ساكنة فواو مفتوحة بعدها الف فراء اسم رجل شهير من بابات رومة كان يقال له اولا هيلديبرند وكان ابوه نجارا في مدينة يقال لها اسوانه من بلاد طوسكان وهي مخربة الآن وتربى هذا البابا في مدينة رومة ثم ذهب في دير كولينة ثم عاد الى رومة مع اسقف مدينة طوله المسمى باسم برونون وهو الذي ولاه الامبراطور هنري الرابع بابا على رومة ثم صارت له الكلمة في الانتخاب فلما مات هذا البابا خلفه اغرغوار المذكور وكان فيه غيرة شديدة حيث عزم على مقاصد جسيمة فيما يخص الديانة وترتب على شدة طمعه تعكيرات وتقلبات في ايطاليا فلما رآى ان الرومانيين قد ضجروا منه بكونه هو السبب فيما حل بهم من المصائب والفاقة سئم من ذلك وذهب الى مدينة سالرنة بمملكة نابلي ومكث هناك الى أن مات (سنة ١٠٨٥)

اغرغوار التورساني ✻ او اغرغوار دوتورس

اسم رجل تولى اسقفية مدينة تورس (سنة ٥٧٣) وكان مولده (سنة ٥٤٤) وهو من عائلة مشهورة من اقليم اوبرنه حضر عدة مجامع قسيسية واظهر الحزم والثبات في عدة فرص والف تاريخا افرنجيا وبشر بابتداء دخول دين النصرانية في بلاد الغالية الى (سنة ٥٩٥) وهو وان كان ابا التواريخ الفرنساوية الآن المؤرخين بعده لم يعثروا على منواله ذهب في آخر عمره الى مدينة رومة ومات بها (سنة ٥٩٥) فكان عمره احدى وخمسين سنة

اغزينفون * واغزنوفون * اوزينفون

بهمزة مكسورة وغين معجمة ساكنة وزاي مكسورة بعدها نون مكسورة او مضمومة هو اسم لعدة اشخاص لكن المقصود في كتابنا هذا اغزينفون المؤرخ الفيلسوف وهو ابن اغريلوس ولد بمدينة اثينا قبل الميلاد باربعمائة وخمسين سنة تخرج على سقراط في الفلسفة والسياسة ثم اشتغل بالعسكرية وذهب لاعانة الشاب قيروس في غزوته مع اخيه ارتكزرسيس وكان اغزينفون رئيسا على عشرة آلاف فهزموا عساكر ارتكزرسيس مع انهم كانوا جيشا جرارا كثير العدد لكن مات في هذه الواقعة قيروس المذكور ثم عاد اغزينفون مع عساكره الى بوغاز كابسولي وارخ تلك الواقعة ومدح قيروس واثنى عليه بما حواه من الفضائل ولم يذمه بشيء سوى طمعه في تعديه على اخيه في ذلك القتال ثم لما رجع الى وطنه تعلق بملك لقدمونيه المسمى اجيزلاس وكان اذذاك منتصرا على آسيا وتوجه معه الى معاونة اهل اسبرطة وامتاز اغزينفون في هذه الواقعة ايضا بالحزم والشجاعة وبعد انقضاء الحرب ذهب الى مدينة قورنثه واشتغل فيها بالامور العقلية النفيسة الى ان مات قبل الميلاد بنحو ثلثمائة وستين سنة

اغسطوس

بضمتين فسكون اسم رجل اعجب واغرب بغزارة عقله وسعة علمه وفصاحة عبارته وكان امره عجيبا في استمالة الناس اليه ولد برومة قبل الميلاد بثلاث

وستين سنة وهو بالغ من العمر ثماني عشرة سنة وكان في مدينة ابولونيا ببلاد اليونان يتعلم العلوم والآداب اخبر بموت خاله القيصر جاليوس فذهب حالا الى ايطاليا وطلب أن يخلفه لانه كان بموجب مشورة الميت تعيينه على ذلك ثم تولى ايمبراطورا على مملكة الرومانيين بعد حروب ومنازعات طويلة وسمته المشورة باسم اغسطوس وكان يدعى اولا اوكتاو ولقبته ايضا بابي الوطن ثم بعد مدة اراد ان يعزل عن منصبه فترجته المشورة أن يبقى عليه وسافر الى بلاد الغالية وسيسليا واليونان وآسيا وكان محبوبا عند الجميع وتولى منصب البابية قبل الميلاد بثمان سنين فحرق الكتب المدونة في مذهب القديسة سبيلة وتمسك بمذهب نيبر * مات بمدينة نولو وقد بلغ من العمر ستا وسبعين سنة

افرنك * ويقال فرنك وفرنقه

بكسر الهمزة وسكون الفاء وفتح الراء بعدها نون ساكنة فكاف اسم جنس على طوائف متبربرين جاؤا في سالف الازمان من بلاد جرمانيا الى فرانسه وكانت تسمى غاله وهجموا عليها في اوائل القرن الخامس عشر وطردوا الرومانيين منها وتمكنوا بها الى الآن ومن ذلك الوقت سموا فرنساوية وسميت بلادهم بلاد فرانسا ومعنى افرنك احرار ساموت ويطلق ايضا على نوع من المعاملة الفرنساوية تساوي قيمته الآن اربعة قروش

افردريق الثاني

بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فدال مهملة ساكنة فراء فمثناة تحتية ساكنة آخره قاف هو حفيد افردريق الاول وابن الايمبراطور هنري الخامس ولد (سنة ١١٩٤) وولي ملكا على الرومانيين (سنة ١١٩٦) ثم اغضب البابا انوسان الثالث على الايمبراطور اوتون الرابع وصار طريد الكنيسة انتخب مطران مينسه افردريق هذا ايمبراطورا عوضا عن اوتون المذكور وكان ذلك في (١٣) كانون الاول (سنة ١٢١٢)

لكن لم يحظ بهذا المنصب الامبراطورى مع الامن والراحة الا بعد موت اوتون (سنة ١٢١٨) ووقع بينه وبين البابا الذى كان يحكم الماما مشاجرة بسبب عصيانه عليه فذهب اليه وجمع مشورة الدينية فى مدينة ميلانو للمذاكرة فى هذا الشأن فحكمت على الاب العاصى بالحرمان الدائم (سنة ١٢٣٥) وبعد ذلك بمدة يسيرة انتخب ولده الثانى المسمى كونراد اربع ملكا على الرومانيين ثم غضب على الفردريك المذكور البابا اغريغوريوس التاسع (سنة ١٢٥٦) لكونه تغلب على عدة اقاليم من اقاليم ايطاليا وبعد ذلك بمدة عزله البابا انوسان على موجب ما حكمت به المشورة الدينية التى اجتمعت فى مدينة ليون (سنة ١٢٤٥) وكانت ايامه مشحونة بالحروب مع الرعايا العاصين فسئم من ذلك وذهب الى مدينة فيورنزوله باقليم بوليه ومات بها فى (١٣) كانون الاول (سنة ١٢٥٠)

افريقة * او افريقية

هى احد اقسام الدنيا الاربعة وهى جزيرة محدودة من جهة الشمال بالبحر الابيض الفاصل بينها وبين اوربا ومن جهتى الجنوب والغرب بالبحر الاطلنطيقى ومن جهة الجنوب الشرقى ببحر الهند ومن جهة الشرق ببرزخ السويس والبحر الاحمر الفاصل بينهما وبين آسيا واغلبها فى المنطقة المحترقة ومطرها مختلف فتارة ترى فيها صحارى متسعة لا ابس بها وجبالا شاهقة ينزل منها سيول يكون منها انهر كبيرة كجبال القمر التى ينزل منها النيل وتارة ترى قرى تكتنفها الاشجار المثمرة ومدنا حسنة الوضع والمنظر لها مينات آمنة لطيفة يأتى لها الناس من سائر الاقطار وطورا تجد اباطح تعجب الناظر وتروق الخاطر وسهولا خصبة واودية طريفة كثيرة الخلجان التى تروى اراضيها وتولدها الطراوة والخصوبة وبها معادن الذهب والفضة والملح وتكثر بها الحيوانات الاهلية والوحشية وبها طيور طريفة حسنة الزغب والصوت يندر وجودها فى محل آخر وتجارتها زاهرة

لان اهل امريقة مترلعون بها

افردريق الثالث

كان مصر نافي بريه ثم تولى بعد موت ابيه كرستيرن الرابع ملكا على دانيرقة سنة (١٦٤٨) ومات سنة (١٦٧٠) بعد ان جعل تاج دانيرقة وراثيا وكان قبله انتخابيا

افلاق او ولاق

اقليم من اقاليم بلاد العثمانية في اوروبا واهله نحو مليون وهم ما بين اتراك وارمن ويهود وبلغار وسرب واروام ارضه كثيرة الخصب يخرج منها القمح والذرة بانواعها والعنب وغيره من الفواكه والخضراوات والدخان وبها معادن الذهب وملح البارود والكبريت وحاكمها يتقلد المنصب من ديوان الدولة العلية تحت حماية الموسقو ويدفع للدولة العلية كل سنة نحو مليونين من الفرنكات ودين الافلاق هو دين الاروام ومثلهم في ذلك الموسقو وهذه الولاية كولاية بغداد سبب المنازعة بين العثمانية والموسقوية وقاعدتها مدينة بكراش بضم الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الراء بعدها الف فشين معجمة وقل ان يوجد مثل هذا الاقليم في خصوبة ارضه وحسن منظره وحده من جهة الشمال سلسلة جبال تفصله عن بغدان ومن جهة الجنوب نهر دانوب الذي يرويه ويفصله عن بلاد بلغار ومن جهة الغرب اقليم سروى المسمى بالتركية سرولايتي واقليم ترنسلوانى

افلندرة ويقال لها الفلمنك

بهمزة مكسورة ففاء ساكنة ولام مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة اسم لاقليم من اقاليم مملكة البلاد الواطية محدود من جهتي الشمال والغرب بحر الشمال ونهر بلسة ومن جهة الجنوب باقليم افلندرة الشمالي ومن جهة الشرق باقليم افلندرة الشرقي واهله ٥٢٠٠٠٠ واغلب اراضيه خصبة جدا ومن ثم كانت زراعته زاهية زاهرة وكذلك ما يصنع في ورشه ويخرج منه القمح والريت والدخان والسمن وغير ذلك لاجل التجارة مع البلاد

الاجنبية وتطلق هذه الكلمة ايضا على اقليم من اقاليم شمال فرانسا

اقلودس ويقال قلودوس

بكسر الهمزة وسكون القاف والدال المهملة اسم شاعر عظيم ولد بمدينة مرسيليا ومات سنة (٤٤٥) وله من القصائد والاشعار ما يخلد بذكره

اكزرسس ويقال اكزرسيس

بهمزة وزاي مكسورتين بينهما كاف ساكنة والراء ساكنة والسين المهملة بعدها مفتوحة اسم ملك من ملوك العجم وهو من اولاد دارا خلف اباه في الملك قبل الميلاد باربعمائة وخمس وثمانين سنة وحارب مصر واقتدت ابيه وترك فيها اخاه اكين وتوجه الى بلاد اليونان بجيش بلغ خمسمائة مقاتل والف من السفن الحربية قال هيرودوطس ان هذا الملك ثقب جبل اتوس ليمر فيه بعض السفن لكن اثبت متاخرو السياحين ان هذا الجبل لم يثقب قط وقتل هذا الملك قبل الميلاد باربعمائة وخمس وستين سنة وهو نائم قتله رجل من ضباطه يسمى ارتابان

اكلرمونت ويقال كلرمون

بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر اللام بعدها راء ساكنة اسم مدينة من مدن فرانسا ذات تجارة عظيمة في الغلال والاقمشة الطريفة وبها اوراش كثيرة متنوعة وسكانها ٤٠٠٠٠ وهي على شرقي مدينة بويس بالبعد عنها بستة فراسخ ونصف وعلى البعد من شمال مدينة باريس بخمسة عشر فرسخا ونصف

الان ويقال الالان

بفتح الهمزة الممدودة اسم لامة قديمة من الامم المتبربرة كانت تسكن اولا على بر الهيساقي ثم اجلاها عنه الهونيون فتشتتت في جبال كوكازة او قوقازة وذهب بعضها الى نهر تانايس وشن الغارة على بلاد اوروبا فانهزم عن البطال وسيبان فكثروا في ابريطانيا حتى استرسى سجرمان دوكر بملكهم وسكن عنده ثم اجتمعوا بالوندالين قبل الميلاد باربعمائة وخمس سنين ونهبوا البلاد

وخربوها

وجريوهما من نهر دانوب الى نهر الرين

الب

بفتح الهمزة وسكون اللام جبال شاهقة ببلاد اوروبا فاصلة بين ايطاليا وفرانسا والسويسة والمانيا وهي ممتدة من خليج جنوة الى البحر الادرياتيكي فيكون امتداده ثلثمائة واربعين فرسخا ورؤسها مستورة بالثلج والجليد دائما وبجانبها منابع منها منبع نهر الرون ومنبع نهر الرين وانهار اخرى كبيرة

الچية

بهمزة مكسورة ولام ساكنة بعدها جيم اعجمية تنطق بين الجيم والشين جمع الچي وهو الرسول المبعوث من طرف دولة الى اخرى بصدد مصلحة جسيمة كعقد صلح او حرب او نحو ذلك

الفريدوس او الفريد الاكبر

بفتح الهمزة وسكون اللام وكسر الفاء وراء بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة اسم ملك ولد سنة (٨٤٩) واستولى على مملكة انكلترة سنة (٨٧١) وهزم الدنيمرقيين وخدم مدينة لندره وسعى في مملكته العلوم والفنون والآداب والحرف والصنائع ومدارس العلوم بنفسه والف عدة كتب وراجت في ايامه التجارة والملاحة وعدمت القوى العسكرية العربية وصارت في زمنه انكلترة مأوى للعدل والراحة مات سنة (٩٠٠) من الميلاد وله عدة مؤلفات وقوانين عظيمة اسسها على الحكمة والعلم

الكنتره

بهمزة وكاف مفتوحتين بينهما لام ساكنة ثم نون ساكنة فمثناة فوقية مفتوحة مدينة صغيرة من مدن اسبانيا على نهر تاجه يكتنفها سور مشحونة بالبروج والحصون اهاليها ٣٠٠٠ وهي على البعد من مدينة مدريد بثلاثة وخمسين فرسخا وفي البرتوغال مدينة اخرى تسمى بهذا الاسم

المانيا

بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم وكسر النون وفتح الياء التحتية مملكة
عظيمة من ممالك اوروبا محدودة من جهة الشمال ببلاد دانيمرقة وبحر بلطيق
ومن جهة الشرق ببلاد بولونيا ومن جهة الجنوب ببلاد المجار وبلاد ايطاليا
ومن جهة الغرب ببلاد السويسة وبلاد فرانسا ومملكة البلاد الواطية يبلغ
سطحها من الفراسخ المربعة اثنين وعشرين الفا ومائتين واثنين وعدد اهاليها ثلاثون
مليونا وهي منقسمة الى عدة ممالك صغيرة كل مملكة منها لها حكومة بذاتها
مستقل عن الآخر لكنهم متحدون مع بعضهم ولذلك تسمى المانيا بالجمعية
الجرمانية ثم ان الآداب وسائر العلوم حصل لها تقدم عظيم عند اهل المانيا
واهم ابتدا صولي في علم تطبيب البشرى وعلم الفنون وسائر العلوم الرياضية
وغيرها وعساكرها ٣٠٢٥٣٧ منها لمملكة النمسا ٩٤٨٢٢ ولمملكة
البروسيا ٧٩٢٣٤ ولمملكة بويرة ٣٥٦٠٠ ولمملكة ورتمبرغ ٢٣٩٥٥٤
ولكل مملكة من الممالك الباقية عساكر على حسب كثرة اهلها وتقدم فمنها
ماله عشرة آلاف ومنها ماله اثنا عشر ومنها ماله ثلاثة عشر ومنها ماله
اقل من ذلك

امريقة ويقال امريكه او امريقية

بفتح الهمزة وسكون الميم هي احد اقسام الدنيا الاربعة والخامسة يفصلها
من اوروبا وافريقة البحر المحيط الاطلنطيقي ويفصلها من آسيا المحيط المعتدل
الذي سماه بعضهم بحر الصلح اي البحر الساكن لانه راكد غالبا ويكثر بها انواع
النباتات والحيوانات وللانكليز فيها بعض املاك وكذلك اهل اسبانيا
والبرتوغال وقد مكثت مدة طويلة مجهولة حتى كشفها كرستوف كلمب في ذهابه
الى البلاد الهندية (١٤٩٢) من الميلاد الموافق ذلك لسنة ٨٩٧ من الهجرة
واذا سميت بالدنيا الجديدة وينقل منها الى البلاد الاجنبية من مواد التجارة
الخشب والقطن والقطران والنيل والاملال والذهب والفضة ودود القرمز
وسيلة وخشب الصبغ والسكر والبن وغير ذلك وهي منقسمة الى قسمين
امريقة الشمالية وامريقة الجنوبية يفصل بينهما برزخ بنمة

اناطولى

هى شبه جزيرة من اسيا تحت حكم الدولة العثمانية وتسمى ايضا آسيا الصغرى او اسفل وهى محدودة من جهة الشمال بالبحر الاسود ومن جهة الشرق بنهر دجلة ومن جهة الغرب ببحر مرمرة وبوغاز الدردانيل وبوغاز اسلامبول

انجو

بفتح الهمزة وسكون النون اقليم قديم من اقاليم فرانسا وكانت قاعدته مدينة انجرس

انوسان الثامن

بكسر الهمزة وتشديد النون المضمومة اسم لبابة من بابات رومة ولد سنة (١٤٣٢) وتولى كردينالا ثم صار اسقفا وبعد ذلك تولى بابة سنة (١٤٨٤) ومات سنة (١٤٩٢) وله عدة شذرات تتعلق بدم عيسى عليه السلام وبالقدرة الالهية وبحمل مريم عليها السلام من عيران يمسها بشر

اوتون الاكبر

بضم الهمزة والمثناة ويقال له ايضا اوتون الاول وهو من ايمبراطرة المانيا ولد سنة (٩١٢) ولبس تاج الايمبراطورية سنة (٩٣٦) وكان يهابه ملوك البلاد الاجنبية ونشر دين النصرانية فى بلاد بوهاميا وغلب على الداينمرقيين وكان ناصرا يوافقه فرانسا والمانيا وحصر شوكة البابات ومات سنة (٩٧٣)

اوميروس

هو اقدم شعراء اليونان واشهرهم كان ذا قريحة عجيبة وذهن غريب وكان موجودا قبل الميلاد بتسعمائة سنة والاصح انه ولد بمدينة ازميلا بجزيرة ساقز وساح فى جميع بلاد اليونان قبل ذهب من مورة الى سكولوفون وفقد فيها بصره ومن ثم لقب بالاعمى وساح ايضا بمصر وبلاد اناطولى وغيرهما ولذا كان يعرف اخلاق الناس وعوايدهم واشعاره حماسية فلذلك ترجمت الى اكثر اللغات وكان اسكندر الاكبر يعتنى بقراءتها بل امر بجمعها لانه

بحماستها تعش قلوب العساكر وتبعثهم على الميل الى الحروب وله قصيدتان عظيمتان يعتبران كامهات اشعار اليونان

ايدوارد الثالث

هو ابن الملك ايدوارد الثاني ولد سنة (١٣١٢) بمدينة وندسور وخلف اباه في الحكم سنة (١٣٢٧) وكان ذلك بتحيل امه وتغلب على مملكة ايقوسيا وعزم على عزل فيليش دووالو ملك فرنسا فاضطرمت بينهما نيران الحرب سنة (١٣٤٦) وكانت النصرة لايدوارد فاخذ مدينة كالس وعدة مدائن اخرى وبلما مات فيليش وقع الحرب بين ايدوارد وابن فيليش فهزمه ايدوارد واسره سنة (١٣٥٧) وارسله الى انكلترة ولم يرجع منها الا بعد اربع سنوات

ايقوسيا

هي قسم من بريطانيا الكبرى في شماليها محدود من جهة الجنوب الشرقي بانكلترة ومن سائر الجهات بالبحر واهلها مليون وثمانمائة الف وسهولها كثيرة الخصب وكان يسمى سابقا كاليدونيا وقطرها شديد البرودة في الغالب لكن هواؤه صاف ملايم للصحة وجباله مشحونة بالشجر ويخرج منها خشب العمارات وفيه معادن الفحم والرصاص وغير ذلك ولم تزل ايقوسيا مستقلة برأسها الى ان حكم بها في زمن ملكها ياكوس دوب كوس السادس الذي دعي للجلوس على كرسي انكلترة ولم تنضم ايقوسيا الى انكلترة الا في حكم الملكة آنه ارمانة وتختها مدينة ايدنبورغ

ايلكتور

بكسر الهمزة واللام بينهما مثناة تحتية ساكنة وسكون الكاف وضم المثناة الفوقية معناه منتخب بكسر الخاء والجمع ايلكتورس اي منتخبون وهم جماعة من الامراء كان لهم ببلاد المانيا الحق في انتخاب الامبراطور

امبراطورية

اسم لما عظم من الممالك وبلغ في الاتساع والشوكة والسطوة درجة عالية ويقال لمن تولاه امبراطور وذلك كدولة الرومان في قديم الزمان

حرف الباء

حرف الباء

بابة او بابا

هو اسم لاسقف رومة رئيس الكنيسة الكبرى واصله فى اللغة اليونانية باباس اى الاب وكان سابقا يطلق على الاسقف ايا كان لاسيما اسقف اسكندرية ثم خص باسقف رومة سنة (١٠٧٣) فى ايام اغرغوار السابع

بارون

هو فى الاصل لقب لاكابر المتوسطين ثم صار يلقب به كل ملتزم له ارض التزام وتنسب ارضه اليه فيقال بارونية اى ارض البارون وللانثى بارونة

بحر الخزر وبحر الخزر

هو من بحار اوروبا بين بلاد العجم والموسقو والتتار يكتنفه من اغلب جهاته جبال شاهقة وهو منقطع لا يتصل بغيره من البحور وان زعم بعضهم انه يتصل بالخليج الفارسى بواسطة عيون تحت الارض وعليه يكون بحيرة كبيرة

برغونيا

بضم الباء وسكون الراء وضم الغين المعجمة اسم لاقليم من اقاليم فرانسا القديمة محدود من جهة الشرق باقليم افرنشقنتة ومن جهة الغرب باقليم بربونة ومن جهة الجنوب باقليم ليون ومن جهة الشمال باقليم شمبانيا وقاعدته مدينة ديجون وهو الآن اربع مأموريات

برلمان

بفتح الباء الفارسية وضم اللام بانحصار آه ماكنة كان يطلق فى زمن قدماء الملوك الفرنساوية على الديوان الذى يجتمع فيه اكابر المملكة ليتشاوروا فى شأن المصالح العمومية وهو مأخوذ من برلمانتوم وهى كلمة لاطينية معناها محل المذاكرة او مجلس يجتمع فيه عدة اشخاص للمذاكرة فى المصالح البلدية ويطلق فى بلاد انكلترة على الديوان الذى تجتمع اربابه بطلب الملك وهو مجلسان مجلس للقسيسين والاعيان ويسمى المجلس العالى والآخر لوكلاء الاقاليم والمدن وهو المجلس السافل

بروسة

بضم الموحدة التحتية وسكون الراء وفتح الواو وسكون النون وفتح السين المهملة آخره هاء اقليم فى جنوب فرنسا بجانب البحر تغلب عليه الرومان ثم المسلمون ثم اجلاهم عنه الملك كرلوس مارتيل

البريطريانية

وباقى من العسكر كان بمدينة رومة يحتمى بأسه وسطوته وكان فيها بمنزلة الانكشارية فى القسطنطينية

بريووت

بكسر الباء الفارسية والراء وسكون المثناة التحتية وضم الواو ويقال له ايضا بريووست اسم رجل من فرنسا ولد سنة (١٦٩٧) وكان فى مبدء امره ذا طيش فطرد بذلك من وطنه فكان تارة يذهب الى بلاد هولنده وتارة الى بلاد انكلترة وكان تعيشه من صناعة الكتابة وكان يسمى بريووت اكزيل اى المنفى لاخراجه من وطنه الى البلاد الاجنبية ثم دعى الى بلده سنة (١٧٣٤) ومات سنة (١٧٦٣) وله مؤلفات عظيمة ومصنفات حسنة اعظمها كتاب ذكر فيه اخبار رجل من اهل الفضل اعتزل الناس ولا يخفى ما فى ذلك من الاشارة لنفسه ومنها تاريخ كليولند وكتاب يسمى مالامره وما عليه وتاريخ ادبى جسيم وتاريخ السياحات التى حصلت من ابتداء القرن الخامس عشر وقد كمل هذا التاريخ المؤلف كراون والمؤلف مربرچ واختصره المؤلف لاهرب ومنها تاريخ كرلوس اغرنديسون وله كثير من التآليف غير ذلك وقد ترجم تاريخ عائلة ستورد الملوكية ومجموع تآليفه الكاملة اربعة وخمسون مجلدا

بسوة

بضم الموحدة التحتية وسكون السين المهملة وفتح الواو آخره هاء اسم لمؤرخ شهير ولد بمدينة ديجون سنة (١٦٢٧) وهو عريق الحسب والنسب ذهب الجمعية اليسوعية بمدينة ميتز سنة (١٦٤٢) وفاق الاقران بفضله وكثرة معارفه وشاع

صيته بين الانام ومات بهامشة (١٠٧٤) وله مصنفات عظيمة

بطرس ارميطه ويقال بطرس ارميط

معنى كلمة ارميط بكسر الهمزة وسكون الراء العابد الزاهد وانما لقب به هذا الرجل زهده وتواضعه بالديانة النصرانية حتى انه صار رئيس حروب الصليب بلاد القدس وذلك انه فى اواخر القرن العاشر واوائل الحادى عشر ظهر بين النصارى وهم غريب وهو اعتقادهم ان الساعة قد قربت فصار النصارى ملوكا وسوقة يأتون الى بيت المقدس من كل فج عميق وذهب هذا الرجل ايضا الى ارض القدس سنة (١٠٩٣) ولما رجع اخبر ان النصارى فى كرب عظيم من معاملة المسلمين لهم فعرفت نفس البابا اوربان الثانى من ذلك وارسله الى الاقطار النصرانية ليحكى فيها ما شاهده فصار ينتقل من اقليم الى آخر حتى تبعه من النصارى جيش عظيم فيه اربعون الفا من المشاة وعدد جسيم من الخيالة وسار بهم الى بيت المقدس فلما نظرهم المسلمون صاحوا الله اكبر وحملوا عليهم وفتكوا بهم فولوا الادبار وركنوا الى الفرار وقد حصلت لهم الهزيمة مرارا فعزم بطرس المذكور على اخذ بيت المقدس من المسلمين لكنه هلك فى محاصرته سنة الف وتسعة وتسعين

بغداد

اسم المدينة هى تخت بلاد بغداد يخترقها نهر دجلة ويكتنفها خندق كبير وهى محصنة بمدة ابراج وطوابى عظيمة اسسها خليفة ابو جعفر المنصور وتم بناؤها فى اربع سنوات واهل هذه المدينة ستون الفا

البلاد الواطية

اسم المملكة من ممالك اوروبا محدودة من جهة الشمال ببحر المانيا ومملكة هانوورة ومن جهة الغرب ببحر المانش ومن جهة الجنوب بمملكة فرنسا ومن جهة الشرق بدوقية الرين الاسفل وارضها خصبة وتبلغ فيها الصنايع درجة كمال وبها معادن الفحم وورش القماش والحرير وايرادها السنوى خمسة وسبعون مليونا من القروش

بلرنــة

مدينة عظيمة من مملكة ايطاليا بالبعد عن الشمال الغربي من دوقية برمة باربعة عشر فرسخا وعن الجنوب الشرقي من دوقية ميلان باحد عشر فرسخا وبها كثير من المباني الظريفة المشيدة والكنائس المرونقة المزخرفة واهلها عشرون الفا وتشتمل على فبريقات الحرير والبرانيط وغيرها

البندقية ويقال البنادقة

اسم لمدينة كبيرة ذات ثروة محدودة من جهة الشمال بالبحر الادرياتيق ومبنية على مائة وثمان وثلاثين جزيرة صغيرة وحاراتها ضيقة ومبلطة بعضها بالحجر وبعضها بالرخام وبها مبان شهيرة منها كنيسة سنت مرق وهي مبنية بالحجر والرخام وحواها مائتان وثمانية وثمانون عامودا من الرخام ويجلب الى هذه المدينة من البلاد الاجنبية القماش والسكر والبن وانواع الشراب والزيت والادوية والنيلة والصوف والزعفران والصمغ وغير ذلك وبها فبريقات يصنع فيها انواع الاقمشة الدقيقة كالقطيفة واقمشة الحرير وغيرها وكان تأسيسها سنة (٤٢١) وهي تحت حكومة البنادقة

جمعيات بوليتيقية

بضم الموحدة الفتية منسوبة الى البوليتيقة ومعناها السياسة وذلك لان هذه الجمعيات تتذاكر في شأن ما يخص سياسة الدول والرعايا

بيزة

بكسر الباء الفارسية وسكون المثناة التحتية وفتح الزاي اسم لمدينة عظيمة من دوقية طوسكان على البعد من مدينة ليورنة من جهة الشمال باربعة فراسخ وكذلك من جهة الشرق وبها مبان عجيبة اشهرها الكاتدرال اي الكنيسة الكبرى وكذلك البغروى وهو دار عظيمة كالقبة في الهواء مبنية بالرخام الابيض وارتفاعها مائة قدم

حرف التاء

تاسيت

بمثناة فوقية وسين مهملة مكسورة فمثناة تحتية ساكنة آخره مثناة فوقية مؤرخ شهير من مؤرخى اللاطينيين كان من اعظم اهل عصره حتى انه لمعارفه وصل الى اكبر مناصب الامبراطورية فقد اتحفه الامبراطور وسبازيان والامبراطورتيت بالمناصب الجليلة وله تأليف عديدة مفيدة منها كتابه الذى اودع فيه اخلاق الجرمانيين ومنها تاريخ الامبراطرة وعدة تواريخ اخرى شهيرة غيران بعضها اضاعته صروف الزمان والبعض الآخر موجود ومرغوب الى الآن

التتار

اسم لعدة قبائل مختلفة كل قبيلة منها تسمى باسم يخصها الا انها متحدة فى الاخلاق والعوايد ولهم مهارة فى ركوب الخيل وهم متوحشون كاسلافهم ولما انقرضت الدولة الرومانية تركوا صحاريهم وصاروا كالجراد المنتشر فمنهم من تغلب على بلاد اوروبا وهم الهونيون ومنهم من استولى على بلاد العجم ثم على معظم اناطولى وبعد ذلك تغلب على مدينة القسطنطينية وهم التركمان

تتارستان

هى بلاد التتار وكانت فى القرن الثانى عشر اوسع الممالك واعظمها شوكة وذلك ان الامبراطور جنكيس خان جمع قبائل التتار وجعلها عصبة واحدة فقويت بذلك شوكته وتغلب على بلاد الصين وبلاد العجم وجميع بلاد آسيا من البحر الاسود الى بحر الهند ثم تغلب خلفه على بلاد الموسقو وبلاد پولونيا وجزء من بلاد المانيا ولولم يقع اختلال بين هذه القبائل لتغلبت على بلاد اوروبا بتمامها

توليده اوطوليده ويقال طليطلة

مدينة على نهر تاجه شهيرة بما كابده اهلها من المشاق بعد خروجهم عن طاعة الحاكم بن هشام ثالث خليفة من بنى امية بالاندلس وكانت تخت اسبانيا قبل مدينة مدريد

تيتوليوس

بكسر المثناة الفوقية بعدها مثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية ساكنة فلام مكسورة اسم مؤرخ لاطيني شهير اختلف في منشائه فقيل مدينة بدوو وقيل مدينة ابونة وله تأليف مفيدة اشهرها التاريخ الروماني من تأسيس رومة الى موت القيصر دروزوس في بلاد النمسا ومات هذا المؤرخ بمدينة بدوو بعد الميلاد بسبع عشرة سنة

حرف الثاء

ثاليس

هو احد فلاسفة اليونان المشهورين ولد بمدينة ميليطه قبل الميلاد بستمائة واربعين سنة تقريبا ساح في البلاد عدة سنوات وذهب الى مصر وتعلم فيها العلوم الرياضية ثم عاد الى وطنه وفتح مدرسة ومن تلامذته فيثاغورس وكان له باع طويل في علم الفلك وهو اول من برهن على كسوف الشمس والقمر وهناك ثاليس آخر وهو شاعر يوناني ولد في جزيرة كريد

حرف الجيم

جاليوس الثاني

هو احد بابات رومة ولد في قرية أسبرلة وجعله عمه البابا سكستوا الرابع رئيسا على الجيوش القسيسية سنة (١٤٧١) وارسله الى اقليم اومبرى لتسكين اهله وكانوا قد خرجوا عن طاعة البابا فهزمهم وقمع البغاة منهم وتولى بابا سنة (١٥٠٣) وهو الذى حرض ملوك اوروبا على جمهورية البنادقة فكان سببا في عصبة كبيرة به الشهيرة ومات سنة (١٥١٣)

الجمعية الجرمانية

ويقال لها المعاهدة الجرمانية وهى كناية عن اتفاق ملوك المانيا على ان يكونوا جريدة واحدة بحيث يكون من تعدى على واحد منهم كأنه تعدى على الجميع وكان رئيس هذه المعاهدة امبراطور النمسا

جنوبرو ويقال جنوبرة

بفتح الجيم وسكون النون وكسر الواو بعدها مثناة تحتية آخره زاى اسم لدوقية عظيمة كثيرة الجبال المشحونة بالغابات والاشجار وبها مروج وسهول لطيفة وقطرها معتدل وفيها بعض معادن من الرخام والمرمر الابيض وكانت سابقا جمهورية عظيمة ذات تجارة كبيرة وكانت تحت حكم الوطنيين ثم اخذها منهم اللمبرديون وهدمت من ذلك الوقت الى ان بناها الملك كرلوس ماتوس واضافها الى مملكة الفرنسيس ثم فتحها المسلمون فى القرن العاشر وقتلوا رجالها ونساءها واطفالها ثم اخذت فى العمار ثانيا وصارت زاهية زاهرة تجارتها وسايعها حتى صارت تساعد ملوك النصارى فى الحروب الصليبية الا ان ثروتها جعلتها مطمع نظر الحاسد فصارت تنتقل من غزوة الى اخرى حتى وقعت فى اواخر القرن الرابع عشر تحت حكم كرلوس السادس ملك فرنسا ثم خرجت عليه بعد ذلك بمدة قليلة ودخلت فى حكم كرلوس السابع ثم قامت عليه ايضا وعادت الى ما كانت عليه من حريتها القديمة وصارت تحكمها المملكة المدرودرية الى ان قتلت سنة (١٦٨٤) بامر الملك لويز الرابع عشر

حرف الدال

دلماسيا

بفتح الدال المهملة وسكون اللام وفتح الميم بعدها الف فثلثة مكسورة فمثناة تحتية مفتوحة اسم لولاية عظيمة فى شرقى خليج البنادقة ويحدها من جهة الشمال اقليم بسنية ومن جهة الشرق اقليم سروية ومن جهة الغرب والجنوب البحر ويكثر بها النبيذ والقمح والمواشى والزيت والثمار وغير ذلك

دوفين

بضم الدال المهملة وسكون الواو وكسر الفاء بعدها مثناة تحتية ساكنة فنون اسم للابن البكرى من اولاد ملوك فرنسا ويقال لزوجة الدوفين دوفينة

ديت

بكسر الدال المهملة بعدها مثناتان تحتيتان اولاهما مكسورة والثانية ساكنة آخره مثناة فوقية اسم لشورة وكلاء المملكة ببلاد المانيا وبلاد بولونيا وبلاد اسوج

حرف الراء

روسيلون

اقليم من اقاليم فرنسا محدود من جهة الشرق بالبحر الابيض ومن جهة الغرب باقليم سردانيا ومن جهة الشمال باقليم لعيد ومن جهة الجنوب باقليم قتالونيا وقد ضم الآن هذا الاقليم اى اقليم روسيلون الى اقليم سردانيا وصارا اقليما واحدا يقال له البيرنة

رومة

بضم الراء اسم لمدينة شهيرة من بلاد ايطاليا وهى كرسى البابا ويشقها نهر تبرة الى قسمين يتصلان ببعضهما بواسطة اربع قناطر عظيمة ولها سور حصين يبلغ محيطه خمسة فراسخ وليس لها نظير فى حسن مبانيها القديمة وبهائها ويعسر على الانسان ان يعرف مقدار الاعمدة والهياكل والكنائس والحنفيات المزخرفة والهياكل الفاخرة القديمة الموجودة بتلك المدينة التى اسست قبل الميلاد بسبعمائة واثنين وخمسين سنة

رمولوس

بضم الراء والميم واللام اول ملوك رومة وهو الذى اسسها واتقن قوانينها الداخلية واحكم ترتيباتها مات قبل الميلاد بسبعمائة وخمس عشرة سنة بعد ان حكم سبعة وثلاثين عاما

حرف السين

سقراط

ولد بمدينة اثينا قبل الميلاد باربعمائة وتسع وستين سنة وكان فى مبدء امره يشتغل بصنعة ابيه وهى النحت ثم تركها وتولع بالفلسفة وبلغ فيها درجة الكمال حتى تخرج عليه فلاسفة مشاهير منهم زينوفون وفلاطون

السنات ويقال اسنت

بتشديد السين المهملة المكسورة وفتح النون وتسكين المثناة الفوقية اسم لمشورة كانت عند الرومان سابقا يجتمع بها اكابر الدولة للمذاكرة فى شأن المصالح المهمة ويطلق فى بعض البلدان على محكمة ملوكية تقام بها الدعاوى

سوابه

بضم السين المهملة وفتح الواو والموحدة التحتية اسم لقسم عظيم من بلاد المانيا محدود من جهة الشمال باقليم ران الاسفل واقليم فرنكونية او فرنكونيا ومن جهة الغرب بنهر الرين ومن جهة الشرق باقليم باورة من جهة الجنوب ببحيرة كونستنسه ونهر الرين وجزء من ولاية تيرول

السويسة

مملكة فى اوروبا محدودة من جهتى الشمال والشرق ببلاد المانيا ومن جهة الغرب بمملكة فرنسا ومن جهة الجنوب بمملكة ايطاليا وهى اكثر ممالك اوروبا جبالا وبها كثير من البحيرات والانهار لان ارضها فى الغالب مجدبة وان كانت زراعاتها كثيرة

سيسرون ويقال قيقرون

بكسر السين المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة ثم سين مهملة مكسورة ثم راء مضمومة اسم لرجل عظيم من ادباء الرومان ولد بعد مضى ار بعين وسبعمائة سنة (٦٤٧) من تاسيس رومة اشتهر بالخطابة والكرم والاصابة حضر على اشهر العلماء بمدينة رومة حتى انه فى اول خطبة خطبها فى المحافل العمومية اخذ بعقول الناس ومع ذلك سافر الى بلاد اليونان ومكث بمدارس العلوم والآداب بمدينة اثينة عند علمائها النجباء ولكن كان يرى فى معارفه قرناؤهم لا تلميذا وقد خطب خطبة فى جزيرة رودس اودع فيها من الفصاحة والبلاغة ما جذب اليه القلوب حتى ان بعض معلميه المشهورين وهو ابولونيوس مولون قال فى شأنه ما معناه وا حسرتاه على بلاد اليونان قد هزمت بجند الرومان

وهاهي الآن قد اشرفت على الهزيمة في ميدان المصاحبة بخبابة فيقرون
انتهى مات قبيلا قبل الميلاد بثلاث واربعين سنة و يوجد له الآن مؤلفات
جسيمة صحيحة

حرف الشين

شرلمانيا ويقال كرلوس مانوس

هو كرلوس الاول ملك فرنسا ولد سنة (٧٤٢) تقريبا وملك بعد موت ابيه
على جميع بلاد فرنسا وهزم السكسونيين عدة مرات وجبرهم على التمسك
بدين النصرانية ثم انتقل الى ولاية لونباردنيا وهزم ملكها المسمى ديديه
وصار مالكا عليها ثم انتقل الى اسبانيا وانتصر فيها واخذ منها عدة مدن واحيى
علوم الآداب وغيرها فن ثم كان يلقب بمحيي العلوم والآداب مات سنة
(٨١٤) بعد ان قسم ممالكه بين ابنه لويز وحفيده برنارد

امارة الشوالرى

بضم الشين المعجمة وفتح الواو وضم اللام بعدها راء اسم لرتبة شريفة كانت
محترمة ذات رسوم وصيات ومزايا جليلة حتى ان الملوك كانوا يتشرفون
بانتظامهم في سلك اربابها كما فعل الملك فرنسيس الاول ولذلك لا يطلق الآن
لفظ شوالير الا على الاكابر والمحترمين العظام

حرف الصاد

صلاح الدين

هو الناصر يوسف بن ايوب سلطان مصر والشام واصله من الاكراد ثم دخل
مع اخيه في خدمة السلطان نور الدين سلطان الشام فلما طلب العاضد لدين
الله عبد الله بن يوسف احد خلفاء الفاطميين بمصر الاعانة من السلطان
نور الدين امده بجيش وجعل صلاح الدين واخاه رئيسين عليه فلما وصلا
بالجيش الى مصر جعل العاضد صلاح الدين وزيرا واميرا على عساكره ومات
العاضد بعد ذلك بيسير فملك صلاح الدين على مصر ثم مات السلطان نور الدين
وكان له ولد قاصر فصار صلاح الدين وصيا عليه واخذ رتبة قوانين عظيمة

عكمة ثم استولى على الشام و بلاد العرب و بلاد العجم وسار لاخذ بيت المقدس من النصارى فانتصر على جميع ملوكهم نصرة عظيمة سنة (١١٨٧) واخذ منهم بيت المقدس سنة (١١٨٨) ثم مات وله من العمر سبع وخمسون سنة حكم فى مصر اربعا وعشرين سنة وفى الشام تسع عشرة واعقب سبعة عشر ولدا من الذكور تقاسموا ممالكه بعده

حرف الغين

اقليم غرناطة

هو ببلاد اسبانيا وهو آخر ممالك الاسلام بها وقاعدته مدينة غرناطة وقد خرج منها عدة مؤلفين منهم صاحب ايجاز الطب وهو يوسف ابن الغرناطى وصاحب احكام القرآن وهو عبد المنعم بن محمد بن عرس الغرناطى

غوتيون او غوطيون

اسم لامم كانوا اولا بشمال اوروبا فى بلاد اسوج و بلاد الجرقة ثم انفصلوا عن بعضهم فى القرن الرابع وصاروا قسمين احدهما يسمى اوستروغوطيين والثانى يسمى وزيغوطيين او ويسيغوطيين وهم الذين تغلبوا على الامبراطورية الرومانية وسلبوا اموال رومة وخربوها

غودفرواد بوليون

بضم الغين المعجمة وسكون الدال المهملة وضم الفاء وسكون الراء وفتح الواو بعدها هو ابن القومنة اوستاش الثانى ولد قبيل منتصف القرن الحادى عشر وقد ظهر منه وفور الشجاعة والبراعة فقلد رياسة العساكر فى الغزوات الصليبية

الغولة او الغلية

اسم لامة من الامم القديمة المتبربرة كانت مشهورة عند اليونان باسم السلت وتغلبت على بلاد جرمانيا و بلاد ايبيرية او ايبيريا وكان الرومانيون يخشون بأسها لانها كانت فى الحرب لا تبقى ولا تذر

حرف الفاء

فبوس بيتور

بفتح الفاء وسكون الموحدة التحتية وضم المثناة التحتية اسم لمؤرخ من الرومان وهو اول من كتب تاريخ وطنه من الرومان كان موجودا قبل الميلاد بمائتين وست عشرة سنة اعنى بعد تأسيس رومة باكثر من خمسمائة سنة

فرديند

بكسر الفاء وسكون الراء وكسر الدال المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة ونون مفتوحة بعدها نون ساكنة بعدها دال مهملة اسم ملك البرتوغال خلف اباه سنة (١٣٦٧) على المملكة وتولى ملكا على قسطيلة ايضا بعد موت ملكها بطرس الجبار فاضطرمت نيران الحرب بينه وبين الملك هنرى دوترستامار وخرب هنرى المذكور بلاد البرتوغال ولم يقبل الصلح الا على شرط ان يتزوج بابنة فرديند

فرمان الذهب

هو اسم للقوانين التى كانت تصدر عن بعض الاپيراطرة فيقال مثلا القانون الذى رتبه الاپيراطور كرلوس الرابع فرمان الذهب وهو مبنى قول الافرنج بولدور وكان من جملة ما تضمنه هذا القانون كيفية انتصاب الاپيراطرة

فرنسا

مملكة عظيمة من ممالك اوروبا محدودة من جهة الشمال بمملكة البلاد الواطية ومن جهة الشرق بجبال الپه وجبل يوره الفاصل بينها وبين بلاد السويسة ومن جهة الجنوب ببحر سفيد ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطيق وارضها خصبة واهلها ارباب نشاط وفطنة وشجاعة وفنون وصنايع وبها كثير من المدارس ودواوين العلوم ويكرم بها اهل الفضل ولكن طالما كابدت مصائب ومشاق فى ايام الاشراف والحكومة الالتزامية فبعدما كانت فى الزمن السابق ادون ممالك اوروبا صارت الآن اسعدها واحسنها ومنشأ ذلك تقدم اهلها فى العلوم والحرف والصنايع

فرنسيس الاول ويقال فرنسوا

هو احد ملوك فرنسا ولد بمدينة قوناقة سنة (١٤٩٤) وتولى على المملكة بعد موت زوج امه لويز الثاني عشر ولما مات الامبراطور مكسيمليان اراد فرنسيس المذكور ان يتغلب على مملكته فلم يمكنه ذلك بل احدهما شرلكان فصار بينهما نار الحرب وانهزم فرنسيس بعد ان كابد اهوالا ومشاق عظيمة واخذه شرلكان اسيرا عنده فكتب لامه يقول قد فقدنا كل شئ ماعدا الشرف ولم يخلص من الاسر الا بشروط صعبة وكان موته سنة (١٥٤٧)

فرنكونيا

بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف قسم من بلاد المانيا محدود من جهة الشمال بولاية تورنجة ومن جهة الشرق بمملكة بوهمية ومن جهة الجنوب بمملكة سوابة ومملكة باويرة ومن جهة الغرب باقليم رين الاعلى و يخرج بارضها القمح والثمار وتكثر بها المروج اللطيفة وكان عدد اهلها يبلغ مليونا ونصفا وفي سنة (١٨٠٦) قسم جزء منها الى مملكة ورتمرغ وجزء الى دوقية بادة الكبرى واجزاء الى مملكة هيس واعطي جزء لعائلة سكس الملوكية وهو قوبية همبرغ وما بقي اضيف الى مملكة باويرة

فلسطين

اسم لولاية من بلاد اسيا محدودة من جهة الشمال ببلاد الشام ومن جهة الشرق بالجبال التي خلف نهر الاردن ومن جهة الجنوب ببلاد العرب ومن جهة الغرب ببحر سفيد وفيها من العجائب الطبيعية والاصطناعية امور شتى

فلورنسة

بضم الفاء واللام وفتح الراء وسكون النون اسم لمدينة هي قاعدة دوقية طوسكان ببلاد ايطاليا موضوعة في وادلشر طريف وفيها عدة كنيسات وكنيسات وقصور منيفة وبساتين انيقة ظريفة واهلها يعانون الصنايع كثير من الفبريقات وتجارتها عظيمة

فلون

بكسر الفاء والون وضم اللام اسم لاديب شهير ولد سنة (١٦٥١) ولما بلغ من العمر تسع عشرة سنة صار في الخطابة والوعظ بمكان عظيم حتى شهد له الناس بالفضل والمهارة واستمال قلوبهم بحسن فصاحته وبديع بلاغته حتى ان الملك لويز الرابع عشر اختاره في سنة (١٦٨٩) لتربية حفدته ودعي الى غير ذلك من المناصب الشريفة وله تآليف عظيمة في الفلسفة وما فوق الطبيعيات والآداب ومن مؤلفاته الادبية كتابه المعروف بوقائع تليماكوس وهو كتاب نفيس عظيم الفائدة يحث على اتباع الفضيلة والتودد والمروءة وعدم الميل الى الشهوات النفسانية فهو عظيم لتعليم الصبيان وهدية لابناء الملوك والاعيان وقد ترجم الى اللغات الاجنبية وكان موت فالون المذكور سنة (١٧١٥)

فيليبش لو بيل

هو فيليبش الرابع ولو بيل لقبه ومعناه الظريف وكان ملكا على بلاد فرنسا ونوار ولد سنة (١٢٦٨) وتولى على المملكة بعد موت ابيه سنة (١٢٨٥) واخذ بلاد غينة من ابدوارد الاول ملك الانكليز سنة (١٢٩٥) وانتصر ايضا نصرة عظيمة على الانكليز والفلمنك سنة (١٢٩٦) ومات في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة (١٣١٤)

حرف القاف

قاقون ويقال قاطون

اسم لمؤرخ كان موجودا سنة (٧٠٠) من الميلاد واسمه الاصلي ماريوس قاطون

قرطاجنة

مدينة شهيرة ببلاد افريقة كانت سابقا كمدينة رومة وصارت الآن خربة لم يبق الا آثارها وهي على البعد عن تونس باربعة فراسخ

قمبانيا او كمبانيا

بضم القاف وسكون الميم جمعية منعقدة للتجارة وتجمع على قمبانيات

قونتيسه

اسم لزوجة القونت ويطلق ايضا على امرأة لها ارض تسمى قونتية وهو من الالقاب الامرآء يلقب به من هو فى المرتبة الثالثة من مراتب الشرف

حرف الكاف

كرلوس السابع

هو ابن الامبراطور ليو بولد ولد سنة (١٦٨٥) وتولى امبراطورا على بلاد المانيا سنة (١٧١١) ومات سنة (١٧٤٠) وهو سادس امبراطور خرج من عائلة اوستريسيا وآخر امبراطورتها

كولونيا

اسم لمدينة فى بلاد البروسيا كانت سابقا تخت اقليم كولونيا وهى على شاطئ نهر الرين واعلب حاراتها ضيقة مظلمة وبيوتها رديئة البناء واعظم مبانيها الكنائس وفى زخرفاتها عدة انواع من الاسطرة القديمة التى تشوق النفس لرؤيتها ويوجد فى المدينة معامل الدخان وورش القطن والقطيفة وغير ذلك واهلها تسعة وثلاثون الفا

حرف اللام

لوبك

مدينة فى المانيا اسسها القونت آدولف الثانى سنة (١١٤٠) محكمة البناء نظيفة العمارات كانت سابقا من اعظم مدن المانيا ثم نقصت عما كانت عليه وان كانت تجاراتها عظيمة الى الآن فقد كانت فى الزمن السابق كثيرة القلاع والحصون ثم انهدمت فى واقعة سنة (١٨٠٦) ولم يبق بها سوى الاسوار وبها معامل السكر وانشة الصوف والحرير وانشة الشراعات وبها ايضا معامل الدخان والصابون والنشيان وغير ذلك واهلها اربعون الفا

لومبرديه ويقال لمبرديه ولمبرديا

بضم اللام وسكون الميم او الواو والميم بعدها باء موحدة تحتية مفتوحة وراء ساكنة فدال مهملة مكسورة اسم لامة كانت فى الاصل بشمال اوروپا مقيمة بجزيرة

سكندناوة ثم ترك بنو ... حتى دخل ... بلاد
ايطاليا لمقاتلة الغوطيين واعطاهم ثيودريك قديم نوريكة واقليم بانونية
الاعلى ولازالت من يومئذ تزداد قوة وشوكة حتى تغلبت على بلاد العلية
وسنت سهام المكة وجعلت كرسيها مدينة بادية وداود كر بعضهم ان المجر
في الاصل من بلاد التتار

لويز التاسع وهو سنت لويز اى لويز القديس

هو احد ملوك فرنسا وهو ابن لويز الثامن ولد سنة (١٢١٥) وتولى المملكة سنة (١٢٢٦) وكان ابن العربكة يحب اهل الفضل والمعروف وكان له شهامة عظيمة في الحرب وانتصر في عدة غزوات وتوجه الى مصر وتملك على مدينة دمياط سنة (١٢٤٩) غير انه غلب في بندر المنصورة واسر هو ومن معه من الفرنسيين وعطب جيشه ففدى نفسه بتسليم مدينة دمياط وفدى من معه من الاسرى بمبلغ جسيم من الاموال ثم سار الى فلسطين ومنها الى فرنسا واجتهد في اصلاح مذهب دولته مدة غيبته ونشر بين رعيته الوية العدل ثم ذهب سنة (١٢٧٠) الى بلاد افريقة وحاصر مملكة تونس واستمر قائما بعد محاصرتها ايام ثم مات تلك البلاد في السنة المذكورة بمرض الوبا في اصابه وكاد يهلك جيشه

لويز الحادي عشر

كان ملكا على فرنسا وهو ابن كرلوس السابع ولد سنة (١٤٢٣) وتولى المملكة سنة (١٤٦١) وصار يظلم الفرنساوية ويكلفهم من الفرد والغرامات مالا يطيقون حتى افتقر اكابرهم واعيانهم وتعصب عليه الناس فابطل تعصبهم باعطائه لكل رئيس من رؤساء العصبة ما كان يطلبه وله غزوات عديدة مع الانكليز ومات سنة (١٤٨٣)

لويز السابع

هو ايضا من ملوك فرنسا وهو ابن لويز السادس الذي كان يلقب لوغروس اى الغليظ ولد سنة (١١٢٠) وتولى المملكة بعد ابيه سنة (١١٣٧) وكان

قد حكم مدة بعض سنوات وحصل له حرب عظيم اذى به وبمملكته الى حد انه سنة وكان سببه تيبون الثالث قونتة شمبانيا فانتقم منه هذا الملك انتقاما شديدا واخذ منه مدينة وترى وحرقها بالنار سنة (١١٤١) واهلك اهلها عن آخرهم ثم لامته نفسه على ذلك وضاق صدره من هذه الخطيئة فبحث عما يكفر ذنبه فافاده القديس برنارد ان مثل هذا الذنب لا يكفره الا زيارة بيت المقدس فعزم أن يعين المجاهدين النصارى على حماية الارض المقدسة وسار اليها سنة (١١٤٧) ومعه جيش يبلغ ثمانين الفا ومع ذلك هزمته عساكر الاسلام وعاد الى بلاده ومات بمدينة باريس سنة (١١٨٠)

لوير العاشر

هو ملك فرنسا ونوار خلف اباه في الملك سنة (١٣١٤) ودعا اليهود الى الاقامة بمملكته ووقع بينه وبين قونتة الفلنك حرب لم ينجح فيه ومات في مدينة وينسنة سنة (١٣١٦)

لوير لوغروس اى الغليظ

هو لوير السادس ابن فيليبش الاول ملك فرنسا ولد سنة (١٠٨١) وقيل سنة (١٠٧٧) وتولى المملكة سنة (١١٠٨) وفي مبدء حكمه اخذ في القتال مع عدة من الملتزمين كانوا خارجين عن طاعته ومكث ثلاث سنوات وهو يبذل جهده في اذلالهم حتى اخذ سنة (١١١٥) قلاعهم وهدمها ثم انعقد الحرب بينه وبين هنرى الاول ملك الانكليز ومازال الحرب بينهما الى حكم الملك كرلوس السابع وكان موت لوير المذكور سنة (١١٣٧) بعد ان مكث سنتين مقعدا

ليزيتاجنرو

بكسر اللام وسكون المثناة التحتية وكسر الزاى بعدها مثناة تحتية ساكنة ثم مثناة فوقية مفتوحة ثم جيم ونون مكسورتان وراء مضمومة معناه مشورة العموم او مشورة وكلاء المملكة وهى مشورة تنعقد فى ممالك اوروبا لاجل مصالح الرعايا وانما سميت بمشورة وكلاء المملكة لان اربابها يحضرون من الاقاليم بطريق الوكالة عن الاهالى

حرف الميم

ميلون و يقال ماييلون

بميم مفتوحة فوحدة تحتية مكسورة ولام مضمومة اسم لمؤلف شهير ولد سنة (١٦٣٢) وبعث الى بلاد اليمن سنة (١٦٨٣) يبحث عن شئ منه تاريخ فرنسا وساح في ايطاليا سنة (١٦٨٥) وكانت مصاريفه على طرف الملك ثم عاد الى فرنسا بفوائد عظيمة وثمرات جسيمة ومات بمدينة باريس سنة (١٧٠٧)

المجار

بفتح الميم والجيم اقليم كبير في بلاد اوروبا محدود من جهة الشمال باقليم غاليسيه ومن جهة الشرق باقليم الوالاشى ومن جهة الجنوب ببلاد الترك ومن جهة الغرب ببلاد المانيا واهله ملاح القدود شجعان محرصون على الانتقام والاخذ بالثار متدينون بالدين القاتوليقي غير ان دائرة العلوم والمعارف عندهم ضيقة وقاعدة هذا الاقاليم مدينة بست

السلطان محمد الثاني

يقال له السلطان محمد الاكبر ولد بمدينة ادرنة سنة (١٤٣٠) من الميلاد وخلف اباه وهو السلطان مراد الثاني سنة (١٤٥١) وبمجرد تسلطنه تعلقت آماله بقتال اليونان فحاصر القسطنطينية وفتحها عنوة سنة (١٥٤٣) وحاصر ايضا بلغرادة واستولى على قورنثة وشن الحرب على بلاد مورة وفتح ايضا مدينة طرابوزان وغيرها وأغار سنة (١١٧٠) على جزيرة اغريبوزة التي يقال لها في بعض الكتب العربية نغربنت واستولى على قاعدة مدنها وبعد ذلك بعشر سنوات ارسل عمارة سفن كبيرة الى جزيرة رودس وفرغت منه بلاد ايطاليا وبلاد اوروبا وآسيا ولم يتقدمه من الامونة فانه كان يضاهي اسكندر الاكبر وكان موته سنة (١٤٨١) من الميلاد واستغرقت مدته احدى وثلاثين سنة

المشورة الاوليقية

هي مشورة وظيفتها بت الحكم في سائر ما يقام فيها من الدعاوى ومتى حكمت بشئ فلا يمكن نقضه وتطلق ايضا على مشاور خصوصية لبعض ملوك الدنيا

مقدونيا

اقليم شهير ببلاد اوروبا محدود من جهة الجنوب باقليم تساليا وجزائر الارخبيل ومن جهة الشرق باقليم تراسة ومن جهتى الشمال والغرب بسلسلة جبال فاصلة بينه وبين اقليم بلغار وهو جزء من بلاد روملي ويسمى عند الترك فليب ولايتي اى ولاية فليب لانه وطن فيليش ابي اسكندر الرومى المشهور

مورة

شبه جزيرة في جنوب بلاد اليونان محدودة من جهة الشمال بجون لبنته ومن جهة الشرق بجون اثينا وجون نابولى ومن جهة الجنوب بجون قرلوشية وجون قورون ومن جهة الغرب بخليج اركاديا وكانت تشتمل سابقا على عدة بلاد كثيرة العمران ومعظم ارضها جبلية الا ان فيها كثيرا من السهول اللطيفة والاودية النضرة الخصبة ويزرع بها القمح والعنب والتمر وهى من اصلح البلدان واحسنها وضعا بالنظر للتجارات البحرية وبها عدة مينات لطيفة كمينا بتراس ومينا قورون ومينا ناوارين الشهيرة بالواقعة العجيبة التى حصلت عن قريب بين السلطان محمود وملوك الافرنج الذين استعان بهم اهل مورة بعد ان كانت قواهم بجيوش صاحب السعادة ولى مصر وشبله ابراهيم ضرغام العصر ومفتاح النصر

مونتسكيو

بضم الميم وسكون الواو والنون وكسر المثناة الفوقية وسكون السين المهملة بعدها كاف مكسورة فمثناة تحتية مضمومة اسم لمؤلف شهير ولد سنة (١٦٨٩) وتعلقت اماله بالتأليف حين بلغ من العمر عشرين سنة فالف تآليف نفيسة منها كتابه المسمى روح الشرائع وكتابه المسمى بالمراسلات

الفارسية والكتاب الذى بين فيه اسباب تقدم دولة الرومان واضمحلالها وقد ساح فى بلاد اوروبا ولاحظ فى سياحته ما يلايم كل مملكة من الممالك التى سافر اليها فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد الانكليز تصلح لقدح الذهن واعمال الفكرة وبلاد فرنسا للمسرة وطيب العيش

مونرشيكى

بضم الميم وسكون الواو وفتح النون وسكون الراء وكسر الشين المعجمة والكاف بينهما مثناة تحتية يقال حكومة مونرشيكية اى ملوكية اى مملكة يحكمها ملك ويقال حكومة ديموقراطية اى جمهورية يحكمها اهلها من غير ان يكون لهم ملك ويقال ايضا حكومة ارستوقراطية وهى التى يكون الحكم فيها للاكابر والاعيان

دوقية ميلان ويقال ميلانيس او ميلانيز

اسم لقسم عظيم من بلاد ايطاليا تنازع عليه امرأة عائلة سفورس والملك لويز الثانى عشر مدة مستطيلة فى اوائل القرن السادس عشر وبعد لويز المذكور حصل النزاع عليه بين الامرأة المذكورين والملك فرنسيس الاول ولم ينجح فى ذلك لما ان الايمبراطور شرلكان اخذ هذه البلاد تحت حمايته لانها كانت من جملة التزامات ايمبراطوريته ثم آل امرها الى ان صارت من جملة اراضى شرلكان

حرف الهاء

هزيودوس ويقال هزيود

هو رجل شهير من شعراء اليونان ولد بمدينة كومة وهو اول من تكلم فى علم الزراعة نظما لطيفا حتى ان فيرجيل اشار عليه بان يامر تلامذته بحفظ تلك المنظومة وله عدة تآليف نفيسة قيل انه مات قتيلا قتله اللوكريانيون وألقوه فى اليم

همبورغ

مدينة في بلاد المانيا ذات تجارة عظيمة وحاراتها ضيقة وبيوتها عالية جدا اسمها الايمبراطور كرلوس مانوس

هنري الاول

هو ابن هونون دوق سكس ولد سنة (٨٧٦) وخلف كونراد ملك جرمانيا سنة (٩١٩) وكان ذا مهارة ونشاط حتى انه رتب قوانين بديعة النظام وانشأ عدة مدن حصينة وهزم البوهيميين والاسكلاوونيين والدانيمرقيين وكذلك المجار سنة (٩٣٤) بمدينة مرسبورغ وشن الغارة على مملكة لوديب ومات سنة (٩٣٦)

هنري الثالث

هو ابن الايمبراطور كونراد الثاني ولد سنة (١٠١٧) وخلف اباه في الايمبراطورية سنة (١٠٣٩) ووقعت له حروب مع اهل بولونيا وبوهيمية والمجار ومات سنة (١٠٥٦) بمدينة بوتغلدة في مملكة سكس

هنري الخامس

ابن تاج الملك سنة (١٤١٥) وتغلب على بلاد نورمنديا ومات وعمره ست وثلاثون سنة

هنري السادس

هو ابن هنري الخامس خلف اباه في ممالكه سنة (١٤٢٢) وهو ابن عشرة اشهر وكان وصيه على فرنسا الدوق بيدفورد ووصيه على بلاد انكلترة الدوق غلوستير لكن فيما بعد ضاعت منه هاتان المملكتان واخذ اسيرا وسجن في برج بمدينة لندرة حتى قتله غلوستير في السجن سنة (١٤٧١)

هوغس كابيت

هو اول ملوك الدولة الثالثة من دول فرنسا فلذا تنسب اليه فيقال الدولة الكابيتية وتملك على فرنسا لما حازه من وفور الشجاعة وجيد الخصال ومعنى كابيت الرأس الكبير قيل لقب به لكبر رأسه وقيل لعظم قريحته وحدة ذهنه ولد سنة (٩٤٢) وتولى ملكا على فرنسا سنة (٩٨٨) ومات سنة (٩٩٦)

هوم

بضم الهاء وسكون الواو رجل شهير يسمى داود هوم ولد سنة (١٧١١) في مدينة ايدمبورغ بمملكة ايقوسيا وهو من عائلة فقيرة اشتغل اولا بالفقه والاحكام ثم تعلق بالآداب والفلسفة وصرف همته في السياسة حتى انه استخدم فيما بعد بوظيفة كاتب سر الجبة الامبرمات كابروغيره ثم تخلى بالكلية عن المصالح العمومية ومات سنة (١٧٧٦) وله تآليف عظيمة في الفلسفة والآداب والسياسة والتواريخ بل وفيما فوق الطبيعيات وترجمت جميع كتبه من لغته الانكليزية الى غيرها من اللغات الاجنبية لكونها كثيرة الفوائد غزيرة الفرائد

هيلانيكوس

بكسر الهاء اسم لمؤرخ شهير من اليونان ولد قبل الميلاد باربعمائة واحدى عشرة سنة وله مؤلفات عظيمة تكلم عليها المؤلف هيرود

حرف الواو

ورجيل

بكسر الواو وسكون الراء وكسر الجيم اسم لشاعر لاطيني شهير ولد قبل الميلاد بسبعين سنة ومارس العلوم والآداب وسافر لتحصيلها في عدة مدن ثم ذهب الى مدينة رومة فلقي فيها بالترحيب والاكرام من فضلائها واعيانها لاسيما القيصر اوغسطوس وكان من شيمته التواضع والخمول مع انه كان من عظماء اهل عصره وكان بمكانة جليلة عند الرومان مات بعد الميلاد بتسع عشرة سنة

ولتير

بضم الواو وسكون اللام وامالة المثناة الفوقية بين الفتحة والكسرة عالم فلسفي شهير ولد سنة (١٦٩٤) لكن الشئ اذا تجاوز الحد رجع الى الضد وكان الجهل مضرا فكذلك مقابله اذا صاحبته اساءة الغير وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح في الاديان بل وفي كثير من ملوك عصره فعوقب بالطرد

عن

عن وطنه وعن كل موضع اراد النزول به ومع ذلك فلم يزل يسخر من لب من ويعيب عوايدهم وادبانهم مات سنة (١٧٧٨) وله مؤلفات عديدة منها كتاب تاريخ كرلوس الثانى عشر الذى ترجم الى العربية وسمى بمطالع شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر ولكن قل من كان يثق بنا كيف هذا الرجل العجيب

الوندال

بفتح الواو وسكون النون اسم لامة من الجرمانيين كانت على شواطئ
بحر البلطيق ثم اغارت على بلاد الغلية وطردت الرومان من اسبانيا
واسست فيها مملكة الاندلس ثم اجلاها عنها القوطيون
فبرزت كالجراد المنتشر على مملكة الرومان تخربها
ومحت منها الفنون عن آخرها

وقد يسر الله سبحانه وتعالى تتميم ترجمة هذا الكتاب وتعريبه ❋ وتحريره حسب الامكان وتهذيبه ❋ على يد ناظر مدرسة الالسن ورئيس قلم الترجمة حماه بحمد الله تعالى من كتب التواريخ المهمة ❋ وكان حريا بالظهور فى دولة الداورى ولى النعمة

وقد طبع بمطبعة صاحب السعادة الابدية التى انشاها ببولاق مصر المحمية
لثلاث خلت من صفر الخير سنة ١٢٥٨

DEI SVB NVMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 065697813